

إسحاق هاشم باشا

أَنْشُؤُهُ

(مُعَامَلَةُ)

ترجمة: وليد تحفاه

قبل قراءة الرواية

جميع من يقرؤون باللغة الأم، على ما أتوقع، يعرفون الكاتب الكبير إسحاق ماشباش. بل تعلموا القراءة بها من خلال كتاباته الروائية والشعرية. وقد تداولنا، ونحن شباب، مجموعته الشعرية "السحب تستقر على الأرض" وحفظنا بعض ما فيها. وقد روى لنا الكاتب معتداً أنه، وهو يُشيد شيئاً منها على المحتفين به في دمشق عام 1969، نسي فجأة الأبيات التالية فما كان من أختنا وصديقنا حسن طامزوق إلا أن أسعفه فأكملها عنه.

كان لقاؤنا بالكاتب في زيارته إلى دمشق في ربيع ذاك العام حافزاً لنا بعدما تعرّفنا شخصيته عن كتب على متابعة كتاباته التي ربما غطّت على كتابات غيره، وهذا ما يحدث في أي أدب وبأي لغة، حتى نتاجاته المتأخرة: خان جري، وعائشة، والشرق والغرب، ورَدَد...

لا أريد الدخول في تفصيلات عن أدبه فهناك دراسات عنه من أشخاص متخصصين في أدبه، غير أنني لا بد أن أنوّه بريادته للرواية الفنية الشركسية. وأُلح على "الفنية" بالمفهوم الغربي للرواية لأنّ غيره قد يكون سبقه إلى كتابة الرواية. وأنوه أيضاً بما يسمى في العربية بـ"تطويع اللغة" الشركسية لتكون لغة رواية، لا لغة حكايات فحسب، وليس هذا بالسهل. ويعرف قراء الرواية العربية أن هذين الأمرين: الفنية والتطويع، عمِلَ فيهما عشرات الروائيين العرب، وعلى مدى عقود من السنين، حتى استوت الرواية العربية على ما هي عليه اليوم.

وإسحاق ماشباش كاتب محترف بمعنى الكلمة، ولذا بقي أن أشير إلى بعض ما هو خاص به وبالرواية: سيلاحظ القارئ أسلوباً متميزاً في إدارة الحوار بين أكثر من شخصين في وقت واحد؛ وهذا ما يحتاج إلى علامات تنقيط خاصة، ولاسيما الخطوط التي تعني انتقال الحوار من شخص إلى آخر. ويتطلب هذا

الأسلوب الذي آثرُ المحافظة عليه رغم صعوبته في البداية على سبيل الأمانة لـ "براءة الاختراع" إن صح التعبير، انتبهاً ومتابعة من القارئ. وسيتوقف القارئ أيضاً مختاراً أمام تغيُّر أسماء بعض الشخصيات، وعلى سبيل المثال اسم عائشة الذي يرُدُّ في السرد الروائي باسمها الأصلي "عائشة"، وفي الحوار بين الشخصيات باسمها "المُفرَس" أيسيه ، وباسمها الكامل الرسمي: شارلوت - إليزابيت أيسيه أحياناً. وكذا اسم حبيبها الكامل: بليز - ماري دو إيدي شفالبيه، الذي يُختَصَر أحياناً على لسان عائشة إلى "دو إيدي"...

وحسب التقاليد الفرنسية يجب نطق الأسماء المركبة كاملة في المواقف الرسمية مثل اسمي الأختين: ماري - أنجيليك، وكلودين - ألكسندرين، مع وضع الإشارة "—" بين جزأي الاسم. في حين أنه يُكتفى بالجزء الأول منه في الحديث بين الأختين.

وأخيراً كل الشكر لمن كان لهم الفضل في رؤية هذا العمل وسابقه "خان جري" للنور. وأخص الشقيقين فاروق وحسن طامزوق، والأستاذ ممدوح قوموق... ومن يتجشم مشقة قراءتها. المترجم

مقدمة الكاتب

- أمواج البحر الخفيفة تحمل الحصى إلى الشاطئ موشوشةً، وصبيحة الثامنة الرشيقة تسترق السمع إليها، وتسأل أمها:
- نحن أديغة، فلماذا يسمينا صياد السمك العجوز "شراكسة"؟
- لأن العجوز "ممت" تركي يا ابنتي.
- وماذا إن كان تركياً؟! - دارت عينا الفتاة السوداء الصافيتان في محجريهما - وهل سيُسّر هو إن ناديته بغير اسمه؟! -
- لا أدري يا عائشة. لا تشغلي بالك بما يصدع رأسك!
- وهل في سؤال المرء عما لا يعرفه ما يصدع؟! وما معنى "شركسي"؟ أهو حسن أم رديء؟
- أسألي أباك "المحترم"؛ يقال إنه يعني في التركية: قاطع الرؤوس.
- ليس حسناً إذن... - تنهدت عائشة ثم أردفت على نحو مفاجئ: - لا تقبلوا أن ينادينا "ممت" التركي بهذا اللقب، وأنا لن أقبل.
- حسناً يا ابنتي، حسناً - ابتسمت الأم في وجه ابنتها بعين راضية ولكنها صوّبت بلهفة ما يعني "قاطع الرؤوس": - يختلف معنى هذا الاسم حسب من ينطق به: الأديغة محاربون لا يهابون شيئاً؛ هذا ما يقصده الأتراك. وليسوا وحدهم في هذا الفهم: العرب والروس والإنكليز والفرنسيون، وغيرهم، ممن لا أعرفهم، ينادوننا بهذا. - لا بأس إن كان الأمر هكذا - وافقت عائشة الصغيرة أمّها ولم تتوانَ عن السؤال عما تريد معرفته: - وهل يعني في لغات الأقوام التي ذكرتها المعنى نفسه؟

- وكيف نعرف ونحن نجهل لغاتهم؟! أظن أنهم يقلدون الترك في ما يسموننا به دون أن يعرفوا المعنى. كفى يا عائشة! لنمض! العربنة تنتظرنا، وجدُّك قلقة علينا.

تُحدِّثُ عائشة نفسها وهي تلملم الحصى التي يقذفها البحر إلى شاطئه:

- لو لم يكن الأتراك يحسبون حساب شجاعة الأديغة لما سمَّونا بهذا الاسم؛ أليس كذلك يا أمي؟
- ربما.

- وهل الأتراك بعيدون عنا؟

- يقال إن بلادهم على مسيرة يومين بالبحر.

- وهل بنات الأتراك جميلات؟

مزحت الأم مع ابنتها التي لا تسعها الدنيا:

- رجالهم وسيمون، ولكن ليس في الدنيا أجمل ولا أوعى منك في نظري.

لنمشِ يا صغيرتي! كفاك أسئلة، اتركي شيئاً للغد!

- لنمشِ إن كنت ترين هذا - ثم اتخذت طريقها أمام أمها ذات الوجه الأبيض

الصافي، وتوقفت لحظة وسألت بشيء من الخبث وهي لا تدري لماذا تميّز

الفرنسيين من غيرهم:

- وهل من يسمّون بالفرنسيين يعيشون في تركيا؟

- يا حسرتي؛ لا أدري يا ثرثارتي الصغيرة، لماذا الآن، وقد بدأت بالترك، تنتهين

بالفرنسيين؟!

- ومن أين أعرف؟! انطلقت عائشة تقفز على قدم، ثم تُتبعها بالأخرى،

مصالبَةً بينهما، مثيرَةً الغبار المتراكم على أزهار الصيف المتعبّة.

كانت وساوس أمها "جنّات" تُعجّل في سيرها، فتمخر قامتها الرشيقّة الهواء
بخصرها الممشوق، وتجعلها تبتهل إلى الله "يا إلهي انظر إلينا بعين الرضا، واحمنا
ومُدّ في عمرنا لنشهد فرحة ابنتنا التي لا تتسع لها الدنيا المنيرة، واجعل السعد
قسيمها!"

الكتاب الأول

I

الأخوان فيريول من أغنى سكان باريس. أكبرهما شارل، والأصغر أوغستين. الكونت شارل دو فيريول لا يزال عازباً وإن تجاوز الأربعين. يعيش حياته العابثة في باريس ولندن وفيينا ومدريد وجنيف دون أن يسهو عن مهامته ذات الطابع الدولي. ولسن قليلات النساء اللواتي خلب ألباهن بمظهره الوسيم ولسانه المعسول، ولا الأسر التي كانت تعيش في وئام فمزق شملها. ومن يحتبى عن نواظرهن ومن يُحْمَن حوله لا يُحْصَيْن. ولسن قليلات أيضاً من سمعن به ويتمنين تعرّفه.

وقد تكون هذه العيشة اللاهية هي ما جعل الناس يقولون "باريس؛ يا باريس!" لأوغستين، الأخ الأصغر لشارل دو فيريول، أسرة. وزوجته ماري - أنجيليك غيرين دو تانسين تنتمي إلى إحدى أغنى الأسر. وهي أسرة مقربة من البلاط الملكي. ويقيم لديها في البيت أخوها بيير وأختها كلودين - ألكسندرين. وأما أوغستين فهو خازن في منطقة "دوفين"، والرئيس المحترم لبرلمان "ميسكا". وابناهما بون دو فيل وأرجنتال. وقد تلقيا تربية وتعليماً ممتازين. ولهما معرفة ممتازة بالشعر والدراما والمسرح والفن. وفي منزل آل فيريول يجتمع كل مساء كثير من المثقفين. وكاردينال فرنسا دو فليري يحب هذه الأسرة ويتردد عليها كثيراً، وأورليان الدوق، وبورنوفيل برينسري، واللورد بولينغبروك وزوجته المركيزة دو ماري - كليز، والفيلسوف فولتير، والفنانة لوكوفرير، والسيدتان دو ديفان ودو

بارامبير، وعضو المنظمة المالطية بليز - ماري دو إدي شفالييه،¹ والمركز كالاندرين، وآخرون هم أصدقاء للأسرة. ولكنْ لِنَدَعِ الحديث عن هؤلاء إلى ما بعد.

البيت الأبيض الفسيح الواقع على شارع نيف - سان - أوغستين والذي لا يقيم فيه الآن إلا أربعة تلتمع فيه شموع لا حصر لها. ولا يسمع هسيسَ الشموع الأخوان فيريول والأختان غيرين دو تانسين.

- تحقق لي ما تمنيته طوال سنين - يرفع شارل دو فيريول كأس الشمبانيا - أمسِكوا خواصر أفداحكم كما تُمسِك المرأة من خصرها، ودعُونَا نقرعُها، وهنَّوْنِي: غداً سأكون على طريق القسطنطينية - إستانبول. يرسلني ملك فرنسا الوضيء لودفيغ الرابع عشر في مهمة²، أتعرفون أنتم الشرق، كيف هو الشرق. البنات السُّمُر، الخصور الهيفاء، السيقان المتينة، الثغور الحامية...

¹ يعود أصل التسمية إلى جزيرة مالطة التي انسحب إليها من كانوا يسمُّون منظمة استضافة الحجاج المسيحيين في القدس والتي تأسست عام 1080 تقريباً، بعدما طردهم العثمانيون من جزيرة رودس. وسأُتي المؤلف أيضاً على بعض المعلومات عنها. ويردُّ ذكرهم في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ معاصر صلاح الدين الأيوبي باسم "فرسان المعبد" المترجم.

² المشهور في كتب التاريخ أن ملوك آل بوربون الذين سقطت المَلَكِيَّة في عهد آخِرِهِم لويس السادس عشر مع الثورة الفرنسية يحملون اسم "لويس". والواقع أن لكل من الاسمين أصلاً وتطوراً، أحدهما "لودفيغ" من أصل جرمانِي، و"لويس" مُفَرَّس من أصل لاتيني، ولهما المعنى نفسه: المَجيد، الشهير. أما سبب وصف الملك بالضيء أو المنير فهو أن لويس الرابع عشر لُقِّب بـ "ملك الشمس" لاهتمامه بالأدب والفن، وهو من بنى قصر فيرساي. المترجم.

- كان الأفضل لك من كل ما ينتظرك هناك يا شارل أن تؤسس أسرة - قال أوغستين لأخيه الأكبر وكأنه يمازحه.

- أمامي ما يكفي من الوقت لهذا؛ أما أنت فلا أعرف... أجاب شارل الكهل أخاه، وأضاف بسرعة: - وما يُدريك أنت بما تعنيه لذة الحرية للرجل؟! يا لبؤس الرجل الذي لا يعرف غير امرأة واحدة، ويا لعاره!

- اسمعوا ماذا يقول! - نظرت ماري - أنجيليك إلى زوجها الذي يكبرها عدة سنوات، وابتسمت، ثم أعادت الكرة إلى ملعب أخي زوجها: - وما يُدريك إن كان أخوك لم يختبر إلا لذة امرأة واحدة؟ لا تُهن زوجي بكلامك هذا أيها الكونت - اختتمت كلامها بهذه المداعبة.

- إن كان كلامك حقاً أيتها الكونتيسة فقد سررتني، غيرت نظرتي إلى أخي. صَبَّوا المزيد من الشمبانيا! - وسأل الكونت شارل أخت زوجة أخيه وهو يقرع كأسها: - أتصدقين يا كلودين - ألكسندرين كلام أختك؟

- ولماذا لا أصدقها؟! - حدقت كلودين - ألكسندرين بعينها الخضراوين الباردتين اللتين أهبتهما الشمبانيا في عيني الكونت - لا أرى في كلامها ما يعيب.

- أنا راضٍ عنك يا كلودين، راض - ونهض شارل واحتسى الكأس في جرعة واحدة، وهمس في صوت مُنتَشٍ يَسُرُّ القلب - هذا ما يَجِبُنِي في النساء... لولا أنني مسافر إلى تركيا لغازلتك يا كلودين، كنت اخترتك زوجة رداً على كلام أخي الكونت أوغستين - أنطوان.

- لهذا فقط؟ - أجابت كلودين - ألكسندرين وهي تنظر إلى أختها من طرف عينها.

- وماذا إذن؟ - لم يفهم شارل دو فيريول في البداية ما لُيَح له به، ثم انتبه إلى نفسه شاعراً بأنهم يهتَشُونه: - لا، لا، لا، لا تهاجموني منسقين فيما بينكم. سأفعل هذا حين أعود من تركيا فحسب وقد أنجزت أمور فرنسا.

- نساء الشرق السمراوات، والشفاه المحترقة، والقُدود الهيفاء؟ - ضحكت ماري - أنجيليك.

- بعدهن يا مدام، بعدهن سأتزوج من أختك كلودين - ألكسندرين؛ ألن تكتمل عمراً وعقلاً إلى حينها؟

- أصبحت ما ستُصبحه يا كونت - قال أوغستين أنطوان الذي كان صامتاً إلى الآن وهو يبتسم - لا أعرف إن كانت ستقبل بك. ليس عشاقها قليلين. يُقال إن الدوق فيليب أورليان، ودويوا¹، والكاردينال ممن يحومون حولها.

- هكذا إذن! - صرخ مبعوث فرنسا مصداً ما قيل له - لا أعرف إن كانت ستقبل بي ولكن المستحيل هو أن تتزوج من أورليان الطائش²، أو العجوز دوبا، لا تدعيهم يخدعوك! أمامي غداً طريق طويل؛ لذا عليّ أن أستريح... - قال شارل دو فيريول هذا ونهض، ولكن كان في ذهنه شيء آخر: الآن اقترب موعد لقائه باثنتين من محظياته، كلاً على حدة.

¹ هو الوزير الأول في عصر الرواية، وعدو لدود لشارل دو فيريول كما سنرى. المترجم.

² هو حفيد لويس الثالث عشر وابن أخت الرابع عشر، والوصي على الخامس عشر الذي تبوأ الحكم طفلاً، شخصية متعددة الجوانب من أدب وحرب... غير أن شهرته تقوم على نشر الحب المتحرر والفسق. المترجم.

II

إستانبول عام 1698

العالم هنا مختلف عما في باريس: ليس الناس، ولا الملابس، ولا اللغة، ولا الشوارع، ولا الأسواق، ولا البيوت فحسب؛ فكل قوم لهم لغتهم التي يحيون بها، ولباسهم الذي خصّوا به أنفسهم، وزيّهم الذي سيختارونه عن تفكير، مضيفين إليه وحاذفين منه. والطعام كذلك. ولكن، وإن كانوا اعتادوا على ما عندهم، وأضحى عماد قوّتهم، فإن ما لا يتناسب معه يسقط منه. والبيوت والشوارع والطرق في كل مكان ولكنها لا تتشابه. والبُلدان تختلف بمظاهرها وأساليب عيشها، وتختلف في أسواقها وروائعها، وما يصدر منها من أصوات.

ليست شوارع باريس ولا أسواقها خالية من البشر، ولا من البيع والشراء. ولا أهلها عراة حفاة جائعون، غير أن الكونت شارل دو فيريول، ولو أن الشرق بالنسبة إليه حكاية، يخفي شيئاً في نفسه منذ أيام: "أين هن البنات السُمر، والخصور النواحل، والسيقان المتينة، والشفاه الملتهبة؟ لا أرى فيها إلا رجالاً يعتمرون الطرايش الحمراء. ما الفائدة من أن تنظر إلى ذوات الجلايب السوداء الطويلة والحجب الضافية؟ يا أيّها القسطنطينية، يا قسطنطينية ما أسرع ما ارتدّيت زيّ الأتراك! ولكن يمكن أن تغير مظهرها إن حوّلت أيا صوفيا إلى جامع، وأضفت المآذن إلى جوانبها؟

قبل أيام، فيما هو يتعرف إستانبول، رأى أيا صوفيا التي كانت كنيسة، ورسوم إشارة الصليب ناسياً أن المسلمين حولوها إلى جامع، فنذكر أن تركياً نهره وهو يناديه بـ "الكافر".

- يا معلم انزع من رأسك مثل هذه الهموم التي لا فائدة منها - قال له الترجمان فخري الرجل النحيف الأشقر ذو العينين الصافيتين المائلتين إلى السواد

— البلاد التي جئت إليها هي تركيا، والمدينة التي تقطنها هي إستانبول. أقرب إليك ما لا تعرفه، ولا أعلمك. سترى الكثير هنا. إستانبول تفتقر طبقات طبقات كما القرون تتوالى.

— حقاً، حقاً — وافق شارل دو فيريول وهو ينظر إلى عيني رفيقه الخبيثين، متظاهراً بأنه يسأله: متى ستحقق لي ما تحدثنا فيه قبل أيام، ممتدحاً إياه — تعرف جيداً معنى لقب "معلم الصنعة" الذي تناديني به. وأعرف أنك تحمل قومك على أن يحترموني. ولكني لست جاهلاً تماماً بتاريخ الترك. وقد أرسلني ملكنا لودفيغ الرابع عشر للتحضير لمعاهدة سلام "كارلوفيتش" التي تصدع رأسي¹. بعد هزائمها. وأمورنا تسير على ما يرام، وأستطيع حمل مندوبي الإنكليز والإسبان والروس على إطاعتي. وسنغري الإسبان خلال أسبوعين تقريباً أن يحضروا إلى ما نريد. ولذا لا أحزان عندي ولا منغصات. وليس من مهمامي حل مشكلات إستانبول. ولذا لا نصدع رأسينا، كما تقول، بما لم تستطع القرون حله — ضحك شارل ووجنتاه الممثلةتان ترتجآن — وإن كنت تعرف ما هو أفضل مما سبق فلتتكلم في ما كنا اتفقنا عليه!

— لم أنس يا معلم — أجاب فخري وكأنه كان ينتظر هذا الطلب — إن كنت تريد هذا، وكان عندك المال والوقت، فأنا رهن إشارتك.

¹ معاهدة وقعتها الدولة العثمانية في كارلوفيتش بক্রواتيا عام 1699، تخلّت بموجبها عن بحر "آزوف" لروسيا، وعن مطامحها في ترانسيلفانيا. والحق أن بحر آزوف بحر شركسي ويعني اسمه، كما يدل شكله، البحر ذا الفم الضيق. المترجم.

- أنا جاهز في أي وقت. لا تهتم بموضوع المال - احمرت وجنتا شارل، وارتحف طرف شفته اليسرى - إن كنت قادراً على ترتيب الأمور فهذا المساء مناسب تماماً. أنا حاضر قلباً وقلباً.

عاش فخري المترجم أكثر من مرة في فرنسا وفي أماكن أخرى من أوروبا. ويعرف أن الأديفة يعيشون في الضفة اليمنى للبحر الأسود. ليس "يعرف" فحسب، بل خالطهم مراراً سرّاً وعلانية. وليس كلامه بلغتهم أضعف من كلامه بالفرنسية. ويعرف شيئاً من عاداتهم وأماط معيشتهم. ولا يحتاج إلى من يدلّه على مواقف السفن في "طوابسه" و"أنابه"، وعلى تجمعات السكان القريبة من هنا. وحين يأتي فصل الخريف ثم الشتاء فتسوء الطرقات كان يتوقف عن عبور الماء، فيعمل مترجماً ووسيطاً لأمثال شارل دو فيريول ممن يأتون من خارج البلاد، ولا يتعبون من المغامرات الجنسية التي لا نهاية لها. أما هو فلم تكن لديه أسرة ولا يمكنه التفكير في الزواج. وإذا عدت بضع سنوات إلى الوراء فهو يحتفظ بسرٍّ ما فعلوا به في جوار "طوابسه"؟

- ليس أمراً لا تدبير له - ابتسم فخري متظاهراً بأن المهمة التي التزم بها ليست عسيرة. ومع أنه كان يخشى من افتضاح عاهته فقد امتدح نفسه في سرّه: "ونحن كنا يوماً ما رجالاً، لا تسلم ذات غطاء رأس من شرّنا". ثم يحسد الرجل الجالس أمامه، الممتلئ بالعنفوان، ويضيف بدافع الحقد: "وأنت لا تعرف ما سيحل بك وما قد يؤذونك به" - قل لي أيّ صنف من النساء تريد؟ رومية أم إيطالية أم زنجية؟

- ما أكثر ثرثرتك! - حسم شارل دو فيريول الأمر متلاعباً بحاجبيه الأصفرين رافعاً خافضاً:

- مللت من هؤلاء منذ زمن بعيد - هات نوعاً آخر من النساء! حقاً ألا
ينجذب الأتراك الذين أنا في ضيافتهم نساء؟

- وهل من المعقول ألا ينجبوا؟! ما أكثر الحسنات عندنا، ولكن...

- كفى، كفى! لا تأخذك اللهفة عليهن! إحدى بناتكم - قاطع الموقف
الفرنسي فخري دون أن تُمَيِّز أهو جاداً أم هازل - لا أدري إن كانت بكراً أم
ثيباً كنت التقيت بها في باريس هذا الربيع.

- وماذا إذن؟ - تلَهّف فخري مخفياً انفعاله.

- وماذا ستكون؟! - كانت كسلى في الفراش - أصلح شارل الموقف بسرعة
مازحاً - حين تأتي إلى باريس سأوفر لك امرأة فرنسية كالنار تقضي معها
ليلتك.

- لن أدعها تشكو - تصنع فخري الرجولة ولكن صوته الخفيض مع العبارة.

- حسنٌ إن كنت فحلاً هكذا، ولكن لا تخطئ فتطلب بكراً. أتعرف كم يجب
أن يكون عمر المرأة الخبيرة في الفراش؟ ثلاثون، أربعون عاماً. اسمع يا فخري لا
تدعنا ننسى موضوعنا! حضّر الفتاة الشركسية التي حدثتني عنها. لا تتراجع
حتى لو طلبوا فيها صندوقاً من الذهب! أنا لا أبخل على من تمتّعني. - احمرت
وجنتا شارل دو فيريول، ولمعت عيناه الصفراوان - كما يقولون: "باريس،
باريس، هيه يا باريس!" أريد أن يقول واحد مثلي: "إستانبول، هيه يا
إستانبول"

- أنا واثق منك في هذا الأمر يا معلم - امتدح فخري جليسه كاتماً انفعاله مع
أنه استاء من كلامه، وسأل محاولاً إخفاء امتعاضه - ومن أي عمر تريد الفتاة
الشركسية؟ خمسة عشر؟ عشرون؟ ثلاثون؟

- كلما كانت شابة كانت أفضل - ارتفع الصوت الحلو لشارل، ناسياً ما كان صرح به في شأن عمر الفتاة. ثم سأل عما يستغربه: - أسألك جاداً: ألم يمس أي رجل تلك الفتيات الشركسيات؟ هل هنّ مريم العذراء التي سمعت بها؟ عجيب، عجيب! بناتنا في فرنسا يبدأن ممارسة الجنس في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة. إن كان كلامك حقاً فسنبدأ بنات الشراكسة ثم نعرّج على النساء الناضجات حتى سن الأربعين مختبرين دفأهنّ. ولكن يجب أن يكنّ يعضاوات دون شُقرة، ضامرات الخصور، صلبات السوق، دافئات الشفاه!

_ ما من فتاة شركسية غير جميلة يا معلم - قال بنبرة الواثق، ثم أضاف بصوت عالٍ: - هؤلاء يرغب فيهن كل الناس، وأمثاھن مرتفعة.

- كم مرة قلت لك إنه لا شيء يعترضني في هذا - صاآ شارل فخري الذي لا تفارق سيرة المال لسانه - آن لك أن تنسى موضوع السعر! - ولم يستطع إلا أن يسأل المترجم لأنه أحس بأنه أهانه: - أريد أن أسألك: ألا تعتني بـمجنرتك؟ يُخَيَّل إليّ أن صوتك يعلو وينخفض.

- بما أنك أجبت على سؤالك بنفسك فلا أستطيع أن أضيف شيئاً. ولكن ما العمل؟ ليست مهنة المترجم سهلة. وأنت لا تجهل هذا. لا نهدأ، نحن وأنتم، طوال النهار. كل ما تقولونه - إن تخاصمتم أو تصالحتم، وإن تفاضيتهم أو تصافيتهم، - أترجمه دون أن يسقط منه شيء. وأحياناً أكرر الكلام مرتين وثلاثاً. ويحدث أن تثيروا غضبي. لست أنت، ليت الآخرين كانوا مثلك، أتكلم على الإسبان اللجوجين.

- نعم، نعم. أيها المترجم، ليس اليوم فحسب أعرف المترجمين. وليست قليلة المشكلات والخلافات الدولية الأوربية التي حللتها. مهنة البتفارة مهنة صعبة. ولكن إن كنت تحب مهنتك، وتستتهين براحتك وصحتك، وتعمل مع الآخرين

مقنعاً إياهم بنباهتك فلا عدوّ ولا مُبغضَ يستعصي على الصلح. نعم يا فخري، وأنت ليس ما تقاسيه سهلاً. ومع ذلك فلأني أكلفك برغباتي القليلة سأقدّر لك هذه الخدمات، وسأقدم لك ما يسرّك.

- شكراً يا معلم على أنك تفهّمت موقعي.

- وهل أستحق الشكر على كلامي! ولكن سأقول لك شيئاً آخر: - التمتعت عينا شارل المخلصّان الصفراوان كشاب مكتنز مورّد الوجه تحقّق له ما يشاء - ملكنا المنير وعدني إن حققت هديّ، ورجعت إلى بلادي أن يكلفني بمهمة السفير الدائم في تركيا؛ فإن لم تتوان يا فخري ونفذت ما أطلب منك فسينفعك عملك ولن تندم. يا إستانبول، إستانبول، يا عاصمة شرقي، أشعّرني بحسبك وحلاوتك، حتى لو لم تستطعي أن تُنسني لذات قلبي في باريس. أفرحيني ولو مرة واحدة بنسائك السمر ذوات الوجوه البيض والشفاه الدافئة!

ساير فخري أفرح شارل، وهزّ رأسه مع كلماته، ومع ذلك فإنه يسخر ممن يبتسم له ظاهراً، ناسياً فقدانه هو لفحولته "انظر إلى هذا البغيّ كم هو سعيد!... وما أبأس البلاد التي يمثلها"

III

ما تزال رِعدة الفتاة التي جاؤوا بها لشارل من دار الحريم في مخيلته. لا ينسى كيف افترع الفتاة الشركسية الشابة التي كانت تدافع عن شرفها فتتوسل إليه، دون أن يستوعب لذتها، ولا كيف صحا من نشوته. كلما فكر في الفتاة الضئيلة التي ضاعت تحت وطأة جسده الثقيل في الفراش فأغمي عليها، وأعادها إلى وعيها بمشقة، قائلاً في نفسه: كنت أشتري بما دفعت من أجلك الكثير من النساء، لم تدعيني أستمع بحلاوتك ونعومتك. ومهما لام نفسه فإنه يفرح بنجاته بفضل الرشوة التي دفعها إلى كبيرة البغايا في دار الحرام. من أجل ألا يُطلع المترجم فخري على هذه الأمور كان قد اتفق مع كبيرة دار البغاء ذات العينين الواسعتين التي صدقت معه فحفظ لها الجميل لأن من تدفع له كل هذا المال لا بد أن يصبح أصمّ أعمى. "آه يا للحسرة، كانت تلك المرأة ذات الردين الممتلئين هي من يجب أن أدفع من أجلها. تجاوزت من سُمّعتني ولحقت بالصبية الشركسية التي لم تنضج بعدُ فكسفتني. أستحق ما حدث لي! لا، لا، لن أهجر نساء الشراكسة من أجل هذه الحادثة. هؤلاء فيهن الحرارة التي تشتهيها ولا تنضب. تلك الصبية الشركسية تسلبني شفتها الملتهبتان ونهداها المدوران الصلبان الدافئان الهدوء إلى الآن. لست جاهلاً بحلاوة المرأة الشركسية فلماذا لا أحقق حلمي فيها؟! كان عليّ أن أكتفي بالمرأة البيضاء ذات العيون السوداء التي جاؤوني بها، وأتجاهل الصبية الشركسية، مثل تلك المرأة هي من تُدوّبك..."

لم يكن شارل دو فيريول يقضي ليلة في إستانبول لا يحصل فيها على المرأة التي يشتهيها رغم ما يوجهه إلى نفسه من عتاب. وكلما انغمس في شبقه الذي لا نهاية له أشبعه فاستراح. ولكن لم تكن هذه الشهوات تمنعه من أن يساهم في

كل مناسبة بفطنته ورأيه السديد. وبالإضافة إلى ما سبق كانت فيه فضيلة أخرى: لم تكن أي مهمة صعبة أو سهلة تنسيه النساء. ولا يزال بقلبه وبروحه في دور البغاء التي لم يتعرفها بعد.

ورغم أن شارل دو فيريول يتكلم بلغته الفرنسية الأنيقة في الاجتماعات التي تمهد لتوقيع معاهدة السلام فإنه متلهف إلى الساعة التي ستنتهي فيها تلك الاجتماعات. إنه لا ينسى تلك المرأة الشركسية التي احتفظ بها ليلة واثنتين ليروي منها شبقه. "نظن أن نساءنا الفرنسيات ممتازات للفراش، بل خلّقن له، ولكن لا تعلق أي امرأة في العالم على المرأة الشركسية في هذا المجال. لو تمكنت من أن أدرس امرأة شركسية في سرير ملكنا لما نسي معرفتي إلى الأبد... والدوق أورليان الوصي لا تنقصه الخبرة بالنساء، بل سيسلبها منك حتى لو لم تعطه إياها..."

يشتهي شارل دو فيريول الاستراحة على شاطئ البوسفور في أيام الازدحام لابساً طربوشه التركي الأحمر. وها هما الآن: الكونت شارل دو فيريول والمترجم فخري يستمتعان بالهواء النقي البارد في أحد مشارب الشاي. وأمام الموفد الفرنسي زجاجة من نبيذ "بورغوند" الأحمر الذي يفضلّه. وفخري تحرقه كأس الشاي الذي لا يقل حمرة عن النبيذ، مع ذلك يحتسي منها ويعيدها إلى مكانها. وصبي المشرب الفخور بطربوشه لا ينتبه إلى ما أمام شارل من المشروب إلا وهو يصبُّ له من الشاي.

- يا فخري؛ ألا تترك مرة هذا الشاي الذي ينفخ البطون، وترفع معي كأساً مما أشرب.

- لا، لا، - احتمى فخري براحتيه الرقيقتين الممدودتين كأنه أُجبر على احتساء النبيذ، وابتعد عن الطاولة، - هذا حرام، بل أتوسل إلى الله الذي يبتهل

إليه الجميع ولا يحتاج هو إلى أحد، أن يغفر لي جلوسي إلى طاولة عليها الشراب.

- يا لمريم العذراء، - أدار فخري رأسه حين بدأ شارل دو فيريول الكلام بصوت عالٍ، - يا لُبُوسِ المسلمين! يحرمون أنفسهم مما يَمْتَنِعُهُمْ، ويرتمون على ما يُهْلِكُهُمْ. لا تؤاخذني يا فخري! - فكَّ النيذ رباط لسان شارل المحمر الوجنتين - هذه الدنيا تقولون إنها عارية فتحمون أنفسكم مما يُسعدكم. تلقبونا بِحَمَلَة الصليب ولكننا نمتع أنفسنا بالحياة الوحيدة لنا على الأرض، والتي أنعم الله بها علينا. يفتح الله لنا كل أبواب السعادة مغلقاً أمامنا أبواب الجريمة والكذب وكل الموبقات الأخرى. أنتم الترك، لستم وحدكم، بل معكم كل المسلمين، تحبسون نساءكم في البيوت وتكسونهن بحيث لا تبدو لنا وجوههن، ولا أجسادهن بل حتى سوْفُهُن. ولكنكم مراوون؛ فإذا كان ماسبق حراماً؛ أليس بيعهن حراماً كذلك؟! وها هو المقهى الذي نحن فيه خالٍ من أي امرأة! أما كان حسناً لو أن امرأة كانت تأتينا بما نأكل وما نشرب؟

كان فخري الذي لا يعبأ بعتاب الموفد الفرنسي مهموماً بأمر آخر: "أهْجُنَا كما تشاء، واسخر منا، ومزّق الدين على هواك، ولكن لا تنس الوعد الذي وعدتني به! هل أذكّره يا تُرى؟ هذا ممكن، غير أن من الصعب أن تحصل على كلامٍ ثقةٍ من شخص منتشٍ. غداً، غداً لنؤجّل إلى الغد. يا ربي أيمكن أن يحث بوعده؟ إن فعل بي هذا فلن أسمح له أن يطأ ثانية أرض إستانبول..."

نقد شارل فخري يوم انتهت محادثات السلام مبلغاً لم يكن يتوقعه، حتى لو كان فخري اتهم شارل دو فيريول بما لا يستحق أن يقال فيه، إذ دفع له ضعف ما دفع له في الأشهر السابقة كلها، وأضاف أجرة شهر آخر.

- أأنت راض يا صديقي القديم؟ - سأله بصوت لا يحمل نكهة من البرودة.

- وكيف لا أرضى؟ حتى لو لم تُضف تلك العلاوة. - قال فخري، وأضاف بينه وبين نفسه "ولو دفعت أكثر لما افتقرت بسببي، ما كانت تلك الزيادة شيئاً بالقياس إلى ما تنفق على المومسات".

- حلال عليك، كسبته بالحلال. ما أكثر ما تنفق أكبر من هذا المبلغ دون أن نعرف كيف. وأنا راض عن نفسي إذ تحقق ما كلفني به ملكي مع إطرء عليّ. ما أنجزته يساوي بلاداً بحالها. بعد أن أعربد هنا ثلاثة أيام تقريباً - ضحك شارل من أعماق قلبه - سأعود إلى فرنسا. ويبدو لي أنني أترك قلبي في إستانبول، في البوسفور، مهما كنت اشتقت إلى "باريس، يا باريس!". تعال يا صديقي العزيز! أتريدني أن أعود إلى من ينتظرونني في باريس صفر اليدين؟ مهما كانت الهدية صغيرة أم كبيرة فالنساء يحببنها؛ فلماذا لا تعرف أنت هذا؟ أنا عندي ماري - أنجيليك، مرائية لعبوب، زوجة أخ كسول لا تقبل أن تدخل البيت دون أن تحمل إليها شيئاً. حتى لو اقتصر الأمر على أختها كلودين - ألكسندرين لا أعرف ما يرضيها.

- أهي جميلة. - أسرع فخري دون أن يعرف لماذا يسأل هذا السؤال. - لا يقف الأمر عند هذا الحد، من الصعب دائماً إرضاء الفتاة في مقبلة عمرها. وإن أردت أخبرتكم بعمرها: تجاوزت الآن الثالثة عشرة. إن جئت إلى باريس يوماً ما قدّمتمك إليها.

- وماذا أفعل في باريس، لا عمل لي ولا... كما يقال.

- وما يُدريك، لا تشهد على ما لا تعرفه!

فيما كانا يمران بعد الظهر بسوق العبيد توقف الكونت شارل دو فيريول فجأة كمن فقد شيئاً:

- دعنا ندخل السوق قليلاً!

- وماذا ستفعل في سوق تفوح منه رائحة كريهة؟ ألم ندخل إليه قبل أيام؟
- هذا كان قبل أيام، والآن يوم آخر - دخل شارل السوق دون أن يعبأ
برفيقه، وتوجه إلى حيث تباع السبايا.
وفيما هو يمر بمجموعة السبايا اللواتي ينتظرن الشارين، استوقفته فتاة في حدود
التاسعة من عمرها.

أول ما لفت انتباه شارل دو فيريول هو عنق الفتاة السبية الطويل الجميل.
وانتبه إلى طول ساقيهما. والعينان الحزبتان المائلتان إلى الطول اللتان تنظران من
تحت حاجبين رفيعين متقابلين، وأهداب طويلة، كأفهما تقولان: وأنت ماذا
تخبئ لي؟ والرأس المتطاوّل المنتصب يناسب الكتفين القويتين المدورتين اللتين
تحملانه. وهي متميزة من حولها بمظهرها ونظرتها وجلستها وتماسك قوامها.
- اطلب من هذه الوقوف! - قال شارل دو فيريول للبائع، مقرّراً ما حدّثه به
قلبه نحو الصبية: - بكم تبيعها؟

- ثمن هذه ليس كأثمان الأخريات، غالٍ - قال العجوز ذو الحواجب السوداء
الكثيفة معتداً بنفسه، يحص دخان غليونه الفارغ دون استعجال.
- أسأل عن هذه، لا عن الأخريات!

- أجب على قدر السؤال - قال فخري لمواطنه العجوز المتين البنية، ودون أن
يدري رفع سعر الصبية الأسيرة وهو يظن نفسه يُسدي معروفاً لرفيقه. - أنت لا
تعرف من يتحدث إليك؛ إنه آتٍ من فرنسا موفداً من سلطانهم، لا تُشعره
بالاستخفاف به، أجبه عما يسأل!

- ولماذا أعامله باحتقار - أجاب التركي وهو يدس التبغ في غليونه - أنا لا
أحتاج إلى من يحدثني، أحتاج إلى من يشتري بضاعتي. أقول لكما لماذا هذه
الصبية غالية - لان حديث العجوز التركي وطبعه - هذه ليست تركية ولا

روما ولا ألبانية ولا سيبيرية؛ أنتما تريانها: شركسية، سليلة أمراء. ليسوا قليلين
الناس الذين هلكوا في سبيل أسرها. إن أراد حقاً شراءها فليدفع ألفاً وخمسمئة
ليرة، ولن أتنازل عن فلس واحد. لولا الاضطرار لما بعتهما حتى بألفين.
ما إن أخرج شارل دو فيريول النقود حتى حدثته امرأة سوداء مكتنزة النهدين
بلغة فرنسية صافية:

- لماذا عشقت هذه الصبية ذات الساقين الدقيقتين التي لمّا ينهد صدرها،
وأنت القادم من فرنسا؟! كان الأفضل لك أن تشتريني أنا، كنتُ استرحْتُ،
وكنْتُ استمتعت بي!

- إن انتظرتني حتى زيارتي القادمة إلى تركيا - مزح شارل دو فيريول معها -
فأنت المحظوظة عند الله!

- سأنتظرك إلى ذلك الحين إن تعهدت لي ألا تهرم... - كان جوابها على رأس
لسانها.

حين مدّ يده إلى الصبية التي لا يعرف بعد اسمها كي يصحبها إلى خارج
السوق ضربت الصبية يده فأجفلته، ومع ذلك فقد مزح معها:
- ما أسرع ما مددت يدك عليّ يا صبية، ولكن لا أعرف ما يخبئ لنا
المستقبل.

IV

قال الكونت شارل دو فيريول الواقف على ميناء مارسيليا ممتلئ الصدر بهواء البحر لفخري المترجم:

- هذه هي فرنسا يا صديقي العزيز، انظر إليها، تنعم بهوائها، استرخ فيها! اختلس النظر إلى القادامات ذوات الأثواب الطويلة. لن أدعك تعود إلى تركيا دون أن تستمتع بوحدة منهن. كيف كنت سأفاهم مع هذه الصبية لو لم تأت معي؟ أتذكر؟ لأجل هذا قلت لك: لا تشهد على ما لم تر!

- أسمعُ يا معلم أن لا حَظوةً للإنسان؟ - لم يتأخر فخري في الجواب - وأنا لما كنت أراعي حق الصلبة لم أدعك تسافر وحدك مع الصبية العجماء، تركتُ كل أعمالي وصحبتي.

- لا تندم على معروفك، أنا لا أحنث بوعدي، ابقَ معنا ريثما تتعلم الصبية الشركسية بضع كلمات فرنسية، ثم تعود إلى ديارك مسروراً بما أرضيك به. ولكن أظن أن أمورنا ستمشي باتجاه آخر يا فخري: ليس مستبعداً أن أعود فأرافقك في طريقك إلى تركيا إن نظر إليّ مولاي الملك بعين الرضا.

- والصبية؟

- وأنا فكرت في هذا. سأتركها في رعاية أخي أوغستين وزوجته ماري-أنجيليك. وستساعدنا أختها كلودين - ألكسندرين. إن كنت غنياً، وأنت تعرف هذا أحسن مني - فلا مستحيل. وفي حال الضرورة سأنشئها وأعلمها مقابل أجرة في مدرسة الدير حتى يستوي عودها. ولكن هل تعرف فيم فكرت الآن؟ ما اسم الصبية الشركسية الذي يلوي اللسان؟ ما الاسم الذي تطلقه على نفسها؟

- آيشا.

- نعم، لن أُدخلها بيت آل فيريول حاملة هذا الاسم التركي الذي يدعو كل من يسمعه إلى السخريّة.

مضى شهران على عائشة وهي تسمع الفرنسية التي يتفاهم بها شارل فيريول وفخري. ومع أنّها لا تزال غريبة عليها فقد بدأت أذناها تعتادان على الأحرف المختلفة. وكانت حفظت في ذهنها بضع كلمات قصيرة تعرف معناها ولكنها كانت تمتنع عن نطقها مهما رجوها. ومع أن شفّتيها اللمياوين المزمومتين كانتا جاهزتين لتنطقا "بونجور" و"ميرسي" فقد كانت تستقبح هذه الأصوات وتجلس كقطة منفوشة الوبر.

لا تنسى عائشة ما علموها في شرق مدينة مرسيليا. وما حاجتها إلى الملابس التي كسّوها بها؟! القميص والحذاء والقبعة. وأحسّ ما فعلته هو أنّها، عندما فكروا في أن ينزعوا عن رأسها القبعة المذهبة التي خاطتها لها أمها "جنّات" قبل أن يطرق بابها للصّوص الأتراك ويرموا بها هجمت عليهم وانتزعتها منهم "وهل يعيها أنّها كانت تجعّدت؟ ها قد رجعت كما كانت. بل كانت إحدى الصبايا السبايا حاولت انتزاعها مني!... أنتم لا تعرفون قيمتها؛ إنّها تذكّار من أمي! وأبي كان قد فضّلها لأجلي من جلد الماعز، وزناري الرّبيع جعلتموني أتركه..." ولما كانت عائشة أقسمت ألا تبكي أو تشكو مهما لاقّت من عذاب، فإنّها رغم أن قلبها الصغير كاد يتداعى أمام الحزن، وجدت في نفسها القوة، كما حدث قبل أيام، فتجلّدت أمام الدموع.

لم تكن عائشة عابئة بالرجلين اللذين تعرف أنّهما يتكلمان في موضوعها. ما في رأسها النحييف الصغير، وما يُهمها شيء آخر: "لماذا يأخذني إلى منزله هذا الرجل الطافح الوجه، الحامل اسم شارل دو فيريول، وما أعجبه من اسم!، قاطعاً البحر والبر؟! ماذا ينوي بحقي؟ ألاّنه لا أولاد عنده؟ لا أدري كيف

سأصبح ابنته وقد ولدني أبوي اللذان قضيا قبل أواهما؟! لماذا لم يُعديني إلى ديارنا لو كان إنساناً صالحاً؟! أليس لي أهل إن كان والدائي فارقا الحياة؟ والحق أنني لا أعرف إن كانا توفيا... وهذا التركي صاحب اللسان الأديعي، يواسيني، يُثني علي من اشتراكي بداعي الشفقة عليّ، ولكنه ليس رجلاً طيباً. - تنهدت عائشة ووعظت نفسها متجاهلة أحزانها: - في أسوأ الأحوال، لا بأس بمؤلاء، أحسن من غيرهم. يُطعمونني، يكسونني، يتسمون لي. لا يغضبون عليّ مهما قلت لهم أو أسأت التصرف معهم. ذاك المجرم الذي عبر بي الجسر من بلادي - لعنه الله - هو الرجل الشرير"

لم تكن هواجس فخري قليلة: من جهة: كسب وِدّ شارل دو فيريول وإرضاءه، وتلبية طلباته المفاجئة، ومن جهة أخرى بؤسه الشخصي وما داخله من مشكلة الصبية: "حقاً إن كنت غنياً فلا شيء يستعصي عليك. يريد أن يغير اسم الصبية التركي الذي لا يعجبه وهو قادر على ذلك. ليس هذا اسماً تركياً بل اسم شركسي! أنسيت كيف كنت ترتاد دور الحریم متغنياً بأسماء البنات الشركسيات؟! لماذا يُلحق العيب بنفسه منفقاً على اليتيمة الصغيرة كل هذا المال؟ أياكون ينوي شيئاً بها!"

- ألا يمكن أن تنطق هذا الاسم التركي بالفرنسية؟ - سأل فخري شارل دو فيريول وقد أثارت أفكاره أشجان قلبه، شاعراً بشيء من الغضاضة في "الاسم التركي" الذي يعيّه به صاحبه، مخفياً انفعاله.

- لا، لن أناديها بـ "آيسيه" وقد فرغت من ابتكار اسمها بالفرنسية، فاسمع: "شارلوت - إليزابيت" أسمعته؟ هناك أجمل من هذا الاسم؟ هذا هو إذن، انتهى الأمر! هذا الاسم الجميل هو ما سأسميها به حين نصل إلى المجمع الكاتوليكي الكبير في مدينة "ليون".

حين سَمَّوا عائشة باسم "شارلوت إليزابيث" في المجمع الكاثوليكي ونادوها
أضافت إليه بصوتها الطفولي الحاد الحائق وسط استغراب الجميع اسمها
الأديغي: "عائشة".

V

العربة التي تجرها أربعة أحصنة وأمامها حارسان، ووراءها كذلك، تنهب الأرض مرتجحة وسط ألوان الخريف المتنوعة. منذ وقت طويل تجاوز ركاب العربة مارسيليا وأفينيون وفالانيس، والقرى الأصغر منها والتجمعات الأخرى القريبة منها وكثيراً من الحصون. مدينة ليون الواقعة عند نقطة التقاء نهرَي الرون والسين حيث بدّل شارل دين عائشة الصبية المسلمة غير المحضرة لتصبح كاتوليكية، ومنَحَها اسماً فرنسياً، صارت وراء جبل سافون وقممه المتباعدة. وصارت مدينة ميلين قرية، ومن الجهة الأخرى لم يبق إلى باريس إلا القليل.

الشمس مشرقة، والنهار حار، والخيول تشخر.

- أقول لك يا فخري - نِقد صبر شارل دو فيريول - أنت حامل عليّ بسبب اسم الصبية ولكن أتعجّب: لماذا أنت تُحِيل جمال هذه الطبيعة إلى الأسى؟!

- ليس الأمر كما تظن! كل شيء جميلٌ وعلى ما يُرام.

- لا بأس إذن! إن كان الأمر هكذا فاسأل شارلوت إليزابيت آيسيه إن كانت فرنسانا الجميلة أعجبتها - ما إن سمعتُ اسمها حتى انتصب رأسها، ونظر إليها الكونت شارل باسمًا - نعم يا آيسيه، لن أنسى اسمك الجميل.

وأجابت على سؤال فخري بسرعة:

- عندنا أحلى!

- وهذه الناحية ليست قبيحة - قدّم فخري مالم تقله عائشة على ما قالته، وترجمه لشارل دو فيريول.

- حسناً، حسناً، لا تقل لها شيئاً. كلُّ يرى بلاده أجمل وأسرَّ للنفس. لم تقل ما لا يُقال - "اشتريت، دون أن أدري، صبيةً فطنةً يمكن أن تكون مستقبلاً امرأةً جميلة" نعم يا آيسيه أنت صافية السريرة. ذكية. أُعيد التفكير فأجد اسمك

الشركسي جميلاً. ستعتادين علينا هكذا شيئاً فشيئاً. - "فيما بعد سنرى ما يحدث..." - أضاف بينه وبين نفسه.

- أتساءل ماذا يقول معلمك؟ - لأول مرة ارتسمت شبه ضحكة على وجه عائشة وهم في وسط الغابة.

- الكونت يُثني عليك!

- نعم؟! - استغربت عائشة ما سمعت - أراى منى أو سمع ما يمتدحني لأجله؟ - تكلمما، تكلمما! - نظر شارل دو فيريول نظرة رضا إلى فخري معتقداً أنهما يذكرانه بالخير. وابتسم ثانية لعائشة: - اذكرني بالخير! هذه الصبية لم تفهم بعدُ المعروف الذي أسديته إليها، ولا ما سأسديه لاحقاً. احكِ لها من أنا، وماذا أملك في بلادي، وما قيمتي فيها، وما أنا قادر عليه هنا. لا تنشغلا بي، أنا نعسان قليلاً.

تحقق لفخري ما يتمناه تماماً: منذ أن رآها كان يريد أن يعرف قصة أسرها، ولكن لم يكن يجد الفرصة المناسبة. وفي الباخرة التي كانت تترنح مع الريح ظل يؤجل السؤال من يوم إلى آخر ولم يجد فرصة للراحة. وهذا المكان لا يناسب، فكيف تتحدث فيما يشغل بالك وأنت تجلس وجهاً لوجه مع غيرك، وسراً؟ وفي مثل هذا المكان لا تعرف متى ستجد نفسك في ازدحام.

وماذا يهمُ فخري المترجم من أمر عائشة؟ ما أكثر السبايا اللواتي توسط لبيعهن في السوق دون أن يظهر أمره. ولكن قد يكون في اهتمامه بها دون غيرها سرٌّ يحتفظ به. أهى التي يشكُّ في أمرها أم هى صبية أخرى؟ أيمكن أن يفيد بسؤاله الآن من تسبب في ضررها سابقاً؟ كان يجب أن يعرف هذا وهى في السوق.

نظر فخري إلى شارل دو فيريول المتعب الذي يصدر من شفقيه شخير ناعم، ثم خاطب نفسه غاضباً عليها وهو ينظر بطرف عينه إلى عائشة "ما كان شأني

بهذه الصببة الشركسية المتكبرة، وبهذا الكونيت، مدّاح نفسه الذي يشخر؟! علاقتي أنا بذلك الرجل نصف التركي، نصف الشركسي، عصام الذي سبب لي عاهتي، صرفوا نظري عنه في السنوات القليلة الماضية زاعمين أنه مات، غير أنني أظنهم وضعوا في يدي طرف خيطه الآن".

- أهذا العجوز المدمن على التدخين، الذي باعك لنا، هو من حملك عبر النهر؟ - لم يملك فخري إلا أن يسأل الصببة بنوع من الاستعطاف والثقة.
- لا - ردت عائشة على السؤال بسؤال مدركة أن سؤاله يخفي سرّاً: - ما الأمر؟

- لأنه باعك وكأنه يساوم على السعر.

- باعني لأنهم طلبوا منه ذلك.

- ومن الذي دفعهم لبيعك؟ - استعجل فخري عما ذي قبل.

- ذاك الذي اختبأ حين رآكم.

- وما اسمه؟

- لا أعرف، هو مثلك ممن يعرفون الشركسية والتركية.

- أياكون عصام المجرم الذي لا يحب الناس أن يسمعوا سيرته - ابتسم فخري

مخفياً انفعاله الذي غيّر لونه: - وكيف يشبهني؟ أنا أعرف الفرنسية أيضاً.

مرة أخرى تفهّم فخري أن الدنيا مرّكة من السؤال والجواب، والكذب

والصدق، والسر والعلن، والمفاجأة. وحياته هو على هذه البسيطة، وترتيبه

لأموره وسلوكه عليها، جزء من متناقضاتها. الشمس تشرق وتغرب، والليل

الذي يستريح فيه الإنسان ويحسّ فيه رذائله، ويتبعه النهار الذي يغسلها ويرى

نفسه فيه. وهذه حال فصول السنة الأربعة المختلفة المتناقضة، والمتكاملة

المتقابلة. صحوّ حيناً، وماطر حيناً، وبعد الخصب جذبّ، والمحلّ يمنع

الأقارب من التواصل، والهدايا من التبادل. وأُسْرُ تتفكك. وما قولك في السرقة والقتل وأن تجد في البؤس سعادة؟!

لم يكن فخري هذه الساعة في موقف يسمح بأن يجيب عن الأسئلة المتفككة المترابطة التي غزت فكره، وأن يقيس صغيرها إلى كبيرها ويحلّها. وفي السنة التي ظن نفسه نسي مصيبته فيها رمى نفسه بنفسه في ما يجلب له العار. لا يستطيع إطفاء نار الرغبة في الانتقام، فيحترق في داخله "ما الفائدة في أن تجمع الثروة؟ إنها تأتي وتغيب، مثّلها مثلُ الندى كما يقول الشراكسة. العار الذي ألحقوه بي هو ما لا يُمحى إلا أن يولد الإنسان من جديد. لو أنهم أمهلوني حتى أوّسس أسرة لكنت رضية بما قُسم لي فريحاً بأولادي. لو استعدت شرف رجولتي، وعرفت أن صبية صغيرة مثل عائشة ستصبح من نصيبي لفضلتها على أموال الدنيا التي يتقاتل الناس عليها. والآن من أنا؟ أركض دون ساقين، أطيّر بلا جناحين، أبتسم في وجوه النساء مخفياً عنهن عاهتي، وحين يتناولن عليّ أتظاهر بالتعالي عليهن".

- ماذا؟ هل قلتما شيئاً؟ - أفاق شارل دو فيريول من غفوته، وفرك عينيه، ولم يكتف عيبه:

- أظني أصممتُ أذانكما بشخيري؟

ضحكت عائشة مما لُمِحَ به إليها، ولكنها أصلحت تصرفها بمزحة حلوة:

- وكيف يُصمّنا شخيرك الناعم!

- هكذا يا عائشة؟ - كان الكونت مرتاحاً لما سمع - هاهي طريقي في النوم،

أنعسنا شخيرك الناعم... - بدأ حديثاً قائلاً "نسائي" ثم سكت - يقلن لي هذا

كثيراً... وأنتِ كان الأفضل لو نعست قليلاً يا شارلوت إليزابيت أيسيه، ليس

بيننا غريب. أما سميت ابنتي الصغيرة اسماً جميلاً يا فخري؟

- ما دعاني إلى أن أقول إن شخيرك لطيف يا شارل دو فيريول - نطقت عائشة اسمه كما لو كانا صديقين منذ القدم، وحددت سبب مديحه لها - والدي أيضاً كان له شخير حلو كالذي عندك... - وتمالكت نفسها وقد خافت أن تنفجر بكاءً.

- هكذا؟ - نظر الكونت مرة أخرى إليها بعين الرضا، وسألها دون أن يعرف لماذا قفز هذا السؤال الآن إلى ذهنه: - أيمكن أن يكون والدك يا أيسيه أكبر مني؟

- لم يكن أكبر! - حسمت عائشة، ثم أضافت بصوت أكثر ارتياحاً: - كان له شوارب ولحية جميلة، وكانوا ينادونه بـ "المحترم بولت".

- قلت "بولت"؟ - سأل الكونت نادماً على السؤال الذي لم يكن في محله، ثم امتدح الاسم الذي لا يعني له شيئاً: - هذا اسم جميل!

- وأمي كان اسمها "جنات" لم تتمالك عائشة نفسها وبكت.

- نعم، نعم، يا ابنتي! ما أصعب تحمّل المأساة! ابكي، ابكي يا أيسيه، نفسي عن كربك... لا شيء يتورع عنه المجرمون قُطاع الطرق. أليس صحيحاً يا فخري؟ أنا لا أصحبك إلى فرنسا من أجل أن أنسيك أمك وأباك. احتفظي بذكراهما في قلبك، لا تنسيهما! أنا أفرح من جديد لأني اشتريتك قبل أن تشتريك إحدى دور البغاء. - قلب شارل دو فيريول الآن الموضوع بمهارة: - واسم أمك جميل جداً وسأقول لك السبب: نحن - الفرنسيين - عندنا اسم جميل من جنسه هو جانيت؛ أليس كذلك يا فخري؟ - ودون أن يهتم شارل دو فيريول بما قاله وبما سأل عنه انتقل إلى الموضوع الذي يريده: - اسمعا، لم يبق الكثير على موعد العشاء، ولما كان المطعم الذي نتناول فيه، مِلْكُنَا وأنا،

الطعام أحياناً في "ميلين" قريباً من هنا فسننزل هناك ونتعشى ونقضي ليلتنا للراحة فيه. ثم سنهتف غداً: "باريس، باريس، هيه باريس" حين توقفت العربة بضجيجها أمام مطعم ميلين استقبلهم أربعة أشخاص بزِّيٍّ موحد:

- لا تستعجلي يا أيسيه - قال شارل دو فيريول لعائشة قبل أن يفتح الباب لهم - حين يمد من يستقبلنا يده إليك ليصافحك مُدِّي أنت أيضاً يدك، واسمحي له أن يقودك. هذه عادتنا نحن تجاه النساء في فرنسا.

استمعت عائشة إلى ما تُرجم لها، واكتفت بالابتسام، ولم تتململ كما فعلت أمس وأول من أمس، وفي الأيام السابقة الأخرى: مدت يدها كما تفعل سليلة أسرة أمراء، وانسلت من العربة.

ربما لأنها مريحة في هذا اليوم، حُيِّل إليها أن المطعم - الفندق الذي دخلته يختلف حقاً عن غيره من المطاعم، وهي التي مضى عليها في الطريق إلى باريس بضعة أيام.

وعلى عادة المطاعم الممتازة، جهز المائدة، بسرعة فائقة، عدد من حملة الطعام، وآخرون من حملة المشروبات. وبفواكه متنوعة، وهم يرددون "ماذا تريدون من طعام؟"، ثم وقف على رأس كلٍّ من شاغلي الطاولة المستديرة أحد الثُدى.

- ستكون مائدة عشائنا اليوم مائدة ملكية. - قال شارل دو فيريول معتداً بنفسه لأنه يعرف ما يريد. - إيتونا بما يكفيننا نحن الثلاثة، وأكثر. ولما كان مترجمنا تركياً مسلماً لا يشرب فهاتوا له من الكومس¹.

¹ شراب يُتخذ من حليب الخيل المخمَّر. المترجم .

- لا أشرب منه أيضاً - حسم فخري موضوع الشراب وأدلى بدلوه في المائدة الملكية - ولا تأتوا بأي شيء صُنع من لحم الخنزير، فهذه الصبية...

- مهلاً، مهلاً - استعجل شارل دو فيريول حين سمع بسيرة الصبية - أبعد إسلامك عن هذه الصبية، ديني دينها! وأنت أيها النادل هات لي أفضل ما عندك من نبيذ "بورغوند". إنه الشراب المفضل لملكنا.

- ما الخلاف المستعصي بينكما؟ - سألت عائشة وقد أحست بأن ثمة إشكالاً بينهما.

- لا مشكلة بيننا، أخبرته أنني لا أشرب الخمر... - تجاهل فخري ما سألت عنه.

أصلح الكونت شارل دو فيريول الموقف مبتسماً لمرجه:

- فخري لا يأكل اللحم الأبيض.

- وأنا لا أكل!

- ماذا إذن - سأل الكونت شارل دو فيريول الذي ينقضون "مائدته الملكية" عائشة مغلباً عليها اسمها الفرنسي - ستأكلين؟

- أنا؟ - خرج من فمها أول أكلة أديغية جاء على رأس لسانها: - شيبس وباستا!

- وما هذه الأكلة؟ - لم يفهم شارل دو فيريول الاسم الذي لم تلتقطه أذناه.

- ابتسم فخري وأفهم الكونت ما تريد الصبية:

- "الشيبس باستا" أكلة شركسية: الشيبس يصنعونه من حساء الدجاج، والباستا من طحين الذرة. الشراكسة يُعَدُّون من لحوم البقر والغنم والدجاج والديك الرومي وطحين القمح والذرة والحليب والبيض والقرع والشمندر

والملفوف والفليفلة والبصل مأكولات كثيرة. أليس كذلك يا أيسيه؟ رويت لمضيفنا أصناف مأكولاتكم وتنوعها.

- نعم، حقاً! - ابتسمت عائشة بعينيهما الخوراوين الصافيتين في وجه شارل دو فيريول، مسرورة لما سمعته.

- لا أعرف الكثير من المطبخ الشرکسي - لام الكونت نفسه محتفظاً ببشاشة وجهه - ولكن إن كنت تعرف كيف يُطبخ ما ذكرت فسنصل غداً إلى المنزل الذي سيحضّر فيه في باريس. ولذلك لنصل أنا وأنت يا شارلوت إليزابيت أيسيه، قبل أن نمد أيدينا إلى ما أتونا به.

- يا فخري! - صرخت دون أن تفهم لماذا جفلت، وإن أحست أن في كلام الكونت شيئاً غير مقبول.

- وهو سيصلي إلى ربه، ونحن إلى ربنا - قالت عائشة، وكأن شيئاً لم يحدث، حين همّ الكونت برسم إشارة الصليب:

- كما يصلي فخري إلى ربه سأفعل أيضاً، ثم سأرسم صليب ربك.

- إنه ليس ربي وحدي يا شارلوت إليزابيت أيسيه - نصح شارل دو فيريول عائشة دون أن يُفصح عما لم يعجبه. - هو ربك أيضاً، لا بأس أن تتصرفي كما تفعلين الآن إلى أن تؤمني تماماً بالدين الذي اعتنقته في كنيسة سان - جان الكبيرة. لا إكراه في أمور الإله، ما تتقبلينه بقلبك وروحك هو دينك.

أصغت عائشة إلى قضايا الإله التي تكلم فيها شارل دو فيريول، ثم سألت - دون أن تقصد تغيير موضوع الحديث - وقد تذكرت ما كان أبوها يقول، عما يُقلقها:

- أأطعمتم الخيول والساسة؟

- نُطعمهم الآن - قال الكونت، ثم قال في نفسه: "انظر إلى أين ذهب ذهنها!... شاركتني في ما أفعل بدلاً من أن تهتمي بها وبهم".

- ليس إطعامنا مشكلة، الخيول والساسة هي من تتعب طوال النهار- ثم رسمت إشارة الصليب دون أن تستطيع أن تميز إن كانت راغبة في ما تفعل أم لا. وأضافت إليها "بسم الله" ومدت يدها إلى الطعام.

- آمين! - أضاف شارل دو فيريول لنفسه ما لم تنطق به عائشة. وتناول فخري الخبز غير مرتاح، لا إلى طريقة دعاء عائشة، ولا إلى "آمين" شارل فيريول.

طلب شارل دو فيريول تبديل أطباقه أكثر من مرة ناسياً أن "المسلمين" أفسدا عليه مائدته الملكية. يحتسي النبيذ، ويراقب الثمالة في الكأس، ويبدل صدار الطعام الأبيض، ويمسح من حين لآخر شفتية الحماوين الغليظتين. ويضع في صحن عائشة أكثر التفاحات نُضجاً، ويسألها إن كانت تريد طبقاً آخر.

لا يزال فخري الذي انتهى من طعامه باكراً جالساً كحطبة مدببة مغروسة في الأرض. ومن يُخصب المائدة حقاً هو الكونت ذو الوجه المتورد "لو كان مكان هذين المسلمين امرأتان فاجرتان بُحيدان التصرف لما فضّلت عليهما شيئاً. هذه أرض فرنسا!... وهذه العنيدة الصغيرة التي لا يعجبها شيء لا أعرف كيف ستتعامل معنا، غير أنها ستصبح جميلة في غضون ثلاث أو أربع سنوات..."

- هذا ما يحدث لك إن لم يشاركك المائدة من يوافقك - يرفع شارل دو فيريول كأساً لنفسه - هات أيها النادل كأساً أخرى من "البورغوند"!

- تُفرط في الشراب أيها الكونت - اعترضت شارلوت إليزابيت أيسيه حين سمعت اسم "البورغوند".

- هكذا؟! - إن كان رأيك هكذا يا شارلوت إليزابيث أيسيه فسأتوقف -
وأكمل بعد قليل وهو يزيح من أمامه الكأس التي لم يكملها: - أراك مللت منا
يا أيسيه. اطلب يا فخري من الخدم أن يجهزوا لأيسيه فراشها، ثم عُد إليّ.
سنسهر بعد قليلًا.

وقالت أيسيه بالفرنسية مرتاحة لانصرافها، مودّعة بإيماءة من رأسها:

- ميرسي!

نفض الكونت فرحاً بأول كلمة فرنسية تنطقها أيسيه، وأجاب مع إيماءة الرأس:
- وأنت أيضاً شكراً لك يا شارلوت إليزابيث أيسيه. تصبحين على خير. - وما
إن غادر فخري وعائشة الغرفة حتى صاح إلى الخادم جذلاً: - جدّد المائدة
أيها النادل، واستدع هاتين المرأتين!

VI

بعد الظهر ظهرت من بعيد أبنية عالية تداعب حر الهاجرة. وزادت الأحصنة التي عرفت أن مشوارها قارب على الانتهاء من سرعتها. وعجلات العربية تتراقص مع المرتفعات والمنحدرات. ويتناثر في الهواء الحار الثقيل وقع قوائم الأحصنة الأصم.

ويجوم عقاب فوق السماء الخالية من أي سحابة. والمواشي التي غرّها حر الصيف تحتمي بظلال الأشجار تطرد الذباب بأذيالها. والراعي الصغير يسلي نفسه. يعزف على المزمار للكلب المرقط الصغير المقعي أمامه. وفي البرية حصّادو الحشيش وجامعاته. وأحياناً يقفز من الحقل سرب من عصافير الزروع. ولكنها لا تمضي بعيداً فتهوي. وحيث يستريح الثوران بقرب مجرى الماء يلعب أطفال جامعات القمح لعبة الاستخفاء.

- يلعبون "الطميمة"... - تنهدت عائشة وهي تحدث نفسها - ونحن كنا نلعبها على منحدرنا.

وقبل أن يفرغ فخري من ترجمة أشواق عائشة وذكرياتها بادر شارل دو فيريول وكأنه فهم كلامها - بديهي أن الأطفال يحبون اللعب، لهذا يصفونهم بالمرح. وكلّ أمامه ما كتب الله له. أنا في النسب كونت، وفي المهنة موفد الملك. وفخري مترجم ومسلم حقيقي. وأنت يا شارلوت إليزابيت أيسيه لست من طبقة العامة التي ينتمي إليها الأطفال الذين غبطتهم، يسري في عروقك دم أميري. ولكن بما أن الله كتب لنا أن نصبح من أسرة واحدة فأنت الآن كونتيسة، من أغنى البيوتات الفرنسية.

- ولكن ألم تشتريني؟ - قاطعت عائشة الكونت دون أن تقصد مجافاته.

- أشفقت عليك لأنهم يبيعونك فاشتريتك!

- ورفيقاتي كنَّ معروضات للبيع أيضاً. - لم تتزحزح عائشة عن السؤال الذي كان يشغل بالها.

- إن كنت تتذكرين كانت تلك المرأة السوداء ذات الصدر الضخم، والتي كانت تسخر منك، معروضة أيضاً للبيع. بل كانت تتوسل - أجاب شارل دو فيريول بشيء من الهزل كما اعتاد أن يخاطب النساء الكثيرات اللواتي اخترهنَّ - ولكن ليست هي من اشتريتها بل أنتِ لأنكِ رُقتِ لي، أهذا مستحيل؟!

جرحت كلمات شارل دو فيريول الأخيرة قلب فخري. ونظر إلى الصبية التي تزداد كل يوم أدباً وعلماً بعين راضية معرباً بنظرته عن موافقته لها في رأيها. ومساء أمس حين أنجز ترتيبات نومها وقال لها "تصبحين على خير" أجابته "وأنتما لا تنسيا أنكما على طريق"، تذكّر فخري هذا الموقف قال في نفسه "وأنا كان لي يدٌ في كارثتها"؛ فسأل نفسه "يا رب أ تكون لاحظتُ شيئاً مما أتوجس منه؟"

- اشتريتني لأنكِ تملك المال - أجابت عائشة الكونت دون أن تفهم سؤاله - وأنا لو كان عندي مال لافتديت نفسي، وكلفتهم أن يعيدوني إلى وطني. - قوة المال يا شارلوت إليزابيت أيسيه - ضحك شارل دو فيريول بوجهه الطافح - أظنك فهمتها الآن. لولا المال من أين لي العربة التي يحرسها أربعة فرسان؟!

- كنت أظنها لسلطانكم!

- ما من أمر لا يتدخل فيه أوامر سلطاننا وأفعاله يا شارلوت إليزابيت أيسيه. ولكن المال والملك فوق الجميع. أليس صحيحاً يا فخري؟

- صحيح أيها الكونت، صحيح - وافق فخري الكونت باسمًا على مبدأ "غري لصاحب العربّة التي تركبها" - وعبر عن رأيه في الموضوع الذي كان يشغل باله في الأشهر الأخيرة: - ولكن هناك أشياء كثيرة لا يشتريها المال: الرجولة، والشرف، والحب والصحة والرحمة - سرد بضعة أقوال مرتاحاً إلى أنه تسبب في أن ينسى الكونت وعائشة الجفوة التي نشأت بينهما. ولكنه ندم على إدراج "الحب" بينها.

- أوافقك على كلمة واحدة فقط مما سردت - ضحك مرة أخرى شارل دو فيريول المسرور في داخله، وكتفاه ترتجآن مع خديه المتوردين - ما الرجولة وما الشرف؟ أتصارع بطنك الفارغ نافخاً صدرك برجولتك؟! والمال هو الذي لا يسمح لجذر الشرف بالاهتزاز. قل إن كنت تعرف غير هذا يا فخري، أما أنا فلا أعرف. وملكننا الوضيء - أنتم ما شأنكم به، ثم ماذا يوصلكم إليه - يعمى بصره عنده أحياناً. والحب؟ "باريس، باريس، هيه يا باريس!" وأضيف إلى جوارها إستانبول، أعفني من سرد أخبارها... لماذا يا فخري ننشر غسيلنا أمام الصبيّة؟!

- والرحمة؟ - سأل فخري محدثه حتى يستفيض شارل دو فيريول في الإجابة عن الأسئلة التي يحبها.

- هذا شيء آخر يا فخري. لم يخلق الله إنساناً عديم الرحمة. وأنا لم أستطع مغادرة سوق السبايا وحدي. وها أنت ترى ما فعلت لأجل هذه الصبيّة. ولكن لا شك أن الدنيا ستؤول يوماً إلى المال العديم الرحمة. ونحن نتجه إلى هذا المصير، بل نجري إليه. - صرخ الكونت وكأنه وجد ليرة كان فقدوها - انظري يا شارلوت إليزابيت فيريول: هذه البراري المتلاصقة كلها التي لا يحيط

بها البصر مُلكٌ لآل فيريول! نحن على استعداد لأن نزود باريس بكاملها، بما فيها فيرساي وتريانون، بالخبز والخضرة والفواكه.

تنهدت الآن أيضاً عائشة التي كانت تنهب البراري بعينها:

- ونحن كانت أراضينا على ساحل البحر!

- ما الذي امتعضت منه أيسيه؟ - سأل شارل دو فيريول.

- ترى كل شيء جميلاً، يعجبها كل شيء - كتم فخري، كما في يوم سابق، الذكريات الحزينة التي طفت على سطح ذاكرة عائشة.

ولماذا لا يعجبها؟ انظري إلى يسارك يا أيسيه، هذا هو قصر فرساي، وتريانون. هناك يعيش ملكنا الشمس لودفيغ الرابع عشر. سأصحبك إلى هناك، وسأريك إياه. وسأعرفك على ملكنا الوضيء. وحين نرتقي الربوة، وندع يميناً ريف الإليزيه سنطلّ على بيوت باريس البيضاء. وقبلها سنعبر نهر السين على الجسر الحجري الطويل. ثم سنعبر السين نفسه في المدينة ثلاث مرات، ونتجه إلى شارع القديس "نيف - سان - أوغستين". وأخيراً ستصفّ العربة على المدخل الفسيح لقصر آل فيريول.

لم يكن ما تراه عائشة يدع لها الفرصة لتتنفس، ولا تملك أمام ما ترتقيه من جسور عالية، وما تراه من أبنية بيضاء شامخة، وارتجاج العربات الرائحة والغادية، وصرير عجلاتها، إلا أن تغمض عينيها، فتعيدها أصوات الباعة المتعالية إلى وعيها. وهكذا أسرع الركب إلى شارع نيف - سان - أوغستين، وما هي إلا أن وجدوا أنفسهم يترجلون أمام قصر آل فيريول.

حين فتح البوابون باب العربة نزل شارل دو فيريول بكل أناة، ومد يده إلى عائشة محيياً إياها بإيماءة خفيفة من الرأس، سلمته يدها وكأنها ليست تلك التي ضربته على يده في سوق النخاسة بإستانبول، ونزلت. ولم تفكر في أن تفلت

يد الكونت وهي تنظر إلى المستقبلين، بل كانت تزداد تمسكاً به. والتفتت قلقة على فخري، فلما رآته اطمأن قلبها.

كانت الكونتيسة ماري - أنجيليك وأختها كلودين - ألكسندرين واقفتين على أعلى الدرج الحجري العالي. ووقف البوابون والبوابات فرادى على اليمين واليسار. وكان لاروش طبيب آل فيريول يقف أعلى من الخدم بقليل. ومن لم يكن شارل دو فيريول يراه بين المستقبلين هما أخوه الأصغر الكونت أوغستين - أنطوان وأخو زوجته بيير. أفلت ابن أخيه أوغستين، بون دو فيل ذو الأعوام الخمسة يده من يد خالته كلودين - ألكسندرين ونزل من الدرج الحجري الذي اعتاد عليه. ودون أن يركض إلى عمه وقف إلى جانب عائشة وصافحها وكأنه يعرفها منذ بداية عمره.

- هذه الصبية التي جئتكم بها اسمها شارلوت إليزابيت أيسيه - قال الكونت شارل دو فيريول بصوت واثق مدوّ - اشتريتها من سوق النخاسة بإستانبول. وهي من الشراكسة الذين يعيشون شرق البحر الأسود. يتيمة الأب والأم. وما إن دخلتُ بها فرنسا حتى اعتنقت الكاتوليكية في مجمع سان - جان الكاتوليكي في ليون. وطلبْتُ تسميتها "شارلوت إليزابيت أيسيه". وصاحبنا الآخر هو فخري، تركي يعرف اللغتين الفرنسية والشركسية. وسيظل مترجمنا إلى أن تعتاد علينا شارلوت إليزابيت أيسيه. سنربيهما، ونصنع منها ما نريد. ثم نعاملهما كما يأمرنا الله. نقول لها: على الرحب والسعة، وليكن قدومها خيراً.

لم تكن عائشة الفتاة الأديغة تبدي نفوراً من آل فيريول وإن لم تعتدْ عليهم. ولم تنفّرهم من نفسها أيضاً. لم تتخلّ عن الخوف والريبة والتوجس والتحسس من كثير من الأمور، ولكنها اقتنعت بأن عليها الرضوخ لما جرى لها لأنها بدأت تشعر بأنها فقدت كل شيء، وأنها تعيسة الحظّ.

كانت، حين تأوي إلى غرفتها النظيفة المجهزة بأحسن أثاث، تصاب بالذعر أحياناً ناسية أين هي الآن، فتخفي رأسها تحت الغطاء وتقضي ليلتها في البكاء. وحين تصيها مثل هذه النوبة نهاراً فمأواها ماري - أنجيليك. ليس لأنها تحبها أكثر من غيرها، ولكن لأنها تعرف أنها ستجد هناك دائماً الصبي بون دو فيل الذي تعلق بها وتعلقت به. ثم إنها كانت تفهم كلام هذا الصبي أكثر من كلام غيره.

ولم يكن سلوك كلودين - ألكسندرين المعتدة بشبابها سيئاً معها. غير أنها كثيراً ما كانت تقضي وقتها في الفراش تقرأ، أو تغيب خارج البيت، فلم يتح لها أن تصبح سميرة لها.

طوال حياة عائشة في بيت أهلها لم تر إلا كتاباً واحداً. وهو الكتاب الوحيد الذي كانت تقرأ فيه جدتها "شابه" بصوت مسموع. والاسم الذي يطلقه أبوها وأمها على الكتاب هو "القرآن العالي". وحين تسأل جدتها: "وماذا في هذا الكتاب؟" تجيبها "فيه كثير من الأمور الحسنة يا حبيبتي الصغيرة، ومن أجل أن تفهم ما فيه يجب أن تتعلمي لغة الله" - وربما كان هذا هو السبب في ميلها إلى كلودين بقليلها. وهناك سبب آخر: إذا كانت الجدة لا تسمح لعائشة أن تمس كتبها فإن كلودين لا تمنعها من ملامسة كتبها. "ولكن في كتب كلودين صوراً فاحشة" حين رأت عائشة في أحد الكتب صور رجال ونساء عاريات رمت بالكتاب إليها في فراشها وهربت من غرفتها. كُتِبَ بون دو فيل أفضل من كتب كلودين: ما من حيوانات أو طيور أو أشجار وجبال إلا فيها. وبون دو فيل الصغير يقرأ في هذه الكتب كما يشرب الماء. وهو يقول لها "أنت أيضاً اقرئي لي! ولكن كيف تقرأ وهي أمّية؟!"

بدأ، ليس أهل شارل دو فيريول فحسب، بل كل معارفه، يلاحظون أن الكونت منذ رجع من إستانبول إلى باريس تخلّق بكثير من الأخلاق والعادات الحسنة الجديدة، وقلّت النساء اللواتي يعاشرنه، وأصبح يعود إلى البيت في وقت أبكر من ذي قبل.

أما فخري فكان يتألم كل ما فيه لأنه سيترك الصبية عائشة وسط أناس أغراب في باريس. لا يثق بشارل دو فيريول لأنه يعرفه أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر. يراقبه من بعيد، ويختبره. فيقول لنفسه أحياناً حين تخطر له الفعلة المشينة التي يمكن أن يفعلها الكونت "ليتني استطعت أن أُحلّص هذه الصبية من الكونت المحتال، قبل أن يتخذ منها لعبة، فأعيدها إلى أهلها؛ كنت كسبت ثواب الله. حتى ماري - أنجيليك التي لها زوج وأولاد ممتازون تغادر كل مساء في العربة الفخمة، في أبهى زينة وأفصح لباس، ويُعيدونها في أنصاف الليالي. وكلودين - ألكسندرين أختها، ذات العينين النجلوين، والتي تفوح منها دائماً رائحة الشراب، ولا تعرف هي نفسها عدد عشاقها وأسماءهم، تغيب أكثر الليالي عن البيت. وأما ذلك الموفد إلى إستانبول، مدّاح نفسه، الذي لا يكلّ ولا يملّ فيغيب عن أنظار أهله أحياناً، ولكن ماذا سيصدر عنه غداً فلا أحد، حتى إلههم الكاتوليكي، يعرف. يجب البحث عن حلٍّ ما وإلا لطّخوا الصبية البريئة بالعار الأبدي. أنا لا أشتهيها حتى لو كنت كفوفاً للنساء، ولم يخطر لي البتة مثل هذا. - كيف تمشي أمورك يا فخري؟ - سأل شارل دو فيريول فخري في مساء رجع فيه باكراً.

- إن أردت الحق - وضحك فخري ضحكة من خارج قلبه - أعتقد أن آل فيريول لم يعودوا بحاجة إليّ.

- ماذا تقول؟ - لم يعرف الكونت كيف يؤوّل كلام فخري.

- تركني الصغير بون دو فيل بلا عمل، لا يسمح لي أن تقع عيني على عائشة.
- فهمت الآن قصدك... - وتنهّد شارل دو فيريول علامة على أن هناك شيئاً ما لا يعجبه. - وأنا راقبتهما قبل أيام. لا يجوز الاستمرار في لغتهما الخليط من الفرنسية والشركسية. يجب أن تتعلم شارلوت إليزابيت أيسيه لغة فرنسية صافية. ولا يمكن اكتساب تلك اللغة الصافية دون معرفة القراءة والكتابة، بالإضافة إلى أنها يجب أن تتعلم العادات والتقاليد وأساليب التعبير والتعامل، حتى طريقة الضحك مع الناس على الطريقة الفرنسية. وأنا عندي أفكار جيدة بهذا الشأن: بعد بضعة أعوام سأصحبها إلى أمسيات ملكنا المنير، ويراها الناس هناك، وأجعلهم يغبطوني عليها. وقد فاتحتُ ملكنا في هذا الموضوع ووافقتي. ونحن الآن نستعرض أحسن الأديرة التي يمكن أن تتعلم فيها.

- يسرني أيها الكونت أن تهتم بأمر تربية أيسيه - قال فخري وهو يطفئ بصعوبة النار التي اشتعلت في قلبه - غير أنك لن تستطيع تحويل الصبية الشركسية إلى فرنسية حقيقية.

- مالك لا تثق فيّ البتة يا صديقي العزيز؟! - تجاهل شارل دو فيريول الإهانة التي ألحقها به، غير أنه لم يملك أن سأل: - ولماذا تظن هذا؟
- أقول هذا، لا تؤاخذني أيها الكونت، لأن نظرتي إلى الصبية الشركسية اليتيمة غيرُ نظرتك أنت.

احمرّ شارل دو فيريول:

- لم أفهم! - الآن احتد الكونت تماماً - لماذا يجب أن تنظر إلى الصبية التي فحصتها بعيني واخترتها واشتريتها، فصارت لي وجئت بها إلى فرنسا، بعينك أنت؟! -

- الفتاة التي اشتريتها وصارت لك يا معلم - خاطب فخري جليسه بلقب الدلال "المعلم" الذي لم يستعمله منذ دخل إلى فرنسا - ليس في عيني ما يعيب ولا ما يجعلك ترتاب فيّ. لم يخطر لي مثل هذا البتة. وإن كنت لا تعرف فسأقول لك الحق: حتى لو كنت أرغب فيها لما أمكنني أن أفكر فيها.

- أعرف ذلك - حسم شارل دو فيريول النقاش، ولكن ما لبث صوته أن انكسر فقد كشف عاهة فخري. وبعد لأيٍ اختتم الموضوع: - لم أقل لك شيئاً ولم تقل لي. إن كنت تتذكر لم أتحدث معك في هذا الأمر صراحة لأنه لا يُحاض مثل هذا الحديث! ولكن أرجو أن تصارحني بسبب تغير نظرتك إلى شارلوت إليزابيت أيسيه إن لم يكن عندك مانع.

- ليس في الأمر سرٌّ، لأني أشفق عليها - وكنتم فخري ما سببته عائشة له من إهانة قبل أيام.

- حسنٌ يا فخري أن تشفق على أيسيه هكذا. وأنا لولا إشفاعي عليها ما اشتريتها. ولكن أكرر لك: لا تُخطئ ولا تشهد على ما تجهل. سأريك يوماً ما شارلوت إليزابيت أيسيه فاتنةً تخلب الأبواب. وهذا التطور يحدث في باريس أو في إستانبول. لا تستغرب كلامي فمهمتي في تركيا شهد لي فيها الملك اليوم. واختارني من بين ستة مرشحين. ورفعنا لهذه المهمة الشمبانيا وتحدثنا في أمور كثيرة. وإن انتظرتني فسنسافر معاً لأن ترتيباتي ستستغرق عدة أشهر. وبانتظار هذا الموعد سنحل أمور تعليم أيسيه في الدير كما اتفقنا.

- وماذا أفعل في باريس طوال هذه المدة أيها الكونت؟ - كما أن شواغلي في إستانبول ليست قليلة...

- إن كان رأيك هكذا ففي أي يوم تريد السفر؟

- غداً.

VII

العين لا ترى إن لم يجرّ القلب معها. ولهذا لا تشعر بجمال الدنيا: الحلو يغدو مرّاً، وما ليس فيه ملح مالحاً.

بعد الفطور لا تغادر عائشة غرفتها، حبست نفسها. تجلس ساهمة، مسندة خديها المائلتين إلى الطول بيديها الرقيقتين، لا تحول نظرها عن الجدار المزين بكتابات ونقوش دون أن تشعر بضوء الشمس الذي يقتحم النافذتين. دخل بون دو فيل الصغير إلى الغرفة أكثر من مرة وربّت على كتفيها وهزها ولكنها لم تستجب له. ولا هي مهتمة بالكتاب الجديد الذي اشتروه لها.

حين دخل بون دو فيل آخر مرة قال لعائشة بلغته الخليط من الفرنسية والشركسية، وهو يشدها:

- تعالي، ماما، كُلّ!

- لا أريد - أجابت عائشة بالفرنسية، وأكملت بقدر ما تستطيع بالفرنسية: - كم مرة طلبت منك ألاّ نتحدث بالأديغية!

ولما لم تستجب له عائشة انسلّ بون دو فيل مصطنعاً البكاء. أما الكونتيسة ماري - أنجيليك فقد شكت إلى الدكتور لاروش دون أن تذهب إلى عائشة وتتفقدتها:

- لا أعرف ماذا حدث لشارلوت إليزابيت أيسيه، لا تفارق الغرفة ولا تأكل. كأنها متوعكة.

- ليس في الأمر مرضٌ أيتها الكونتيسة، اطمئني.
ماذا إذن؟ أيكون السبب أيّ قلّت لها: كفيّ أنتِ وبون دو فيل عن استعمال لغتك الشركسية؟

- ربما، ليس مستبعداً، ولكن ليس هذا أيضاً - ابتسم لاروش ببحث وأنفه الرفيع يتقدم وجهه.

- ماذا إذن؟ - تغير لون الكونتيسة - الآن المترجم التركي جاءنا بالفتاة الخرساء وعاد هو أدراجه إلى إستانبول؟
- ربما، ولكن لا أظن ذلك.

- لا تدعني أنفجر في وجهك! - جحظت عينا ماري - أنجيليك الشرستان:- أهنك ما لا تستطيع البوح به؟

ابتسم لاروش الذي لم يتأثر بصياح ماري - أنجيليك، ولم يختلج له وجهه "من أين لك أن تعرفي ما يدور في قلب المرأة الصغيرة التي وقعت في بلاد غير بلادها وأنت لا تملكين قلباً نسائياً رقيقاً؟ كنت أظن أن قلبك سيلين متى صرت أماً ولكن إن لم ترقي مع الولد الثاني الذي في رحمك فلا أرى شيئاً منه الآن. يا أوغستين - أنطوان الطيب من حسن حظك أنك لا تعيش يوماً مع امرأتك. لا تراها هي وأختها إلا كل بضعة أشهر. وأخوك الأكبر الذي اشترى الصبية الشركسية ليس أحسن منهما. بون دو فيل الصغير هو أحسن الجميع.

- لا، لا يا كونتيسة - صرخ لاروش من بين أفكاره. - اصبري، واحرصي على سلامتك، لا داعي لأن تقلقي وثقي نفسك حزناً. لا يزال دفء الأم وحنانها في قلب اليتيمة أيسيه، ومن جهة أخرى نحن إلى رائحة النساء أكثر مما تشناق إلى رائحة الرجال، غير أنها لا تستطيع مصارحتك؛ تنتظرك!

- هكذا؟! - ضحكت الآن عينا ماري - أنجيليك الخضراوان من تحت حاجبيها الجميلين. - ظننت أنك ستفضي إليّ بما لا يليق لأن صبايا اليوم لا يمكن الثقة فيهن فأرعبتني. وجعلتني أشك في التركي المتهدل الحاجبين فاتهمته ظلماً. وربما كان هذا هو السبب في أنها كانت تحاول التقرب إليّ بحجة بون دو

فيل. وهذا كان رأي أوغستين - أنطوان في آخر زيارة له، ولكني لم أستمع إليه قائلاً: وما يُدريك أنت بالنساء، فجرحت شعوره.

- من الصعب أن تحكمي على الكونت أوغستين - أنطوان، يمثل هذا الحكم - تملى لاروش الذي لا تستطيع الفصل بين جده وهزله ماري - أنجيليك التي لا يخفى حملها وانتهى ببون دو فيل: - ومثل هذا الصبي النبیه صار بينكما، وها أنتما تنتظران غيره.

- حقاً لاروش، حقاً. - توردت وجنتا ماري - أنجيليك مسرورة لما يقال لها، - من هذه الناحية أوغستين لا يكلّ، يحبهم دائماً، لا أعرف كيف تكون مشاعره نحوي في البعيد ولكن - تأملت بطنها في لحظة استراحة، واختتمت: - لو أننا رُزقنا بالفتاة التي نتأملها لكنا راضيين أحدنا عن الآخر.

- ليس في يدكما شيء ولو لم ترزقا بصبية. وها عندكما شارلوت إليزابيت آيسيه. لا أعرف ما ستكون عليه طبيعتها، ولكنها ستصبح امرأة جميلة يتخاطفها الرجال في احتفالات الملك.

امتقعت ماري - أنجيليك التي تسمع بسيرة المرأة الجميلة أمامها، واحمرت، ولم تتمالك نفسها، ولا شفع لها الجنين الذي في رحمها:

- لو تحقق لنا - أوغستين وأنا - ما نتمناه كان أفضل. وأن يكون في جيبك كوبيك ذهبي¹ خير من أن تراه أمامك. مالك آيسيه معروف. أتدري ما أستغربه يا لاروش؟ وأصارحك لأنك صديق أستاذنا. أياكون الكونت في شيخوخته ينوي شراءاً بالصبيبة الشركسية؟ كان الأفضل مما فعل أن يؤسس أسرة. انظر ها هنّ فتيات رائعات مثل كلودين - ألكسندرين جاهزات للزواج. لا،

¹ pistole عملة ذهبية إسبانية أو أورية. المنهل.

ليس الأمر أني أطمع في تزويج سلفي من أختي. يا مريم العذراء لا تقبلي مني إن طلبت أن تتزوج أختان من أخوين. ولكنها، ليس لأنها أختي، كلودين فتاة جميلة، حلوة المعشر، متعلمة، تلقت تربية ممتازة. وهي تعيش مثلي بما يتناسب وسمعة أسرتنا الأم "غيرين دو تانسين". زينة لكل أمسيات باريس على تنوعها. ومتميزة من غيرها. تعرّفك عليهم وتُخرجك منهم. ولكن من لا نعرف مستقبلها هي الصبية الشركسية، ليس لأنني أقارنها بأختي، ولكن...

- صحيح، صحيح، يا كونتيسة. - "لو جالستها إلى الصباح لما ارتوت من امتداح أختها" قال لاروش في نفسه ووافق الكونتيسة ماري - أنجيليك دو فيريول، ثم غيّر الموضوع: - ولكن، كما قلنا، تحتاج شارلوت إليزابيت أيسيه إلى امرأة من أسرتمك تدعم روحها وترقق قلبها. ولا أقول هذا لأنني أرى موضوعها ملحقاً، بل لأنك سألتني، أجيبك واضعاً عمرها في الاعتبار.

- شكراً لاروش. ألم نكن أيضاً صبايا يوماً من الأيام؟! ألم نمر في الظروف نفسها؟ وأنا فكرت في الموضوع. ومع ذلك فالمرأة تخطر لها أفكار كثيرة. ولأنني سمعت أن البنات في سن العاشرة يُغرمن بالشأن الذي تعرفه فالتركي المسدل الأجفان وهي... ومن اشتراها، وأنت تعرف،- ليغفر الله لي - لا يرفع حرمة أحد، خطرت لي هواجس مخيفة: أيمكن أن يكونا فعلاً بها شيئاً؟ حسناً إن كان هذا رأيي - لم تستطع ماري - أنجيليك إلا أن تقدم نفسها على كل شيء - ورأيك؛ أومن أجل أن أقول كلاماً لطيفاً لأحد يجب أن أدفع ثمنه. لن أقصر من ناحيتي في شيء ولو من أجل ولدي. و كلودين أيضاً لن تشتري شيئاً ولن تتسوله، سأطلب منها مثل ما أطلب من نفسي. وأوغستين - أنطوان سيزورنا قريباً؛ سأطلب منه مخاطبة أخيه. وهل نعرف من سيخاطبه؟ منذ عدة أيام لم

تقع عيني عليه. وربما انقطعت أيسيه عن الطعام لاشتياقها إليه... الحق لا ثقة لي بهؤلاء الثلاثة.

- شارل دو فيريول غائب عن المدينة. - قال لاروش كي يقاطع حديث الكونتيسة الفارغ.

- وأين هو؟

- يتابع إجراءات شارلوت إليزابيت أيسيه.

- ولماذا؟ أسيصحبها إلى إستانبول؟

- لا، يريد إلحاق شارلوت إليزابيت أيسيه بأحد الأديرة الملكية لتتعلم وتتخلق بأخلاقنا وأساليب حياتنا وحديثنا. كان في "سان - كول" وفي غيرها، والآن هو في "سانس".

- لأول مرة أسمع هذا الكلام... - فقد صوٹ ماري - أنجيليك جدته. ثم أضافت بعد قليل إلى ما تستغربه: - لهذا السبب أقول إن آل فيريول غريبو الأطوار. لن يُطْلَعوك على ما في قلوبهم حتى لو ولدت لهم مئة مرة، وريبت لهم مئة ولد، وأحسنيت إليهم أو أسأت. أتعرف الصبية الشركسية هذا؟

- لا أظن شارلوت إليزابيت أيسيه تعرف.

- بريك! صرعتنا بترديدك هذا الاسم "شارلوت..." حتى زوجة ملكنا المنير لا يذكرون اسمها بهذا القدر!

- أنقذ ما أصروا عليه. - أنسيت يا كونتيسة كيف جمعنا الكونت شارل دو فيريول، وطلب منا جميعاً أن نلفظ الاسم الذي أطلقه على الصبية كاملاً؟

- أذكر، ولكن لا أستطيع أن أضيع وقتي في كل مرة باسمها المركب من ثلاثة. ليفرخ إن سميتها بالجزء الأخير الشركسي من اسمها... ليس هذا مشكلة يا لاروش. المشكلة في موضوع دراستها الذي ذكرته. ما سمعته عجيب، عجيب!

أنا أحسب نفقات تربيتها إن كلّفنا بها هنا في غيابه بإستانبول، وأصدع رأسي به، وهناك يتفقد الأخ العنيد لزوجي الأديرة الملكية. يبحث عما يفيد، الله وحده يعلم كم سلب من الملك. وربما علموها بالمجان لأجله في الوقت الذي لا يعرف أين يذهب بماله. لو أن أحداً ربي هذه الشركسية الشعثاء لكان أفضل. ونحن لسنا فقراء، وأملاك أخيه أوغستين - أنطوان ليست أقل. ولماذا تبدد المُلْك سُدى إن كان سيفيدك يوماً ما؟ ألا يكفي ما أنفق على المومسات؟" - عجيب يا لاروش، عجيب ما تُسمعي إياه. - أفأقت ماري - أنجيليك من هواجسها، وحسنت الموضوع بسرعة: - أنت وأنا يا لاروش لم نتكلم في أي موضوع. أنا واثقة بك. لم تخذلني مرة إلى الآن.

حين بقيت ماري - أنجيليك الكونتيسة وحدها فحسب أدركت أن بون دو فيل الذي كان يتصفح كتبه ويصغي إلى الحديث قد اختفى من أمامها. ومع أنها تحس أين يمكن أن يكون الصبي قد ركض فإنها لم تذهب في هذا الاتجاه بل اتجهت إلى نافذة الغرفة التي تفتح على الفناء.

لم يكن النهار ثقيلاً لأن الخريف اقترب. وكان البوابون يحافظون على نظافة البيتين الكبيرين لآل فيريول، في الصحو والمطر. وليس في الدار الكاملة التجهيز شيء غريب عنها، ولا ترى العين ما يؤذيها. والبיתان الآخران المتجاوران البعيدان، المتناغمان مع القصرين العظيمين، ولو لم يكونا كبيرين جداً؛ بل حتى الظلال المجهزة وغير المجهزة، وهندسة الباب الصغير والبوابة الكبيرة، إلى توزيع الأشجار وتنويع الزهور، كل هذا منسجم مع القصرين العظيمين. والدروب الضيقة التي يسلكونها في الصباح وفي المساء، تدخل في مساكب الزهور المتنوعة الألوان وتخرج منها. وتحت الأشجار المقلمة المشدّبة مقاعد ضاحية للشمس،

تتسع لواحد أو لاثنتين. وسور حجري عالٍ يحمي الحدائق والقصور. وعلى الباب رجلان عملاقان مخيفاً المظهر يرصدان بالتناوب أمام الباب ليلاً ونهاراً.

"ما تراه العينان جميل، وجيد، ويسر القلب، ويُشعر بامتلاء جسدك، يرفعك إلى أعلى ما يصل إليه إنسان، وكأنك سلطان. يدُرك من يعرفك ومن لا يعرفك. المثلث هو ما يرفعك، والقلة هي ما تهوي بك. وليس قليلاً ما يُنفق على بناء كل هذه القصور والدروب. بناء كل هذا، وإرضاء الحراس النهمين، ودفع الضرائب التي تريد كل شهر عن سابقه، ودفع الرشاوى لأزلام الحكم أشباه المتسولين. حتى لاروش وحده ماذا يُقي بيدينا عن حق أم عن باطل ولو لم نسعل أو نمرض. يلاحقنا ونحن أصحاب ناصحاً أن افعلوا كذا وكذا. لا أعرف ماذا يفيدنا وجوده؟ ألم تسمع ما ينصحي به بشأن الشراكسية الصغيرة المتمردة متبنياً موضوعها؟! وسلفي الذي شاخ بسبب شبابه الذي لا ينفد؛ ألا يستوعب الأمر؟ والغريبة التي دسّها بيننا - لا هي ابنته ولا زوجته، لو كان أباه غير الشرعي لرضيت بالأمر الواقع - ستشاركنا أملاكنا يوماً ما! نحن أسرة كبيرة، ومع ذلك ها نحن يزيد تعدادنا. لا يحسب حسابنا بذريعة أنه الأكبر؛ فيحشو جيوبه بالجزء الأعظم من دخل الأسرة، وينفقه على النساء؛ ومع ذلك يوفدونه سفيراً للحكومة إلى تركيا. لا أريد أن يسمعني أحد. ما أسعد النساء عشيقات ملكنا الصغير المكتنز، يجعلهن يتصرفن بأمالك البلاد كمن يركل الكرة. عشيقتي أنا، نيكولاى دو بلي، ما ألطفه وما أجمله! ليس له ميزة سوى أنه ماريشال، من مستشاري الملك، أما من جهة المال فلا شيء. أنفق عليه أكثر مما ينفق عليّ. الآن يجب أن أبحث عن عشيق أغنى منه. ثم إنه لا أحد غير الله يعرف أين هو. وجد ذريعة حسنة في كوني حاملاً فغاب عن أنظارى. لا مانع عندي إن لم يفارق أفخاذ امرأته ذات السيقان الطويلة، ولكن من أين

يأتي بعشيقته أجمل مني؟! - كأنه لا يعرف أن عين ملكنا المنير عليّ، يرميني بلحظه من حين إلى آخر - لو وجد العشيقه الأجل مني لما قبلت، أزهقت روحه. ليس مشكلة على كل حال، باريس ملأى برجال أغنى منه وأحلى. المشكلة في الصبية الشركسية المنحوسة. تتظاهر أمامي كأنها فأرة رومي بها في بيت لا قطّة فيه. أنا أعرف لماذا هي "حردانة". لا تحتاج إلى امرأة لسنة ناعمة اليدين، بل إلى المترجم الذي يختلس النظرات زاماً عينيه إلى جبينه. ألا يكفي ما ننفق عليها حتى ننفق عليه أيضاً؟" - ارتوت ماري - أنجيليك تقريباً - وهي جالسة إلى النافذة، ونفّست عن همومها، ونهضت وقد غدت خفيفة الحركة. وتوجهت إلى عائشة وكأنها لم تكن إلى ما قبل لحظات في سيرتها بخير أو شر. ما رأيته في البيت عجيب: كان بون دوفيل وعائشة جالسين متقابلين، ساندتين وجهيهما بكفيهما.

انفجرت ماري - أنجيليك ضحكاً، وسألت:

- ماذا حدث لكما أنتما الاثنان؟!

- أيسيه لا تكلمني. - غمغم بون دوفيل.

- ماذا جرى لك يا أيسيه، هل أساء إليك أحد؟ مرت ماري - أنجيليك براحة يدها الناعمة على رأس عائشة. ثم قربتها إليها وقبّلت جبينها بشفتين ناعمتين.

- قولي لي من هو، لن أغفر لأحد. أهو المترجم فخري؟!

- لا، بدأت عائشة بصوت مرتفع حاسم، وانتهت بصوت خافت. - فخري إنسان طيب. كان قد قال لي: إن كنت ترغين فسأشتريك من شارل دو فيريول وأعيدك إلى إستانبول، فرفضت. إلى من سأعود، ومن يسأل عني الآن؟ وأعاد إليّ هذا الزنار الصغير... - انفجرت عائشة باكية ربما لأنها تذكرت أمها، أو لأنها دسّت رأسها في حضن ماري - أنجيليك. واغرورقت عينا بون

دو فيل، ودس هو الآخر رأسه الصغير في حضن أمه من الجانب المقابل لعائشة، وشرع ييكي ملصقاً جبينه بجبين عائشة.

- كفى، كفى! - عصر الألم قلب ماري - أنجيليك، وقالت للصبيين وقد تحركت في نفسها عاطفة الأم: - ابتعدا عني، قلبي لا يتحمل، لا تتخذاني حائط مبيكى، تصالحنا ثلاثئنا.

- وبعد قليل سألت عائشة التي بدأت تعود إلى وعيها - إن كان الأمر هكذا يا أيسيه فلماذا تخاصمتما أنت وبون دو فيل. ألائي طلبت منكما الامتناع عن التحدث بالشركسية؟

- نعم، - قالت عائشة مبرئة نفسها، معلنة أنها لا تلوم أحداً. حين أستعمل بعض الكلمات الشركسية أفهم الفرنسية على نحو أفضل.

- نعم يا شارلوت إليزابيت أيسيه، جعلتني أحاسب نفسي. لو حدث لصغيري بون دو فيل مثل ماحدث لك - لا سمح الله - لقبلت، ليس أن يتحدث بـ "شركسيتك" بل بلغة البابواس¹! الآن فهمتُ مأساتك؛ حسناً فعلت إذ رفضت العودة مع التركي. ماذا كنت ستفعلين بين الأتراك الذين تعلق بهم شارل دو فيريول؟! لا بلاد في العالم تساوي فرنسا التي يتمتع فيها المرء بحريته. ولماذا كان فخري أخذ منك زناك؟- لم تستطع ماري - أنجيليك إلا أن تسأل السؤال الذي لم يفارق ذهنها - لماذا احتفظ به كل هذه المدة وأعاده إليك حين قرر العودة إلى تركيا؟

- لا أعرف، كما أعاد إليّ قبعتي قائلاً "وهذه كانت لك". ولبست هذا الزناز وهذه القبعة حتى وصلنا إلى مرسيليا. تنهدت عائشة وصرحت بما كان يُسبب

¹ قبائل تعيش قريباً من ماليزيا. المترجم.

لها الأسى. - انتزعت منهم هذه القبعة بعدما كانوا همّوا برميها مع سائر ملابسي بعدما كسّوني في المخزن. ولكن لا أعرف متى صار الزنار بيد فخري. شكراً له إذ لم يُضيّع. ليس فيه ما يُغري، إلا أنه مطرز باسم أسرتي.

- الزنار جميل - قالت ماري - أنجيليك من أجل أن تُسعد الصبية الصغيرة. والقبعة الصغيرة جميلة جداً. ما أسعد المرأة الماهرة في الوشي بالذهب والفضة!

- إن كنت تريدان يا ماري - أنجيليك - والتمعت عينا عائشة الصافيتان - سأعلمك كيفية التطريز بخيوط الذهب.

- أتعرفين التطريز حقاً؟!

- كانت جدتي علمتني. كانت جدتي "شابا" تقرأ في الكتاب الوحيد الذي في بيتنا بصوت عالٍ. ولكنها بدلاً من أن تعلمني القراءة وجّهتني إلى التطريز. إن كان عندك إبرة وخيوط فليس أسهل من تعلمه. وإن أراد بون دو فيل فسأخيط له قبعة جميلة.

- لا أريد قبعة بنات! لم يقبل بون دو فيل بما سمع.

- لم أقل لك: قبعة بنات يا بون. - استغربت الصبية صياح الصبي. - أتكلم على القبعة التي يلبسها صبيان الشراكسة.

- لا يا أيسيه - قلقت ماري - أنجيليك كما لو كانوا يأخذون مقاس رأس ابنها - لا يحتاج الكونت بون دو فيل إلى قبعة شركسية. لا يجوز إجبار الأطفال على أي شيء! ليدرس بون دو فيل، وليكتسب تربية ممتازة!

- وأنا سأدرس، صاحت عائشة على الفور.

- وكيف؟ - سألت ماري - أنجيليك ناسية ما كان الطبيب لاروش قاله لها.

- لا أعرف... - نظرت عائشة في وجه الكونتيسة بحزن. لم تكتف ما تعرفه وإن لم تعرف غير الله. - الكونت شارل دو فيريول قال لي إنه سيعلمني. ويبحث

عن أفضل مكان لتعليمي. والآن هو في "سانس" واليوم سيعود. وعلى ما أظن
فالمملك مطَّلَع على ما يفعل. - رفعت من قيمة الخبر الذي روته.
- وأنا على دراية بالموضوع. وحين عرضه عليّ الكونت شارل دو فيريول
وافقته، بل شجعته. التعلم جيد. - منحت ماري - أنجيليك نفسها بنفسها
قيمة عالية حتى لو لم يكن لها أي علاقة بالأمر. ولم تملك إلا أن تصارح الصبية
بما يشغل بالها: - التعلم خيرٌ من أن تجلسي واجمة ويدك تحت خدك. ألا
تسمعين وترين كيف يقرأ بون دو فيل الصغير في الكتب؟ - "على ما يبدو
نحن لسنا من الأسرة في شيء، تُرتَّب أمور كثيرة من وراء ظهورنا. أنتظر عودة
الدب المسكين أوغستين - أنطوان لأفرغ فيه ما أعرف وما لا أعرف. سنصبح
بمثابة الحيطان الصماء لهم بذريعة أنه أخوه الأكبر" - عتقت ماري - أنجيليك
نفسها وهي تتميز غيظاً.

VIII

كل إنسانٍ، دون اعتبار للغته التي يتكلم بها، وطعامه، ولباسه، وأصل قومه، وموطنه حيث يعيش، يحمي شخصه وشرفه وملاعب صباه؛ وباختصار: إنسانيته. وينطبق هذا المبدأ على الطيور والحشرات والزواحف، ولكن الإنسان بعقله وفطنته، وخبثه وعناده، وحسده وغيبته، ورحمته وظلمه، يُسيك سائر المخلوقات.

يعود فخري إلى تركيا وهو يفكر في هذه الأمور وغيرها. ولا تفارق ذهنه الصبيّة التي تركها في حضن الأسرة غير المتفاهمة. ويظل موضوعها يطفو على السطح وإن حاول إزاحته. وحين يفكر فيها يجد نفسه مذنباً في شأنها. وكل من له رجالان من المخلوقات، وهو منهم، يسن أسنانه لما ليس له، وما يعلق بينها لا فكاك له.

حتى لو كان الهواء هو من يدفع المركب فقد كان من ابتكار الإنسان. وحين لم يكن يملك الشراع استعمل المجاذيف. ولم يتوقف عند هذا الحد فركب فيه مرجلاً، وزوده بالمدافع وسائر أنواع السلاح تحسباً للمسافات التي يقطعها، وللعدو الذي يمكن أن يقابله. ومن أين لمن لا يملك أدوات إلا ما قدمته الأم مثل هذا العقل المفكر؟

- أراقبك طوال النهار فأراك لا تفارق جانب المركب. أترى للمرة الأولى ما في البحر من كائنات؟ - سأل قبطان المركب فخري مهموماً بأمن الركاب. -
هناك ما يُقلقك؟ أمكنني أن أساعدك في شيء؟
- مضى عليّ بعض الوقت على الطريق ومع ذلك - ابتسم فخري راضياً - لم يسألني أحدٌ مثل سؤالك.

- ليس في هذا ما تستغربه يا أخي - قال القبطان الأجرد من اللحية والشاربين - هذه مهمتي أنفذها. أمرك عجيب؛ أنظر إليك فأرى وجهك يشبه وجهي كثيراً؟ أخبرني إن كان ضاع منك أخوك الأكبر!

- ولكنك أنت أشقر وأنا أسمر - قابله فخري بمزحة.

- وأنت لست أسمر فاحماً، ولا أنا أشقر تماماً يا أخي الصغير. الأتراك متنوعو المشارب ولكنهم جميعهم مصوغون من سيف واحد لعثمان. كلنا إخوة وأقارب. أنا اسمي سليمان، ونادني دون تكليف بـ "سو" وأفضل من أن تقول "قامه"¹ أن تقول "سو" - وإن قلت "بسه"² أليس أفضل؟ السيف يقتل، والماء عماد الحياة. وأنت ما اسمك؟

- اسمي فخري.

- هذا اسم جميل وجيد. ولكن أفضل شيء وأغلاه هو أن نعيش سالمين أصحاء بفضل الله تعالى في هذه الدنيا الفانية.

- صحيح وحق يا سليمان!

- نادني "سو" أنا قلت لك؟! - قاطع سليمان ما بدأه فخري - وهذا ما يخاطبني به الفرنسيون في مرسيليا.

- حسناً، فهمت يا سو - حين نظر فخري بإمعان إلى سليمان أدرك تشابههما في المظهر، ولان قلبه قليلاً، وأكمل كلامه: - صحيح كلامك، حق، لا يجوز أن ننسى فضل الله علينا. وإن أنت أكثرت من فعل الخير في دنيا الله العارية كان حسابك يوم الحشر أسهل. أما الفرنسيون الذين يخاطبونك في

¹ سيف قصير مشهور عند الشراكسة. المترجم.

² ماء بالشركسية. المترجم.

مرسيليا "سو" فأنا أعرف عنهم شيئاً. أناس مرحون، يسهل اتخاذهم أصحاباً، يشربون من النبيذ أكثر مما يشربون من الماء. ويحبون اللحم الأبيض، لحم الخنزير. ليسوا سيئين، غير أن رجالهم ونساءهم مهووسون بالجنس، منفلتون.

- أوافقك على ما قلت، ولكن نظرتي إلى النساء مختلفة. ماذا تفعل بنبيذهم وكرومهم وضافدعهم وأفاعيهم؟ لا تأكل ولا تشرب، لا أحد يُجبرك. وإن كنت لا تشرب النبيذ - سحب سليمان غليونته فجأة ورفعته في الهواء - فإن نساء فرنسا سيُسكرنك ويُشبعنك! لسن مثل بناتنا التركيات.

- صحيح يا سو، غير أن الجنس يمارس سرّاً.
- أليس ممتعاً يا أخي لأنه سر؟! ليس ألدُّ مما تسرق أيها المسكين! أعاد سليمان غليونته نصف المشتعل مسروراً في قلبه. ومصّ دخان غليونته بضع مرات ثم سأل: - كم زوجة عندك؟ أتعيش على أربع نساء كما سمح الإسلام؟
- عندي واحدة فقط. - كذب فخري على سليمان الذي صار فجأة صديقاً - وشرح له لماذا "واحدة" - وهذه أعيلها بشق النفس.

- والأطفال، أليس عندك؟

- لا.

- هذا سيء - قال سليمان بإشفاق.
- نأمل في أن يعطينا الله - زاد فخري الآن في كذبه دون أن يعرف السبب.
- ليحقق الله الذي يتوسل إليه الكثيرون، ولا يحتاج هو إلى أحد، أمنيته! ما العمل، لأجل هذا سمح الإسلام للرجل بأربع. وفي هذا حكمة إلهية. صحيح أنه ليس في الأمر ضرورة. إن كان مالك يعيلهن، وفي إمكانك إرضائهن.
- وإن كان الرجل عاقراً؟ - بدأ فخري يصدق كذبه!

- إن كان الأمر هكذا وجب الامتثال لحكم الله. - قال سليمان، وريت على كنتف فخري. - لا يجوز أن تقول هذا وتموت في قهرك. لا تفهم أسرار الجنس من امرأة واحدة. نحن، وإن كان لدينا أربع نساء، ننسلّ أحياناً من بينهن، ونجرب الحب السري كما تقول. - ضحك القبطان بحماسة وهو يُفرغ الغليون. الآن فقط سَرَتْ إلى فخري رائحة النبيذ القوية من فم سليمان. - لا تحرم نفسك من مُتَع الحياة يا أخي. ما تَمَتَّع به نفسك من مباحها مكسب لك. أنت ما تزال شاباً بالقياس إليّ. وما يقول الأتراك "حين تنحدر إلى الشيخوخة يتقاضاك الشباب" ربما يكون صحيحاً. أنا أثّر معك مذكّراً نفسي بالماضي فحسب؛ وإلا ماذا تجني من سنواتي الستين. أسبح في البحر الذي غطسْتُ فيه يوماً بمشقة. وإن أردت الحق فأنا أحب الثثرة مع الأصاغر مني سنّاً. "أي أفاق عنيد هذا الذي وقعت بين يديه؟" فقد فخري شيئاً فشيئاً رغبتَه في سماع سليمان الذي كان يُحبطه، وفي رؤيته. وفيما هو يبحث عن ذريعة لمفارقتَه وقعت عينه على السفينة القادمة.

ارتعدت أطراف فخري في هذه اللحظة، وتذكر طفولته. كان عُمر فخري آنذاك سبع سنين. وكان محمولاً في مثل هذه السفينة الغربية. ثم أدرك أنهم يحملونه إلى مصر. كان مجموع الصبيان الأسرى، بمن هو فيهم، عشرين، وتسعة عشر منهم من الأديغة، وفي هذه اللحظة أدرك البؤس الذي يعيش فيه الأديغة، وسمع فيها لغتهم. وفي خلال خمس سنوات في القاهرة ثم في دمشق لم يسمع فخري إلا لغة الأديغة والعربية. ثم اشتراه لاحقاً فرنسي من حملة الصليب، وأبحره في جزيرة كورسيكا. وحين هرب في الخامسة عشرة من العمر وعاد إلى إستانبول وقع في يد مجرم تركي واستفاد من لغته الشركسية. وقد

مات هذا المجرم منذ زمن بعيد، ولكن رفيقاً له هو المجرم الآخر عصام، هو من يلاحقه فخري اليوم.

- أترى يا فخري كيف تجري هذه السفينة بأقصى سرعتها نحونا؟ - وفيما هو يرفع للقبطان الآخر الواقف أمام دفته إبهامه ودّعه قائلاً: - لو كان مركبي أنا أيضاً محشواً بالأموال لما اكتفيت بالسباحة بل طرت طيراناً. ليس محروماً من الحظ سليل الكلبين هذا. وأنا ماذا؟ ذهبت إلى فرنسا خالي الوفاض ورجعت صفر اليدين. ما الفائدة من مزاحمة هؤلاء الفرنسيين الذين يكررون "بونجور" و"ميرسي" و"سي لاني"¹. يا فخري ليس الغرب مجالاً للربح، الشرق فقط. مصر والشام تغامر فيهما حقاً، ولكن تستطيع أن تخرج منهما بما يكفيك العمر كله. لا يحتاج الأمر إلى الكثير فيهما، خمسون طفلاً أسيراً أو ستون. انظر، لم أخطئ، ها هم يجلسون خمسة خمسة.

لم ينظر فخري فيما السفينتان تفترقان متبادلتين التحيات إلى الأولاد المقيدين على السطح. بل نحى نظره معترفاً بالعجز عن فعل أي شيء. ودون أن يستطيع تمييز أي صوت من خلال صياح سليمان دار رأسه واعتصر الألم قلبه. ما أكثر ما في الدنيا من متناقضات تعرفها ولا تعرفها. الليل والنهار، والشتاء والربيع والصيف والخريف. برّد حيناً وحرّ حيناً. صحو ومطر. شرق وغرب، وشمال وجنوب. وفي كل مكان يعيش أناس. يضحكون ويبكون، يكبرون ويبنون قبوراً. وكلّ يجد مسقط رأسه، سواء كان البرد يُجرّقه أم الشمس تشويهه، أجمل مكان وأنسّه. وماذا عن الحظ والحب والاحتقار؟ هذه متفاوتة كما مظاهر الناس وسُحناتهم وملابسهم. هناك حظ يدوم طويلاً، وآخر يزول

¹ بالترتيب: صباح الخير، شكراً، هذه هي الحياة. المترجم.

سريعاً. وليس قليلاً الحب الذي يحرقك والحب الذي يُشعرك بالدفع. والاحتقار يلاقي من يناسبه وذنب البارحة ومعروف اليوم هل يتصافيان؟ أتداوي من جرحته إذا نفثت في وجهه؟ الجرح يطيب ولكنه يترك ندبة أبدية. بددت الصرخات التي ارتفعت في السفينة والفوضى أفكار فخري. وحين نظر رأى سلسلة عظمية لطفل يرميها أحدهم أمام سليمان:

- ما هذا؟ ومن هو؟ - دفع سليمان الصبي بطرف جزمته وأبعده.
- هذا القدر الصغير - رفع الرجل ذو الساعدين المكسوين بالشعر الصبي عن الأرض - يركب معنا إلى إستانبول دون أجرة.

- امنعه، سيخنقه - قال سليمان وضحك - وهو على كل حال يكاد يتنفس، كيف ركبت سفينتي؟

- ركبت لأني أود العودة إلى ديارنا - حاول الصبي النهوض غير أنه لم يلبث أن انهار.

- إلى أين ستذهب؟ أسمع ما يقول، ركب سفينتي لأنه يريد العودة إلى دياره... - سخر سليمان من الصبي مقلداً إياه - أين قلت ستذهب؟

- إلى تركيا لأني تركي.. - نطق الصبي هذه الكلمات بصعوبة ثم بكى.
- اسمع ما يقول! - سخر سليمان ثانية من الولد الأسير الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة. - لأنه تركي يعود إلى تركيا!

- يا سليمان - نادى فخري القبطان وقد نفذ صبره - ما تفعله عيب، لن يقبله الله منك.

- أنت يا فخري؟ - نظر إلى فخري كأنه يراه أول مرة، ثم صرخ وهو ينظر نحو السفينة المبحرة نحو الشرق: - أنا من لن يقبل الله منه؟! ذاك ينقل الأموال، وأنا أترجى الصبي المحتضر. إن بعته أم اشتريته فلن تستطيع انتزاع قلبه التركي.

- سيموت بين أيدينا ويبلوننا... - دمدم الرجل ذو الساعدين الغزيي الشعر.

- ربما كان مصاباً بالطاعون...

- هل تراجعته؟ ماذا تقول؟ - نهر سليمان الرجل وقد جحظت عيناه. -
ارمه من السفينة!

- لن ترميه! - وقف فخري على رأس الصبي - ليس مريضاً، ألا ترون أنه يموت جوعاً؟

- لم أذق طعاماً منذ خمسة أيام... - شهد الصبي على صحة كلام فخري
وقد استرد شيئاً من الشجاعة.

- إن كان هذا رأيك يا فخري - غيّر سليمان نبرته بسرعة - هذا الولد نصف
الميت، والذي لن تستفيد شيئاً من مقاضاته، ولا وحوش البحر ترحب به، وقد
شهدت لصالحه فإن أجرة طريقه عليك!

- لن أقول لا - أمسك فخري بكيس نقوده وأعطى سليمان ثلاثمائة ليرة مما
كسب من عمله مترجماً لعائشة. ومد للرجل ذي الساعدين القويين عشرين
ليرة: - هذا من أجل أن تحمل الصبي على ذراعيك حين نصل. ما اسمك يا
أخي الصغير؟ - سأل الصبي ذا الأحد عشر أو الاثني عشر ممسكاً به من أحد
ذراعيه.

- أوركخان.

- لا تلم يا أوركخان الرجل الجسيم ذا الشعر الكثيف الذي كان يقذف بك هنا
وهناك!. أعطه مالاً يحملك إلى فرنسا على ظهره - وقال للرجل: إن كنت
أهنتك فاغفر لي - أكفّر عن إهانتني بهذه الليرات الثلاثين.

- لا بأس هكذا - مد الرجل يده بسرعة ناظراً إلى سليمان ودس النقود في جيبه. النقود دائماً نقود، حتى في المرحاض لا رائحة لها. أغفر لك، ولكن ألا يحتاج هذا إلى تنظيف وإطعام؟ لا تنس أجرتهما.

عاد سليمان إلى وعيه بعد ما سمع ما سمع، ورأى ما رأى:

- هل ظننت يا فخري أن الموضوع انتهى عند أجرة طريق أورخان؟

- كنت أنتظر سؤالك عن هذا الأمر. أشتري أورخان بما يساوي أجرة طريقه؛ أأنت راض؟

- نعم راضٍ، نعم. العصفور الذي يدلف إلى بيتك صار لك إن كان كبيراً أم صغيراً. وكذلك ما جرى لي من جهة أورخان صبيّ السعد الصغير... كنا بانتظار موته فإذا بنا نفترق على عرسه. أيمكن أن أكون غير راضٍ؟ - استعجل سليمان كمن يخاف أن يسترجعوا منه ما منحوه. - أورخان الصبي، ليُسعده الله وليحمه، أحسنّا إليه أنت وأنا. وهل يمكن للتركي إلا أن يعود إلى تركيا! ولكن ما لا أفهمه الآن هو أمر واحد يا فخري. قلت لي إنك تعيل امرأتك الوحيدة بصعوبة فكيف أنفقت كل هذا المال على الولد الشارد الذي لا تعرف عنه شيئاً؟

- ليس أورخان ولداً مشرداً. بل هو إنسان سيء الحظ سلبوه حريته. المال يفارقك كما أتاكَ. ربما كان الله قدّر أن أنفق المال الذي كسبته من الترجمة في فرنسا لعائشة الصبية الأديعية المسكينة السبية على إعتاق أورخان. ولذا لا أندم على ما فعلت.

- ليكافئك الله الذي يضرع إليه الكثيرون وهو لا يحتاج إلى أحد على معروفك. ولكن أتعرف ماذا أريد أن أقول لك: لا تنس أن الزوجات الأربع أمتع من المرأة الوحيدة، ولا تخدع نفسك!

في اليوم الثالث وقد وصلوا إلى إستانبول، وهم فخري وأورخان بالنزول إلى اليايسة، صاح سليمان في إثرهم:

- مع السلامة يا فخري وأنت يا أورخان ولو لم نودعكما. متى احتجتما إليّ فهذا موقف سفيني، وتجدونني في أي وقت. - وغمغم وراء المسافرين اللذين لم يلتفتا إليه: "انظر كيف غدا هذا الصبي الذي كان يُحتَضَر صبيّاً رائعاً! ما أرخص ما بعته! لا تعرف متى ستأتيني وأنت تتصبب عرقاً أيها الفقير - الغني، العاجز عن إعالة زوجته الوحيدة!"

IX

الوقت يجرحك، ويداويك، ولكن ليست كل الجروح متماثلة. ما يقطعه السيف، وإن شُفي، يترك ندبة. وما يجرحه اللسان يبقى وجعاً للجسد والقلب، يحمله المرء معه أينما ذهب، بل يأخذه إلى الآخرة¹.

تعود عائشة دائماً إلى لياليها البائسة المترعة بالأحلام المقطّعة. وكلما تقدم بها العمر زاد ما تتذكره ونقص. أو تمثلت لها أشياء أخرى. أبوها بولّت، وهو قتيل ملقى على الأرض، يقاتل المجرمين بسيفه المشهر، وأمها "جنّات" وهي ميتة على الأريكة، تراها تجري خلفها، وتسمع نداءها. وجدتها التي توفيت في تلك السنة تجابه المعتدين بقرآنها، تتوسل إليهم، وتدعو إلى الله، ولكنهم يقتلونّها دون أي رادع. أما عائشة فيحملها أحد الرجال باتجاه الساحل، وحين تحاول الإفلات منه ينهرها بالتركية والأديغية.

ما هذه؟ إنها أحلام عائشة التعيسة. وذكريات آلام قلبها وجسدها الواضحة. والأيام الراهنة التي تعيشها في أسرة غريبة في بلاد بعيدة لا تعرف عنها شيئاً. ماذا ستحمل هذه الأحلام: أمي رياح تحمل الذباب أم هي أيام سَعْدٍ تسر القلب؟

حين استفاقت عائشة من أحلامها المعتادة نصحت نفسها، خلافاً للأيام السابقة، كما كانت تفعل جدتها: "ها هي الحال: لا شيء لا يتأقلم معه المرء. إن كانت تمطر أمس فالشمس مشرقة اليوم. كل شيء حسن، مريح، ربما تحسّن سلوك الكونتيسة معي لأن شارل دو فيريول تكلم إلى ماري- أنجيليك

¹ في الأصل: معبر الأموات، وهو تعبير شعبي شائع يعود إلى معتقدات قديمة تشبه ما في الأسطورة اليونانية. المترجم.

وأوغستين أنطوان قبل أيام. ولا روش يتسم لي، ويسأل عن صحتي. أما كلودين - ألكسندرين فنادراً ما نراها. ولكن تجيب ماري - أنجيليك حين تعاتبها: "سأحلق شعري وألتحق بالدير" أيُّ دير تتكلم عليه؟ أيشبه ذاك الذي سيعلموني فيه ويربوني؟ أنا صبي فيحلقوا شعري؟! لم يقل لي الكونت شارل دو فيريول شيئاً من هذا. والمملك لن يقبل به. كل شيء حسنٌ، ولا شيء يدعو لليأس. ولأن حرف "الغين" الشائع في الأدبغية له مثيله في الفرنسية تصبح الأخيرة أسهل عليّ يوماً بعد يوم. و"صوفي" التي كلفوها بخدمتي، ولو أنها أكبر مني بأربع سنوات، لا تتوانى عن خدمتي. ويبدو عليها أنني أعجبها أكثر من كلودين ولو لم تصرّح بذلك. ولكن لا أعرف ماذا سيحدث حين أتوجه للدراسة. لن أطلب من صوفي أن تجلب لي الشوكولا مرة أخرى إذ لم يكن من عاداتنا مثل هذا. ولماذا عليّ أن أبقى في فراشي متباهية؟ أليس هذا عيباً؟" نهضت عائشة بسرعة ورتبت فراشها قبل قدوم صوفي.

توقفت صوفي التي جاءت بكأس الشوكولا حزينة على أرض الغرفة:

- أفقت يا أيسيه؟

- اكتفيت نوماً ونهضت. - تظاهرت بأنها لم تفهم سؤالها - لماذا تستغربين؟

- لأنك تخالفين عادات أسرة الكونت فيريول يا شارلوت - إليزابيت أيسيه - أجابت صوفي بصوت منخفض وواثق - لا يقوم آل فيريول من أسرّتهم قبل أن يشربوا الشوكولا. ولا يرتبون أسرّتهم بأنفسهم.

- ما أقساك يا صوفي!

- لست قاسية بل أقوم بعملتي - ابتسمت صوفي لعائشة بعد هنيئة - أسألك

بالكلمة الشركسية الوحيدة التي علّمتني إياها، هل تفهميني؟

- فهمت، فهمت يا صوفي - عانقت عائشة صوفي وهي في منتهى السرور، ومزحت: - آل فيريول لهم مواعيد منتظمة للفطور والغداء والعشاء، غير أنهم ينامون ويستيقظون متى شاؤوا.

رن منبه الفطور في الساعة العاشرة. وشُعت أصوات الأبواب تفتح. وسمعت عائشة صوت بون دو فيل يجري من غرفته على عادته. وخلافاً للأيام السابقة حيث كانت أول من يصل إلى المائدة أحرَّت نفسها اليوم قليلاً: لن تسبق ولن تتأخر.

- ألسِ جاهزة إلى الآن؟ - استغرب بون دو فيل.

- لا تستعجل! - قالت عائشة لبون دو فيل وهي أمام المرأة تُصلح زناها.

- تعالي يا عائشة! رنّ المنبه.

- حالاً يا بون، لن نتأخر عن كلودين.

- كلودين صارت في غرفة الطعام - لم يُطق بون دو فيل صبراً.

في صالة طعام آل فيريول الفسيحة المتجهة إلى الشرق أربع نوافذ عالية. والستائر البيضاء التي لا تصل إلى الأرض، والغطاء الأبيض الناصع للطاولة الطويلة الكبيرة، وانتهاء بالصحن البيضاء، والصداري والمماسح، كلها تزيد الصالة نوراً على نور. والكراسي المنتصبة المصنوعة من الخشب الأبيض، والطاولة التي عليها أصص الزهور، والصور المعلقة إلى الجدار، والمصابيح المتدلية من السقف، ترسم منظراً منسجماً متناسقاً.

وفي الصالة خادمان: أحدهما يأتي بالطعام، والآخر يرتبه على الطاولة. والاثنتان يرتديان بزتين سوداوين قصيرتين. وقفازين أبيضين.

وعلى مائدة الإفطار يجلس خمسة: في الصدر شارل دو فيريول، وعلى يمينه إلى جانب المائدة أوغستين - أنطوان وماري - أنجيليك، والكرسيان المقابلان لهما

فارغان. وعلى الجهة اليسرى بيير وكلودين - ألكسندرين. والخادمان - أحدهما في أعلى المائدة والآخر في أدناها - ينتظران أوامر الكونت الأكبر، ويتبدل من الساعد الأيسر لكل منهما مندبل أبيض.

ما إن تجاوزت عائشة الباب حتى وقفت خجلة من أنها جعلت الأسرة تنتظرها. ولكنها استفاقت سريعاً فأومأت للحاضرين دون أن تعبأ بيون دو فيل الذي كان يركض إلى كرسيه، بإشارة احترام، وحيثهم:

- صباح الخير!

- في الأيام التي أكون فيها على المائدة يا شارلوت إليزابيت أيسيه - قال شارل دو فيريول الجالس في مكانه المخصص لعائشة - سيكون مجلسك على يساري.

دفعت ماري - أنجيليك بطرف قدمها أوغستين - أنطوان وكأنها تقول: "ماذا يفعل هذا؟"، وبغمضة عين نظرت بطرف عينها إلى أختها كلودين - ألكسندرين.

- وأنا؟ نهض بون دو فيل كالملدوغ حين رأى عمه يُجلس عائشة على يساره.

- أنت ستبقى في مجلسك! - شدد أوغستين - أنطوان الكونت على ابنه.

- لا - سحب بون دو فيل مقعده بصعوبة - وجلس إلى جانب عائشة.

- بون! - لامت ماري - أنجيليك ابنها دون أن تنهره.

- كُفّوا عنه! - حين مد شارل دو فيريول يده بعد صلاة الطعام، مدّ

الآخرون.

حافظ الجميع على صمتهم ريثما انتهوا من الطبق الأول دون أن يُسمع منهم

إلا أصوات السكاكين والملاعق - وحين أتى الطبق الثاني توجهت كلودين -

ألكسندرين إلى شارل دو فيريول بالسؤال:

- وحين تغيب عن المائدة؛ إلى جانب من ستجلس أيسيه؟
أشعر بيير غيرين دو تانسين الذي لم يعجبه السؤال أخته الصغرى باستيائه عبر
سعلة مبحوحة.

- أنا حين أغيب عن باريس يا كلودين - ألكسندرين، سيجلس أخي الأصغر
أوغستين - أنطوان مكاني - أجاب شارل دو فيريول متظاهراً بأنه لم يُعر
السؤال اهتماماً، ومُشهداً بيير على كلامه - وستعود شارلوت - إليزابيت أيسيه
إلى مقعدها، أأجبت على سؤالك يا كلودين؟

- ولكن الكونت أوغستين - أنطوان لا يقيم في باريس كثيراً.
- وفي هذه الحال - ستكون أختك ماري - أنجيليك الكونتيسة هي من
تشغل رأس المائدة. والآن هل أنت راضية عن الجواب؟

- يسرنا أن يتذكرنا نحن مرة من المرات - أنهت ماري - أنجيليك مازحة،
بالنيابة عن أختها الصغرى، النقاش الدائر على المائدة. - أحبُّ شارلوت -
إليزابيت أيسيه كصغيري بون دو فيل، وأظنها تحبني هي كذلك.

- شكراً أيتها الكونتيسة - قال شارل دو فيريول لَكِنَّهُ بارتياح بالغ. - جئْتُ
بشارلوت - إليزابيت أيسيه إلى منزل آل فيريول وليس لي أمل في غيرك طامعاً
في أن تصونها. وقد اخترنا، كما اتفقنا، الدير الذي سنُلحقها به. وليس
بعيداً، هو الواقع في "سان-كول" وقد ذهبنا أنا وشارلوت - إليزابيت أيسيه
إلى هناك من فيرساي، وأعجبتُ به؛ أليس كذلك يا شارلوت - إليزابيت
أيسيه؟

- نعم المنزل كبير والفناء جميل، وفي كل مكان، كما دارنا، الزهور والأشجار.
ثم إن أشد ما أعجبنى هو أنني لن أكون بعيدة عنكم.

- اطمئني من هذه الناحية! يا شارلوت إليزابيث أيسيه، لن نكون بعيدين أحدنا عن الآخر- وافقت ماري - أنجيليك وقد انتعشت روحها بسبب النقود التي سيتركونها لها، الصبية البريئة التي لا تعرف غير الله. - سنزورك، ويوم الأحد سنأتي بك إلى هنا. لن يقبل ملكنا المعظم إلا أن يكون دير سان- كول جميلاً ومرحاً.

- وأنا سأدرس فيه - لم يتمالك بون دو فيل نفسه.
- أنت يا بون، حين تصبح في عمر شارلوت إليزابيث أيسيه، وقتها، ستدرس هناك.

- أرضت ماري - أنجيليك ابنتها بما لم يخرج من أعماقها.
- ولكن، لن أسمح لهم أن يخلقوا لي شعري - لم تملك عائشة أن تخفي ما يُقلقها. ثم اختتمت بنبرة اللطف: - توسّل يا شارل دو فيريول إلى الملك ألا يفعلوا بي هذا!

- ومن قال لك إنهم سيقصون شعرك؟ - سأل شارل دو فيريول عائشة بصوت لطيف يخفي استياءه من الفكرة.

- لا أحد! - سحبت عائشة كلامها، ولكنها أضافت نادمة على أنها لم تقل الحقيقة: - لماذا إذن قالت كلودين لأختها ماري - أنجيليك "سأحلق شعري وألأزم الدير"؟

الكلام الذي سمعته كلودين - ألكسندرين عن نفسها جعلها تعيد كأس الشاي بعصبية إلى الطاولة. وفي اللحظة نفسها تحضت تريد الابتعاد عن المائدة فلم تقبل أختها:

- اجلسي يا كلودين؛ سلوكك مريب!

وكالعادة، حين ينشب نقاش بين آل فيريول، خرج الخدم من الصالة.

- سألجلس كُرمى لآل الكونت فيريول - وهَوْتُ كلودين - ألكسندرين بقوامها الممشوق على كرسيها. - كم مرة رجوتك يا ماري - أنجيليك أن لا توجهي لي نصائح في حضرة أيسيه؟!

- شارلوت - إليزابيت أيسيه - سرعان ما أصلح شارل دو فيريول اسم عائشة لكلودين - ألكسندرين.

- نعم، - في حضرة شارلوت إليزابيت أيسيه - أصلحت كلودين - ألكسندرين: - أما قلت لك يا ماري - أنجيليك ألا "تربني" في حضور شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ وأنت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه لا تتجسسي على حديثنا نحن الأختين!

- لا أتحسس - جعل الاتهام الباطل صوت أيسيه يرتفع - بل أقول ما سمعت.

- أنتما يا ماري - أنجيليك - قال أوغستين - أنطوان الذي ظل يُصمُّ أذنه وهو يشرب الشاي: - حدث لكما ما تستحقانه تماماً، لا تنتبهان إلى ما تقولان!

- صحيح يا أوغستين - وافق شارل دو فيريول أخاه الأصغر، وواسى عائشة: - ما تأتي كلودين - ألكسندرين على ذكره دير تمارس فيه شعائر دينية، أما الدير الذي ستدرسين فيه فمختلف. لا يخلقون شعور الصبيان والصبايا.

- نعم، يعلمون ويربون في الدير الذي سيودعك فيه، ولا يخلقون الرؤوس - وافقت ماري - أنجيليك الكونتيسة أخت زوجها.

- الآن، ننهي نقاشنا وطعامنا وشرابنا. ليتقبل الله طعامنا وليغفر لنا ما في قلوبنا. - حين نهض شارل دو فيريول نهض الآخرون عن المائدة.

كان نهار باريس مليئاً بالضباب، ولذا لا خشية أن تمطر السماء.

وكان نهارٌ أمس ومساؤه أثقل على شارل دو فيريول من اليوم بكثير. اتجه إلى النافذة أكثر من مرة قلقاً من النهار الذي ينتظره. ووقف لأياً وغادر. كانت السماء مرصوفة بنجوم تشبه نجوم ليالي الربيع والصيف. واستدار البدر الذي آن أوانه. والجو مستقر فلا ورقة تهتز على الأشجار. ومن لا راحة بال له هو شارل دو فيريول. لم يراوده النعاس رغم أن الليل انتصف. ولا تفارق ذهنه القضايا الثلاث التي يجب أن يحلها في الأيام القليلة القادمة: أولاها موضوع دراسة شارلوت إليزابيت أيسيه وتربيتها، والثانية: تأخير زيارته لتركيا. والثالثة: العلاقة بين ماري- أنجيليك وأختها كلودين - ألكسندرين. وإذا لم يعاكسه الوزير الأول دوبوا، والذي معاملته للكونت سيئة، فبإمكانه تأخير زيارة تركيا شهراً آخر. وقد تحدث في هذا الشأن إلى بضعة أشخاص من مقربه. وفي أسوأ الأحوال يمكنه أن يترجى الملك المفدى، وهو واثق أن سيجيبه. ولكن الأفضل ألا يصل الأمر إلى الملك. - هذا ملك، لا يجوز أن تشغل باله. وبالنسبة للأختين فما يهمه من أمرهما هو أخوه الطيب، وإلا فليس من شأنه تربيتهما. ولكنه يعتمد على زوجة أخيه في موضوع أيسيه. ولو لم يكن أوغستين - أنطوان بعيداً في "دوفين"، لو كان في باريس، لما قلق لأمر الصبية.

- أظني خلقت لنفسى مشكلة بجلي شارلوت - إليزابيت أيسيه. - رمى شارل دو فيريول اللحاف الناعم، وقام من الفراش. يذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً. - لماذا تسرعت واشتريتها؟ ألاني أشفقت عليها أم لسبب آخر؟ أخرج من الخزانة الكبيرة الصندوق الخشبي الذي يحتفظ فيه بنبذه الأحمر المفضل، واحتسى الكأس دون استراحة. وبعد ما ذرع أرض الغرفة عدة مرات تنشطت أطرافه، وتحررت أفكاره فيما كان رأسه المثقل بالهموم يتخلص منها شيئاً فشيئاً. ورجع إلى الفراش وهو يدين نفسه في الموضوع الذي يشك في داخله، تُرى

هل هذا الشك صحيح أم لا؟ ويُشرك معه في الإدانة من هم أعداؤه وليسوا أعداءه في آن، ويعرفهم وليس يعرفهم. - أنتم تسخرون مني وتضحكون بشأن شارلوت إليزابيث أيسيه الصبية الشرسية الصغيرة ولكن ما يُدريكم أنتم بما في قلبي نحوها؟! سترون خلال بضع سنوات جمالها. أنتم مجانين إن ظننتم أنني لا أفهم في النساء شيئاً. الأفضل لكم من هذا ألا تسمحوا لعشاق نسائكم أن يصبحوهن إلى صالات الحب. يكفي ما استمتعت به من نسائكم، دعك من غيري. نعم، نعم، لن أهاجم على شارلوت - إليزابيث أيسيه. وفي إستانبول من النساء ما يكفي لشغلي عنها. ولكن في إحدى زيارتي لباريس... " - لم يُمهّل النوم شارل دو فيريول ليكمل حلمه اللذيذ.

X

في عربة شارل دو فيريول السريعة خمسة أشخاص. هو وبون دو فيل، والثلاث الأخريات هن: شارلوت - إليزابيت أيسيه، وماري - أنجيليك الكونتيسة، وصوفي الخادمة. كانوا وعدوا كلودين - ألكسندرين أن يصحبوها فلم تقبل. ولكنها ودعت عربة آل فيريول دون أن تفارقها صورة امرأة الدير التي في ذهنها، ودون أن تعرف أهى تحسد تلك الصبية الشركسية الصغيرة التي تسببت في كل هذه المشكلات أم تشفق عليها. وفي اليوم السابق لسفر الأسرة كان على بيير غيرين دو تانسين الذي نصبوه أسقفاً الالتحاق فوراً بـ "أميرين" فسافر أسفاً على أنه لن يصحب أيسيه إلى الدير.

قال شارل دو فيريول مازحاً بعدما صاروا خارج باريس ليشرح صدورهم:

- يوم لطيف رغم الضباب.

- لو كانت تمطر مطراً ناعماً دافئاً لكان حسناً - قالت عائشة، فتعجب كل من في العربة.

- وماذا في ما قلت؟ سألت ماري - أنجيليك.

- يتفألون عندنا بالسفر تحت المطر الناعم الدافئ. - قالت عائشة.

- أهم الأتراك؟ - نظرت ماري - أنجيليك بطرف عينها إلى صوفي.

- وكيف يكون الأتراك؟! - استغربت عائشة سؤال الكونتيسة - هم الشراكسة الذين جئت من عندهم، من شرق البحر الأسود.

- تتفق علامات الأقوام المختلفة - وافق شارل دو فيريول عائشة وإن كان

أزعجه ماسمع - ونحن الفرنسيين عندنا مثل تلك العلامة - وتوجه إلى سائس

العربة كي يغير موضوع الحديث: - خفف السرعة يا جاك؛ العربة ترتجّ بنا!

- ضحك الجميع عندما عقّب بون دو فيل: لا ترجّنا، بل خفّت سرعتها.

انقضت مهمة آل فيريول في "سان - كول". وحين قبلوا الفتاة الشركسية الصغيرة دون كثير من الاعتراض، لا ينسى شارل دو فيريول ما قالته عائشة حين سألته مشرفة الدير جانيت - نيكول البيضاء ذات الشعر الأسود عمّن يكون مرافقوها، ولا تنفك ماري - أنجيليك أيضاً تتعجب، ولصوفي وجهة نظر أخرى؛ منذ زمن بعيد كانت فهمت هذا الوضع، منذ أن رأتها للمرة الأولى.

- جعلتني شارلوت - إليزابيت أيسيه أحبها مرة أخرى، - قالت ماري - أنجيليك برياء مصطنع لصوفي - ما كنت لأتصور البتة ما في ذهنها نحونا: شارل دو فيريول أبوها، وأنا كنتُها، وبون دو فيل أخوها الصغير، وأنت خادمتها. لا أعرف ماذا كانت ستسمي كلودين لو رافقتنا دون أن تفتعل الغضب. حسنٌ، حسنٌ، أنا راض، يجب أن تكون الأسرة هكذا. من الأفضل التعايش بين أفراد الأسرة دون صراعات، مع المحبة، وحرصٍ كلٍّ على الآخرين. - لم تُسمِ الكونتيسة ماري - أنجيليك أختها كلودين مع أنها كانت تعنيها بالكلمات الأخيرة من حديثها.

- نعم يا كونتيسة، وأنا أحببت شارلوت - إليزابيت أيسيه منذ أول مرة رأيتهما، فطنة، طيبة، حلوة المعشر، لا يستطيع المرء إلا أن يحبها. لا يغيب شيء عن ملاحظتها، نظيفة، أشتاق إليها.

- نعم يا صوفي، مؤدبة، لا يفوتها أنها سليلة أمراء. وأنا أشتاق إلى رؤيتها. أنتظر بلهفة اليوم الذي نزورها فيه. يصعب عليّ انتظار الساعات. أحياناً تذكّرني شارلوت - إليزابيت أيسيه بطفولة كلودين - ألكسندرين. وما كان غيرين دو تانسين يسمح لنفسه أن ينسى أنه من أسرة نبيلة. كان يستمد منها الثقة. والآن لا أقول إنها نسيت أصل أسرنا ولا إنها لا تفتخر بها. ولكن منذ هذا الصيف تحولت إلى طبع مسعور لا يمكن معه التحدث إليها. ربما لأنها تفرط في

القراءة. - والآن مرة أخرى تجاوزت الكونتيسة في الحديث أختها التي تهم بموضوعها: - يا صوفي؛ أياكون الكونت قال لأيسيه إنك ابنتي؟ هل سجلها بهذه الصفة؟ لا يُستبعد البتة أن يفعل سلفي المنفلت قلباً وطبعاً مثل هذا. كانت صوفي تنتظر إلى جانب الباب، الذي ستخرج منه من غرفة ماري- أنجيليك، زامة شففتيها الصغيرتين وهي تقول: لا تخاصموا الصبية الصغيرة بعد الكلام الحلو الذي صدر عن الكونتيسة بحقها، ولا تتحدثوا أمامها بمشكلات أسرتكم، وحلوا قضاياكم بأنفسكم.

أبعدت الكونتيسة كأس الشاي البارد من أمامها بنزق، وقالت لصوفي: - وكيف ستهتمين بما أهتم به؟! في رأسك أمور كثيرة. امضي إلى أشغالك! وفي اللحظة نفسها، وخلافاً للزيارات السابقة، ركضت عائشة إلى شارل دو فيريول وهي تصيح: شارل، شارل:

- كنت أنتظرُك اليوم يا شارل، كنت أعرف أنك ستأتي.
- أأخبرك احد؟

- لا، ألم تخبرني حين زرتني أول من أمس أنك ستغادر غداً إلى تركيا؟
- نعم، نعم. كنت قلت لك. لم تنسي.
- وأنت رغم مشاغلك الكثيرة لم تنسي. كيف حال بون دو فيل، وأوغستين - أنطوان، وماري- أنجيليك، وصوفي، ولاروش؟ وكلودين - ألكسندرين لم أرها منذ زمن بعيد. منذ أن جئت إلى هنا، لا شك أنها تقرأ كثيراً من الكتب.
- من تسألين عنهم بخير. سالمون وحملوني السلام إليك. وسيزورونك الأسبوع القادم.

- وهل بينهم كلودين - ألكسندرين؟
- نعم بينهم، كتم شارل دو فيريول أن كلودين نزيلة الدير في "أفغوستين".

- ها هي جانيت - نيكول قادمة - ما إن رأَت عائشة مشرفةً الدبر، ذات القبة البيضاء على رداء أسود، قادمة حتى أسرعَت إليها وصافحتها.

- استريجي يا شارلوت إليزابيت أيسيه - أبعدت جانيت - نيكول عائشة من عند الكونت دون أن تبتسم لها أو تعفّفها. ولكنها برأت نفسها من إمساكها بيد الصبية: - يستوي عندنا نحن المدرسات كل البنات اللواتي يتعلمن عندنا. لا نميز الصالحة من الطالحة بينهن. غير أن شارلوت إليزابيت أيسيه تخدعنا أحياناً فتجعلنا نتصرف بغير ما يجب.

- أسمع لكنّ؟ ألا تخالف الأوامر؟ - مع أن الكونت يعرف أن عائشة ليست من هذا النوع فقد طرح السؤال. وقال لها دون أن ينتظر الجواب: - لن أقبل منك إن كنتُ في فرنسا أم في تركيا أن تكوني مشاغبة يا شارلوت - إليزابيت أيسيه!

- اطمئنّ من هذه الناحية يا شارل دو فيريول - أجابت جانيت - نيكول الكونت، - ليس عندنا في معهدنا مثل هذا السلوك، نحن حريصات على هذه الأمور. نتعامل مع مشكلات الأطفال. وشارلوت - إليزابيت أيسيه التي جئتم من أجلها لم تعد صغيرة، تتمتع بالأخلاق والرحمة. ومهما كلفتها من أمر تنفذه بكل نظافة وإتقان. وتعامل جيداً مع أقرانها. وهن يعاملنها بالمثل. وخلافاً لما توقعنا فهي تحفظ كل ما تسمع من الفرنسية. وتعرف كثيراً من فن التطريز. وكما روت لي شارلوت - إليزابيت أيسيه لا يخفى أنها سليفة أسرة أمراء.

- وهل روت لك أشياء من هذا القبيل؟ - سأل شارل دو فيريول دون أن تدري إن كان ما يسمعه يسره أم لا.

- هؤلاء يا كونت صبايا صغيرات - رأى شارل دو فيريول لأول مرة في وجه جانيت - نيكول الصبوح علامات البشاشة. - يجب أن يصارحنك بالكثير، ويتعلمن الكثير. سأترككما على راحتكما، وأنا تنتظرن أعمالي.

حين بقي شارل دو فيريول الكونت وشارلوت - إليزابيت أيسيه وحدهما تحدثا، كلٌّ بما يسمح له عقله وفطنته. وتطرقا للكثير من الموضوعات. ومهما تحدثا كانا يعودان إلى رحلة تركيا.

- لو عرفتُ يا شارلوت إليزابيت أيسيه أن أمورنا ستؤول إلى ما نحن فيه - قال الكونت يتنهّد وما في قلبه ليس على رأس لسانه - ما كنت لأقبل الذهاب إلى تركيا البعيدة جداً. ولكن عليّ تنفيذ المهمة التي كلفني بها ملكنا المنير. وإن لم أنفذها فقدتُ قيمتي. وسَمَّتْ بي أعدائي.

- وهل عندك أعداء؟ - رفعت عائشة رأسها الصغير بخفة. وفي اللحظة نفسها، تصرفت مشفقة عليه، دون أن تخجل مما تفعل، وكأنها مع أبيها أسندت رأسها الصغير على ساعد شارل دو فيريول. غير أن أفكارها دفعته أن تبعد رأسها عنه. وحدّقت في عينيه. - أليست جانيت - نيكول امرأة جميلة؟ أنا أحبها لأنني أشبّهها بأمي.

- أيكون السبب أنهما تحملان الاسم نفسه؟ - ابتسم الكونت متذكراً أنهما أخبرته مرة باسم أمها.

- ليس السبب الوحيد، بل لأنها إنسانة ممتازة. - أمسكت عائشة بصوتها العالي قلبها الذي كان على وشك التداعي. - نعم، أيسيه، نعم، الناس الطيبون هم من يحافظون على الوجود الإنساني. - وافق شارل دو فيريول حذراً الصبية حين عرف حالها. ولما لم تعد عنده رغبة في مزيد من الحديث في الموضوع الذي لم يكن ينتظره؛ استغل المناسبة التي جاء يودعها من أجلها: -

إن كان رأيك أنت أيضاً أن أنفذ المهمة التي أوكلها ملكنا المفدى إليّ يا أيّسبه فأنا منطلق غداً إلى تركيا. وسأرضى بما كتبه الله على جبيني. وسأزورك في خلال السنة مرتين أو ثلاثاً. وفي غيابي سيهتم بك، كما لو كنت حاضراً، أخي أوغستين - أنطوان وماري - أنجيليك وصوفي ولاروش.

- وبون دو فيل أيضاً - نطقت عائشة اسم الصبي الذي نسيه الكونت ونسيّت كلودين - ألكسندرين أو تناست. ثم قالت بصوت يخلو من الفرح: - عندي رجاءان اثنان حين تصل إلى تركيا.

- ومن أي نوع هما؟ - سأل الكونت حذراً مما ستطلبه عائشة.

- ترجّ بالنيابة عني فخري الذي أسأْتُ إليه أن يغفر لي.

- أكان قال لك ما لا يليق؟ جفل شارل دو فيريول.

- لا، كان قد عرض عليّ أن يشتريني منك ويعيدني إلى إستانبول فأجبتّه "الن أسافر مع رجل مثلك نصف لسانه تركي والآخر شركسي"

- أعرف هذا. لم يكنتم فخري عني استياءه من هذا الجواب. كان قد ركب الطريق شاعراً بالإهانة. وإن لم يكن سرّاً أخبريني لماذا قلت له هذا!

- لا سرّاً! - لم أكن أطيعه لأن من سَبّوني إلى تركيا كانت ألسنتهم نصف تركية ونصف شركسية، كحال فخري. خبّره اعتذاري.

- صحيح، صحيح. فخري رجل طيب، سأبلغه اعتذارك بكل سرور، وسيفرح به المسكين. وما الرجاء الثاني؟

- سبقني لساني. إذلم يعد في الأمر فائدة الآن. تنهدت عائشة.

- تعرفين يا أيّسبه من الذي لم تعد فيه فائدة؟ هو ذاك الذي رحل عن الدنيا وانقطع ذكره.

- هذا هو أنا إذن!

- وكيف تكونين أنتِ يا شارلوت إليزابيث أيسيه - تعجب شارل دو فيريول مما سمع جاهلاً سبب هذا التصريح. - ها نحن أنا وأنت نتحدث، والجو صحو، تقولين هذا لأنك لا تعرفين بعد بضع سنوات ما ستكونين، لا تعرفين أن باريس بأكملها ستغبطك. ليس في الدنيا ما لن أحققه لك. قولي ما تعجزين عن قوله!

- إذن حقق لي هذا الطلب: حين تصل إلى البحر الأسود قف على أعلى مكان في الشاطئ واصرخ: عائشة ابنة بولت وجنّات حية ترزق وتعيش في فرنسا، ليتردّد الصدى في كل مكان. ربما يسمعك بعض الشراكسة الذين أنتمي إليهم. - وانهارت عائشة لا تستطيع مغالبة دموعها فارتقت على صدر شارل دو فيريول.

XI

في كل زمان تبدأ الأفكار تتزاحم في الطريق. ولا تميز الأفكار بين طريق طويل وآخر قصير. تدور عجالات العربة وأفكار شارل دو فيريول تصدع الرأس. وهي سريعة كالريح، تقفز فتطير فوق البراري والجبال والبحار. ثم تلتهب فتستقر في الرأس من جديد.

يُخَيَّل إلى شارل دو فيريول أنه نسي شيئاً مع أنه أنجز أعماله جيداً في باريس. ومن جديد يستعرض ما في ذهنه حتى يصل إلى نسائه الكثيرات ولكن لا يستطيع أن يحدد ما الذي يَحْزُهُ من بينها ويجعل حالته لا تُطاق. ما طبيعة هذا الشاغل؟ أتكون شارلوت إليزابيت أيسيه؟ ولكنه أمضى نصف نهاره معها أمس! وتطرقا إلى موضوعات كثيرة لم تكن في البال. وصارت مشرفة الدير جانيت - نيكول ذات الوجه الصبوح أنيسة له. وودَّع راضياً الملك لودفيغ الرابع عشر. وشهد اللقاء دويوا الوزير الأول الذي ليست مشاعره نحو الكونت صافية. وها قد تحققت له المهمة التي كان ينتظرها منذ سنين فيتوجه إلى تركيا. وعَرَّج قبل أيام على المصرف الذي يحتفظ فيه بأمواله. وأضاف إلى رصيده فائدة السنة. وحل مسألة تكاليف دراسة عائشة في الدير ونفقاتها الأخرى في "سان - كول". ورتب أمور النفقات بحيث يُدفع لماري - أنجيليك مبلغ محدد شهرياً.

وترك لصوفي مبلغ ألف ليرة لنفقات عائشة المتفرقة لا يعلم بما أحد. وماذا بقي إذن؟ وقضى مع كل امرأة من محظياته ليلة. وانصرف عنهن راضياً بما أنفق عليهن من أموال طائلة. ووعد امرأة أخرى متميزة من غيرها جسماً وقلباً أن تأتيه إلى إستانبول ، وتعيش معه إلى أن تمل منه.

ماذا نسي شارل دو فيريول أيضاً مما يعصر قلبه خارج هذه الأفكار؟ وبسبب المطر الخريفى البارد الناعم لا يرى العربة تقطع من الطريق أمامه منذ ساعتين إلا سطح المياه المتجمعة والضباب. وكل ما في المدى المنظور، بما فيها الأشجار والبيوت، متشابه. صار جزءاً من السحاب المتدلي إلى الأرض. أتكون الحياة الثقيلة هي ما يؤلم قلب السفير الفرنسي؟ من إذن غيرُ هذا يتألم له قلبه؟

فاته هذا الأمر منذ زمن بعيد في شبابه. ولن يعود مهما ناديته أو توسلت إليه. أين الشباب؟ صار بعيداً كالأيام والأسابيع والسنين المنصرمة. إن فكرت فيه وجدته قريباً شاخصاً أمام عينيك كأنه يومك الذي تعيشه. تشتاق إليه دون أن تعباً بابتسامه لك. فهم شارل دو فيريول هذا للمرة الأولى حين لجأت الصبية شارلوت - إليزابيت أيسيه إلى ساعده. ثم حين ارتمت على صدره باكية. ما الذي جرى في قلبها في تلك الساعة، بل في تلك الدقائق؟ وماذا فهمت؟ هل لجأت إليه الصبية اليتيمة باعتباره كبيرها الذي تعقد أملها عليه؟ أم لأن رائحة الأنوثة التي لم يعمل منها طوال عمره حركت قلبه؟

لن تستطيع الإجابة على نحوٍ شافٍ على أي سؤال يتعلق بالكونت شارل دو فيريول ما لم تعرف من أي نوع من البشر هو، وما أساليب عيشه. ليس من النوع الذي إن وقع بين مجموعة من الناس لم يتدخل فيهم، وعجز عن إخضاعهم لأوامره. وفيه الرجولة والرحمة والصدقة والأدب. وليس من الناس الذين يفقدون وعيهم إذا شربوا فلا يتذكرون ماذا فعلوا. ومن الصعب معرفة متى يقرأ هذه الكتب الكثيرة المتنوعة. ولكنه لن يسمح لك أن تفوقه في أصول العلم والتربية. وإلى أي وجهة وجهته - سواء الفلسفة أم التاريخ أم الغناء أم المسرح - وجدته مثقفاً فيها ذكياً. وقد درس جيداً في شبابه، وكان شاباً جميلاً تتخاطفه البنات. واليوم لا يزال رجلاً بمعنى الكلمة، في عز قوته، مرغوباً.

الجوّ معكراً جداً وقلب شارل دو فيريول أشدّ تعكيراً. وعلى زجاج نافذة العربة تتمازج قطرات المطر الباردة و تنفصل. والكونت يسمع صوت اصطفاق المطر بالعجلات وبقوائم الخيل وإن لم يره. وتصل إلى أذنيه اصدااء نداءات غربان الخريف. وما لا يسمعه ولا ما لا يفهمه هو الصوت الخفي الصادر من أفكاره، والذي يوهن قلبه. وليس غيرَ منتبه إلى هذا، ولكنه لا يريد أن يخصّه باسم. "ولماذا أصدع رأسي به؟ إن عرفته عرفته، لن يجبرني أحد على معرفته أو عدمها. أعجيب إن تماوجت سنوات عمري رائحة وغادية؟ لا يزال قلبي في العشرين أو الثلاثين من العمر. ولا يسألني من يريدني عن عمري. ومن فضّل الله عليّ أني لا أرى في نفسي أمام النساء عيباً أخجل منه. من أعجبتني فهي لي، ومن لا تعجبني أقول: وهذه ستجد من تعجبه فأتجاوزها. لا يجوز مقايضة الشباب والصبايا؛ فالمرأة سرعان ما تحرم. والمرأة التي يتمناها الرجل أن تظل في قوامها يُفضّل أن تكون أصغر منه بعشرين عاماً. حتى الثلاثون ليست مهمة إن قدرّ الله لها رجلاً مثلي في عنفوانه"

ربما كانت هذه النظرة إلى الذات التي اكتسبها شارل دو فيريول من طريق الخريف السبب في أن نادى ظهراً سائسه جاك بنبرة حازمة، مقررّاً بعزم: - سنتوقف في "ميلين" ونقضي الليل هناك.

لم يستغرق عشاء الكونت على المائدة الفاخرة المعدّة على عجل، مع المرأة التي اختارها من بين ثلاثٍ، طويلاً إذ أوى سريعاً إلى الفراش، وأخبر المرأة بما في قلبه.

- اخلعي ملابسك أمامي رويداً رويداً دون أن تطفئي المصباح!
- أنتظر منك كلمة يا حبيبي - شرعت المرأة الشقراء ذات القوام المتناسق التي ارتفعت حميتها مع الشراب تخلع ثوبها.

حفزت الرغبة التي تملكك الكونت نفسه، فهبّ واحتضن المرأة العارية. ولكن، ولأول مرة في حياته، انطفأت تلك الرغبة حالاً.

لم ينجز شارل دو فيريول رغبته في الفراش. وبقي أكثر من ساعة دون كلام ودون مزاج يتأملان السقف. وكما بين الرجل والمرأة من فروق ظلت أفكار كل منهما مختلفة عن الآخر. ولم تقصّر المرأة في شيء مما يمكن أن تقدم للكونت. وكانت مخصصة له كما تفعل المرأة مع الرجل الذي خذلته فحولته.

ومع أن شارل دو فيريول لم يكن إلى الآن يتقبل أن الرجل إن عاجلاً أم آجلاً ستخذه رجولته يوماً ما مع الجنس الذي لا حدّ له، فقد شعر بالإهانة وهو لا يعرف السبب ولا المسؤول. وكان أصعب شيء عليه هو أنه يأنف أن يتقبل ما جرى له. "الشهوة بحالها والآلة بطلت. أليكون انشغالي بأمور شارلوت - إليزابيت أبيسيه، وإهمالي علاقتي النسائية هو السبب. والنساء اللواتي ودّعتهن طوال الأسبوع؟ ولو أقمت في باريس بضعة أيام أخرى لربما زرت في إحدى الأمسيات جانيت - نيكول التي تتدلل عليها الصبيّة. لم يكن بلوغها صعباً؛ كانت تتأملني بروحها وقلبها وهي تحدّثني. لم ألتق في حياتي بامرأة لا تشتهي الرجال. ثم إني لم أتصل في حياتي بامرأة تعمل في مجال الدّين"

- تعالي نجلس إلى المائدة - أبعد شارل دو فيريول اللحاف مدفوعاً بشهوته وإبائه.

- عاريين هكذا؟! - تظاهرت المرأة بالاستغراب ولو أنها كانت مسرورة للعرض.

- تدثّري بغطاء السرير إن كنت خجلة!

لم ينفعهما النيذ الأحمر الذي بدلوه بالأبيض، ولا عودتهما إلى الفراش. ومهما تصرفا، لم يجدا علاجاً لعجز الكونت.

- ملأتِ الغرفةَ رائحةً طيبةً؛ ما الذي استعملته لزينتكِ؟ - بدأ الكونت يبحث عن ذريعة يسوّغ بها عجزه أمام المرأة.
- كل الرجال يشتهون هذا العطر!
- الآن فهمت ما جرى لي، دوّختني رائحة العطر.
- إن كانت مشكلتك في الرائحة تعال نستحم!
- وهل نحمم الغرفة و السرير و الأغطية؟!
- إذن لا أعرف ما العمل؛ إن كنت تبحث عن مسوّغ... - ارتدت المرأة ملابسها بسرعة: - وأين أجرتي؟
- على سطح الصندوق على المدخل؛ توقفني لحظة!
- ما الأمر؟ - توقفت المرأة التي يشتهيها الرجال على أرض الغرفة والعطر يضيع منها.
- خذي! - نهض شارل دو فيريول ملتفّاً بغطاء السرير - أضيفي هذا المبلغ إلى ما دفعت لك. سامحيني. ولبق ما جرى بيننا الليلة سرّاً! لا أريد أن أقع في أفواه الناس لأني عجزت معك هذه المرة. وإذا انتشر خبري ألا تعرفين ما سيحدث لك؟!
- لا تصدّق يا شارل دو فيريول أن بيدر مني ما يسيء إليك!
- ومن أين تعرفين اسمي؟ - ارتعب الكونت لسماع اسمه من فمها.
- لا أظن في باريس أو "ميلين" امرأة لا تعرف اسمك - أنت لا تتذكرني، سبق أن اجتمعنا في هذا الفندق. كنت وقتها رجلاً قوياً. والرائحة التي لم تعجبك الليلة هي التي كانت تفوح مني ليلتها. ولا أذكر في حياتي رجلاً مرّ عليّ في رجولتك ومتعتك. وأنت الوحيد الذي لَبِثْتُ له مثل ما طلبت مني الليلة، لا أطيع الرجال في مثل هذا.

- أشفقت عليّ على ما يبدو من كلامك... - أخفى شارل دو فيريول جسده العاري تحت اللحاف خجلاً من منظره.

- ربما. ونحن لا ننسى أن النساء يحترمن الرجال الأقوياء. لا تبخع نفسك أيها الكونت؛ لم يحدث لك ما يعيبك!

- شكراً لك؛ إن كنت تعرفين اسمي فخبريني باسمك أيضاً!

- نحن لا نبوح بالاسم الحقيقي لكل من نلتقي به أيها الكونت. ولكن لن أخفي عنك، ناديني بـ "مادلين"!

- اعذريني يا مادلين، سأرتدي ثيابي.

- وهل تحجل مني؟! - مزحت مادلين، وأدارت وجهها إلى الصور المعلقة على الجدار.

- لسؤالك يا مادلين أجوبة كثيرة - قال شارل دو فيريول وهو يتأمل نفسه - هناك فرق بين ما يحدث من سرّ بين رجل وامرأة عاريين، وبين العلاقة بين رجل وامرأة لابسين. كيف يكون بيننا الابتذال الذي بين حيوانين ونحن لسنا حيوانات؟! والآن لننسَ حديثنا، ولنجلس إلى مائدتنا بعض الوقت كإنسانين! - لا مانع إن كان رأيك هكذا، ولكن لا أعرف النتيجة - جلست مادلين إلى المائدة متصنعة، ثم أصلحت موقفها بسرعة: - مزحت معك فحسب، لا شيء وراء كلامي.

- كل شيء جائز يا مادلين، جائز - جلس شارل دو فيريول إلى المائدة، وهو ينظر إلى المرأة الجزلة التي أعادها إلى المائدة، وكأنه ليس ذلك المسعور الذي كانه قبل لحظات، وردّ على مزحة مادلين بمزحة: - ها يُخَيَّل لي أن حرارة تنبعث مني الآن!

- لا، لا، لا نَعُدُّ ثانية إلى الموقف الذي عايناه هذه الليلة - رفعت مادلين كأس النبيذ - صحيح أني امرأة ولكني إنسان. لن تجد فيّ حباً لذيذاً. إن كنت تبحث عن تنفيس لشهوتك فأنا أغبطك على صحتك، والليل لا يزال طويلاً، يمكنك استقدام امرأة أخرى.

- ولكنك أنت من أريد.

- أظن نفسك قادراً على تعويض ما لم تستطعه؟ لا، لا، فيما بعد!

- ومتى "فيما بعد" وأنا سأرحل صباح الغد؟

- وهل ستبقى في إستانبول إلى الأبد؟ حين تعود... الأفضل من هذا يا كونت أن تتبادل نخباً لتحقيق أمنياتنا. - وما إن شربا حتى سألت مادلين: - من تلك الصبية الصغيرة التي كانت معك حين توقفت في الصيف هنا؟ أهى بنتك أم ابنة أختك أم ماذا؟

- وتعرفين هذا أيضاً؟ - نظر شارل دو فيريول إليها نظرة استغراب وإن لم يستغرب سؤالها: - لا أظنكن أيتها النساء يفوتكن شيء مما يحدث على هذا الطريق الطويل. أعجبتك تلك الصبية؟ أليست جميلة؟ حتماً، حتماً أعجبتك وإلا ما سألت عنها. ليست ابنتي ولا ابنة أختي، اشتريتها من سوق النخاسة في إستانبول. ستتخذ خلال بضع سنوات شكل امرأة ناضجة. أظني سأخذها من جنس هذه الـ "ماذا" كما فهمتها. لا أكتمكِ ما أنوي بحقيها: كيف تربنها؟

- شكراً يا كونت على ثقتك بي. - "سررتني جداً" قالت مادلين لنفسها. ستصبح فتاة باريسية جميلة تحطم قلوب الرجال، وترمي الفتنة بين النساء. ولكن لا أعرف إن كانت ستصبح زوجة صالحة. - "انظر إلى هذا الوسيم العنيد ما أكثر ما يريد إلى الآن، وإن كنت لا أعرف ماذا ستفعله أمنياته!..."

قالت لنفسها شاعرة بالإهانة التي لحقت بأنوثتها من خلال أنثى أخرى. ولكنها كتمت استيائها ورفعت الكأس. - أقول لك مع السلامة أيها الكونت على طريق تركيا وأدعو أن تتحقق أمنياتك - أكملت مادلين كأسها وانصرفت. - مهلاً، مهلاً يا مادلين! لا يزال الليل طويلاً. إن كنت لا ترغبين في هذا فسأعرض عليك شيئاً آخر: تعالي، لا أستطيع أن أصحبك إلى إستانبول، ولكن رافقيني إلى مرسليليا. وإلى هناك سنتوقف في مدن كثيرة، وسنقضي فيها ليالي لذيذة، وسنمتّع أنفسنا. ونُحْضِي في مرسليليا بضعة ليالٍ إضافية. وحين أركب هناك تعودين بعربتي، وحيثما مررت سيعاملونك على أنك كونتيسة، حتى تصلي إلى ميلين.

- شكراً يا كونت! حنّت مادلين رأسها قليلاً للكونت؛ كأنك حققت لي كل ما قلته. ثم ما أسهل أن يُضَلَّني الطريق الطويل، لا أريد أن أتحمّل وَزَرَ من سيفق عليّ كل هذا المال... - قالت له لحظة خروجها من البيت بعدما رفعت يديها من شفّتيها، وأومأت له بغمزة مرائية. - ليس مستبعداً أن نلتقي هنا في إحدى زياراتك إلى فرنسا لفتاتك الشركسية. "عجيبون هؤلاء الرجال كلهم! لا يجوز أن تحقق لهم ما يرغبون، ولا أن يرفعوا الكلفة بينك وبينهم - علّقت مادلين على نفسها باسمّة"

XII

قلب شارل دو فيريول خفيف اليوم بالقياس إلى نهار أمس الثقيل وليله القلق. أيكون السبب أنه اجتاز البرية الموحشة التي كانت تتعب العين، ودلف إلى الجبال، أم الشمس التي كانت تهجم من وراء السحب التي تزحّ أمطاراً باردة، أم فرحة تحققت له اليوم أو في يوم مضى، أم فرحة تنتظره يسر بها القلب نفسه؟ وفي قول الناس إن حياة الإنسان تشبه الليل والنهار شيء من الحقيقة. ومن أين للكونت شارل دو فيريول أن يعدو قومه الفرنسيين بأخلاقهم وطباعهم ولسانهم وأنماط تفكيرهم وأساليب عيشهم، وعيوبه وحسناته جزء من تكوينه الفرنسي. وليس على البسيطة إنسان لا يعرف حلاوة الجنس ومرارته، وقلقه وحزنه. ولكن رأيهم فيه مختلف وإن تطابقت أحاسيسهم نحوه. بعضهم يكتمه، وغيره يُشهره، غير أن الأطفال يولدون بالطريقة نفسها. والعلاقة الخفية المختلصة؟

يستحيل أن تخلو ساحات الحب من مثل هذه العلاقات. طرأت تغيرات كثيرة على علاقات الجنسين في فرنسا وعلى غيرها في عصر الملك لودفيغ الرابع عشر. جرت تطورات كبيرة على تلك العلاقات، وجرى تناغم بين سيرة الملك الجنسية وسيرة أبناء شعبه. لم تبق علاقات مستورة تخفى سواء بين العازبين أم بين المتزوجين، كان عصر انفلات جنسي؛ حتى كأن هذه العلاقات خلقت مع الفرنسيين. وإن كان الجميع يعتبرونها عيباً. وكانت تُخلق في الأسرة الحاكمة من الآباء والأبناء وحواشيها في الحفلات التي لا تنتهي، وفي الصالونات التي تجري فيها اجتماعات ولقاءات، وفي محافل سرية يلتقي فيها رجال ونساء. وشارل دو فيريول كان من هؤلاء. ومنذ شبابه إلى الآن لا يزال منهم.

ما كان يسرّ قلب شارل دو فيريول وروحه الآن ليس اليوم الخريفى الصحاحى الخارج من البرد والمطر، ولا الجبال والغابات المتراصّة، ولا السماء التى تُظلّله، بل الحاتمة التى اصطنعها فجأة للوضع الثقيل الذى وجد نفسه فيه فبرأها "ماذا حدث لى ليلة البارحة؟ لم يسبق لى أن عانيت مثل هذا الموقف. أىكون السبب من النساء؟ فالصبية التى طلبتها بعد مادلين أعادتني إلى سابق عهدي. وليست تلك الصبية أكبر من أيسيه بأكثر من خمسة أعوام. ربما كان سبب عودة نشاطي أنى تخيلتها أيسيه حين نامت على صدري بجسدها الدافئ. ليس هذا مستبعداً. ما أكثر ما أخفقت مع امرأة فتخيلتُ غيرها فرجعتُ إلى سابق قوتي. ليحكمك الله يا صبيتي الشكرسية! أنتِ أُملي وأنتِ حيي المقبل. ستكملين دراستك ريثما أعود من تركيا. وستتخذين القلب الذى أتمناه."

لا يحتاج المرء إلى الكثير لتُفرحه أو لتُحزنه: خبر سار لم يكن ينتظره أو خبر محزن.

يتأمل الكونت الجبال والغابات غارقاً في ذكرياته الحلوة. يتجاوز المراعي المبهجة للعين، ويخترق السحب البيضاء المتبقية على المرتفعات. يُنصت إلى صوت عجالات العربة ووقع أقدام الخيل. وفي نفسه رغبة في الغناء.

ينوي شارل دو فيريول إذا صادف في طريقه نُزلاً حسناً أن يقضي ساعة فيه يستمتع خلالها بكأس من النبيذ واللحم المشوي على الأسياخ. ومهما وجد هناك من نساء جميلات فلن يلتفت إليهن. "مادلين امرأة جميلة وذكية، لولا أنها امرأة شوارع وتعمل في الفنادق. أفهم أنى لم أعد شاباً وإن لم يعترف قلبي بعدُ بالهرم. متى ما وصلتُ إلى إستانبول حققت رغبتيك ثم نرى ما يحدث. ولكن لا

تنس أنك قلت لي ذات مرة: قد نتقابل يوماً من الأيام. وكما يقول ملكنا المفدى: نحن الدولة¹.

وصل شارل دو فيريول وهو ينفذ ما قاله عن النساء إلى ليون حيث عُمدت عائشة وسميت باسمها الفرنسي. ولكن قرر عدم التوقف فيها: ماذا سيفعل فيها، ومن ينتظره؟ وإن تجاوز ليون فسيصل في أقل من يوم إلى "فالنسيا" حيث يقيم أخوه أوغستين - أنطوان. ألم تلدهما أم واحدة ويرييا معاً؟! وعندهما كثير من الموضوعات يتحدثان فيها. "لا يخفى أن أخي المسكين ضائع بين الأختين وإن كنتم ما في نفسه. وأنا بالمقارنة به لي مظهر من عمره ثلاثون عاماً. فتح لها المجال بسكوته لتأكله. ربما كان هذا هو السبب في أنه حبس نفسه في فالنسيا بحجة أنه خازن للمال، ولا يفارق منطقة "دوفين". ألم تر كلودين - ألكسندرين التي لها رأس دجاجة، كم تسببت في مشكلات وهي تتذرع بأنها تتعلم كيف تكتب الأدب؟! وعلى من هي غاضبة الآن؟ أهو حبّ محبط أم أمل لم يتحقق؟ أما كان الأجدر ألا تفعل هذا في السنة التي عهدتُ فيها إليها بأختها شارلوت إليزابيت أيسيه؟! ثم إنها لم تعباً بكون أختها ماري - أنجيليك حاملاً. ولم يردعها كون أخيها الأكبر بيير دو تانسين رجل دين. أقول هذا ولكن ألا يمكن أن يكون هو من شجعها على فعلتها؟ بيير رجل مهذب خلوق وعنده احترام للناس. وهو بالقياس إلى أختيه إنسان هادئ يحسب حساب الكلمة التي تخرج من فمه وحساب تصرفاته. وساعدنا في إلحاق أيسيه بأفضل دير. ولكن لا أعرف، لا أعرف ماذا سيفعل رجال الدين هؤلاء.

¹ شعار أطلقه لويس الرابع عشر: الدولة: أنا الدولة. وسيأتي تصديقه في سياق النص.

وجانيت - نيكول ما كان أروع نظراتها إليّ رغم أنها من العاملين في الدين! ما أخبار كلودين المسكينة يا ثري؟ هي تقيم في الدير الواقع في "مونبلييه" القريبة من غرينوبل. يقال إنها بعيدة عن فالنسيا مسيرة نصف يوم أو أكثر قليلاً. لو عرّجتُ على "مونبلييه" كرمي لزوجة أخي الكونتيسة ماري - أنجيليك واطلعت على أخبارها وأديت لها خدمة مما تحتاجها لحففت عنها ذنوبها وكسبتُ أنا ثواباً منها. يا ربي لماذا اعتزلتُ في هذا الدير المغلق أشدَّ إغلاق؟"

- توقف! - صاح شارل دو فيريول بالسائس - أليست عربية أوغستين - أنطوان تلك الواقعة على باب النُّزل؟ نعم إنها هي، وهذا هو أخي أوغستين - أنطوان. - قفز فيريول الأكبر من العربية وسأل فيريول الرجلَ الثقيل الآخر: - إلى أين تذهب؟ ومن معك؟ أهو غيرين دو تانسين القادم إلينا؟ - نعم هو بيير الأسقف. يا بيير ما أكثر ما مضى على فراقنا! ما أخبارك وكيف حالك؟ أنتم كلكم بخير؟

- كنا كلنا بخير يا كونت. لولا أن حلت بنا مصيبة...
- لن أسأل عن وجهتكما. لا بد أن وجهتكما كلودين - ألكسندرين في مونبلييه. سأذهب معكما.
- أنت على طريق تركيا يا كونت.

- لا مشكلة في هذا؛ أليس بإمكانني أن أتأخر يوماً أو نصف يوم؟!
توجهت العربتان بآل فيريول إلى مونبلييه. لا يزال النهار في أوله، وشمس الخريف تشرق على رسلها من وراء الجبال. والأوراق المتعددة الألوان تنهامس مع نسيم الصباح. وطبقة من الصقيع تغطي العشب اليابس. وغيوم مقطّعة تزحف على الطريق. الطبيعة هادئة، ولا شيء يعكر صفوها.

في العربية الأولى الأخوان فيريول، وفي الثانية الأسقف بيير دو تانسين.

- نحن في دنيا مفهومة وصعبة الفهم معاً يا أخي الصغير - تنهد الكونت وهو ينظر من خلال نافذة العربة - ثم أضاف: - كيف تترك هذه المناظر الجميلة وتنزوي في أشد الأودية ظلاماً؟! لم يخطر لي البتة أن تفعل كلودين - ألكسندرين مثل هذا. من حظ غيرين ولويزا أنهما لم يعيشا ليشهدا ما فعلته ابنتهما، كانا شخصين رائعين. ليجعلهما الله من أهل الجنة! إن كانت كلودين - ألكسندرين فعلت ما لا يجوز فاغفر لها؛ ما تزال شابة. وجيئتنا نحن فعل الشر! كل الناس خطاؤون فاغفر لنا ما نعرف من خطايانا، وما لا نعرف. امنحنا حياة ليس فيها حرام ولا ذنوب!

- آمين! وافق أوغستين - أنطوان الغارق في أفكاره أخاه.

- ولماذا لا تقول شيئاً يا كونت؟!

- وماذا أقول؟ وافقتك على ما قلت.

- ليس هذا ما أقصد - أجاب شارل دو فيريول غير متحمل برادة أخيه وكسله: - أكنت تعرف أخبار أخت زوجتك الثرثرة على حقيقتها.

- لا أعرف شيئاً - أجاب أوغستين - أنطوان بنبرة يُفهم منها استيائه من ذِكْرِ امرأته بسوء. ثم أضاف بصوت لطيف ناطقاً اسم زوجته الصحيح: - لا أعرف إلا أنها كانت تقول لماري - أنجيليك الكونتيسة حين تُوجّه إليها ملاحظة ما، أنها ستذهب إلى الدير. وأنت تعرف هذا.

- أعرف، ولكن هذا ليس مسوّغاً. ونحن - دُعك منك - نسمع من ماري - أنجيليك الكونتيسة ما يسرنا وما لا يسرنا. ولكن لا نعاذها ولا نُهرع إلى الدير. الحق أقول لك يا أوغست إن ماري - أنجيليك ليست كَنَّة سيئة لولا أنها تثرثر أحياناً بما لا يجوز. تتحمل مسؤوليات آل فيريول. وأنا خففت حملها فأرحتها من مسؤولية أيسيه. وماذا ينوي بيير إذن؟

- سيُخرج كلودين من الدير.

- هذا يحتاج إلى إجراءات كثيرة، ولا يمكن إخراجها دون علم بابا روما. وإن وافق البابا فلا يمكن تغيير العهد الذي قطعه على نفسها ألا تتزوج. يجب أن تعيش إلى الأبد وحيدة دون أسرة. هذه أخبار دير "أفغوستين" الخاص بالنساء، والذي تقيم فيه كلودين - ألكسندرين.

- يرغب بيير في إخراج أخته من الدير لأنه يعرف هذه الأوضاع.

- إن كانت كلودين ستبُرع بعهداها ألا تؤسس أسرة فهذا شأن آخر. ولكن لا أظن. اسمعنا يا رب وتفهم حالنا وارحمنا - دعا إلى ربه بصوت من أعماق القلب وأكمل: - ليس لنا موئل سواك. قل: آمين! يا أوغستين - أنطوان.

حين سرى الصمت بين الأخوين قال أوغستين - أنطوان لأخيه بحذر:

- في هذه السنة أصبحت يا شارل قريباً من الله بقلبك.

- ليس بقلبي فحسب، بل بروحي أيضاً. ليكن الله في قلبك دائماً يا أوغستين! يحدث أن تأتي بالذنوب في هذه الدنيا العجيبة بعلمنا أو بغيره. أوقفت مرة أمام الله تائباً؟ صدق يا أخي أنك إن وقفت هذا الموقف أمامه ولو مرة في السنة غفر لك ذنوبك!

منظر الدير في مونبلييه مؤسٍ. جدار حجري عالٍ لا تستطيع أن تنظر إلى أعلاه ولا إلى أسفله. والغابة التي تضم جدرانه المدورة كثيفة. إن كان في الدنيا مكان واحد يدعو للكمد فهذا هو. كل شيء هادئٌ يذكرك بصمت القبور. يعكره نعيق الغربان على قمم الأشجار. لا يظهر أي كائن حي في الأفق. والجمع المدبب القبة يبدو من وراء السور مريعاً.

بعدما طرَقوا الباب عدة مرات سُمع صوت امرأة قويٍّ من ورائه:

- من أنتم، وماذا تريدون؟

- أنا أسقف "أمبيرين" بيير دو تانسين. أختي الصغرى كلودين - ألكسندرين منقطعة إلى الله مطيعة له هنا.
- قالت المرأة بعد صمت قصير:
- ليس بين المنقطعات إلى الله المطيعات من تحمل هذا الاسم. هنا كل المتبتلات إلى الله أخوات. فيمَ تحتاج إلى أختنا؟
- أودّ لو أراها.
- "أوغيسييتاتنا" أيها الأسقف، لانسمح لأحد أن يراهن، وأنت تعرف هذا¹.
- معي إذن مكتوب من بابا روما يسمح لي برؤية أختي.
- وبعد توقف قصير سألت المرأة:
- ومن رفاقك؟
- صهري وأخوه الأكبر.
- لا أستطيع السماح لك بمقابلة أختك أيها الأسقف، مسؤول الدير في غرينوبل. وسيعود غداً فيجب الانتظار. ولكن كرمي لكونك أسقفًا سأسمح لك أن تكلمها من وراء الباب. انتظروا!
- لو رأيت كلودين وكلمتها لتابعت رحلتي مطمئناً مرتاح البال. - قال شارل دو فيريول محبطاً من عدم تحقق رغبته - وعلى كل حال يكفيني أن أسمع صوتها. وأنتم، على ما يبدو، ستنتظرون إلى الغد لحلّ مسألتها.

¹ نسبة إلى القديس أوغستين (345 - 430 م) لاتيني الأب، أمازيغي الأم. عاش حياة فسق في شبابه حتى تنصّر وتعمّد وقد تجاوز الثلاثين، أنشأ مدرسة للرهبنة، وألف كتاباً في العظات، وأثر كثيراً في الكاتوليكية والأنجليكانية. المترجم.

- بيير؟ هل أنت بيير؟ - سألت كلودين - ألكسندرين أياها بصوت منكسر.

- نعم أنا بيير. ومعى أوغستين - أنطوان. والتقينا بشارل دو فيريول في طريقنا فصحبنا.

- يسرني أن يكون معك أوغستين - أنطوان. وكادت كلودين تبكي.
- وأنا معهما، أنا شارل دو فيريول. لا تيأسي يا كلودين - صاح من وراء البوابة الكبيرة على رؤوس أصابعه مموهاً على إغفال كلودين اسمه. - أما عرفت صوتي؟

- ليس لا أريد أن أعرفك فحسب، بل لا أريد سماع صوتك. سامحي يا أوغستين... - انفجرت كلودين - ألكسندرين باكية.

- غداً، غداً! تعالي يا أختنا - استعجلت مسؤولة الدير، وصحبت كلودين - ألكسندرين من وراء الباب.

مر على الكونت شارل دو فيريول في حياته الخاصة كثير من الأمور الإيجابية والأمور السلبية. ولكن لا يذكر أن امرأة أهانته مثل هذه الإهانة إن لم يكن هو أياها. لو كان من أهانه رجلاً، متنفذاً أو من عامة الناس، إلا الملك بشخصه لواجهه بالسلاح "ماذا فعلتُ برأس الدجاجة هذه؟ وفيم أهنتها؟ لا أعرف أي فعلت شيئاً من هذا. أتكون صدقت مغالتي لها على سبيل المزاح قبل سفرتي الأولى إلى تركيا؟ سواء قال الناس أم لم يقولوا فجنس النساء سهلٌ خداعه. لو عرفت أنك ستصرفين هكذا معي لعرفتُك جمالك الذي تغترين به في مرآة مكسورة. بعدما جئت من تركيا بالصبية الشركسية تغيرت حالها جداً. لم آت بشارلوت - إليزابيت أيسيه إلى بيتنا وأنا أجهل أنها أجمل منك. لهذا كنت واقفة على النافذة غاضبة حين كنا نصحب أيسيه إلى المدرسة الدير؟ ربما كان

لخصمي "دوبوا" يدٌ في هذا الموضع؛ أم هناك شيء آخر؟ مهما يكن، لم أفعل شيئاً يُعاب عليّ. سعيْنَا إليك فكسبنا الإثم. ويمكن لبيير أن يُخرجك من هذا المكان، ولكنه لن يستطيع أن يجلب لك السعادة."

شارل دو فيريول الذي لم يكن يعرف ما جرى، وما حدث له، لم يستطع تجاوز ليون، فقال للسائس:

- أوصلي إلى مجمع سان - جان!

غرفة الاعتراف والتوبة المظلمة الضيقة فارغة. جلس شارل دو فيريول الكونت إلى جانب النافذة المحجوبة بالأسود. وبعد لأيٍ سمع صوت رجل يمنحك الثقة في صدقه:

- أسمعك يا بني.

- جئت أتوب يا أبانا.

- أسمعك يا بني.

- أنا بلغت الأربعين ولكن لم أؤسس أسرة إلى الآن يا أبانا.

- وما السبب يا بني؟

- لا أعرف يا أبانا. أنا سليم جلدًا وجسدًا. وعندني عشيقات كثيرات، يرضيني وأرضيهن، ولكن لا أكتفي بواحدة، سرعان ما أملّ منها.

- ألأنكما لا تتفقان في الأخلاق والطباع؟

- لا يا أبانا، أبحث عن غيرها حين لا تتفق أهواؤنا الجسدية.

- إن لقيت من ترضيك فلا جُنّاح عليك إن توافقتما؟

- أليست المشكلة هنا؟ أنا أملّ منها.

- هل مضى عليك زمن طويل على ممارستك الأولى للحب؟

- كنت في الرابعة عشرة، أغرتني خادمتنا.

- وارتويتما كلاكما؟
 - نعم يا أبانا.
 - كل العلاقات غير القانونية حرام يا ولدي.
 - أفي الحب يا أبانا أكبر و أصغر؟
 - حين يتكافأ الطرفان لا أكبر ولا أصغر.
 - وإن كانت الحبيبة من عرق آخر؟
 - لا يعرف الحب عرقاً.
 - وإن لم تكن من دينك؟
 - لا يا ولدي بشرط ألا يكون في الأمر إكراه.
- انصرف شارل دو فيريول من مجمع سان - جان غير قادر على أن يسمع المزيد من الصوت الدافئ، ناسياً الموضوع الذي جاء من أجله وهو خروج كلودينا - ألكسندرين من الدير. وأكد على السائس أن يوصله غداً إلى مرسيليا.
- وفي اليوم الذي ركب فيه سفير فرنسا شارل دو فيريول السفينة المبحرة إلى تركيا كان الأسقف بيير غيرين دو تانسين قد أخرج أخته كلودين - ألكسندرين من دير مونبلييه، وركبت العربة السريعة إلى باريس.

الكتاب الثاني

I

يعتاد الإنسان على تقلبات الطبيعة، شتائها وربيعها، وصيفها وخريفها، وثلوجها ورياحها، وصحوها ومطرها، وبردها وحرها، ولو صعب الأمر عليه. ولكن تحدث أمور كثيرة في العالم لا يمكن الاعتياد عليها.

إذا كان إرضاء اليتيم والفقير صعباً فكيف تنسجم عائشة مع دنياها الجديية. حياة الإنسان كالحبل ينعقد بسرعة وينحل بسرعة. ويضيع العمر على حل عقدته. وإن يمسّت قطعته. وكل ما قُطع ورُبط من جديد هشّ. تخاف عليه وتقلق.

وعائشة قبل أن تكمل خطواتها العشر في الدنيا انعقد خيطها - حياتها ثلاث مرات. حين سرقوها، وحين باعوها، وحين حملوها إلى فرنسا البعيدة. ومع أن العقدة الأولى والثانية كانتا صعبتين فلم يستغرق حلّهما إلا زمناً قصيراً. وكانت العقدة الثالثة أسهل، غير أن طريقة عقدها مختلفة جداً: تزداد تعقيداً ولو توخّوا الحذر في فكّها.

إن صح ما يقولون: "ما تبالغ في الحرص عليه يسقط من يدك، ومن تتأمل منه الخير يجلب لك الهمّ، وحملك يكسر ساقك، الشر يلاقيك، والخير يتجنبك" فكيف ستتكيف عائشة مع الجو الذي فُرض عليها؟ ومن حسن حظها أنها لا تعرف إن كانت دنياها الجديدة هكذا. وإن بدأت تتعلمها فلن تفهمها. إنها بعقلها الطفولي غير الناضج فهمت أنها يتيمة فحسب. إن ألقى في الماء من يعرف السباحة نجا، ومن لا يعرفها غرق.

هذا صحيح غير أن الدنيا ليست مقصورة على الظلم. ففيها كما تقول حكايات الأديغة يتصارع فيها الكبش الأبيض والكبش الأسود. والكبش الأبيض الآمل بالخير ينتصر على الكبش الأسود الطافح قلبه بالشر. وإلا قتل الكبش الأسود الكبش الأبيض. وعائشة لا تفهم إلى الآن شيئاً من هذه الأمور ومن غيرها. وليست عائشة وحيدة في هذا، فالآن الخير والشر لا يميزان بين أجناس البشر ففتيات الدير الفرنسيات اللواتي يدرسن معها ما يزلن بعيدات عن هذه القضايا. ولكنهن مختلفات عنها في أنهن سعيدات إذ يَحْيَيْنَ مع آبائهن وأمهاتهن.

في الدير، بفضل تطبيق مقاييس الدين الأخلاقية، عادات واضحة خلافاً لسلوك نساء باريس المتهتكات. ليس فيه تمييز بين فقيرة وغنية، وجميلة وقبيحة، وحسنة الطباع وسيئتها. وملابسهن ومائدتهن وفراشهن هي هي. وينهضن في وقت واحد وينمن. ولا يتأخر إفطارهن ولا غداؤهن ولا عشاؤهن دقيقة واحدة. وبعد استراحة الغداء تنصرف كل واحدة إلى الهواية التي اختارتها: المطالعة، والغناء والرقص، والرسم، والموسيقى، والتطريز، ويتمرن على البلاغة. ويوم العطلة الأسبوعي من نصيب الأمهات والآباء. وكل هذا في حرم الدير إذ لا يحق للمعلمات الخروج بهن خارج الأسوار. ويخصصن يوم الأحد للعروض المختلفة فيجد الأهل فرصة للقاء بناتهم فلا يشعر الطرفان بالملل.

وفي خلال العام الدراسي عيدٌ مهمٌ يجتمعن فيه. ويُختار لهذا اليوم موسم جمال الطبيعة: الربيع. ويجري الاحتفال المسائي على شرف الملكة. ولا تنسى الفتيات ذلك اليوم الذي التقين فيه بالملكة المحاطة بالأصدقاء. يروي بعضهن لبعض ماذا كن يلبسن وماذا كان على رؤوسهن، وفي أقدامهن، حتى مناطقهن. وحين يتم تقديمهن لعقيلة الملك يبقى كلامها إليهن حديث العام كله.

ما حدث لعائشة، في نصف السنة الماضية، كثير بالقياس إلى قريناتها المستعدات بقراءتهن وكتابتهن. تعلمت في الدير القراءة والكتابة وكانت تسبقهن في أعمال التطريز. ولكن أعجب شيء كان طريقتها في إلقاء الشعر وفي الغناء. ولم تكن تسلم من أخطاء في نطق الكلمات الفرنسية وابتسار بعضها غير أن العجيب جداً هو أنك كلما استمعت إليها أَسَرَّتْكَ أكثر فأكثر بصوتها الجذاب.

وفي تعلُّم الفرنسية، والتمييز بين أصواتها، وإتقان حروفها، كان لها بالإضافة إلى شارل دو فيريول والمترجم فخري معلمان. أحدهما بون دو فيل الصغير، والآخر جانيت - نيكول. أما العامة فتتعلمها من زميلاتهما.

لسن قليلاً مجموعات البنات اللواتي علّمتهن جانيت - نيكول خلال سنوات عملها السبع في دير سان - كول وخرّجتهن. ومن بينهن من تزوجن من متنفذي باريس، ومنهن صديقات للملكة، وكاتبات، وفنانات. ولكنها لم تلتق إلى الآن بمثل عائشة الصبية الشرسية. "ماتقوله لها تحترنه في عقلها، وما يسقط منك تلتقطه، وما لا تعرفه تهتم بمعرفته. وما تعرفه تقشّره لك، وطريقتها في الكلام والجلوس يمكن اتخاذها نموذجين. وأستغرب قيامها لك حين تراك. جميل أن تنهض للمعلم وتحترمه، ولكن أن تؤدي شارات الاحترام هذه لزملائك الكبار والصغار فهذا ما لا أفهمه. أتكون تتواضع لمن تقيم معهن شعوراً بالنقص لأنها غريبة عنهن؟ لا يعرف أحد في الدير أن شارلوت إليزابيت أيسيه صبية شرسية اشتراها شارل دو فيريول من السوق، وألترُمت بتلبية طلبه عدم كشف الأمر. ثم أقول لنفسي ما أكثر الناس الذين يعيشون في فرنسا ممن لا نعرف أصولهم. وأُفِئِلُ الموضوع."

كان هذا اليوم موعد لقاء تلميذات الدير بأهاليهن، فلما نظرت جانيت - نيكول من النافذة رأت أيسيه تومئ بيدها، تستقبل رجلاً وامرأة، تعانقهما. تعرفت المرأة: صوفي. والرجل ليس من معارفها، ربما كان في الثلاثين. رجل ممشوق القوام، والقبعة الأسطوانية والفراء الأسود معها متناسبان. وبعد ما تبادلوا بضع كلمات عانقتهما أيسيه مرة أخرى. وما هي لحظات حتى أعادت الصبية الكرة. ففرت وقفزت. نظرت باتجاه النافذة التي تقف إليها جانيت - نيكول، وأومأت إليها. ولم تكتف بالإشارة بل انطلقت باتجاهها.

جفلت جانيت - نيكول من تصرف شارلوت إليزابيت أيسيه المفاجئ وإن أدركت أنها لا تحمل خبراً سيئاً. وخطر لها خاطر مزعج وهو أنها قد تترك الدير. وسرعان ما تناست هذا الخاطر إذ لا يمكن للصبية التي صار هذا الدير في متناولها أن تتركه. وفتحت النافذة على مصراعيها مُبعدة أيضاً فكرة أن يكون شارل دو فيريول عائداً.

- جانيت - نيكول، أبشرك - عندي فرحتان: صار عندي أخ صغير سمّوه "أرجنتال"، وكلودين - ألكسندرين أخرجوها من الدير. والزائران هما صوفي، وتعرفينها، والأسقف بيير - غيرين دو تانسين الأخ الأكبر لكلودين، والأصغر لماري - أنجيليك.

- فرحت لك يا شارلوت إليزابيت أيسيه. عندك أخبار طيبة. لا تدعي ضيوفك في الفناء، ادعهم إلى الغرفة.

- كنت أنوي هذا ولكنهما مستعجلان. بون دو فيل متوعل للمرة الثانية. يوم الأحد، يوم الاستراحة، في حياة جانيت - نيكول، إذا نُظر إليه كيوم استراحة فقد أمضته في شواغلها إلى ما بعد الظهر. انصرف زوار الطالبات وغيرهم. وتحدثت إلى بعض من قابلوها. وطوال هذا الوقت، سواء أفرحوها أم

أَغْضَبُوهَا، لم تفارق فرحة عائشة ذهنها ولا صَوْتُهَا الحاد سَمْعَهَا. ومع أنها كانت تلتقي بها كل ساعة فلا تتذكر يوماً اشتاقت فيه إليها كما اليوم، تريد أن تقابلها، تسمع صوتها. وكانت تنوي زيارة خالتها هذا المساء غير أنها لم تستطع. وتناولت كتاباً تتسلى به عن هذه الرغبة المفاجئة في رؤية عائشة. ولكن الكتاب لم يُثر فضولها. حاولت النوم فأخفقت، كانت صورة الشاب الممشوق لا تفارق مخيلتها. ولا يفارقُ اسمُه واسم أسرته "بيير غيرين دو تانسين" عقلها وكأنها تعرفه من زمن بعيد. "ماذا جرى لي اليوم؟ طوال هذه السنين لم تقع عيني على رجل يعجبني، أحبه. من أين جاء هذا؟ ماذا في قلبي نحوه رغم أنني رأيته من بعيد فحسب، ورغم قَسَمي ألا أتزوج. ما أكثر الرجال الذين رأيتهم في باريس يرتدون المعاطف الفاخرة والقبعات الأسطوانية، ويحملون العصي المزخرفة، ويركبون العربات الفخمة اللماعة. ما كانت قيمة هؤلاء المتكبرين؟! وهذا "بيير غيرين دو تانسين" - حين نطقت جانيت - نيكول اسمه في قلبها ابتسمت بطريقة لا تفهم منها إن كان يعجبها أم لا، ولكن الابتسامة طغت على وجهها الصبوح. - لم أسمع صوته بل لم أنظر في عينيه: أهما زرقاوان أم سوداوان؟ - وسخرت من نفسها ثانية - كان عليّ أن أذهب حين أشارت لي أيسيه بيدها، كنت عرفت أهو أزرق العينين أم أحورهما؟ أهو أشقر أم أسمر؟ لا شك في أنه إنسان مهذب؛ وإلا ما شرفوه بلقب الأسقف. أقول هذا ولكن بين رجال الدين مَنْ عيناه زائغتان وخارج عن حدوده. لا أظنه متكبراً؛ اصطحب الخادمة صوفي في عربته. أما كان يستطيع القدوم وحده؟ أيعقل أن يكونوا انصرفوا بحجة مرض الصبي؟ لا عجب في هذا. حتى ملكنا المنير، يقال إنه لم تبق خادمة في قصر فيرساي، إلى تريانون لم يضاجعها. وبين الوزراء من يمكن اتخاذه قدوة في هذا. ولو لم يبق إلا دوبوا الذي تقطر عيناه

شهوة لكفى سيرة لهؤلاء! لا، لا. إن بقيت أبتسم لأحدهم، ولو لم أعرف أين يذهب حين يخرج، دَلَّته، وحين يعود في أنصاف الليالي لماذا أَسْتقبله باشَّة؟ وأنا دون أن يعترض على سلوكي أستطيع أن أفعل الشيء نفسه في عالمنا الضالّ. ولكن أفضل أن أعيش امرأة طاهرة لم تمتدّ إليها يدُ رجلٍ".

أجفلَ صوتُ الجرس الذي يعلن موعد نوم تلميذات الدير جانيت - نيكول بقوامها الرشيق. وحين وقفت أمام المرأة تلمست خديها المتوردين دون أن تعرف السبب، ومرت على جبينها الساخن بيدها. الآن فقط تذكرت أنها كانت تريد التحدث إلى عائشة. ابتسمت وهي تثمّن عالياً ترتيبها لفراشها في الصباح، وتعليقها ملابسها في الخزانة، ووضعها حذاء الليل أمامها، وضفّرها شعرها كي لا يتشعث، وثوبها الرقيق الفضفاض الذي كانت تبتهل فيه إلى ربها حسب التقاليد الكاثوليكية. "لو كان عندي فتاة كأيسيه لما فضّلتُ شيئاً عليها في الدنيا" وفيّم يحتاج إليك الكونت شارل دو فيريول فيشتريك؟ قال إنه أشفق عليك؛ أحاول أن أقنع نفسي غير أن من في قلبه رحمة بين الأغنياء قليلون. لو سجّلك في الدير باسم ابنته لما قلت شيئاً. الأوراق التي عندنا تقول إنه يعلمك على سبيل الإحسان، وخاتمُ الملك يشهد على هذا. مرت أعوام أيسيه الدراسية الأربع وكأنها اليوم. ثم ماذا؟ ستبلغ السادسة عشرة؛ وحينها ما الذي بانتظار الفتاة؟ وسيعود الكونت من فرنسا منهياً سنوات سفارته؛ فهل سيعدها ابنة أم أختاً أم، وهذا ما أتوجسه، يتخذها زوجة؟"

صعد الدم إلى رأس جانيت - نيكول مع الكلمات الأخيرة، جلست في السرير بثوبها الرقيق، وظلّت مدة ورأسها على ركبتيها. ثم ملت شعرها المتناثر كما تفعل عائشة، وناجت نفسها بحرارة: "يُحْتَل إليّ أن الشراكسة الذين تنتمي عائشة إليهم أناس ممتازون. الشرق، الشرق لا تعرفون عنه شيئاً لم أستطع أن

أحمل سفير فرنسا شارل دو فيريول على أن يقول شيئاً غير هذا. أليست نساء الشراكسة من اخترعن دواء الجدري؟ نعم، كيف لم أتذكر إلى الآن؟ وأيسيه من أين ستعرف هذا؟ سأخبرها غداً وأفرحها. وإن كان هناك كتابات تتعلق بالشراكسة فسأجدها وسأقرأها. ونحن حبسنا أيسيه هنا مصرين على أن نجعل منها فتاة فرنسية. والشراكسة الذين تنتمي إليهم إن عرفنا نط معيشتهم، وعاداتهم وعلاقاتهم فيما بينهم، وملابسهم. حتى ملابسهم، ستكون معرفتها مفيدة ولن تضرنا. سيكون من المستحسن أن تظهر أيسيه بزيها القومي أمام الملكة في الأمسية التي تحضرها. وسنكلفها قراءة الشعر والغناء

نامت جانيت - نيكول غارقة في هذه الأفكار العذبة. وأفقت صباحاً نشيطة. وأنجزت أعمالها المعتادة. ثم ذهبت إلى باريس تبحث عن العارفين بما كُتب عن الشراكسة، عن ملابسهم، وصورهم... وعلى عكس ما توقعت وجدت في المكتبة ما كتب "غالون فون توبوس" ولوقا، وأندريانو، وغيرهم من كُتّاب المذكرات. وقرأت جانيت - نيكول طوال الليل وهي ترى كل كتاب أعجب من سابقه. وأشرت إلى ما رآته أهم المقاطع والعبارات. وعلمت بالإشارة الموضع التي يجري الكلام فيها على الأزياء، ولاسيما النسائية منها.

"إن وجدنا خياطة ماهرة تقرأ هذه المعلومات فسيمكنها أن تخطط لأيسيه ثوباً جميلاً" وبدأت تبحث بذهنها عن الخياطة القادرة. ولكن ما كان مُلحاً لها الآن هو أن تقرأ أيسيه هذه المعلومات، وتقرأ هي عليها بعضها

- أيسيه! هاتي البشارة! عندي ما يسرك - قالت للصبية كما تصرف الصبية معها قبل أيام.

- ما الأمر؟ أكتب لي الكونت شارل دو فيريول؟ - نظرت إلى جانيت حزينة حين مدت يدها إلى جيبتها فلم تجد فيه شيئاً.

- لا، لا. مزحت معك يا أيسيه. لا يزال عليّ أن أؤدي لك بشارتك إن كنت تتذكرين. وإن أردتِ تصافينا. هذه الكتب كلها تتحدث عنكم، عن الشراكسة. ها هو ما يكتب من رحلوا إلى بلادكم "الشراكسة ماهرون في أنواع معينة من الأعمال، وأذكاء" وقائل هذا الكلام رحالة سافر إلى بلادكم قبل ثلاثمئة سنة اسمه "غالون فون تيبوس". وها هو ما قاله فيكم أندريانو عام 1500 "الشراكسة يثمنون عالياً سلامة الطويّة، يقدمون إليك عن طيب خاطر ما يملكون باستثناء خيلهم وسلاحهم. يحبون الحرية والشجاعة بلا حدود. ولا أحد يستطيع الحدّ منهما. ولا يعرفون منذ سن مبكرة ما يفخرون به إلا التدريب على اللياقة البدنية واستعمال السلاح وركوب الخيل. ويعدون الجبن مثلبة". وامتدحك "أسكولي" الذي كان عندكم قبل زمن غير بعيد، واسمعي ما يقول "الشراكسة رشيّقون، فرسان، ممشوقو القوام، دمهم أحمر، مشبعون بالإنسانية، عيونهم عسلية فاتحة أو سوداء. وعلى ما أعتقد ففساؤهم أجمل نساء العالم" ثم هل تعرفين يا أيسيه أن من اكتشف دواء للجدرى هم أنتم؟

- لا، أسرع عائشة التي وثب قلبها من مكانه لما سمعته بالإجابة، وتضرجت وجنتاها بالحمرة.

- اسمعي إذن ما قاله غيرفيتش في شأن هذه المرأة "ما أكثر ما ندين به لتلك المرأة الشركسية، أول من وجدت علاجاً للجدرى في العالم خائفةً على جمالها، متألمة لما قد يحدث لأولادها! وما أكثر الأطفال الذين أنقذتهم من براثن الموت. لقد أدت معروفاً جليلاً للعالم" أسمعُ يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ما قاله فيكم الرحالة الذين عاشروكم؟

- سمعت يا جانيت - نيكول، ولكن لم أعرف أننا نحن الشراكسة كما وصفونا. - حملت الفرحة الممزوجة بالحزن عائشة على أن تلجأ إلى حضانة معلمتها.

- لا تبكي يا أيسيه. لا تتواضعي لأحد! لا تنسي أنك من الشراكسة العرق الممتاز. أتعرفين ما يحزّ في نفسي يا أيسيه؟ أتألم لأن ما كُتِبَ عن الزبي الشرکسي، عن الثوب، عن مواصفاته ومظهره، قليل.

- لماذا يا جانيت - نيكول؟ أتودين تفصيل ثوب شرکسي لك؟ - سألت، دون أي رياء، المرأة السمراء الصبوح التي كانت تذكرها بأمرها - أيُّ ثوب كانت ترتديه أمي كان يليق بها لأنها كانت جميلة مثلك... - صارحت عائشة جانيت نيكول بما في قلبها دون حرج.

قبّلت جانيت - نيكول الصبية باسمه، وأجابت:

- لو عرفت أنه يليق بي للبسته. ولكن ليس هذا ما أريد قوله لك. لولا أنني لا أعرف القالب الذي يؤخذ منه الزبي الشرکسي لخطته لك. وقدّمْتُك به في يوم عيدنا للملكة.

_ أهذا ما تريد به؟ - قالت عائشة وندمت، ثم أنهت: - لا أستطيع خياطة الثوب ولكن أريك كيف يخيطونه.

- وكيف؟ - سألت جانيت - نيكول وهي مسرورة بما سمعت أكثر مما استغربت.

- إن ساعدني معلم الرسم استطعت رسمه على الورقة.

بعدها تحدّثتا عن القماش المطلوب، وأزرار الزنار، وحتى القبعة، اختتمت جانيت - نيكول بما كان يشغل بالها:

- ليت أمنيّتنا تحققت لنا! الملكة تحب مثل هذه الأمور، كانت أُعجبت بها. وليست وحدها، بل سندعو الآباء والأمهات، أولياء الأمور.

- ومن سادعو أنا؟ - سألت عائشة نفسها ثم بدأت تعدّهم: - هناك من تترك لهم ماري - أنجيليك ابنيها بون دو فيل وأرجنتال بضع ساعات. أما صوفي فسأشعر بالأسى إن لم تأت. وكذلك كلودين ولاروش. وشارل دو فيريول في تركيا ولا نعرف شيئاً من أخباره. و أوغستين - أنطوان سيأتي إن أخبرناه؛ ومن أيضاً؟

- ألا يكفي كل هؤلاء؟! - قالت جانيت - نيكول متألّمة لعدم ورود الاسم الذي كانت تنتظره: بيير غيرين دو تانسين، مخفية مشاعرها.

- ونسيّت أول اسم كان عليّ أن أذكره. - ضربت عائشة جبينها: بيير!

- أما قلت إنه يغيب كثيراً عن باريس؟... - وتظاهرت بأنها تبحث عن ذريعة.

- إن أخبرته أنا فسيأتي من أي مكان كان. - قالت عائشة واثقة، ثم سألت: - أتريدين دعوته؟

- إن كان سيأتي فلم لا. - لم تسيطر جانيت - نيكول على صوتها الذي فضحها مهما حاولت.

II

ارتقت الريح التي هبت فجأة من جهة مضيق البوسفور إلى إستانبول. تقتلع السقوف والأشجار، وتهدم دكاكين الخبز والألبسة الصغيرة وتطير بها. والناس يبتهلون إلى الله ويتلون الأدعية. وما تفعله في ميناء المدينة يدعو للأسى: تختطف المراكب من سطح الماء، وتعبث بها، وتقلب السفن وتغرقها. الريح تهب والسماء تمطر والدنيا تنقلب ولا مُعين للمدينة.

لا يجرؤ شارل دو فيريول السفير الفرنسي أن يتأمل من خلال النافذة بل يخاف أن يذرع أرض الغرفة. يختبئ في الزاوية التي فيها كرسيان مريحان ومائدة واطئة. وزجاجة الشراب أمامه غير مفتوحة. والقهوة التي لم يرشف منها إلا مرتين أو ثلاثاً بردت. وقد نسي أنه لم يخلع الصدر الأبيض. ولا يزال الصحن الذي فيه بعض قطع من الجبن أمامه. "اليوم، موعد مقابلي للسلطان، تكاد القيامة تقوم عليّ. لا يزال الوقت مبكراً، أمامي بعض الوقت فموعدنا الساعة الثانية. ألن تنفج الأمور إلى وقتها؟ شؤون الدولة فوق الجميع. لا أظن السلطان يؤجل موعداً. الشرق ليس فهمه سهلاً كالغرب. ما يُدريك كيف سيتصرف معاً أبنائهم. بالقياس إلى العام الماضي قام الترك بتغييرات كبيرة فقد تولى أحمد الثالث السلطنة. ومرة واحدة فقط قابلته ، وما كان يُدريني وقتها أنه سيتولى الحكم؟ تبادلنا بضع كلمات لا معنى لها ثم افترقنا. حين تكون سفير دولة يجب أن تعرف ماذا يجري اليوم، وماذا سيجري غداً وبعد غد وفي الأيام التالية. ألا ترى كم من أحداث جرت في تركيا خلال هذا الوقت الذي لا يعدو السنة؟ وأغلب حاشية السلطان شراكسة لأن زوجته شركسية. من أين جاء هؤلاء وهم غير أترك؟..."

توجه شارل دو فيريول إلى النافذة بعدما حُيِّل إليه أن الطبيعة هدأت، وكان ظنه في محله. فعلتْ الريح ما فعلته خلال ساعة كعادة الأعاصير ثم انتهت في الأمواج. والناس الذين كان شتتْهم رجعوا إلى الشوارع. وفتحت الدكاكين والمقاهي. وحملة الخبز المشروح رجعوا إلى أعمالهم. والعربات التي تمخر الماء، والدواب التي تحمل المتاع، تظهر هنا وهناك.

الساعة تقترب من الحادية عشرة. ولا يزال أمام السفير الفرنسي ثلاث ساعات. رجع إلى المائدة وبَدَّل القهوة الباردة. رجع وتصفح الورقة التي قرأها هذا الصباح. وتعجب ثانية "كل هؤلاء شراكسة. شرَكْس - عثمان باشا هو قائد القوات البحرية التركية. وشرَكْس - مُجَّد باشا، وشرَكْس - أُخْمَت باشا، وشرَكْس - مُجَّد باشا هم جنرالات في مختلف القوات العثمانية. وشرَكْس - مُجَّد باشا يكاد يكون سلطان أورشليم. ومبعوثو السلطان أحمد الثالث إلى القفقاس، وشرَكْسِيا وأديغه ستان وشيرفان شراكسة. يبدو أن أكثر باشوات تركيا شراكسة. ألم يمسخوا بزمام الأمور في البلاد إذن؟ وزوجة السلطان شرَكْسِية ومتنفذو البلاد شراكسة ويسمحون لأسواق النخاسة أن تبيع صباياهم، وتملأ دور البغاء بهم؟!" - حين مد يده إلى إبريق النبيذ تذكر أن عائشة قالت له العام الماضي "أنت تفرط في الشراب" فسحبها. - ما ضرَّ لو شربتُ القليل أيضاً، ولكن ليس من اللائق أن أقابله للمرة الأولى ورائحة النبيذ تفوح مني. ألم يكن جميلاً لو أن شارلوت - إليزابيت أيسيه كان امتلاً جسمها فعاشت معي هنا. كان يكفي أن يتعجب الشراكسة من أني صهرهم. وكانت قضاياي الفرنسية أسهل حالاً"

تبعاً لأصول التعامل مع السفارات، حطت عربة شارل دو فيريول أمام قصر السلطان. رافقوه من الباب المذهب الكبير، إلى الباب المذهب - المفضَّض،

إلى القاعة المذهبة السقف، حيث السلطان. استقبله على الباب الوزير المكلف باستقباله. تبادلا تحية احترام. ولم يتحرك الجنديان المرابطان على الباب. ظلاً مسمرين إلى الأرض.

دون أن يجد شارل دو فيريول الفرصة ليتأمل ما حوله فُتح له مصراعاً الباب الأصمّ، ودخلوا به إلى قاعة السلطان التي يلمع كل ما فيها من أرض وجدران وسقف. السلطان جالس على أحد المقعدين الوثيرين المنتصبين إلى جانب الموقد المحفور في جدار مرصوف ببلاط من المنمنمات. وإلى جانب السلطان يقف سبعة رجال. اثنان منهم يرتديان زياً رسمياً، وثلاثة لباساً تركيا، وقد تعرّف أحدهم - عبدول - حررت باشا، وهو مسؤول الشؤون الخارجية التركية. وكانا تعارفا أيام الاجتماعات التحضيرية لمعاهدة سلام "كالوفيتش".

كان قد بقي على السفير الفرنسي خطوتان أو ثلاث ليصل إلى السلطان أحمد الثالث حين نهض الأخير على رسله وخطا خطوة، فتقدم شارل دو فيريول خطوتين ليجد نفسه أمام السلطان. وبعد إيماءة الاحترام قال:

- أنقل تحية شمس فرنسا لودفيغ الرابع عشر إلى سلطان الترك المعظم، سلطان مصر والشام وأورشليم والبلقان، أحمد الثالث. وأنقل إليكم الكتاب الذي يحمل دعواته لكم أن يحقق الله لكم كل خير. وندعو الله أن يمد في عمركم.

- ونحن، باسم دولتنا العظمى، أرد على تحيات ملككم. وأرحب بكم، وأقدمكم إلى رجال دولتنا النبهاء للقيام بأعمال أخرى.

ودون أن يصافح كلاً من الذين ذكرت أسمائهم اكتفى شارل دو فيريول بحركة تحية. وقبل أن يعود السلطان إلى كرسيه دلّ السفير على مجلسه، وسأله:

- أليست بلاد فرنسا في سلام، وملكها بصحة جيدة؟

- بلاد الملك المنير لودفيغ الرابع عشر بسلام، ولولا أن الإنجليز يزعموننا من حين لآخر لكان هو أيضاً بخير. يا سلطان الترك كلهم وسلطان الأقوام الأخرى المنضوين تحت علمك.

- أنا مسرور أيها السفير لكون بلادكم بخير. وليمد الله في عمر ملككم. وأما الإنجليز الذين أتيت على ذكرهم فنحن نعرف نواياهم. لقد قرروا أن يملكوا الدنيا كلها، ووصل شرهم إلى الجميع، وتدخلوا في كل شيء. ولكن من نخالفهم لن يصيبهم أي شر. يخرجون من مضيق "جبل طارق"، ويعبرون البحر المتوسط ويغزون البلاد ليلاً ونهاراً؛ أليس صحيحاً يا شركس - عثمان باشا؟

- كلامكم صحيح كما ضوء هذا النهار المشرق يا سلطان كل الأتراك. - لم يكن الجيب شركس - عثمان كابودان باشا، بصوت حاد واثق، أكبر من الكونت إن لم يكن أصغر.

- والإسبان والنمساويون والطيلىان واليونان، كيف يتصرفون معكم يا سفير فرنسا؟

- هؤلاء نجد ما نجيبهم به يا سلطان كل الأتراك.

- من الأفضل التعايش بهذه الطريقة. الطليان واليونان لا يغفرون لنا فقدانهم القسطنطينية رغم مضي أكثر من قرن ونصف على الحادث. - ابتسم السلطان بوجهه الأسمر الممتلئ، معبراً عن رضاه بما قاله.

- وهؤلاء معهم روسيا. - أضاف السفير الفرنسي إلى كلام السلطان عارفاً أن السلطان كان بوده أن يقول هذا ولم يقله.

- أسمعتم يا قادة جنودي الشجعان ما قاله سفير فرنسا؟ - سأل السلطان أدميرالاته وجنرالاته. ثم استدار إلى محدثه. - يسعدني أن يكون سفير فرنسا قد فهمنا على هذا النحو.

- وسأتناول شيئاً آخر أقرب من هذا يا سلطان الترك، بدليل الشمس، -
أكمل الآن شارل دو فيريول كلامه المحضّر مسبقاً، معتدّاً بمعلوماته عن القضايا
التركية، مُظهرّاً ثقته بنفسه: - ولا يغفر لكم أتباع دينهم البلقان. - أضاف لهم
هذه الفكرة وإن لم تكن من صلب مهمته، عارفاً أنّها تروق لهم. - ثقوا بنا من
هذه الناحية؛ ستظل فرنسا حليفكم.

- يسرنا ما تقول، يسرنا - علا صوت السلطان الآن - أن يفهمنا سفير
فرنسا هكذا. ونحن بدورنا إن ظهرت لفرنسا مشكلة خارج فرنسا فليس عندنا
ما نخفيه عنها. عالمنا صعب يستحق أن نتعاون فيه.

حين كان شارل دو فيريول عائداً إلى البيت، وقد أرضى السلطان، وراضياً عن
نفسه أيضاً لأدائه المهمة التي قابل السلطان لأجلها ومؤذنو العصر يملؤون سماء
المدينة، ويمكن أن تقول إن الشوارع كانت خالية من الناس، كان كلُّ الناس
مشغولين بالوضوء ثم الوقوف أمام الله يتضرعون إليه بما يهوّن عليهم دنياهم
العاجلة. "الساعة الآن تقترب من الخامسة - قال شارل دو فيريول لنفسه -
هل جلست مع السلطان ساعتين زيادة عما كان مقرراً؟ وماذا قلت له طوال
تلك المدة وماذا قال لي؟ لا، لا أذكر أنني قلت ما لا يجوز. هم أصغوا إليّ وأنا
أصغيت إليهم. وودّعوني بأحرّ مما استقبلوني. ربما بالغت في كلامي على الروس
والبلقان ودينهم الواحد. ولكن كنا وحدنا ولم يسمعنا أحد. ليست هناك قضية
دولية تخلو من الصدق ومن الكذب. ما يبدأ بالكذب يُختم بالكذب. والصدق
يغلقون عليه بمصداقه. وفي القضايا الدولية أفضل سلوك هو قول الحقيقة
شريطة أن يُسمح لك بقول ما تريد. انظر كيف ثارت الطبيعة هذا الصباح
والآن كيف ابتسمت لنا. غابت الشمس كأنها لم تر في البحر، ولا في
إستانبول، ما يعيب..."

انتصبت أمام مخيلة شارل دو فيريول مائدة الصباح وعليها زجاجة الشراب. وتذكر حالاً ما قالت له عائشة في شأن الشراب. وسألها وكأنها أمامه: "ما أخبارك يا شارلوت إليزابيث أيسيه؟ لا تظني أنني نسيتك إن لم أسأل عنك. لا يمر عليّ يوم أو ساعة لا أذكرك فيها. وها أنا قابلت اليوم عند السلطان رجالاً متنفذين من قومك الشراكسة. لم آت على ذكرك ولكني أرغب في التقرب إليهم كُرمي لك. أجسام رشيقة ووجوه جميلة، وينظرون إليك نظرات ذكية. ترى شجاعتهم ليس في عيونهم فحسب بل في مظهرهم. الآن أفهم لماذا لا تنسين قومك الشراكسة. لا تؤاخذيني، لست المسؤول عن مصيبتك. والضابط الذي تعرفته اليوم شرکس - عثمان كابودان - باشا، يقال إنه حُطف من شركيسيا صغيراً، وبيع في سوق النخاسة. والآن هو قائد كل القوات البحرية التركية. وأنت لا تعرفين ماذا ستصبحين في فرنسا خلال بضع سنين. انتظريني، أنا أحبك، وافهميني. أوصلت رجاءك إلى فخري. وهو لا يعتب عليك. وسأتي إليك في الصيف القادم بعد أن أنجز معظم مهماتي في إستانبول. وما أخبار جانيت - نيكول ذات الجسد الممتلئ والوجه الصبوح يا تُرى؟..."

- اذهب باتجاه مضيق البوسفور، لا إلى بيتك! - قال شارل دو فيريول فجأة لسائسه التركي، ثم سأله: - أتعرف جرفاً عالياً للبوسفور؟

- نعم، هو في قرية "أناضول كافاغ"

- أهو بعيد؟ إن كان بعيداً فإلى مكان أقرب - وتوقفت العربّة عند أعلى جرف: - في أي اتجاه تقع بلاد الشراكسة؟

- من يدري؟ - قال السائس حذراً متسائلاً عما ينوي هذا الرجل - لا أعرف إن كانت نحو الشرق.

- في هذا الاتجاه يعيش الشراكسة لأن الشمس تغرب من ورائنا - توجه شارل دو فيريول نحو الشرق وصرخ كما رجته عائشة: - أسمعوني أيها الشراكسة؟ ألي رجاء ابتكم: عائشة ابنة بولت وجنات حية وتعيش في فرنسا. - "انتظر إذن أن يسمعك الشراكسة!" قال شارل دو فيريول لنفسه وجلس في العربة، ثم برأ نفسه بأقصى صوته: - "هل سمعتني يا مريم العذراء، تحللت من نذر شارلوت - إليزابيت أيسيه - وبعد ما قطعوا مسافة قال لنفسه بحزم: "يجب أن أكون انتهيت بهذا من المسألة الشركسية لشارلوت - إليزابيت أيسيه. لن تصبح فرنسية ما لم نزع منها قلبها الشركسي ونُنسِها شركسيتها."

III

حضرت جانيت - نيكول لحفلة الربيع طوال أشهر الشتاء الثلاثة دون كلل أو ملل. وخاطت زيّ أيسيه الشركسي دون أن يعلم بالأمر غيرها هي وأيسيه، ثم طوته في الخزانة. ومن وقت لآخر كانت تلبس أيسيه الزي كي تعتاد عليه، وفي كل مرة تقف وتتأملها فلا تشبع من جمالها. ولم تكن تتوقف عند هذا الحد: كانت تطلب من أيسيه أن تتلو المقطوعة الشعرية القصيرة التي كتبها جانيت - نيكول، وتطلب أيضاً أن تغني أغنية. وتصفق لعائشة التي تزيد جمالاً على جمال بزيتها الشركسي، وتحتف لها: "برافو!" وتقول لها "يليق كل زيّ اختاره شعب لنفسه بأبناء هذا الشعب، ويكشف جمال قوام أبنائه" وتقول جانيت - نيكول لنفسها، وقلبها يتألم للصبيبة اليتيمة ودون أن تجعلها تشعر:

- لم أتوقع يا أيسيه أن تفصل الخياطة زيك بهذا الإتقان. - ثم تضيف بشيء من الرياء: - وإن أردت أخبرتكم لماذا الخياطة ناجحة: كل الجميلات، وأنت منهن، قوالهن جميلة؛ ولذا أثوابهن جميلة.

- ألم أرجلك يا جانيت نيكول ألا تقولي لي مثل هذا الكلام؟! - قالت عائشة بشيء من التصنع. ثم أصلحت كلامها: - وفي الدير تدرس صبايا أجمل مني.

- في الدير صبايا فرنسيات جميلات، ولكنك أجمل منهن.

- إن كنتِ تقولين هذا لأني صبية شركسية فأنا راضية - لم تغير عائشة رأيها، وأكملت كلامها بسرعة بعدما فكرت فيه: - كانت أُمِّي تجيب حين يقولون لها إنك تخططين وتطرزين على نحو جميل "على كل إنسان أن يتقن المهنة التي اختارها بقلبه" وهذه الخياطة الفرنسية لم تخط لي ثوباً جميلاً لأني جميلة بل لأنها تتقن مهنتها.

ومرة أخرى ابتسمت جانيت - نيكول للصبيّة الشكرسيّة وهي تنظر إليها نظرة رضاً: - حقاً، حقاً يا أيسيه، يجب أن تحي العمل الذي تمارسينه. وإن كانت معلوماتك عنه قليلة صعب عليك. ولا يتوقف الأمر هنا، فكل عمل تندمجين فيه يُسعدك.

- ألهذا يا جانيت - نيكول تمرّنوننا هنا على الدراسة والتصوير والتطريز والرقص والغناء؟

- نعم، فهمت جيداً يا أيسيه. ولهذا تُرفق بتعليمك وتريبتكن هذه الهوايات. ونحن ننوي في العام الدراسي القادم بعد عطلة الصيف أن نصحبك إلى المسرح بضع مرات في الشهر.

- وما هذا؟ - سألت عائشة مستغربة كلمة "المسرح" التي لم تسمعها قبل.
- هناك يا أيسيه، كما نقدم نحن عروضاً صغيرة هنا، يقدمون عروضاً هامة مستوحاة من التاريخ والحياة الاجتماعيّة. ويعمل ممثلون وممثلات مشاهير. وهم يظهرون في مشاهد مختلفة. ويغنون، ويقرؤون الشعر.

- لا بد أنه عجيب في جوانب كثيرة...! توردت وجنتا عائشة الصغيرتان.
- لا يقتصر الأمر على العجائب فالناس يتعارفون هناك. وترين هناك أنواع الألبسة وتسريحات الشعر والمكياج على الوجوه، حتى الحلّي التي يتزينون بها، سواء كانت تليق بهم أم لا تليق.

- يبدو يا جانيت - نيكول أنّ بين الممثلين من يمكن اتخاذه قالباً، ومن لا يمكن.

- وملاحظتك هذه ممتازة. - قالت جانيت - نيكول متعجبة من فطنة الصبيّة - ولكن من بين من تتحدث العروض عنهم يمكن أن تجدي من تعرفينه أو تخمينه.

- إذن - وصرخت عائشة لا تملك نفسها - أليست مثل الكتب التي تقرأها أو تكتبها كلودين - ألكسندرين؟

- ربما - وافقت جانيت - نيكول الصبية - من أمثال هذه الكتب يستخلصون المسرحيات. ويمكن تقديمها على خشبة المسرح.

- أيعرض في المسرح أيضاً مثل ما في الكتب من صور عارية للرجال وللنساء؟ قالت عائشة وقد تذكرت الكتاب الذي رتمه لكلودين - ألكسندرين مرة على فراشها.

- لا، لا يُعرض أشخاص عراة هناك، ولكن ليست قليلة المسرحيات التي تُعرض فيها قصص حب ماجنة، وقد يتبادل الأبطال القُبُلَ على الخشبة.

- إن لم يكونوا عراة فلا بأس في الحب - عبرت عائشة كعجوز حقيقية عن رأيها في ما سمعت. ولكن كان الأفضل ألا يتبادلوا القُبُلَ أمام الناس. أتعرفين يا جانيت - نيكول ماذا أفعل إذا صحبتنا إلى المسرح الملكي وعُرض مشهد من هذا النوع؟ سأغمض عيني!

- إن عُرض ما تحجلين منه فلا بأس في مثل هذا التصرف. نعم، لهذا يرتدي الرجال والنساء اللباس، لأنهم يخجل بعضهم من بعض، حتى لا يظهر ما عند الإنسان مما يُحجل. عندنا في بلاد الشركس لا يسمحون بالتعري.

- ربما لهذا السبب ترتدي النساء عندكم الحجاب. - عندنا يا جانيت - نيكول لا ترتدي النساء الحجاب. - قالت عائشة بعناد وثقة، وخصت بصوت أقوى ما تعرفه: - النساء التركيات هن من يحتمين باللباس. ويقال إنَّ في مصر أيضاً الوضع نفسه. لا تظني أنني أسوِّغ إخفاء المرأة

لجمال وجهها وتناسق جسدها. ولكن كانت أمي وجدتي تنصحاني بإخفاء ما ينجل الإنسان من ظهوره.

- هذا صحيح. وأنا أوافقك في هذا. ولكن لا تنسي أنك الآن في فرنسا.

- وما المشكلة - استدارت عينا عائشة لِمَا سمعت - أليس من يعيشون في فرنسا أناساً؟ إن كانوا يأكلون فنحن أيضاً نأكل، وإن كانوا يضحكون فنحن نضحك. وإن كانوا ييكون فنحن نبكي. وإن تزوجوا فنحن نتزوج. ما الفرق بين الفرنسيين والشراكسة؟ الفرنسيون بيضٌ وثمرٌ وشُقَرٌ كأناسنا. لا نختلف إلا في لغاتنا.

- نعم، نعم. وافقت جانيت - نيكول عائشة ناسية أن تتعجب مما سمعت. - أشكال أناسنا، وطريقة فرحنا وحزننا، كما تقولين لا فرق بيننا إلا اللغة. ألسنا بشراً؟ لافرق كبيراً بيننا. ولكن مع ذلك فمن تعيشين معهم من بلاد أخرى، نوع آخر من البشر. ليس الآن أوأُنْ فهمك هذا الأمر يا أيسيه، بل حين تكبرين.

حين خرجت عائشة من الغرفة وهي تتلفت هجم الحزن على جانيت - نيكول فبكت. ولكنها خافت أن يراها أحد تبكي فغضبت وهي تمسح دموعها: "إثم كبير أن تسرق فتاة ذكية لا يتناسب عقلها مع عمرها وتبيعها في السوق. بل إن انتزع الإنسان من أهله وبيعه إلى بلاد غريبة لا يتوقف عند حدود الإثم، ومن يشتريه ليس أحسن ممن يبيعه. لم يفعل الكونت شارل دو فيريول شيئاً حسناً. لو كان يريد الإحسان إليها كان عليه أن يعيدها إلى بلادها، كان ثواباً. وبدلاً من أن يفعل هذا يأتي إلينا بالفتاة التي يجري في عروقها الدم الشركسي، وينبض في صدرها القلب الشركسي ليحولها إلى فتاة فرنسية، ونعلّمها، مستعملاً صِلَاتِهِ بالقصر الملكي. لا، لن أستطيع أن أنتزع من الصبية الشركسية

ما في نفسها وأضع مكانه ما ليس فيها. لا يلمني أحدٌ في هذا الأمر. أعلمتني الكونتيسة ماري - أنجيليك عدم رضاها بتفصيل زِيٍّ شرَكسي لأيسيه، ولكن ليس هذا ما أهتم به بل هل تُعجِب الملكة به أم لا. ليس عندها تمييز بين الأعراق، ولكن إن لم يقبلوا ما فعلت لأيسيه فإنني سأصحبها وأعيدها إلى بلادها مهما كلف الأمر. إن سرقْتُ ما سرقوه وأعدته إلى أصحابه فهل أكون سارقة؟" - نصحت جانيت - نيكول نفسها، ثم سخرت منها.

جاء الاحتفال الذي تنتظره طالبات الدير ومعلماته في الثلاثين من أيار عام 1704.

الربيع حلو ودافئ دائماً في باريس. والطبيعة جميلة جداً لأن اليوم آخر أيام الربيع، والغد بداية الصيف. والنسيم يحمل روائح الأشجار التي برعمت، وتلك التي أزهرت، والأخرى التي أورت. السماء صافية والنهار لطيف. والمتنظرون للملكة مرحون ووجوههم تطفح بالبشر. وملابس التلميذات جميلة وموحّدة. وملابس المعلمات مختلفة غير أن كل واحدة لبست أجمل ما عندها. والمدعوون إلى الاحتفال من أمهات وآباء وغيرهم من الأهل أنيقوا اللباس كذلك. وجانيت - نيكول تلبس ثوباً خمرىاً ترتديه مرة أو اثنتين في العام. وفي عنقها منديل حريري أبيض، وعلى الرأس قبعة وردية خفيفة.

أين إذن الزي الشرَكسي الذي فصلّوه لشارلوت - إليزابيت أيسيه؟ لا تلبسه عائشة الآن، بل تلبس كسائر الفتيات. وعندما يحين موعد إلقاءها الشعر وغنائها فحسبٌ سترتدي ثوبها الشرَكسي الجميل وقبعتها المتطاولة الموشاة بخيوط الذهب والفضة، وجانيت - نيكول التي تنتظر الملكة هي من لا تنظر نحو عائشة الآن.

حين أعلن عن وصول الملكة ظهرت العربتان الملكيتان من وراء المنعطف قبل أن يتاح للمستقبلين أن يحولوا أنظارهم نحوهما. وقبل أن تنزل الملكة من العربة الأولى أنزلوا كرسيها الذهبي من العربة الثانية ونصبوه في الفناء في الظل المُعَدَّ له.

ثم حين فتحوا للملكة باب العربة المزين بكتابات ذهبية وفضية، ودعوا ماري-تيريز الملكة إلى التفضل بالنزول أوماً الجميع إليها إشارة احترام وهي تتخذ مقعدها على الكرسي الذهبي. وكان على يمين المقعد ويساره بعض النساء. ما استغربته عائشة لم يكن كرسي الذهب، ولا لباسها الموشى بالذهب والفضة، ولا وصيفاتها الجميلات القائمات على رأسها، بل المقعد الوطيء الذي تسند الملكة قدميها عليه "وأنا حين تحل جديتي ضيفة على أحد كانوا يُجلسونها على أريكة وثيرة مريحة، ويحيطونها بالوسائد. ثم يضعون لها مثل هذا المقعد تحت قدميها وإن لم يكن من الذهب فيريحونها هكذا." وكتمت عائشة ألم الذكرى الذي عصر قلبها.

- يا بنات فرنسا العزيزات - خاطبت الملكة ماري - تيريز مستقبليها. - أهئكن بيوم احتفالكن. وأدعو الله أن تكنّ سعيدات، وأن تساهمن في جمال بلادكن.

افتتحت مجموعة من البنات الاحتفال بأغنية تمجد الملك والمملكة. ثم مرت مجموعة من الفنانات أمامها يعرضن رسوماتهن ويومئن إليها احتراماً. وعرضت مجموعة قطعة مسرحية أبطالها من الوحوش. وقد صفقت الملكة لكل هؤلاء، وأمرت بتوزيع الحلوى عليهن. ثم رقصت بكل أدب مجموعة يرتدين ملابس ملونة، وعدن إلى المقاعد المخصصة لهن. ووزعت الحلوى عليهن أيضاً.

عندما حان دور شارلوت - إليزابيث أيسيه، وشخصت أمام الملكة بزيها الشرکسي الجميل لم تتعرفها الكونتيسة ماري - أنجيليك، حتى خادمتها صوفي لم تتعرفها. وجعل الطبيب لاروش والأسقف بيير دو تانسین يتهاامسان. وتأملت جانيت - نيكول الملكة وقلبها يكاد يقفز من صدرها. ونظرت بطرف عينها إلى بيير، ولا تعرف لماذا خطر لها في هذه اللحظة الكونت شارل دو فيريول.

"الطبيعة جميلة، وملکتنا أجمل منها _ تقرأ عائشة مقطوعة جانيت - نيكول، والجميع ينصتون إليها وقد انقطعت أنفاسهم. - السماء عالية والشمس تشرق، وشمس ملکنا أدفاً منها کل أقطار فرنسا تعيش في طمأنينة وسلام وحرية وفرح. ولما كان هذا کله بفضل ملکنا الشمس فليبق دائماً حارسنا!"

حين قرأت عائشة المقطوعة واضحة سلسلة صفق الجميع لها. ومن كانت من بين الحضور تصفق بحجارة زائدة عن الحد، ناسية حضور الملكة، هي الكونتيسة ماري - أنجيليك. وحين انتهت الملكة من التصفيق طلبت إليها جانيت - نيكول:

- من هذه الصبية؟ زيُّها جميل، وهي جميلة جداً.

- هي صبية جاء بها من تركيا الكونت شارل دو فيريول، أيتها الملكة المعظمة.

- أهذه هي الصبية الشرکسية؟ - أشارت الملكة إلى عائشة أن تقترب إليها.

وكما كانت جانيت - نيكول علّمتها، قبلت عائشة اليد التي امتدت إليها،

جاثية على ركبتيها اليسرى دون أن تمس الأرض تماماً، محيية بليماءة من رأسها.

- ما اسمک يا حلوتي؟

- اسمي شارلوت - إليزابيث أيسيه فيريول، يا ملکتنا المبدلة.

- نعم، حقاً، أنت ابنة سفيرنا في فرنسا الكونت شارل دو فيريول. تلبسين ثياباً جميلة، وألقيتِ القصيدة إلقاءً جميلاً. اذهبي إلى قريناتك الآن!
- سأعني أيضاً أغنية يا مليكتنا، وسأعرض عليك مطرزاتي. - حيث عائشة من جديد الملكة بالطريقة نفسها وانصرفت.
- إنها فتاة حلوة الوجه واللسان، إن كبرت فستكون زينة احتفالاتنا. - أتبعك ملكة فرنسا بكلامها الصبية الشرسية.

IV

كبر جسم أورخان وكأنه ليس ذاك الصبي الذي كادوا يرمون به من السفينة. وصار شاباً رائعاً. ومن نظراته ومن كلامه وتفكيره يتميز من أقرانه وكأنه ليس ابن الثامنة عشرة، وينسجم مع الأكبر منه سناً أكثر مما مع أقرانه. وهو صالح لأي مهمة توكل إليه، ومستعد لأن ينفذ أي شيء يُطلب منه. إن حققها فرح، وإن أخفق حزن لإخفاقه، وفكر في سبب عدم تحقيقها وبحث عن طريقة نجاحها.

أهو عناد أم هو إخلاص للمهمة التي بدأ بها؟ هذه الصفات وغيرها، منذ طفولته وإلى الآن، صارت جزءاً من حياته شاء أم أبي. لاشك في صدق الحكمة التي تقول: المأساة تُفني الإنسان، والمشقة تصقله. هذه الحكمة تنطبق بكاملها على أورخان. ولكن الجزء الثاني من الحكمة أصدق من الأول. قبل أن يفهم صبي السابعة العذاب الذي حل به صقلته سنوات الأسر الخمس. وفهم حلاوة الحرية. ولهذا كان قد هرب من الأسر في جزيرة كورسيكا، ولجأ متخفياً إلى سفينة سليمان. ولهذا أيضاً قال لمن أهانوه حين ألقي القبض عليه "لأني تركي أعود إلى تركيا".

"الصراحة وقُلْعُ العين سيّان" أكان الصبي أورخان يفهم معنى هذه الحكمة. لم يكن أورخان يعرف إن وجدت مثل هذه الفكرة. ولكن قد يكون مثلُ الكلام الصريح الخالي من الكذب الذي قاله لسليمان هو الذي صار أساساً للفكرة. وربما حمى فخري الصبي في ذلك اليوم لأنه كان تجسيداً لطفولة فخري. فتناسى مشكلاته هو، وأوصل أورخان إلى جزيرة قبرص وسلمه لأهله.

كان قد مضى على هذه الأحداث أكثر من أربع سنوات حين رجع أورخان إلى فخري زائراً ففرح فخري:

- أورخان، أخي الصغير، هذا أنت؟! - استقبل فخري فرحاً الشاب الممشوق الواقف على بابه. - كنت أنتظر عودتك يوماً من الأيام. ولكن إن أردت الحق فليس الآن، بل بعد أن تتقدم في السن وتصبح رجلاً.

- لم أطق مزيداً من الصبر - قال أورخان واثقاً من كلامه ومن تصرفه. - إن كنتَ على وعدك حين صحبتني إلى بيت أهلي وأملتني فأنا إلى جانبك. فإن كنتَ واثقاً بي فقولك قولي، وفعلك فعلي.

- لا أحنث بوعدي. وإن سمعتَ نصيحتي فلن أقبل منك أيضاً أن تحنث. تفضّلْ معي! كيف أهلك؟

- كلهم بخير، وحملوني سلامهم إليك.

- وعليكم السلام، شكراً لهم.

- يدعون لك ليلَ نهار. لا ينسون معروفك نحوي. وأنا أعذك ألا أنسى. ولولا أني قادم إليك ما سمحوا لي بالخروج من البيت.

- على ما فهمت يتأملون فيّ - ابتسم فخري راضياً في قرارة نفسه - وهكذا لكلّ منا معروف عند الآخر، أريد منك شيئاً.

- قلت لك يا كبير إني لن أقصّر معك في شيء.

لم ير أورخان أي تغيير في البيت الذي قضى فيه بضعة أيام إلا الستائر. كل شيء على حاله. فخري رجل نظيف جداً، وبيته كذلك. تنصّت أورخان متسائلاً إن كان في البيت امرأة، غير أنه لم يلحظ ما يشير إلى ذلك "على ما يبدو لا يزال فخري وحيداً"

لاحظ فخري حركات أورخان فقال له باسمًا:

- إن وافقتني فأمامنا الليلة مهمة نسميها: العشاء. نذهب إلى المطعم المجاور، فنأكل بحجّة قدومك ما طبخه غيرنا. أو نشمر عن سواعدنا ونطبخ لأنفسنا.

- الاثنين جائزان. ولكني أفضل الخيار الثاني. أكلتُ تَوّاً في الميناء.
- أكلتُ وأنت تعرف إلى أين ذاهب، هذا ليس تصرفاً صحيحاً يا أخي الصغير. - قال لأورخان أخيه الصغير عاتباً ثم صارحه بما يريد: - أنت أشعل النار، وأنا ماضٍ إلى الدكانة المجاورة.
- أنا معي ما أشتري به طعاماً، أعطاني إياه والدي.
- إن كان معك فاحتفظ به. لا نقود تفيض عن الحاجة. إن أنفقتُ بعض المال على عشاء الليلة فلن أفقر. - ولحظة خروجه من الباب تذكر شيئاً فتوقف: - أورخان هل رأيت بالمصادفة سفينة سليمان في الميناء؟
- لم أرها ولكن سألت عنها؛ قيل لي: توجهت إلى الإسكندرية. وما تزال فيها.
- لم يكذبوا عليّ إذن، ما سمعته صحيح. ستجد الحطب والقداحة في الموقد. وأنا راجع حالاً.
- لم يستغرق شَيّ لحم الخروف سوى انتظار اشتعال الحطب وتحوله جمرًا. وحين جهزت المائدة، وتناولوا بضع لُقَم، لم يستطع فخري إلا أن يسأل ضيفه:
- لماذا يا أورخان تسأل عن سفينة سليمان إن لم يكن سرّاً؟
- ليس عندي ما أخفيه عنك: لولا أنت يا فخري كان رماني في البحر. وأشدُّ ما أَلْمَنِي أنني أنا التركي لم يفهمني تركي!
- أورخان يا أخي الصغير! - ابتسم فخري في وجه الشاب وإن كان قلبه يتألم:- لن تصل إلى التفاحة التي في أعلى الشجرة ولو وقفت على رؤوس أصابعك. من الذي سرقك؟
- تركي.
- ومن أخذك إلى تركيا وباعك إلى حملة الصليب؟
- وهؤلاء أتراك. والمركب كان تركياً، ومن باعني كان تركياً.

- وكيف تريد إذن أن يفهمك هؤلاء؟ - وسأله ثانية متعجباً من طريقة تفكير الشاب، منتظراً كيف ستكون إجابته:

- لو كان الأتراك كلهم متشابهين يا فخري - احمرت وجنتا أورخان ثم تسرب الدم منهما - ما كنت اشتريتي من ذلك التركي! - ثنى السكين الفولاذية بضع مرات كمن يؤجج حزنه أو يطفئه، ثم سواها.

قال فخري كيفما اتفق كأنه يريد انتشال أورخان من الكآبة التي تسبب فيها: - ثم إن ما دفعته لأجلك كانت نقوداً فرنسية، لا تركية.

وجد أورخان ما يعلق به على كلام فخري:

- لم يخترع الإنسان أظلم ولا أقدر من النقود كما يقول والدي. يبيعونك بها ويشترونك. ثم إن ما أستغربه هو أنها لا تميز بين غني وفقير.

- والدك يقول هذا لأنه يشعر بالألم وبالرحمة. - تنهد فخري وقد تذكر سنوات أسره في طفولته، ثم سنوات إجرامه، وبعد قليل أكمل كلامه: - أنت تفكر بطريقة صحيحة في الموضوع مع أنك ما تزال شاباً. ولكن لأني فهمت الآن ما فعلته وما لم يكن عليّ أن أفعله أقول لك: الأفضل هو أن تعيش حياتك دون أن تمارس الظلم، كما يقول قرآننا المنزل من الله. نعم، نعم يا أورخان لا تتعجب، لم أعش حياتي نظيفة من الظلم، سواء مني أم عليّ. وكل هذا بسبب أنني أعرف الشركسية.

- وأنا بالإضافة إلى لغتي التركية أعرف الفرنسية... - أسرع أورخان بالتصريح بسبب ما سمع.

- حسنٌ أنك تعرف الفرنسية، ولكن لا تستغله في الشر. أنا كثيراً ما أجبرت من قبل المجرمين الأتراك على استغلال اللغة الشركسية التي تعلمتها من الصبيان

الشراكسة خلال فترة استعبادي. وسببوا لي عاهة أبدية... حسناً لا داعي أن أروي لك، فيما بعد، لاحقاً.

برد الطعام على المائدة قبل أن يُنهي فخري وأورخان حديث الذكريات المؤلمة الذي نَبَتَ بينهما فجأة. وسأل أورخان وقتَ استعدادهما للوضوء قبل صلاة العشاء:

- أنت تقول هذا ولكن يا فخري ألم تنفع لغتك الشركسية تلك الصبية الشركسية التي ذكرتها؟

- نعم، ولكن لا أدري ماذا استفادت. وما كسبته من الترجمة لها افتديتك به.. كيف سنميز الآن النتيجة؟

- لا أعرف كيف نميز إلا أن نقول: باعوا واشتروا.

هذا كلام سهل إن تتبعته جذره. وربما كان جواب سؤالك عن سفينة سليمان في هذا. ولنؤجل هذا الموضوع أيضاً يا أورخان. الآن للتوضأ ولنقف طاهرين جسماً وقلباً أمام الله الذي يتوسل إليه الكثير من الناس وهو لا يتوسل إلى أحد. ولندع إليه أن يغفر لنا ذنوبنا ويذكّرنا دائماً أن نفعل الخير.

نام فخري وأورخان بعد الصلاة، كلٌّ في غرفة، وقد تقارب قلباهما. أحدهما، وإن شهد في طفولته العُسر فقد كان في أول الطريق، والآخر قطع نصف طريق الحياة، ويعيش وهو يعرف أنه سيعيش وحيداً ما تبقي. وكلاهما يفكر في الثأر. ولكن لم يتكلما صراحة في كلفيته ونقطة البدء فيه.

بعدُ أورخان الإهانة التي ألحقت به في سفينة سليمان أصعب من سنوات أسره في كورسيكا. ولولا فخري كان منذ زمن طويل طعاماً لوحوش البحر. يسأل عن سبب ظلم الإنسان ولكن هل سيجد جواباً لسؤاله؟ كما أن الإنسان ظالم فكذلك عطوف وطيب وخير. وليست المواقف التي اختبر فيها أورخان خلال

حياته القصيرة قليلة. يفكر أورخان في ما كان والده يقول "لولا أن الخير وفعله أكثر في الدنيا لانتهى الإنسان منذ زمن طويل مع الظلم" وفي كل مرة يتذكر الناس الطيبين أمثال فخري الذين ساعدوه. لماذا إذن يتجاوز الخير والشر في كل مكان. يفكر أورخان في الصبية التي روى له أخبارها فخري أكثر من مرة. "ما فعلوه بما عجيب، بحجة أنهم يفعلون بما الخير، اشتروها وأخذوها إلى بلاد أخرى. أنا مهما قاسيت رجعت إلى مسقط رأسي بفضل الرجل النبيل فخري. والصبية الشركسية؟ أتجد في نفسها القوة فتعود إلى بلادها؟ يا إلهي أعط تلك الصبية قوة حلاوة الحرية! وأرسل لها شخصاً في قلبه الرحمة. قد يكون هذا الشخص فخري. قد يكون هذا هو السبب في أنه لا ينقطع عن ذكرها. أم لأنه ساهم في مصيبة الصبية كما يقول فخري نفسه.

لم تكن أفكار فخري اللامتناهية بعيدة عن أفكار أورخان. ولكنها كانت تفترق في مفارق الطرق فتجري يعرف كل الآخر ويشتاق إليه: ما فعله به صديقه السابق عصام المجرم، ومأساة الصبية الشركسية، والكونت شارل دو فيريول سفير فرنسا، والباحث عن العدالة الشاب التركي أورخان، وباختصار: إن راعيت إحساسهما، الكبير والصغير، بالظلم فالذي أمامهما هو ثأر للمظالم التي تعرضا لها. ومع أن أفكار فخري كانت في تركيا، وتصل إلى بلاد الشركس، ومصر، وفرنسا، فإنها تقول أخيراً إلى الشاب أورخان. وكان يتساءل متردداً في شأن إقحامه في أموره السلبية: "أورخان يبحث عمّن أهانه سليمان والرجل المُشعر الساعدين اللذين أبحث أنا أيضاً عنهما. الشاب جاءني قائلاً "قولك قولي، وفعلك فعلي" فإن قابلته بكلماته نفسها؛ ألا يجب أن أطلعها على سري كله؟ لا، لا، لن أطلعها على سري. لا يزال في مقتبل العمر. ثم ماذا يمكن أن ينفعني إن رويت له؟ لم نصل بعدُ إلى مرحلة يمكن أن نتبادل فيها الأسرار. لا

يجوز استعجال الأمور التي تحتاج إلى وقت. إن تبين لاحقاً أن في قلب هذا الشاب رحمة فقد يكون أُملي في آخر عمري. ولكن هل من الصحيح أن أوافقه على أحقاده وأغريه بها لأنه سليم من العاهات، وفي كامل صحته؟ لا يزال طري العود وسيقبله في الدنيا الكثير من الخير والشر. ومسؤولية عائشة التي تفهم مأساتها وأشفق عليها على من تسبب في مصيبتها. وإن قاسمني سرّي دون أن يتدخل فيه قنعت به. ويعرف أورخان أننا اشترينا بالمال سليمانَ والرجلَ المُشعر رفيقه، المحرومين من كل إنسانية وكرامة، وسخرنا منهما، فلماذا لا يزال أورخان يلاحقهما؟ وما في ذهني نحو سليمان والرجل المُشعر وعصام ثالثهما في القذارة، أمر آخر. وإن كنا سيُخلص أحداً للآخر فالذي علينا أن نهتم به هو قضيتي وقضية عائشة بالتوازي..."

- أين وجهتك أيها الضيف؟ - مع أن فخري كان يتوقع وجهة أورخان الذي كان يستعد للخروج بعد تناول الشاي فقد سأله.

- أفكر في استطلاع الميناء. ربما رست سفينة سليمان الليلة.

- هذا ممكن، ولكن أسألك بعدما أعدت التفكير في أمور كثيرة: ماذا ستفعل بسليمان؟

- أتسأل عن هذا يا فخري؟ - استغرب أورخان السؤال وأجاب عن المسألة التي عزم عليها: - سأفعل به ما كان ينويه لي وحُلّت أنت دونه. وليس وحده بل ذلك الآخر الذي كان يجري من قَبْتي. لا يجوز إبقاء أمثال هؤلاء أحياء. ولكن قبل أن أزهرق روح ذلك المُشعر أريد أن أقرّه باسمه.

- وما شأنك باسمه؟

- يجب أن تعرف يا فخري اسم الرجل الذي تقتله واسم أسرته وإلى أي عرق ينتمي.

- ليس لهؤلاء اسمٌ ولا اسم أسرة أو عرق إلا اسم المجرم. إن كنا سنتشارك أقوالنا وأفعالنا يا أخي الأصغر فاسمعي: دعنا من حديث سليمان والآخر العديم الإنسانية. هذان فعلنا بهما ما نستطيع. وكما يقول والدك سددنا فميهما في ذلك اليوم بالمال القدر. وهذا كافٍ لنا وبيئتنا نحو الله. وأعرف أن سليمان والآخر لا يعتبران هذا عاراً، غير أنه لاشيء يساوي رضانا عن أنفسنا بما فعلناه؛ أم لك رأي آخر في الموضوع؟

تنفس أورخان عميقاً:

- كما تريد يا فخري!

- إن فهمت الموضوع هكذا فأمرٌ جيد - توقف فخري قليلاً وأردف: - للشراكسة قول مأثور: "المهان يجد وقتاً للثأر" لا أقصد بهذا أن نهمّل سليمان وصاحبه. أتوقع أن عصام شريكهما، وهذا ما أظن أنه سيفسح لنا المجال للانتقام. ولن يخطو خطوة واحدة دون علمي لأن عندي أشخاصاً مكلفين بمراقبة سفينة سليمان.

- فهمت، ثق بي؛ ولكن ألا يجوز أن أراقبهما من دون أن يشعرا بي؟

- لنمش، لا داعي أن تجلس.

- إلى أين؟ إلى الميناء؟ - نهض أورخان الآن متحمساً أكثر من ذي قبل.

- لا، سنذهب للقاء شارل دو فيريول السفير الفرنسي.

- إلى من اشترى تلك الصببة الشركسية؟

- نعم، هذا رجل متميز، سأقدمك إليه وتصبحان صديقين.

- لا أعرف كيف سأصبح صديقاً لمن اشترى إنساناً.. - تغيرت سحنة أورخان.

- لا تخف! - ابتسم فخري، ليس هذا الرجل كما تتصور.

- لا، لست خائفاً. - كان أورخان مستعداً للجواب. - لا أخاف الآن إلا من الله. - "فخري يتصرف أحياناً بطريقة غير مفهومة. يجابه من يشترون الناس، ويساند من يُهان. ثم يقول لي إنه سيعرفني شخصاً اشترى إنساناً فأهانهُ" أضاف أورخان بينه وبين نفسه، ثم قال بصوت ألطف لضائفة: - إن كان رأيك هكذا فسأمضي معك، لن يأكلني.

- إن وصل الأمر إلى هنا يا أخي الصغير سحبت سيفي أنا أيضاً - يوافق فخري أورخان بصوت أثبت، مع شيء من العتاب، - كيف ترفض أن تتعرف شخصاً فعلاً خيراً فاشترى؟! أعندك كثير من الأصدقاء من سفراء الدول؟ وبهذه المناسبة سأطلعك على قول مأثور آخر للشراكية وأدعك تفكر فيه "ما تراه العين يساوي ما في العقل"

- ليس رفضاً لما اقترحت عليّ يا فخري "كأننا نحن الترك ليس عندنا أقوال مأثورة حتى تعلق فخري بأقوال الشراكية؟!" قال وفي ذهنه هذه الأفكار: - لأن هناك طرقاً كثيرة لفعل الخير سمعت كثيراً من أهلي يربوني عليها، وأنت تضيف إليها. لنمش! ولكني أخرس وأصم وإن كنت أعرف الفرنسية.

- ليس في الأمر إجبار يا أورخان. - ولكن لما كان من نزوره يتعلم بعض الكلمات التركية فاحذر وأنت تنصت إلينا.

- حسناً فعلت بإطلاعي على هذه المعلومة. - شغّت عينا أورخان دفئاً كما لم تكونا صباحاً. - إن كانت له صلة بالأترك فليس رجلاً سيئاً على ما يبدو. وبشأن ما حذرني منه فأنا أخرس وأصم طوال استماعي لكما، بل أجعل نفسي أعمى إن أردت!

V

- من هذا الشاب الرشيق المتناسق؟ - سأل شارل دو فيريول فخري. ولم يكتف بهذا، بل سأل الشاب الجالس أمامه بالتركية: ما اسمك؟ - أورخان.

- اسم جميل. وما العلاقة بينك وبين صديقي فخري؟

- قال أورخان بالفرنسية: أنا الأخ الأصغر لفخري وإن لم تلدنا أم واحدة.

- أتعرف الفرنسية؟ - جعل الجواب بالفرنسية شارل دو فيريول يثب من مكانه. ومن أين تعلمتها؟ تغلب عليك اللهجة الكورسيكية.

- نعم، تعلمت لغتكم مرغماً في كورسيكا.

- كل ما كان إجبارياً سيء دائماً. تحدث مثل هذه الأمور في عالمنا، وكان الأفضل ألا تحدث. ولكن لسنا نحن المسؤولين، بل الله.

- لا ذنب لـ "الله" المسلمين، ولا لإلهمكم في هذا. - بدا الغضب على وجنتي أورخان. - الذنب ذنب من سرقني ومن اشترائني. ما أشد العذاب الذي سببه هذان لي ولأمي وأبي ولكل أهلي!

نُبّهت الكلمات المفاجئة لأورخان شارل دو فيريول وفخري فرفعا رأسيهما. وجعل كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر بطرف عينه. وسبق السفيرُ الفرنسي فخري فقال متجنباً الجفوة التي نشأت للتو، عائداً إلى الموضوع الأول:

- نعم، صحيح، علاقتكما حسنة ولو لم تلدكما أم واحدة. خير للناس أن يتصادقوا من أن يتعادوا. لماذا على الناس وعلى الدول أن تتخاصم وتتحارب؟ هذه مهمتي في تركيا، وما يأمله ملكنا المعظم مني. وأينما كنت أمارس هذه المهمة الإنسانية. أعمل جاهداً كي لا تنشب نزاعات بين الناس. ولهذا لا

أتكاسل عن تعلم لغات الناس الآخرين. وها أنا الآن أتعلم الروسية بكل جدّ. ولكن هذا ليس إجبارياً، يفيدني في هذا "كانتيمير ديميتري".

- ومن هو؟ - سأل فخري الذي يسمع هذا الاسم للمرة الأولى.

- لا تعرفه. جاء مثلي إلى تركيا منذ عهد قريب. إنسان ممتاز. نجتمع مرة على الأقل في الأسبوع، فيعلمني بعض الكلمات. وإن تعذر حضوره أرسل إليّ بعض موظفيه. وأفضل شيء يا صديقي العزيز فخري هو أن أحصل على امرأة من تلك الديار، لا يهم إن كانت جميلة أم قبيحة.

- وإذا كانت صربية؟ يقال إن الصرب والروس تتطابق لغاتهم. - قال فخري ناسياً حضور أورخان ومعرفته الفرنسية، معتبراً الحديث عن النساء مديحاً.

- والنساء الصربيات في إستانبول كثيرات. ولكن لما كانت لغتهن مشتقة من الروسية فهن يشوهنها. - وأردف بعد قليل وإن كان كلامه سيسبب نوع حزن - يقال إن النساء الروسيات جميلات ولكن لا أراهن في أسواق النخاسة. أصادفت واحدة منهن يا فخري؟

- لا، لا أيها الكونت - لم يدع فخري السفير يكمل كلامه. - منذ زمن بعيد تركت هذه المهنة، وأنت تعرف هذا.

- هذا أمر سيء - يقول شارل دو فيريول ما يُهمه هو - لو أنك حصلت لي على امرأة روسية بيضاء لعلمتني اللغة جيداً. ثم أتدري ماذا سأقول لكما: لو تعلمت لغتهم لربما كان ملكنا أرسلني سفيراً إلى بلادهم.

ما إن ألقى فخري نظرة بطرف عينه على أورخان الذي كان يحمر حيناً ثم يشحب ثم يسودّ، حتى كان الآخرُ سأل الكونت ما كان يتوجسه فخري، فأحرقه سؤاله:

- إن كنت تحب اللغات هكذا أيها السفير فلماذا لا تتعلم الشركسية؟

- أَقْلَتِ الشَّرْكَسِيَّةَ؟! - أَجَابَ شَارْلُ دُو فِيرِيُول مَتْمَهْلًا عَلَى السُّؤَالِ الَّذِي لَمْ يَتَوَقَّعْهُ، مَفْكَرًا، وَ دُونَ أَنْ يُشْعَرَ مُحَدَّثُهُ أَنَّ تَحْتَ السُّؤَالِ أَمْرًا، وَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ احْتِقَارُهُ، أَدَاءً لِلوَاجِبِ فَحَسْبُ: - وَمَا حَاجَتِي لِلشَّرْكَسِيَّةِ فِي عَمَلِي؟
- أَلَا تَكَلِّمُ بِهَا عَائِشَةَ؟- لَمْ يَتِمَّا لَكَ أَوْرَخَانَ الشَّابَّ الْمُتَوَرِّدَ نَفْسَهُ غَضَبًا.
- وَمَنْ هِيَ عَائِشَةُ؟ - سَأَلَ شَارْلُ دُو فِيرِيُول ثَانِيَةً وَكَأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ الْاسْمَ الَّذِي نُطِقَ بِالْتَّرْكِيَّةِ؟

- يَتَكَلَّمُ أَهْيَا الْكَوْنَتِ عَلَى شَارْلَوْت - إِلِيْزَابِيْتِ أَيْسِيَه. قَالَ فَخْرِي وَمَوْهَ حِدَّةٍ أَوْرَخَانَ بِسُرْعَةٍ. - لَا يَزَالُ أَوْرَخَانَ شَابًّا؛ سَاحِجُهُ! مَا يَزَالُ مُتَأَثِّرًا بِالمُصِيبَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا قَبْلَ سَنَوَاتٍ. - الْبُؤْسُ لَا يُمَيِّزُ صَغِيرًا مِنْ كَبِيرٍ... - غَمِغَمَ أَوْرَخَانَ لِفَخْرِي غَيْرَ عَابِيٍّ إِنْ كَانَ السَّفِيرُ الْفَرَنْسِي سِيْفَهْمُ أَمْ لَا.

- نَعَمْ، صَحِيحٌ.. - أَنْهَى شَارْلُ دُو فِيرِيُول كَلَامَهُ مُوَافَقًا أَوْرَخَانَ، مُوجِّهًا دَفْعَةَ الْحَدِيثِ إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ: - لَمْ تَقُلْ مَا أَوْاخَذَكَ عَلَيْهِ. يَحْدُثُ مِثْلُ هَذَا كَثِيرًا - ثُمَّ ضَحَكَ وَأَكْمَلَ: - إِنْ كُنْتَ تَقْصِدُ شَارْلَوْت - إِلِيْزَابِيْتِ أَيْسِيَه دُو فِيرِيُول فَهِيَ صَارَتْ فَتَاةً فَرَنْسِيَّةً مِنْذُ زَمَنِ بَعِيدٍ. وَأَنْتَ شَاهِدٌ عَلَى هَذَا يَا فَخْرِي.

- حِينَ ذَهَبْنَا بِهَا إِلَى فَرَنْسَا كَانَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ "الرُّوحِ الْفَرَنْسِيَّةِ" إِنْ شَاءَتْ أَمْ أَبْتَ. - قَالَ فَخْرِي دُونَ حَمَاسَةٍ - غَيْرَ أَنِّي لَا أَعْرِفُ مَاذَا جَرَى بَعْدِي.

- مَاذَا قُلْتَ لِي يَا فَخْرِي عَمَّا يَقُولُ الشَّرَاكْسَةُ عَنِ الْوَلَدِ الَّذِي لَمْ تَلِدْهُ؟
- "الْوَلَدُ لَيْسَ لِمَنْ وَلَدَهُ بَلْ لِمَنْ رَبَاهُ"

- لَنْ يَقُولَ الشَّرَاكْسَةُ أَصْدَقَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ!- صَاحَ شَارْلُ دُو فِيرِيُول، مُؤَكِّدًا سِفَارَتَهُ بِإِتْقَانٍ، وَتَابَعَ دُونَ أَنْ يَغْيِرَ رَأْيَهُ، بَاحِثًا عَنْ خَاتَمَةٍ لِلْمَوْضُوعِ الَّذِي لَنْ يُسَمَحَ لِأَحَدٍ بِالتَّدْخُلِ فِيهِ: مَهْمَا أَمَعَنْتَ النَّظَرَ فِي شَارْلَوْت - إِلِيْزَابِيْتِ أَيْسِيَه فَلَنْ تَكْتَشِفَ أَنَّهَا كَانَتْ فَتَاةً شَرْكَسِيَّةً. لَوْ لَمْ نَضْفِ إِلَى شَارْلَوْت - إِلِيْزَابِيْتِ

الاسم الفرنسي الجميل الاسم الشركسي الصعب النطق "أيسيه" يا فخري
لكانت نسييت من زمان أصلها الشركسي.

- لا شأن لي بهذا الموضوع يا كونت. - تملّص فخري مما قيل له، وشهد على
أصل الموضوع: - ألا تتذكر كيف لم تقبل أيسيه ألا يُكتب اسمها الشركسي؟
- أتذكر... - برّا شارل دو فيريول نفسه وإن ظهر ندمه على ما قال: - كنت
أذنبت بحق شارلوت - إليزابيت لو لم أفعل هذا... أقول لماذا ما نزال جالسين
وقد حان موعد الغداء! _ "ما شأنكم بقضايي الأسرية" قال في نفسه، غير
أن فخري وجد ذريعة بمهارة.

- شكراً يا كونت. ينتظروننا في مكان آخر للغداء ولذا لا نستطيع الإخلاف
بالموعد. - نهض فخري. - لنمش يا أورخان. لم أتوقع أن نطيل جلوسنا كما
فعلنا. كنا في طريقنا فأحببت أن أعرفك على من صار أخي الأصغر.

- شكراً، سررت جداً بلقائكما. - نهض الكونت مخفياً ارتياحه لانصراف
الضيوف، ولم يستطع إلا أن يمدح نفسه: - من العجيب أنكم وجدتموني في
البيت لأني مشغول بقضايا دولية لا حصر لها. أورخان هذا الشاب الذكي،
نظر إليه نظرة رضا، وابتسم له، وربّت على كتفه رغم أنه كان ساخطاً عليه _
شكراً على أنك قدّمته لي يا فخري. إن اخترتم يوماً وأخبرتوني مسبقاً
فسنجلس مزيداً من الوقت معاً وسنتحدث. نسييت يا فخري؛ توقف قليلاً: -
أعاد فخري إلى ما وراء الباب وهمس في أذنه بحيث لا يسمع أورخان: - أأنت
واثق من هذا الشاب؟ مهلاً، لا تقل شيئاً. حُبل إليّ أنه لا يُطيقنا، لا أنت ولا
أنا. أظن أنه صار أدكى مما يجب في الأسر. من الأفضل الابتعاد عن كل
الأذكياء.

"جلست ساعة كاملة أستمع إلى كلام لا معنى له من شاب ثرثار. - اهتاج شارل دو فيريول لاضطراره إلى أن يكظم غضبه، ولم يعد يجد مكاناً له على أرض الغرفة. يذرع أرضها كمن خرج من جلده عابس الوجه، محمر العينين. لماذا يصحبه فخري في تنقلاته؟ أمن أجل أن يتنصت علي أم ماذا يبغي منه؟ ما شأنكم بها حتى تسميا شارلوت إليزابيت بعائشة حيناً وحيناً بأيسيه؟ إن كنت أنا من اشتراها ورباها، ومالكها فأنا حر في ما أعمل بها وفي تسميتها. لا يجوز أن تُطمع الأتراك في صُحبتك. سيئون إليك بما لا يليق بك. يساوون أنفسهم بي فيأتون وقت يشاؤون دون إعلامي.."

- يا ديستان! - نادى شارل دو فيريول السفير الفرنسي حاجبه وعنه: - كم قلت ألا تفتح الباب لمن يأتيني دون موعد؟!

تمشى شارل دو فيريول ظهراً وأراح جسده ونفسه. وارتمى بقلبه إلى فرنسا، وإلى باريس تحديداً. ومر أمام مخيلته شارع نيف- سان - أوغستين، وطفولته، وشبابه، والأماكن التي قضى فيها سنواته التالية: القصر الأبيض الكبير، ونهر السين الذي يقذف ضفتيه بالأمواج، وكاتدرائية نوتردام، وبراري الإليزيه، والغابات المقابلة للقصر، والمطاعم - المشارب على الأزقة المتفرعة من الشارع الكبير، والساحات المستديرة المتطاولة، وقصر فرساي، ومستراح تريانون يزدحم بالمتنزهين. وحين ألقى نظرة على سان- كول ورأى بين الفتيات شارلوت إليزابيت أيسيه عَصَرَ الألم قلبه: "شارلوت إليزابيت اكتمل نموها الجسدي غير أنها ما تزال فتية. وجانيت - نيكول التي في ريعان الشباب ولم تمتد إليها يد رجل؛ ما أخبارها يا ترى؟ يَحْيَلُ إلي أنه يحدث لي عَرَضٌ لا أفهمه. ولا يجوز أن أُطلع طبيبي هنا على الأمر. لاروش الطبيب الذي طال غيابه والذي أنتظره هو من سيفهم سبب هذا الصداع..."

قطع صوت فتح الباب أفكار الكونت على أرض الغرفة، وأخبره حاجبه:

- لاروش أيها السفير!

- ومن هو لاروش؟ - لم يفهم شارل دو فيريول ما قيل له في البداية، ثم حين

لمح الداخل استقبله بذراعين مفتوحتين كما يفعل الصبيان: - لاروش، هذا

أنت؟! جعلتني أنتظرك شهراً كاملاً!

VI

في تلك الساعة نفسها جرى حديث قصير بين فخري وأورخان.

- احذر يا أورخان من كلامك ومن أفعالك! - نصح فخري أورخان. - من الآن لا تتدخل في حديث الأكابر منك سنأ، سواء أعجبك أم لم يعجبك!
- فهمت يا فخري. لام أورخان نفسه دون انتظار بقية الحديث.

قلق فخري لعدم رجوع أورخان الذي كان ينتظر كل يوم سفينة سليمان فتوجه قبيل المساء إلى الميناء. كانت السفينة التي انتظروها أسبوعين ليلاً ونهاراً راسية تتقاذفها الأمواج. ولكن أورخان هو الذي لا يظهر. وليس وحده بل الشخصان اللذان كلفهما فخري بمراقبة قدوم السفينة. شمس الصيف الحمراء الضخمة تهوي إلى الغرب، ومخاوف فخري الساخنة تعلو في صدره "أيمكن أن يكون أورخان ركض إليّ في البيت لإخباري؟ إن فعل هذا فالأمر حسن. ولكن أين هما الآخران؟ أيمكن أن يسرعا إليّ في البيت أيضاً؟ ليس صحيحاً؛ يجب أن يبقى أحدهما هنا. أظن أنه حدث لهما سوء"

دار فخري حول السفينة السوداء بضع مرات. ولكن لم يجد دليلاً على مخاوفه. كلّ يقوم بعمله. يفرغون السفن، وبائعو السمك على الضفاف. والصبيان بائعو الماء والشاي لا يهدؤون. - تعلو أصواتهم في كل مكان. وحين لم يظهر من ينتظرهم نظر فخري إلى حيث ترسو سفينة سليمان مدركاً أن في الأمر سوءاً. لم يتغير فيها شيء. تتحرك في موقفها وتهتز، ولم يستطع فخري إلا أن يسأل أحد الصبية بائعي السمك رغم أن قلبه كان في البيت:

- ألم تصدِ إلا سمكة واحدة؟!

- وكيف تصيد بعد المشادة التي جرت هنا؟... - أجاب الصبي دون النظر في وجه محدّثه. - مهلاً مهلاً، السمكة تسحب السنارة... - ومهارة سحب السنارة ومعها سمكة سمينة.

- من الذين تشاجروا؟ تغير لون فخري. - وما يُدريني؟ شخص واحد كسّر أنوف الثلاثة ومضى.

- وهؤلاء الثلاثة الذين تتحدث عنهم؛ أين يمكن أن يكونوا؟

- وما قيمة الرجال الذين لم يستطيعوا الوقوف في وجه رجل واحد؟ حملوا زميلهم الجريح وانسحبوا.

- وهل جرح هذا الشاب بليغ؟.. - تلهف فخري مدركاً أن الجريح هو أوركخان.

- ولماذا علّقت بي تمنعي من الصيد؟ - صرخ الصبي غاضباً - أتعرف كم شخصاً في البيت ينتظرون صيدي؟

- صحيح، صحيح. ساحني. وهذا تعويض إشغالك. - ونقد الصبي ليرتين وانصرف.

حين رجع فخري إلى البيت تبَيّن أن مخاوفه في مكانها: كان أوركخان جالساً ترجّه الإهانة التي لحقت به، ويده اليسرى معصوبة، ووجنتاه مسودتين تحت الأهداب.

- كيف هو جرحك؟ سأل فخري كأنه مستهين بجرح أوركخان. ثم ابتسم.

- ليس جرحي مهماً، مجرد طعنة في اللحم، ولكنني أشعر بالعار لهروب عصام منا.

- ومن أين تعرف أنه عصام؟

- حين ناديت باسمه وأنا ألاحق من خرج من سفينة سليمان ممن أشك فيهم التفت نحوي. وفي اللحظة نفسها أسرع إليّ شخصان لا أعرف من أين جاءا، ودون أن أجد فرصة للعراك فعل بي ما فعل وهرب.

- وهل جرحهما مثل جرحك؟

- لا، هذان سحباتي من مكاني وجاءا بي إلى بيتك على أمل أن تكون فيه.

- لم تتصرفوا ثلاثتكم على نحو صحيح. - تنهد فخري وختم - جرى ما جرى ولن نستطيع إصلاح الأمر الآن. أما قلت لك إن عصام من أصحاب سليمان؟ أرني يدك لحظة. إن لم ينكسر شيء من عظامك فسأشفيه لك في أسبوع.

VII

"إذا أقام الضيف ثلاثة أيام صار جزءاً من الأسرة" ما يجعل هذا الكلام صحيحاً ليس أمثال لاروش. وهو يعالج آل فيريول منذ أكثر من عشرين عاماً. وهو من جيل الكونت شارل دو فيريول، وأكبر من أوغستين - أنطوان بثلاث سنوات. وكان أبوا الكونت عميد الأسرة وزوجته على قيد الحياة حين تسلّم هذا المنصب: طبيب الأسرة. وحضر عرس ماري - أنجيليك. وحضر مولد ابنيها. وباختصار: ما من سرّ لا يعرفه من أسرار الأسرة. وقد أجهض الطفلين اللذين حملت بهما كلودين - ألكسندرين دون أن يعرف بالأمر غير ماري - أنجيليك والطبيب طبعاً. - والإجهاض الثاني جرى قبل أن يأتي إلى تركيا ليس بوقت قريب. ويعرف من أسرار ماري - أنجيليك خمسة من هذا النوع لا يعرفها زوجها: اثنان كانا لزوجها، وثلاثة لعشّاقها.

قضى لاروش الأسبوع الأول من إقامته في إستانبول متعجباً من كل شيء: مما يسمع، ومما يرى، ومن الشوارع والأسواق والمقاهي والدكاكين وملاعب الزهر والحمامات ومحلات التدخين والملابس والحلويات والحмир والجمال واللغة التركية، وما يسمى المشرق. وفي الأسبوع الثاني حين لاحظ شارل دو فيريول شيئاً من الملل على وجه ضيفه سأله:

- أملتت وما كدت تحط رحالك في البلاد؟

- لا ياكونت، إستانبول جميلة ورائعة. - وما في قلب لاروش على لسانه لا يسمح بإغلاق فمه: - أرى شيئاً عجبياً لم أر مثيله في حياتي. حتى لو يكن إلا قصر توب - كاب السلطاني، والمضائق... ولكن أقول لك: أشتاق إلى باريس، ربما لأنني ولدت فيها.

- وأنا ولدت في باريس، فرنسي مثلك، ولكن أحب المشرق، ولا أشعر بالملل في إستانبول.

- لأن تغيير البلدان من صلب عملك بصفتك سفيراً يا كونت.

- هذه المهنة التي تتكلم عليها لا تولد مع الإنسان يا دكتور. نحن لا نخلو من شوق لأحد سأل شارل دو فيريول فجأة دون مناسبة: - إذن كيف حال شارلوت - إليزابيت أيسيه في باريس؟

- لا تدعنا نقارن أنفسنا بشارلوت إليزابيت أيسيه ونحن، أنا وأنت، عشنا أكثر عمرنا. لا تزال شارلوت صبية.

تغير لون شارل دو فيريول لما سمعه. وبدأت عيناه تتلونان بالأزرق والأصفر. ونحض ورأسه يهتز وأسرع إلى النافذة، ونهر جلسه بصوت قاس:

- بعد الآن يا لاروش لا تقسني إليك بالعمر! - ثم أردف بكلام أفسى من سابقه: - ستفسدون أخلاق شارلوت - إليزابيت بمثل هذا الكلام الذي لا معنى له ولا حاجة إليه. ماذا خاطت لها جانيت - نيكول؟ ثوباً شركسياً؟ - ثم سأل بأسلوب ساخر: - ألا تزال جانيت التي تسلب الأبواب بعينيها على امتلائها؟

منذ اليوم الأول لوصول لاروش إلى إستانبول تكلمنا على هذه المسائل وغيرها. وكان قد سُرَّ للثوب الذي خيط لعائشة ولم يعلق عليه كما فعل اليوم. وامتدح جانيت - نيكول. وكرر الحديث عن جمالها مراراً. وكان راضياً بالكلام الحلو الذي وجهته الملكة إلى عائشة واعتبره مديحاً. والآن، بعدما مضى أكثر من أسبوعين، ماذا يقول شارل دو فيريول عن هذه الأمور؟ ولاحظ لاروش ارتجاف أصابع شارل دو فيريول واختلاج عينيه. وكذلك كانت عضلة ساق رجله اليسرى. وأحياناً يرتفع رأس كتفه الأيمن وينخفض. "الأفضل ألا تقول شيئاً له

الآن. الأرجح أن في رأسه خلافاً لا ينتبه إليه هو... ليست هذه أول مرة ألاحظ عليه فيها هذه الأعراض... ما يحتاجه هو مهدئ. وإن لم نعالجه من الآن فسيجلب لنفسه العار، ولنفسه. من أين مصدر مرضه يا ترى؟ لأنه بلا أسرة أم لتبدل نسائه؟"

- لماذا لا تقول شيئاً يا لاروش؟ - ترك شارل دو فيريول النافذة الآن وكأن شيئاً لم يحدث له. ثم عاد إلى مجلسه، وأجاب نفسه بنفسه: ما رأيك منذ زمن بعيد لم نتكلم في هذه المواضيع. إذن سأصارحك أي لست راضياً عليك، يا لاروش لا تؤاخذني، سأكلمك بصراحة. أأنت مخلص لزوجتك مثل أخي أوغستين - أنطوان لا تحيد بنظراتك عنها؟ إن كنت هكذا، وتحرم نفسك من هذه الدنيا المفتوحة أمامك فأنت مجنون. صاح بحماسة: أمثالكما من يشيع تعابير من نوع "باريس، يا باريس، إستانبول يا إستانبول!" ثم لان قلبه وصوته: - سأأخذك إلى دار بغاء ممتازة دون أن تخطو خطوة خارج إستانبول؛ أفهمت علي؟

- نعم فهمت، ولكن...

- حين أقول لك شيئاً لا تستدرك بـ "ولكن"! إن كنت تخجل مني فسأطلب من فخري اصطحابك. لا، هذا لا يناسبك. بل سأطلب منه أن يرافقك صديقه أورخان.

قضى لاروش بضعة أيام لا يفهم ما جرى للسفير شارل دو فيريول ولا تأويلاً له. ثم فكر في طريقة لمعالجته دون أن يدري مريضه. فاعتنم فرصة صحو مزاج شارل دو فيريول يوماً وسأله:

- أيصدف كثيراً أن ترهقك أعمال سفارتك؟

- أوتسأل عن هذا؟! أأأأ كل يوم في هذه المشكلة؟ أأأأ مرأأأ لسؤاله عن عمله. - أأأأ سهلاً أن أأأأ بين دولأأأ أوفأأ بين أأأأأأ ومصأأأأأ. إن أأأأ عأقلأأ أأأأأ حلأأ أأأأ من المشكلةأ - أأأأ سأل أأأأأ ما في أأأأ لأروش أأأأ: - ما الأمر يا أأأأ؛ أأأأأ دواء أأأأأ أأأأ؟

- نعم - أأأأ أأأأ الدواء أأأأ أأأأ أأأأأ لأروش. - أأأأ هذه الأعشاب نصف ساعة على نار هأأأأ أأأأأأ، وأأأأأ منها أأأأ ملاءق يومأأ، صباءأأ وظهراً ومساءً. - إن أأأأ في أأأأ فقط أم أأأأأ؟

- أأأأأ يا أأأأ. لا أأأأأ عنه!

- إن أأأأ هأأأ فلا بأأ إلا إن أأأأ مرأأ - وأأأأأ منه. أأأأأ في نفسه وسأل لأروش بين المأأ وأأأأ: - وما أأأأأ هذا الدواء على مسألة الرجولة؟ أأأأ أن أأأأأ؟

- لن أأأأأ إن لم أأأأأ - أأأأ لأروش بأأأأأ لأنه أأأأ أأأأ أأأأ.

- لا بأأ هأأأ، ولكن إن أأأأأ عليأ...

- لا يا أأأأ، أأأأأ!

وأأأأ أأأأأ عند الباب:

- فأأأأ!

- أأأأه!

- أأأأ وأأأ؟ - سأل الضأأأ الأأأ.

- الله معأ يا أأأأ. - أأأأأ كأأأأ.

- لا أسأل عن إلهأ - أأأأأ الكأأأ - بل عن أأأأ الذي أأأأ معأ أأأأأ، الولأ العأأأ.

- أورشان فف البفب فءاوى نفسه بالراحة. - فءاهل ففخرى الاءقار الذى أءءاه الكونء لصفقه وأءاب - وءملى فءفاءه.

- وما مشكلته؟ - سأل شارل ءو ففرىول مءءاهلاً السلام المءمول إلفه.

- ءرحوه فف المفناء.

- ألم أقل لك إنءا مسائل صبفانفة؟

- لا، لا - لم فءع الكونء فكممل كلامه _ لفس الأمر كما فظن. عثر على عصام الذى أءء عنه ولكنّه عءز عن الفءلب علفه.

- هكءا؟، هءا شأن آءر - "لماءا علفف أن أكشف أسرارى فف بلاد الغربه أمام لاروش" - قال شارل ءو ففرىول فف نفسه. ثم أكمل ءءفء النساء الذى كان بءأه معه - فاففخرى مع أن ضففى فقفم فف إسانبول منذ أكثر من أسبوعفن فأنه لم ففهم لماذا فءمل المءفنة هءا الاسم. ماءا فقرر فقءفه لضففنا؟ - هءا كما فقرر فافكونء.

- اعءبرنى قلت لك إذن: سءصءب لاروش ءالاً إلى أفصل ءور البءاء!

- لسء ءاهزاً فف هءه اللءظة لهءه المهمة - اسءعءل لاروش.

- الآن، ءءأ، ولفس بعء ءء. "كما فعرف منا بعض أسرارنا، لنعرف بعض أسرارك!" ءسم شارل ءو ففرىول الأمر مع ضففه بهذه العبارات، وأنهى بكلام أعقل وألفف: - ءفى لو لم فكن ءاهزاً لءلك المهمة فسفءءزونك هءاك ءفء فءهب!

لم فعانء لاروش لأنّه أءرك بعء كلام الكونء أن لا مفرّ من إطاءءه. وبعءما ءاب قلفلاً ظهر بمظهر مءءلف فماماً فءءلف عن ءاك الذى كان فناقش وفععرض قبل قلفل: كان فرءفءى ملابس نظففة ءءأ وعفنائه ءفبفءان الضفقفءان فلمعان، وءءاؤه براق، وبزّءه السوءاء فناسب ءءاء، وءاءمه الذهبى مءناسق مع سنّه

الذهبية الوحيدة. ويبدو مع ظهره النحيل رقيقاً. كل ما فيه جميل لولا بعض الصلع فوق جبينه. - هذا مقبول، جميل! - تعجب السفير الفرنسي مما رأى أمامه. ثم أردف بين الحسد والمزاح: - أأذهب معك أيضاً للمغازلة؟ لا، لا يا لاروش. لماذا أراححك؟ ليكن ما اعتزمت عليه!

وبعد ما مشياً لأياً قال لاروش لفخري:

- بودي أن نذهب إلى أحد المقاهي. كنت أود محادثتك إن كانت الثقة ستسود بيننا. ها هو مقهى قريب، وإن أردت نخضي إلى مقهى آخر.

- كما تريد أيها الضيف - لم يُخفِ فخري استغرابه لحديثه - ولكن لا أعرف لمن ستتغنح. ألا يمكن بعد إنجاز ما كلفونا به؟

- لا يا فخري. تكلم لاروش الآن بصوت أحزم: - كنت أود التحدث إليك بشأن هذا الموضوع الذي كُلفنا به.

- يبدو لي أنك لا تريد الذهاب إلى دار الحرام.

- أثق بك فأقول: لا.

- فهمت، والأفضل في هذه الحالة أن نبتعد. - أشار فخري إلى أول عربة

ركاب وصلت. - اركب يا لاروش - وقال للسائق: إلى مطعم "جنة النبي"!

في مطعم "جنة النبي" لم يكن لاروش يشبع من المنظر: يلعب في كل مكان اللون الذهبي - الفضي. وتنعكس صورتك على أرض المطعم وعلى السقف.

وألوان الستائر الصفراء - الوردية، وأغطية الكراسي الخضراء - الصفراء متناسقة. والخدم الشبان يلبسون زياً موحداً. وترنو إليك الملاحق والسكاكين

والشوك مع الصحون تريد منك أن تأكل ولو لم تكن جائعاً. وتنادى البُسْط على الجدران مع تلك التي على الأرض. وليس في المطعم زُيْنٌ كثيرون. ولا

أصوات نافرة، أما الخدم فكأنهم يسبحون على أرض المطعم.

- لا بد أن هذا مطعم غالٍ جداً! - لم يتمالك لاروش نفسه.
- مهما كان غالياً فليس أغلى منا. - تكلف فخري الإجابة على كلام الضيف، وتكلما في اختيار الطعام. ومع اللقم الأولى ذكر فخري ضيفه بما كان ينوي محادثته فيه: - الآن أصغي إليك يا لاروش.
- لن أطيل عليك الكلام لأنني فهمت أنك عرفت عدم رغبتني في ما أصرّ عليه شارل دو فيريول. اشهد لي أنني كنت في دار الحرام. كل الممارسات الجنسية غير الشرعية متشابهة. ولن أفعل هنا ما لم أفعله في باريس. لا تؤاخذني!
- ولماذا أؤاخذك؟! كلٌّ وما يستطيع أن يحمي به نفسه في هذا العالم الشرير. - زفر فخري وأكمل: - ولكني لم أستطع أن أفعل هذا. إن كان رأيك أن يثق أحدنا بالآخر فسأسألك: كيف تستطيع أن تعيش مع أسرة فيريول وأنت تعرف أخلاق ماري- أنجيليك وأختها كلودين المتحررتين، دعك من شارل دو فيريول؟
- صحيح، لا أحد يعرف هؤلاء كما أعرف. - ثم قال بعد لأي: - يصبرني عليهم مهنتي، والأجرة الكبيرة التي يدفعونها. ولكن هذه ليست مهمة. اعتدت عليها منذ وقت طويل. ما يهمني الآن أكثر من أي شيء آخر هو صحة الكونت شارل دو فيريول. وهذا سبب مجيئي إلى هنا. - لم يستطع لاروش إخفاء الحقيقة - لم أقل شيئاً ولم تسمع شيئاً يا فخري.
- أنا حتى قبل أن تقول لي هذا أشك منذ زمن في أن الكونت يعاني من مشكلة في رأسه. - ثم سأل لاروش: - إذن كيف يمكن لمثله أن يربي أيسيه؟
- فهمت ما تريد قوله. لا أعرف ما سيحدث لاحقاً غير أن شارلوت - إليزابيت أيسيه الآن في عهدة أناس ممتازين. ولو لم يبق إلا جانيت - نيكول فهي بمثابة أمها.

- سمعت الكونت يتكلم على هذه المرأة، إنها تستحق الشكر. ولكن لا يخفى أن ما تفعله من أجل أيسيه لا يسّر الكونت. على كل حال أليس لمرض الكونت علاج؟ ألا يمكن أن تشفيه؟ سأل فخري وهو يطمع في أن يسأله عن عاهته هو.

- نعرف كلانا أن الكونت يقول اليوم شيئاً، وغداً شيئاً آخر، ومع ذلك نخفيه. وقد استدعاني إليه وكأنه مشتاق لرؤيتي. الأمراض التي لا تُشفى، إن عولجت في أوانها، قليلة. ولذا لا خطورة اليوم في مرض الكونت. ولا شك في أن الدواء الذي اخترته له سيفيده إن واطب عليه.

- يسرني والله أنك وجدت للكونت مثل هذا الدواء - سرى الدفء في عيني فخري الباردتين في هذه اللحظة. وسأل دون أن يُفصح أن الموضوع لا يتعلق به: - أعرف رجلاً مريضاً ولا أعرف كيف أصف لك عاهته، ولكن إن نفعته وشفيته فلن يمسك عنك شيئاً.

- هذا الرجل طريح الفراش أم...

- لا، ليس في الفراش - لم يدعه يكمل سؤاله. ومظهره لا ينم عن أي عيب، غير أنه عاجز في مسائل المرأة...

حين سمع لاروش السؤال المفاجئ الذي ارتعش له جسده، نظر الطبيب في عيني فخري دون أن يُبدي معرفته بالأمر، وكأنه يقول له "لا تكتم عني سرّك". ثم أجاب مخفياً شكوكه:

- لست ممن يشفون المرضى دون أن أعاينهم. إن دلتني عليه فأنا حاضر لعلاجهم. ولكن أقول لك: لا يخفون شيئاً عن الطبيب ولا يكتُمون عنه سرّاً. كل مريض يبقى سره بينه وبين الطبيب.

- إن كان هذا رأيك يا دكتور فالمعني بالأمر جالس أمامك.

- أنا مطلع على موضوعك. ولكن عندي سؤالاً، هل استعملت معك آلة حادة سببت هذا المرض؟

- أي آلة حادة؟ - في البداية لم يفهم فخري السؤال ثم صحا وسأل متلهفًا:
- لا، لم يمسيني أي أداة حادة. سقاني عصام سرّاً عقاراً ما. وانتهت فحولتي إثر هذا العقار.

- هذا شأن آخر. والآن سؤال آخر: ألا تشتهي امرأة أحياناً؟

- نعم، ولكن كما بدأت الشهوة تنتهي بسرعة.

- ليس مرضك ميئوساً منه يا فخري؛ بإمكانني معالجتك. أقول: سأعالجك ولكن لا أعدك وعداً قاطعاً بالشفاء. وعليك القدوم إلى فرنسا لهذا السبب، وسأعرضك على طبيب آخر، ماهر في هذا الشأن.

- افعل معي هذا المعروف يا لاروش!... - حين نخض فخري عن المائدة، جلب أنظار رواد المطعم إليه، وتوقف حملة الموائد - إن شئت رافقتك من هذه اللحظة، وأعطيك كل ما أملك.

- لا داعي أن تسافر معي إلى باريس لأن شارل دو فيريول يشك في نواياك نحو شارلوت - إليزابيت أيسيه. كان بإمكانني ألا أقول لك هذا غير أن الأفضل أن تعرفه. أألسست حراً؟ ابحث بنفسك عن ذريعة، ولاقني في باريس. وهي مثل إستانبول ليسوا قلائل من يدخلون إليها ويخرجون. والأفضل من كل هذا أن ترافق الكونت الذي يستعد للسفر.

- لا، لن آتي معه. أتستطيع أن تؤمن لي لقاء بشارلوت إليزابيت أيسيه؟

- سأصحبك إلى حيث تقيم، ولكن لن أظهر أمام أحد.

VIII

في العام الماضي والذي قبله، بالقياس إلى الأعوام السابقة، تغيرت عائشة كلياً واندجمت في المجتمع الفرنسي بمظهرها الخارجي وبأفكارها، واعتادت على نمط الحياة الفرنسية. أنسيت أصلها الذي تنتمي إليه؟ أجرى أسلوب الحياة الفرنسية في دمها أم يُحَيَّل إليك؟ لا. تقرأ كثيراً من الكتب. تحب الكتب التي تتحدث عن تاريخ فرنسا، وكتّابها، وفنانيها، ورساميها، ومطربيهها، وحكواتييهها. والكتب القليلة المتعلقة بالأديغة، والتي تُحضرها لها جانيت - نيكول؟ وهذه ترويهها عائشة بدموع خفية. ولم تعد تعرض هذه الكتب على زميلاتها كما في السابق. وحين تُسأل تحجب نفسها "خير لكنّ الاهتمام بما يتعلق بتاريخ فرنسا من الاهتمام بقومي الشراكسة" ثم تضيف إلى نفسها أيضاً "ما شأنك؟ أنتن بمأساتي؟ أنا من تفنيها ذكرياتها، ومن تبعث الدفء فيها... ماذا يفيدني إن تركتكن تصطلين بنار شعوري بقوميتي؟ صالح وطيحي لي أنا، ولن أعطيها لأحد"

أهي جانيت - نيكول؟ أبدأت تباعد عنها هي الأخرى أيضاً؟ "لا، لا جانيت - نيكول هي ناري الدافئة هنا، وكذلك صوفي، وبون دو فيل، وأرجنتال. لولا هؤلاء لانفجرت منذ زمن بعيد. وإن قلت هذا فلست عادلة. فسماء فرنسا تُظَلِّلني، وشمسها تدفني، وماؤها يحييني. وكما كانت المرحومة جدتي تقول "على الإنسان أن يرضى بما قسمه الله له" اغفري لي يا مريم العذراء. لم أستطع إلا أن أتذكر إله قومي. وهؤلاء جزء من هذا العالم. لتحميمهم ولتحفظي عليهم حياتهم!"

في أحد الأيام سألت جانيت - نيكول عائشة سؤالاً كان يشغل بالها:

- يُحَيَّل إليّ يا أيسيه أنك تتجنبن قريناتك الفتيات، أم أنا مخطئة؟

- لا، لست مخطئة يا جانيت - نيكول. يبعدني عنهن هتافهن "أنت شركسية، أنت شركسية!"

- وما العيب في هذا إن كانوا ينادونك باسم قومك، أهذه إهانة؟

- أنا يا جانيت - نيكول لا أجري وراء أي فتاة صارخة "أنت فرنسية، أنت فرنسية!" - وفيما جانيت - نيكول تتعجب مما قالت عائشة إذا بقلبها يخفق ثانية من كلامها: أنسيّت ما أكّد عليه شارل دو فيريول الذي نسيتنا؟ "كل من يعيش في فرنسا يجب أن يصبح فرنسياً"

- إذن يا أيسيه - ضحكت جانيت - نيكول دون حماسة: أنت ما تزالين مخصصة للكونت الذي نسيتنا.

- مخصصة له لأنه تبتّاني كابنة له. ولكن إن زارني فسأصارحه بأنه أهملني، لن أسامحه. أعجيب أن يكون سفيراً لفرنسا؟ اعمل في قضايا الدولة، ولا تنس أهلك!

- صحيح، أوافقك - وغيرت جانيت - نيكول موضوع الحديث: - أتعرفين أين سيصبحنا بيير دو تانسين الأسقف الذي هو الآن في زيارة لباريس؟ إلى فيرساي، حديقة الغزلان.

- ولكن إن رأينا كلودين - ألكسندرين؟ - التمعت عينا عائشة وكأنها غير الفتاة التي كانت قبل قليل جافية.

- أيسيه؛ ما أشد ما تذعرين! - ابتسمت جانيت - نيكول بعينيها الدافئتين في وجه أيسيه. - لم أرفض طلب غيرين دو تانسين لأنه دعانا. باريس كبيرة؛ ثم ما شأن كلودين - ألكسندرين بنا؟ إن كنا لا نعجبها فهذا شأنها. لن نجبرها على حبنا. لا تهتمي بهذه الأمور. الأفضل من كل ما سبق هو أن تقرئي الكتاب الذي عثرت لك عليه. إن رجعت عدة قرون إلى الوراء فالكتاب

يتحدث عن سلاطين مصر المماليك الشراكسة. - بييرس وبرقوق وقلاوون وقانصوه الغوري، وآخرين.

- ألا يزالون سلاطين مصر؟ - التهبت عينا عائشة كجمرتين.

- لا، ظلوا سادة مصر لأكثر من قرن، ثم سلبهم الأتراك السلطة.

- ولماذا يسد علينا الأتراك منافذ العيش؟ - زفرت عائشة ثم انتصب خيال فخري أمامها. ولكنها كانت تحتج لشيء آخر متناسية إياه: - شارل دو فيريول عندهم يتعلم لغتهم وطبائعهم. يقول: "المشرق، المشرق، لا تعرفون المشرق" لا يمل من حب الدين تسببوا في بؤسي وفي خراب بيوت الشراكسة. لماذا لا يأتي إلى هنا؟ أنسي عبارته الشهيرة "باريس، يا باريس!"

لم تستطع جانيت - نيכול إلا أن تقول لنفسها وإن لم تعلق على احتجاجات الصبية: "تتصنع أيسيه أنها فرنسية ولا تسمح لنفسها في الوقت نفسه أن تنسى أصلها. هكذا يجب أن تكوني يا أيسيه وإلا فنينا في العالم دون جذر ودون فائدة"

أفاقت عائشة حين عبرت أشعة شمس الصيف الدافئة النافذة وعبثت بخديها. وفرحت بصحو الجو اليوم. وهي الآن تفكر في أي ثوب من أثوابها الصيفية الثلاثة ستذهب إلى فيرساي. أهو الثوب الملون المفتوح الصدر دون أكمام وبزنار ضيق أم الثوب الحريري الطويل الكمين والمزوم الصدر؟ والثوب الآخر القصير الكمين يناسب أيضاً خصرها النحيل. تكلموا البارحة هي وجانيت - نيכול على هذه المسائل. ويتعلق أمر ملابسهما بما يلبس بيير غيرين دو تانسين.

"وإن جاء بيير في ثياب رجل الدين؟ - فزعت عائشة من السؤال الذي قفز فجأة إلى ذهنها. ثم سألت نفسها: - إن جاء لبسنا ما يتناسب مع لباسه.

والثوب الذي أدرس به في الدير مكوي ومعلق في مكانه. وجانيت - نيكول عندها أكثر من ثوب ديني. ويعجبه ثوبي الملون دون أكمام. هذا هو ما سألبسه اليوم..."

كانت الشمس الحارة ترتفع شيئاً فشيئاً إلى كبد السماء حين وصلت عربة بيير إلى أمام باب الدير. وخرج منها لابساً بدلة بيضاء ناصعة. حاسر الرأس، محلول أزرار الصدر، وحذاؤه العالي الأسود يتناسب مع لون شعره. وما يلبس في أصابعه من الخرز الأسود الصغير يتناسب مع كل ما سبق.

- تعالي يا أيسيه! - ابتسمت في وجه جانيت - نيكول، الصبيّة التي كانت مهتمة بملابس بيير. - لم نخطئ في ملابسنا الصيفية كما ترين.

تبعث عائشة الصبيّة التي لا ترى في العالم أسعدَ منها جانيت - نيكول التي لا يخفي ثوبها المفتوح الصدر خصرها النحيل والتي ترتدي ثوباً مائلاً إلى الصفرة. وما إن خرجت من الغرفة حتى ركضت نحو بيير الذي استقبلهما، وعانقتهما. وحين استقلوا العربة اختارت الجلوس إلى جانب جانيت - نيكول مقابل بيير. - وأمطرته بالأسئلة:

- كان من المقرر أن يسافر بون دو فيل حالما ينهي عامه الدراسي إلى "أبلون" فهل ذهب؟

- ذهب الجميع: ماري - أنجيليكا وأرجنتال وصوفي.

- متى؟

- على قول كلودين في الأسبوع الماضي، وهم في انتظارك.

- بقي على انتهاء عامي الدراسي أسبوع واحد. أليس كذلك يا جانيت - نيكول؟

- نعم، أيسيه، نعم. سأجعلهم يرسلونك في اليوم التالي إلى "أبلون". الطبيعة هناك جميلة ومريحة. ستستريحين جيداً بصحبة أهلك.

- كان يسرنا أن تصحبينا - تنهدت عائشة.

- صحيح يا أيسيه، غير أن مشاغلي في المدرسة تحول دون ذلك. اختلست جانيت - نيكول نظرة إلى بيير، ولم تسع إلى الصبية.

- إذا كان عملك هكذا فسأشتاق إليك طوال عطلة الصيف. وإلى مدرستي وزميلاتي. - قالت عائشة بصوت منكسر وتنهدت، ثم صاحت فجأة: - ألا يزال لاروش في إستانبول؟

- أظن ذلك، لم أسمعهم يأتون على ذكره.

- وكلودين - ألكسندرين؟

- لم أرها إلا مرة واحدة خلال ثلاثة أيام قضيتها في باريس.

- منذ زمن طويل لم أر كلودين، منذ أن زارني في الأيام الأولى من الشهر الماضي. لا ألومها، ولكن أرغب في رؤيتها. ومن اشتقت إليه كثيراً هو أوغستين - أنطوان.

- كنت في منطقة دوفين قبل شهر تقريباً فسأل عنك. وأتى على ذكرك بالخير كثيراً. وهو أيضاً يجهز نفسه للاستراحة في أبلون.

- شكراً له على أنه لم ينسني... - ولما لاحظت جانيت - نيكول ما تعجز عائشة عن قوله تنهدت عميقاً.

ومع أن جانيت - نيكول كانت تتأمل الصبية مستغربة سؤالها عن أهلها بهذه المودة، وما في قلبها نحوهم من صدق العاطفة، فإنها لم تكن تُظهر حزنها الذي يمزق قلبها على عائشة. لا أحد يعرف ما يعتمل في قلب عائشة الصغير غيرها. "ورغم أنها مصوغة من الحزن وتحمل في نفسها على شارل دو فيريول فهي

تشتاق إليه وتتم لعدم مجيئه. وكلما كاتبها كان همُّه: هل اكتمل نموها؟ ولا يسأل عن دراستها وأمورها الأخرى. وما في آخر رسالة له هو ما يجعل شكك يقيناً "إن كنت اكتملت جسداً وقلباً بعثت وراءك، واستقدمتك إلى إستانبول. وحين عرضت الرسالة على ماري - أنجيليك وصوفي أبدأت اعتراضاً، بل عتفتاه. أما كلودين - ألكسندرين فاكثفت بابتسامة، ولم تعلق. "لو فرش لها الطريق من إستانبول إلى باريس لما أرسلتها. ولو حضر بنفسه لما سمحت له أن يبعدها خطوة عني دون رقابتي!"

- لماذا سمّوا المكان الذي نذهب إليه "حديقة الغزلان"؟ - حين سألت عائشة قطعت على جانيت - نيكول أفكارها السيئة.

- كانت يوماً ما في القديم غابة تسكنها الغزلان فحملت هذا الاسم، أجاب بيير - وها هو الدولار الكبير أمامنا، وإن كنت لا تخافين ركبناه.

- ما أغربك يا بيير! إذا كان ركابه لا يخافون فلماذا أخاف؟ وأنت هل ستركبين معنا يا جانيت - نيكول؟

- وهل تسألين يا أيسيه إن كنت سأدعكما تركبان وحدكما دولاباً بهذا الارتفاع؟ شجعت الصبيبة وأخبرتها بأمر آخر: - والطاحونة المائية لملكنا المعظم في هذه الحديقة.

- أيشغلها؟ - استغربت عائشة ما سمعت.

- لا يدع طريقاً للملل إلى نفسه - قال جاك السائس الذي لم يقل شيئاً إلى الآن.

- لا، لا، ليس الأمر مللاً - لم يقبل الأسقف بيير غيرين بصوت واثق كلام السائس. - يشغلها مرة أو مرتين في الأسبوع. لا يجوز إنكار معروف أي إنسان. والله يعلم ويرى. - أكمل بصوت ألطف.

وحين ترحلوا من العربة وهموا بالدخول إلى الحديقة، توقفت العربة التي يجرها أربعة أحصنة، ويجرسها فارسان من الأمام ومن الخلف، ونزلت كلودين - ألكسندرين ونادتهم:

- يا بيبير وأيسيه وجانيت - نيكول رأيتم فلم أستطع تجاوزكم. - قالت والرياء يغلب رائحة النبذ من فمها، ونادت من لم ينزل من العربة: - يا كاردينال دوبوا لماذا لاتنزل؟ سترى شارلوت - إليزابيت أيسيه التي كنت سألت عنها. وقال للرجل المسن الأسمر الذي أنزلوه من العربة بين الراغب في النزول والنجل: - هذا الرجل تعرفه: بيبير - غيرين دو تانسين. وهذه ريبينا شارلوت - إليزابيت أيسيه التي جاءنا بها من تركيا سفير فرنسا شارل دو فيوريل. وهذه جانيت - نيكول مشرفة التعليم في دير سان - كول. والآن من نعرفه بكم هو كاردينال فرنسا، الوزير الأول دوبوا.

- سربي تقديمكم - وأشار إشارة احترام إلى عائشة وجانيت - نيكول، وسأل الفتاة باسمها الفرنسي الكامل: - كيف تمشي أمور تعليمك وتربيتك يا شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ ألا تصعب عليك اللغة الفرنسية؟ - أجابت عائشة باختصار: التعليم جيد، ولغتي الفرنسية لا بأس بها ياسيادتكم.

- إن كانت أمورك هكذا فأنا مطمئن، وسأبلغ الكونت شارل دو فيوريل في أول لقاء بسعادتي لأجلك. وأنتم أبلغوه. نحن مستعجلون، أماننا مهمة.

ما إن ابتعد الكاردينال إلى عربته حتى قالت عائشة:

- أما قلت لكم إننا سنصادف كلودين - ألكسندرين؟

- نعم قلت، ولكن لم أعرف أنك تقرئين الغيب إلى هذا الحد. - مزحت جانيت - نيكول مموهة رائحة الشراب التي كانت تصدر من كلودين -
الكسندرين. ثم دخلوا الحديقة وكأنهم لم يقابلوا أحداً.

حديقة الغزلان العائدة للملك جميلة ومثيرة في كافة أوقات السنة. ولأن اليوم أول أيام الصيف كانت أصوات الناس تملأ الفضاء: الصبيان والصبايا على العشب يلعبون، أو في الأراجيح، أو يمشون على الأخشاب المدورة المرتفعة قليلاً، أو يتزحلقون على الأخشاب المصقولة، أو يجرون وراء الفراشات. والأمهات والآباء الجالسون على المقاعد يتابعون أولادهم. وغيرهم يشربون الماء ويأكلون الحلويات.

والناس الذين ينتظرون دورهم على الدولاب الكبير الذي يديره رجلان كثيرون رغم أنه يستوعب العديد.

- لن يصلنا الدور لو انتظرنا النهار كله - تقول عائشة وتستند على كتف جانيت - نيكول.

- لن نركب إن كنتِ متعبةً - ضمت جانيت - نيكول الصبية إليها.
- إن كنت سأطل على باريس فسأنتظر إلى المساء. - شجعت عائشة نفسها
- حين تنزل هذه المجموعة من الدولاب وتركب الثانية، سيحين دورنا؛ أليس كذلك يا بيبير؟

- نعم لم يبق الكثير!

- وصل الدور إلى عائشة كما حسبت. وحين ربط الثلاثة أنفسهم بالزنابير الجلدية العريضة المتصالبة، سألت الصبية المحصورة بين الاثنين وكأنها لا تبالي بالارتفاع المحتمل:

- أأنت خائفة يا جانيت - نيكول؟

- لا أعرف!
- لا تخافي، انظري إلى الأعلى فحسب، لا إلى الأسفل. يا بيبير نحن الآن فوق باريس، ما أجهلها! أرى الدنيا، أرى الاتجاهات كلها. - والآن همست عائشة في أذن جانيت - نيكول: - في أي اتجاه يعيش الشراكسة؟
- يقال إنهم يعيشون في الشرق منا.
- إذن في هذه الجهة - قالت عائشة بصوت منكسر، ثم رفعت صوتها سريعاً: - و"أبلون" في أي اتجاه، أين "أبلوننا"؟
- ها هي، تظهر أمامنا. - أشار بيبير إليها بيده.
- يا بون دو فيل وأرجنتال وصوفي؛ هل تسمعونني؟! - صاحت بصوت لَفَت انتباه الركاب. - أنا شارلوت - إليزابيت أيسيه من تنادىكم!

IV

"السر ما كتمته أسيرك، وإن عجزت عن كتمان أسيرٍ له" انطبقت الحكمة على فخري. بين اليوم وغداً مضى على رحلته المتوقعة إلى باريس أكثر من نصف سنة. وحين نفذ صبره سأل شارل دو فيريول.

- انتهى الصيف، ولحقه الخريف؛ متى إذن سنذهب إلى باريس؟

- وهل اتفقنا على الذهاب إلى باريس؟! - تظاهر شارل دو فيريول بأخما لم يتطرقا إلى هذا الموضوع قط. ثم وافق كأن شيئاً لم يحدث: - نعم، نعم، كنا اتفقنا. - وبعد قليل أكمل وعينه تنظر كل في اتجاه: - أتساءل يا فخري لماذا أنت مستعجل. أتركت في باريس من تقلق عليه؟ أهى شارلوت - إليزابيت أيسبه؟ أنت مخطئ. هذه منذ زمن بعيد نسيتي ونسيتك ونسيت كل الشراكسة.

تميز فخري غيظاً من سلوك الكونت معه ومن كلماته المبطنة بالخبث فلم يطق صبراً، وقاطعه:

- حاولت أن أتحملك ولكن أما آن لك أن تكفّ عن مخاطبتي بهذا الأسلوب؟! - ونهض - أنا كشفت لك سري بكل صدق، وأنت تسخر مني وتهيني.

- مهلاً، مهلاً. أمزح معك فحسب ولا أحقد عليك لأهينك. - نظر الكونت إلى ضيفه بصدق نية - ألا ترى وتعرف أن أعمالي لا تترك لي راحةً غمضةً عين. أتعظني حراً بنفسى؟ لا أستطيع السفر إلى باريس إلا بإذن من الملك ومن الوزير الأول دوبوا. أشتاق إليها. اجلس، لا داعي أن تقف! - ثم رجاء بالتركية: - لا تلمني، ولا تنفعل. أنا نسيت في غمرة أعمالي، آملاً بين اليوم والغد، أنى وعدتك. مثل هذه الغفلات لاحظتها على نفسي منذ العام الماضي. وأنا يجب

أن أدأوي نفسي من عوارض أخرى. ولذا اغفر لي أني آذيتك دون قصد -
اضطر السفير الفرنسي الآن إلى أن يكذب على فخري.

- إن كنت تقول هذا يا معلم سحبت كلامي - خدمت نار فخري - ولكن
الأفضل ألا نأطل في سفرتنا إلى باريس. الوقت يفوتنا.

- وهذه المرة أيضاً - سامحي - لا أظني أستطيع مرافقتك. وإذا كنت قادراً
على السفر دوني فأمامك وقت كافٍ. ولكن لا تنس أن أمامك بحراً عاصفاً
في الشتاء. وإذا كان لاروش وعدك فيإمكانه مساعدتك. ولكن مرة أخرى
أقول لك - التمتعت عينا الكونت اللتان بلون الماء - لا أرجوك بل أؤكد
عليك: لن أسمح لك، ليس بمقابلة شارلوت - إليزابيت أيسيه، بل بأن تقع
عينك عليها. لا، ليس الأمر عدم ثقة، بل لا أريد أن يهيج المسافرين من هنا
قلبها. وقد كتبتُ إلى جانيت - نيكول وحذرُها لأنني سمعت أنها تعلمُها بعض
الأمور من أجل ألا تنسى قوميتها الشركسية.

"لو حقق لي لاروش ما أملتني به - ابتسم فخري في سرّه - لما همّني ما تفكر
فيه وتقلق لأجله. ولكن مهما قلت لي وحذرتني فلن أعود من باريس دون
مقابلة عائشة. وأفضل ما يمكن أن يحدث لي هو أن أفعل بعصام مثل ما فعل
بي قبل زيارتي لباريس، إذن كنت تحللت من نذري. كلُّ يفكر في مصلحته
ولكن لا أريد أن أحافظ على نفسي وحسب؛ إذن لن يقبل الله مني، ولن
يفهمني عباده الأسوياء"

- أفهم يا معلم، ولولا الثقة التي بيننا لما تحدثنا بمثل هذه الصراحة. - قال
فخري بلسانه وفي قلبه شيء آخر.

- صحيح، علاقتنا من هذا القبيل - ابتسم شارل دو فيريول في سرّه، وكان
يزيد في رياءه وكذبه - ولكنك صارحت لاروش بمشكلكم الذكورية ولم تقل لي.

ابتسم فخري ابتسامة صفراء.

- لماذا تبتسم؟ ألاني قلت لك ما هو غير صحيح؟

- لا يا معلم، بل لأنك لست طبيباً، - لامة فخري وبشّر له، ثم رجع إلى الجد: - إن كنت تذكر فلم نغفل الكلام في مشكلتي. و لم أعدها على مسامعك لأن مثل هذه المواضيع المعيبة المهينة لا يُستحب تكرار الحديث فيها. - نعم، أتذكر هذا. كنت أقول إنه فعل بك مثل ما يفعلون بالرجال العاملين في دور الحرام، وأحقد عليه للمصيبة التي أصابك بها، فما سمعته الآن عجيب. كان الأجدر بك أن تُطلعي على شرك من أن تُطلع لاروش عليه. كثير من الأطباء لا يفهمون في مسألة العجز الجنسي. غريب أن لاروش لم يبلغني... لا ألومه هكذا يجب أن تكون أخلاق الطبيب، ولو لم يكن هكذا ما كنا ائتمناه على أسرار أسرتنا. - توقف الكونت قليلاً ثم سأل فخري متصنعاً الضحك: - أما قال لك شيئاً بشأني هذا الخبيث؟ وماذا يعرف عني ليقول لك؟ اختصاصه هو أمراض النساء، لا الرجال. متى عزمت على السفر إلى باريس رتبت لك موعداً مع طبيب ممتاز. نعم هو ماهر جداً في مثل مشكلتك؛ غير أنني أقول لك: لا يسمح لك بمقابلته إن لم تكن جيوبك محشوة. - حمل الكونت الورقة وقرأ عدة أسطر سريعاً. ثم مدها إليه. - على هذه الورقة اسم الشارع وعنوان البيت واسم الطبيب. أخبره بما حدث لك واعتبر قضيتك محلولة. وكتبْتُ لك اسم أحد أدويتي فلا تنسه. وخذ هذا، - ووضع أمامه كمية كبيرة من النقود.

- أيساوي دواؤك كل هذا المبلغ؟ - تعجب مما يرى.

- خذ المبلغ، وأساهم بما يتبقى منه في علاجك.

- أتراني فقيراً يا معلم؟

- لم أقل إنك فقير، بل أساهم في علاجك.
- لا أقيم في إستانبول دون مالٍ كافٍ، وعندي ما أشتري به دواءك؛ ولذا استرجع نقودك!
- إذن، على قولك، ألا تُدخلنا في موضوع الأخذ والردّ.
- لا تعليق لي على كلامك، ولكن العالم الذي نعيش فيه من هذا النوع كما تقول.
- وما العمل، العالم مرّتب على هذا النحو. - لم يأخذ شارل دو فيريول النقود التي رفضها فخري بل نحّأها جانباً. - مع السلامة يا فخري، سأصلي من أجل أن يحقق الله لك أمنيتك! - ثم مازحه: - لن أسمح لك، حين تشفى، بدخول إستانبول قبل أن تختبر رجولتك في باريس مع امرأة فرنسية جميلة.
- توجه فخري في صباح اليوم التالي مع أورشان إلى الميناء لأنه كان مستعداً للسفر منذ عهد طويل. ولما لم تكن أي سفينة مسافرة طوال الأسبوع إلا السفينة التي لا يريد لها اضطراراً إلى ركوبها. ثم إنك إن كنت متلهفاً على ما تأمل تحقّقه ركبت، لا سفينة سليمان فحسب، بل سفينة ألد أعدائك. ولماذا يخاصم سليمان؟ أعجيب أن رأوا عصام يخرج من سفينته؟ وهذا الـ "عصام" نفسه، مهما كان صديقه ورفيقه، يمكن لك أن تحصل من سليمان على أخصّ أسرارهِ بقليل من المال.
- انظر من صادفتهم من جديد! - صاح سليمان بصوت تَبّه الجميع حين رأى فخري وصاحبه - حتى لو افترقنا العام الماضي أو ما قبله، من يذكر، على غير مودة فقد التقينا ثانية. انظر إلى هذا! أليس هو أورشان؟ ما أشد ما كبر! خدعتني يا فخري في شأن هذا الشاب، وكلما تذكرت حاسبت نفسي.

- حسنٌ أن تغضب على نفسك لأنك لم تعمل الخير يا سو، ولكن ما شأني أنا؟

- غريب أنك لم تنس يا فخري! - تناسى سليمان تلميخ فخري إلى عدم فعله الخير، وتعلق باسمه المختصر "سو": - لم تنس أن بنات مرسيليا يناديني "سو".
أتذهبان إلى مرسيليا أم إلى كورسيكا؟ أم إلى مكان أقرب؟
- أنا إلى مرسيليا، وأورخان يودعني.

- إن أردت يا أورخان أخذتك إلى مرسيليا وأعدتك - ابتسم سليمان في وجه أورخان دون أن تعرف جده من مزحه وكأنه يعتذر عن إساءته السابقة له.
- أمن أجل أن أنسى رفضك إياي بمقدمة حذائك، وإيعازك برممي في البحر؟
- أجاب أورخان على غير توقُّع من سليمان. - هذا سيكون أرخص مما ينبغي عليّ وعليك.

- فخري ألم تسمع ما يرويه لي هذا؟ - قال سليمان بين المزاح ولوم النفس - هذا يا إلهي ما جناه عليّ فعل الشر. لن أسمح لأحد بعد الآن أن يوقعني في الخطأ الذي وقعت فيه في ذلك اليوم. أتتذكران ذلك الرجل المُشعر وزميله؟ دعونا ننسَ جرائمهما وذنبني لأني صرفتهما عن العمل منذ العام الماضي. جرى ما جرى وانتهى، ونحن، ثلاثتنا، والحمد لله بخير.

عبرت السفينة البوسفور فيما مسلمو إستانبول يؤدون صلاة الظهر. في المساء عبرت مضيق الدردنيل وصارت في غرض البحر.

لا يفوّت فخري الذي أمامه طريق طويل صلواته. وبعد أن وقف بين يدي الله ودعا إلى ربه أن يحقق له ما يريد، تأمل الدنيا بعين أخرى: البحر بموج مرتاحاً والسفينة تسبح، والسماء عالية، والشمس تنحدر رويداً رويداً، وفخري يقف إلى جانب السفينة. وكما يتموج البحر متمهلاً تتناثر أفكاره القريبة والبعيدة.

تتباعد في السفينة وما تبقى منها يتجه إلى سليمان وعصام. وما يطير منها نحو العرب هي أفكار تتجه إلى أسرة فيريول القاطنة في باريس. والأفكار الأخرى إلى إستانبول. والأفكار المتجهة نحو بلاد الشراكسة؟ من هذا المكان، وراء البحر، بدأت مأساة فخري.

من المعلوم في هذا؛ أهو أم الأديغة؟ لماذا تذهب إلى مكان لا علاقة لك به بمجرد أن تُدعى؟ مستأنساً بلغته الشركسية التي تعلمها من زمن "مملوكيته". آذته في أرض الأديغة هذه المعرفة باللغة. من أين كان سيدري أن صديق طفولته عصام سيتصرف معه بهذه القذارة؟ والسبب غَزْلُ مع امرأة وليس نزاعاً رجولياً.

حين نظر فخري غير عابئ بضغائنه القديمة إلى شمس الخريف تنحدر إلى المغيب حُيِّلَ إليه أنها تهوي في البحر والدخان يتصاعد منها. ولكنه استفاق إلى نفسه وحَدَّثَهَا: "لن يغلبها البحر، ستشرق غداً حمراء مستديرة كبيرة تمنحنا دفئها قائلة: هل اشتقتم إليّ؟" وهكذا يقضي الإنسان عمره على الأرض، يحيا بالأمل، ويفرح بما يتحقق له، ويحزن لما لم يتحقق. وهناك أناس بعيدون عن الفرح وعن الحزن. وهؤلاء يفتنون على الأرض وحيدين بلا أمل. وآخرون يعيشون على فعل الخير وآخرون على الآلام. أحدهم يأمل بالكثير، وغيره كعصام يبدد تلك الآمال. وشارل دو فيريول؟ هذا إنسان بريء مسكين هدّته شهوته. ولكن يُفني نفسه في عمله وفي واجبه نحو ملكه. لو أخلص لعائشة كما يُخلص لعمله لتحررت من تبكيت الضمير نحو الصبية التي ساهمت في بؤسها معزياً نفسي بأنه حدث ما حدث وانتهى الأمر، وها هي تلقى تربية من رجل طيب القلب. ولكن مهما حذرني الكونت فلن أخرج من باريس قبل أن أراها وأعرف كيف تعيش حياتها. وإن تصرفت معي بطريقة مغايرة لما سبق

وقررت أن تعود معي؟ "يا فخري هل أنت متردد؟" لام نفسه. هذا لا تردد فيه ولو خسرت حياتي في سبيله؛ فكما أخذتها إلى بلاد الغربة سأخرجها منها وأعيدها إلى بلادها..."

- أنظر إليك يا فخري فيخيل إليّ أن شمس الغروب تقلقل كيائك كما كياني.
- هذا أنت يا سليمان؟ لم يُن فخري استياءه وإن لم يكن يحب أن يتقرب إليه سليمان فيجعل منه سميراً. - إن ودّعت الشمس التي كانت طوال النهار في عينيك فقد يحدث معك هذا. أنا متعب وسأريح رجلي قليلاً.
- مهلاً يا فخري، احتاجك في أمر. سمعت أن عصام الذي تبحث عنه يختبئ عنك.

- وماذا سمعت؟ - رجع فخري غير متحمس.
- وماذا سيكون؟ - قلّد سليمان فخري دون خبث، ثم ابتسم له: - اعتبرْ عصام صار في يدك، ولكن السعر ليس قليلاً.
- ماذا حدث لكما، ماذا جرى بينكما؟ - لم يُطق فخري صبراً وقد تذكر جرح أورخان قبل عدة أشهر. وقال سليمان دون انتظار الجواب: - إن لم تُغال في الثمن فسأضاعفه لك. ولكن بعد أن أعود من فرنسا.

- الأهم مما حدث بيننا - سحب سليمان غليونه الفارغ فجأة - أنك طمأننتني على ما ستدفع لي. لاتظن أنني أفعل خيراً معك؛ ما يهمني هو ما أستفيد به. متى ما اتفقنا فسأكون جاهزاً في الوقت المناسب لك.

قادت فخري سنوات عمره الأربعون، منذ سنته السابعة في طرق كثيرة، منها الخبز ومنها الشر. ولكن لا يتذكر أن طريقه انفتح بسهولة، فتحقق له ما أراد، كما الآن. وجد الطبيب الذي يريده منذ وصوله إلى باريس وإقامته في الفندق. وخيل إلى فخري أن الطبيب عامله بلطف أكثر حين عرض عليه الورقة التي

بعثها معه شارل دو فيريول. ثم حين روى له مشكلته باختصار، قال له الطبيب الأشقر الجالس مقابله:

- أقابل لأول مرة تركيا يعرف الفرنسية جيداً. ولكن ليس لهذا سأبشرك. وأنا واثق من نفسي لأن الشرب الذي يهدّ الرجل جنسياً ليس من عادتك. ستشرب من هذا الدواء قبل الطعام ثلاث مرات اليوم وغداً وبعد غد. وستخبرني إن استفدت منه في اليوم الرابع.

في اليوم الأول حين شرع فخري في الدواء عرف في نفسه أشياء جديدة. وفي اليوم التالي بدأ يراقب النساء بطرف عينه، وفي اليوم الثالث حين ألحت عليه فكرة التودد إليهن، ذهب في اليوم الرابع إلى الطبيب.

- ما الأمر أيها المحترم؟ - استقبل الطبيب فخري وكأنه هو المعني بالفرحة - ألا تضبط نفسك حين ترى امرأة؟ أهنتك ولكن سأقول لك أيضاً شيئاً محزناً: لا أوملك في الإنجاب. ولكن من يعرف؟ هذا من شأن الله، وليس من شأني. وهذا الدواء يكفيك شهراً.

- وإذا انتهيت من الدواء؟... - استعجل فخري وكأنهم يسلبونه فرحته. - إذا انتهيت فلن تعود بحاجة إليه. ليس هذا دواء يومياً بل هو أسبوعي. والآخر خاص بالكونت.

- وهل هذا مثل دوائي؟ - "إن زاد هذا الدواء في شهوة الكونت فهذه لا أعرف..." - سأل فخري.

- لا، ابتسم الطبيب ثانية - الكونت يعرف فائدته. - مهلاً، مهلاً! لا تُمطرنى بالنقود من شدة الفرح. أخصم نصف الأجرة كرمي لصديقي الكونت. وإن شئت شاهداً على شفائك أرسلت إليك مساء امرأة شهية.

- لا، يا دكتور! - حسم فخري العرض المفاجئ - لن أقاسم أحداً فرحتي اليوم.

- مع السلامة إذن. بلغ تحياتي وأشواقي إلى السفير الفرنسي.
ربما ليس في العالم اليوم رجلٌ أسعدُ من فخري. ينظر إلى الدنيا المضئئة بعين أخرى. السماء عالية والشمس حارة. يبتسم للناس ويبتسمون له. المدينة ليست غريبة ولا البلاد، ولا اللغة. لا تكفي الدنيا كلها لعينيه الصافيتين. "لا أعرف إن كنت أبالغ في فرحي... - يلوم نفسه وينصحها. من قابلته ليس طبيباً محادعاً. كما فرحت لنفسي فرح هو أيضاً لأجلي. ثم إنني لم أذهب إليه عابر سبيل. لماذا أبقى هنا وقد انتهت مهمتي. واليوم تنتظري أعمال كثيرة. لا ضرورة لمقابلة لاروش، وهو لم يكن متحمساً جداً للقاء. ولكن أأسافر دون مقابلة أيسيه؟! ألا أجد وحدي سان - كول وأنا أتكلم الفرنسية؟"
حين رأى فخري عائشة في فناء الدير كانت تغيرت كثيراً عن تلك التي اشتروها من سوق النخاسة قبل أربع سنين، وتميزت من زميلاتهما بقوامها المشوق. ناداها بالشركية:

- آيشت!

حين سمعت عائشة اسمها بالأديغية فهمت ما لم تفهمه زميلاتها فرفعت رأسها من دونهن، ورصدت مصدر النداء الأديغي. وحين اكتشفت أسرع إلى فخري شبه راكضة، وسألت بالأديغية متعجبة مما ترى:

- كيف وجدتني يا فخري؟

- كان بودي أن أراك فقد جئت إلى باريس في زيارة.

- وأين شارل؟ أليس معك؟

- لا، لا وقت لديه ليترك مهماته.

وفي هذه اللحظة وصلت جانيت - نيكول، وسألت أيسيه بصوت قلق جافٍ:

- من هذا الذي يكلمك؟

- هذا فخري، حين اشترايني شارل دو فيريول كان مترجماً عنده. وهو يتقن الشركسية والفرنسية. وقد ذكرته لك في وقت سابق. هو إنسان طيب، وقد أسأت إليه دون سبب. وهل بلغك شارل دو فيريول اعتذاري يا فخري؟
- بلغني يا عائشة. - لم يبدل فخري لغته كما فعلت عائشة. شكراً على أنك تفهمّتي. إن أردت الحق يا أختي الصغيرة فأنا مسرور لأنك تتكلمين فرنسية صافية.

- لا عجب في هذا - لم تغير عائشة فرنسيتها. - لن تترتاح مع القوم الذين تعيش بينهم إلا أن تتعلم لغتهم وعاداتهم.

- يا أيسيه لماذا لا تتكلمين مع من يزورك ويحُك عليك بالشركسية؟ - لامت جانيت - نيكول عائشة بنعومة - لا تهتمي لأمرى، كلميه بلسانك. متى ستحين لك فرصة مماثلة؟

سألت عائشة فخري بالأديغية مع أن السؤال الأخير لجانيت - نيكول هزّ كيائها:

- متى ستسافر؟

- لم يبق لي عملٌ غيرك - الآن سأركب طريقي إلى نواحيننا. - وفهمت عائشة لماذا أكّدت على كلمة "نواحيننا" غير أنها كتبت ما يعتدل في قلبها.

- مع السلامة يا فخري... - ارتحف صوت عائشة ثم أضافت: - لا أعرف مصير "أديغيتي" ولكن اعتبر لغتي الأديغية انتهت هنا... - وانفجرت عائشة

التي تحمل اسم شارلوت - إليزابيث أيسيه، وارتقت على صدر جانيت - نيكول.

فخري الذي لم يعد يتحمل رؤية ما يرى رجع بهدوء، وترك الصبية التي تبكي "أديغيتها" المفقودة، مع سندها الوحيد في بلاد الغربة جانيت - نيكول.

X

أبلون واحدة من الضواحي الصغيرة المحيطة بباريس. ولا تبعد كثيراً عنها. تصل إليها بالعربة خلال ساعة. تنتشر بيوتها بين السفوح المغطاة بالغابات وفي سهولها، وعلى ضفتي النهر الذي يجري لا مبالياً. تزينها البيوت الجميلة المتنوعة الأشكال، والغابات المحيطة بها أو المقابلة لها، والأشجار المثمرة. الهواء نظيف فيها في كل الفصول. والقلب يجد فيها راحته.

الغابة — البستان، المتناثرة العائدة لآل فيريول تبدأ من ضفة النهر وتنتهي بالبيت المؤلف من أربع طبقات. ولا تقف هنا، بل تندمج رويداً رويداً بالتل الذي يبدأ من جانب البيت. والبيت والفناء منيران في كل الأوقات، ربما لأنه مرتفع عن الأشجار. والمقاعد الخشبية في كل مكانٍ ضاحٍ للشمس، وفي الأفياء. وملعب الأطفال على مرأى من النوافذ ومن المصطبة أمام البيت.

ولما كان الوقت زهوة فصل الصيف، تتنادى العصافير في كل مكان، في الغابة — البستان، وفي البعيد والقريب، وعلى المصطبة. وبعضها متميز في الغناء. تفيق مع انبلاج الضوء، ويشدد غناؤها مع الشروق. ثم تسكت مع الضحى. غير أن من لم يُنه غنائه يستمر يصيح من هنا وهناك. وعائشة تحب الاستماع إلى غناء كل الطيور. ليست التي تفيق مبكرة جداً، بل تلك التي مع الشروق. وفي هذا الوقت تفيق عائشة وتفتح نافذتها. ومهما أصمت الأذان بضجيجها، وحتى لو استمعت إليها طوال النهار فهي لا تمل منها. ولا تكتفي بأغاني العصافير المرححة بل تنتظر الغناء الحزين لليوم. ولا تمل الطيور من الغناء إلا بعد وقت شرب الشاي صباحاً.

من جهة تبعث الفرح، ومن جهة تبعث الحزن. ما هذا؟ حتى لو كانت عائشة تتأثر بقلبها فإنها لا تستطيع إجابتها. لماذا تنتظر نعيب اليوم الحزين، البعيد - القريب، أكثر من صُدايح الطيور السعيدة!

اليوم وهي جالسة إلى النافذة تعد مع اليوم بقلبها "واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة... عشرة، أحد عشر،.. ثلاثة عشر... أكملني أيضاً؛ قولي: "أربعة عشر" غداً سأبلغ الرابعة عشرة. وسيأتي اليوم إلى أبلون أوغستين - أنطوان، وبيير، وكلودين، وجانيت - نيكول إن لم تنس. وستأتي، بل الأربعة سيأتون في عربة واحدة. ليتهم جاؤوا مثيرين استغراب الناس. لا، لو جاءني بيير وجانيت - نيكول وأوغستين وكلودين، كلٌّ في عربة لكان أفضل. لو جاؤوا فرادى لتعجب جيراني من الصبيان والصبايا. هناك في بلادنا كانت تقول جدتي وجاراتي الصبايا "البوم يصوّت في موسم البصل الأخضر"... إذن لأنه ليس موسم البصل الآن تتناقص نداءاتها؟ "سخرت عائشة من نفسها لأفكارها" لا يعني عدم إكمالك الصيحة الرابعة عشرة أيّ لن أبلغها!"

- يا أيسيه، تعالي معي إلى الماء قبل أن تحمى الشمس - ناداها بون دو فيل ممسكاً بيد أرجنتال الصغير.

- لا تذهبا وحدكما إلى الماء! ها أنا الآن حالاً - قفزت عائشة بقامتها الهيفاء الممشوقة، وخرجت من الغرفة قلقة على أرجنتال الصغير، وأمسكت بيده، فانتزع الصغير يده من أخيه.

- ماذا جرى لك أيها الشقي؟ كنت تترجاني أن آخذك إلى الماء. إذا كنت ستصرف معي هكذا فلن أحكي لك الحكايات، ولن أركبك الأرجوحة. - نظر أرجنتال دون أن يرد إلى أخيه، وأمسك بيد من كان يلومه، ولكن هذا لم

يمنع بون دو فيل من متابعة عتابه: - هذا طبعك، تظل متمسكاً بالشيء كأنهم يسلبونك إياه... أسرع!

- لا تتشاجرا! - هدأت عائشة الاثنين، وامتدحت من كان يسبقهما: جان - أرجنتال الصغير ولد ممتاز!

ظهر النهر، وحين سمع بون دو فيل خريه سبق أخاه الأصغر، وركض وهو يصيح بأخيه وراءه:

- حاول إذن أن تسبقني!

- اركض أنت، اركض، ستغرق في النهر - حين صاح أرجنتال وراء أخيه اعترضت عائشة:

- يا جان، لا يقال مثل هذا الكلام، هذا فآل سيء!

- لا يسبقنا إذن ويتركنا وراءه! - قال أرجنتال ثم نادى أخاه وهو ييكي: قف يا بون، سيجرفك النهر. ضفة النهر ملأى بالصبيان والصبايا. الأكبر سنًا منهم يستحمون حيث يركد الماء، والأصغر يلعبون على الضفة الرملية.

حين رأت ماري - مادلين دو لا فيفيل، الفتاة السمراء الصبوح جارّهم عائشة وأرجنتال نادتا:

- يا أيسيه ادخلي في الماء، إنه دافئ.

- سنتظرين طويلاً إن انتظرتِ عائشة - أجاب الصبي أندريه وهو في الماء.

- وكيف يدخل إلى الماء من لا يلبس بنطالاً؟ - وافق هنري الصبي السمين القصير ساخراً من زميله أندريه.

أسرع بون دو فيل قبل أن يستكمل خلع ملابسه وهجم على من يسخر من أخته. وأنقذ الكبار الصبي الذي كان بون دو فيل صرعه، ويغمر رأسه في الماء. ونصحت عائشة أخويها وهي تضم أرجنتال الذي هبّ لنصرة أخيه الأكبر:

- كفى يا بون وأنت يا جان، اهدأ! ماقاله لي هنري فلتة لسان، ولا يضمّر لي شراً. أليس كذلك يا هنري؟ وأنت يا ماري؟ - استشهدت عائشة بالصبيّة ماري التي تسبب كلامها في المشادة التي جرت على ضفة النهر.
- نعم يا أيسيه نعم. - وافقت ماري عائشة بسرعة. - هنري كان يمزح معك فحسب، لا من قلبه. هنري ولد ممتاز، لنسأحه!
- إن كان رأيكم هكذا - قال بون دو فيل دون حماسة - ليعتذر من أختي، ونحن نسأحه. أليس كذلك يا أرجنتال؟
- نظر أرجنتال نظرة رجاء إلى أخته. وتوسل هنري الولد القصير السمين إلى عائشة شبه باك:
- سأليني يا أيسيه!
- كفى بكاء... - مدّ بون دو فيل يده وهو يمسح أنفه إلى هنري: - هات يدك، وأنت يا أيسيه ألا تغفرين له؟
- وأنا سأمحتك! - لم يتأخر أرجنتال متصنعاً الرجولة عن أخيه وأخته.
- تأخرت ماري عن الصبيّة والصبايا الذين يصعدون الآن الضفة صاحبين يتضاحكون وكأنهم غير أولئك الذين تعاركوا قبل قليل، وسألت عائشة عما كانت تتعجب منه طوال الصيف:
- تأتين إلى منذ أكثر من شهر ولم أرك نزلت إلى الماء مرة؛ أتحافين؟ ألا تعرفين السباحة؟
- كان ما سمعته عائشة مدعاة للضحك:
- كيف لا أعرف السباحة وقد وُلدت على شاطئ البحر!
- ولماذا إذن لا تستحمين هنا؟
- كيف أستحم أمام الصبيان؟!

- عارية تماماً؟ - سألت ماري المرائية الصغيرة كما تريد مع أنها فهمت ما قيل لها.

- ماري - استدارت عينا عائشة البريثتان في محجريهما - ماذا تقولين؟ هذا عيب؛ النساء عندنا لهن مسابح خاصة. لا يقترب منهن أي ذكرٍ، حتى لو بالمصادفة.

- هكذا؟ - رفعت ماري حاجبيها المزججين ساخرة مما سمعت، معتبرة إياه مضحكة، وقالت لنفسها "كيف تخفي المرأة جمالها عن الرجل؟"

في هذا النهار نفسه، وقد بدأ الجو يميل للبرودة ساعة انحدار الشمس دعا آل فيريول الصبية والصبايا من الجيران إلى فناء دارهم المستعمل مسرحاً. ولم يكن للدعوة هدف، بل هي دعوة أسبوعية كل سبت. ولما كان أرجنتال هو المكلف بالدعوة فقد دار برفقة هنري، وقد تصالحا، كل المنطقة. وأبلغا المسؤولين عن إدارة المسرح شارلوت - إليزابيت أيسيه وبون دو فيل، وهما يتنافسان، أنهما نفذا المهمة. ومع أن مهمة عائشة كانت أعلى فقد أمسك بون دو فيل المبادرة وسأل أخاه وجاره:

- هل أنتما جاهزان؟

- أنا جاهز في أي وقت! - بادر أرجنتال: سأكون أنا الكلب، وهنري القط، أنا سأنبح، وهنري مقوساً ظهره سيتظاهر بضربي بقائمته.

- لا تنسيا ما ستقولانه - تدخلت عائشة - تحاصما كما أفهمتكما، وكلّ يحذر صاحبه. وحين يقتحم عليكما أندريه الديك اهربا كالحائفين. هذا أولاً،

والأمر الثاني: لا تنس صافرتك!

- إن فعلت بنا هذا مرة أخرى يا هنري فلا تنس ما غفرت لك في النهر! - كان بون دو فيل جاداً في تحذيره مع أنهما تصالحا.

- بون - حمت عائشة مرة أخرى الصبي - لن يعيد هنري خطأه، وها هي صافرته على المقعد.

- وأنتما يا أيسيه؟ - لا يكفي بون دو فيل بمهمة الأصغرين، بل يقدّم نفسه على الأكابر - هل الملابس التي ستظهران فيها، أنت وماري، جاهزة؟

- ملابسنا أنا وماري جاهزة ولكن لا أعرف إن كانت ستعجب المشاهدين. - قالت عائشة خجلة وأردفت: - لسنا وحدنا، فالمنغون والراقصون جاهزون أيضاً. وقد عمل معهم لاروش. وأنت؟ القصيدة التي ستلقيها؟

- وأنا قصيدتي جاهزة - ومع أنه لم يكن في نية أي من الثلاثة السؤال عن القصيدة فقد جرّد بون دو فيل من نفسه فناً، وألحّ على زملائه مبعداً بين ذراعيه - لا، لا تسألوني، لن أكشف عنها، سأجعلها مفاجأة.

لم تستطع عائشة النوم مع أنها أوت إلى الفراش منذ وقت طويل، كانت دنياها أمس اختلطت بدنيا اليوم. اختلطت أحداث المشاجرة التي كانت هي محورها على ضفة النهر، وما جرى مساء في مسرحهم، والقصيدة التي قرأها بون دو فيل، من نظمه، بمناسبة عيد ميلادها الرابع عشر، وتصفيق الحاضرين. لم تستطع إلا أن تفكر في بلوغها الرابعة عشرة رغم تظاهرها بعدم الاهتمام. فمهما كانت العطل الصيفية في أبلون مريحة ومرحة فهي تشتاق إلى مدرستها في سان - كول، وإلى زميلاتها. ومعلماتها ماثلات دائماً أمام عينيها.

لماذا لا تستطيع عائشة النوم؟ الحق أنها نامت قرابة الساعة في البداية؛ ولكن لماذا أفاقت وكأن أحداً يدفعها بأنامله. ومن أيقظها؟ أخاطبثها أشعة القمر الذي تسمر عند نافذتها أم أجفلها هدوء ليل الصيف القصير؟ "ما هذا؟" أنصتت عائشة، ونهزت، بخليط من الأديغية والفرنسية، الطائر الذي أيقظها: قاتلك الله، لا تنفك عن الدمدة، ابتعد عني واركني أستريح. ما أقبحك من

طائر لا تعباً بجمال هذه الليلة المقمرة! نهضت عائشة وأغلقت النافذة. وعادت إلى الفراش وتدنّرت بالحاف كي لا تسمع، وفي اللحظة نفسها توقف الطائر عن أنينه. - هناك، في بلادنا، كان على أشجار بستاننا بومة... ولولا أن جارنا التركي "ممت" أمر بقتلها لربما تجنّبنا هذه المأساة. وإن أردت، لا تعباً بنهري إياك، واستمرّ في الصباح إن كان فيه فائدة. نفّس عن همومك! وأنا مثلك أصبح أحياناً شاكية متنهدة، غير أن أحداً لا يسمعي".

تقلبت عائشة في فراشها والهموم تتلاعب بها. وغيّرت وسادتها أكثر من مرة. وألقت اللحاف عن جسدها ثم أعادته. وعدّت، كما نصحتها ذات مرة زميلتها في سان - كول، ماري دو فيشي - شامرون، إلى المئة والمئتين والخمسة.. حتى الألف. ولكنها لم تستفد من عدّها. وحين بدأت تغزو رأسها ما يخصها وما لا يخصها من الهموم، تذكرت نصيحة جدّها "إذا لم تستطع النوم ليلاً ففكّر في الأمور الممتعة، لا في المزعجة".

"كل شيء على ما يرام" - دعمت عائشة نفسها. - الناس الذين صرّث منهم، آل فيريول أناس طيبون، يربوني، يُعزّوني، لا يحيجوني إلى شيء. وماري - أنجيليك تحبني. تلبي لي ما لا تلبيه لأولادها. وكم كانت فرحة حين ألقى بون دو فيل مقطوعته فيّ، ولما انتهى منها دعت الحضور إلى الوقوف والتصفيق لي... وجان الصغير ركض إليّ وجثا أمامي على ركبتيه وقبّل يدي. وباقية الورد الكبيرة التي قدمها لي أندريه؟ وهنري المكتنز الخدين، وقد قفز من مكانه وشرع ينفخ في صافرته؟ وصوفي؟ حين شخصت أمامهم لابسة قبعتي الصيفية الخفيفة، لم تملك نفسها من السعادة وهي تحتف "برافو". ولا روش تنزّه بنا أنا وماري - أنجيليك وهي ترتدي فستانها الأخضر، وأنا قبعتي الحمراء الخفيفة، ثم عزف لنا؟ احتفلوا بعيد ميلادي على ما يبدو. لا، لا، غداً يوم الاحتفال!

وأوغستين، وكلودين، وبيير، وجانيت - نيكول، كلهم سيأتون. وشارل دو فيريول كان كتب لي أنه سيصل من إستانبول في عيد ميلادي الرابع عشر. هو إنسان عجيب؛ قد يكون وصل، وفي باريس؟! يريد أن يفاجئنا. كان كثيرون سيستغربون لو حدث هذا. وإن لم يستطع الحضور فلن ألومه "أمور البلاد، كما تقول جانيت - نيكول، لن تدعك حراً وأنت في بلاد الغربة" - استغرقت عائشة في النوم أواخر الليل وهي تذكر الجميع بالخير.

أفاق بون دو فيل وأرجنتال باكراً على غير عادتهما البتة. ولم يكونا وحيدين؛ كانت أسرة فيريول، باستثناء شارلوت - إليزابيت أيسيه على الأقدام. وأرجنتال هو الغارق في العمل أكثر من الجميع. يجري من المكان الفسيح الذي سيتخذونه مطعماً في يوم الاحتفال وبين غرفة نوم عائشة. لم يقف على باب غرفتها، وعلى رؤوس أصابعه، إلا ثلاث مرات في حدود الساعة. وكان عنده ذريعة في هذا: استقبل عربة والده أوغستين - أنطوان، وعربة خالته كلودين، وعربة خاله بيير ومعه جانيت - نيكول، كلاً على حدة. وفي كل مرة يخبرهم أن شارلوت - إليزابيت أيسيه ما تزال نائمة، ويوصيهم بحزم ألا يوقظوها. - تنفيذاً للأوامر السرية الصادرة إليه من أمه ماري- أنجيليك. ومائدة احتفال آل فيريول جاهزة منذ الضحى. والوحيدة الغريبة عن آل فيريول عليها هي جانيت - نيكول. والمقعد الفارغ بين مقعدي الكونت أوغستين - أنطوان والكونتيسة ماري - أنجيليك لشارلوت إليزابيت أيسيه. وعلى جانبي الأب والأم بون دو فيل وأرجنتال. ومقابلهم بيير - غيرين دو تانسين وجانيت - نيكول. وكعادتهما تجلس كلودين - ألكسندرين وحدها ممشوقة القوام منتصبية الرأس. وعلى يسارها، بعيداً عنها يجلس لاروش. وقريباً من الباب، وعلى طرف المائدة مقعد صوفي التي أرسلوها تستدعي عائشة.

والشموع الأربع عشرة التي تشهد على سنوات عمرها تنتظر ولا تنتظر من سيطفئها. وما إن سمع أرجنتال صوتاً من خلال الباب المفتوح على مصراعيه حتى صرخ:

- شارلوت - إليزابيث أيسيه قادمة!

حين دخلت عائشة الغرفة بثوبها الذي يشهد على قوامها الرشيق، وقبعتها الحمراء الخفيفة يتخللها الهواء، وحذائها الأبيض غير العالي صفق لها الجالسون. وبدأت عائشة من أرجنتال فقبلت وجنات الجميع، ثم اتخذت مجلسها المحدد. وخطب أوغستين - أنطوان:

- اليوم عيد ميلاد شارلوت - إليزابيث أيسيه. ولما كانت بلغت الرابعة عشرة فأنا والحاضرون كلهم نحتفل معك بعيدك. ولسنا وحدنا فوالدك شارل دو فيريول سفيرنا في فرنسا، لم يستطع الحضور بسبب أعماله المتعلقة بالدولة، لكنه لم ينسك فأوصاني أن أقدم لك هذه الأسورة الذهبية والقرطين الذهبيين. وباسم أسرتنا أرفق بأسورة أخي أسورة أخرى. ونتمنى لك أن تبقي كما أنت فتاة عاقلة ذكية، وأن يرافقك الحظ طوال حياتك، وتتمتع بصحة جيدة. وتنجحي في دراستك، وتنعمي بإنسانيتك. ومن أجل أن تبقى السنوات الأربع عشرة ثابتة الجذور في حياتك أدعوك إلى إطفاء شموعك.

أطفأت شارلوت - إليزابيث أيسيه شموعها بنفختين مع أن الجميع تصوروا فتاة نحيلة ضعيفة. صفق الجميع لها مرة أخرى. ثم ألقى كلمات بالمناسبة، ورُفعت الأنخاب. وقدموا لها هداياهم: خواتم فضية، ووشاحاً حريراً، وحلياً للصدر. وأمشطة، وحافظة فيها عملة ذهبية.

- قالت كلودين - ألكسندرين بعدما هنأتهما: هذا الكتاب يا شارلوت - إليزابيث أيسيه، كتابي الأول المطبوع حديثاً أقدمه لك كأعلى تذكاري. ولم أقدمه

بعدُ إلى غيرك. لا تتوجسي منه؛ أتذكركين يوم رميت عليّ كتابي، هذا الكتاب ليس فيه مثل تلك الصور الفاضحة في الكتاب الآخر الذي رميته في وجهي في تلك المرة. ثم أكّدت: إن أعجبك فاقريه، وإن لم يعجبك فافعلي به ما تشائين. لا أعتب عليك! احتفل أُل فيريول حتى الغروب. عزف لاروش على الأوكورديون، وغنوا معه ورقصوا. وحين اعتزم بيير وجانيت نيكول العودة إلى باريس ودّعوهما، وهمست جانيت في أذنها:

- اليوم كنت جميلة جداً يا أيسيه. أريدك أن تكوني هكذا على الدوام!

الكتاب الثالث

I

حياة الإنسان كالعالم الذي يعيش فيه. أحياناً شمسٌ ساعةٍ، وأخرى سماءٌ غائمة. أحياناً عاصفة، وأخرى ممطرة. وفي هذا العالم تتناوب مواسم الخصب والجذب، والصحة والمرض، والحر والبرد، والسعد والنحس. هذا على حصان، وآخر على رجليه. هذا متخم والآخر جائع. وليس هذا عجبياً فهذه شجرة عملاقة وأخرى قزمة، وظل العملاقة يمنع القزمة من النمو. هذه أشجار تحمل الفواكه، والأخرى عقيمة. هذه تكسرهما الريح، والأخرى صامدة.

الدنيا _ سواء للأحياء أم لمن لا روح فيه _ ليست سراً. واضح ليلها ونهارها، برؤها وحرها. إنها أشبه بافتضاح أمر حب النساء وأمر حملهنّ.

لا يهتم الكونت شارل دو فيريول بهذه الأمور التي تصدع الرأس. لا يعني هذا أنه مهمل لشؤون الدولة التي كلفوه بها. فمن هذه الناحية هو مخلص لملكه ولبلاده. ولكنه لا يمل من شهوته ومن تبديل نسائه. يعيش غير عابئ بأصول النظرة إلى النساء، المرعية في تركيا. سرُّه في هذا الشأن أقلُّ من تحرره، يستوي عنده الوهاد والنجود، لا يريم على شيء. يسخر ممن ينصح به بالاقتصاد في النساء، ويعتب على من يلومه على نقض الأعراف والتقاليد التركية.

حين يُرى سفير فرنسا متأبطاً في الشارع، أو في المطاعم الفخمة، امرأة من النساء الرخيصات، يُخيف منظره النساء التركيات. ويسمر الرجال. وليسوا قلائل من يشاجرونه. ومن يبصقون في إثره أكثر. والمحافظون من المتدينين توغر

إليهم أيديهم أن تهوي عليه، ثم يتذكرون أن الرجل سفير دولة، والسفير أجنبي، فيتراجعون.

- أحشى أن يؤذيك من لا يعرفونك. - قال فخري قلقاً على شارل دو فيريول.

- قبل أن يؤذيني من لا أعجبهم من قومك - يضحك الكونت من أعماقه - إن كانوا يريدون استتباب السلام بين تركيا وفرنسا فليسألوا عن نوعيتي بين البشر. لماذا يعيش في تركيا، دعك من إستانبول، من لا يعرف أنني سفير فرنسا؟! - يسأل مازحاً غير أنه سرعان ما ينقض كلامه: - أفهم، أفهم. أنتم الأتراك تساوون بين الصراحة في القول والعين الفاجرة، ولذا فالأفضل ألا أتصرف هكذا. ولكن ما أحبه بقلبي لا يمكنني أن أحرم نفسي منه مهما كانت النتائج. ألا أتنازل هكذا عن هويتي الفرنسية؟

- أيقصر الحب والشهوة على الفرنسيين؟ - يلمح له فخري معاتباً - هذا يجب أن تصونه في القلب، لا أن تُظهره على الملأ، وتمشي به بين الناس. يتجلى السر بين الرجل والمرأة في إنجاب الأطفال، لا أن تمشي في الشارع متأبطاً ذراعها، أو في ميدان سباق الخيل، أو في المطعم.

- نعم، صحيح. أكما تدلل امرأتك ذات العيون الواسعة وحبلتها؟ تبين لي أنك غير ما كنت أتصورك!

- ألسنت أنت يا معلم من قال إن الأمر سهل إن كنت قادراً؟ - احمرت وجنتا فخري مسروراً لما سمع. أنت من أرسلتني إلى فرنسا أبحث عن علاج ونفعتني توصيتك. شكراً لك، لن أنسى صنيعك معي.

- حلال عليك يا فخري. تفرح بما صنعه بنفسك. أصلي إلى إلهكم من أجل أن يأتي مولودكم بخير، وأنتما أدعوا إليه. - قال شارل دو فيريول، ثم أضاف

دون معنى كي يخفي فرعه من شدة تنهده: - لم أر أورخان من مدة؛ ما أخباره؟

- يقول إنه استقر في سلك البوليس.

- حسنٌ، حسنٌ. تبين أن أورخان شخص طيب. ليست العشرون عمراً طويلاً؛ أتوقع أن يصبح رجلاً ممتازاً.

يجلس شارل دو فيريول في شمس الخريف الناعمة، وهذه الأفكار وغيرها من الذكريات طافيةً على السطح. لا الهواء يزعج، ولا الشمس تحرق. وروائح ورود الفناء تنتشر مع النسيم الرقيق. والمآذن الداعية إلى صلاة العصر تتجاوب أصداؤها في أرجاء إستانبول. ولما كان اعتاد على أصوات المؤذنين فإنها لم تعد تزعجه كما في السابق بل أصبحت تُعلمه بالوقت.

يتصفح شارل دو فيريول الأوراق التي جاءته اليوم من فرنسا ويقرأها. ويضع القضايا التي يجب أن ينفذها دون تأخير في مصنف أحمر، والأخرى في مصنف أخضر. وفيما هو يتعرف ما فيها يشردها عنها بسبب الأفكار التي تغزو الرأس "ما أجمل المرأة التي أعدت لنا المائدة حين زرت كانتيمير ديمتري قبل أيام. بشرتها جذابة، وعيناها؟ منذ زمن بعيد لم أقابل امرأة بهذه الطباع السلسة. ربما بسبب أمثال هذه المرأة يقولون إن النساء الروسيات كأنهن يتحمنن بالحليب. ونساؤنا الفرنسيات؟ والفتيات الشركسيات؟ انتصبت أمام مخيلته شارلوت - إليزابيت التي لم يرغب خيالها عنه لحظة. - هذه الفتاة الجميلة هي من أقصدها بكلامي، لا تلك التي تلوي وركها! لن تتعرفها بعد عدة أشهر وقد أخت عامها الرابع عشر وتقمّصت جسد امرأة. ثم إنها أكبر من عمرها لأنها طويلة ممشوقة القوام، فلا يشبع فخري رغم مرور سنة على رؤيته لها من الحديث عن جمالها وفطنتها. حسناً فعلتُ إذ لم أزر أيسيه إلى الآن. من هي أمام ناظريك دائماً

تمل منها أحياناً، شئت أم أبيت. والبعيدة عنك تشتاق دائماً إلى رؤيتها، وتحبها.

ظلت أفكار شارل دو فيريول في باريس وسان - كول وميلين رغم مُضيِّ وقت طويل على انتهاء المؤذنين من أذانهم والمصلين من صلاتهم. ما شأن هذه الأماكن بأفكاره؟ ليس منذ البارحة أو اليوم يشتاق الكونت إلى هذه المدينة الصغيرة. ماحدث بينه وبين مادلين يطفو أحياناً رغماً عنه على سطح الذاكرة. كان قد أوصى فخري حين اعتزم السفر إلى باريس أن يسأل عن مادلين ولكن تظاهر كل من سأل عنها في ذهابه وإيابه بأنه لا يعرفها؛ ففهم أنهم يُخفون عنه سرّاً؛ فلن يُلحَّ في السؤال لعلهم أنها امرأة متحررة. ولا يريد شارل دو فيريول أن يعرف أحد سرّه مع تلك المرأة؛ ولذا كفّ عن ذكرها لفخري قائلاً في نفسه "ربما جرى لها أمر سيء"

ولم يكن شارل دو فيريول غير عابئ بأمر فخري وعصام "أ يكون فخري نسي المسألة حين عادت إليه رجولته؟! " ليس هذا مستحيلاً. ولكن لو كنت أنا المعني بالأمر لما استطعت. لن أهدأ قبل أن أفعل بمن حرمني رجولتي مثل ما فعل بي. نسي الإهانة التي ألحقت به مرتاحاً في حضن امرأته. وأورخان الدعيّ حين مرّغ عصام أنفه في الوحل انتسب إلى البوليس ونسي. الظاهر أن عصام، وإن كان إنساناً قذراً، يتمتع بالرجولة. يحمي نفسه... انظر إلى الشمس الغاربة ما أكبرها وما أشدّ حُرمتها؛ تحرق السماء دون دخان. ما هذا؟ تعرّف اسم الأسرة المكتوب على الورقة: "غيرين دو تانسين - كلودين - الألكسندرين" عجيب؛ أنسيت الإهانة التي أهانتنيها أمام باب دير مونفريل؟ ماذا تكتب لي؟ دور الكونت عدة مرات الورقة المغلقة دون أن يفتحها. قلبها وقلبها، وجهها نحو نصف الشمس الآيلة إلى الغياب ونظر إليها. استعجل عليها قبل أن

تغيب الشمس، فقراً: "صهرنا العزيز السفير الفرنسي المحترم شارل: هذه الرسالة من كلودين - ألكسندرين. قبل كل شيء ساحني على إساءتي إليك حين جئت إلى مونفريل لزيارتي. في ذلك اليوم لم أكن عادلة مع أحد. والذي كان السبب في دخولي دير أفغوستين هو الوزير الأول دوبروا العجوز الذي أقاله اليوم ملكنا. وهو من وشى بك إليّ وكان السبب في العداء بيننا. لم يدعُ سوءاً يخطر له إلا ألصقه بك لخوفه من أن تسلبه منصبه. وأنا سايرته خوفاً من أن يمنع صدور كتابي. هل تعرف من استلم منصبه الآن؟ دو كوندي بوربون المؤثر بأمر الماركيز زير النساء دو بري. ولكن يُعتقد أنهم لن يتركوه طويلاً في هذا المنصب. ينصحونه بتعيين المقرّب من البلاط إركيول - أندريه دو فليري صاحبنا. وإن تولى هذا منصب الوزير الأول كان من مصلحتنا. نعرفه وبخاطنا. والآن سأتي على ذكر شارلوت إليزابيت أيسيه لأنني أعتقد أن الأمر يزعجك أكثر مما يزعجني: أيسيه كبرت أكثر من عمرها وصارت فتاة ناضجة. وأرى أنها لن ترفض من يغازلها في المستقبل القريب. وقد ضممتها إليها جانيت - نيكول، لا تعرف بصفة أمّ أم أخت أم صديقة؛ فأخشى ألا تسمح لنا أن تقع عيننا أنت ونحن عليها. والفتاة التي لا تؤمن بأن في باريس امرأة أجمل منها لا تتوقف عند هذا الحدّ. علقت بأخيها الوحيد بيير حتى فقد عقله معها. كان يمكن ألا أكتب إليك هذه الأخبار ولكني لم أعد أتحمل. وماذا الآن؟ لا أعرف خبراً يسر قلبك. باريس كما تعرفها تغلي بالحياة. وفي فيرساي وفي تريانون عيد دائم. أنت تُحرم من أشياء كثيرة في غمرة انشغالك بمهامك في الخارج. ولم أتفهم حاجة باريس إليك واشتياقها إليك إلا الآن. كل آل فيريول ومن في قصرهم الأبيض الكبير يهدونك تحياتهم. يمكنك أن تحيب على رسالتي غير أن الأفضل أن نراك بيننا. كلودين - ألكسندرين.

نفض شارل دو فيريول مرتباً من النار التي دبت في جسمه. قرأ الرسالة ثانية. ثم ركنها. وأخذها من جديد. نفض، ثم جلس. أظلمت الدار التي غلبها المساء. وبدأت بعض النجوم القليلة تلمع. وأصوات تكسّر الأمواج تصدر من جهة البوسفور. وتخيم عليه مظاهر حياة الليل في إستانبول. وتوجه إلى الحاجب "أَسْتَن" الذي يحمل إليه الشموع:

- ماذا؟ أتريد أن تُبقيني جالساً هنا الليلة؟ - غمغم السفير الفرنسي متجهاً إلى غرفته دون أن يُفكّر رسالة كلودين - ألكسندرين.

لم يرتح شارل دو فيريول في الغرفة. كان بقلبه في باريس وسان - كول. كما يقال "النَّام بسبعة ألسنة" لم يختبر الكونت إلى الآن مثل هذه التجربة. كان يعيش في تركيا، وخلافاً لسنواته الأولى، كان يقضي هذه السنة، وباريس أمله اللذيذ، ويحل مشكلاتها في إستانبول. والان تُمَيّ إليه ما كان يخشاه من أخبار. ولم يسمعها قبلاً عن قال، كما يقول المثل "الطبل الأجوف يصل صوته المضطرب ولو من بعيد"

ولذا ليس الأمر "تماماً بسبعة ألسنة" لم تتحمل كلودين - ألكسندرين ما ترى وما تسمع. كتبت إليّ لأنها قريبة مني روحاً وقلباً. لم تُخفِ عني ما جرى لدوبوا عدوّي، وما شكّت فيه من جهة أيسيه. وأطلعتني على أخبار أخيها بيير وجانيت التي تشبّثت به. وهكذا يكون الأهل والأقارب. أنا من اشتري أيسيه ورباها وعلمها وليست جانيت التي تتوسل حبها. ما إن أذهب إلى باريس حتى أكتشف نواياها الحقيقية نحو أيسيه. سأفهم بيير أنه لا يمكن اكتشاف جمال المرأة من اختلاء أمسية واحدة، وأنه لا امرأة كل ما فيها جميل. مهلاً ماذا تكتب لي كلودين - ألكسندرين - емسك بالرسالة وقرأ خاتمتها وهو يذرع أرض الغرفة: - "يمكنك أن تجيب على رسالتي غير أن الأفضل أن نراك بيننا.

كلودين - ألكسندرين. " - أترى، أسمع ما تقول: الأفضل أن نراك بيننا. من البديهي أن تُسرّي إذا أشبعتك بعدما لفظك دويوا العجوز. هذه المرأة التي تأتين على ذكرها جانيت - نيكول ليست امرأة سيئة. ولا هي قبيحة. سأكتشف هذه الأمور حين آتي إلى باريس. إن كان الموقف كما تقولين فلن أطيل عليكم."

قطع الحاجب "أسّين" الذي دخل الآن أفكار الكونت:

- جاء الشرطي أورخان.

- أي شرطي؟ - لم يستوعب شارل دو فيريول في البداية. ولكنه استفاق بسرعة. - هل تقصد أورخان؟ وماذا يريد؟ ليدخل! - مثل أمامه أورخان بزي الشرطة الكامل، وعلى رأسه طربوش، والسيف والعصا معلقان بزناره، وأطراف البنطال مضمومة في الحذاء. ومع أنه يراه وحيداً فقد سأله: أنت وحدك؟ - ولما كان يعرف الجواب فقد أصلح كلامه: - نعم، نعم، الله معك. تفضل، اجلس! أراك بهذا الزي لأول مرة، مناسب تماماً لك.

- شكراً أنا مستعجل.

- ما الأمر؟ أحدث مكروه جعلك تأتي إليّ؟ - سأله وأكّد عليه: - ليس من عاداتنا، لا أن نسمح بدخول من يرتدي زي الشرطة فحسب، بل إلى أرض فرنسا كلها.

- فهمت الأمر من اعتراض حارسكم.

- إن كنت فهمت فلا تكرر. - قال الموفد الفرنسي بصوت أحزم، وأضاف باختصار: - أسمعك.

- ألقينا القبض على عصام.

- أين هو؟ - تماسك شارل دو فيريول ولو أن الخبر جعل رأسه ينتفض. -
حسنٌ أنكم اعتقلتموه، ولكن ما شأني أنا بالأمر؟

- ألا يكون لك علاقة إذا كان عصام هو من سرق أيسيه؟ - لمعت عينا
أورخان الفاحمتان.

- ليست شارلوت - إليزابيت أيسيه وحدها المتضررة منه، لفخري أيضاً دَيْنٌ
عليه!

- لأن لكليكما ديناً عليه أرسلني فخري إليك. - لم يتوقف أورخان المستغرب
برادة شارل دو فيريول. - ينتظرك فخري في سفينة سليمان لأننا ألقينا القبض
عليه فيها.

سرت ضحكة باردة على شفتي السفير الفرنسي.

- إن كنتم تظنون أنني أقيم في تركيا ولا شاغل عندي إلا عصام فالذنب ذنبي
مهما حصل لي. بلّغ فخري أنه إذا كان اشترى عصام من سليمان فليعمل به
مايشاء. هذا أولاً، والأمر الثاني: افهموا أنتم الثلاثة: فخري وأنت وسليمان أن
لا شأن لي بما يحدث داخل تركيا. أنا سفير فرنسا وموفد ملكها، لا تورطوني في
ما لا شأن لي فيه؛ أفهمت؟

- فهمت.

- لا، لم تفهم. - أجابه شارل دو فيريول متأثراً بغضبه.

- فهمت! - كرر أورخان ماقاله ولكن بصوت أهدأ.

- إن كنتَ فهمت فالأمر انتهى هنا. - نخض الكونت وقد ارتفع صوته - لم
نتكلم في هذا الموضوع اليوم؛ بل لم أرك ولم تري.

قال شارل دو فيريول في نفسه، وهو يشيع أورخان "هؤلاء الأتراك لا يجوز أن
نُطمعهم فيك، إن ابتسمت في وجهه اعتلى رأسك... ومع أنني أكّدت لفخري

ألا يقابل أيّسبه في سفرته إلى فرنسا فقد زحف إلى سان - كول، ولم يكتفِ بأن خرب أموري مع الصبية ومع جانيت - نيكول بل يرسل إليّ هذا الشرطي النمام ليبشّرني أنه ألقى القبض على عصام. يريدني أن أشهد على ثأره. ستتظنني طويلاً! وما عليّ فعله في باريس يتعلّق بإمكانيتي في حلّه. الله يعلم ماذا خطر لجانيت - نيكول. وكلودين - ألكسندرين التي لفظها دوبوا الفتان ليست بريئة. تنتظرن بفارغ الصبر، تريد مقابلي. وماذا ينوي أولئك الثلاثة أن يفعلوه بعصام؟ ما أحسن أن تتجسس عليهم دون أن يعرفوك! ولماذا هم ثلاثة؟ لا شك أن سليمان سيتركهم حالماً يقبض أجرته. ربما فخري من له دين عليه. سنراقب ما يجري" - ضحك شارل دو فيريول في سرّه وعاد بقلبه إلى باريس.

الميناء خاوٍ، ربما لاقترب صلاة العشاء. وحين قفز أورخان من العربة واتجه إلى سفينة سليمان كان قمر الصيف المستدير يصعد إلى قمة الجبل. يصلي فخري العشاء في حين يرقد عصام على أرض الغرفة مكبلاً مكمم الفم. ودون أن يعبأ أورخان بالجرم الذي يريد أن يقول شيئاً، يتوضّأ ويقف إلى يسار فخري.

وبعدما انتهيا من الصلاة تباعاً، سأل فخري:

- أراك وحيداً، لماذا؟

- ذهبت إلى حيث أرسلتني ومعني الله وحده، وعدت كذلك مع الله. وحيث كنت - لم يذكر اسم الشخص كما كانا اتفقا - قال لي: اعملوا به ما تشاؤون، أوافقكم على ما تفعلون به. أين سليمان؟
- انتهت علاقتنا به.

- وهذا حقٌّ! ولكن ماذا يريد هذا الذي يخبط رأسه بالأرض.

- اسحب الخرقة من فمه ودعه يقول ما يريد.
- إن كنتم مسلمين - توسّل عصام - دعوني أصلي العشاء!
- نحن مسلمون ولكن لا نعرف دينك. - ضحك أورخان وهو يعيد تكميّمه.
- ماذا سنفعل به؟ قل وأنا حاضر من هذه اللحظة.
- هذا يستحق أي عقاب، ولكن لا أريد أن أذنب بحق أطفاله.
- __ هل رزق الله هذا المعدم الرحمة كل هؤلاء الأطفال؟
- أعطاه كي يفكر في سلوكه ويعود عن غيّه ولكنه يعيش دون أي معروف، يغلب عليه الظلم. - وحين انتصبت أمام فخري صورة زوجته الحامل، خَفَتْ صوته، ونظر في وجه أورخان وهو يكاد يتوسل إليه: - قل ماذا نفعل به!
- افعلْ به ما فعل بك! - اختصر أورخان الموضوع.
- لا، لا. أنا عدت إلى سابق حالي فلا نفعلْ به هذا يا أورخان! - وأنت في مستقبل العمر. أمامك عمر كامل. - حلّ فخري رجلي عصام المقيدتين. وحرر يديه وفمه.
- أتعيد الحرية إلى من دفعت لأجله كل هذه النقود؟ نهض أورخان غاضباً.
- نعم يا أخي الصغير. ليس من أجله بل من أجل أطفاله. قُمْ، قُمْ أيها اللعبة! وإذا سمعنا أنك آذيت غيرنا فاعرف أننا سنسلبك روحك لا يردعنا شيء!
- حين صار الثلاثة قرب الميناء وأطلقوا عصام شبه الأحذب الآن لم يتمالك أورخان أن يصيح وراءه:
- قف لحظة! - توسل عصام وكأنه غير ذلك الذي كانت الأرض لا تسعه من تيهه: - سامحني... - كنت أحمي نفسي فحسبُ.

- أنا لا أسامح أحداً كما فعل فخري؛ انظر أهو أمر حسن؟ - غرز أورخان طرف السيف في ساعد عصام. وصاح في إثر الرجل الهارب متألماً: - هذا ثأري الأول. والثأر الآخر سيأتي إن لم تكفّ عن جرائمك.

وقف فخري لأياً لا يعرف تفسيراً لما يرى ويسمع، ثم لام أورخان:

- ما كان يجدر بك أن تفعل هذا. أحبطت معروفنا أمام الله.

- نعم، لا أعرف ماذا تأمل ممن لا يستحق فعل الخير؟ تقضي عمرك تفعل الخير. وبهذه الحجة جعلتني أغفر لمن كانوا يريدون إلقائي في البحر. وسليمان المجرم جعلتنا نتصالح معه ثم أحسنّا إليه اليوم بمبلغ كبير. أزداد معك ما كسبته بعرق جبينك؟

- لا، لم يزد، ولكن لا تكن ظالماً يا أورخان! - نصح فخري، وهو يستغرب عتاب الثأر الذي يسمعه من الشرطي الشاب: - هذا سيضرّك. لا ننسَ زمان كنا عبيدين مملوكين! "من لا يفعل الخير لا يجد الخير بانتظاره". - "ما أقسى قلوب هؤلاء الشباب، وما أكرههم لفعل الخير!"

لم يكن أورخان قادراً على الإجابة على مواعظ فخري لأنه كان غارقاً في أفكاره.

II

هناك من يصعب عليه السفر، غير أن من يستسهلونه ليسوا قلائل. وشارل دو فيريول يستوي عنده الأمران: يصعب عليه القيام؛ غير أنه متى قام صُعب إيقافه.

هذه المرة لم يكن عند السفير الفرنسي مفر من ركوب طريق باريس، ولم يبق في المسألة خيار. وسبب الاستعجال هو رسالة كلودين - ألكسندرين المفاجئة. ولم يسبق لها أن كتبت إليه في مثل هذا الشأن رغم أنه يقيم في تركيا منذ سنوات.

ورغم أن الكونت لم يكن يود تناسي المغامرات النسائية فإن عليه الآن أن يفكر في الأمر الذي يقطع لأجله هذا الطريق الطويل. وأمامه أسبوعان يرتب خلاهما قضائاه.

طريق البحر مريح في الصيف. والسفينة تتقدم، ولا أحد يعترض طريقه هو. ورسالة "شوق" كلودين - ألكسندرين أهي مجرد رسالة حب أم أن تحتها أموراً أخرى؟ هذا الموضوع يمكن تفسيره من خلال ثلاثة افتراضات: الأول: قضية أسرية بينها وبين عائشة، والثاني: مغامرات كلودين التي لا نهاية لها، والثالث، ويعده شارل دو فيريول أهمها: منصب الوزير الأول لفرنسا، ولطريقة ممارسة دو كوندي بوربون معنى كبير. فإن حاول تغيير المناصب دخلت البلاد في أزمة خطيرة.

إذا دقت التفكير في رسالة كلودين - ألكسندرين فليست إمكانيات تفسيرها ثلاثة افتراضات فقط، بل أربعة - "كيف نسيّت موضوع جانيت - نيكول وبيري؟! عاتب شارل دو فيريول نفسه: - يبدو أن جانيت لا تروق لكلودين. ولذا تريد أن تُفحمني بينهما فتحمي أخاها الأكبر من المرأة المسؤولة عن شؤون

الدير. ألهذا يا ترى "تنتظري"، تريد أن ترائي... يا للنساء! لا أحد يعرفهن كما أعرف. ولكن إن أردت الحق فلا أعرف عنهن الكثير. لأصلُ إلى باريس أولاً، وسأجعلهن متى تقع عينا إحداهن على غيرها، ترتجف سوقهنّ. وكنتنا ماري - أنجيليك ألها النظرة نفسها إلى جانيت - نيكول؟ هذه هي المشكلة: الجميلة تجد دائماً من يمزق طرف ثوبها. ولهذا يقولون: "الغيرة تغلق العين". وللتذكّر قول مأثور آخر "بيت لا ققط فيه تلعب فيه الفئران". وربما لهذا تحدث أمور عجيبة في بيت فيريول الخالي من الرجال".

لم يملك شارل دو فيريول إلا أن يتوقف في المدينة الصغيرة "ميلين" رغم استعجاله الوصول إلى باريس. كانت الغرفة والمائدة معدتين في الفندق. وكان قد اغتسل حين وعدوه باستدعاء مادلين. ولكن حين سمع من النادل المأساة التي حلّت بها صرخ وقد امتّقع لونه:

- ليست من نوع النساء التي يمكن أن تفعل هذا!
- ما أحكيه لك أيها الكونت هو ما رأيته، ما أعرفه.
- ومتى حدث هذا؟
- العام الماضي.
- وكم سنة حكموا عليها؟
- ثلاث.
- وأين سجنها؟ يذرع شارل دو فيريول أرض الغرفة التي لم تعد تسعّه.
- سجن "ميلين"
- من قلت لي إنها كسرت ضلعه؟
- رجل عربي من الجزائر.
- ما فعلته به قليل!... اذهب ومُرهم بتحضير العربة!

لم يجهد شارل دو فيريول في العثور على السجن النسائي حيث تُحتجز مادلين. وحين وصفت لمديرة السجن ذات الوجه المستدير الكبير أوصاف السجينة تعجبت:

- مضت عليّ سنوات في خدمة السجن ولأول مرة يأتيني رجل مهم مثلك. ثم ما قرابتك للمرأة التي تسأل عنها؟... أمن قريباتك أم صديقة؟
- يمكن أن تكون من أهلي ويمكن أن تكون صديقة كذلك. لم يبحث الكونت عن الكلمات التي يريدّها، ورجا المسؤولة: - يسرني لو سمحت لي بمقابلة مادلين والتحدث إليها. من أرجوك من أجلها، صدّقي، ليست امرأة سيئة. ولا تنظني أيّ أهين نفسي بما أقول وما أفعل.

- لماذا أراك يمثل هذه العين إن كنت تتصرف من قلبك وإنسانيتك؟ - وافقت المسؤولة الكونت وامتدحته: - إن أردت الحق غيّرت نظرتي إليك. وأنا رأيي في مادلين كرايك. ولكن مهما كانت فالجميع في اعتبارنا هن سجينات. سأقابلك بها لأنك أتيت بنية صافية. - اكتسبت عينا المرأة الباردتان حرارة، وأضافت وهي تتغنج للكونت: - ولكن لا تأمل مني أن أترككما وحدكما. ليس الأمر بيدي.

- ما كنت لأرفض لو حققت لي ما تقولين يا مدام - ابتسم الكونت - لا تقلقي، لم آت إلى هنا لمثل هذا الذي في ذهنك. بل من أجل أن أفيد مادلين، أسعى لإطلاق سراحها.

- حسناً، حسناً. - لمعت عينا المرأة الطافحة الوجه - هكذا يجب أن يكون الرجل، لايس القبعة. أعجيب أن تُكسر ضلع الرجل المغتلم. المرأة لا تعتدي على أحد إلا عند الضرورة... الآن حالاً سأستدعيها لك.

فزعت المرأة التي استُدعيت لمراى شارل دو فيريول:

- هذا أنت أيها الكونت!

- أنا، يا مادلين، أنا - حين استقبال شارل دو فيريول مادلين هجمت دون حياء من ملابسها الرثة وعانقته.

- أي مصيبة حدثت لك يا مادلين؟.. اليوم فقط علمت بما جرى. لا تيأسي، إن بقي هناك أثر عدالة فسأبحث لك عنه، سأحاول أن يطلقوا سراحك.

- قولاً ما تشاءان، ولا تتحفظا لوجودي - قالت المسؤولة ذات الكتفين العريضتين مديرة ظهرها. - هذه القادمة إليكما مراقبة سجون، امرأة يمكن الوثوق بها.

- شكراً يا مدام. - ثمن شارل دو فيريول صنيع المسؤولة. - لن آلو جهداً لإطلاق سراح هذه المرأة. وأنتِ اعتني بها، لا تدعيها لليأس.

لم يستطع شارل دو فيريول متابعة الطريق لأنه خرج من الزيارة منهك القلب والجسد.

نعس شارل دو فيريول على الكرسي دون أن يمد يده إلى المائدة، ودون أن ينام على السرير، غير عابئ بالنادل الذي تلصص عبر الباب بضع مرات. كان كأنه يحلم ولا يحلم. يرقص مع امرأة تنتزع نفسها منه أحياناً فترقص مع رجل ذي قرنين. تشير إليه ألا يبقى في الساحة، وحين يقترب منها تختفي، فيبدأ يرقص مع ذلك الرجل.

حين يصحو الكونت من الحلم وكأن أحداً دفعه يتأمل الغرفة ناسياً مكانه، ويتساءل: "أي حلم كنت فيه؟ من تلك المرأة؟ أهى جانيت - نيكول أم كلودين - ألكسندرين؟ لا، ليست هذه ولا تلك. أتكون هي مادلين؟ لماذا عيناها تشبهان عيني أيسيه؟ وتشابهاً في جذعيهما النحيلين. لم أر شارلوت - إليزابيت أيسيه منذ وقت طويل فكيف أشبه عينيها وقوامها بها؟ والرجل ذو

القرنين الذي كنت أرقص معه؟ أيشبه فخري، أم بيير، أم أورخان. لماذا أسأل عن هذا الدَّعي؟ لا أعرف ماذا يجري لي. أنا في حالة غير عادية..." - نهض شارل دو فيريول بخفة. أسرع إلى المائدة، وصبّ لنفسه كأساً ونظر باتجاه الباب، أنصت، وراقب، لا صوت في المدى المسموع! والغرفة في غاية الهدوء. وإحدى الشموع الثلاث على الطاولة انطفأت، والثانية شبه عمياء.

- أيها النادل! نادى الكونت.

- أسمعك يا كونت. - وقف الخادم الذي أسرع من وراء الباب شبه أحذب.

- أين كنت إلى الآن؛ لماذا تتركني في الغرفة وحيداً؟

- لا يا كونت، أطلت عليك خلال غفوتك أكثر من مرة، لم أشأ إزعاجك.

- كان الأفضل أن توقظني من أن تنهشني الأحلام المزعجة. - تظاهر بلوم

النادل، ثم امتدح نفسه بالحلم الذي لم يكن يجد تأويلاً له - يا رجل، علقت

بي امرأة حسناء لذيذة في المنام، فانتزعت نفسي منها بعناء. غير أنني لا أعرف

تأويل الحلم.

- أكانت عارية؟

- لا، لاشيء من هذا.

- هكذا لا مشكلة. يقولون إذا كانت عارية فهذا فأل نحس.

فيما كان شارل دو فيريول يكلم النادل الذي يعرفه منذ زمن طويل كانت صورة

مادلين في عينيه. والعجيب أنه كان يشعر إلى الآن بدفء عناقها. ولم يكن

ينسى شعرها ويديها الناعمتين. "أتسببوا في مصيبة للمرأة الكاملة، أم هي من

سببت الدمار لنفسها؟ لا أعرف، لا أعرف، كيف سأجيب على هذا؟ لا

يمكن أن تفسر وتحلل ما لم تختبر بنفسك. في قول المشرفة "المرأة لا تعتدي على

أحد إلا عند الضرورة" كثير من الصدق. نعم، لسنا نحن الرجال بريئين من وقوع المرأة في الخطأ"

- أيها النادل، لنشرب شيئاً من النبيذ!

- لا اعتراض لدي أيها الكونت، غير أن هناك امرأة لذيذة تنادمك أحسن مني.

- لا، لا. - حسم شارل دو فيريول الأمر. وسأل بعدما شرب: - من تلك المرأة؛ أهي من معارفي؟

- إن كنت تتذكر يا كونت هي تلك التي جئتك بها بعد مادلين.

- أتتذكر هذا إلى الآن؟ - سأل الكونت بلهجة تتم عن عدم الرضا. ثم أصلح الموقف مازحاً: - جرى لنا مثل هذا في وقت مضى. أحياناً تستعصي بنديقية الصياد. إن كانت تلك المرأة الصغيرة الحلوة فهاتها. ولكن لا تظن أنني إذا ذهبت أصطاد الآن فستستعصي بنديقتي أيضاً!

- لم أنظر إليك هذه النظرة قطُ أيها الكونت. ليت كل الذين يقضون ليلتهم هنا - وخفض صوته - بمن فيهم ملكنا، كانوا مثلك - وانسل الخادم من الغرفة على رؤوس أصابعه وهو يمدح الكونت ويبرئ نفسه.

جلست في حضنه المرأة العبلّة دون سُمنة ولا نحافة، بثوبها الحريري الأبيض القصير جداً الذي يكشف عن صدرها، ويشفّ عن سروالها الداخلي وسُرّتها، وكأنّها تنتظره منذ أمد طويل وفي منتهى الشوق إليه. وهمست في أذنه وهي تعانقه:

- ما أكثر ما شوّقتنا إليك يا كونت!

- مهلاً، مهلاً يا حلوتي الصغيرة، - قال شارل دو فيريول ببرود للمرأة المتعلقة بعنقه وهو يحاول التملص منها - اذهبي واجلسي على مقعدك!

- يا كونت، أما عرفتني؟... "ما أقصر ذاكرتك" قالت له وهي تنظر في وجهه وتلومه، ولم تكتم ما تعرف عنه دون أن تُظهره ولو أنها حاقدة عليه: أنا من عالجتك مرة.

- أتذكرك يا غابرييل، أتذكرك.. - قال شارل دو فيريول ضاحكاً وأجاب بما يريده: - ولكن لا تتعاملني معي بأن تغريني بما لا تريدينه. في هذه العلاقة يجب أن يشبع أحدهما من الآخر دون أن تتخللها حالة تنفيس واحدة عن الرغبة. لذلك لنتناسَ أنا وأنت ما سيكون بيننا ولنتكلم في ما يقلقنا. ولا تنظري إليّ هذه النظرة يا غابرييل. ولا تتخيلي أنني لا أريدك.

- حسنٌ إن كنت ترى نفسك هكذا - جلست غابرييل حيث أشار لها وضحة ساخرة تسري على شففتيها الرقيقتين اللمباوين. صبّ لي من النبيذ، وإذا كان عندك ما تقوله فأنا أسمعك. ولكن لا شيء يشغل بالي أنا. - ازرقّت عينا غابرييل الدافقتان.

- أتريدين أن تقولي إنك جئتني رغبة في الشهوة أو طلبتك أنا - ولم يكن الكونت بحاجة للبحث عن كلمات السؤال.

- لا أجهل يا كونت لماذا لا يستجيب قلبك لي هذا المساء... - قالت غابرييل الآن بصوت لطيف، ثم اختتمت بكلام لا يفهم منه أنتصح نفسها أم تنصح الكونت: - الحياة ملأى بالمفاجآت. ولست جاهلاً بالأمر. وكلّ يصطدم بما كتب على جبينه كما مادلين. ولكن إن كان موضوع مادلين هو ما يُحزنك فقد حدث ما حدث وانتهى. لا يمكن أن تغير فيه شيئاً.

- ولماذا لا أستطيع؟ أيتخلون عن كل من يدخل السجن؟ ألا يمكن أن تزوريها وتساعدوها ولو مرة!

- لأن مادلين خدمتني فعلياً أن أخدمها أيضاً.

— وهل خدمتك مادلين - فرح شارل دو فيريول لما سمع.

- أكيد خدمتني. أكنت طلبتني إلى هنا لولا أنها في السجن؟! - قالت غابرييل فجأة بصوت يخلو من أي شفقة للرجل الوسيم الجالس مقابلها وكأنهما لا يتحدثان في موضوع يدعو للأسى. - خير من الكلام في هذا الموضوع أن تدعني أمتعك أيها الكونت. أم تحتاج قبل هذا إلى دوائي كما في السابق؟ احمرّ شارل دو فيريول، ونظر وهو يضبط أعصابه بمشقة في عيني غابرييل المحرومة من أي حياء أو عيب، ثم لامها وقد أشفق عليها قليلاً، يريد أن تعود إلى نفسها:

- لا أتذكرك الفتاة التي أعجبت بها مرة.

- ليس في هذا ما يدعو للعجب. - ضحكت غابرييل محاولة إغراءه بالفخذين العاريتين المتينتين - السنة تتغير أربع مرات. والنهار مكوّن من الصباح والظهيرة والمساء، تختار من تعجبك.

- وأنت في مهنتك لست ممن يقال فيها مثلاً هذا.

- نعم لا أشبههن، وبما أنك ممن جعلوني هكذا - ضحكت غابرييل والإهانة النسائية تغلبها. ولم تنس ما أتت لأجله: - أسنجلس هكذا نتبادل النظرات والملاحظات؟ أنفوّت ليلتنا بلا فائدة؟

- لماذا بلا فائدة؟ - وضع الكونت أمام المرأة ما يدفع عادة.

- أنا لا آخذ ما لم أكسبه بعملتي. - وخرجت من الغرفة ضاحكة مخفية بضحكتها ما لحق بها من إهانة مفاجئة. ولكنها في اللحظة نفسها أطلقت برأسها من خلال الباب بغضب غلى متأخراً، وقالت:- إن دفعت غداً لمادلين هذا المبلغ الذي لم تدعني أكسبه بتعبي سجله الله ثواباً لك.

- مع السلامة يا غابري، مع السلامة. - قال لها شارل دو فيريول معتبراً ما سمعه مضحكة، ورافعاً لها الكأس - أرفع هذه الكأس نخب صحتك!

مهما افترق الكونت وغابرييل على غير وفاق فقد كان كلاهما مثقلاً بما يشغل باله ليحرمه النوم. كان شارل دو فيريول انتهى من اتصالاته لأجل قضية مادلين. ولم يكن عنده أدنى تردد أو تراجع في هذا الشأن. بل زاد إصراره بسبب ما رأى أمس في السجن، وما سمع ممن جالسته فجأة في المساء على الطاولة. ولكن لم يكن يستطيع أن يميز العدل والظلم في هذه القضية، ربما لأنه كان في صلبها. "لا أعرف إن كنت بالغت في الصراحة مع غابرييل؛ لا شيء تتورع المرأة الغاضبة عن قوله لك أو فعله بك. فجرت غابرييل كجمرة ملتهبة وكأناها غير المرأة التي عرفتها من زمان. لا تقل لي إذن إن دواء الرجل هو المرأة. يتذرعن بهذا حتى إذا لم ننفذ لهن ما يردن شجنن تصرفنا. لا تتصرف مادلين المسكينة بهذه الطريقة. أقول هذا غير أن تلك العنيدة الجريئة الصغيرة لو استطاعت لما توقفت عند كسر ضلعي بل كسرت ما يقع تحت يدها. نحن الطرفين رجالاً ونساءً مدينون: نتاجر بأجسادنا. خير لنا أن نحافظ على أنفسنا من أن نصنف الناس إلى متهم وبريء. كان الأفضل من كل هذا أن نكتفي بما عندنا ولا نطمع في ما ليس لنا. ولكن ما العمل؛ الدنيا كلها قائمة على الرغبات" - وبين اتهام الذات وتبرئتها غرق الكونت فجأة في النوم.

وغابرييل؟ كانت هي الأخرى تتقلب في الفراش، لا تتقبل ما جرى لها، تنثر الاتهامات والشتائم. "عشيقتي الجميل الغني نسي كيف أعنته على استرجاع فحولته، يقول لي "لا تحاولي أن تفرضي عليّ شراءك" والحال أن هذا الدعيّ عبد شهوته كان جالساً أمامي يأكل نفسه رغبة. يضع أمامي سائراً المال الذي لم أكسبه بمجهدي... لا تعرف أيها الأهل أني أكسب في الليلة ثلاثة

أضعاف ما قدمت لي. إن كنت لا تعرف ماذا تصنع بهذا المال فسأقول لك أين تذهب به. لُقِّه وأولِّه في مؤخرتك!.. من يدري قد تطرق بابي يوماً ميمتاً من الجوع. وإن حدث هذا فسأجعلك تقضي عمرك ناسياً لماذا سجنوا مادلين أيها الثرثار مدّاح نفسه! لا تظن نفسك الوحيد الذي يفعل الخير؛ فنحن أيضاً لسنا محرومين من الشفقة... "غلب النوم غابرييل وداخلها يغلي وتفكر في الخير الذي ستفعله.

أفاقت غابرييل في الصباح وهي تفكر في زيارتها إلى مادلين، قائلة في نفسها: وهذه التي سأزورها ليست تلك المرأة العظيمة. حين بدأت عملي، وحتى سَجَنِها، سببت لي كثيراً من المتاعب. واختارت شيئاً من بين ملابسها الداخلية الجديدة، وأضافت بعض الحلوى، وتوجهت إلى السجن، متباهية لا ترى في نفسها ما يشين، تناكد الكونت الذي أهاها أمس. وحين رأت غابرييل السجن المطبق على نزلته تصعب جبينها، وقد نسيت حر النهار، عرقاً بارداً. ووقفت قليلاً إلى جانب الباب الأصفر الوسخ، ثم قرعته وقلبها ينتفض.

نظر رجل عابس من الشباك الذي انفتح في البوابة الكبيرة، وابتسم لها: - هذه أنت أيتها الحلوة الصغيرة! أضللت طريقك أم جاء بك الله إليّ؟ - دعني في حالي أيها القبيح! أحتاج إلى مقابلة المسؤولة السيدة كاترين. - ابتسمت للحارس كما تفعل مع من يلبس قبعة، ولو أنها بادرت به بالجفاء. - إن كان بإمكانك ساعدني على مقابلتها، لا تدري قد تحتاج أنت أيضاً إليّ يوماً ما.

- نعم، أنتِ تحتاجين إلى أمثالي!

- مهلاً! لا تبخع نفسك حقها يا جميل! - ابتسمت غابرييل مرة أخرى في وجه الحارس، وبترت غمغمته. - النقود لا تميز بين الناس. لا تنس أنها دون رائحة. أفهمت عليّ يا نور عيني؟ ولذا افتح الباب ودعني أدخل!

- كنت سمحت لك بكل سرور يا حلوتي لو كان هنا مدخل. - بشّ الآن في وجه غابرييل، وأضاف: - لو كان الأمر بيدي لفتحت باباً هنا من أجلك... ولكني أقول لك ما أستطيع: ستجدين السيدة كاترين في المدخل الثاني. وهي امرأة شفوق، ستتجاوب معك. ولكن لا تخبريها أنك قابلتني! أنت تعرفين طبائعكن أيتها النساء... - قال في أثرها - أخبريني سواءً أفلحت في مسعاك أم لم تفلحي. لن أضرّك إن لم أنفعك.

حين رأت غابرييل السيدة كاترين قالت في نفسها "ما أشبهها بذلك الحارس الجهم!". ولم تملك المرأة التي تزن ضعفي غابرييل إلا أن تسألها مع أنها وعدتها بتلبية طلبها:

- إن كانت علاقتكما هكذا فسأسمح بلقائكما ولو لم أكن أملك هذا الحق: وأنت، والكونت الذي سأل عنها، أين كنتما طوال هذه السنوات؟ أفهم، لا أظن أنك والكونت الشخصية المهمة، لا يجهل أحكما الآخر.

- نعم يا سيدة كاترين. - وافقت غابرييل متلهفة محدّثتها - الكونت من الناس الذين يفون بكلامهم. لست مخطئة. ولكن لولا حرصنا على مادلين ماجننا هو وأنا إلى هنا.

ما إن فتحت مادلين الباب ورأت ما رأت حتى صاحت بلا وعي:

- ماذا تريدان أيتها المومس! لا تُريني وجهكِ! - ثم توسلت إلى مسؤولة السجن بتحفظ: - هذه من تسببت في مصيبتى. أعيدني إلى مكاني قبل أن

أرتكب جريمة! - هذه لا غيرها مصيبة كل الرجال. - عَقَّبْتِ مادلين التي كانوا
يعيدونها إلى سجنها.

III

كل يوم تنمو باريس. تتسع طولاً وعرضاً. والشوارع تستقيم. وتزداد الساحات والحدائق. والأشجار التي تنافسها الأبنية علواً تتشامخ. وتسرع في الاتجاهين العربات ذات الحصانين أو الأربعة، المزدانة بالزخارف. ويظهر من العربات الرجال بقبعاتهم الأسطوانية المنتصبة، والنساء بقبعاتهن الرقيقة وأوشحتهن الحريرية.

والزهور والأشجار المثمرة والخضار، وعربات النقل، وترى في كل مكان العربات الصغيرة التي تنقل الأحذية، والباعة والشارين والمسنين الذين يستريحون في الأفياء والأطفال.

الحياة التي وصفتها له كلودين - ألكسندرين، والتي يُحرم منها شارل دو فيريول، تغلي في باريس دون توقف. أتكون الحياة في باريس نشيطة إلى هذا الحد؟ ستفهم حين تدرك وقّعها على العين والقلب. والكونت يبقى إنساناً حتى لو كان يعيش وعنده كل شيء، وما ليس عنده لا عناء في الحصول عليه. وليس جاهلاً أن من يغني ييكي. وأعلى القمصان يتمزق، وأعلى القبعات يسقط. ونمط الحياة يشبه العالم الذي ينبثق منه: شمس مشرقة حيناً ومطر حيناً. وليت الإنسان يعرف متى سترعد وتبرق!

يلتفت شارل دو فيريول بقلبه إلى الأماكن التي مرّ بها في عربته الوثيرة: ميلين وفيرساي وتريانون وغيرها: "في قصر فيرساي يعيش ملكنا الشمس المشرقة، ويحكم منه. وفي "حديقة الغزلان" يشغل مطحنه. وميلين مدينة حلوة صغيرة تأسر القلب، غير أن سجن مادلين المسكينة يقع فيها. و كان ممكناً أن آتي إلى هنا لأجل مادلين وحدها، بغض النظر عن شارلوت - إليزابيت وجانيت- نيكول. ولهذا يقول الحكماء إن الحياة مركبة من الخير والشر. وها هو نهر

السين يفعل الخير بمائه. - قال في نفسه راضياً حين اعتلى الجسر الذي يفصله عن سان- نيف - أوغستين. - يحمل على ظهره المراكب ذات المجاذيف، والسفن. يعمل لصالح الفقراء والأغنياء. ولكن حين يفيض يحمل الضرر للجميع دون تمييز..."

اليوم هو يوم الأحد. ولهذا تتوهج الحياة المتنافرة في باريس: هذا يضحك والآخر حزين. وهذا يوم عرسه والآخر عنده مأتم. وتسبق عرباتٌ أشد فخامة عربة الكونت المزيّنة. وهو يسبق بدوره العربات التي يجرها الحمالون أو الثيران. ويترك المشاة وراءه.

تشمخ في سماء باريس كاتدرائية نوتردام، وسان - كول، وفندق سيولي والبنائات المفرطة في ارتفاعها. وهواء المدينة نظيف عذبٌ. واللغة الفرنسية تشنّف الأذان. وما يراه الكونت شارل دو فيريول وما يسمعه يشرح القلب، ويجفز صاحبه على الصراخ: "باريس، هيه يا باريس!" محبوبك يا باريس لا يسعهم إلا أن يهتفوا باسمك. - وبعد قليل برأ نفسه نحو المدينة الواقعة في الشرق، والتي لم يملك إلا أن يحبها عدة سنوات: اغفري لي يا إستانبول - القسطنطينية، وأنت أيضاً من أهلي..."

حين وصلت العربة إلى شارع سان- نيف - أوغستين، وظهر قصر آل فيريول الأبيض الكبير، لان قلب شارل دو فيريول حتى كاد يذوب. وفي اللحظة نفسها خطرت له شارلوت - إليزابيت أيسيه: "اليوم هو الأحد؛ أيمكن أن تكون في القصر؟"

جفلت عائشة من صوت العربة التي توقفت عند البوابة الكبيرة. وتوقفت عن قراءة قصيدة فرنسوا ماري فولتير. وتابعت كلودين - ألكسندرين وبون دو فيل بأعينهما عائشة التي كانت تحثّ الخطأ إلى الباب. وقفز أرجنتال الذي كان

يُحرم دائماً من شيء ما، وتبعهما. أما من كان جالساً بلا مبالاة فهو شارل لويس دو سكوندا مونتسكيو. وينظر فولتير والورقة التي كان يقرأ منها الشعر نحو الجهة التي يركضون إليها. تعرفت كلودين - ألكسندرين العربة التي فتحوا لها البوابة:

- هذه عربة الكونت شارل دو فيريول.

وعلى صدر شارل دو فيريول الذي لم ينزل من العربة بل قفز منها ارتمت شارلوت - إليزابيت أيسيه. وتعلق الصبيّان كلٌّ من جانبٍ بعمهما.

- أيسيه، شارلوت - إليزابيت، هذه أنتِ؟ كم كبرتِ! - يمسح الكونت شعر الصبية التي التصقت ب صدره - لا تبكي يا ابنتي، لا تبكي! نعم، اشتقتِ إليّ، وأنا أيضاً... لن تطول إقامتي في تركيا، سنة على الأكثر. لا تبكي يا ابنتي، لا تبكي!

- بون - استعجل أرجنتال وهو رافع بصره نحو عمه ونحو عائشة - ألا تطلبُ من أيسيه ألا تبكي!

ابتسمت عائشة ودموعها ما تزال في عينيها في وجه أرجنتال الذي كبر خلال هذا العام على نحو ملحوظ:

- جان، يا أخي الصغير، لا تقلق. لا أبكي، هذه دموع فرح؛ أليس كذلك يا بابا؟ - وفيما عائشة تنادي الكونت دون أن تدري "بابا" سألتها، ثم قالت له دون انتظار الجواب: - تعال يا بابا أقدم لك أصدقائي. - وسارت به ممسكة ساعده بيديها: - هذا فرنسوا - ماري فولتير، وهذا شارل - لويس مونتسكيو. والاثنان يعملان في المعهد المقام باسم ليودوفينك الكبير حيث يدرّس بون دو فيل وأرجنتال. وكلودين - ألكسندرين تجمعنا عندنا كل شهر

مرتين. واليوم موعد اجتماعنا. نتناشد الأشعار، وتكلم على الكتب المهمة التي تعالج قضايا حياتية.

- وكلودين تقرأ لنا مما تكتب - لم يستطع أرجنتال إلا أن يساهم في الحديث.
- حسنٌ، حسنٌ. - قال شارل دو فيريول راضياً بما سمع. - أرى أن هذين اللذين قدمتهما إليّ صديقان حكيمان. اقرؤوا الكتب، وإذا كانت قلوبكم تحدثكم أن تنظموا الشعر فافعلوا. تعلّموا الحياة، وزيدوا في معارفكم. فرنسا محتاجة إلى أشخاص متعلمين مثقفين. - وانتهى بعد وقفة قصيرة بالتنافس القائم بين الفرنسيين والإنجليز: - لسنا أقل شأنًا من العرق الذي يتباهى طوال عمره علينا. ليس من عندنا ممن يمكننا أن نرفع رؤوسنا بهم ونفتخر أقلّ ممن عندهم. وأنت يا كلودين تؤلفين الكتب. والشباب يمتدحونك؛ لماذا لا تساهمين في الحديث؟ لم أعرف أن عندك مثل هذه الموهبة... ألا يسرّك أن أقطع كل هذه المسافة من تركيا؟ وقال لها على نحو غير مباشر حتى لا يفهم الحضور أنها أرسلت إليه.

- يا كونت، يا صهرنا العزيز - توهجت وجنتا كلودين - ألكسندرين- ابتسمت له وهي تقول في نفسها: "أكنت تريد أن أستقبلك كما هذه المرائية المتعلقة بساعدك؟" - أيمن ألا يرضينا قدومك؟ لم يخطر لي مثل هذا. كنا نتوقع حضورك. ولكن لم نعرف أنك ستصل اليوم. عندنا كثير مما نقوله لك غير أننا نطمع في أن تقول لنا أنت.

كان اليوم بكامله عيداً لدى آل فيريول. وظل الكبار والصغار إلى ما بعد الظهر على المائدة التي أعدت للكونت الغائب منذ أربع سنين. وأتوا على ذكر الكثيرين. كانت عائشة ملتصقة بالكونت في حين كان بون دو فيل وأرجنتال يبحثان من وقت لآخر عن ذريعة لترك المائدة. أما الآخرون فلم يكونوا

يستطيعون زحزحتهم مهما نادوهم. وكانت عائشة مهمومة بطعام الكونت تحرص على أن يبقى صحنه مترعاً، حتى كأس الشاي وما فيها من السكر. ولم تكن ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين تكشفان عن برمهما بهذا السلوك الذي لا يسرهما؛ بل إن الكونتيسة كانت تمدحها دون ذكر اسمها:

- هكذا إذن أيها الكونت، لأجل هذا كنت أتمنى - والله لم يعطنا - صبية. ما فائدة هذين الصبيين؟ لن يخدموك ولن يرجوك في شيء، ولن يرفقوا بك. ألا ترون ما أقل تهذيبيهما، يتركان المائدة ويعودان دون استئذان. - يا ماري - أنجيليك، يا روعي الوحيد - قالت عائشة لأول مرة للكونتيسة "روحي الوحيد" في حين رفعت كلودين - ألكسندرين التي سمعت النداء حاجبيها الرفيعين الجميلين استغراباً. - لا أسمح لك أن تصفي أخوي الصغيرين بهذه الأوصاف. إنهما رحيمان ويحبانك ويشتاقان إليك. وأرجنتال بالذات يساوي ليس فتاة واحدة، بل عدة فتيات.

- نعم، يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، هذا صحيح. - أكّدت الكونتيسة ماري - أنجيليك أمام الحضور، وأمام الكونت على نحو خاص، على الاسم الفرنسي لعائشة. - أنا راضية عن ولديّ ويحباني، ويشتاقان إليّ - وفي هذه اللحظة قطع أرجنتال الذي مد رأسه من الباب المفتوح كلام أمه - تعال يا ولدي إلى هنا، ولا تنظر من خلل الباب.

- لا أكلمك أنت يا أمي، بل أيسيه، يكفي الوقت الذي قضته معكم، تعالي اجلسي معنا.

- اسمعوا ماذا يقول! - قالت ماري - أنجيليك للكونت وهي تتظاهر بأن ماسمعتة لم يزعجها بل استغربته، مُسمعة عائشة ما تريد: - لهذا أقول ما أقول، هذان الولدان كأني لست من ولدتهما. هذان يا كونت لا يملان من شارلوت

— إليزابيت أيسيه حتى لو بقيت إلى جانبهما طوال النهار. اذهبي يا ابنتي معهما، لن يدعانا مرتاحين. لا تجعليهما يكرهاننا.

— لا، لا ياماري — أنجيليك ماما! لا أستطيع أن أفعل هذا في يوم قدوم بابا.
— قالت عائشة بوجه منشرح. ثم التصقت بكتفها بالكونت وكأها تقول:
انظروا؛ لست وحدي.

— نعم، صحيح. أفهم، اشتقت إلى أبيك طوال سنين — غيرت ماري —
أنجيليك فوراً ما لم يتحقق من رغبتها، ولكن اختتمت بحيث عبرت عما في قلبها بطريقة مواربة: — يجب أن تعودى هذا المساء إلى سان — كول، ولا تقبل جانيت — نيكول أن تتأخري ولو نصف ساعة. ستشتاق إليك كثيراً.

— يا ماري — أنجيليك، يا ماما — رفعت عائشة الآن صوتها، وربما تصرفت هكذا لاعتقادها أن كلامها حق — أليس موقف جانيت — نيكول من تأخرنا صحيحاً. ولو لم ننفذ، نحن وأنتم، ما يصرون عليه لخلا سلوكنا من الأدب، ولأسأنا إلى سمعة مدرستنا، ولن تمتدحنا ملكتنا.

— يسرني يا شارولوت — إليزابيت أيسيه، أن تحبي مدرستك بهذا الشكل، وتحرصي عليها — احتدت فرحة الكونت الممزوجة بالفخار لما سمعته من عائشة — هكذا يا ابنتي يجب أن تكوني إذا كنت فرنسية. وهكذا تثمينيها. وكل هذه المشاعر والواجبات تبدأ من من بيتك ومدرستك، ومن سمائك وأرضك، ومن ملكك ومن أهلك.

— أحب يا بابا معلّمى وعلى رأسهم جانيت — نيكول، لا أقول مثلكم تماماً، وكذلك زميلاتي. — وافقت عائشة من قلبها الكونت.

"أحبي معلميك وزميلاتك، وأخويك الصغيرين، وزملاءهما، انتهاء بصوفي — غمزت كلودين — ألكسندرين في قلبها من قناة عائشة التي تتدخل في كل

شؤونها، مرددة في نفسها كلامها بسخرية. - ولكن لا تسمعي بهذه الحجة لما تقوله المرائية جانيت - نيكول، ولا تتخدعي كلامها". ثم نظقت:

- حسنٌ، حسنٌ، هكذا يجب أن تكوني. يسرني أن تندجي في جوك، في زميلاتك وأخويك. - امتدحت عائشة ثم نحرّتها في قلبها: - "كان الأفضل أن تتركينا وتدعينا نكلم الكونت. إن فتحت هذا الموضوع فأنا أعرف ما أفعل بك" - الآن أنا منصرف - خرجت كلودين بقامتها الرشيقة من الغرفة، وقابلت صوفي وسألتها: - ألم يحنّ موعد عودة شارلوت - إليزابيت أيسيه يا صوفي؟

- لا يزال الوقت مبكراً يا كلودين - ألكسندرين - أجابت صوفي التي لم تنتبه إلى سبب سؤال الكونتيسة، وأردفتها بما يشغل بالها الآن: - ولكن على شارلوت - إليزابيت أيسيه أن تستحم، وتجهز نفسها. وهذا يحتاج إلى بعض الوقت، أم ستقيم بيننا بضعة أيام بمناسبة قدوم الكونت؟

- لا، لا نية لها - تحقق لكلودين - ألكسندرين ما خرجت لأجله - ثم إن جانيت - نيكول لن تقبل. ذكرى شارلوت - إليزابيت أيسيه بما أمامها من واجبات. رأت الكونت فنسيت كل شيء.

نفذت صوفي ما قيل لها في أقل من نصف ساعة:

- يا كونت، وأنت يا كونتيسة، أعذر لمقاطعتكما، حان موعد عودة شارلوت - إليزابيت أيسيه، يجب أن أجهّزها للعودة.

- يا صوفي نصف ساعة أخرى - توسلت عائشة.

استعجلت ماري - أنجيليك فرحة بما سمعت، مخفية مشاعرها:

- لا، لا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه؛ افعلي ما تقوله صوفي! لا وقت لديك، الشمس مالت للغروب.

- حسناً يا ماما إن كان رأيك هكذا - رضخت عائشة. وفيما هي تترك الغرفة التفتت وألحت على الجميع: - إذن سيوصلني بابا إلى سان - كول. البس أفخر ما لديك من لباس يا بابا!

تبادل الثلاثة الذين ظلوا في الغرفة النظرات، وتضاحكوا. وسبقت ماري - أنجيليك غيرها بنبرة المزاح:

- أسمعُ يا كونت كيف تتأمر عليك؟ لا تتركك قبل أن تنفذ لها ما تطلب. فيها الرحمة والظرافة. ولكنها عنيدة.

- أليست مثل أرجنتال إذن؟ - ضحك الكونت دون أن يعبأ بمقصود الكلام الذي يوجّه إليه - ليس سيئاً أن تحملهم على تحقيق ما تريد في وقته. لهذا يعجبني جان. يذكرني أحياناً بطفولتي.

- أنتما، أنت وأرجنتال فرنسيان - شاركت في الحديث كلودين - ألكسندرين التي يجري الحديث على هواها الآن - أما هي؟ - فلا تُنسيها جانيت - نيكول كونها شركسية...

- ألم تنفق على ألا نتكلم في هذا الموضوع؟! - احتدّ شارل دو فيريول.

- قلنا يا كونت ولكن - وافقت ماري - أنجيليك أختها - غير أنّ جانيت - نيكول تظل تردد على مسامع ابنتنا الصغيرة أنها شركسية، فتضيع هويتها. وأعجب ما في الأمر أن شارلوت - إليزابيت أيسيه تسمع لجانيت - نيكول، وتنفذ ما تطلبه ولا تسمع لكلودين. لا يا كونت، ليس في الموضوع غاية أخرى، أنا وكلودين وأنت، ألسنا كونتات؟ أقول لك هذا خوفاً على "فرنسيتنا". هذه الطويلة الساقين لا أعرف من أين تأتيها بالكتب التي تتحدث عن الشراكسة. والأخرى تسألنا في أي ناحية يعيش الشراكسة. من الضروري اتخاذ إجراء ما في هذا الموضوع وإلا خرجت الصبية من أيدينا.

- وهل أوغستين على دراية بهذا الموضوع؟

- أخوك الأصغر يا كونت لا يهتم إلا بعمله، حتى بتربية ابنه!

- ألم تجربوا أخاكما بيير غيرين دو تانسين الأسقف بما يشغل بالكما؟ - سأل شارل دو فيريول الأختين دون أن يبدي على نفسه أنه يعرف علاقة أخيهما بجانيت - نيكول.

- إن أردت الحق يا كونت، لا نريد إقحام أخينا في الموضوع؛ أليس أسقفًا؟ - أجابت كلودين - ألكسندرين وهي المستعدة للجواب، ثم قالت وهي تتحفظ خوفاً من أن يبدو عليها انزعاجها من جمالها وفطنتها - أنت تعرف دون حاجة إلى أن نخبرك طبيعة معلمة شارلوت - إليزابيت أيسيه؛ إنها وقحة، تقتحم عالمك حتى لو لم تنظر إليها أو لم تسمعها. ليست معلمة سيئة غير أنها تقوم بأعمال ليست من شأنها؛ فأينما ذهبت، إلى المسرح، إلى السوق، إلى الحديقة وإلى المحلات التجارية، صحبت أيسيه دون زميلاتها.

- قولي له إنها خاطت لها زياً شركسياً... - أضافت ماري - أنجيليك إلى كلام أختها واتهمتها بما ليس فيها: - حين احتفلت شارلوت - إليزابيت أيسيه بعيد ميلاتها الرابع عشر اقتحمت هذه "الجميلة" عالمنا دون أن ندعوها، متصنعة الجمال والذكاء، تتفنن في الكلام، ولم تُفسح لنا المجال طوال النهار أن نشبع من ابنتنا الصغيرة. ليتها أخت درستها قبل أن تضيع علينا هوية الصبية. أتوافقنا على أن نبعتها عنها يا كونت؟ يذهب منك مال كثير دون أن تعرف أين... كان الأفضل أن يدخل هذا المال إلى بيتنا. كل يوم تزداد الأسعار، لا نستطيع مجارة الغلاء.

- بقيت أمامها سنة واحدة فقط - قال شارل دو فيريول لنفسه وقد صدعت المرأتان رأسه، وإن كان يعرف شيئاً مما يقال له، ثم حسم الموضوع: - أبعدا من

رأسيكما هذه الفكرة! - "ماذا تريد الأختان مني أن أفعل؟ - ضحك الكونت في سرّه - تريدان مني أن أجابه أنا جانيت - نيكول لأن أخاكما لا يستجيب لكما؟ أنا أوافقكما على اعتراضكما على موضوع تذكير شارلوت - إليزابيث أيسيه بقوميتها، أما رغبتكما أن أعارك جانيت - نيكول فهذا مضحك. ما الضرر في أن تحب وتحب في هذه الحياة القصيرة؟ انظر كم أصبحت كلودين جميلة في هذه السنوات الأخيرة. أنسيت أنك كتبت لي أنك تريدان رؤيتي وأنتك مشتاقة إلي؟" - فهمت ما يُقلقكما. سأقابل جانيت - نيكول، وأكلمها.

دخلت عائشة إلى الغرفة، وأمطرت شارل دو فيريول بعتابها معبرة عن عدم رضاها بما ترى:

- أراك غير جاهز إلى الآن!

- ألا يمكن بما أرثدي من ملابس؟

- ليست قبيحة؛ غير أن جانيت نيكول تحب الأناقة في الناس.

- وهل هؤلاء "الناس" هم الرجال؟ عبرت كلودين - ألكسندرين عما تريد قوله عن أخيها بمزحة مع عائشة.

- لا يا كلودين - كان جواب عائشة حاضراً - أنت تعرفين جانيت - نيكول تحب الأنيقين رجالاً كانوا أم نساء. ثم أستمحك عذراً يا كلودين: جانيت - نيكول ليست أقل منك أناقة.

- ولماذا يزعجني كلامك؟ - مؤهت كلودين - ألكسندرين بمزحة استيائها من مقارنتها بمعلمة: - أقبل أن تقارنيني بها ولكن لا تفضليها علي.

- نعم يا شارلوت إليزابيث أيسيه - قالت ماري - أنجيليك محاولة تخفيف الحدة المفاجئة في حوار أختها وعائشة. - جانيت نيكول أنيقة، وودود، ولكن

لا يمكن مقارنتها بجمالكما وطباعكما المحبوبة. لا تنسيا أنكما من سلالة كونتات. والكونتات عادة تربيتهن غير تربية الآخرين، وجمالهم كذلك... وماذا أيضاً؟ ذكروني بما نسيتم.

"ما أصعب أن تفهم جنس النساء هذا! مزيج من الوضوح والغموض. تظنها ذهباً فإذا هي فضة. وحين تشتهيها تكتشف أن الفضة لا تعدو أن تكون قطعة حديد. - ابتسم شارل دو فيريول خفية - لا أستطيع إنكار معرفتي بهن، ولكن لم أستطع إلى الآن الوصول إلى سرهن. مرة يحرقنك، وأخرى يبعثن الدفء في أوصالك، وثالثة يبعدنك. حيناً يختلسن النظر إليك، وحيناً لا يسمحن لك أن ترى ما في وجوههن. وأنتن الثلاث من هذا الجنس، ويمكنكن إضافة جانيت - نيكول إليكن..."

- إن كان رأيكن هكذا - خرج شارل دو فيريول من أفكاره - فسأناثق أنا أيضاً. لحظة يا شارلوت - إليزابيت أيسيه!

IV

- في ذلك الأحد، حين أوصل شارل دو فيريول عائشة إلى سان - كول، جرى بينه وبين جانيت - نيكول، بغياب عائشة هذا الحديث القصير:
- أنا راضٍ عنك في شأن تعليم شارلوت - إليزابيت أيسيه وتربيتها.
- شكراً يا كونت؛ نعمل ما بوسعنا.
- نعم راض، غير أنه بلغني أنك تلمّحين إلى ابنتي بأصلها الشركسي.
- أصلها الشركسي سرٌّ؟
- الجميع، بمن فيهم ملكنا، يعرف؛ بل أبقىث على اسمها الشركسي.
- وماذا إذن يا كونت؟ تعترض على أي قدمت شارلوت - إليزابيت أيسيه إلى الملكة بزيها الشركسي؟
- لا، لا أعترض، بل أقصد أن تتبهي إلى أن تجعلي قلبها يتشرب كونها فرنسية. هل تظنين أن الفرنسيين كلهم من أصول فرنسية؟
- لأن الصحيح دائماً صحيح يا كونت أوافقك. واعتبر أننا اتفقنا في هذه المسألة.
- هذا لا يحتاج إلى مزيد من الكلام - حسم شارل دو فيريول النقاش قائلاً في نفسه "هذه المرأة أظنها ليست صعبة المنال" ثم عمّق الأساس: - الكونت، سفير فرنسا لا يعيد الكلمة مرتين. لماذا نحن واقفان هنا يا جانيت - نيكول؟ عربتي جاهزة. باريس تنهض وتوشوش لنا. إن مللنا من لطفها ف "ميلين" ليست بعيدة. الليل فيها ممتع ومقمر.
- يا كونت أظنك لا تكتفي بمنصب السفير حتى تصبح شاعراً. راءت جانيت
- نيكول في الجواب، قبل أن يفتح فمه، وهي تضحك في سرها، قائلة في

نفسها "اسمع ماذا ينوي زيرُ النساء هذا!" - كلماتك متناسقة، حلوة مفهومة.
مساؤك سعيد أيها الكونت، ينتظرونني هناك.
- إن كنت اليوم مشغولة فلا بأس في الغد - صاح الكونت وراء المرأة التي
تسحب جسدها الجميل، ثم قال دون كلام "أخضعتُ كثيراً من أمثالك"

V

يجب شارل دو فيريول كل الأشياء الجميلة مهما كان مظهرها، ولكن المرأة الجميلة، وإن لم تكن صديقتَه، أمله الذي يحرق قلبه كجمرة ملتهبة. غير أن أمله في جانيت - نيكول خاب خلافاً لما كان يتوقعه البارحة. ولا فائدة في أن تصيح وراءها "أخضعت كثيراً من أمثالك": أنت مثل من أفلت رأس الحصان وهجم يريد إمساك ذنبه.

خلال كثير من السنين قضاها في إستانبول لم يكن اليأس يدب إلى قلبه ولو أن الحب الذي يشتهيهِ كان يُفْلَت منه. والمرأة التي تحترم نفسها وتعرف قيمتها قلعةٌ مستعصية. مهما حُت حولها أو حاولت احتلالها فلن تفلح ما لم تكتشف نقطة ضعفها. وكما يُخرج الكلام الحلو الحية الرقطاء من جحرها فلن تستطيع إرضاءها وإغراءها دون جهد ودون مداراة. والناس يتداولون حكمة أخرى: "الفتاة يغازلها مئة شاب ولكن من تختاره واحد فحسب"

هذه الأمور وغيرها ليست مشكلة ولا عقبة في طريق شارل دو فيريول السفير الفرنسي. وإذا كان الكونت قال لها "أخضعت كثيراً من أمثالك" فقد بقي شيء واحد وهو الصبر. ولو كان الأمر يتحقق حسب ما يريد كل امرئ ويعتقد!... "ولماذا لا يتحقق؟" ابتسم الكونت وهو يتعجب من تذكُّره هذا الكلام. - وحين قلت لتلك المرأة المتناسقة الجسد، الحلوة الطباع "إن كنت اليوم مشغولة فلا بأس في الغد" التفتت إليّ فحسب ولم تقل لي شيئاً. كيف يمكن أن تفهم تصرفها؟ يعني بطريقة تفكيرنا الدبلوماسي أنها "تريد ولا تريد". ولكن إن ضغطت عليها بشيء، لا بكثير، من الحكمة فوجدت مسلماً آخر إليها فسترضح. وبعدها أعدت النظر فيها بدقة ما أجملها هذه المتصنعة السمراء ذات الوجه الصبوح! لم يركب فيها الله شيئاً زائداً. وبير غيرين دو تانسين ليس

أهبل. له خبرة في النساء. المسكين اختار مهنة الأسقف بدون فائدة، وإن لم أكن أعرف هل سيتحمل ما سيجري له قريباً. وجانيت - نيكول المعلمة التي واعدتها مساء اليوم لن يضيرها أن تنتظرني عدة أمسيات. وما يقال إن كل ما تشتهيهِ طيب، صحيح. وإلى وقتها سأتابع موضوع مادلين.

لشارل دو فيريول ثلاثة مخارج من قضية سجن مادلين: معاون وزير الشؤون الخارجية لملكنا المعظم لودفيغ الرابع عشر برنار دو غراندي، وقائد شرطة باريس هنري دو فارغ. حين نطق أسماء الثلاثة سخر الكونت من نفسه: "لماذا أُوصِل القضية إلى الملك وإلى معاون الوزير من أجل امرأة للعموم. ميلين جزء من باريس، وهنري دو فارغ هو المسؤول عنها، وهو صديقي منذ الطفولة ولا أحد يعلو شأنه في مواضيع هذا النوع من النساء، دُعك مني، في فرنسا كلها. كيف نسيتِه! يا مادلين، يا مسكينتي اصبري قليلاً أيضاً، ابنك الصغير حي، وبخير، وخلال أيام سأجعلهم يفتحون لك باب سجنك. أيمكن لهنري دو فارغ أن يحل لي هذه القضية؟ - أنسى السؤال القلق الكونت أفكاره المترجحة وما كان يراه من داخل العربة من سيرة حياة شوارع باريس. - ليتك حققت لي يا هنري هذا المطلب وحسب! وإن سخر مني قائلاً: ومن هذه التي تتوسل من أجلها؟" يقول لجاك السائس تتقاذفه وساوسه:

- ماذا جرى لك اليوم، لست واعياً إلى نفسك، ماذا لو صدمت أحد هؤلاء؟
- وأنا منتبه إليهم في قيادي أيها الكونت. وإن لم أسرع فلن نجد طريقاً بين هؤلاء المتسولين.

- لا أعرف، كأن المتسولين زادوا في باريس خلال هذه السنوات الثلاث أو الأربع - قال الكونت لنفسه. وما قاله لجاك شيء آخر: وإستانبول مدينة

كبيرة. ولكن ليس فيها مثل ما في باريس من المتسولين. لا تستغرب: الدين الإسلامي يحمي الفقراء.

- وكيف؟ - التفت السائس جاك، وسأل مستغرباً.

- سأقول لك: مساء الجمعة يتصدقون على المحتاجين من الفقراء. ومن يأتي منهم إلى الجوامع يساعدهم المصلون. وأعجب من كل هذا ما في قرآنهم: ما أكسبْتُكَ بعرق جبينك أوصلَ منه إلى الفقراء دون أن تبخل على أهلك أو تنتزع من أفواه أطفالك. - وفكر ثم أضاف: - ولا يخلو كتابنا من هذا، غير أن اعتقاد المسلمين بكتابهم أعمق. وفي هذا الشأن، وفي شؤون أخرى، يحتوي الإسلام على أمور كثيرة يمكن اتخاذها نموذجاً يُحتذى. والنظافة التي يهتمون بها من خلال الوضوء الذي يسبق وقوفهم أمام الله للصلاة؟ والدعاء الذي يسبق نحرهم للمواشي؟ وختان الأولاد ليكونوا نظيفين قبل سن البلوغ وبعدها؟ لماذا تضحك؟ - حين سمع شخير السائس سأله: - أقلت ما لا يُقال يا جاك؟ احفظ في قلبك الأمور الحسنة، وانس السيئة. أنت تعيش عمرك والأحصنة والعربة أهْثُك.

- ليست وحدها يا كونت، وأنت أيضاً إلهي - أضاف السائس على عادته في كسب قلوب آل فيريول، ولم يتوقف عند هذا الحد: - لولا أنت كيف كنت سأعيل أسرتي؟

- حسنٌ أنك لا تنسى فضل آل فيريول، غير أنني غير راضٍ عن مقارنتي بخيلك وعربتك. وهذا يثبت أنك بلا إله.

- أأشبهُك بما عددت لو كنتُ في وعيي أيها الكونت. ولكني لا أراجع عن اعتباري إياك إلهي. وليس الموضوع أنني لا أؤمن بالصليب ولا أذهب إلى الكنيسة. بل أنظر إليك هذه النظرة لأنك إنسان ممتاز رحيم.

- كفى، لا تمدحني إلى هذا الحد! - مزح شارل دو فيريول مع سائسه، ولمح له بما كان عاتباً عليه لأجله: منذ أربع سنوات لم تَدُر بي. عرضتُ عليك أن تصحبني إلى تركيا سائساً فلم تقبل. وفضلت عليّ ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين. كيف تتصرف معك هاتان الأختان؟ ألم يكرهوك دنياك من وراء مشاوير الليل؟

- لا ألومهما يا كونت. تعاملاني، كما تعرف، معاملة حسنة. ومشاوير الليل نادرة... إيه يا حصانيّ السريعين إلى الأمام! - كان بودّ جاك تمويه ما قاله بندائه لخصانيه غير أنه لم يستطع كتمان ما يعتمل في قلبه: - العربات التي تقلّهما ليست مثل عربتنا، مشرّبات بماء الذهب. والخيول تتعلّ الفضة... ثم يا كونت تقول لي: أنت ملحد!

- نعم يا جاك، نعم. ما العمل؟ نحن في مثل هذه الدنيا... ومهما كان تبقى الحياة حلوة. انظر ما أجمل باريس! ألا يزال شارعي الحبيب بعيداً؟

- "نعم، نعم، - حق جاك السائس على نفسه - تعيشون في دنيا الله لا تعرفون إلا بطونكم وراحتكم. ونحن نعيش معكم تحت شعار: سعادة إذ لا نموت. تبعثرون بأطراف أرجلكم ما لم تجنوه بعملكم. تبذرونه على البغايا. تشترون أمثال الصبية الشركسية أيسيه كي تتسلوا بها كما بالدمى. ونحن حين نحمل إلى المرأة ما كسبناه بمؤخراتنا المرهقة في دوراننا بكم توزعها قرشاً قرشاً على أيام الشهر. وأنت تمتع نفسك غير مهتم بحياة كنتك، قائلاً "ما العمل؛ هذه هي دنيانا؟" ثم تمتدح لي الإسلام مهتماً بكاتوليكيّتي وعدمها" - ولم ينس جاك السائس الذي جاش صدره بكل هذه الأفكار سؤال الكونت:

- إذا كان عندك وقت فنحن نكاد نصل إلى مبتغانا.

- لا أتابع عملاً ليس عندي وقت من أجله... مهلاً مهلاً، توقف، انظر إليه!... قفز شارل دو فيريول من العربة مستغرباً ما يراه.

حين يصل شارل دو فيريول، إلى الشارع الذي يحبه، يترجل من العربة متمهلاً، سواء كان عنده وقت كافٍ أم لم يكن، يلعب بعصاه المزخرفة بالذهب والفضة، ناسياً أنه كان يشتري من المحلات التجارية الغالية، وتبع المرأة التي يحبها خائفاً من أن تضيع بين عامة الناس "ماذا تريد هذه؟ أهى وحدها أم ماضية إلى من ينتظرها. لا أحد معها. دخلت جانيت - نيكول إلى أحدٍ أعلى باعة الذهب... ماذا ستفعل المعلمة التي من عامة الناس في مثل هذا المحل؟ تعيش حسب ما قالت لي كلودين - ألكسندرين ولا فرحة لديها إلا راتبها الشهري. ليس بمقدورها أن تشتري ملابسها الداخلية فكيف بالذهب؟! يا للنساء! ولكن لولاهن ماذا كانت حياتنا نحن الرجال؟ نحن وإن اعتبرنا أنفسنا في منتهى الجمال وأساس الوجود فالحقيقة ليست تماماً هكذا. وإن كنا عظماء إلى هذا الحد فلماذا لا نكشف عن حقيقتنا بمنتهى الصراحة؟ هؤلاء النساء هن من يمنحننا الجمال والرجولة والطيبة. غير أنه يحدث كثيراً أن يتسببن في دمارنا... وجانيت - نيكول التي أستهيى بها؛ ألا يمكن أن يكون بانتظارها رجل أغنى مني؟ لا أحب أن أقول هذا ولكن - انتفض شارل دو فيريول وهو يغار من الرجل الذي اخترعه لها للتو قائلاً: - من في باريس، بعد ملكنا المفدى، أحسن تربيةً وتأهيلاً مني؟ بل من في فرنسا؟ مهلاً، لحظة! ألا يمكن أن يكون هذا الرجل هو بيير غيرين دو تانسين الذي يغازلها سرّاً؟" - دخل الكونت الآن المتجر الأشد بهاءً وأجّة في الشارع.

لم يكن في المتجر أي زبون إلا جانيت - نيكول. ولم تكن هذه في جناح الذهب، بل في جناح العصي الثمينة، تتفحصها.

تعرفت البائعاتُ حالاً شارل دو فيريول فأحطن به:

- تفضل أيها الكونت شارل دو فيريول. لو عرفنا أين أنت لانتظرناك. التفتت جانيت - نيكول حالما سمعت اسم الكونت الذي اتجه نحوها، وأوماً إليها بإشارة احترام، وسألها:

- جانيت - نيكول يا شقيقة روحي؛ أهذه أنت؟ - قبل اليد التي مدتها إليه المرأة والعصا الثمينة الرفيعة في يده.

- نعم، يا كونت. تسرني رؤيتك.

- أأنت وحدك؟ - سألها وهو لا يزال غير مصدق أنها وحدها.

- كما ترائي، وحدي!

- وأنا وحدي يا جانيت - نيكول. - بدا الارتياح لا في عينيه الفرحتين فحسب بل في قامته كلها. - لا أكتمك أني مسرور لرؤيتك أنا أيضاً. وتشهد على ما أقول هؤلاء النسوة الجميلات. ولكن لي صديقاً في إستانبول كلما سألته: أأنت وحدك؟ أجابني: الله معي. ونحن لا نقل "وحدي" بل "الله معنا". لا، ليس صديقنا فخري، هذا تزوج، ويعيش شبابه. من أذكره لا تعرفينه أنت. هو أوركخان الشاب النشيط. أليس حسناً أن نحيا نحن مع إلهنا كما هو مع إلهه؟

- نعم يا كونت، نعم. ولكن الأفضل أن يبقى في قلبك من أن تذكره حيث يناسب وحيث لا يناسب.

- جيد جداً. وأنا علاقتي بشؤون الله من هذا النوع. ولكن بالنسبة لامرأة جميلة مثلك؛ أليس صحيحاً ما أقول - اتجه إلى النسوة البائعات اللواتي هُرعن لاستقباله وسألن، ودون انتظار جوابهن قال لها: - إن لم يعجبك سؤالي يمكنك ألا تجيبي. ولكن أستطيع مساعدتك لأنني أعد نفسي خبيراً إلى حد ما

في العصا التي تختارونها. أولاً يا جانيت - نيكول، إن لم يكن سرّاً أسألك عن عمر الرجل الذي تشترينها له.

- ليس في الأمر سرٌّ - انبعثت من عيني جانيت - نيكول نظرة تصنع حارة - هو من عمرك، لا أكبر، ولا أصغر.

- حسنٌ هكذا - "ليس يبيّر من تشتري له" - قال الكونت لنفسه - يمكننا اختيار العصا التي نرغب. ألا يمكن أن تكون كالتّي بيدي؟
- لا يا كونت، لا - غضبت جانيت - نيكول.

- ماذا؟ إن كنت لا تحملين ثمنه فأنا جاهز.

- لا يا كونت، لا. - ارتفع صوت جانيت - نيكول أكثر. ثم أكملت بصوت ألطف: - وما معي من نقود يكفي. هذا البائع عنده مثل العصا الجميلة التي معك. انظر إلى تلك الموشاة بالذهب والفضة والزخارف. أيعجبك يا كونت إن لم تكن مبالغاً في تلوينها؟

- وهذه جميلة. لو كنت أشتري لنفسي لاخترتها لأن كل ملوّن يعجبني.

- أشتريها إذن.

- ستعجب من تشترينها له لأنها تنتهي برأس امرأة جميلة - قال شارل دو فيريول مازحاً وأردف: - ولكنها لا توازي جمالك.

تظاهرت جانيت نيكول أنها لم تسمع شيئاً مما قاله الكونت، مع أنه أسمعها، لا وحدها، بل كلّ نساء المحلّ. وحين أخذت جانيت - نيكول العصا التي اشتقتها قال الكونت ما يجب أن يقوله وعلى مسمع الجميع:

- أقدم لكم هذه المرأة الجميلة، مسؤولة مدرسة سان - كول، ومعلمة الصبية الشراكسية التي أتيت بها من بلاد الشراكسة البعيدة، تعرفن وجود بلاد بهذا الاسم، وإن لم تكن تعرفن فاعرفن الآن، شارلوت إليزابيت أيسيه. وهي امرأة

ذات صفات ممتازة ترفع بها فرنسا رأسها. ولذا ما رأيكن في اختيار قطعة مما في محلكن تكون ذكرى لها؟

- أيها الكونت شارل دو فيريول - توهجت وجنتا جانيت - نيكول من الكلمات التي لم تنتظرها. ونظرت نظرة تقريع إلى النساء المرائيات اللواتي وافقن الكونت. - أرجوك لا تخرجني. شكراً لك، ساعدتني على حسن الاختيار. وستعجب العصا من كلّفني بها. ولا أسأل عمّن سيهدي إليه العصا ولا عن رضاه بها. والآن عندي موعد في مكان آخر ياكونت، ينتظرونني.

- أظنّين أنني أعيش في هذه الدنيا دون أن يكون لي دالة على أحد. - توسل شارل دو فيريول متواضعاً لها، ثم سألها بصوت ناعم وببرة عتاب: - ما المانع من أن تسمح لي أن أهدي معلمة ابنتي شيئاً للذكرى؟

- إن كان رأيك هكذا أيها الكونت فلنتفق: أنا عندي من يشتري لي تذكّاراً. وأنت اشتر لأيسيه. وإن أردت فلنختار معاً، وأنا أخبرك ما هو.

- لا شيء أحجبه عن ابنتي العزيزة شارلوت - إليزابيت أيسيه؛ قولي إذن! - قلادة صغيرة تنتهي بصليب صغير. تغطط أيسيه زميلاتها اللواتي يملكن مثلها. - هاتين أغلى قلادة مع صليب في المحل! - نادى شارل دو فيريول البائعات وهو يفتح حافظة نقوده.

- لا تحتاج شارلوت - إليزابيت أيسيه إلى قلادة غالية أيها الكونت - لم تقبل جانيت - نيكول - تحتاج إلى ما لا تتميز به من زميلاتهما.

VI

استقبل هنري دو فارچ، قائد شرطة باريس، الرجل الأسمر الضخم صاحب الحاجبين الكثيفين، والسالفين الطويلين، شارل دو فيريول على باب بائع المجوهرات، وضمه إلى صدره بقوة وحمله ودار به عدة مرات على أرض المحل وهو يرفعه ويخفضه، ثم قال له:

- يا صديقي العزيز، ظننتك ستزيد وزناً وحجماً في تركيا ولكني أراك رشيقاً - ثم ضحك ضحكة مجلجلة، ومزح معه: - أ تكون نار نساء الترك الحاميات أحرقتك؟

- إن لم تحترس أمكن لنساء الشرق السمرات، ذوات السيقان المتينة أن يفعلن بك مثل هذا يا هنري - ولكن نحن رجعنا منذ زمن بعيد من حيث كانت أمثالهن... لسن مشكلة.. وأنت ما أخبارك؟

- يا كونت أكاد أنكرك؛ أأنت هذا! أشبعوك في إستانبول؟ - يقول هنري دو فارچ لصديقه ما يريد هو. - ماذا تقول؟ إن لم تكن النساء مشكلة فما عملنا نحن؟ تعال؛ لماذا نحن واقفان هنا. تأخرت في القدوم على غير عادتك فانتظرتك حتى الظهيرة.

- هنري، كل هذا حسنٌ غير أن لي عندك رجاء.

- أي رجاء؟ - لم يفهم هنري ذو العينين الواسعتين والأنف الضخم ما سمعه، ثم مازحه مخفياً عدم فهمه: - احكِ قبل أن تنطفئ رغبتك الملتهبة.

- امرأة من معارفي محبوسة في سجن ميلين.

- وما تهمتها؟

- كسرث ضلع عربي جزائري.

- إذن اعتبر أنها انتهت من قضاء مدة حكمها؛ ما اسمها؟

- مادلين.

- صرخ هنري دو فارج بصوت يرنّ الغرفة، وأكّد على الرجل الداخل إليه،
الربعة الذي لا يصغره:

- الآن، بما أنك ذاهب إلى ميلين، ستُخرج السجينة مادلين دون اعتراضات.
ضممنها إلى نسائنا العاملات لأنها حسّنت سلوكها. يجب أن تجهز الأوراق
بحيث لا يمكن لأحد الاطلاع عليها. أفهمت عليّ؟ - وحين خرج الرجل
المكلف بالمهمة من الغرفة سأل صديقه: - وماذا أيضاً يا كونت؟

- إن كنتَ لَبِيتَ رجائي بهذه السرعة - نهض شارل دو فيريول منتصباً وكأنه
ليس ذاك الذي كان جالساً مرهقاً - انخفض معي؛ أنا الآن جاهز لما ذكرت.
"خرج الاثنان من الغرفة يغنيان معاً" باريس، هيه يا باريس!

VII

رغم أن أول أشهر الخريف في باريس يمضي إلى نهايته فالجو صحو حار. والناس يقضون ساعات الغروب الكثيرة في البيوت فرحين بعدم هبوب هواء البحر الرطب من جهة المانش، أو في أفياء الأشجار التي توشوش أوراقها للهواء الخفيف.

تحب كلودين - ألكسندرين الجلوس قرب النافذة في مثل هذا الوقت ترقب الشمس التي تغيب كالخاتم المستدير فتحرق السماء. ولا تفوّت هذا المنظر إلا لأسباب قاهرة. حتى حين تكون في العربة توقفها وتراقبها منحدرة. وحين تكون مع جماعة من الناس تنسل من بينهم وتودّع الشمس التي تحرق نفسها في سِرٍّ مكشوف بسحنتيها الكثيرة وأسفلتها وامتناعها عن الإجابة.

ليست هذه العادة لدى كلودين - ألكسندرين وليدة اليوم. بل في السنة التي أقامت خلالها في دير مونفريل. متى جرى هذا؟ مضت عدة سنوات إن كانت قليلة أم كثيرة. ولم تُقم فيه طويلاً. - لم تكمل خمسة أشهر، ولكنها تعدّها هي خمس سنوات. وتُنحي باللائمة في هذا على الشمبانيا التي احتستها، وعلى أختها التي شجعتها عليها في الليلة التي كان الكونت شارل دو فيريول سيافر في صباحها إلى تركيا. لو لم تنم في فراشه!

"ما الفائدة في أن تلوم هذه الشمس - الخاتم التي تغيب، بحجة أنها لم تدفئك ولم تجتملي؟! - لامت كلودين نفسها بنفسها. - إنها أدفأت الكثيرين، أحرقتهم، كثيرون تأثروا بها، وكثيرون لا. لا أندم على ما فعلت في تلك الليلة، غير أنني أعجب من أن يتظاهر الكونت بأنه لم يحدث بيننا شيء. وأنا إن أخفيت الأمر فماري - أنجيليك لا تقصر في ما تستطيع فعله. تركتنا وحدنا، نحن الاثنين في الغرفة. وسافرت إلى حيث يقيم زوجها على بُعد المكان. لا بد

أن في رغبتها أن تكون الأختان زوجتين للأخوين فائدة. أعجيب أن أكون أصغر من الكونت؟ أو أن يربي الصبية الشركسية التي اشتراها، أو نربيهما نحن له؟... هذا يتعلق بما كتبه الله على الجبين. أختي امرأة عاقلة، وحين يؤول الأمر إلى الأملاك فلا شيء لا يخطر لها، ولا أحد يقف في طريقها. لا أُطلع بيير، ولكن هذا هو سبب دخولي إلى الدير. نعم، نعم، الخاتم الذي يقع من الإصبع يصدأ.

لم يكن في برنامج كلودين - ألكسندرين الذهاب إلى أي مكان هذا المساء، ولا أن يزورها أحد. ومنذ بضعة أيام هي تستعد لمثل هذا المساء. - بعد اليوم الذي زارت فيه ماري - أنجيليك زوجها. وأوصت البوابين والخدم أن يخبروا كل من يسأل عنها أنها ليست في البيت، ولا في المدينة. ومن كانت تنتظره لتخرج من البيت حين تغيب الشمس، ويبدأ الظلام يسقط، هو من كان جالساً في الفناء يشرب الشاي، ويهوي لنفسه، شارل دو فيريول. ليس من أجل أن تُقبل عليه دون كرامة وتتخذ منه سميماً، ألن تجد مكاناً في الدار الواسعة؟ ستقابله وهي تذرع أرض الدار حتى يفقد صبره عليها ويدعوها للجلوس.

قطع صوتُ العربة القادمة من منعطف شارع نيف - سان - أوغستين أفكار كلودين - ألكسندرين غير المريحة. وحين توقفت العربة عند البوابة الكبيرة أغلقت النافذة كي لا يراها القادم بالعربة، غير أن ما تراه عجيب. خرجت من العربة امرأة طويلة القامة، ويبدو احترامها لنفسها من مشيتها.

من هذه المرأة؟ وماذا تريد؟ ليست من معارف كلودين - ألكسندرين. أيمكن أن تكون من صديقات ماري - أنجيليك؟ إنها صغيرة في العمر، تراها لأول مرة. أأتكون قادمة لمقابلة لاروش؟ ليس من عادة الطبيب أن يستقبل في بيته رجلاً أو امرأة للعلاج. مهلاً، مهلاً! أهى من لا نعرفها من صاحبات شارل دو

فيربول؟ العادة أن يلاحق الرجل المرأة، لا العكس. ليس في الأمر ما يُدهش. ولكن إذا زارت المرأة الرجل في كل زينتها لتغازله فماذا تكون النتيجة؟ دفعت كلودين - ألكسندرين النافذة ففتحتها مغامرة، غير هيابة ممن تكون هذه المرأة، ولا ممن سيراهما. وفي اللحظة نفسها سمعت من شارل دو فيربول الصوت الفرح المألوف حين تُزفُّ إليه امرأة:

- مادلين، هذه أنت؟... أطلقوا سراحك؟

- شفقتك وإنسانيتك يا كونت هما من أطلقاني. - أشارت إشارة احترام لشارل دو فيربول وهي تُثني عليه، ثم قبّلت يديه واحدة واحدة. - لن أنسى، لا أنا ولا صغيري معروفك.

- كفى يا مادلين - انتزع الكونت يديه من مادلين - لا تُخرجيني. لم أفعل ما لا تستحقين. ليس مهماً، اجلسي نتكلم. وأنت يا كلودين - ألكسندرين لماذا تقفين وراء النافذة؟ تعالي إلى هنا أعرفك بمادلين. كيف وجدتي يا مادلين قبل أن أجذك؟

- انتظرتك في ميلين في الأيام القليلة الماضية تحسباً من عودتك إلى تركيا ولكن مللت من الانتظار فتحركت إليك. تبين أن السائس يعرف بيتك. سامحني يا كونت على إفساد يوم راحتك!

- لا داعي للاعتذار! خيراً فعلت؛ سررتني! لم تكن مادلين تسمع في هذه اللحظة ما يقال لها. كانت تفكر فقط في المرأة التي ناداها الكونت، ونفذ صبرها فسألت:

- من التي ناديتها يا كونت؟ أهي زوجتك الشابة؟ حين رأيتي فتحت النافذة كأنها ستخلعها.

- وهل لاحظت هذا أيضاً؟ - ابتسم الكونت وريأؤه بادٍ من صوته:- لا يا مادلين. ما زلت كما تعرفيني عازباً. بعد أن أفضي بضع سنين في تركيا وأعود سأُنهي حالة العزوبية هذه بفتاة صبية أدّخرها لهذه المناسبة. أما هذه القادمة فهي أخت كُنتي.

- أخت زوجة أخيك يا كونت؟ أليست امرأة؟- ابتسمت مادلين وهمست في أذن الكونت:- هذه امرأة جميلة انتبه لنفسك!

وفجأة ظهرت كلودين متأنقة جداً كأنها تنافس مادلين. وبعدما تعارفتا، سألت مادلين كأنها تعرفها طوال عمرها:

- لماذا تجلسان في الظلام؟ - ثم أضافت بحيث لا تعرف جِدّها من مَزحها: - لا أظن الليلة مقمرة. أيها الخادم لا تبخل بالشموع!

- لا، لا تقلقا! - قالت مادلين وهي تعرف أن كلودين غير مرتاحة للموقف، متظاهرةً بعدم فهم انزعاج كلودين: - لم آت إلى هنا لأسهر، عندي كلام مع الكونت.

- لم أعرف يا مدام أنكما متواعدان، لو عرفت لما أفسدته. - قالت كلودين دون قصد إلى إزعاج رغم أنها التهبت غضباً لما تسمع: - لا أرى من اللائق أن تجالس امرأتان رجلاً واحداً.

- يسرني أننا تعارفنا - قالت مادلين وسألت: - أليستِ غيرين دو تانسين كلودين - ألكسندرين؟

- نعم، أنا - توقفت كلودين مستغربة معرفتها باسم أسرتها. - من أين تعرفين اسم أسرتي؟

- لأني قرأت كتاباً صغيراً لك لا أذكر اسمه.

- ربما تقصدين أول كتاب لي - كانت فرحة لذكر كتابها ولو أنها لا تنوي العودة - وما رأيك فيه؟

- المكان الذي قرأته فيه - تنهدت مادلين - ترين الأحسن فيه أنه الأسوأ... لا أريد أن أتذكر اليوم مأساة البارحة.

- السيدة مادلين كانت سُجنت في ميلين من أجل شخص تافه، ربما تتذكرين يا كلودين.

- سمعت، سمعت. أهذه أنت؟ إن كنتِ أنتِ فمن حقلك أن يُكتب عنكِ كتابٌ كامل. يا مدام ما كنت لأصدق، مهما قيل لي، لو لم أعرفكِ. وهذا جزء من حياتنا. كلٌّ يستطيع أن يزيد أو ينقص منها؛ أليس صحيحاً يا كونت؟

- نعم، الحياة مركبة بطريقة عجيبة. علنٌ وسرٌّ كالنهار والليل. - نظر الكونت في وجه السائلة راضياً عن نفسه لما قاله، وابتسم في وجه الكاتبة الشابة كأنه يسألها: أفهمت؟

حين انصرفت غيرين دو تانسين الكاتبةُ الشابةُ قالت مادلين دون أن تفصح عما يقلقها:

- الوقت يمضي يا كونت.

- لا حول لنا في هذا يا مادلين. الوحيد الذي أعرف أنه قادر عليه هو الموت. - يا كونت، يا رجُلِي الذهبي؛ أيّ كلام يائس تقول؟ أنا أقصد شيئاً آخر. أقصد ما يسرّ القلب ويمنحه الأمل. جئت إليك بنفسِي من أجل أن أقول لك إني أود أن أدعوك إلى الفندق ونقضي آخر ليلة لي وأصالحك. العربة تنتظرنا يا كونت.

التهب شارل دو فيريول في داخله كما في كل مرة يسمع فيها دعوة صريحة إلى المتعة أو يتوقعها. ولعلت عيناه من خلال الظلام الذي يسبق الليل. وداخ رأسه مما وجد في الدعوة الصريحة للمرأة الجميلة. وصار يرغب في التبيذ بدلاً من الشاي. ولكنه فرح لعلمه أنه يجب أن يضبط نفسه من أجل مادلين التي ستصلحه وتمتعه في آخر ليلة، وكأن شخصاً آخر، لا هو نفسه، ينصحه:

- شكراً يا مادلين. لا أكتمك أي خبرت نساء كثيرات في حياتي. والله يعلم ماذا ينتظري الآن. ولكنك حملت لي خيراً ساراً، أفرحتني. لتصور أننا قضينا معاً تلك "الليلة الممتعة". لا تنظري إليّ يا مادلين هذه النظرة. ولا تظني أن فحولتي نفذت؛ أنا جاهز منذ هذه اللحظة، غير أنني أريد أن أحافظ على الحب الذي كان بيننا.

ضحكت مادلين تغلبها ذكريات الغرف الخاصة في الفنادق والموائد الشهية. وأما كلودين التي لم تعد إلى البيت ولم تكن تتحمل ما تسمع فإنها نهضت بسرعة وهُرعت إلى الغرفة، وهي تعنّفه في سرها: "إن لم تحترم نفسك وتثمن لقب الكونت الذي تحمله، فستحدث لك مثل هذه الأمور وغيرها".

- اغفر لي ضحكتي المدوية يا كونت. ليس سخرية مما قلت. ليت كل الرجال الذين كنت أمحوهم من ذاكرتي حالما يتكونني كانوا مثلك... وإن كان هذا رأيك فلن نتكلم مرة أخرى على الموضوع الذي ثبّت عنه. شكراً لك مرة أخرى على ما فعلت لأجلي. ولن تسمع بعد الآن أن أحداً رأي على طريق باريس - مرسيليا - ثم انفجرت باكية.

- مادلين ماذا جرى لك؟ كُفّي عن البكاء! - أمسك بيدها ونصحها. - أعرفك امرأة قوية...

- نعم يا كونت، نعم... - رجعت مادلين إلى وعيها بسرعة - أبكي على ما فات، وأفكر بالآتي...

- حسنٌ إذن يا سيدي - يلاطف شارل دو فيريول المرأة التي تعود الحرارة الآن إلى يديها الباردتين. - حسنٌ ألا تتردد في ما تفعلين. وربما كان جهلك بما ينتظرك أفضل لك. لو كنا نعرف ما ينتظرنا في الغد إن خيراً أم شراً لما بقي في الحياة متعة... ماذا تنوين أن تفعلي إذن؟

- سأعود إلى مسقط رأسي شفييسار، حيث لن يراني أحد في باريس أو ميلين، وسأربي صغيري في قرية هادئة بعيدة عن المدينة.

- أوافقك على ما تقولين إن كنت قادرة على تغيير المكان. وسأساعدك على أجرة الطريق ونفقات الأشهر الأولى.

- لا يا كونت. لا أريد شيئاً من هذا، يكفي ما قدمت لي. - نهضت مادلين - عندي من المال ما أربي به صغيري. ألا يردُّ لي معروفى إذا كبرت؟!

- سيفهمك من تعبت عليه - لم يفكر شارل دو فيريول في ما قاله - ولكن ما لا أفهمه أمر واحد يا مادلين - أضاف الكونت بنبرة مزاح ورياء: - على ما يبدو أنني من "الرجال الذين يحبون تغيير النساء"، لا، أراه مديحاً ولا أُلوم نفسي عليه.

- نعم منهم... - قالت مادلين دون استغرابٍ ما سمعت، وامتدحت الكونت - ولكن لأني لا أرى إنسانيتك بين من تشبه بهم نفسك يا كونت. والآن مزحت معه - دعني أقبلك مجاناً في لحظة ركوبي طريقي!

مع أن عربة مادلين غادرت باب آل فيريول منذ زمن بعيد فلا يزال صوتها في مسامع الكونت. والوقت الذي لا يعرف التوقف يمر عليه وعلى غيره، سواء مضى نصف ساعة أم ساعة.

وطوال هذا الوقت فتحت كلودين - ألكسندرين التي كانت تريد لفت انتباه الكونت الباب وأغلقت أكثر من مرة. والسماء التي كأنها لا تغادر مكانها تمطر نجومًا، ونصف القمر بان ويراقب من أعلى شجرة.

مرت أمام ناظرِي الكونت شارل دو فيريول الذي ناهز الخمسين أحداثٌ كثيرة. ولسن قلياتِ النساء اللواتي رآهن في باريس وفي إستانبول وغيرهما. وأغلبهن نسي الكونت أسماءهن. ولكن لا يعرف لماذا يبرز اسم مادلين من بينهن. إن كان السبب ما حدث له مرة فقد لا تخلو حياة رجل من مثل هذا الموقف. أيكون السبب كونها امرأة عبلة منشرحة؟ وكلودين - ألكسندرين امرأة ممتلئة طويلة. ويعرف من سان - كول امرأتين. ولكن شأنهن مختلف "نعم، نعم قبّلتني مادلين أخيراً مجاناً" بكت، هدأها. ولأطففتي أخيراً. ومهما فعلت بي أو قالت لي فلم أر منها رياء أو حُبثاً أو جرياً وراء المال. فكيف يمكن ألا أحبها... يا ربي أيمكن أن تصدّق مادلين في ما التزمت به؟! "

حتى لو لم يجد شارل دو فيريول أجوبة كما يريد لأسئلته المسائية فقد دخل الغرفة راضياً عن نفسه، شاعراً بالارتياح. وبعد ما استحم احتسى كأساً من النبيذ الأحمر والتجأ إلى فراشه.

وفيما الكونت يردد "ماذا رأيت مادلين من شيء هام في كتاب كلودين - ألكسندرين؟ لم يكد هذه الليلة يمسك كتاباً" ليس من أجل أن يطفئ المصباح وينام كعادته دائماً بل من أجل أن يغرق في النوم وهو يقرأ في كتاب. فاجأته كلودين حتى دون أن تقرر الباب:

- ما الأمر يا كونت؟ لأول مرة ترى امرأة؟ أنا، أنا، قفز شارل دو فيريول ولكن حين رأى النهدين البارزين المدورين المتينين من صدر المرأة المفتوح سقط

من تأثير النار التي هجمت عليه فلاطفها وهمس لها: - ألم نتفق على أن
علاقتنا انتهت؟

- ستنتهي يا كونت حين لا يبقى لي مكان في فراشك!

- اشربي إذن يا كلودين من النبيذ الأحمر الذي شربت منه.

- يكفيني يا روجي ما سببت لقلبي إلى الآن حتى دون أن تضيف النبيذ إليه.

أفسح لي ودعني أنام على صدرك الدافئ - أبعدت لحاف الكونت ونامت إلى
جانبه مرددة "سأريك إن كان الخاتم الذي يقع من اليد يصدأ"

VIII

مهما علت الشجرة وشمخت في الهواء فما يُربها الدنيا ويمنعها الحياة هو الجذر. فإن لم يكن الجذر قوياً عجزت عن أن تقف في وجه المطر والعاصفة والفأس والمنشار... حتى لو انكسر جذعها أو أغصانها، ومهما قصوا منها وقلموها عادت إليها الحياة من جذورها ونمت شيئاً فشيئاً.

يمكن القول إن أسرة بوربون التي ظهر منها ملوك أقوياء لها جذور قوية أو ليس لها. تبوّأت أسرة بوربون الحكم في فرنسا بعد أسرة "فالوا" ومن بين ملوك آل بوربون لودفيغ الثالث عشر. وحكم البلاد فعلياً في ولايته الكاردينال ريشيليو. وحكم لودفيغ الثالث عشر فرنسا طوال اثنين وأربعين عاماً. وكان ملكاً ولم يبلغ الثانية والعشرين. وإذا كانت أمه آن أفستريسك مربية - وصية عليه فإن من كان يحكم البلاد هو عشيقها الكاردينال مازيرين.

حين مات مازيرين أبدى لودفيغ الرابع عشر رجولة لم يتوقعها الناس منه. وجه إلى البرلمان الذي لم يكن يطيعه هذه الرسالة: "منذ اليوم أنا من سيحكم البلاد" ولم يكتف بهذا بل ذهب إلى "المندوبين أصحاب العباءات" كما كان يسميهم، وسألهم وهو يمزق أمامهم أوراقهم التي كانوا ينتفعون منها: "هل تظنون أن البلاد لكم؟" وأجاب بنفسه "أنا البلاد".

سيحتفلون بعد غد ببلوغ حكم لودفيغ الرابع عشر عامه الخامس والأربعين. ودُعي إلى الاحتفال آل فيريول وآل غيرين دو تانسين. وحضر إلى باريس أوغستين - أنطوان وبيير غيرين دو تانسين. ولم تنس جلالته الملكة مشرفة دير سان - كول، جانيت - نيكول.

حين أبلغ شارل دو فيريول عائشة أنه سيأخذها إلى الاحتفال فرحت بخبر دعوة جانيت - نيكول إلى الحفلة أكثر مما فرحت باصطحاب شارل دو

فبراير لها. وتشاورتا في ما ستلبسان في المناسبة. وكان بودّ جانيت - نيكول أن تلبس عائشة الزي الشرقي، ولكن حين علمت أن عائشة ليست متحمسة، تجاوزت الموضوع متدعة بالثوب الذي جهزه آل فبراير لها.

ترتدي عائشة الثوب الذي خاطه أمهر خياطي باريس والذي أحضره اليوم وتنتظره الأسرة بكاملها. ومن سيعزف على الأوكوردون حاضر وهو لاروش. ومع أن بون دو فيل وأرجنتال مستاءان لعدم اصطحابهما إلى الحفلة فإنهما جالسان يخفيان بابتسامهما حقيقة مشاعرهما.

وماري - أنجيليك هي من لا تطيق صبراً:

- أنت يا كلودين أمهر في اختيار اللباس، اذهبي وساعديهم!

لا تقلقي يا كونتيسة! - نظرت كلودين - ألكسندرين بنحث إليها وابتسمت - سترين شارلوت - إيزابيت أيسيه كيف ستلبس حتى تبدو كالصورة بشعرها وحاجبيها وثوبها وقوامها المتناسق مع لباسها.

كان عليكم أن تلبسوها عند الخياط. - غمغم بون دو فيل الذي بدأت طلائع شاريه.

- نعم، صحيح - وافق أرجنتال أخاه.

- كفى! لم يستشركما أحد. - أسكتت كلودين - ألكسندرين أولاد أختها.

- إذن لا تأتوا على ذكر شارلوت إيزابيت أيسيه! - ردّ أرجنتال بالمثل. - إن لاحظتم عليها شيئاً في غير مكانه سخرتم منها.

حين دخلت شارلوت - إيزابيت أيسيه بثوبها الطويل الأبيض المشرب بالحمرة، والقبعة المخيطة من القماش نفسه، والحذاء غير العالي المتناسب معهما، والقفازين الطويلين إلى قرب المرفقين، وعلى الصدر قلادة من الذهب يتدلى منها الصليب، فغر المنتظرون أفواههم وتفحصوها بنظراتهم. وحين عزف لاروش

في المناسبة صفق الجميع بمن فيهم صوفي له. وقامت عائشة دون أن تسمح للخجل أن يسيطر عليها بحركة الجثو على الركبة، والتي يجب أن تقوم بها في حضرة الملك والملكة، أمام من صفقوا لها ومن لم يصفقوا. ثم جلست حريصة على الثوب الذي يضيق عند الخصر بجانب شارل دو فيريول. وأصلحت شالها.

- كل شيء جيد جداً - قالت كلودين التي كانت تعرض فخذاها العارية - ولكن شيئاً ينقص مظهر شارلوت - إليزابيت أيسيه، لا أعرف ما هو. - أياكون ثوبها مفرطاً في الطول؟ - سأل لاروش. - هذه حسنة في الثوب. لم توافق كلودين - ألكسندرين - لا يقفون في حضرة الملك بثوب قصير. ولا يخالطون خاصّة الناس به.

فاجأ أرجنتال على عادته الجميع:

- أعرف ما ينقص شارلوت - إليزابيت أيسيه - القرطان! ألا ترون قرطي كلودين - ألكسندرين الجميلين؟

- صحيح يا أرجنتال، صحيح! ملاحظتك دقيقة - تعالي يا شارلوت - إليزابيت أيسيه أشتر لك ما يعجبك من الحل الذي اشتريتما فيه من أجلي العصا الفضية، وأنت يا أرجنتال امشي معنا.

صاحت كلودين - ألكسندرين وراء الذاهبين للشراء:

- إياكم أن تشتروا أقراطاً مثل أقراطي!

إذا رجعنا عشرين سنة إلى الوراء فالعربة الخفيفة التي صُنعت للودفيغ الرابع عشر توصلك إلى القصر في ساعة ونصف، والفارس في أقل منها.

لاتبدأ الأمسية التي تقام باسم الملك والملكة في القصر الكبير باكراً - بل في حدود الساعة العاشرة. ولكن الضيوف لا يتأخرون عن الساعة التاسعة.

والأفضل قبل التاسعة بقليل، وحينها سترتقي الدرجات المكسوة بالسجاد دون استعجال أو تدافع. تدخل وتخرج من غرف كثيرة منيرة حتى تبلغ الصالة التي يقام فيها الاحتفال. وعلى المدخل ينتظرك المستقبلون من موظفي القصر، وينادونك باسمك فتدخل صالة الاحتفال الكبيرة التي تلمع أرضها، وجدرانها مزينة بالذهب والفضة، وتنتشر آلاف الشموع في آنية مذهبة ومفضضة. وحين تدخل تحيي الملك والمملكة بإمضاء من رأسك وتتخذ مكانك.

انطلق من باب قصر آل فيريول ثلاث عربات بعدما حسبوا بدقة متى يجب أن ينطلقوا. في العربة الأولى شارل دو فيريول وشارلوت - إليزابيت أيسيه. وفي الثانية أوغستين أنطوان وماري - أنجيليك. والثالثة هي عربة كلودين - ألكسندرين غيرين دو تانسين. والكاتبة الشابة لا يحزنها كونها وحيدة بل تعتد بها. والعربة الرابعة تأتي من مسافة أقصر، من سان - كول. وتلتقي بالعربتين في الطريق، وفيها الأسقف بيير غيرين دو تانسين ومسؤولة مدرسة الدير جانيت - نيكول.

باريس في ليلها ونهارها جميلة إلا أنها مزدحمة. ولكن في البعيد تتوهج أنوار فيرساي وقت الغياب في الريف حتى يُخيل إليك أنها جنة الدنيا.

تنظر شارلوت - إليزابيت أيسيه من خلال نافذة العربة حريصة ألا تُفسد كية ثوبها وقبعاتها. كل ما تراه العين: الشوارع في المساء، والبيوت، والجسور والسفن، يعجبها، غير أنها من يوم أن عرفت قصر فيرساي، واستقبلت فيه، يُقلقها السؤال الذي لا تستطيع البوح به. ولو لم تسألها زميلاتها لما اهتمت بالأمر إلى هذا الحد. وكانت سنحت لها الفرصة أمس في محل بائع الذهب لتسأل شارل دو فيريول غير أنها لم تتحمل تصرفات الباعة النساء، بالإضافة إلى القرطين اللذين اشتريتهما، فنسيت الموضوع.

تجري العربة الوثيرة لا تلوي على شيء، ويتظاهر شارل دو فيريول بأنه ينصت إلى صوتها غير أنه يتلصص بنظراته على الفتاة الممشوقة الحريصة على ملابسها والجالسة مقابله شارلوت إليزابيت أيسيه: "هكذا صَبَرْتُ نفسي عنها قائلاً: اليوم، غداً حتى صارت في قالب امرأة... ولكن لم تصل بعدُ تماماً إلى سن النضج. غير أن من في سنها هنّ زينة دور الحرام في إستانبول... إستانبول وحدها؟ في أي عمر كانت كلودين حين انسلّت إلى فراشي؟ لن تفعل أيسيه مثل هذا، ولكنها خلال سنة أو سنتين ستصبح من أولئك اللواتي يسلبن اللب ويحطمن القلب... لا أعرف إن كنت أخالطها في سنوات غيابي عن فرنسا بالرجال والنساء المتحركات... انظر إلى كلودين... كانت تريد أن تُقَلَّ أيسيه بعربتها إلى فيرساي!"

نظر شارل دو فيريول إلى عائشة وكأهمهم سيسلبونه أغلى ما عنده. وجعلته الحرارة التي غزت جسده يقول لها بصوت ناعم:

- لا يعجبني أن تركبي العربة وظهرك إلى عكس اتجاه العربة. تعالي واجلسي قربي!

- لا يا بابا، يرى أحدنا الآخر أفضل في هذه الوضعية. وأجاب شارل دو فيريول الذي كانت عائشة تنظر إليه كابنته:

- هكذا؟ إن كان رأيك هذا فلا بأس! - وسألها دون أن يُشعرها، قائلاً في نفسه "ليتك خففت من" بابا" هذه": - أرى على وجهك سؤالاً يا أيسيه.

- عرفت يا بابا. - ضحكت عائشة ووجهها يزداد جمالاً على جمال: - هل دُعيتُ إلى فيرساي كما دُعيت أنت وكما دُعيت كلودين؟ أتعرف لماذا أقول هذا يا بابا؟ لأنه في نواحيننا حين تُدعى الفتاة إلى الحفلة يرسلون وراءها مجموعة فتيات، تركب العربة معهن.

- طبعاً، دعوك كما دعوني يا أيسيه؟ - أجاب الكونت بسرعة وكأنه كان ينتظر السؤال "انظر ما أشد ما تتباهى بنفسها...لولا أن الشراكسة يحترمون المرأة ويثمنونها، وهي تحترم نفسها لما سألت هذا السؤال". وأضافت متعجبة:

- أظن أن ماري - تيريز الملكة هي من دعيتي.

- وتعرفين اسم الملكة؟

- كيف تكون من رعايا فرنسا وأنت لا تعرف اسم ملكتها ولا تُعرِّفها، ألسنت أنت من يقول هذا؟

- نعم أنا يا ابنتي. - ولأنها نادته "بابا" ضغط شارل دو فيريول الآن على "ابنتي" ليُسي نفسه أقواله. واعتبر أن الفضل في دعوتها إلى الحفلة من قبل الملكة التي نطقت أيسيه اسمها بإعجاب، لا من قبله يعود إليها: - ماري - تيريز الملكة التي قدموك إليها هي من دعتك. لم تنس أنك ألقيت قصيدة أمامها.

- هكذا إذن - شكراً لها - قالت شارلوت - إليزابيت أيسيه وكأنها تعرف الملكة منذ زمن بعيد وكأنها كانت تدعوها إلى أمسياتها، ولحت له إلى ما كانت أخفت عنه: - كانت جانيت - نيكول أوصت بخياطة زبي الشركسي... - ولكنها قلبت الموضوع بمهارة: - ثوبي وقبعتي وأسوارتي وقرطاي، كلها جميلة... هل سنرى ماري - تيريز الملكة يا بابا؟

- نعم، لن نراها فحسب بل سنحييها مع ذكر أسمائنا.

- كم سيكون ممعاً يا بابا! - قفزت شارلوت إليزابيت أيسيه من مجلسها وجلست إلى جانب أبيها معتبرة ما سمعته دلالة حُسن حظها. وبعد ما جلست قليلاً متمسكة بذراعه ورأسها على كتفه، لم تملك إلا أن تُفصح عما يزعجها: - ولكن لم يُدع بون دو فيل وأرجنتال.

- وهذان سيُدعيان يوماً ما... - قال شارل دو فيريول، واختتم بامتداح نفسه: هل تعرفين يا أيسيه كيف تحدث الدعوة؟ أوغستين - أنطوان أخي، لا أريد الانتقاص من شأنه. أنا سفير فرنسا العظمى، وعملُ أوغستين ليس مثل عملي. ولذا تصعب المقارنة بين أولاده - أولادي وبينك. ولكني سأقدمهما يوماً إلى الملك. ولذا فالأولاد، بالإضافة إلى لقب الكونت، يجب أن يتمتعوا بتعليم وإعداد ممتازين، ومهنة عالية في خدمة فرنسا. أنت عندك يا شارلوت - إليزابيت أيسيه من تحتمين به، من يعضدك، - وهو أنا. أما الذي استغريته فهناك أشياء كثيرة شبيهة به سأريك إياها متى رجعت من تركيا.

- تقول هذا يا بابا، ولا ترجع!

- في غضون سنة، سترين، سأعود إلى باريس. وإن أردت، حين تنتهين من دراستك أصبحك إلى إستانبول، ونقيم معاً هناك بعض الوقت.

- لا أريد! - ازرقّ وجه عائشة الذي كان طافحاً بالأمل والفرح، وجزمت: - يكفيني ما قاسيت في إستانبول.

ارتسم في مخيلة شارل دو فيريول سوق النخاسة التي لم يطأها في السنوات الماضية. وهذه الفتاة الجالسة أمامه يصعب أن تصدّق أنها هي التي اشتراها من هناك. "لا تسمح لنفسها، إن شاءت أم أبت، أن تنسى المكان الذي سُبيت منه رغم كل ظروفها الحالية" تقول لي "في بلادي يحترمون المرأة فإذا دُعيت فتاة إلى حفلة أرسلوا وراءها مجموعة من الفتيات يصحبنها" كان مناسباً أن أخاطب الشراكسة يوماً ما، ولكن لا أعرف كيف سأفعل "أفرحهم بأن ابنتهم الأسيرة في بيتي، وأني أعمل لتحويلها إلى فتاة فرنسية حقيقية؟ - إن كنت كرهت حياتك فافعل هذا! أقول لها إن فخري ألقى القبض على عصام وإنه أفلته دون أن ينتقم لنفسه أو لها، وأنه يعيش فرحاً بحريته؟ حسب تقييمي لها ستأتي

هذه التي أمامي إن سمعت بالخبر على رجليها جرياً إلى إستانبول رغم معارضتها الظاهرية. وأنا لست محتاجاً إليك هناك؛ لا تنقصني النساء. الأفضل لي أن أعود إليك وقد نضجت"

- وهذا صحيح يا أيسيه! - تمهل شارل دو فيريول قليلاً ثم نصحبها في ما عرضه عليها: - ماذا ستفعلن في إستانبول؟ بالقياس إلى فيرساي حيث نذهب فباستثناء الأسواق والمقاهي - كان يريد إضافة دور الحرام غير أنه رآه غير لائق - لم أر فيها ما يريح القلب ويُخَلِّص الروح من أوجاعه.

لا يُسمع في القصر المزدحم بالشموع إلا أصوات الناس والعربات. وإذا أُضيف إلى الشموع الألعاب النارية خيل إليك أنك في عالم آخر، ونسيت باريس. ولما كان الجوّ جديداً على شارلوت - إليزابيت أيسيه فقد برقت عيناها وكاد قلبها يخرج من بين ضلوعها. ومع ذلك تجد في نفسها ما يكفي من القوة لتتظاهر بأنها لا تعير اهتماماً للرجال والنساء الذين يأتون على ذكرها، من يمينها ويسارها، وكأنها اعتادت على كل ما تراه هنا.

لا تفرغ الفتاة التي ليس في جسدها ما يمكن أن يوصف بأنه في غير محله أو زائد، ولا الكونت، من التحيات بإيماءات الرؤوس. وشارل دو فيريول يهمس للفتاة التي إلى يساره تصعد الدرج المفروش بالبسط، بثوبها الطويل المتموج وقوامها الجميل: "أترين الرجال والنساء لا يستطيعون تحويل عيونهم عن جمالك؟" وترد أيسيه على الكونت ولو أن ما سمعته أطربها "يا بابا لا تقل لي مثل هذا الكلام، الكثيرات هنا أجمل مني".

عائشة التي كانت تقول هذا، كانت تغلبها روح الأنوثة المرائية رغم أن قلبها يكاد يقفز من صدرها: كانت قد حضّرت مشيتها، وحفاظها على قامتها، وعلى الفرع في عينيها، وكأنها تقول: انظروا إليّ وتابعوني بنظراتكم، وهامسوا

في ما بينكم! وكلما أشار الكونت إشارة التحية قلّدتّه. ولكن أعجب شيء هو أنّها تتذكر ما كانت جدّتها "شابه" تنصّحها به في مثل هذه المناسبات وكأنّها تسمعها الآن: "تحلّي بالأدب، لا تتكبري، وكوني جدّيّة، واحترمي نفسك!" ما هذا؟ أهو وراثّة من الجدور أم أن المرء يُخلّق معها؟
صاح المضيف حين رآهما على باب الملك والمملكة:

- الكونت شارل دو فيريول وابنته الكونتيسة شارلوت - إليزابيت أيسيه!
حين حيّا الملك والمملكة، على بُعد بضع خطوات، بإيماءة الرأس، قالت الملكة للملك:

- هذه هي الفتاة الشركسية التي ذكرتها لك يا جلالتك. أترى ما أجملها! -
ومدت يدها التي تضيّ بها على المدعوات الأخريات، إلى عائشة، فحنت الأخيرة رأسها بخفة وقبّلت يدها، سمعت كلودين ومن معها ما قالته الملكة: عندك ابنة جميلة، أيها الكونت، وكانت أجمل لو كانت بزيّها الشركسي. - ثم توجّهت إلى الصبية: أيتها الكونتيسة أنت جميلة ومثيرة جداً، أريدك أن تلمعي من بين نجمات احتفالنا.

IX

لم تستطع كلودين - ألكسندرين، وقد مضى على احتفال القصر بضعة أيام، إلا أن تقول ما كان يشغل بالها:

- كانت فتاتنا الشركسية يا ماري، سواء قالت ملكتنا أم لم تقل، جميلة جداً حتى لتميَّز من بين الحاضرات. ليتني أريتكِ فيليب أورليان ابن أخت الملك، لم يحوّل نظراته عنها رغم جمال زوجته.

- رأيته... - تنهدت ماري - أنجيليك وهي تمسّد وجهها المتغضن وتر بأصابعها الرفيعة على حاجبيها. - وسأقول لك شيئاً آخر: - وبسبب أيسيه التي لا تساوي شيئاً، عصّت زوجة هنري دو فارغ ذات الأنف الطويل والشفيتين الغليظتين نفسها غيظاً. ومن حسن حظنا أن الكونت أقنع زوجة صديقه، ممازحاً إياها، أن ترقص معه وإلا تصرفوا معنا بما لا نستحق.

- وما علاقتنا نحن بالأمر؟ - لم تقتنع أختها كلودين - ألكسندرين بما يقلقها - لو حدث هذا لكان خيراً.

- يا كلودين، لا أعرف ما تقولين. - ارتفع صوت ماري - أنجيليك - أتعادين نفسك بنفسك؟ أليست أيسيه ترقى في أسرتنا؟

- ليس في أسرتنا - احتدت كلودين - ألكسندرين وهي تعي ما تقول، ثم خصّت: - نحن من أسرة غيرين دو تانسين، لا تنسي!

- لا أفهمك يا كلودين، أهينيني قصداً أم تصبّين جام غضبك وأحقّادك عليّ - أنسيت أيّ كنة آل فيريول وأني أحمل اسمهم؟

- وأضيفي إلى ما قلت أنك ولدت لهم طفلين!

- أنا أعتدّ بهذا، ولا أخجل منه. مهلاً، مهلاً يا كلودين، مالذي جرى لك اليوم حتى تخاطبيني بما يهينني؟ - ثم سألتها بلهجة أنعم: - أأساء إليك أحدٌ يا أختي الصغيرة؟

لانت كلودين التي كانت جالسة منتصبه كأفعى تستعد للهجوم. وأشعت عينها الرماديتان دفئاً وإن كانتا باردتين. وقالت بسحنة من تعتذر:

- لم يهني أحد ولكن لا أعرف لماذا أهنتك أنا. اغفري لي؛ يحدث لي أحياناً مثل هذا!

- ما من أحد لم يجر معه شيء. وأنا أكون أحياناً في مثل حالتك. ولكني أزن كلامي وسلوكي. - وخافت أن تستاء أختها من نصائحها وغيّرت ماري - أنجيليك الموضوع بما يسرّ أختها: إن كان الأمر هكذا يا كلودين فسأقول لك ما لم تتوقعه: رأيتك أيسيه أجمل نساء الاحتفال، بمن فيهم أنا.

- أيسيه هذه تقول أشياء كثيرة. - قامت كلودين - ألكسندرين بإشارة متظاهرة أن ما سمعته لم يعجبها.

- صحيح، صحيح، وأنا كان لي الرأي نفسه. كان الراقصون، وفي مقدمتهم شارل دو فيريول، يتخاطفونك.

- نعم، وأنا أرقص تأدية واجب حين يأتيني الدور كانت العيون لا تفارق أيسيه. هذه القبيحة راقصة ممتازة، لا أعرف من أين تعلمت الرقص.

- ألم تري كيف كانت جانيت - نيكول ترقص؟ علّمت أيسيه الرقص كما تتقنه هي. وماذا كان شارل دو فيريول يقول لهذه المرأة العجوز؟

- وما يُدريني؟ أيهمك الأمر؟

- ولماذا أهتم؟ أقول هكذا دون مناسبة.

- ليس نحن من يجب أن يهتم لهذا. الأسقف ولو لم يكن لابساً الجلباب كان واقفاً كقطعة جليد وكأنه يلبسه. حبيبنا الوحيد أخونا بير تحلى عن هذه الجميلة للراقصين طوال الليل. إذن سأقول لك يا ماري خبراً لا تعرفينه.

- أيُّ خبر؟ أيتعلق بآل فيريول؟

- نعم.

- وأي خبر يتعلق بآل فيريول لا أعرفه؟ - كان ما سمعته ماري - أنجيليك يدعو للسخرية. ثم سألت بسحنة مرتعبة: - خبر سار أم...؟

- بالنسبة لي ليس جيداً، لا يعدني أن يصحبني إلى تركيا.

- ألم تقولي إنه أمّك؟

- حين أدقّ له فراشه يعدني، وحين يبرد يغير كلامه.

احمر وجه ماري - أنجيليك كجمرة. ولكنها غيرت الموضوع كما تفعل حين تجد نفسها عاجزة عن الجواب:

- لا أعرف إن كان قد حدث أمر بين ملكنا والمركز مونتوبان؟

- ومن هي مونتوبان هذه؟ سألت كلودين المحشوّ رأسها بمشكلاتها هي غير المحلولة ولكنها سرعان ما فهمت وسألت عن اسم عشيقته الملك الحقيقي: -
أهي فرانسواز أتينايس دو روشيشورا؟

- ومن تكون غيرها؟ ألم تري كيف كانت نظراتهما تنطفئ على بعضها؟

- وقبل أن تقولي هذا يا ماري اسألي عن عمريهما أقل لك لماذا بردت عواطفهما.

- نعم، ليسا شابين. وصلاً إلى السبعين إن لم يتجاوزاها... نظرت إلى ملكنا يا كلودين - أرجو ألا يصل كلامي إلى البعيد - ما أبشعه وما أقل هيئته! حتى في

شبابه لم يكن وسيماً. أنفه كالمجدوع، وشفثاه رقيقتان جداً، وذقنه مدورة، ما كان نفعه بهذا الشكل؟ أياك أن تفشي هذا لأحد يا كلودين وإلا كان هلاكنا! - كفى يا ماري - نهرت كلودين - ألكسندرين أختها - لا شأن لنا بالملك ولا بعشيقته. والأفضل أن نعالج قضيتنا. ولا أعرف ماذا سنعالج. - ضحكت من نفسها، ثم أفهمتها وهي تنهر نفسها: ألم يبق في باريس رجل مهم غير شارل الدعي؟!!

- ولماذا لا يبقى؟ - فرحت ماري - أنجيليك لما سمعت - أكيد فيها من تعين؛ وهل "لافرني" الذي يجري وراءك فقير؟ - لا تكلميني على صاحب الشاربين الأشقرين! - إن كان شارباه لا يعجبانك فاطلبي منه أن يخلقهما أم يصبغهما... إن ارتقى الرجل تحت قدميك فهو كالعجينة يا أختي يمكنك أن تشكليه كما تريد... ثم...

قبل أن تنهي ماري كلامها دخل بيير منفعلاً. وفهم أن بين الأختين ما لا يسرّ. وندم على اقتحام خلوتهما. ولكنه لم يجد من اللائق ألا يودعهما قبل السفر. ولم يكن يريد ابتلاع حزنه من الإهانة التي لحقت به: - ماذا جرى لكما يا أهلي الكونتيسات؟ لماذا مكتئبتان؟ - سأل بيير أخته مازحاً.

- لا شيء من هذا! - أجابت ماري - أنجيليك بوجه بشوش خير - نغربل الرجال، بمن فيهم أنت، بغربالنا. وأنت؟ ما الذي يقلقك؟ - يقلقني تصرفات الكونت شارل دو فيريول - قال الأسقف بيير بصوت منكسر من الخجل - ليس لكما كان يجب أن أقول هذا بل لصهرنا أوغستين - أنطوان ولكنه رجع إلى "دوفين".

- رأسه أم ماذا؟ - استعجلت كلودين - ألكسندرين على ما كان يشغلها.
- لو كان رأسه سليماً لما فعل بجانيت - نيكول ما فعل دون خجل من
أيسيه.

- هل الآن عرفت أن الحب يغير الرؤوس يا بيير؟ - سألت كلودين أختها دون
أن تميز أهي تمزح أم تسخر، ثم سألت بعد قليل عما كانت تشك فيه: أغارَها؟
- لو اقتصر الأمر على المغازلة... علق بها. وحتى هذا لم أعد أستغريه. أتعرفان
ماذا قال لي حين ملته ونصحته قبل أيام؟ لماذا تغازل عشيقتي؟ قال لي أعرف أن
الأسقف لا يجوز أن يتزوج، ومع ذلك إن كنت تريدها ساعدتك في الزواج
منها.

- ربما كان يمزح معك يا بيير - شحب وجه ماري - أنجيليك التي لا تريد أن
تسمع عن ابن حميها مثل هذا الكلام. - يا لمصيتي إن حدث شيء لرأسه
وترك لنا أيسيه عالة علينا.

- إن تركها؛ ألا تعرفين ماذا تفعلين بها؟! - ابتسمت كلودين بعينيها الرماديتين
الباردتين - ستصبح خادمة ممتازة، ويمكن أن تصبح عشيقة ممتازة.

- لا تكوني ظالمة يا كلودين! - نهض بيير مستاء لما سمع - إن وصل الأمر إلى
هنا فالله لن يرضى، ولا جانيت - نيكول تسمح لكما. ولا تنسيا أني حي وأن
الملكة ترعاها.

- نعم، نعم يا بيير الله يحميننا - وافقت ماري - أنجيليك أختها الأصغر، ولم
تُخفِ عدم رضاها - لا أعرف، لا أعرف...!

- إن كنت لا تعرفين يا ماري - احتدّ صوت كلودين - ألكسندرين الآن -
اسألي لاروش، سيجيبك لأنه طبيب.

- لن أسأله!... - ناكدت ماري - أنجيليك أختها - ولا طفت أخاها- مع
السلامة إن كنت عائداً إلى "أميرين" لا تقلق! كل شيء سيكون على ما يرام.
نحن لسنا ممن يتخلون عن لقب الكونت وأخلاقه. أليس كذلك يا كلودين؟
- نعم يا ماري، نعم. - رفعت كلودين - ألكسندرين رأسها الصغير فجأة -
بالقياس إلى آل فيريول فنحن آل غيرين دو تانسيون معززون أكثر. أتعرفين ماذا
يجري لك يا ماري؟ أتذكرين قبل أيام حين كنت تمتدحين آل فيريول كيف
مازحتك أيسيه بالقول المأثور الشرکسي "غنّ أغنية من تركب عربتهم!"
- كفى يا كلودين! خافي من الله! - كان صوت بيير ناعماً لكن عينيه
جحظتا. - اكبحي عواطفك، ولا تفقدي الصبر.
- نعم، نعم يا بيير. ولكن لتسأل ماري الدكتور لاروش عن ابن حميها.

X

ما الخير وما الشر؟ يظل الإنسان يفكر فيهما ولو كانا سؤالاً العمر. من يموتون وليس عندهم جواب، ومن يظنون أنفسهم وجدوا دواء له ليسوا الجميع. ومن يعيش متوهماً أنه وجد دواء له، ليسوا قليلين. ومن لا يستوعب الموضوع، ومن لا يفكر البتة كثيرون.

يردد شارل دو فيريول: "ليس الإنسان الصالح من يفعل الخير بل من لا يعمل الشر" أهنأك إنسان لم يجرحه الشر وحياته كلها خير؟! ليس على الأرض إنسان عنده مثل هذه الفكرة. ولم يكن بين الراحلين. ولم يفهم أحد إلى الآن مم تتألف الدنيا، وما ترتيبها، وسهولة فهمها وصعوبة تفسيرها معاً. ولن يفهم.

ويجب شارل دو فيريول أن يتفكر في مثل هذه الأمور وفي ما يتخلل الحياة من أحداث في ما يتعلق بشخصه وما يتعلق ببلاده، وأن يدلي برأيه فيها. وليس منذ زمن بعيد أولع بهذه الأفكار بل في السنوات القليلة السابقة.

ما السبب؟ لأن السنين تفوته أم وهو يسبح إلى جرف عالٍ — خفيض مجهول، فلا يعرف ما سيحدث، فيقلق على مستقبله؟ ربما يسوِّغ لنفسه لأن الحياة تفهمها بسهولة في حين أن تحليلها صعب. ولا يكفي هذا بل ربما ينصح نفسه أحياناً قائلاً لها: "لا يعني كون ظل الإنسان أمامه أن يكون هو وراءه".

يتذكر شارل دو فيريول أنه في مساء قريب قضى هو وجانيت — نيكول أكثر من ساعتين في أفخم مطاعم باريس يحمل اسم "الكونت" وتحادثا. "إنها امرأة عاقلة جميلة حلوة الطباع، تجد جواباً على أي سؤال تطرحه، تعرف شيئاً عن كل البلدان التي أعرفها، ومن تاريخ العالم، والأدب والمسرح. وهذه المعارف وغيرها أعرفها أنا بحكم مهنتي سفيراً ولكن لا أعرف من أين تعلمتها هي رغم

أنها تصغرنى سنًا. الآن أفهم من التي صنعت من أيسيه هذه الفتاة الصافية. لم أكن غير منتبه من البداية إلى أنها صبية فطنة ولكن يتضح لي كل يوم أنها زرعت في شارلوت - إليزابيث أيسيه من الروح الفرنسية أكثر مما زرعت من الروح الشركسية. وبدا هذا جيداً في يوم احتفال ملكنا، حتى الذين حسدوها أو غبطوها يعجزون إلى الآن التعبير عن إعجابهم. هي من تناسبني وستكون زوجة ممتازة لي، من جهة كوني كونتاً، ومن جهة كوني سفيراً. ما حاجة الرجل إلى الزوجة العاقلة؛ أمن أجل أن تربيك؟! كم سنة بيني وبينها في العمر؟ بيننا ثلاث عشرة أو أربع عشرة. وبينها وبين أيسيه؟ أيضاً الفرق نفسه. لم يفت الألوان بعد للزواج منها، ولكن أليست المرأة التي يفور دمها من الآن وإلى المستقبل خيراً من التي بدأ دمها ينطفئ..."

- أرجوك يا جانيت - نيكول أن تنسي ما قلت لك بخصوص تربية شارلوت - إليزابيث أيسيه على الروح الشركسية. - تذكر ما قال لها وهما في المطعم.

- لا أرى ما أعتب عليك في ما قلته لي أيها الكونت. لا ضير في أن يقلقك ما كنت قد فهمته آنذاك. ثم إن هذا ما يخطر لك حين تكون الصبية ابنتك. ولكن ليس هذا ما ألوّمك عليه.

- أهو الزي الشركسي لأيسيه؟ - لم يدعها تكمل كلامها رغم أنه ليس من عادته مقاطعة كلام امرأة.

- انتهينا من هذا الموضوع يا كونت - قالت جانيت - نيكول وأكدت - سمعت ما قالته الملكة بخصوص زيتها الشركسي.

- ماذا إذن الذنب الذي لم تغفريه لي؟

- أمران أيها الكونت: قلت لي "أخضعتُ كثيراً من النساء مثلك" دون مراعاة كوني مربية لشارلوت - إليزابيث أيسيه، وكون أخي كنتك على صلة بي. والثاني دعوتك لي إلى هذا المطعم.

- لم ترفضى دعوتي لك إلى هنا، - استغرب شارل دو فيريول ما سمع، ثم أنهى بشبه عتاب: - ولكنك أكّدت بهذا كونك امرأة قوية.

- لا حاجة أن تكون قوياً لتحترم نفسك، ولتحمل الناس على احترامك.
- نعم، صحيح. ضحك الكونت - قلت لي ما أستحق. ولكن سأروي لك بقدر ما أتذكر قولاً يتعلق بالنساء، لا أذكر إن كنت سمعته في تركيا. النساء يولدن لخطأ الرجال وخلافاً لرغبتهم. ويتزوجن عن حب، ويحملن وهن بين العلم به والجهل، والولادة تجعلهن حكيماًت، ويفارِقن الرجال معاندات لهم. ثم يفارِقن الحياة من متاعب الولادة. أهذا يا جانيت - نيكول ما تريدن قوله؟
- وهذا ممكن، يا كونت - ابتسمت جانيت - نيكول بنعومة، وروت له ما تعرف هي مما يتعلق بالنساء: - الشاب يحب الفتاة حتى تكون زوجة له، وحين يتقدم في العمر يتذكر أيام كونها فتاة فيحبها أكثر.

- يا إلهي أسمع كيف لا توفر جانيت - نيكول شيئاً ضدي! مؤه شارل دو فيريول بالمزاح وإن كان صادقاً في قلبه. والآن وقد فهم أنه لا يستطيع تحقيق نواياه لَمَحَ للمرأة التي لا تقتنع بما تقول بسهولة. - هذه المرأة الجميلة التي لا تريدني أعد نفسي يا إلهي محظوظاً لأنك عرّفتني عليها.

- شكراً يا كونت على أنك فهمتني.

- وأنا أقول لك شكراً على أننا نترك مائدتنا، وليس بيننا سوء تفاهم، ونتقاسم الفرخ. ولا يعتب أحدنا على الآخر.

- لن ينقص الإنسان حزن مادام عنده قلب. - قامت جانيت نيكول وهي تردد هذه الحكمة.

حين نهض شارل دو فيريول من ذكرياته الطافية كرر كلمات جانيت - نيكول في قلبه: "لن ينقص الإنسان حزن مادام عنده قلب" ماذا كانت تريد بهذه الحكمة أن تقول لي؟ القلب يتحمل في وقت معاً الفرح والحزن والإهانة، ولكنه حين يعجز عن مقاومتها يتوقف عن النبض. أليكون هذا ماكانت تريد قوله لي؟ ليس هذا جديداً علي ولا على غيري. قديمة هذه الحكمة قديم الدنيا. أقول هذا غير أن جانيت - نيكول لا تتكلم في هذا اليوم الذي زادت فيه معرفتنا ببعضنا عمقاً، خلافاً للأيام السابقة، كلاماً دون جذور ولا فائدة. تحشو كلامها أفكاراً ولباً. تعرف كيف تناقش وكيف تسأل، وكيف تجيب، بل كيف تبتسم وكيف تضحك ظاهراً. أهذا حسنٌ أم سيء؟ مثل هذه المرأة سيئة كزوجة، جيدة كشريكة عمل. ومع ذلك ففيها أيضاً شيء لا يُمل منه: يسري إليك دفؤها وبرودتها دون أن تعرف كيف. ألهذا يا ترى تحسدها كلودين - ألكسندرين الكاتبة الشابة وتغار منها؟ لا أظن أنها تخلو من جمال وطيبة تنافسها عليها، ولا تريدها لأخيها. أليس حسناً أن تتخذ من مثل هذه المرأة نموذجاً لشخصية روائية في كتاب. ولكن مهما صنعت جانيت - نيكول وكلودين - ألكسندرين الجمال والطيبة فلن تصلا إلى مرتبة شارلوت - إليزابيث أيسيه الصبية الشركسية..."

كان لدى شارل دو فيريول الكونت عادة يعرفها في نفسه ويكتمها عن غيره: كان يمل بسرعة من مجموعة النساء أنفسهن، ومن مجموعة الأطعمة نفسها، ومن الملابس نفسها، ومن المشي في الشارع نفسه. ولكن الغريب أنه كان متحمساً دائماً لأعمال السفارة التي يمارسها منذ مدة طويلة. لم يكن يقف

أمامه أي عقبة إذا كان العمل في صالح فرنسا والمملك. وكما يحب فرنسيته ويخلص لها، كذلك كان موقفه من تركيا التي يعيش فيها. ويهتم أيضاً بما يتعلمه من الأقوام الأخرى ويستفيد منها في حياته. وعنده لمن ينافسه في هذا الأمر ما يكلمه به وما يتخذه مقياساً يعرفه به قيمته. ولا يشغل وقته وجهده مع من لا يفهمه قائلاً كما الأديغة "لا تعاند المجنون، أعطه قبعتك وامض في طريقك".

"ماذا قال لي بيبير قبل أيام حين اعترض على كلامي ونحن نتكلم على المسلمين والكاتوليك؟ - تنهد شارل دو فيريول بحيث لا تعرف إن كان ما تذكره إهانة أم مزاحاً. - "لا تنس يا كونت أن المسلمين حاربونا قروناً وهم يلقبونا بجملة الصليب" "لن أنسى، ونحن أيضاً لم نتحملهم، ليتنا لم نحاربهم، ونحن نصفهم بأنهم بلا دين" "من تتهم في هذا أيها الكونت؟" "ليس جواب سؤالك سهلاً أيها الأسقف، ولكن سأقول لك رأيي إن كنت ستفهمني: هل العرب هم من احتل أرضنا أم أن الفرنسيين والإسبان والبرتغاليين هم الذين احتلوا أرضهم؟" "إن كنت تريد الحق قلت لك: إن المماليك، قوم شارلوت - إليزابيت أيسيه التي أقنعناها بالدين الكاتوليكي، هم الذين حموا العرب وإسلامهم. لسنا وحدنا من حاربهم هؤلاء من جهة الغرب؛ ففي الشرق تصدّوا للمغول، ومنعواهم من احتلال مصر. وحموا الدين الإسلامي" "أنت على ما أراك مطلع على دين العرب وتاريخهم وإن لم تعتق دينهم" "ولكنك مخطئ في ما لمّحت به إليّ في شأن شارلوت - إليزابيت أيسيه. لم أقنعها بالدين الكاتوليكي بل جعلتها تعتقه. ما عجز عنه حملة صليبين فعلته أنا باللين واللفظ والحب. وأنت دون أن يردعك الدين الذي اقتنعت به أمام الله ونذرت نفسك لخدمته دون زواج

كيف ستنقذه بجانيت - نيكول؟ هذا موضوع نعرفه نحن الاثنين فلا داعي أن تحبيني..."

صحا الكونت من أفكاره كأن أحداً ناداه. تنصت، ثم اقترب من النافذة المطلّة على الفناء. لا يزال الوقت مبكراً. الجبل الشرقي الذي صبغته بالأحمر شمس الخريف التي تحمل النهار تعيد طلاءه شيئاً فشيئاً بلون فاتح. وليس في سماء باريس كلها غيمة واحدة. - يعتدّ النهار بنفسه أن يكون حاراً كالبارحة. وتبتدّد المدينة التي تستيقظ معها، تتقطّع بأصوات متنوعة تذكّرك بإستانبول. والمراكب على نهر السين تصفر في الفجر.

أي صوت عربية يُسمع في هذا الوقت المبكر؟ توقفت عند البوابة الكبيرة لآل فيريول. وخرجت منها كلودين - ألكسندرين وحيدة. دخلت الدار برأس منتصب وقامة جميلة وكأنها تقول: لا أكتّم سرّاً، وليحسدني أي شخص يراي، ثم توجهت إلى الغرفة متمهلة مغرورة بنفسها.

"انظر ها هي التي تُرعبني لتمضي معي زوجة إلى تركيا! - ابتسم الكونت مسروراً بما رأى ومتعجباً. ثم لام نفسه: لهذا يقال: لا تجري الرياح بكل ما تشتهي السفن. من أريدها لا أصل إليها، ومن لا أريدها تحرقني. أين كانت هذه الآن ومن أين تأتي؟ ومن فراش من أنسلت؟ لماذا أنا مهتم بها؟ هذا واضح، والآخر سرّ. هذا يحترم نفسه والآخر يبيعها. لا أريد أن ألوم هؤلاء ولا أولئك ولا أن أقيّمهم. ولكن مهما رأت كلودين - ألكسندرين نفسها جميلة واعتدت بنفسها فهي لا تساوي قلامة ظفر من شارلوت إليزابيت أيسيه التي لي. وبالقياس إلى جانيت - نيكول فلم أصادف إلى الآن امرأة تساويها جمالاً مصحوباً بالعقل. لولا أيسيه ودعوتها لي أن أتكلم في لقائهم الأدبي اليوم لعدت إلى إستانبول منهياً أموري الدبلوماسية هنا. يريدون أن يستمعوا إليّ في حديث

يتعلق بتركيا والشرق. وأكثر من ألح عليّ هما فرنسوا وأرجنتال. وما يريد هذان لا تريده أيسيه غير أنها أخفت عدم رغبتها. ودون أن تقول لي شيئاً أفهم سبب عدم رغبتها..."

ألح شارل دو فيريول على نقل الأمسية الثقافية التي كانت تنظم في الرابعة مساءً إلى الحادية عشرة صباحاً. وحين نامت عائشة مساءً البارحة الجمعة واستيقظت لم يكن لها إلا هذا الهم. ومع أنها كانت فرحة بالصباح الخريفي الصافي فقد صارحت شارل دو فيريول بما يحزنها كما البارحة:

- لا أعرف لماذا لا تطيق كلودين - ألكسندرين جانيت - نيكول؟ حين أخبرتها بأني دعوتها إلى لقائنا لم تقبل ونظرت إليّ شزراً.
- ليس الآن ستفهمين هذا يا ابنتي؛ بل بعد عدة سنين.
- ألا أنك تنظر إليّ يا بابا على أنني قليلة الفطنة؟
- لا، ولكن لأني لا أريد أن تعرفي ما لا حاجة لك به.
- هكذا؟ - ابتسمت عائشة كأنها عارفة بما لم يستطع الكونت قوله، وإن لم تكن عارفة - إن كان الأمر هكذا يا بابا فسأرجوك: لا تمدح الأتراك حين تتكلم عليهم.

- ما هذا؟ حتى لو كان الكونت يعرف الجواب فقد استغرب ما سمع.
- لا أريد! حسمت عائشة الموضوع.
- "لا أريد" وحدها لا تصلح جواباً يا أيسيه - قال شارل دو فيريول دون أن يرفع صوته ودون نبرة رجاء. - هذا كلام قاسٍ ولكن لا معنى له.
- أنت تعرف يا بابا معنى هذا الكلام، ولماذا أقوله - لم تتزحزح عائشة عن موقفها.

- لا أريد أن يكون لك موقف سلبي من جميع الأتراك وإن كنت أعرف السبب
- ولم يكن شارل دو فيريول يتزحزح - ليس صحيحاً أن تحكمي على قوم من
خلال نظرة سلبية إلى شخص. إن كنت تطيعيني وتريدين أن تكوني إنساناً
صالحاً فلا تحكمي على الأقوام الأخرى حكماً سلبياً. اسخري منهم ولكن لا
تهينهم. جانيت - نيكول امرأة حكيمة ويصل تفكيرها إلى أمور كثيرة. ولكن
بما أني التقيت بها عدة مرات فقد رأيت عندها تفكيراً عميقاً.

- إن كان هذا رأيك يا بابا - لمعت عينا عائشة وقد امتزجت نظرهما بشيء
من الخبث وعمّت الفرحة أوصالها - الآن أمسكت بك! أتتذكر كيف أسأت
إلى جانيت نيكول وأحزنتها بمناسبة زبي الشركسي والكتب التي تتحدث عن
الشراكسة؟

- ألم تنسي إلى الآن؟ - تظاهر شارل دو فيريول بالسؤال وإن كانت كلمات
الملكة ما تزال ترن في أذنيه.

- لم أنس لأني تأثرت بالكلام. - أجابت عائشة بسرعة وكأنها تنتظر السؤال.
حنق شارل دو فيريول على نفسه دون أن يُظهر حزنه "أسمع يا كونت
تلميحاتها؟" ثم اختتم الموضوع دون إطالة:

- إن لم يكن في المسألة أحقاد فخير أنك لم تنسي يا أيسيه. ولكن الأفضل أن
تنسيه من أن تحتفظي به وأنت تتعدين منه.

- إذن يا بابا أتلغي المعروف من ذاكرتك بسبب إساءة واحدة؟ هذا ما كانت
جانيت - نيكول قالته لي. ثم إني لا أعرف إن كنت سأذكر بعض الكلمات
العجيبة. كانت أضافت "من الصعب أن تنسى الشر الذي عمله معك عدوك
والخير الذي عمله معك صديقك"؛ أليس هذا عجباً يا بابا؟

- كل كلام حكيم عجيب. ولكني سأضيف إلى ما قلت: أحياناً ندين العدو والصديق بالشر نفسه.

- وكيف سنفهم هذا يا بابا؟

- حين ينقلب معروفك شراً.

- وهل هذا ممكن؟

- تعرفين هذا، كما قلت لك، حين تتعثرين بمعرفك.

- نعم يا بابا، الآن فهمت. - فرحت عائشة من نفسها لما تذكرته - أنعرف

ماذا كانت جدتي "شابا" تقول في المعروف؟ "معروفي انقلب عليّ نحساً وجاري

صار عدوي"؛ أهذا ما تريد أن تقوله يا بابا؟

- أجبتني جواباً أحكم يا أيسيه - لا يحتاج كلام جدتك إلى تعليق مني.

- إن كنت أعدت كلام جدتي أأكون إنساناً حكيماً؟

- لحظة يا كلودين انظري إلى هذين! لم تستطع ماري - أنجيليك أن تكتم ما

لا تتحمله - فيم يتحدثان خلال أكثر من ساعة في فناء البيت؟

- ألا تعرفين ابن حميك قبل اليوم يا ماري؟ أظنه يمدح نفسه وهو يغازل أيسيه.

- نعم، نعم. ماذا - ابتسمت كلودين - ألكسندرين متذاكية، وسرعان ما

أضافت إلى أختها: - ولكن المجانين يا ماري صنفان: الأول لا يفهم ما يجب

أن يفهمه الجميع، والثاني يفهم ما لا يفهمه أحد. تعالي، دنا موعد اجتماعنا.

وها هما فولتير ومونتسكيو قادمان.

- لا تخرجيني، لا أستطيع الحضور. لن أصدع رأسي بكلامكم.

- لن تستمعي إليّ بل إلى ابن حميك العازب الوسيم. سيتكلم على الأتراك،

ومنهم أيسيه، الذين يحبهم. حضّرت له عدة أسئلة وسأرى بم سيحب عليها.

- يا كلودين - وارتفع مرة ثانية صوت ماري- أنجيليك - إياك أن تقولي للكونت أمام الشباب ما لا يليق؛ أنا أعرف أنك حاملٌ على الكونت وأعرف ثرثرتك. والآن حسب ما يجري، ولأنك لستِ موضعِ ثقتي، سآتي إلى لقاءكم. وسأصحب معي صوفي.

أوراق أشجار الخريف الملونة يحركها النسيم الخفي فتتهامس. والأوراق الصفراء المشربة بالحمرة المتساقطة من الأغصان الصامتة تتطاير وهي تدور حول نفسها فتنتشر على الأرض.

تأمل شارل دو فيريول الشباب الذين تجمعوا في أرض الدار العابقة بروائح الأزهار. ومع أن له معرفة طيبة بالحضور فقد ارتعب قائلاً في نفسه: وماذا سأقول لهؤلاء؟ ثم أردف: "أعرف ما أقول لهم ولكن هل سيفهموني؟ الأكبر سنًا ليسوا مشكلة، الصغار هم الأصعب إقناعاً... وأيسيه ترجتني ألا أمدح الأتراك؟! مونتنسكيو يتأملني. وفولتير تخرق عيناه ما تحت جلدي. ولاروش طبيب أسرتنا، ولكن لماذا جاؤوا بصوفي خادمتنا؟ أقول هذا ولكنها ستتعجب مما سأقوله لهم أكثر من غيرها. كائناً من كان داعيها فالشكر له.

- إن لم يبق من ننتظره فلنبداً يا كلودين لقاءنا - ناب عن كلودين التي تفتتح اللقاء عادة شارل دو فيريول باعتباره الأسنّ بينهم.

- لم تقبل كلودين اقتراح أيسيه بدعوة جانيت - نيكول - لم يملك أرجنتال إلا أن يقول.

- الآن بدأت... - بدا على كلودين عدم الارتياح.

- هل عليّ أن أكتّم الحقيقة؟ - رد أرجنتال على خالته.

- صحيح يا جان صحيح - دافعت عائشة عن معلمتها وهي تشهد على
صدق أرجنتال - حتى لو دعوناها إلى لقائنا ماكانت لتلي لأنها مشغولة اليوم
جداً.

- هل فهمت الآن؟ - لم يكن أرجنتال يهدأ.

- فهمت يا أرجنتال. دعنا نبدأ عملنا - نستمع إليك أيها الكونت، ساحنا،
نأخذ من وقتك!

- نعم، نعم. - بدأ شارل دو فيريول الكلام قائلاً في نفسه "جعلني أرجنتال
أشمت بك" - من لا وقت لديه هو الكسول ولذا لن أشبه نفسي به. ولكن
لو دعوتهم جانباً - نيكول لربما أسمعها معلومة عن الأتراك لا تعرفها. الحق أي
أحب بلاد الترك الواقعة في الشرق القريب. وهناك من لا يحب الأتراك. - نظر
الكونت بطرف عينه إلى عائشة - وكثيرون في العالم لا يحبون الفرنسيين. وبين
الأتراك من لا يحبهم. قابلتهم وحدّثتهم، ولكن لم أَلُهمم البتة. من المهم أن تعرف
ما لا تعرف، وهذا سبب قبولي دعوتكم. إن حبست نفسك في بيتك صرت
كطائر في قفص. وإن نظرت من النافذة أو من خلال الجدار فليس قليلاً ما
ستره. ولكن إن وقفت على رأس عمود رأيت أكثر. الإنسان يعيش على
الأمل والنوايا. ولماذا نَتهِم بما يتجاوز مدى التقاء السماء بالأرض؟

- لأننا لا نعرف ما يحدث في تلك الأنحاء يا كونت. أجب فولتير.

- صحيح، نريد أن نعرف ما لا نعرف - ماذا كانت جدتك يا عائشة تقول
لك في موضوع العين؟

- وأنا أعرف هذا - أجب أرجنتال بسرعة - مهلاً يا أيسيه لا تقولي، دعيني
أتذكر "ما تراه العين يساوي العمر"

- أسمعتم؛ مثل هذه العبارات الحكيمة هي التي تُبقي على حياة الناس والعالم. الترك عرق عجيب من البشر. وهؤلاء إن رجعت ثلاثمئة سنة أتوا من الشرق البعيد إلى الشرق القريب عن طريق الحرب. احتلوا القسطنطينية وسَمَّوها إستانبول. يعيشون على شواطئ بحرين. ويحتلون مضيق البوسفور والدردنيل. واحتلوا البلقان. هم رجال محاربون. وتدب الحمية في رؤوسهم بسرعة. يتمتع رجالهم ونساؤهم بالجمال. وهم مخلصون للإسلام.

- لصوص وقتلة... - قالت عائشة غير متحملة ما يقول الكونت عن الأتراك.

- وبينهم أمثال هؤلاء. - شهد شارل دو فيريول على ما وُجِّه إليه. - ولكن بين الشراكسة الذين خرجت منهم، وبين الفرنسيين أمثالهم يا شارلوت - إليزابيت أيسيه. أليس صحيحاً يا أرجنتال؟ تظاهر بأنه يسأل الصبي ليفسح المجال للحضور أن يفكروا.

- لا أعرف - جزم أرجنتال - لو لم يكن صحيحاً لما صدر عن أيسيه!
- اسمع ما يقول هذا! - سحبت ماري - أنجيليك من ابنها الكلام الذي بدأه خجلة من أقوال ابنها.

- لا تعني على أرجنتال أيتها الكونتيسة - قال مونتسكيو - الأفضل أن يعبر عن رأيه، لا أن يوافق كلَّ من يتكلم هازاً رأسه؛ وإلا خلت الحياة من الإثارة. أليس كذلك يا بون دو فيل؟

- نعم، نعم. - كان جواب بون دو فيل قصيراً: - ولو كانت الأشجار والأزهار من شكل واحد ولون واحد لخلت دارنا من الجمال.

- تصدِّق الدنيا وهي تلملم الأشكال والألوان المختلفة - ساهم في النقاش فولتير الذي كان جالساً منفصلاً متظاهراً بأنه لا يصغي.

- على ما يبدو يا فولتير - قالت عائشة وكأنها ليست مصدر النقاش الدائر - الناس كلهم ولو تشابهوا في قلوبهم وأرواحهم وأجسادهم، يختلفون في لغاتهم وأديانهم ولباسهم وطعامهم.

- نظر شارل دو فيريول في وجه كلودين قائلاً في نفسه "هؤلاء ليسوا محتاجين إليّ". وابتسم في وجهها معبراً عن رضاه بما سمع. ولكنه لم يمتنع عن الكلام الإيجابي على الأتراك ناسياً اعتراض عائشة. وخلال ساعة كاملة من الحديث وجد شيئاً واحداً سلبياً في الأتراك: نساؤهم يرتدين غطاء الرأس، ويرتدين أثواباً عريضة سابعة.

- كما قلت - اختتم شارل دو فيريول كلامه - تركيا بلاد مدهشة، ولكن خير أن تراها بعينيك من أن تُروى لك. أليس صحيحاً يا لاروش؟ أنت كنت هناك.

- صحيح يا كونت - وافق لاروش الكونت متجاوزاً ما في قلبه، ثم أضاف كاسباً قلوب المستمعين: - ولكن لا أعرف بلاداً كبلادنا فرنسا الجميلة. حين صفق فرنسوا فولتير لكلمات لاروش المحابية لفرنسا صفق الشباب، بمن فيهم أيسيه. ولم تتأخر ماري - أنجيليك، ولا كلودين - ألكسندرين، ولا صوفي عن الشباب. وقال الكونت راضياً عما رأى وعما سمع:

- ما حاجتنا إلى الشرق البعيد والغرب القريب إذا كان هذا رأيكم؟ أقترح ألا ندخل في الأسئلة بل نختم اجتماعنا بما نُكِنُّ لفرنسانا من الحب. إن أردتم أنتم الشباب تابعوا اجتماعكم. ونحن الكبار سننصرف إلى أعمالنا.

XI

لم يمر على عائشة يوم في باريس شعرت فيه كما اليوم بالوحدة واليأس. هل السبب أن عقلها لم يكن يستوعب في السنوات الماضية مأساتها لصغر سنها أم لأن ما قيل في اجتماع البارحة تفاعل في قلبها فأضرّ بها؟

- أرى في هذه الأيام حزناً في وجهك لم يكن في ما مضى. ألاني سأسافر غداً إلى تركيا أم لأن أحداً أزعجك؟ - سأل شارل دو فيريول عائشة وهو يتمشى بعد العشاء في أرض الدار. - لا تكتمي، أخبريني! إن كان أحد أساء إليك فلن أغفر له.

- لا يا بابا، لا أحد أساء إليّ. - كتمت عائشة التي كانت الكلمات المعبرة عن حب فرنسا والتصفيق لها ما تزال في أذنيها ما في نفسها. تذكرت ما قاله لها فولتير في أحد الأيام "يحدث أن يجرحوك وهم يمتدحونك" ولكنها سرعان ما أصلحت الموقف وأراحت ضمير الكونت: - من يستطيع يا بابا إزعاجي؟ وعندي إخوة من أمثال بون دو فيل وأرجنتال!

- هذا صحيح - وافقها الكونت وابتسم. - ولكن لا تنسي أنني عندك أيضاً. أقول هذا غير أن كلودين - ألكسندرين امرأة صعبة المعشر لا يعرف المرء ما بداخلها. ولا أعرف إن كانت أساءت إليك؟

- كلودين امرأة مغلقة ولكنها حكيمة. حين تجمعنا تروي لنا أخباراً مثيرة عن الحياة لا أعرف من أين تأتي بها.

- أما قلت إنها حكيمة؟!

- قلت لأنها تؤلف كتباً. قرأت لنا عن سيرة المرأة المتحررة مادلين والكونت الغني الذي لا تُفصح عن اسمه. كتابة عجيبة.

- ماذا قلت؟! - جعل الخبر الذي سمعه الكونت يقفز من مجلسه. ولكنه سرعان ما صحا فسأل: - أأعجبك؟

- لا أحب أمثال هذه الحكايات. ولكن مونتسكيو يراها قصة مشوقة. وأعجب ما لاحظت أنها أعجبت بون دو فيل.
- وفولتير؟

- فولتير اكتفى بالضحك دون تعليق.

- متى قرأت لكم كلودين هذه الكتابة؟
- في الاجتماع السابق.

- أقرأتها من كتاب أو من جريدة؟ - سأل الكونت وهو يكظم غضبه بمشقة.
- لا، من ورقة. وقالت إنها كتبتها حديثاً.

"العارفون بقصة مادلين عدة أشخاص. - قال الكونت لنفسه - وهم أنا والنادل وغابرييل وكاترين وهنري دو فارح، وبعدها حين أتت مادلين إليّ كنت عرّفتها إلى كلودين. وكل من ذكرت أسماءهم لا علاقة لهم بالمكتوب. مهلاً، مهلاً، حين قدمت مادلين إلى كلودين ماذا قالت لها؟ "إن كنت تقولين هذا فأنت تستحقين كتاباً كاملاً" انظر الآن ما تلا هذا الكلام من كتابات وأحداث!"

- ما الأمر يا بابا؟ لماذا تلخّ في السؤال عما كتبت كلودين، لأنه يتعلق بأحد الكونتات؟ - أمسكت شارلوت - إليزابيت أيسيه الآن بذراع الكونت - ما العلاقة بين الكونت لوفيلاس الذي في الحكاية وأنت؟ ماذا يجمع بينكما؟ ربما كانت كلودين - ألكسندرين تروي حكاية أحد أصدقائها.

- وأنت هل تظنين الأمر هكذا؟ - أكّد على عائشة دون انتظار الجواب: - كلودين ليست إنساناً صالحاً. لا تقيمي معها علاقات من أي نوع! ولا

تسمحي لها هي بذلك. مهلاً، مهلاً يا أيسيه؛ أ تكون تلك الحكاية سبب
اكتئابك؟

- ما أقل فطنتك يا بابا رغم أنك رجل حكيم! كما تقول لنا جانيت -
نيكول "علينا أن نرى جمال الوجود لا قُبْحه". وما قلته بشأن كلودين لا تتوقف
عنده. مهما قالت لي أو لمّحت أتخلّى بالصبر كما كانت جدتي تربيني. وحين
أعجز أحياناً ألوم نفسي وأسخر منها.

- حسنٌ أن تكوني هكذا. ولكن لو قبلتِ عرضي أن تسافري معي إلى تركيا
- ولا يزال العرض قائماً - لكنك اطمأنتت عليك.

- لا نعدُ إلى هذا الموضوع! قلنا ما قلنا وانتهى الأمر. وبالنسبة إليّ، بغضّ
النظر عن موضوع الأتراك، لم يبق وجود للشركس... وجدت عائشة ذريعة
تحفي بها الألم الذي غزا قلبها: - برد الجو في الفناء؛ دعنا ندخل!

حين تمنى كلٌّ منهما ليلة مريحة لصاحبه ودخلت عائشة إلى غرفتها، وانفجرت
باكية "لا أحد يفهمي... أأكون مكتئبة بسبب ما كتبتك كلودين! وكما تقول
صوفي: العالم كله من هذا النوع، دعك من باريس، أم الأديغة الذين افترضت
أني فقدتهم؟ ألم تنته الدنيا التي أعيش من أجلها؟ ألا يفهمني بابا أم يشفق عليّ
فيحاول إخراجي من حالتي؟ حين قلت له "انتهى الشراكسة بالنسبة إليّ"
رأيت في وجهه ارتياحه... مهموم بما كتبت كلودين. ومع ذلك يعرض عليّ
اصطحابي إلى تركيا، لا إلى الأديغة الذين أنتمي إليهم... لماذا مهتم إلى هذا
الحد بما كتبتك كلودين؟ تقول الكاتبة الكونت ولا تذكر اسماً...

جفلت عائشة حين سمعت طرقاتاً على الباب، وأمسكت أول كتاب وجدته في
طريقها، وقالت للطارق:

- تعال، الباب مفتوح. ورحّبت بالقادم: هذه أنت يا صوفي؟

- هل بكيت يا أيسيه؟.. - سألت صوفي وهي لا تفهم ما ترى - ثم تناولت كتاب كلودين غير المفتوح غاضبة:

- هاتي الكتاب، ستُجَنِّين بسبب هذه المخلوقة التافهة.

- لا يا صوفي، لا أقرأ فيه. لم أعرف أنك الطارقة فتناولته دون سبب كي أخفي حالتي.

- لو كنت مكانك لم أدعه في غرفتي؛ دغاك من قراءته!

- ولكن كلودين كتبت لي إهداء عليه.

- أكتبت لك الإهداء من باب القرابة والحب؟ لا تنخدعي بها؛ هذه تقول شيئاً وفي قلبها غيره! - ارتفع صوت صوفي رغباً عنها فخجلت ولامت نفسها: - سامحيني يا أيسيه على كلامي بصوت مرتفع. لن يدعوني يوماً واحداً في البيت إن وصل إليهم ما قلت. لو كنت مسؤولة عن نفسي فقط لما اهتممت، هذا عملي أجده أينما كان. بل لأنني أحببتك من أول يوم رأيتك فيه فأنا أتوسل إلى آل فيريول وليس في ذهني غيرك. - أجهشت صوفي بالبكاء وانكسر صوتها. ولكنها عادت سريعاً إلى حالها: - أقول هذا لأن وجودنا في هذا العالم، أنت وأنا، متشابهان.

- أفهم يا صوفي. وأنا أنظر إليك النظرة نفسها. تعالي واجلسي قربي. - عانقت عائشة خادمتهما وقالت لها: شكراً، ليس لي أحد هنا يفهمني وأشكو إليه غيرك وغير جانيت - نيكول. أنت ربوك في ملجأ للأيتام، وليس لك أهل. وأنا اشتروني من بلاد غريبة وأتوا بي إلى هنا. صحيح ما يقولونه "اليتيم يفهم اليتيم في كل زمان وحال".

- نعم يا أيسيه، صحيح. - لم تُخف صوفي وعينُها على الباب ما يشغل بالها: - لن يرضى الكونتات إذا رأنا أحد هكذا، كأن يدخل علينا فجأة أرجنتال.

- لا يقبلوا إن أرادوا! - قالت عائشة غير مهتمة بما سمعت. وشهدت على جلوس صوفي معها بحكمة أديغية "من يُجلسك إلى جانبه لا يعود فيعتابك" هكذا كانت تقول جدتي. وثقي بأرجنتال. ليت الجميع كانوا مثله ومثل بون دو فيل.

- ليس الموضوع عدم ثقة بأرجنتال، هذان أخواك الصغيران مخلصان لك وصادقان معك ولكن...

- نعم، نعم، قاطعت عائشة صوفي. - فهمت ما تريدني قوله. ذكّرني بما كانت تقوله جدتي شابا رحمها الله "قائمة البقرة لا تقتل عجلاً" لا أقول هذا عن بون دو فيل وأرجنتال. هذان أخوان رزقني الله بهما. وأنت يا صوفي أحب أن يكون موقفك منهما هكذا.

- شكراً لأننا تعاهدنا أن نتحمل معاً أحزاننا يا أيسيه. لا داعي لأن تطلي هذا مني. ومع ذلك أود معرفة ما في قلبك. ثقي بي أقاسمك همومك!

- يمكنني القول إننا تكلمنا الآن في الموضوع حتى لو لم أتكلم صراحةً. وإن أردت قلته لك لأنه لا أسرار بيننا. أتذكرك في اجتماع البارحة كيف صفقنا لفرنسا؟

- نعم أتذكر، ما الأمر؟

- من البؤس يا صوفي أن تتناسي البلاد التي تنتمين إليها، وتصفقي لبلاد غريبة. ما العمل؟ أنا يائسة.

لم يكن شارل دو فيريول مهموماً بما كانت عائشة شارلوت - إليزابيت أيسيه مهمومة به. وما كان في ذهنه شيء آخر: "لهذا السبب أقول يجب الحذر من الكتاب، لا يجوز مخاطبتهم. - لم يكن الكونت يجد مكاناً له في بيته. - غداً لولا أني عائد إلى إستانبول ما كنت لأهتم كثيراً بكلودين - ألكسندرين. تقول أيسيه إنها لم تذكر اسم الكونت، ولكن من أين لها أن تعرف أن هذه الكاتبة الناشئة المغرورة ترسم صورتي؟ أعرف ما ستفعل بي كلودين - ألكسندرين: ستطبع الكتاب وتجعل باريس كلها تسخر مني. ولست وحدي بل ستجعل من شارلوت - إليزابيت أيسيه مضغة في أفواه الناس. وستسود وجه آل فيريول. أعند ماري - أنجيليك فكرة عما في الورقة التي قرأت منها؟ أطلب منها أن تكلم أختها لئلا تمنع من طبعها؟ اعتبر ما تعرفه كلودين يعرفه الجميع. يقال إن كل الكتاب يحبون المال؛ أشتريه منها؟ مهما كان الثمن فليس لي مخرج آخر..."

نظر الكونت إلى ساعته: العاشرة والنصف. ليس الوقت متأخراً بالنسبة إلى كلودين. لو كلمها دون أن يراها أحد كان حسناً، "أذهب إليها مرتدياً ملابس الغرفة؟ هكذا أبدو كأني أتوسل إليها؟ سأتظاهر بأني خارج من الحديقة وأدخل إليها لابساً لباس الخروج وأكلمها..."

لبس شارل دو فيريول بسرعة، وارتدى قبعته الأسطوانية أمام المرأة، وتلمس الجيب المحتوي على النقود. وخرج من الغرفة على رؤوس أصابعه دون أن يصدر صوتاً، حاملاً عصاه الفضية، وطرق باب غرفة كلودين فانفتح من تلقاء نفسه. وقالت كلودين التي تقرأ في الفراش دون أن تستغرب مجيئه:

- تعال، تفضل!

- لم يكن باب غرفتك مغلقاً.

- كنت أنتظرك يا كونت.
- لم يكن بيننا موعد الليلة.
- ومع ذلك جئتني.
- جئتك لأن عندي معك موضوعاً.
- ألهذا كل هذه الأناقة؟ لو كان في الأمر خدعة كنت صرخت زاعمة أنك
تهاجني دون أن أعبأ بما تلبس - ابتسمت كلودين - ألكسندرين في وجه
الكونت، دون أن تعرف أهي تمزح أم جادة. وفي كلامها ونظرتها ما يغري -
ولكن لا تتظاهر بأنك شبعان ولا تريد شيئاً. اجلس، أسمعك.
- قال شارل دو فيريول لكلودين التي رجعت إلى الفراش بإغرائها:
- سأشتري منك ما كتبت بشأن مادلين.
- وكم ستدفع لي، هذا غالٍ!
- مهما كان سعره!
- هكذا؟ - سألت كلودين - ألكسندرين بصوت يقطع نياط القلب،
ووضعت جانباً الكتاب الذي كان معها إلى الآن. - إذن تعال واخلع
ملابسك!
- كلودين! - صاح شارل دو فيريول وهو يتلقى هذا العرض المفاجئ، ونظر
ساهماً إلى المرأة الجميلة التي رفعت طرف لحافها فبدت فخذها المتينتان. وبدأ
يخلع ملابسه غير واعٍ ما يفعل. - يبدو يا حلوتي أنني أشتري كتابك وتبيعيني
نفسك معه. ألا يمكن أن يكون ما في كتابك هو هذا الموقف؟
- لا عجيب في هذا يا كونت مادامت الدنيا كلها قائمة على البيع والشراء.
الأفضل مما تقول هو أن تغلق هذا الباب.

XII

لا ينسى شارل دو فيريول، مع أنه مضى على عودته إلى إستانبول عدة أشهر، الليلة التي سبقت سفره. وسواء كان إلى الطاولة يمارس مهماته الدبلوماسية أم كان نائماً أم مستيقظاً أم يغير النساء، فليلاً الحب المفاجئة تطفو فوق الجميع. مرت عليه ليالٍ كثيرة مشابهة مع نساء أخريات: كان يشتري منهن الحب في الفنادق وفي دور الحرام. ولم يسبق له أن باعوه الأوراق التسع الفضيحة بتنفيسة في الفراش.

"ماذا يمكن أن تسمي هذا؟... كان الكونت يسأل نفسه - يبدو أن لا فرق كبير بين من كتبها ومن كتبت لأجلها؟ مادلين وإن كانت بائعة هوى مكشوفة فإن الكونتيسة كلودين - ألكسندرين كانت تعيش وهي تسخر من غيرها وتشر هنا وهنا شهواتها السرية المخادعة التي لا نهاية لها. إن كنت محظوظاً فلن تتخذ منك المرأة التي نمت معها عدواً. وإن عرفت منك ما يفضح لم يقف شيء في طريقها. لا تجعل لي كلودين من نفسها فتاة بكرةً. لم أجبرها أنا حتى تزحف إلى تحت لحافي. تكتب عنا وهي لا تعرف نفسها. ليتها لم تخادع شارلوت - إليزابيت أيسيه التي تتمنع عليها بالكلام المعسول والسلوك الخبيث فتصنع منها شبيهة بها نكاية بي. كان عليّ أن أصحبها إلى إستانبول كما ترجتني كي أبعدها عن أيسيه؛ ولكن كيف كنت سأفهم الموضوع لأيسيه؟ كان أفضل شيء هو لو أتنى كلودين في تلك الليلة كما لمّحت لي دون أن يكون لي علاقة بالأمر. لو كلفت أحداً من زوار باريس كفخري، دون أن أظهر أنا كانت وصلت إليّ بسهولة. يمكن أن تقع هنا في مشكلات كثيرة. وإلا فلن تدعنا نعيش في هناء.

لم يكن شارل دو فيريول يفهم في البداية لماذا بدأ ينظر إلى تركيا التي يحبها، وعاش فيها، وعمل سنين كثيرة، بعين أخرى، ولا يعجبه فيها لا محاسنها ولا مساوئها، ويصل أحياناً إلى حد الكفر بها. ولكي لا يفكر في هذه الأمور يبدأ في مزيد من الشراب ومزيد من النوم وارتياح المطاعم الفخمة. وارتياح سوق النخاسة؛ حتى لتكاد تصبح عادة لديه. وأعجب من هذا كله أنه شوهد يرتاد الجوامع، وإن لم يكن يصلي، أيام الجمعة، ويقف على أبوابها ويكلم المصلين. وحين يصدف ألا يميز بين أصوات المؤذنين وأجراس الكنائس يبدأ ينهر نفسه قائلاً "ما الذي حدث لي". وأحياناً تغزو رأسه مثل هذه الفكرة المفاجئة: "أليس حسناً أن تعتنق معاً الإسلام والمسيحية؟" وحين يعود إلى وعيه يجثو على ركبتيه أمام صورة الإله في ركن الغرفة ويصلي كي يغفر له. ثم يشرب الدواء الذي أوصاه به لاروش، ويحيط إليه أنه ينفعه وإن لم يكن هكذا حقيقةً. ولكن أحياناً حين يسهو عن موضوع كلامه أو ينسى، يصب عليه غضبه قائلاً "ما هذا الدواء الذي يسقيني إياه لاروش ذو الرأس المتطاول؟" ثم حين يتذكر يرتعب مما فعل أو فكر، ويبدأ يتناوله ثانية.

اليوم هو يوم الأربعاء. ولولا قليل من الريح البحرية الباردة لأمكن القول إن الجو دافئ. وأكوام من السحب البيضاء تتراكض في السماء. وأحياناً تحجب شمس الخريف ثم تخرج من ورائها متناقلة. والسوق القائمة لا قريباً ولا بعيداً من بيت السفير تعج بالناس وترتفع أصواتهم. والسفن العابرة للبوسفور تطلق صفاراتها. ونحيق الحمير من هنا وهناك ينبعث بقدم الظهيرة. وماسحو الأحذية وسقاؤو الشاي والماء وبائعو الجرائد الصبيان لا تفارق أصواتهم المتداخلة الأذان حتى كأنه لم يبق في إستانبول غيرهم. وإذا علت فوق هذه الأصوات نداءات المؤذنين ونواقيس الكنائس ضجّت المدينة التركية بالأصوات التي تجعلها عن

جدارة مدينة شرقية. واللغات المتنوعة التي تسمعها تجعلك تتصور أنك صرت في عالم آخر.

"أما كان مناسباً أن تأتي عائشة معي إلى هنا... - انتشل الكونت شارل دو فيريول نفسه من خليط الأصوات إلى باريس. - كان قد قرر في موضوع عائشة في زمن ما، غير أنه جزم أخيراً بـ "لا" قائلاً: أنا أعرف ما سأفعل بها. حين ألتقي بأحد أقربائها في غمرة بحثه عنها سأكتب لها "إن أردتِ سلّمك له ومنحتك حريتكَ". وفي طريقهم إلى بلاد الشركس، حين يمرون عليّ سأهني عذريتها في إستانبول. ألا يكفي أنني دلّلتها إلى الآن، وأرخيت لها الحبل؟... كم هي معيبة الفكرة التي خطرت لك! - عَنّف نفسه - تتناسى أن ما مضى كثيره سيمضي قليله... ماذا حدث لك حتى فقدت السيطرة على نفسك؟ أمن قلة النساء حولك؟ أم لم يبق في العسل طعم الحلاوة؟ أن تزور بلاد الشراكسة كما وعدتها، وتطلع على أحوالهم أفضل من أن تُضيع كل معروفك مع أيسيه في نزوة عابرة. أسينفعني هذا أم مجرد تنفيس؟ لا تكن يا كونت هكذا! - الآن لام نفسه ورقّ قلبه شيئاً فشيئاً. - أضف إلى جمالك الكثيرة هذا الخير. لا تسمح لنفسك بالخطأ..."

جعله الشوق إلى أيسيه يقفز من مكانه ويخرج من البيت. حين خرجت العربية من دار السفارة وسارت مسافة لا تعرف أين تتجه، سأل مولود السائس:

- أسمعك يا سعادة سفير فرنسا.

- ماذا تريدني أن أقول لك؟ - سأل وكأن ما سمعه مدعاة للضحك.

- كي أعرف إلى أين أوصلك.

- اتركها تجري حتى تتعب أنت.

- أنا لن أتعجب، غير أن الأحصنة ستتوقف - "هذا الرجل لا يعرف أحياناً ماذا يقول وماذا يفعل" قال في نفسه.

- إن كان رأيك هكذا فلن نذهب إلى سوق النخاسة؛ ماذا سنفعل فيها؟ أنت لا تعرف، كنت اشتريت فتاة شركسية جميلة... أنت ماذا يُدريك؟

- ولماذا لا أعرف؟ ألا تتكلم على شارلوت - إليزابيث أيسيه؟ - سأل السائس مولود وكأن لم يبق حاجز بينه وبين السفير. وشدّ اللجام وزاد في سرعتها.

- ومن أين تعرف اسم شارلوت - إليزابيث أيسيه؟ - ارتعب شارل دو فيريول يبعث ارتياحه الوعي إليه - أين رأيتها؟

- لم أرها في أي مكان، عرفت اسمها لأنك لا تكف عن ذكرها.

- إذن اتجه إلى مطعم فخري. فخري التركي؛ ألا تعرفه؟

- وكيف لا أعرفه؛ ألسنت استأجرتني من عنده بعدما كنتُ سائسه؟ أنسيته؟

- نعم، نعم، صرت كمن لم يتذكر كلب داره. - سخر الكونت من نفسه - سامحي على تشبيهك بكلب الدار. لست من ابتدع هذه الحكمة بل أنتم الأتراك. مهلاً أوقف العربة. لن نذهب إلى فخري. انعطف إلى الميناء الذي يخدم فيه أورخان الشرطي. لا، سنجد فخري أولاً. ثم أورخان. - وحين صاروا على باب المطعم قال له شارل دو فيريول: - اطلب لي فخري دون أن تخرج من العربة.

فتح شارل دو فيريول باب العربة لفخري المعتد بنفسه:

- اركب!

- إلى أين سنذهب؟

- ألسنت رجلاً كما يقول الشراكسة فتسأل إلى أين؟

- إن كان هذا رأيك - ابتسم فخري - فلست محروماً من الرجولة، سأمضي إلى حيث تريد.

- قل لي أين يعيش عصام، سنذهب إليه.

- من ذكرت اسمه لن تجده يا معلم.

- أهو بعيد؟ ألا يعيش في إستانبول؟

- أرسلته إلى حيث لن يعود منه إلى الأبد، إلى "معبر الأموات".

- لم تسكت على الثأر.

- لم أتوقف لأنه يستحق.

- وأطفاله ماذا سيحل بهم؟

- سأرعاهم إلى أن يكبروا.

- وهل سيغفرون لك قتل أبيهم؟

- إن لم يغفروا فعندي أولاد يقفون إلى جانبي.

وفي هذه اللحظة، ودون أن يعرف كيف، ارتسمت مادلين في خياله، وتذكر قولها "سأعود إلى مسقط رأسي شفيसार، حيث لن يراني أحد في باريس أو ميلين، وسأربي صغيري في قرية هادئة بعيدة عن المدينة" وتنهّد شارل دو فيريول عميقاً، شاعراً بالضعف لكونه بقي وحيداً في الدنيا "وهذا فخري أسس أسرة وهو يناضل من أجل حياته وشرفه. واعتنى في الدنيا بثلاثة أولاد، وامرأته حامل بالربيع. وأورخان تزوج منذ عهد قريب وأنا في باريس. وأنا؟ أنا أعيش في الدنيا شجرة حلوة باسقة يشتهني من يراني ولكني لا أثمر... أليس عليّ أن أنفض نفسي يوماً من الأيام؟"

- يجب أن نجد أورخان الآن - قفز شارل دو فيريول من أفكاره.

- ليس صعباً العثور على أورخان - قال فخري وإن لم يُسأل - أود أن أعرف لماذا تحتاجه وتحتاجني. لم يعد الأمر سراً الآن يا معلم؟

- عندي ثلاث مهام، سأتكلم عليها حين نجتمع ثلاثتنا.

لم يكن أورخان بحاجة إلى بحث طويل لأنه كان من حراس سفينة السلطان التركي. ولما كان بقي على انتهاء نوبته في الحراسة نصف ساعة انتظراه في العربة دون أن يترجلا.

ليس نصف ساعة وقتاً قصيراً، يمكن خلالها الحديث في بعض الموضوعات. ولكن مهما تكلمنا لم يكشف شارل دو فيريول عن سبب استدعائه فخري، بل لم يجعله يرتاب فيه. تكلم على البحر والسماء والسفن، وعلى صيد السمك الذي هو أبعد الموضوعات عن اهتمامه. بل تكلم على المغول. ولأن الحديث عن النساء كان يدخل في الموضوعات التي لا بداية لها ولا نهاية فقد كانت الأحاديث تنتهي فجأة دون إكمالها. وكان فخري الجالس صامتاً يستغرب كل شيء في الكونت: طريقة كلامه ونظراته وضحكه وتفكيره؛ تغير كل شيء في السنة الأخيرة.

حين فُتح الباب لأورخان صاحب القد المتناسق في لباس الشرطي لم يُطق الكونت منظره فأشار إليه:

- وهل ستظل دائماً بهذا الزي؟ كأنهم خفضوا رتبتك!

- لا يا معلم؛ إن لم يرفعوها فلن يخفضوها. - أجب فخري بدلاً من أورخان.

- حقاً؟ - حُيِّل إلي هكذا - ثم إني لا أفهم في الرتب التركية - أصلح الكونت موقفه - اركب دون أن يراك أحد. الأتراك والإنجليز والشراسة يلاحقوني بنظراتهم.

تبادل فخري وأورخان النظرات، متجاوزين الأترك والإنجليز، متسائلين عما يعنيه بـ "الشراكسة"؟ قائلين ألا يكفيه شخصه؟ ولم يمتنع أورخان لهذا السبب من الإجابة على موضوع زيّ الشرطة:

- أنا أغير زيي أيها الكونت في البيت فقط.

- لا بأس إذن، أخير السائس بمكان سكنك.

جرت العربة بركابها دون أن يتبادلوا أي حديث. وبدأ الكونت وقد نسي زملاءه في العربة يدندن بلحن أغنية دون كلماتها. ولكنه قطع موسيقاه حين ظهرت دار السفارة، وقال لمولود السائس:

- يكفي ما درناه في المدينة.

فزع أورخان غير عارف كيف يفهم كلام الكونت:

- أألن نذهب إلى بيتي؟

- وماذا أفعل عندك؟ أنا تنتظري مهمات دولية. - وحين تصبح العربة أمام مقر عمله يقفز من العربة دون توديعهما، ويوصي السائس دون تسميتهما: أوصلي هذين، كلاً إلى بيته.

تبادل فخري وأورخان ثانية النظرات مستغربين ما جرى لهما. ولم يكونا يريدان إطلاع السائس، ولو أنه ليس بعيداً عنهما، على شكوكهما. وحين وصلت العربة إلى منعطف الشارع لم يتمالك أورخان نفسه:

- توقف، سأنزل هنا.

- وأنا أمامي عمل هنا. - فرح فخري لما سمع، وحين بقيا وحدهما قال لأورخان: - حسناً فعلت بإخراجنا من العربة.

- أفهمت الآن أن الكونت في حالة غريبة؟

- منذ وقت غير قصير كانت عندي شكوك، على أنني لم أعرف أنه وصل إلى هذا الحد. انظر ماذا فعل بنا اليوم! أضاع علينا نصف نهارنا وهو لا يثبت على قول. لماذا نقف هنا؟ تعال إلى مقهاى. كان المقهى فارغاً لأن الوقت وقت صلاة العصر. وتوضاً فخري وأورخان وصلّيا. وجلسا إلى المائدة. وبعد الصلاة شرع الناس يتقاطرون حتى امتلأ المقهى شيئا فشيئا.

- افتتحت المقهى يا فخري في مكان مناسب، وجهزته جيدا.

- من نفعني في هذا هو شارل دو فيريول الكونت. فشكراً له. اختار لي المكان وأقرضني المال. وخلال عدة أشهر سددت له المبلغ.

- نعم، الكونت إنسان شفيق، طيب القلب. - تنهد أورخان بطريقة أرهقته.

- أترى ما يحدث؟ سليمان هذه المرض. وعصام نال جزاءه. هذان كانا سيئين، ولكن الكونت؟ هل لعنة الله عليه؟

- ليلعنه!

- يا فخري أفكرت في ما قلت؟ سأل أورخان دون انتظار الجواب. - هل أساء إليك شخصياً؟

- ليس بيني وبين الكونت إلا كل خير. ولكن ما لا يغفره الله تعالى لا أغفره له. وأنت تعرف الموضوع. - أجبر عائشة الصبية الشركسية على اعتناق المسيحية - الكاتوليكية. وفي هذا الموضوع لم يتجاوب معي مهما قلت له. وهذا سبب لعنة الله عليه... لماذا تضحك؟

- كيف ستحل لعنة إلهنا على من يدينون بدين آخر؟!

- لا تغلط يا أورخان! اقرأ لنفسك "قل هو الله" ثلاث مرات! - بعد أن شارك المألوم في دعائه وقد أرعبه الموقف، مسح على وجهه براحتيه، ثم أكمل كلامه: - رحمة الله تعالى ولعنته متجاورتان. وهو يرفع أمتة، ويحميها أينما

كانت. لن يتسامح الله مع شارل دو فيريول في حال ارتكابه معصية لأنه من أتباع دين آخر. لا يقبل الإسلام بل حتى المسيحية أي أمرٍ يُفرض بحكم الضرورة. لا أنسى إلى الآن كيف عمّدها في مرسيليا، ولا تزال ماثلة في خيالي. وأعدّ نفسي اكتسبت ذنباً بحقّ عائشة في هذا اليوم حين دخلت معهم الكنيسة بصفتي مترجماً، رغم أيّ مسلم. كنت أود إخراجها من فرنسا غير أنّي لم أستطع. ولم يفِث الأوان الآن فعائشة لم تبلغ الثامنة عشرة. سأجد، كما سبق أن ترجانا الكونت، أحداً من بلادها، والأفضل من أهلها، وسأعيدها من فرنسا مع الأوراق الرسمية اللازمة. ولكن لا أعرف من أين آتي بمثل هذا القريب.

- هكذا تنفذ للكونت مراده! - لم يملك أورخان إلا أن يسأل فخري رغم معرفته بأصل كلامه.

- ألم تفهم أنّي لن أدع عين السفير الفرنسي تقع ثانية وإلى الأبد على عائشة؟
- متى ما أوصلتها إلى إستانبول فسأخذها في اليوم نفسه إلى أهلها الشراكسة. وبهذا أتحلل أمام الله من نذري. وإلا فلن أجد راحة ضمير في هذه الدنيا الفانية يا أورخان.

- ألا يمكن أن أكون أهلاً لعائشة؟ - جمّد السؤال المفاجئ فخري.

- كيف تصبح أهلاً لها ولست من أهلها دون أن تكون من بلاد الشركس، ودون أن تعرف اسم قريتها؟ لا يكفي أن تتقن الشركسية.

- ألم تسمع من عائشة اسم قريتها؟

- نعم، اسمها "قُراي".

- ألا تعرف من أنا يا فخري؟ - يكفيني هذا. سأطلب منها اسم أحد أقربائها من جهة أمها. اختطفوني في طفولتي واستعبدوني. والآن رجعت وأعيش في

"طوابسه" وجئت إلى باريس لأنني سمعت خبرها فقررتُ ألا تضيع بين الفرنسيين. واصطحبتك لأنك تعرف عائشة. وماذا بعد؟ ضحك فخري.

- إن كنت متقناً لمثل هذه القضايا فما حاجتنا إلى أوراق الكونت؟
- خذها منه، لن تضرنا. إن كان سفير فرنسا الكونت سيأتي بعائشة إلى هنا بالخدعة ثم يتصرف معها كما يريد فلماذا لا نخدعه نحن أيضاً كما نريد؟

XIII

فاتت أيام وشهور على فخري وصاحبه وهما متهيثان للسفر. وانقضى الخريف والشتاء. وحلّ الربيع. ولم يكن الذنب ذنبهما بل الكونت الذي كان يتدّرع بشقّ الحجاج، ويظلّ يؤجل إلى الغد وما بعد الغد الأوراق التي يعدهم بها، والتي تسمح لهما باستقدام عائشة إلى إستانبول. وبدون هذه الأوراق لم يكونا يجدان من المناسب ركوب هذا الطريق الطويل.

في يوم حار من الربيع الذي تهيج فيه أمراض الناس أرسل شارل دو فيريول في طلب فخري، وقبل أن يدخل فخري البيت شرع يلومه:

- أراك اختفيت تماماً؟ أعندك مأخذ عليّ أم يحرضك أورخان ذو الرتبة؟ لا تقل شيئاً، أعرف مخططاتكما. ولكني لا ألومكما... أين صديقك أورخان؟

- في العمل أو في البيت؛ أبعثت وراءه؟

- وماذا أفعل بهذا الثرثار؟ لم أفعل. أنت من أحتاجه، وأنت الوحيد الذي أراه صادقاً معي. لا تظننا أني نسيت حديثنا في موضوع أيسيه. سكّث لأنه لم يبق أمامها الكثير لتنتهي دراستها. رأيت شارلوت - إليزابيت أيسيه في الحلم. وخوّلتني في ما سأقول لك. قلت لها إني أريد امرأة سوداء فسمحت لي.

- أتتقصك امرأة سوداء؟... - تعجب فخري - دور الحرام تعجّ بهن.

- ليست من هذا النوع. أريدها معي في البيت. ومتى اشتيتها وجدتها في الفراش. ترضيني وتنقّس عن ضيقي.

- ألن تسمح لنا بإعادة أيسيه إلى إستانبول؟

- ولماذا لا أسمح لكما؟ ألم أقل إن موعدنا هو إكمال دراستها؟ لماذا نناقش؟ لنذهب إلى سوق النخاسة! سأشتري امرأة سوداء أعجبتني.

- أنا لا أعرف الكثير في قضايا النساء.

- لا تعاند! سأبقيها في البيت إلى أن تخبئنا بأيسره إليّ. ثم أحررها بحيث لا تقع عيني عليها ثانية؛ أفهمت؟

- فهمت؛ غير أنني لا أجد الموضوع مناسباً.

- تحدث في العالم أمور كثيرة لا نراها مناسبة. - ضحك الكونت - وهذه واحدة منها لن يضيق عنها- سأحتفظ بها لمدة قصيرة؛ ألا تصدقني؟ إن كنت لا تثق بي فسأريقك بالدعاء الذي تعلمته أمس "قل هو الله".

- لا ضرورة! - نهض فخري فزعاً مما سمع. - لنذهب حيث طلبت و"الله" معي، وإلهك معك!

خرج فخري بصحبة الكونت شارل دو فيريول، وريثما استقلا العربة تلا فخري لنفسه ثلاثة أدعية. وبعدما قطعاً مسافة خرق الكونت الصمت الذي بينهما:

- هل يمكنني أن أحدثك الآن يا فخري؟ إن دعونا أنت وأنا، كلٌّ إلى إلهه، دون اتفاق بيننا فسيحقق لنا مرادنا. لنثق بهما في هذا الموضوع!

"ما أظهر المهمة التي تصحبنني إليها! - قال فخري في نفسه، ثم لامها: - وأنا لست بريئاً يا الله فاغفر لي! لا أظنك لا تعرف ما ننوي فعله الآن. ولكن المرأة التي لا تملك نفسها، والتي يصحبنني إليها، مهما كان دينها، أذهب لأشترتها، وليس إلى مسرح جريمة. ولأنه يقول كما سمعت أنه سيحررها في ثلاثة أشهر فأنا أصدقه. وإذا كان يخدعني فلن أسامحه لأنه يخدع إلهي وإلهه..."

- تعال؛ لماذا لا تزال جالساً - قال شارل دو فيريول وهو خارج من العربة.

- هل وصلنا؟ - تبع فخري الكونت المستعجل الذي لا يلتفت.

الوقت ساعة شرب الشاي من الصباح، ولذا فهو وقت ازدحام سوق النخاسة: البضاعة المعروضة أكثر من الزبن. والرجال والنساء جالسون في مجموعات منفصلة. وما في السوق من أصوات هو أصوات الباعة والشارين ومساوماتهم.

ما أعجب تركيب الدنيا من المتجانسات والمتناقضات! في السوق هذا رافع رأسه اعتزازاً، وذاك مطرق كمدأ. والعبد القانع بعبوديته والذي جرى شراؤه مسرور. ومن لم يُشتر يأمل. ومن لا ينفع لشيء يرثي نفسه.

- انظر، ها هي تنتظري! - صاح الكونت وهو يتابع سيره - هل ترى يا فخري ما أجملها! - وعيناها؟ وتنعكس صورتك على بشرتها اللماعة... أتعرف كم ستكون جميلة ومغرية إن اعتنت بنفسها قليلاً؟ وأيسيه؟ لا. لا أحد يعدلها وهي التي أصونها في قلبي. هل أشتريها يا فخري؟ لا تُدر رأسك! أعرف منذ زمن طويل أنك لا ترى في الدنيا امرأة أجمل من شارلوت - إليزابيث أيسيه، وإذا كنت أرى أيسيه أجمل مما تراها أنت فكما قلت لك، هذه لمدة ثلاثة أشهر فقط، لقضاء الشهوة فحسب.

بعد عدة أيام من شراء شارل دو فيريول للمرأة السوداء أسرع أورخان إلى فخري وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما:

- أتعرف ماذا رأيت في هذه اللحظة؟

- رأيت السفير الفرنسي في الشارع متأبطاً ذراع المرأة التي اشتراها!

- ومن أين تعرفها؟... - سأل أورخان ولا يزال محتدأ.

- إستانبول كلها تتكلم في الموضوع، لا يرون تصرفه لائقاً به.

- ونحن هنا نفكر في ما يمكن أن نفعل من أجل المسكينة عائشة... - دمدم أورخان لنفسه.

- وكيف تتأخر والورقة التي كتبها لي من أجل عائشة في جيبي؟! - نظر فخري

في وجه أورخان بين الحبث والفرح. - لا تعاتبني، أمس فقط جعلته يكتبها. -

وأغرب ما في الأمر هو أنني لست من طلب الورقة، بل جلس من تلقاء نفسه

وكتبها. وفيما هو يختتمها أضاف "ستكمل دراستها ريثما تصل أنت إلى باريس"

- لماذا يا ترى غير رأيك بهذه السرعة بعدما جعلنا ننتظره؟

- يبدو لي أنه نادم على المرأة التي جاء بها من دون عقد زواج. أخبرني أمس أن "لهذه المرأة السوداء رائحة قوية كريهة لا تفوح من غيرها من النساء". هل نذهب إلى باريس؟

- لا داعي للسؤال. ولكن ألا أحتاج إلى إجازة؟ وكم يوماً تستغرق رحلتنا من البداية إلى النهاية؟ حتى لو استغرقت شهراً كاملاً؛ فبعدما عانيت في الأسر لا شيء أضرب به على حرية عائشة.

XIV

الطريق والتفكير متلازمان دائماً. حتى لو سبق التفكير والآمال فالطريق لا يتأخر عنها. وأحياناً يمشيان متجاورين بل متلاصقين. وأحياناً يتسابقان. وأحياناً يشيبان معاً. وأحياناً يفترقان خاويي الوفاض.

يقال إن "من يركب طريقاً لا ينقطع فيه" ولكن كيف سيكون مصير فخري وأورخان؟ أسيكون طريقاً بعيداً قريباً أم طريقاً خادعاً ومخادعاً للذات؟ هذا ما لا يعرفه أيُّ منهما. هذان جرّهما إلى السفر رغبتهما في فعل الخير، لا الجري وراء ربح أو مديح. ولأن "الحزن يبقى في القلب أكثر من الفرح" و"بعد المطر تشرق الشمس، وبعد الشمس المطر" لا يسمح كلاهما لنفسه أن ينسى هدفه من الرحلة. في هذا الأمل الممزوج باليأس الذي لا نهاية له يسافر فخري وأروخان منذ أيام على الطريق الذي لا يعرفان فيه إن كان هدفهما سيتحقق أم لا.

حين تكون على طريق، ومعك غيرك، تتطرقان إلى أمور كثيرة، وتضحك من ذكرياتك، وتفرح لها، وتتسبب في خصام بينكما. مهما تبادل فخري وأورخان الذكريات لم تكن تمضي ساعة يغفلان فيها عن مهمتهما الأساسية، ولا يقلقان لأجلها، ولا يعيدان الحديث فيها، ولا يتبادلان النظرات. ولكن فخري بدأ يروي ما كان يشغل باله إلى وقت وصولهما إلى "ميلين":

- هذه المدينة يحبها شارل دو فيريول. وكان يقضي فيها ليلة قبل وصوله ولو أنها ليست بعيدة عن باريس. ونحن سنقضي ليلتنا هنا.

- هل سننام هنا ليلة لأن الكونت يحب المدينة؟ - سأل أورخان كاتماً عدم ارتياحه للفكرة، ثم أجاب: الظُّهر قريب.

- هذا أمر جيد - ابتسم فخري ووافق زميله: - سنصلي الظهر ونتغدى ونستريح، وأطلعك على أمر يقلقني، ونتكلم في شأنه. وغداً نستيقظ باكراً ونمضي إلى باريس والنهار أمامنا.

نظر أورخان ساهماً إلى فخري وهو لا يرى أي شيء مخيف في كلام صاحبه، ثم سأل:

- ما الذي يشغل بالك؟ أندمت بعدما قطعنا كل هذه المسافة؟

- لا تقلق يا أورخان! إن قلت "ما يقلقني" فهل يعني أنني ندمت؟ - وفيما هما يتناولان الغداء في الفندق أكمل كلامه بقول مأثور تركي: - هل سمعتم يقولون: "سيّان بين أن تكون شاهد زور وأن تكون كذاباً؟"

- لا، ولكن كائناً من كان قائله فلن يقال أصدق منه. ما الأمر؟

- إذن دعنا نقل الحقيقة لعائشة ولا نخدعها!

- كيف عرفت ما في قلبي يا فخري؟ - صاح أورخان. - فكرت واحترت كيف أقول لك هذا. ليس لأني عاجز عن أن أقول لعائشة إني "من أهلها" كثير من هذا القبيل أُجبرت على فعله في زمن استعبادي. وكان معي مملوك شركسي أسنُّ مني، يرعاني ويحرص عليّ، حين يعرف أنني كذبت يقول لي "ما يحنيه الكذب يقوّمه الصدق" وإلى الآن لا أنسى كلامه. وعلى ما فهمت منك فعائشة فتاة لبيبة لا يجوز أن نقول لها ما يدعوها إلى الشك فينا.

- إن كان هذا رأيك يا أخي الصغير فكلامنا وفعلنا متطابقان. إن فهمتُنا فهذا حسنٌ، وإن لم تقتنع ببيّتنا الصافية نحوها ننصرف إلى بلادنا دون شعور بالإهانة، وقلبانّا طافحان بالخير. أسمع؟ لن نبقي في باريس ساعة واحدة.

- صحيح كان الكلام موجهاً إلى أورخان غير أن فخري كان يُلزم نفسه أيضاً بالفكرة.

حين وصل فخري وأورخان في الصباح إلى سان - كول والسحب المقطّعة تغطي السماء قابلاً جانيت - نيكول، كما كانا اتفقا، بحجة أن عائشة في الدرس الآن. ولما كان فخري يعرف جانيت - نيكول وهي تعرفه فلم يضع وقتاً في الحديث بل كاشفها بسبب قدومهما:

- رفيقي اسمه أورخان، يعرف جيداً الشركسية والفرنسية. وهذه الورقة بعثها إليك عبرنا شارل دو فيريول. والأخرى تشهد على أنه يحوّلنا أن نفعل ما نريد. ولهذا لا أحد يستطيع إدانتنا في شأن مهمتنا. ويمكن أن تضيفي إليهما ماكتبه إلى قائد شرطة باريس هنري دو فارغ. وإن أردت الحقيقة فهذه الأوراق رغم أنها من الكونت فليس لأنه قلق على شارلوت - إليزابيت أيسيه. حين نصل بها إلى تركيا فنبته نحوها أمر آخر. - لا نكتم: سيتخذها زوجة!

جانيت - نيكول التي كانت تعبر بلونها عن مشاعرها قالت بصعوبة وهي تكظم غضبها:

- وأنا كنت أشك في الأمر... - ثم ضبطت أعصابها وسألت دون أن يهتز شيء من تقاطيع وجهها: - ولماذا تودعان ثقتكما في؟

- لأننا نأمل أن تفهمينا - قال أورخان مستعجلاً، وأجاب نيابة عن فخري.
- هذا ليس جواباً. - جزمت جانيت - نيكول باختصار. - إن كنتما تريداني أن أفهمكما فأخبراني بنواياكما!

- نحن تركيان. وأنت فرنسية، وأيسيه شركسية. بدأ فخري يحوم حول الموضوع.
- لا مطعم لنا في الفتاة الغريبة التي أجبرت على العيش عندكم. لأن البحر لا يقبل الجسم الغريب بل يلفظه. نوي إعادة أيسيه إلى القوم الذين تنتمي إليهم قبل أن يحدث لها مثل هذا. وبودنا أن نُسدي إلى أيسيه ما أُسدي إلينا

بتحريرنا من العبودية. ربما لمثل هذا يقول الشراكسة: "اعمل المعروف وارمه في البحر!"

- نيتكما خيرة - كنتم جانيت - نيكول الألم الذي يعصر قلبها - شكراً لكم على لهفتكما على شارلوت - إليزابيت أيسيه ولكني أعتقد أنكما تأخرتما... هذا الموضوع لسنا أحراراً فيه، لا أنتما، ولا أنا، ولا شارل دو فيريول الذي فعل معروفًا معكما بهذا الكتاب. والجواب عند شخص واحد:- شارلوت - إليزابيت أيسيه التي حملتما إليها الخبر السار، والآخر المزعج. - لا، لن نبلغ عائشة بالنية السيئة للكونت. - قلق أورخان الذي كان صامتًا. سنخبرها فقط بنيتنا.

- إذن أسألاها، سأستدعيها لكما... - نهضت جانيت - نيكول كالرمح المقوم قلقه، وخرجت من الباب. وحين رجعت أضافت إلى كلامها واثقة أن نيتهما لا أمل في تحقيقها، ضاحكة في سرّها:- إن كانت ستلي طلبكما فلن أقف عشرة في طريقكما.

تجمدت شارلوت - إليزابيت أيسيه التي تغير فيها كل شيء لوناً وجسداً حين رأت الرجلين اللذين بانتظارها، ولكنها سألت بالفرنسية الرجل الذي تذكّرتة:

- هذا أنت يا فخري؟ - لماذا جئت الآن أيضاً؟

- جننا في إثرك - أجاب فخري بالأديغية. - رفيقي أورخان هذا يعرف التركية والشركسية والفرنسية. رجل رزين ولو أنه أصغر مني عمراً. وعنده أسرة. لا نية لنا نحوك إلا أن نعيدك إلى بلادك.

الأمل الذي كانت نسيته في السنوات الأخيرة بعدما ملّت ويئست منه جعل قلبها يثب من مكانه، وتوجهت إلى أورخان وسألته بالأديغية:

- هل أنت أديغي؟

- لا، أنا تركي. أجبها بالأديغية.

- إن لم تكن شركسياً - شحب لون عائشة وأجابت بالفرنسية أورخان الذي كان بدأ حديثه بالأديغية - تكلم بالفرنسية حتى تفهم جانبك - نيكول، وأنت يا فخري أيضاً - وقطعت أملهما مهما كان:

- دعي ضيفك يتكلمان الشركسية، لا تهتمي لي!

- لا! - قالت عائشة وقد تورد خذاها وارتجف جسدها كله - لا أريد سماع لغتهما الشركسية ولا التركية.

- جئنا عبثاً - تحمل أورخان الكلام القاسي الموجه إليهما فتظاهر بعدم الشعور بالإهانة، وقال بالتركية لفخري - هذه صارت من القوم الذين تعيش بينهم، نسيّت أصلها.

- لا ليس عبثاً - أجب فخري أورخان بالفرنسية - لأننا تعبنا ولم نستطع أن نُحسن إلى أيّسبه كما أحسنوا إلينا فسيُفهم الله معروفنا. نحن لا نعتب عليك. - قال لعائشة بالشركسية - ندعو لك الله بحياة سعيدة بين القوم الذين تعيشين بينهم. - أسلّمك هذه الورقة التي أرسلها إليك الكونت شارل دو فيريول.

- كان يجب أن تبدووا حديثكم بهذا - تناولت عائشة الورقة يسبقها لومها - تصفّحت الورقة ورفعت عنها رأسها بسرعة: - ألم أقل لبابا إني لن أضع قدمي في تركيا، دُعك من العيش فيها؟! وبلّغوه عني الكلام نفسه أيضاً.

- سنفعل... - نخض فخري. - وسنبشّره بأنك صرت فتاة فرنسية حقيقية... خلال المدة التي قضّاها فخري وأورخان في الغرفة قلبت ريح الشمال السماء إلى الأزرق. وبدأ المطر الخفيف يشتد.

- عائشة تراقبنا من النافذة... - تألم أورخان لما رأى.

- لا تلتفت! - شدد فخري على أورخان - نحن عملنا ما علينا... لا أصدق
أنها صارت فرنسية الروح. هكذا ستعيش البائسة حياتها في بلاد الغرب.
كانت عائشة تبكي بدموع ليس أقل من المطر الذي تنثره الرياح الباردة على
زجاج النافذة.

الكتاب الرابع

I

يوم خريفي صاح دافئ. وفناء آل فيريول المزيّن بالأزهار الملونة والأشجار المتنوعة والدروب المتقاطعة مكان يشرح القلب ويبعث في النفس الأفكار فجأة. وأمام القصر تنتصب شجرة البطم الضخمة التي تحبها عائشة وتكلمها أحياناً في ساعات فرحها وساعات ترحها كأنها خارجة من قصة.

أهناك شجرة بلا أغصان؟ إن وجدت فرما قلموها، أما أن تُخلق هكذا فمستحيل. واضح لماذا تنبت الشجرة بأغصان كثيرة: لا تخفي جمالها، يراها أي إنسان. تؤوي من يشكو الحر إلى ظلها. وتحرق نفسها لمن يشعر بالبرد، والعصافير تتخذها مسكناً ومستراحاً: بعضها دون صوت، والآخر مغنٍّ، وبينها من يبني عليها عشه.

وليست العصافير وحدها؛ فالنسيم الخفيف المرهق يستريح بين أوراقها اليابسة. وحين يأتي الشتاء فتجابهه بأغصانها العارية تعيش على انتظار الربيع. وتفرح لقدم الصيف، وتشتاق إلى الخريف.

كانت شارلوت - إليزابيث أيسيه التي أنهت دراستها في سان - كول جالسة في ملتقى كلودين - ألكسندرين الأدبي الذي يقام في الفناء، ورأسها مشغول بهذه الأفكار المقلقة.

- أيسيه؛ ماذا ترين في هذه الشجرة، أنت لا تُصغين. - توقفت كلودين - ألكسندرين عن القراءة ولامت عائشة.

- أيسيه تعيش الآن في هذه اللحظة في عالم آخر - عقّب فولتير.

- ليست أيسيه في عالم آخر - لم يقبل أرجنتال ما قاله فولتير وقال ما يعرفه -
إنها تكلم الشجرة. أليس كذلك يا أيسيه؟

انفجرت ماري دو لافيفيل ضحكاً لما سمعت فوافقتها بون دو فيل وماري دو
فيشي شامرون، أما كلودين فاكتفت بالضحك.

ليس في ما قال أرجنتال دو فيوريل الكونت ما يُضحك - قال مونتيكيو
بصوته الرفيع. - إن تخيلت الشجرة تفهمك أمكنك التحدث إليها وعدم
التحدث. اغفري لي يا كلودين، عند الأشجار حكمة أكثر مما تروين أنت..
دعي من يُخَيِّل إليهم أن الأشجار كالناس يحكون لك رأيهم. إن وافقتموني فأنا
أول المتكلمين. ولكن إن كانت شارلوت - إليزابيت أيسيه ترغب في الكلام
فسأتنازل لأنها امرأة.

- إن كان هذا رأيكم فسأقول رأيي في الأشجار؛ لا تسخروا. - بدأت عائشة
يغلبها الخجل - أحب الأشجار. وتبدو لي أحياناً كالناس. أحدثهنَّ ويحدثني.
ها هي شجرتنا العملاقة؛ انظروا إليها. يروون أن جد بابا هو من زرعها. وإلى
الآن ما زالت تحرس نسب آل فيريول الكونتات. كبيرة، جميلة، متينة الجذور
والجذع والأغصان. وأنا في البلاد التي جاؤوا بي منها بلاد الشراكسة، كانت في
دارنا شجرة عملاقة من هذا النوع، لا أدري إن كانت ما تزال حية... ربما
كانت هي السبب في حيي لهذه الشجرة ولهذه الدار... - أكملت عائشة
بعدما ضغطت على قلبها الذي بدأ يتخاذل: - ربما زالت من دارنا لأن جدي
كانت تقول: الأشجار تموت مع أصحابها... ولذا ليس كلُّ جميلٍ قويٍّ مثل ما
نريد في هذه الدنيا.

- ويصدف أحياناً أن تملَّ منها - قال فولتير بين الموافق والمعارض لكلام
عائشة.

- كيف تفهم هذا؟ - رفّت عينا ماري دو لافيفيل النديتان الصغيرتان.

- ربما، كما أنك حين تنظر في وجه إنسان قبيح يغلي قلبك - تذكر بون دو فيل العجوزَ المقعد الذي يمر كل يوم من أمام البيت.

- إن كنت تقصد يا بون العجوزَ الذي يذهب إلى السوق - قال أرجنتال لأخيه الكبير - فإنه يَحِينَا، يرفع لنا إبهامه. أليس من حقه أن يعيش؟ يبيع ويشترى و يترجى ويتشاجر.

- تعتاد على من هو ماثل لعينيك دائماً؛ أليس كذلك؟ - سألت كلودين - ألكسندرين ابن أختها.

- لا يا كلودين - نابت عائشة عن أرجنتال - لا ترى في من اعتدت عليه جماله ولا قبحه. إن كنا سنكمل الغد بيوم آخر مشابهٍ فلن يعود فيه ما يُتَعَجَّب منه.

- والحب؛ أهو كذلك؟ - سألت ماري دو فيشي شامرون عما يشغل بالها. - ابتسم مونتسكيو غير منكر اعتداده بأنه أكبر الحاضرين، وبالنقاش الذي حمي. وأفهم كلودين بعينه أن تسمح للحضور بالنقاش دون مقاطعة.

- أي حب تسألين عنه يا ماري؟ - أكملت أيسيه كلامها - أنا أميز ثلاثة أنواع من الحب، وقد تكون أكثر: حب الأبوين لأولادهما، والحب بين الرجل والمرأة، وحب الإنسان للحياة. ليس عندي معلومات في النوع الثاني، وفي النوع الأول سأروي لكم ما كانت جدتي ترويه "لا يجوز للأُم أن تبالغ في حب أولادها" كانت تقول "المزاح ينتهي بالقتال" كانت هناك أمٌّ لا تضع حدوداً للحب، ولا تقول له "قف!". وحين يقال لها: "لا تدعي طفلك يلعب بالمقص" تجيب "ماذا سيجري له إن لعب به" ويروون أن الطفل قلع عينه بهذا المقص، ويسمون مثل هذا "الحبَّ الأعمى" فادعُ الله أن يحملك منه. وأما حب

الدنيا فيمكن أن يقال فيه الكثير. شجرتنا العملاقة هذه، كما قلت، أحبها. وهذه تغير نفسها كل عام أربع مرات. وفي كل مرة تعاني الكثير. البرد يجمدنها، والحر ييبسها، والريح تهاجمها، ولكنها مهما عانت تنظر إلينا منشرحة كأن شيئاً لم يحدث لها.

- على ما تقولين يا أيسيه - ما إن انتهت عائشة من كلامها حتى أكمل فولتير أفكارها: - الأشجار تحمل منافع كثيرة للإنسان، وأعرف فائدة كبيرة للبشرية في تطور ذكائها. وهذه ليست سرّاً عليكم ولذا أقولها: الشجرة كانت السبب في اختراع الفأس.

- كيف يا فولتير؟ - سألت ماري دو لافيفيل وهي تتودّد لفولتير، وعدم فهمها لِمَا سمعت أعجب من سؤالها، ولم يكف هذا السؤال الغبي بل سألت مونتسكيو: - وهل تستطيع الأشجار أن تفكر في اختراع الفأس؟

- لم تجتمع الأشجار لتخترع شيئاً - كان بودّ مونتسكيو أن يبتسم ولكنه تراجع: - حين عجز الإنسان عن الاستفادة من الشجرة فكر في اختراع الفأس القادرة على مقارعتها. في البداية من الحجر ثم من الحديد.

- إذن صنعوا يد الفأس من الشجرة نفسها؟ - لم تتأخر دو فيشي شامرون ماري عن تزيها.

- صحيح - يا ماري تفكرين بطريقة صحيحة. - وافق فولتير الفتاة التي يراها خفيفة الرأس، والتي عينه عليها، معتداً بأنهم ما يزالون يتناقشون في الموضوع الذي طرحه: - وإن فكرت أيضاً يمكن إضافة أمر آخر.

- أنا أعرف.

- تعرف كل شيء، وتحشر أنفك في كل موضوع - غضب بون دو فيل الجالس منطوياً على نفسه كأبيه - هلاً تقولين شيئاً له يا كلودين!

- إن أجبرتُ جان على السكوت يا بون - قالت كلودين - ألكسندرين - فلن نعرف رأي أخيك الصغير. وإن بدأت أتصرف معكم هكذا فماذا ستقولون لي؟ الأفضل أن ندع كل شخص يعبر عن رأيه.

- برافو كلودين - ألكسندرين - صفق مونتسكيو، وبرأ نفسه تجاه بون دو فيل: - ساحني يا كونت؛ كما قالت كلودين - ألكسندرين، إن لم نتعامل هكذا فسيصبح صالوننا الأدبي الذي ننتظره بلهفة مملاً، ثم نفترق.

- هل فهمت؟ - خفّ أرجنتال مرة أخرى، ولكنه رأى أخاه الكبير ينهره بعينه فانكمش: - حسناً لن أقول شيئاً آخر. وإذن اسمحوا لي أن أقول ما أعرف: وكالفأس كانت الشجرة سبباً في اختراع المنشار؛ أليس صحيحاً يا أيسيه؟

- نعم يا جان، في كلامك نصيب من الصحة - نظرت عائشة الآن وقد شحب وجهها نحو شجرتها العملاقة التي تهمس في الوجود بأوراقها الصفراء المائلة للحمرة. وسألت نفسها وقد ثقلت عليها أفكارها وكأنها تُسمع نفسها:

- هل ستكون نهاية هذه الشجرة الرائعة يوماً ما على يد الفأس والمنشار؟ - أتعرفين يا أيسيه ماذا كان سيحدث لنا لو كنا نعرف ما كُتب على جبيننا؟ - سأل فولتير ضاحكاً وأجاب: - كان كل إنسان مات عاجزاً عن فعل أي شيء، متأثراً بما سيحدث له.

- لا أريد أن أعرف ما كُتب على جبیني - ارتعب الحاضرون حين صرخت فجأة ماري دو فيشي شامرون. واعتذرت عن فعلتها: - سامحوني؛ الحياة جميلة، حلوة؛ أريد أن أعيشها وأسعد فيها. لنغيّر الموضوع يا كلودين!

اتجهت عيون الشباب إلى الكونتيسة ماري- أنجيليك التي كانت قادمة تخطر في مشيتها تضيفي الجمال على أرض الدار الخريفية. كان عتابها يسبقها رغم ابتسامتها الظاهرة: - لماذا تجلسون مطرقين؟ هذه السنة أنهت شارلوت -

إليزابيث أيسيه وبون دو فيل وفرنسوا فولتير الدراسة. لماذا لا تهنئون أنفسكم؟! نعم، نعم - استعجلت الكونتيسة حين تذكرت: - أتذكر أنكم تبادلتم التهاني في اجتماعكم السابق، افرحوا، لن تلحقوا غداً بشبابكم الفائت. ولن يلتفت إليكم ولو صحتم وراءه.

- ما أشد أناقتك اليوم يا ماما! - تفحص أرجنتال أمه.

- وأنت يا بني حين تنتهي من دارستك سأأتق لك أكثر من هذا اليوم. ولكن إن أردتم الحقيقة قلت لكم: - تأنقت لأنكم دكرتموني بشبابي... لماذا أنت واقفة يا أيسيه؛ اجلسي. - قالت لعائشة التي دفعته تقاليد قومها إلى النهوض لماري - أنجيليك.

- كم قلت لك يا أرجنتال أن لا تجلس في حضرة الأكابر منك سناً! - لامت عائشة الصبي بحيث يفهم الحاضرون.

كان أول من فهم الموضوع هو مونتسكيو فنهض، وحذا حذوه فولتير وبون دو فيل وأرجنتال. وكذلك الفتاتان. وقالت كلودين - ألكسندرين التي تأخرت عن الآخرين، وهي تبتسم:

- سنتحدث في الاجتماع القادم على تقاليد الأكبر والأصغر فاستعدوا للموضوع. واسألوا أيسيه الخبيرة بكل شيء... - نطقت اسم عائشة وهي تضحك في سرها.

- وسيكون اجتماعاً مهماً. - وافقها شارل مونتسكيو متجاهلاً العبارة الأخيرة لها.

- إذن دعونا نتكلم على العلاقة بين الرجال والنساء. - فاجأت ماري دو لافيفيل الحضور وكأنها قادمة من عالم آخر.

- كفى يا كلودين! لا تستأنفوا جلستكم بعدما نهضتم. - قالت ماري -
أنجيليك عارفة أن هناك ما لا يعجب أختها الصغرى - تعالوا! الغداء ينتظركم.
لم يُطل الأصاغر سنًا الجلوس على المائدة الخالية من الشراب. فقد نهضوا بعدما
شربوا شيئاً من الماء المحلى.

حين انصرف الجميع وبقيت الأختان وحدهما، صرّحت ماري - أنجيليك بما
يشغل بالها:

- كم قلت لك يا كلودين ألا تناكفي أيسيه هكذا ولا تغمزي من فناها؟ أليس
نحوض الأصغر للأكبر عادة جميلة ومعبرة عن الاحترام؟ ألم تري كيف فهم
مونتسكيو وفولتير الأمر بسرعة فنهضا؟ أم تحسدني لأن أيسيه نهضت
لأجلي؟

- يا ماري، لا تكوني حساسة بهذه الطريقة! - نظرت كلودين إلى أختها بوجّه
وإن كانت تلومها ظاهراً: - أظنّين أيسيه تنهض علامة احترام لك وحدك؟
أريها دميةً تجديها نهضت لها!

- يا كلودين! ارتفع صوت ماري - أنجيليك.

- حسناً حسناً، ولكن ليس ما في قلب الفتاة الشركسية التي أسكنوها بيتك
مثلاً ما على لسانها... سأقول لك شيئاً آخر مادمت بدأت: لا أطيعها! من
أول عمرها تتأنق وتدلّل نفسها. أتعرفين ماذا ستصبح في غضون سنتين؟

- ماذا تريدان أن تخبريني؟

- لا أعرف، فكّري! تعرفين متى سيتضح كل شيء؟ حين يعود لاروش من
إستانبول التي أَسْتدعي إليها ثانية.

- إن كنت تعرفين عن الكونت ما لا أعرف فلا تكتميني!

- لا شيء تجهلينه مما أعرف. - قالت كلودين لأختها وهي تحدّق في عينيها وإن لم تكن تثق بها، وأضافت: - غير أنني لا أعرف لماذا لم يأت الكونت بنفسه إلى شارلوت - إليزابيت أيسيه دون إرسال الرسل؟

- أيُّ رسلٍ؟

- ألم يقل لك بيير شيئاً؟

- لم يقل لي أحد شيئاً - تشتّت عينا ماري - أنجيليك بسبب الخبر المزعج الذي لم يكشف لها عنه: ما أعجب ما يفعل هؤلاء من ورائي؟ أنا الآن من لا تتقون به؟ أؤكلوا إليّ تربية الصبية الغريبة وهم يفعلون ما يريدون... - هُرعت ماري - أنجيليك إلى عينيها بالمنديل ثم رمته على المائدة: - لست إنساناً يا كلودين! لا تسميني بعد الآن أختك!

- كفى يا ماري، لا تغضي! - كانت كلودين جالسة وقد لقت رجلاً على الأخرى، دون شعور بالذنب - لم يحدث لنا ما تفنين نفسك لأجله، انصرف الضيوف كما جاؤوا. الأهم من هذا هو إقامة الكونت في إستانبول غير عارف ماذا يفعل.

- عندي شيء من العلم بهذا. سنعرف المزيد حين يعود لاروش.

- ليس لاروش من كان يجب أن ترسله إلى إستانبول بل زوجك أوغستين - أنطوان.

- وهل هو طبيب لأرسله؟! - احتدت ماري - أنجيليك بصوتها. ثم اختتمت نادمة: - ألا تعرفين من أي نوع من البشر هو؟ تقوم القيامة ولا يتحرك!

- ولماذا تزوجته وأنت تعرفين هذا منه؟ - سألت كلودين دون مبالاة.

- تزوجته لأنكما أنت وبيير كنتما صغيرين، كنت أريدكما أن تعيشا دون أن تحتاجا أحداً. - مدت ماري - أنجيليك مرة أخرى يديها إلى عينيها بالمنديل

— والآن لا أحد يحتاج إلي! ولم يكف أن أربي أطفالي بل أضافوا إلى حملي فتاة غريبة.

قفزت عائشة إلى غرفة الطعام تطير من الفرح، وتضوع عطراً. وحين رأت ماري — أنجيليك التي كانت تمسح دموعها سألتها وهي تعانقها:

— لماذا تبكين يا ماما في هذا اليوم السعيد؟ — يا كلودين هل أحزنها أحد؟
— لا أعرف؛ أسأليها! — أجابت كلودين بمنتهى البرودة، وخرجت من الغرفة بقامة في منتهى الرشاقة والاعتداد.

— هل تخصمتما أنت وكلودين يا ماما؟ سألت عائشة عما تشك فيه وهي تربت على كتف ماري.

— لا يا أيسيه لا شيء بيننا! — أجابت ماري — أنجيليك ببراءة دون خبث أو موارد. — بل لأني سمعت أنهم كانوا قد أرسلوا وراك رسلاً من إستانبول.

— يا ماري — أنجيليك يا ماما — ضمت عائشة إليها الكونتيسة على نحو أقوى وهي تضحك، وقبّلتها على وجنتيها — لا تهتمي بالأمر، ماكنت أريد أن أشغل بالك. ومن أثنائي رجع بحُفّي حنين. أتعرفين ما أزعجني أكثر من هذا الموضوع؟ كتبت بعد الرسل مرتين إلى بابا فلم يرد علي. ربما كان ينتظر انتهائي من الدراسة ليهنئي. غير أنني لا أعرف سبب استدعاء لاروش من جديد.

وأنا مهمومة بهذا يا أيسيه. أتعرفين ما أشك به من ناحية لاروش؟ يجب الكونت أن يعزف له لاروش ومن أين يأتي في إستانبول بعازف فرنسي؟ ربما لهذا السبب؟ يقال إن السفراء يشتاقون إلى بلدانهم إلى حد إضاعة الرشد.

— كتمت ماري — أنجيليك وهي تخبر عائشة بمعلوماتها القليلة عن ابن حميها، ما نشب من سوء تفاهم بينها وبين أختها. ولكنها سألتها بأسلوب المزاح: — لم تعلقي يا أيسيه على ثوبي الذي خطته حديثاً، ألم يعجبك؟

- جميل جداً! لأجل هذا كنت جئت إليك. ولست وحدي من أعجب به بل فيفيل وصاحبته أيضاً. وماري دو فيشي شامرون تدعوك "الكونتيسة الجميلة".
- وماذا عن فولتير ومونتسكيو؟ - سألت المرأة التي استقلت المدايح فيها وفي ثوبها وتريد أن تعرف حتى آراء الرجال.
- من عددت أسماءهم يا ماما أناس حكماء قرؤوا الكثير، وهم يرونك جميلة. وأعجبهم ما قلت لهم.
- ثوبي، عن ثوبي أسأل. - قاطعت ماري - أنجيليك عائشة - أعجبهم ثوبي؟ أيتناسب مع قامتي؟
- نعم، نعم يا ماما.
- هذا هو يا أيسيه. تظنيني أبكي ولكني أبكي من الفرح، هل فهمت الآن - موّهت ما رآته عائشة قبل لحظات، ومسحت على قامتها. - لا تقلقي يا ابنتي؛ كل شيء على ما يرام.

II

اليوم بعد الظهر، تردد صدى الخبر السار الصادر من إستانبول في المدينة. وُلِدَ حفيد للملك لودفيغ الرابع عشر؛ ولذا يحتفل شارل دو فيريول في مقر السفارة بالحدث، فتفرق الطبول ويُعزف على الأوكوردون، ويشرب الضيوف قنتصاعد أصواتهم إلا وقت صلاة العصر فيخفضونها عن المصلين. والجيران القريون والبعيدون ضاقوا ذرعاً بأصوات الرجال والنساء الفاجرة.

يجلس شارل دو فيريول متبوءاً صدارة الغرفة، مرتدياً بنطالاً أسود قصيراً وقميصاً أبيض قصير الكمين، والصليب يتدلى على صدره، واكتسى وجهه بالأحمر لكثرة ما شرب. وعلى الجانبين كومة من النساء أشباه العاريات. وامرأة المتعة السوداء التي اشتراها في الربيع، والتي ينادونها بـ "السوداء" على يمينه، وعشيقة لاروش التي جاء بها في الأحد الماضي لولو الشقراء الرقيقة إلى يساره. والحضور تسعة بمن فيهم لاروش والسائس مولود والكونت نفسه.

ليس سهلاً قيادة النساء حتى لو كنّ صاحبات. ولكن ادع الله ألا تراهن ثملات؛ لن تستطيع السيطرة عليهن ولو كنت سلطاناً. وكلٌّ منهن تجد ما تقول وما تفعل. هذه تصيح وتلك تضحك، والأخرى تغني وترقص. ولاروش، وقد انتشى بما شرب، يغني مع عزفه. ومولود السائس الذي لم يذق الشراب قبلُ يقرع على طبل محشور بين ركبتيه دون أن يعبأ إن كان قرعه متناغماً مع العزف أم لا. تنهض المرأة السوداء وتقدم ثدييها الضخمين للكونت وتبعدهما وترقص لتغريه أن يرقص معها. وعشيقة لاروش الشقراء الرقيقة تقف على طاولة وتهمز مؤخرتها المدورة معتدة بجمالها ومهارتها. والبواب النحيل جداً يختلس النظر إلى النساء العابثات وهو يصب لمن الشراب. وهن يغمرنه متوردات الوجوه ويلهون معه.

حين سمع مولود صوت الأذان كفّ عن قرع الطبل، وأنصت برأس مرفوع جافل. ثم شرع في الوضوء وقد انتبه إلى الإثم الذي يكسبه من إطراب هؤلاء السكارى.

- إلى أين تمضي مقاطعاً سرورنا؟ صاح الكونت وراء مولود. - أمن أجل أن تقف أمام "الله أكبر"؟ - وجعل الكلام المغرض المهين مولوداً التركي المخلص لدينه يتسمر في مكانه ولكنه لم يلتفت. - لا إله إلا لاهو، الله أكبر... - حين سمع مولود الكونت يقلد المؤذن انفتل بجذع غاضب متوثب:

- حاولت ألا أرد عليك ولكن أيّ منكر تقول يا عديم الإيمان. توقف حالاً! - حين نظر إليه السائس بجسد ممتلئ متين ركض إليه البواب ولكن مولود أزاحه بصدرة، فأسرع إلى الكونت الذي توقف عن "أذانه".

- مهلاً، مهلاً مولود! - ركض لاروش والأوكورديون برقبتة - هذا الرجل شارل دو فيريول هو سفير فرنسا!

- أعرف أنه سفير وأنه ملحد، ولكني لا أسمح له ولغيره كائناً من كان، أن يهين الله! اغفر لي يا إلهي وقوعي بين هذه المجموعة من الأبالسة. ولكني بهذا - ومد يده إلى الطاولة واختطف زجاجة - أكفّر عن ذنبي أمامك، - ورمى الزجاجة أرضاً وكسرها.

- برافو يا مولود! - صاح شارل دو فيريول وصفق لسائسه. - إن كان "براو" أو لم يكن فأنا أنهي عملي معك الآن. - قال مولود، وفيما يفكر في أن ينهي بسلام علاقته بالكونت الذي كان يتسم له صدرت ضجة من جهة الباب.

- ما الذي جرى على بابنا؟ - سأل الكونت شارل دو فيريول بلا مبالاة، وأضاف رافعاً الكأس لنفسه: - قولوا لمن جاؤوا يهنئونا: شكراً لكم. وإن كان

لهم نية أخرى فتأكّدوا، وإلا فلا تهتموا بهم. وإن كنت تريد الاستقالة يا مولود فأنت حر. لن أعدّم سائساً مكانك. ولكن فكّر حتى وصولك إلى الباب. لم أقل لك شيئاً.

- لا تترجّح أيها الكونت! - قالت المرأة السوداء لشارل دو فيريول. - ما حاجتك إلى من لا تريده ولا يريدك؟ - سأعمل أنا سائسة عندك. في النهار سائسة وفي الليل كما تعرف. - أنهت كلامها في منتهى الحماسة.

- وإن احتاجك في النهار؟ - سألت المرأة الشقراء الضخمة التي جلبها من دار الحرام والتي كانت إلى وقتها مشغولة بالطعام والشراب.

- سأكون حاضرة ساعة يطلبني - أجابت، دون تفكير، المرأة السوداء المنسجمة مع سلوكها العاهر.

- وأنا أستطيع العمل سائسة! - قفزت لولو الرقيقة.

- لا تصدعي رأسي يا من يأخذك الهواء يميناً ويساراً! - نهرتها المرأة السوداء - افرحي إن استطعت إشباع لاروش.

- أكان جاء بي عشيقتي إلى إستانبول إن لم أكن أستطيع إرضاءه؟ - أضافت لولو إلى ما قالت وهي تشعر بالإهانة - قل يا لاروش لهؤلاء كيف أنا!

- برافو لولو - صاح لاروش مع العزف.

جين رجع البواب سأله الكونت:

- ماذا جرى لك حيث كنت؟

- عدد من الأتراك، وبينهم امرأة ترتدي النقاب عنيقة تجمّهروا عند بابنا.

- وماذا يقولون؟

- لا يطبقون أصوات نساتنا.

- وأنا لا أقول شيئاً غير أنني حزين لعدم سماع أصوات النساء المرحات في إستانبول. - تظاهر الكونت بالمزاح ولو أن الخبر الذي نُقل إليه أزعجه. - نحن في دار السفارة، وكما اتفقت الدولتان نحن في أرض فرنسية. ولذا لن نسمح لأحد أن يعكّر فرحة ملكنا المعظم. أنت يا لاروش اعزف على الأوكورديون، وأنت يا ديستان على الطبل. وأنتم أيضاً يا أحبابي امرحوا وأسعدوا أنفسكم. أدعو لكم أن لا تروا إلا الأفراح، وأن تحبوا وتحبوا، وتعيشوا طويلاً طويلاً حتى تهرموا. - قال الكونت رافعاً الكأس. وانتظر الكونت حتى شربت النساء اللواتي صحنَ صيحة النصر، ثم أتى على كأسه. - لا أريد أن أشيخ، أريد أن أعيش شابة أبداً! - ففرت لولو ثانية إلى ما فوق الكرسي.

- صُوبوا! - نهض شارل دو فيريول خفيفاً متصنعاً الشباب بقامة رشيقة، وأمسك بالزجاجة - لنشرب نخب شباب فرنسا الدائم!

لاروش يعزف، ويغني مع العزف، ويدندن دون كلام معه. وديستان، ولو أنه لا يجيد القرع، كلما رفع صوت القرع اهتزت الرؤوس له كأنه يعزف لحناً ما. والكونت يوقع برجليه وبأصابعه السمينية على الطاولة كأنه يتابع ديستان. وتتقافز المرأة التي جاؤوا بها من دار الحرام بقدمين عاريتين بحيث لا تعرف أترقص أم لا لأنها لا تتحرك من مكانها، وتصيح بصوت ضعيف ثم تصرخ. والمرأة السمراء حين تغني بلسانها يتوقف الأوكورديون والطبل، ويهدأ الراقصون الصاخبون. ويرتفع صوت المرأة السوداء مع غياب الشمس وحلول المساء. يتردد صدى صوتها في الأفق حتى ليصل إلى قصر السلطان. ولا يعبأ أحد من المحتفلين باحتجاجات الجيران ولا بالصبيان الذين يرجون بالحجارة.

والآن سُمع صوت طرق على الباب. وتبع الطرق صوت قوي حاد:

- افتحوا الباب باسم الله لمعاون الوزير - النساء اللواتي سمعن اسم "الوزير"، باستثناء السوداء ولولا، تركن المائدة وتوزعن في أنحاء الدار على غير هدى، واختبأن. ومن بقي منهن على المائدة قال لهن شارل دو فيريول:

- اجلسن أنتن. أعرف ما سأقول لمعاون الوزير إن كان آتياً لتهنتنا أم لسبب آخر. - قال لنسائه المخلصات، وهو يتوقع سبب زيارته، وإن صحَّ ما يتوقعه، ولكن ينوي أن يلبس، أوعز الكونت للحراس: - افتحوا له!

- حين رأى الكونت معاون الوزير وعدداً من مرافقيه يدخلون الدار على خيولهم فهم أن مقصدهم ليس خيراً، فاستراح على نفس الطريقة التي كان عليها.

- قبل أن تُطْلِعك على سبب قدومنا كان بودنا أن تحيي معاون الوزير - قال الفارس الأول. وترجم أورخان إلى الفرنسية.

- إن كان لجلوسي فأنت أيضاً على ظهر حصانك. أسمعك، ثم لا تنس أن الدار التي دخلتها دون استئذان هي أرض فرنسية.

- إذن نحذرك: أَسَكَبَتِ النساء الساقطات اللواتي يخرقن أخلاقنا وتقاليدينا الإسلامية.

غامت عينا شارل دو فيريول الناظران كلٌّ في اتجاه. وارتفعت كتفاه وانخفضتا. وقرب إليه وهو يضحك القدح الفارغ. وأبعده. ونادى النساء المختبئات بصوت عذب:

- يا ضيفاتي الصغيرات الحلوات. أين أنتن، ممن تحبّين شفاهكن الدافئات ونظراتكن اللواتي تفطر القلوب. عُذْنِ إلى مائدة عيدنا. يا ديستان املاً من النيذ، سنشرب من أجل أن يعيش حفيد ملكنا المفدى، ويكون مولده سعداً على فرنسا. وتصبح محظوظة على شرفه. ولا تحرموا ضيوفنا. إن كانوا لا يشربون

فليس عيباً؛ اسقوهم، وليقاسمونا فرحتنا! - قال رافعاً كأسه للنساء اللواتي عاد إليهن شيء من الأمان. - عاش حفيد ملكنا المعظم وليكن حظه حلواً!

عادت النساء ثانية إلى الصراخ والتصاييح. ورفع لاروش من درجة اللحن. وبدأت المرأة السوداء التي كانت نامت إلى جانب الكونت تقرع الطبل. والمرأة البدنية ذات الشفتين الغليظتين التي حلت محل لولا الرقيقة التي زادت رقة والتي عادت إلى الصمت، عادت إلى الطاولة ترقص رقصة لا تلائمها البتة محرّكة مؤخرتها المستديرة.

- توقفن عن هذا السلوك المشين! - لم يُطق أورخان صبراً.

- هذا أنت يا أورخان؟ - سأله شارل دو فيريول كأنه يراه لأول مرة. - ظننتك فخري؛ ترحّل! لست ضعيفاً. أنت أشدّ إلى أي امرأة باستثناء سمرائي مُسعدة القلوب، نعم، نعم يا لاروش. - أوعزّ إلى لاروش الذي أوقف العزف، وباستثناء "لولاك"، وأعطيك إياها على إشارتك، وأُسعدك معها. أما مللت من زوجتك إلى الآن؟ آه نسيت أنكم أيها المسلمون يحقّ لكم أربع نساء؛ فلماذا لا يحقّ لي الاستمتاع بجميالاتي؟...

- ماذا يقول هذا؟ - سأل معاون الوزير العبوس ذو الوجه الطافح.

- لا تهتم بما يقول، هذا حين يشرب يفقد وعيه أحياناً - لم يكتفِ أورخان عيب السفير الفرنسي.

- بما أن هذا سفير دولة ولا نستطيع معاملته وفق قوانيننا فسنعتقل ضيوفه الذين أقلقوا راحة الجيران وأسأؤوا إلى تقاليدهم. ترجم له يا أورخان!

- لن تمدوا حتى أناملكم على نسائي. ليست من صلاحياتكم. - وقف شارل دو فيريول حالاً، والتقط فوراً عصاً مما تُعلّق به الشموع المضيئة لأرض الدار. - إن حاولتم أن تفعلوا فاذنوا بحرب من فرنسا على تركيا. أترون مستودعات

البارود التي تفنيكم وتفنينا. وفي القبو المزيد. سأفجرها وأنسف الحيّ، وكذلك قصر سلطانكم. اخرجوا حالاّ ولا تدعّوا خيولكم توسخ أرض فرنسا النظيفة! - أسرع الكونت بلا وعي إلى مستودعات البارود.

حين صقّر لاروش في إثر المنسحبين تضاحك المشاهدون المتتبعون باستثناء السفير الذي كان يعي شيئاً فشيئاً عاقبة ما فعله.

- ما كان عليك أن تصقّر لهم... - لام لاروش. ثم صرخ في وجه النساء اللواتي لّمهن ارتجالاً: - وأنتن تفرّقن بسرعة. وهنا ننهي احتفالنا. وسيدفع لكم ديستان أجرة يومكّن. ارحلن، لم يعد عندي سائس يحملكن. سأجدكن متى احتجت إليكنّ.

في صباح اليوم التالي قرع شخصان باب شارل دو فيريول: أحدهما مسؤول العلاقات التركية الخارجية، والثاني أورخان. - العامل في مركز تأديب الشرطة. - ما في هذا الكتاب يا سفير فرنسا - قال الرجل الذي مدّ إليه الورقة - يجب تنفيذه خلال أربع وعشرين ساعة. وإن لم يخرج ضيفك لاروش وأثناء لولو في الوقت المحدد فسيتم إخراجهما بالقوة تعرف أن لا مردّ لأوامر سلطاننا الذي وضع الله بيده أرضنا وبحرنا.

- إن كان السلطان أمر هكذا فضيوفي يركبون اليوم إلى بلادهم. - لم يملك السفير رغم قصر جوابه إلا أن يعرّض لأورخان: - تصرفتم معنا على نحو جيد! - لم يفعل بك أحد ما لم تعمله بنفسك - ناكده أورخان بالمثل.

حين أخبر الكونت ضيفه لاروش بالخبر المزعج، لم تمّهله امرأة السفير السوداء ليجيب بل بادرت:

- وأنا، ماذا سيكون مصيري؟

- من يسأل عنك أنت! - نهرها الكونت، ثم غيّر الموقف بسرعة: - لا أحد يحتاجك غيري. لا تقولي كلاماً فارغاً.

كان مرض الذهول يتفاقم يوماً بعد يوم مع شارل دو فيريول ولا أمل في شفائه. وأسوأ ما في الأمر أنه لم يكن عارفاً بمشكلته. أحياناً حين ينتبه متأخراً إلى عدم تطابق أقواله وأفعاله كانت الذريعة التي يجدها لنفسه هي كثرة النساء اللواتي يعاشرهن. وحين يبدأ المرض الذي لا يتعرفه في نفسه يتسلل إليه كان يبدأ يكتب إلى عائشة معاتباً. ويرسل إليها أنه يسافر في كل شهر. ولكن حين تشتعل في إستانبول قصص حبه المتسابقة ينسى من يكتب إليه ولماذا يكتب، فيمضي عليه الوقت إلى أن يتذكر مع التعب.

وهكذا تمضي الأيام والسنون، وتتبعها سنة وسنوات، وشارل دو فيريول يدل نساء: السمرء والشقراء والصفراء... ومع أن سفير فرنسا يعيش هذه الحياة فامراته السوداء التي يتعجب منها من يراها ومن يسخر منه أكثر، والتي عملت عنده سائسة نصف سنة لم يتركها حين ملّ منها: فبعدما منحها حريتها ساعدها بالمال، وأرسلها إلى موطنها إفريقيا البعيدة.

ولكن الكتاب الذي وصله من باريس في هذا العام 1709، وفي آخر شهر منه، أجهز على رأس السفير الفرنسي الذي لم يكن من البداية ممتازاً: يجب أن يختتم مهمته في تركيا ويعود إلى فرنسا. لم يفهم الكونت في البداية مضمون الكتاب. وضحك، ونسي، وبعد شهر تقريباً أعاد قراءته ففهم أن أموره لا تسير جيداً. وما تلا بعد ثلاثة أشهر كان أسوأ: حين امتنع تماماً عن العودة إلى فرنسا جاءه إلى إستانبول السفير المعين نفسه ومعه كتاب التكليف وعليه توقيع الملك. ولكن دون أن يمثل لهذه الأوامر ظل يقول للسفير الجديد "أنت من كتب الكتاب الذي تحمله أيها الكاذب الفتان. سأجعل صديقي السلطان

يطردك من تركيا، وسأجعل ملكي المفدى يرميك في الباستيل، وإن تركوك تصل إلى فرنسا دون أن يكسروا رقبتك فلك أن تفرح" ويخيفه فلم يترك له الفرصة ليكلمه، ولم يتركه حتى أركبه في اليوم نفسه السفينة المتجهة إلى مرسيليا. وهمس في أذن السفير البديل الذي ودعه بنفسه وهو يضحك:

- إن كان صحيحاً أنك سفير من أرسلوك فقل لهم إني سأغير مناصب الجميع باستثناء الملك لأني عائد إلى باريس في غضون شهر.

- سأقول لهم، سأقول. - وودعه الآخر وهو يقول في نفسه: "أكيد أن رأس هذا الرجل لم يعد سليماً"

ومضى نصف السنة الجديدة وباريس وإستانبول تتراسلان. وحين اكتشفوا من خلال كتاباته لهم مرضه أرسلوا له حتى لا يبقى أكثر من هذا سفينة من فرنسا إلى إستانبول في الشهر الأول من عام 1711. وجاء على متن السفينة أخوه أوغستين - أنطوان والسفير المعين حديثاً. وحين رفض السفير المريض الهائج أوثقوه وأعادوه.

III

"من يُعْذ من سفرٍ يحملُ معه إلى أهله ولو حجراً صغيراً"

لم يجد شارل دو فيريول الوقت ليحقق القول المأثور، فعاد كتلة خاوية. وأسرعت عائشة إليه وهي تقول:- ماذا جرى لك يا بابا حتى يعيدوك هكذا في ذروة اليأس والضياع؟

- يا شارلوت - إليزابيت أيسيه يا ابنتي الصغيرة. - قال شارل دو فيريول وكأن شيئاً لم يحدث له، ومن يسمعه لا يسمعه إلا أن يتعجب، وأخوه الأصغر لا يعرف تفسيراً - سبب عودتي هكذا إلى ديارنا - لا تؤاخذيني - أسند رأسه إلى كتف عائشة وانفجر باكياً.

- لماذا أنت واقف يا لاروش؟ - نهرت عائشة الطبيب. - أعط دواء يريح بابا - وفي غمرة لهفتها قالت لأوغستين - أنطوان: - وأنت ألا ترى بابا كيف يعود إلى وعيه؟ - واكتشفت عائشة فسوتها في الكلام فاعتذرت: - سامحني، بابا عاد للتو من طريق طويل. يجب القيام بما يحتاجه.

- ألا ينفعك الدواء؟ أأست أحسن يا شارل؟ - سأل أوغستين - أنطوان أخاه بحذر.

- أنا أحسن إذا نفذتم ما طلبت منكم شارلوت - إليزابيت أيسيه، أيها الكونت.

- طبعي أن ينفعه الدواء وتتحسن حاله - بثت ماري - أنجيليك لابن حميها متوسلة إليه.

- شكراً لك يا كونتيسة على شعورك. ولكن لا تقاطعي كلامي. وأرجنتال كبر، وبون دو فيل أليس هنا؟ أيسيه أين هي؟ وهذه اشتقت إليها. إلى

الجميع... - أجهد بالبكاء غير أنه تجلد - كلودين - ألكسندرين الكونتيسة
من لا أراها معكم، ألم تصبح عجوزاً؟

- أنا لست عجوزاً فكيف هي يا كونت؟ مازحته ماري - أنجيليك ثم
امتدحته: - وأنت لاتزال في منتهى الجمال!

- شكراً يا كونتيسة، وأنت لم ينقصك شيء بل زدتِ جمالاً. - ثم أضاف
بصوت خشن: - وأخي هذا أوغستين - أنطوان المهمل، لا أراه يليق بك...
لماذا ما زلت جالساً يا كونت... جعلتموني مجنوناً ولست مجنوناً - مرة أخرى
كاد الكونت يُجهش بالبكاء، وبعين التوسل طاف على الجالسين، وقال لبوابه:
- يا ديستان إن كان الماء جاهزاً فأنا متعب، أريد الراحة.

نظرت ماري - أنجيليك إلى كتف شارل دو فيريول الذي كانت تمتدحه رياءً،
ففهمت أنه صار عجوزاً حقاً. ونادت عائشة التي كانت مع لاروش وديستان:
- لا شأن لك يا أيسيه في مهام الرجال.

- لا يا ماما، لن أترك باباً وحيداً سأظل قريبة منه.

- وأنا أيضاً - قفز أرجنتال من محله واصطف إلى جانب عائشة.

حين بقي الرجل والمرأة وحدهما في الغرفة صرّحت ماري - أنجيليك بما يزعجها:
- كارثة كبيرة يا أوغست! كيف سنعيش الآن؟ ألن يُشفى أخوك الكبير؟
والفتاة الغريبة ألا ترى كيف تتصرف معنا؟ وكيف سنعيش بيننا؟ ولا نعرف كم
بقي للكونت من أملاك، وماذا ضاع منها؟ تزداد المعيشة صعوبة كل يوم...
وولدانا، وسيحين هذا دون أن نحسّ، ألا يجب أن نزوجهما؟ ألا تقول شيئاً يا
كونت! سأنفجر...

- وماذا أقول؟ - سأل أوغستين - أنطوان الذي كان يحترق في داخله وإن
تظاهر بعدم الاهتمام وما يسمعه يجرحه.

- لا تتظاهر بأنك مجنون، ولست مجنوناً يا كونت! أريد أن أسمع أجوبة ما سمعت.

- حقاً كنت أنوي السكوت ولكن يا كونتيسة ألا تفهميني ولو مرة! أأنتِ مهمومة بمصيبة أخي أكثر مني؟

- لولم أكن مهتمة أكنت سألتك؟

- أعرف ما يهملك أنتِ!

- ما جلوسك إذا كنت تعرف؟

- ماذا تريديني أن أفعل؟ - صرخ في وجهها وعيناه الزرقاوان تتحولان إلى الرمادي - ألا تسكتين مرة!

لا تتذكر ماري- أنجيليك بعد عشرين عاماً من المعاشرة أن زوجها غضب مثل هذا الغضب: عيناه تجحطان، وكتفاه تعلوان كالمسمار، وقبضته متصلبتان كالصخرة.

- نعم، هكذا يا أوغست ياروحي الوحيد. - بشّت ماري - أنجيليك في وجه زوجها ولو أنها ارتعبت - فهمت، أزعجتك في ساعة مصيبتك. ساحني. إن كنا لن نتسامح ولن نتحمل فما فائدة عيشنا معاً؟... كفى، لا تُفني نفسك في الحزن. اجلس هنا. ستتحل الأزمة بطريقة ما، سنفكر.

حين انتصبت أمام عيني الكونت أوغستين - أنطوان المصاعب التي سببها لشقيقه خلال الأيام التي رافقه خلالها في عودته من تركيا أكثر مما سببه له شقيقه ثم أضيف إليها صراخه على امرأته وتوسّل الأخرى إليه داهمه الحزن فوقف إلى جانب النافذة. وفي اللحظة التي كانت ماري - أنجيليك تنوي فيها إسداء النصح لزوجها وصل أرجنتال محمولاً على أجنحة الفرخ. ولكنه فهم أن شراً ما حصل بين أبيه وأمه، فتوقف فجأة وسأل:

- ماذا جرى بينكما الآن؟

- لا شيء يا جان. - عمُّك، نتكلم كيف نخفف المصيبة عنه.

- إذن جئكم بخبر جيد.

- أي خبر؟ - استدار الكونت سريعاً ثقيلاً.

- نام الكونت شارل دو فيريول - أسرع أرجنتال باسمه واسم أسرته ناسياً أنه

عمه - نيمته أيسيه على كتفها وهي تربت عليه.

- ألم أقل لكم إن دواء لاروش سينفعه؟ - تبعت ماري- أنجيليك زوجها وابنها.

- ليس دواء لاروش ما نيمه يا ماما، بل أيسيه.

أشارت عائشة إلى من دخلوا الغرفة تريد منهم ألا يوقظوه. ورأوا بأعينهم صحة ما قاله لهم أرجنتال: رأس شارل دو فيريول الثقيل على كتف عائشة دون أن تتذمر من ثقله. تمسح عليه، ولاروش وديستان جالسان، وصوفي على عتبة الباب.

- أليس الأفضل أن يتمدد على الفراش من أن يبقى هكذا جالساً؟ - كان كلام أوغستين - أنطوان موجهاً إلى الجميع. ومع ذلك رمى عائشة بنظرة رضا.

- ألن يستيقظ؟ - وسألت عائشة الدكتور لاروش.

- لن يفيق، سينام إلى المساء - تعاون أوغستين ولاروش وديستان فمددوا الكونت على فراشه. وأصلحت عائشة وسادته دون أن تسمح لأحد أن يمسه، وكأنها عملت ممرضة طوال عمرها. وقال الطبيب لمن في الغرفة: - الآن لنترك الغرفة حتى يرتاح الكونت.

- لا، لا. أنا سأبقى إلى جانب بابا. - خافت عائشة مما سمعت من الطبيب.
- قد يفوق في أي لحظة، لا أريد أن أتركه في غرفة فارغة. انصرف يا ديستان،
سأستدعيك عند الضرورة.

- نعم يا ديستان، سنأديك إن احتجناك - أفهم أرجنتال المنصرفين أنه
سيبقى هو أيضاً في الغرفة، ولكنه توسل إلى أمه التي رمته بنظرها: - ألا يجوز
أن أغيب اليوم فقط عن المدرسة يا ماما؟

- يا جان - نظرت عائشة في وجه الصبي مستغربة ما سمعت - لا يقول من
سينهي دراسته قريباً جداً مثل هذا؛ سأنتظرك أنا.

بعدها جلست عائشة إلى جانب شارل دو فيريول قرابة الساعتين صارت
فجأة، ودون أن تدري، على شاطئ البحر حيث عاشت طفولتها. البحر
الأسود الذي يستريح تحت السماء الصافية يسحب حصاه الصغيرة إلى
الشاطئ، ثم يستعيدها. وشمس الصيف تلهب رويداً رويداً من وراء الجبل.
وعائشة تبحث عن الأنواع المختلفة من الحصى، وتعرض ما تجده على أمها.
وما لا يعجبها تعيده إلى البحر. والصيد التركي يمشي على امتداد الشاطئ
وهو يختلس النظر إليها ويتسم. ومن بعيد، على سفح الجبل، يتسابق الصبيان
على الخيول. والعجوز التي لا تقبل أن تتوغل عائشة في البحر يصل صوت
صراخها إلى الجانب القريب. وكيف سهرت الأسرة بكاملها على صحتها حين
أصيبت بالحصبة. وكيف كانت تبكي حين رجع أبوها من إحدى الغزوات
جريحاً، خائفة أن يموت، وكيف كانت جدتها تواسيها.

خرجت عائشة من ذكرياتها حين أن شارل دو فيريول وانقلب على جنبه.
تفقدت الكونت، وأصلحت لحافه محاذرة أن يفوق. وحين عادت إلى جلستها
سألت نفسها وهي ترى ذكرياتها حلوة وغير حلوة: "لماذا أتذكر هذه

الأحداث؟ لن أروي ذكرياتي لأحد... أأرويها لجان؟ إنه يخاف عليّ أن أعود إلى بلادي ولذا سأتسبب في إقلاقه. وسيفلقتني كذلك. ويئ أيها المجنون الصغير؛ من يسأل عني في الدنيا كلها ولكنك لا تستوعب الموضوع! بعد المسكين بابا الذي مرض ليس لي غيركما. أُملي هو بون دو فيل وأنت. يا إلهي أتوسل إليك أن تشفي بابا. هو وأخوأي مصدر سعادتي... - لم تفهم عائشة في البداية ماذا حدث لها، ثم ارتعبت وبدأت ترسم إشارة الصليب: - افهمني واغفر لي يا إلهي الكبير. لا سند لي غيرك في القوم الغرباء الذين رميتني بينهم. ولكن حين أصبح أذكر أحياناً إله الأديغة الذين أنتمي إليهم، وأعرف أنه لا يجوز أن تعبد إلهين، وببير وجانيت - نيكول أعلماي، لا تؤاخذني. يحدث لي هذا حين أجد نفسي في موقع الخوف والخطر... إن قلت لن أكون هكذا مستقبلاً فأنا كاذبة فارحمي... وأنت أقول لك الكلام نفسه يا إلهي. كان خيراً لي أن أموت على أن أقول لكما هذا. ولكن أُلستما من يُعَدُّ المنتحر ميتاً بلاتوبة؟ لا، لا، سأصبر على كل ما كلفتماني به خير من أن أفعل بنفسني هذا. "فرحت عائشة بنوم الكونت ولو أنها كانت تخاف أن يفيق إذا تحركت، وابتسمت وسألت نفسها: - كانت جدتي شابا تقول "حين أسلمت الفأرة لم يزد عدد المسلمين ولم ينقص المسيحيون"؛ أظن أن من حملهم على هذا الكلام أنا أو مثلي".

حين عادت ماري- أنجيليك وزوجها أوغستين - أنطوان إلى الغرفة الأخرى دخلا في شجار لا ينتهي حول ما جرى لهما بسبب مرض شارل دو فيريول، وما لبثا أن تصالحا. وإن سمعتَهما صُغِبَ عليك إدانة أي منهما؛ ما العمل؟ الأول أخو الكونت، والثانية كُنته. كلاهما يبحث عن المستقبل الأفضل. غير أن ما ينتظرهما من أحداث جعلهما صعبَي التفاهم.

- يا كونتييسة، يا روحي الوحيد. - توسل أوغستين - أنطوان غير قادر على تحمل المزيد. - أفهم ما تفكرين به ولكن اسمعي أيضاً ما أقول لك. ألا ترين كيف عاد شارل إلى وعيه حالما وجد نفسه في بيته؟ لا تخافي عليه. لن يصبح عائلة علينا ولو أنه صار عاجزاً عن العمل. ولا تجعلينا نخشي أملاكه أو نتكلم في موضوعه. أنا أخوه الأصغر، وبالنسبة لك أنتِ وأولادك ليس غريباً. وفي حال الضرورة عنده ما يعيل به نفسه.

- نعم، صحيح يا أوغست. - وافقت ماري - أنجيليك زوجها حين سمعت بسيرة الأملاك. - أليس من المناسب أن تعرف ما يملك أخوك، من يعرف ماذا سيطراً، وإن كنا نعرف أنه ليس محروماً منها. ولست أنتِ أو أنا من يحتاج إليها بل أولادنا.

- يا كونتييسة! - احتد أوغستين - أنطوان ثانية بسبب حديث الأملاك. - لئننه حديثنا عند هذا الحد! جئتُ من مسافة مرهقة، دعيني أستريح. إن لم يبق لشارل أملاك فأنا مُلكه. إن متُّ مات معي، وإن سعدتُ سعد معي. - صحيح يا أوغست صحيح. أين تذهب بأخيك الأكبر؟ - نصحت ماري - أنجيليك زوجها بصوت ناعم. ولكنها في اللحظة نفسها سألته بصوت قلق: - صحيح ما تقول ولكن ما حاجتنا إلى الفتاة الغريبة المتصنعة؟ أنت من يعرف كم ننفق عليها.

- أعرف - استدار أوغستين وهو يخرج من الغرفة - لا أظنه أكثر مما يُنفق عليك!

- اسمع، اسمع! - ظلت ماري - أنجيليك تكظم غيظها حتى خرج الكونت من الغرفة، ثم ودّعته وهو وراء الباب. - ما يقوله هذا الجنيّ الأحذب! - يقول هذا القبيح: "يستوي أن تحتد وأن تكون عارياً" ثم يريد أن يربيني. ألا يكفيكم

حسبت عليّ تربيتي لأخي وأختي أيها البارد الثقيل؟ والآن تنوون أن تتركوني فريسة للبنت الغريبة المتمردة التي ورطتmani، أنتما الأخوان، بتربيتها. سنتنظران طويلاً حتى يتحقق لكما! - قرعت الجرس وسألت الخادمة: - أين الدكتور لاروش؟ استدعيه لي!

دخل لاروش الغرفة متعباً تكاد رجلاه تحملانه. وجلس راضياً على الكرسي الذي أشارت إليه بنظرة مرائية ماري - أنجيليك التي تخفي غضبها. وسألت الكونتيسة من استدعته بلطف:

- تعبتم يا لاروش، تعبتم، أنتم على أقدامكم طوال النهار. - وبدأت حديثها وهي تحوم من بعيد حول ما تريد: - الكونت أوغستين - أنطوان متعب جداً، اجتاز طريقاً طويلاً. الله يعلم ما في قلبه من أحزان؛ أليس أخاه؟ أنت وأنا كيف لنا أن نعرف؟ صرفته إلى غرفته ليستريح. ما أخبار الكونت؟ ومن تمرّضه كيف تدبر أمورها؟ - سألت دون أن تنطق اسم عائشة، وخصّته كي تخفي الموضوع: - أقصد أيسيه المسكينة، لم تعد تسأل عن الطعام أو غيره.

- الكونت نائم، وأيسيه لا تفارقه، جالسة قربه تهوي له بالمروحة. - يديه أن تجلس إلى جانبه وتهوي له... إن لم تفعل هذا لأبيها فماذا ستفعل؟ - سألت ماري- أنجيليك سؤال من تثق بمحدثها: - أشفق على الكونت المسكين؛ أظنه سيشفى؟ صارحني بحالته الحقيقية. أنت وأنا يا لاروش، قلت لك مرة، والآن أقوله، لا حاجة أن تكون بيننا أسرار. يتوقف سلام بيتنا على هذا. أستمع إليك يا دكتور!

- منذ زمن بعيد اخترنا الثقة بيننا يا كونتيسة. لا نتكلم في هذا الموضوع! هذا أولاً. وثانياً من يعرف الوضع الحقيقي للكونت هو الله الذي فوقنا. وثالثاً...

- يا دكتور - تغيرت سحنة الكونتيسة بحيث لا تعرف أهي نفسها من كانت تترجاه وتلاطفه قبل لحظات. وقطعت كلامه بصوت غليظ: - لا أهتم بـ "أولاً" و "ثانياً"... أجب عما أسأل دون تفصيلات غير مفيدة.

- إن كنت تقولين هذا يا كونتيسة - لَمَحَ الدكتور ثانية إلى أنه غير بارع في الأمراض التي يُسأل عنها ولو أنه كتم في نفسه استياءه من مقاطعة كلامه: - لن أكتمك السبب الذي عادوا لأجله بالكونت شارل دو فيريول ولو أنني لست طبيبه: لا أمل في شفائه إن لم تتفاقم حالته. ولا تؤاخذني سأضيف معلومة لا تعرفينها: أحياناً سيبدو كمن لا يشكو من شيء. وأحياناً لن يميز ما يقول وما يفعل.

- يا لمصيتي! - تأملت ماري - أنجيليك الطبيب ساهمة، - وكيف سيقم معنا في البيت مريض من هذا النوع؟

- إن كنا محظوظين فلن يهيج... - أضاف لاروش إلى أقواله ما هو أسوأ: - من يفقد وعيه يفعل أموراً كثيرة. سيكون مريضاً صعباً. ولن يستطيع ديستان وحده العناية به. سيحتاج إلى أكثر من شخص يسيطرون عليه. وخاصة في نوباته.

- وخارج النوبات؟

- وخارجها سيقضي يومه مسرَّ العينين على زاوية ما. ثم إنه لا يجوز أن تنهره أو تسخر منه. ألم تري كيف رجع إلى وعيه حين لطفته شارلوت - إليزابيت أيسيه؟

- رأيثُ وتعجبت... - مسحت الكونتيسة عينيها كأنها ستبكي - لهذا يقولون: لا شيء يستعصي على اللطف والنعومة. كفى يا دكتور، لا تدعنا نتكلم بسوء على الكونت المسكين. سنرضى بما يكتبه الله. ولكني لا أستطيع

إلا أن أقول ما أقوله دائماً: الرجل يجب أن يتزوج ويؤسس أسرة في الوقت المناسب. وهو ظل يؤجل إلى الغد وما بعده، ويفرط في علاقاته النسوية، حتى فاته العمر. والآن نرى عاقبته. من سيعتني به الآن؟

العينان اللتان كانت ماري - أنجيليك تعتدّ بهما في الأيام السالفة فقدتا التركيز كأن كل عين تنظر في عكس اتجاه الأخرى: "كيف سأقيم إلى جانب شقيق زوجي الساهي عن كل شيء أترجاه وأنا لم أعد شابة؟ وكيف سأقوم بأعباء البيت الكبير، وأطعم الناس العاطلين عن العمل فيه؟ ولا يكفي هؤلاء بل ستقع مسؤولية الفتاة الشركسية على عاتقي. وهل عندي زوج يُعتمد عليه؟ ماذا قال لي! الفتاة الغريبة التي لا يعرف أصلها "سينفق عليها أقل بقليل مما ينفق عليّ". سأريه نتيجة كلامه. هذه حال آل فيريول. هو سيعود إلى دوفين ويتركني أحمل عبء أخيه والبيت. إن كنتم تريدون هذا فليعطني الكونت الذي ستحملوني مسؤوليته أملاكه. وليكتب لنا حصته من البيت ومن أملاكه. هل يمكن التنبؤ بما يفعله شخص ليس سليم العقل. ثم إني سأعيل بالإضافة إليه ثلاثة ممرضين، وإن رفضتم فكرتُ في غيره. وربما كان هذا أسهلها. إن حرّضت هذا الطبيب طويل الرقبة على هذا الحل فلن يتردد..."

- أريد أن أسألك يا لاروش وأنسى. - سألت ماري - أنجيليك الطبيب الذي تعتمد عليه بلهجة مرائية وكأنها امرأة أخرى غيرُ التي كانت غارقة في أفكارها المتصارعة: - أليس في باريس مصحّ للمرضى الذين فقدوا الذاكرة؟ لا يذهب خيالك بعيداً، لا أقصد ما في ذهنك. - أضافت بسرعة.

- إن ذهب خيالي بعيداً أم لم يذهب يا كونتيسة ليس في ما قلت ما يدنيك. - أجاب لاروش وهو يقول في نفسه "انظر إلى أين وصلت هذه المرأة!" أنا طبيب لا أرى في موضوعه ما يُتحرّج منه. والمصح الذي سألت عنه لا تخلو

منه بلاد ولا مدينة. وهذا المرض ليس خاصاً بعرق أو جنس بعينه. هذا يظهر مع أناس متنوعين، ويحتفي معهم. ولذا ففي باريس مشفى باسم "بيسيرت"، وهناك غيره، ولكن هذا مجهز أفضل من غيره.

- هكذا؟... إن شاء الله لا نصل إلى هذا الوضع، ولكن من يعرف؟...
"ألا أعرف معدنك؟...- ابتسم لاروش في سره - وإن لم أكن أعرف فأنت استعلمت عن هذه المشافي منذ زمن طويل. وقد فكرت في حلول أخرى ولكن لم تجرئي على مصارحتي. وهذه ستكشفين لي عنها كما فعلت اليوم. ولكني لن أسمح لثدييك الكبيرين أن يخدعاني دون فائدة..."

- نعم، يا ماري - أنجيليك، نعم - خاطب لاروش الآن الكونتيسة باسمها وقد استعاد جراته. لا عيب في متابعة الموضوع الذي يشغلك إن كنت تظنين نفسك قادرة على حلّه. وأنا طبيب عليّ واجب لن أتوانى عنه. إن لم نفعل هذا للرجل الطيب شارل دو فيريول فبِم نخدمه إذن؟..

دخلت عائشة والفرح يتطاير منها، وأخبرتهم:

- يا ماما ماري - أنجيليك ويا لاروش، بابا صحا. ولبس وحده، ويريد أن يأكل.

- هكذا!... - قفرت ماري - أنجيليك من مقعدها بطريقة لا تفهم أهي من المفاجأة أم من الفرح. - الآن حالاً. أين أبوك يا أيسيه؟ ولم تعرف من أين جاءت "أبوك" على لسانها.

- بابا نزل إلى غرفة الطعام. - وأجابت دون أن تهتم بقول ماري "أبوك" كأنها اعتادت عليها: أنت اجلسي يا ماما، الدكتور لاروش هو المطلوب. ها أنا سأطعم بابا حالاً وأعود. نعم يا ماما تحدثنا وجهاً لوجه. لم يعد مريضاً.

- لم أسمع خبيراً ساراً خلال العام كله - ماري - أنجيليك واقفةً وسط الغرفة لا تعرف أين تتجه - بلِّغوا أوغستين أنطوان، بشِّروه!

- مهلاً، مهلاً يا كونتيسة، لا ندعه يهجم على الكونت هكذا. لا يجوز أن يزدحموا عنده. لا يناسبه - أعطى الطبيب الخارج من الغرفة تعليماته إلى من وراءه.

IV

حين لا يعود الناس يأتون على ذكرك بخير أو بشرٍ فهذا يعني أنهم نسوك. ثبتت صحة هذا القول في الأشهر الثلاثة التي مضت على إعادة شارل دو فيريول إلى باريس. كان سكان القصر الأبيض الكبير على شارع سان - نيف - أوغستين يتألمون لهذا ولو لم يعد هو في وضع يفهم فيه المسألة. وكانوا يُفنون أنفسهم في المصيبة التي حلت بهم متظاهرين بأن شيئاً لم يحدث لهم.

في خلال هذه المدة الطويلة - القصيرة زار الكونت من أصدقائه شخصاً واحداً. - هو هنري دو فارغ، الذي أقالوه من منصب قائد شرطة باريس قبل ستة أشهر بتهمة القتل. وكان يريد أن يبيكي على صدر صديقه، فينقّس عن همه بهذا. ولكن حين رأى وضع الكونت الذي كان يجهره بحث عن ذريعة ينصرف بها حتى قبل أن يستقر على كرسيه.

وأعجب شيء لم يكونوا يعرفون سببه ومن المسؤول عنه هو عدم سؤال الناس الذين عمل معهم خلال سنين سفارته، والذين أطلعتهم ماري - أنجيليك على وضعه وعاتبتهم. "هل يتخلون عن المريض؟ ألا يسألون عنه؟ أيلتهمون رواتبه المتراكمة؟ ألم يعد في البلاد قانون؟"

وكان ما تفكر فيه عائشة وتبتهل إلى الله من أجله شيئاً آخر: "يا ربّ ارحمني وافهمني واشف لي بابا. ليست ماري - أنجيليك الكونتيسة امرأة سيئة، ولكن لا تكلفني إلى من لا ينفك لسانها عن ذكر المال والنقود... وكلودين ذكية وعاقلة وتعلّمتنا أمور الكتابة والمطالعة، ولكنها تغار مني لا أعرف لماذا. بون دو فيل وأرجنتال حبّبتني إليهما وأنا أحبهما. وجانيت - نيكول لا تُنسني إياها وأن لم أعد في مدرستها. وأنا لا أنساها. وتجعلني أعدها بمثابة أُمي. ولكن مع ذلك لا تسلبني بابا يا إلهي الكبير. إشفه وامنحه عمراً طويلاً طويلاً. وأنت

أيضاً يا "الله" الغالي لم يأت عليّ يوم نسيت فيه "الله" الكبير. أبتهل إليك بلغتي التي علمنيها أبي وأمي، لغة الأديعة، أن لا تتركني يتيمة وحيدة، ليس بأن تُخرجني من القوم الذين زرعتني فيهم؛ وتعيدني إلى قومي، بل حتى لو بقيت هنا أن تهدئ بالي وترجيحني لأني إنسان..."

ظلت عائشة تدعو إلى الله وتنصح نفسها حتى فجرت عينها الأحران — الإهانات، ومخاوف الوحدة. ولكنها كعادتها حين تجد نفسها في وضع صعب أعادها عنادها وقوة شخصيتها إلى الواقع فتماسكت. وفيما عائشة تراجع ابتهالها إلى الله وطريقته أزعجها الصوت الذي ارتفع في الغرفة المجاورة. لم تفهم في البداية ولكنها انتبهت إلى أنه صوت أذان فنهضت. وأنصت دون أن تستطيع تفسير ما تسمع. "لا إله إلا الله، الله أكبر" "ما هذا؟" الصوت الذي لم تسمعه في سنوات إقامتها في باريس يصدر من مكان قريب جداً. ثم عرفت صاحب الصوت — هل أنت يا بابا؟

ليس ما رأيته عائشة عجباً فحسب: الكونت واقف على الكرسي الوطيء، ويده على وجنتيه، ويؤذن متجهاً إلى الجهات الأربع. والأدوات التي توضع بها: الإبريق والطست في إحدى الزوايا. وغطاء الفراش الذي اتخذته مع جلد الدب سجادة صلاة على الأرض موجهة نحو القبلة. وديستان الذي أُلِف هذا الموقف في إستانبول واقف إلى جانب الباب باسمًا. ومع أنه همس لعائشة ألا تقول له شيئاً فإنها لم تستطع:

— ماذا تفعل يا بابا؟

— حين انتهى شارل دو فيريول الذي لن يسمع أي كلام الآن، تجاوز عائشة وسأل ديستان:

— هل توضأت؟ حان وقت صلاتنا.

- نعم توضأت. - غمز ديستان عائشة وهو يتسم، ووقف إلى يسار الكونت.

لم تتحرك عائشة من مكانها ريثما انتهى شارل دو فيريول وديستان من صلاتهما. وعائشة التي كانت تبكي من قلبها بلا دموع كانت أفكارها وما أمام عينيها شيئاً آخر: "أحقاً وصلت حالة بابا كما تقول ماري- أنجيليك وكلودين - ألكسندرين إلى ذروتها؟ أم هكذا يا ديستان؟ أيؤمن هذان بمايفعالان؟ بابا مريض، ومن لا يملك أمر رأسه لا يلام. وإن لم يتوفر الدواء أبحال إلى مستشفى الأمراض العقلية كما تريد الكونتيسة؟ إن نقلوا بابا إلى هناك فكيف أعيش أنا؟ يبدو أن في قلبه إلهين. ويتعبد على طريقي الديانتين. أيقبل الله هذا؟ لا أعرف... لماذا لا أعرف؟ أنا رغم أنني كاتوليكية لا أسمح لنفسي أن أنسى "الله". اغفري لي كلامي يا مريم العذراء! أأكون بابا يُعاقب على أنه غير ديني، والآن يعاني من تبكيت الضمير؟ لهذا كانت أُمي تقول إن في قلب الخير شراً. ألأني مسلمة يتصرف بابا هكذا؟ ربما كان هذا الأمر يعرض له في تركيا، أما هنا فلا شك فيه. ليس صحيحاً تجاوب ديستان معه رغماً عنه. يجب مناقشته في هذا. وليس هذا فقط بل سأوصي بابا بأن يُخفي عبادته ولا يُطلع عليها أحداً، ولا يتيح المجال لأحد أن يتكلم عليه في السر أو في العلن، وسأؤكد عليه..."

حين أطل بون دو فيل من خلل الباب خرجت عائشة قبل أن ينطق بكلمة واحدة:

- ماذا يفعل هذان؟ سأل بون دو فيل.

- يصليان.

- ما هذه الصلاة؟ ما سمعه بون دو فيل غيّر سحته. وحين نظرت عائشة التي شحب وجهها إليه أوصته في ما شكّ فيه: - فهمتُ يا أيسيه، فهمت. إن لم يتجاوز عمنا هذا الحد فنحن راضون.

- بون، كيف ستفهم الموضوع؟

- لا داعي لأن تقلقي إلى هذا الحد - ألقى بون دو فيل نظرة مطمئنة على عائشة. - أعتقدين أن فرنسا كلها تدين بدين واحد؟ لا تسمعي أمثال الأسقف بيير. هؤلاء لا يرون إلا جلابيهم الحمراء وقلنسواتهم الصغيرة. لا نؤيد فرنسوا فولتير أحياناً ولكن ما يقوله صحيح. العالم موزع على أربع ديانات قوية: الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية. وكلٌّ منها منقسمة في داخلها. لا تصدقيني إذا قلت لك إن في باريس جامعاً. في العام قبل الماضي حين جاء عمنا إلى باريس صحبني إلى جامع تركي.

- من أجل أن يصلي؟

- لا، من أجل أن يكلمهم بالتركية ويتنزه.

- غريب كيف لم تخبرني؟

- وكيف أقول لك وأنت تدرسين في سان-كول. ثم إنه ألح عليّ ألا أخبر أحداً.

- شارلوت - إليزابيت أيسيه أين أنت؟ - نادى شارل دو فيريول من الغرفة.

- الكونت ينتظرك... فيما بعد... - استعجل بون دو فيل لما سمع. نكمل كلامنا لاحقاً.

شارل دو فيريول على أرض الغرفة وقد انتهى من الصلاة مرتاحاً القسما، وديستان يطوي السجادين.

- أين كنت يا أيسيه؟ ظننتك تتابعين صلاتنا. وأنتِ لو وقفت معنا وصليت كان خيراً.

- لا يصلي الرجال والنساء معاً يا بابا. - بان على وجه عائشة التي لم تكن تفهم ما ترى وما يقول لها أنها غير راضية.

- نعم، ما رأيته في صغرك تحتفظين به في ذاكرتك. - أجاب الكونت - هذا حسنٌ. ولكن لأن المسيحية تقبل بهذا خلافاً للإسلام فلندعُ إلى مريم العذراء معاً. لا عجب في الأمر. يا أيسيه أعجيبٌ أن أصلي؟ إن كنت مخلصاً للصدق والعدالة في حياتك فلن يبقى في قلبك غيرهما. وحين تفكر في ما عملت طائعاً أو مكرهاً، وتقيّمه تكون حياتك خيراً. من يعرف؟ سيُغفر لك كل ما عملت.

- نعم يا بابا، صحيح. - توافق عائشة الكونت مبتسمة له حذرة - تكلمت خيراً، وأنت من هذا الصنف من الناس.

- لا تنسي يا أيسيه أنني إنسان حكيم وكبير. - ولملت عينا شارل دو فيريول.

- أنت حكيم وطيب يا بابا. ولكن الأفضل ألا تؤذّن.

- ماذا يا ابنتي؟ ألا يعجبك أن أنادي المسلمين حين يأتي وقت الأذان؟ والكاتوليك يقرعون النواقيس في كنائسهم.

- أنا أوافقك على ما يعجبني وما لا يعجبني لأنك أبي. ولكن هل تظن أن الجميع سيرتاحون لما تفعل؟ أريد أن لا يعرفوا.

- وهل يعيش معنا في البيت أمثال هؤلاء ممن لا إله لهم ولا دين؟ - همس لها الكونت، ثم بصوت عالٍ: - من هؤلاء؟

- لا تهتم هؤلاء لأن كلاً يقول ما يريد. - أجابت عائشة بصوت ناعم دون أن تحمّل الموضوع ما لا يحمل، متظاهرة بالضحك.

- وهذا صحيح - وافقها، غير أنه لم ينس الحديث عن شخصه: - إن لم يعد ملكنا المعظم يريدني فليعرف كل فرنسي أنه لا أحد يسأليني غيره.

- نعم يا بابا، كنتُ اقترحت أن نبتهل إلى مريم العذراء - مرة أخرى تألم قلب عائشة. ورضختُ للأمر، ولا طفت محدثها.

- نعم، كنتُ قلت - قال شارل دو فيريول وهو يلين قلباً وجسداً. - ولكني تعبت، أريد قليلاً من الراحة... بلّغي إلهي الكبير أنه في قلبي، ولا يؤاخذني إن قلت أوفعلتُ منكرًا، ولا ينسني... ثم غفا على كرسیه الوثير.

وقفت عائشة أمام صورة الإله على الجدار ترسم إشارة الصليب، وتحنى رأسها خشوعاً، ليلبي لها ما في قلبها، وما ترجّاه شارل دو فيريول من أجله: "يا إلهي، تعرف ما حدث لنا. ارحمنا، وانظر إلينا بعين العطف، واحمنا؛ لم نؤذ أحداً. رضينا بقسمتك. والآن ندعو إليك ألا يصيبنا الأعظم. أنا ألي رجاء بابا الذي فقد ذاكرته فلا تحاسبه على ما يبدر منه من قول أو فعل. وأفهم من يظنون أنه مال إلى الإسلام من أجلي، من أجل أن يتقرب مني، أنهم مخطئون. ارحم أبي المسكين وأفهم من في بيته حاله، واجعلهم يحرصون عليه."

لم يكن الكونت يتحسن كما تريد عائشة، رغم دعواتها، وهو الذي أنقذها من سوق النخاسة في إستانبول؛ من يعرف ماذا كان مصيرها لولاه. أحياناً في يوم لقاء الشهر المنصرم بالقادم، أو وقت هبوب الريح، أو الرعد والبرق، إن لم تأت النوبة في مثل هذه الأوقات، كانت حالته مقبولة. ولكن حين تسوء حالته في الشهر مرتين أو ثلاثاً كان سكان القصر الأبيض الكبير في شارع نيف - سان - أوغستين يقعون في ضيق شديد. وفي مثل تلك الأيام تنقسم الأسرة قسمين: طرف منحاز إلى ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين، وأحياناً ينضم إليهم

لاروش خفية. والطرف الثاني عائشة وبون دو فيل وأرجنتال، وهؤلاء كان الخدم يساندونهم وإن لم يكونوا يتدخلون في أمور الأسرة.

لم يكن الطرفان يدخلان في شجارات علنية ومهاترات: أنصار ماري- أنجيليك يتهايمسون في الوقت المناسب وغيره. وبون دو فيل وأرجنتال اللذان يلاحظان هذه الظاهرة يعترضان. والتي كانت وسيطاً بين الطرفين وتقيم المصالحات بينهما هي عائشة. وأكثر ما يعجبها ويريجها معاً هو أن الأخوين لا يتركانها وحيدة مع الكونت. وفي أوقات استراحة ديستان كان الأخوان يتذرعان بأي شيء ليشاركا عائشة معاً، أو كلٌّ بدوره، السهر على الكونت. وليس السبب أن شارل دو فيريول كان هائجاً دائماً تصعب السيطرة عليه، ولكن على سبيل الاحتياط يسهران عليه فيما يتشاغلان بالحديث.

اليوم شارل دو فيريول مرتاح خلافاً للأيام الأخرى. يقرأ كتاباً في تاريخ فرنسا دون أن يعير اهتماماً للشباب الساهرين على راحته في الغرفة الفسيحة، ويستخلص منه أشياء يسجلها. وأحياناً يصرخ غاضباً: "ليس الأمر هكذا، يتكلمون في ما لا يعرفونه، الآن صار الجميع مؤرخين. ومن لا يجيد إنشاء جملة من كلمتين يسمى نفسه كاتباً" - يرمي بالقلم وينهض، ويتمشى على أرض الغرفة. ثم يقف فجأة عند الشباب:

- ثم ماذا تفعلان يا إخوتي الصغيرين؟
- بون دو فيل يعمل - أسرع عائشة بالجواب بدلاً من الشباب. - وأرجنتال سينتهي من الدراسة سريعاً - وأنت يا بابا كيف حالك، وماذا تقرأ؟
- كتاب سخيف مما كتبه المؤرخون.
- لا تقرأ ما لا يناسبك يا بابا، لا تهتم بهم!

- وأنا أنصح نفسي بهذا؛ ولكن ألا يجب أن أعرف ماذا يجري في البلاد؟ -
- استأنف الكونت تمشّيه على أرض الغرفة، ثم توقف كأنه تذكر أمراً ما: - وأنت ماذا تفعل يا بون دو فيل؟ أيرضى ملكنا المعظم عمّا تقرأ له؟
- حين أقرأ له كتاباً أو قصيدة ينام جيداً - ابتسم بون دو فيل.
- إذن تنفذ مهمتك جيداً يا كونت! - ابتسم شارل دو فيريول واستأنف تمشّيه. ثم استدار بسرعة: - لا تدع أحداً يسمع كلاماً عن الملك من هذا القبيل. وكيف تجري أمورك إذن في المسرح الملكي؟
- أعمالي هناك جيدة. نعثر على مسرحيات كوميدية، ونمثلها - نظر بون دو فيل في وجه عمه مسروراً من نفسه. ونظر إلى عائشة يقول لها بعينه إنه لا يقصد الافتخار، وسألها:
- أليس صحيحاً يا أيسيه؟ أنت تحبين المسرح.
- صحيح يا بون. ولكن المسرح الملكي الأوبرالي يتقدم عليكم قليلاً.
- يا أيسيه أليسا نوعين مختلفين؟ - وأسرع أرجنتال: - في المسرح الأوبرالي يغنون، وفي الآخر يتحاورون - وخوفاً من أن تكون عائشة استاءت صحّح كلامه: - ولكن في كلام شارلوت - إليزابيت أيسيه نصيباً من الصحة. مشاهد الأوبرا أكثر أناقة. ويغنون فيها أغاني جميلة. والمسرح نفسه يلمع بالذهب والفضة. أما المسرح الكوميدي فيفتقر إلى الزينة، غير أنهم يُضحكون الناس.
- من أين لك أنت هذه المعلومات؟ - سأل شارل دو فيريول مستغرباً ماسمعه.
- يا كونت - أنت لا تعرف ولكن - لام أرجنتال عمه مستغرباً كلامه بأكثر مما استغرب الكونت كلام ابن أخيه - أنا أذهب معهما دائماً إلى المسرح.

- هكذا! - بشّ الكونت الذي يسهو أحياناً عن الحديث - أنا تأخرت عنكم كثيراً إذن. إن كنتم تقولون هذا فسأرافقكم إلى المسرح. سأرى كيف تسلّون الملك وكيف تمنعون عنه النعاس - ثم أعاد التفكير وشدد عليهم: - حتى لو لم يفهمني الملك الذي أخلص له فإياكم أن تُسمِعوا أحداً شيئاً من هذا القبيل. ستشي بكم حاشيته، فيرميكم في الباستيل.

- اطمئنْ يا بابا من هذه الناحية وثقْ بنا! - اختتمت عائشة التحذير الذي كان بدأه الكونت، وقالت له ما يسرّه: - نحن نجهز أنفسنا للذهاب إلى المسرح الأوبرالي الملكي فإذا أردت صحبتك معنا.

- شكراً يا أيسيه، اذهبوا أنتم، أما أنا فلا أتحمّل. لاحقاً إن تحسّنتُ. أنا أفهم شيئاً من المسرح، في شبابي، في عمركم، كنت أرتاده كثيراً. أما الأوبرا فلا أفهم منها الكثير. ولكن أقول الحق: لو لم أختَر مهنة الدبلوماسي كنت أنوي كتابة مسرحية. وربما كان هذا أفضل. لو اتجهت مثلك إلى المسرح يا بون دو فيل ماكانت باريس لتسعنا ونحن نتنافس. صحيح لماذا أنتم في البيت في هذا اليوم الجميل؟ استمتعوا في الهواء الطلق واستريحوا. هل كفّ صالونكم الأدبي عن نشاطه؟

- في الشهر الماضي التقينا. ألا تتذكر يا بابا؛ شاركتنا جلستنا بعض الوقت! - وكيف لا أتذكر! أليس في اليوم الذي روت لكم فيه ماري- مادلين دو لافييل إقامتها في إسبانيا؟ وتوعكْتُ قليلاً فلم أنصت جيداً. أصحيح أنه المكان الذي زاره الكونت سيزار - ألكسندر دو فوديان بارابير؟

- صحيح يا بابا. - نظرت عائشة إلى الجلوس منبّهة إياهم على تذكّره اسم صديقه الطويل بدقة. - بارابير تزوجت من الكونت. والآن هما في شفيصار في نزهة.

- ما عمر ماري - مادلين دو لا فيفيل؟ ألم تتزوج باكراً جداً؟ - قال الكونت دون أن يوجه السؤال إلى أحد، ثم سأل عائشة ناطقاً اسمها بالكامل: - أنت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه أليست من عمرك؟

- الكونتيسة بارابير أكبر من عائشة بثلاث سنوات - أجاب بون دو فيل بين الراغب في الإجابة وغير الراغب.

- ألم تدعُكم إلى حفلة زفافها؟ - سأل شارل دو فيريول الآن متصايهاً، متصنعاً المرح.

- ولماذا لا تدعوننا؟ - سبق أرجنتال الجميع لأنه وجد في السؤال فرصة للشكوى: - حضرت كلودين - ألكسندرين وبون دو فيل وفرنسوا فولتير وشارل مونتسكيو. أنا وعائشة فقط لم نحضر.

- في ذلك اليوم يا أرجنتال لم نستطع حضور الاحتفال ولكن - خافت عائشة أن يذكر سهواً أن السبب هو الانشغال بمرض شارل دو فيريول فأسرعت في الإجابة - ذهبنا لتهنئتها في اليوم التالي.

- نعم، صحيح ذهبنا - وافق أرجنتال وقد فهم سبب مقاطعة عائشة له. - وقاموا بواجب الضيافة على أكمل وجه.

- علاقتكم هكذا ممتازة ، متّبنوا صداقتكم. - قال الكونت للشباب، ثم أضاف لنفسه ما يريد: - لم أعرف أن ماري - مادلين دو لافيفيل الصغيرة، والآن كونتيسة بارابير، صارت في هذا العمر. وعلى هذا فأنت أيضاً يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ستلحقين بها... أما قلت لكم أن تخرجوا في هذا اليوم الجميل. - غيّر الكونت سريعاً ما قاله بشأن عائشة - أنا أجدكم إن احتجت إليكم.

- لن نبتعد يا بابا، سنكون في أرض الدار - وضعت عائشة كأس الدواء أمام الكونت - اشربه بعد نصف ساعة! ولا تقرأ الكتب التي ترعجك. استرخ وإلا فراقنا واجلس معنا في الفناء!

- وماذا أفعل بينكم؟ - سأتناول الدواء وأستريح قليلاً. - قال لهم شارل دو فيريول، ثم، دون أن يعرف السبب قال لابن أخيه الذي كان يخرج من الغرفة: - يا بون دو فيل - وليست أيسيه بحاجة - يجب أن تتعلم التركية.

وفيما عائشة ورفيقاها في هذا اليوم الربيعي الجميل، يتحدثون ويتضحكون في أرض الدار لم يستطع أرجنتال إلا أن يفصح عن الحزن الذي في قلبه في الأيام الأخيرة:

- ماما وكلودين ولاروش أحياناً يتكلمون على عمي بسوء ولكن، كما تريان، ليس مريضاً مئوساً منه، أتعرفان ماذا قالوا؟
- ماذا؟ - انتبهت عائشة.

- سأقول لكم ما سمعت، لا ما نُقل إليّ، ولكن لا تشوا بي: الكونت جُنّ وصار من الخطر وجوده معنا في البيت... ينوون له شيئاً، لم أفهمه.
نفضت عائشة بقامة متينة متصلبة بعدما كظمت غضبها:
- ابقيا جالسَيْن، وسأعود حالاً.

V

في يوم من الأيام سألت صوفي عائشة وهي تضحك:

- ماذا فعلت يا أيسيه بلاروش؟

- أتظنين يا صوفي أنني داويته وهو الذي يداوينا؟ - مزحت معها وقد فهمت السؤال.

- نعم يا أيسيه كما لم يكن في السابق، الآن يحبيك، ويتودد إليك. يريد أن يخدمك في أي شيء!

- ألم يكن سابقاً هكذا؟ نظرت عائشة إلى صوفي نظرة مرئية، ثم أجابت بصوت جاد: - حذرته أن يكف عن نفاقه ووشاياته.

- حسناً فعلت به، وأنا كفّ عن التقرب إليّ.

- وأنت ماذا؟

- لا أعرف - ضحكت صوفي - كان يلاحقني بحجة إن كان عندك مرض نسائي فعليّ أن أفحصك، والآن استرحت.

- أتعرفين ماذا كانت جدتي تقول لأمثال هؤلاء؟ "من لا يكفّ عن الشغب يجد نفسه خارجاً" في ذلك اليوم - إن كنت تتذكرين - كان عليّ أن أكلّم لاروش بهذه الطريقة. تنهدت عائشة على وقع الذكرى.

- لا تندمي مهما قلت له، جعلته يعرف حقيقته.

- أتظنين أنني كنت وحدي؟ أسرع إليّ أخواي بون دو فيل وأرجنتال ولم يوفرا كلاماً يمكن أن يقال له فأفرعاه. لا يمكن منع الناس من الكلام. ولكن صار البيت أهدأ بعد هذه الحادثة.

- والكونتيسة ماري - أنجيليك كفت عن الكلام الجارح في غيابك.

- وهل لاحظتها أيضاً يا صوفي؟

- ألاحظ كل شيء إذا كان بحقك يا أيسيه - ونظرت إلى أيسيه بمودة.

- وهل أنا وحدي؟

- لا، لا. - أصلحت نفسها وقد فهمت صوفي سبب السؤال - وأبوك الكونت، وبون دو فيل وأرجنتال أيضاً. ولا أنسى جانيت - نيكول. من يعاملك معاملة حسنة أقابله بالمثل. ولكن كلودين - ألكسندرين ليست من هؤلاء.

- إذن يا صوفي قلت لي كل ما تريدن؟

- كنت قلت لك مرة يا أيسيه، واليوم أعيد: لا أكتملك ما في قلبي لأنه لا سند لي في هذا العالم غيرك.

- شكراً يا صوفي - تألم قلب عائشة - وأنا لديّ الشعور نفسه نحوك. ماذا جرى لنا اليوم، نحن الاثنين، ننكّد على أنفسنا ونبالغ في الحذر؟ لا يجوز أن نستسلم لليأس! يُقال عندنا في بلاد الشرکس "إذا فقد الفارس الأمل كف الفرس عن الجري". لا يجوز أن ننسى هذه الكلمة وإن لم نركب فرساً، ما أخبار بابا يا ثرى؟ - نظرت عائشة من زجاج النافذة. - يتحدث مع لاروش وديستان. وهاهو أرجنتال قادم، ما أشد ما كبر هذا العام! وهو سينتهي من الدراسة خلال شهر. يا أرجنتال! - أشارت له فرحة به - سأقول لك يا صوفي خبراً جيداً يتعلق بأرجنتال. أتعرفين أين سيدهب متى أنهى دراسته؟

- أين؟ - نظرت صوفي إلى عائشة نظرة قلقة، ثم سألت عما تتوجس منه: - أسيرسلونه إلى والده الكونت في دوفين؟

- لا، لو لم يبق غيري لن أسمح لهم بهذا - لم تقبل عائشة ما سمعت بل استنكرته - ألا يكفي ما أمضى والده أوغستين - أنطوان فيها؟ رشّحوا أرجنتال للعمل في البرلمان بسبب تفوقه الدراسي.

- هذا خبر سار يا أيسيه، أهنتك. سألتُ عن دوفين لأنه كان وصل إلى سمعي شيء آخر. ولكن اغفري لي إن كنت أقول ما لا يجوز دون أن أكون واثية.

- يا صوفي يا روعي - ضحكت عائشة - لا تحاسبي نفسك إلى هذا الحد، سأقول لك ما لا تستطيعين النطق به: هاتان الأختان اللتان نعرفهما كانتا تريدان أن تبعدا عني أحد الأخوين اللذين يحرساني. ولكن بون دو فيل وأرجنتال قالاً لأمهما: إن فعلتما هذا فسنأخذهما معنا!

- ألم يكن من الأفضل لو حدث هذا يا أيسيه؟ - تدخلت صوفي في الأزمة التي تعاني منها أيسيه.

- لا، لا. - تلهفت عائشة: أتريدان أن أترك هذا البائس بابا للأختين؟ أفضل الموت قبل أن يحدث هذا.

نظرت صوفي إلى عائشة بمودة وأشفقت عليها. وسبب نظرة المودة هذه هو أن عائشة من يوم ما عرفت أنها تعيش في أسرتها وليس في قلبها إلا كل خير. ولا تتذكر صوفي أن عائشة نطقت بكلمة سوء في حقّ ماري- أنجيليك وكلودين - أنطوان مهما عاملتاها بجفاء أو أساءتا إليها. ولن تغفر لك أي كلمة مسيئة إلى آل فيريول. والكلام الصريح الذي جابحت به لاروش ثقل عليه ولو تجاهله. أهو بُعْدُ مسقط رأسها، أم كما يقال "القفص الذهبي يبدو للطائر سجنًا" سببُ إشفاق صوفي عليها؟ وعائشة التي تقول هذا ما هو وضعها؟ صوفي ولو لم يبق لها أهل في بلادها، ولو أنها لا تعتبره قفصاً من ذهب لها، تعيش فيها حياتها وتعمل في هذا القفص وتعمل نفسها. إنه دمها، وصوتها، وفرحها، وألم قلبها، ولغتها، ومرثيتها. ومهما شقيت فيه فأرضه سماؤها. وأينما توجهت فلن يناديها أحد بالغريبة.

الحزن والفرح يدعوان إلى الصراخ. ولكنك تتقبل كلاً منهما بصوت مختلف. ربما كانت هذه هي الأسباب التي قربت عائشة وصوفي كلاً إلى الأخرى قلباً وروحاً. إذن ما الذي يجمع شارل دو فيريول الكونت وعائشة، وبون دو فيل وأرجنتال وعائشة، وماري- أنجيليك وكلودين -وألксندرین وعائشة، وجانيت - نيكول وعائشة، والدكتور لاروش وعائشة، وفرانسوا فولتير وعائشة، وعائشة والآخرين؟ هذه علاقات تربطها فجأة الحياة وتركبها بطريقة منسجمة وغير منسجمة.

"من حسن حظي أن الله ساق لي، على غرار أخوي، صوفي. هنأت عائشة نفسها. - بون دو فيل وأرجنتال رجلاً، وما لا أستطيع مصارحتها به أستطيع مع صوفي. وحين أقع في مأزق فهي الوحيدة التي أحمل إليها أسئلتني. "إن لم تجد من تروي له حزنك فضع الوسادة أمامك واروه لها" كانت جدتي تقول هذا، وصوفي إليّ بمثابة تلك الوسادة. ولكن إذا سببت أحزاني السواد لقلب صوفي كما تسود الوسادة غير قادرة على تحمّل ما يقال لها؟ وإن لم أحرص عليها كما تحرص عليّ سيحدث هذا لكلينا. - تذكرت دون أن تعرف السبب كيف جاءها فخري وأورخان في تلك السنة. - غضبتُ عليهما وأسأت إليهما. ولكن لو أطعتهما وعدت معهما إلى إستانبول فلربما كان في عودتي فائدة لصحة بابا. ولكن من كان يعرف أن ما حدث سيحدث؟ كل الذنب ذنب لاروش الذي كنتم كل هذه المعلومات. أيعقل أن ماري- أنجيليك وكلودين - ألكسندرین كانتا جاهلتين بمرض بابا؟ حتى لو كانت ماري - أنجيليك جاهلة فلا أصدّق أن كلودين كانت تجهل؟

كما كانتا تبادلتا النصح سألت عائشة مرة أخرى صوفي، وهي تُدرج نفسها:

- كفى يا صوفي لماذا نجلس كأننا في مأتم من اختراع خيالنا. لا أتمنى هذا حتى لمن لا يودنا. - نهضت عائشة ونظرت من النافذة إلى من كانت تشفق عليه.
- بابا مرتاح في جلسته. وأرجنتال إلى جانبه يروي له شيئاً. لو لم يكن مرتاحاً لما تركه لاروش وديستان. أتعرفين ما الذي يُفرحني في بابا؟ يواتيه الجلوس في الفناء أكثر من الجلوس في الغرفة.

- ربما لأنه يستنشق هواء نقياً!
- ليس وحده السبب؛ كان قال لي قبل أيام "حين أرى قصر جدي الأبيض أنسى أحزائي". يَحْيَلُ إليّ أن هذا سيكون دواء لبابا، وسيشفى به.
- إن شاء الله - رسمت صوفي إشارة الصليب أمام صورة الإله، محمية إياه.
وبعد أن دعت عائشة أيضاً إلى الله قالت:

- وسأقول لك يا صوفي السبب في أن عندي مثل هذا الإيمان. ليس لأعود إلى بلادنا البعيدة شركيسيا. أتصور أنني سأرتاح هنا في فرنسا لو أُلقيت نظرة على مسقط رأسي... - وكى تتجنب الانفعال غيّرت عائشة الموضوع: -
حسناً وأنت عودي إلى أشغالك، وأنا إلى بابا. وسأطلب من أرجنتال أن يروي لي مسرحية للافونتين شهدها أمس.

- أليست نفسها التي اشتغلتما فيها أنتِ ويون دو فيل، كنتِ رويتها لي.
- نعم، حين شاهدناها كان معنا فرنسوا فولتير. وكانت آراؤنا نحن الثلاثة متباينة. والآن أريد رأي أرجنتال. - أجابت عائشة على صوفي وقد فهمت سبب نظرتها القلقة: - لا، لا. لن نتناقش أمام بابا.

تصرفت عائشة أمام بابا كما وعدت. وقبل أن تسأل أرجنتال جسّت يد شارل دو فيريول فاطمأنت عليه. وسألته إن كانت شمس الظهيرة تؤذيه. وزررت له قميصه.

- أنا اليوم في وضع جيد - أجبها الكونت - والخبر السار الذي حمله إليّ أرجنتال رفع من معنوياتي. اليوم أخبروه بأنه أحد الثلاثة المتفوقين الذين سينهون دراستهم في المعهد الملكي بتقدير جيد جداً. وأخبروه أيضاً بأنهم سيرسلونه للعمل في البرلمان. أهنتك يا أرجنتال، أهنتك؛ بيّضت وجه آل فيريول. وأنا يا أيسيه تخرجت في المعهد نفسه، في عهد مضى، بالتقدير نفسه. وعملت في البرلمان نفسه. وعملت سفيراً لفرنسا سنوات طويلة. وزرت بلداناً كثيرة. ورفعت سمعة ملكي وبلادي وعريقي. والآن ترون ما حدث لي. لم أعد أنفع لشيء.

- ولماذا لا تنفع يا كونت؟ - قال أرجنتال مشدداً على لقب "الكونت" وابتسم لعمه. بين الخمسين طالباً الذين تخرجوا في معهدنا برتبة جيد جداً ثلاثة من آل فيريول. - أنت وبون دو فيل وأنا. وأنت واحد ممن ذكروا أسماءهم وامتدحوهم.

- هكذا؟ - عادت الحياة إلى عيني الكونت اللتين كانتا تنطفئان - هذا وضعنا نحن آل فيريول! - غير أن آل الكونت دو تانسين لا يريدون أن يفهموا هذا... هذه خالتك كلودين - ألكسندرين كاتبة، يا أرجنتال المغرور...

- يا بابا - قطعت عائشة حديث الكونت. - الأفضل من هذا هو أن يروي لك أرجنتال الكوميديا التي شاهدها على المسرح.

- وهل في باريس مثل هذا المسرح؟! - سأل شارل دو فيريول ناسياً المسرح الذي كان يرتاده منذ شبابه. ثم أسرع حين تذكر: - أهو المسرح الذي تُعرض فيه أعمال موليير، والذي يمثل فيه الفنان بارون؟ ما اسم بارون؛ ذكّرني!

- اسمه ميشيل - لم يدع أرجنتال عمه ينتظر.

- نعم، ميشيل. ميشيل بارون، كان فناناً جيداً.

- ولا يزال ميشيل بارون حياً يا بابا. ولا يزال يعمل والناس يحبونه - أخبرت عائشة بسيرة الفنان المُسن ملاطفة الكونت.

- صحيح؟ - تعجب شارل دو فيريول مما سمع. ثم أردف بعد قليل: - يجب أن يعيش الناس الطيبون طويلاً وهم يفيدون البلاد. وأنا منهم. أفهمتم؟... في المسرح تعمل "أدريين لاكوفير" التي يشتتها الرجال.

- هذه أدريين لاكوفير التي تؤدي دور "أرتاناس" في مسرحية "فلورنتينا".

- أأعجبتك المسرحية يا جان؟ - سألت عائشة.

- أيمكن ألا تعجبك المسرحية التي تمثل فيها أدريين لاكوفير؟ - قال شارل دو فيريول وكأنه شاهد المسرحية.

- صحيح يا كونت، صحيح. وافق أرجنتال عمه. - لولا أن أدريين لوكوفير وميشيل بارون عملاً في المسرحية لما كان فيها ما يستحق الذكر. وهما اللذان رفعنا من مضمون النص. ودفعنا الملل عن الحضور.

- وأنا كان رأيي هكذا. إذن أنت وأنا يا أرجنتال تتطابق أفكارنا. - فرحت عائشة لما سمعت غير أنه كان لها رأي آخر: - ولكن بون دو فيل وفولتير يريان النص خالياً من النواقص، وأضحك المشاهدين وأسعدهم.

- لا أعرف، لم أر فيها شيئاً من هذا - ضم أرجنتال كتفيه الضيقتين - مُضحكة ولكنها تخلو مما يثثك على التفكير.

- ليس كل ما يُضحك جيداً يا جان؛ أليس كذلك؟ لو شاهد موليير المسرحية لحكم عليها بالفراغ وضحك. ولغضب حزناً على الممثلة الكبيرة أدريين لو كوفير.

- من تغتابون؟ أدريين لوكوفير؟ ساهم في الحديث من كان جالساً مطرقاً شارل دو فيريول. ودون انتظار الجواب جزم: - لا تغتابوا أدريين المرأة الجميلة.

أقول هذا ولكنها يا شارلوت - إليزابيث أيسيه ليست أجمل منك! ابتسم وأضاف ما يريد ولم يتوقف عند هذا الحد. - أتعرفون أنها كانت عندي الليلة؟ ليست هذه القادمة ماري - أنجيليك الكونتيسة. أتكلم على أدريين الجميلة. فهمت عائشة أنها لا يجوز أن تُبقي شارل دو فيريول في الفناء أكثر من هذا. وفي اللحظة التي كانت ستخبره وصلت ماري - أنجيليك يسبقها العتاب:

- لماذا تحرقون أنفسكم بالشمس في أرض الدار؟
- لسنا في أرض الدار - أجب الكونت كتنه - نحن في المسرح الكوميدي الملكي. أتعرفين الممثلة الجميلة التي هناك؟

- أدريين لوكوفرير من لا يعرفها يا كونت؟ - سألت ماري - أنجيليك ابن حميها مبتسمة، وأجابت بين المناكفة والسخرية: - وفي المسرح أيضاً الممثل المحبوب ميشيل بارون لولا أنه هرم. وحين رأت الكونتيسة أن كلامها لا يُعجب عائشة غيرت موقفها بسرعة: - ليست هذه مشكلة. حان وقت الغداء. تعال يا أرجنتال، أنت، قيل لي، خرجت من البيت صباحاً دون فطور.

- أحيان وقت الغداء؟ سأل شارل دو فيريول وكأنه غير من كان قبل قليل في نوبة، وسبق غيره.

وهمس أرجنتال لعائشة بما لم يكن يجزئ على قوله:
- سأقول لك إن أردت يا أيسيه لماذا تعجب هذه المسرحية بون دو فيل؟ لأنه ساعد المؤلف قليلاً. وفولتير يعرف هذا فيواقفه، ولكن لا أظن أنها أعجبت أياً منهما.

- أنا لا أعرف هذا... - أسرعت عائشة وراء الكونت ثم أمسكت ذراعه.
وحين رأت ماري - أنجيليك ما فعلت عائشة لامت ابنها:

- انظر يا جان مقدار حب أيسيه لأبيها. وأنت لا أتذكر أنك أمسكتني يوماً هكذا.

- يا ماما، هل أنا فتاة؟!

- نعم يا جان لا تحبني. لا يجب أن تكون فتاة لتحب أمك. ليت أحد ولديّ كان فتاة!

VI

الحياة كنتعاقب الليل والنهار. من الصعب تمييز علنها من سرها. وإنسانها ليس ساذجاً تماماً: يغضب وإن كان يضحك، ويكي وإن كان يفرح؛ حسنة كثيرة، وسيئاته ليست قليلة. يعيش من رجولته، ويهلك من جنبه. أحدهم حسود، والآخر طموح، والثالث زير نساء، والرابع وحيد.

كل إنسان يمكن أن يُتَّهم بما فيه وما ليس فيه. ولكن هل يستحق أم لا؟ وبين الناس من لا أهمية له بين أبناء البشر طوال عمره. وحين يتوفى يُنبتون له ضفائر وإن كان في حياته أصلع. ويفتحون له عينيه وإن كان أعمى. وما كان أحلى رقصه وإن كان أعرج. وما كان أمهره في تقطيع الحطب وإن كان مقطوع اليد. ويتناسون فضائله، ويسترجعون مكان عيوبه فضائل. هذا يحدث كثيراً. وهؤلاء يجعلونك جباناً وإن كنت شجاعاً. ويجعلونك مذنباً وإن كنت طاهراً. ويرمونك بالسوء وإن كنت صالحاً.

وأين كان يخرج شارل دو فيريول خلال حياته من هذه القواعد، وأين كان سيذهب؟ يعيش بفضائله وعيوبه في البيئة التي أصيب فيها بالمرض، ويعرف ماذا يقول إن كان رأسه سليماً أم لم يكن. وحين يأتون على ذكره في حضوره يتكلمون على ما كان حسناً وجميلاً، ويتجاهلون مأساته اليوم كأنها لم تكن. ولكن ما إن يدبر ظهره حتى يرموه بكل عيب متناسين أنه مريض. ثم إن هذا يحدث في قصره الأبيض لا في مكان آخر.

كانت عائشة تزداد اقتناعاً يوماً بعد يوم أن مرض الكونت عُضال، وكان واضحاً عدم جدوى أدوية لاروش. ثم أهي أدوية مجدية في الأصل؟ "أ يكون يعطيه أدوية تدبّر ما تبقى من وعيه وذاكرته؟" - جفلت عائشة من الفكرة التي راودتها. ثم لامت نفسها وهي تنصح نفسها شيئاً فشيئاً. - لن يفعل

لاروش مثل هذا بعدما كلمته. إن لم يحسب حسابي فسيخاف من أخوي. ثم إن بابا ليس فاقد الذاكرة تماماً فيفعل به ما يشاء. وليس هذا سراً على ماري-أنجيليك ولا على كلودين- ألكسندرين، ولا على لاروش. بَمَ يمكنني أن أخدم بابا؟ لا يكفي معاملتي له بالحسنى. وأكثر ما يؤلني هو أن أخاه الصغير أوغستين - أنطوان ليس مهتماً به بما يكفي. أياكون السبب هو كثرة زيارة ماري - أنجيليك له إلى دوفني؟ حدثت هكذا من زيارته لأخيه وسؤاله عنه. صحيح أنه يكتب إلى أخيه مرة أو اثنتين ولكن حين أقرؤها عليه يصرف سمعه عنها قائلاً "لا يسأل عني بالورق!" بابا لا يطلب شيئاً منا، ولكن ألا يجب أن يُعرض على طبيب مختص؟ كانت جانيت - نيكول وعدتني أن تساعدني في هذا الخصوص بأن تتوسل إلى الملك أن يرسل أحد أطبائه. شكراً لها، هي الوحيدة التي أجدها إلى جانبي في أوقات الشدة. وأنا عليّ بعض المسؤولية في تأخر شفاء بابا، وفي هذا الشأن فالكاردينال إركيول - أندريه دو فليري يعرفني من يوم ما وقعت بين آل فيريول ويمكنه مساعدتي. كان عليّ الاتصال به. كنت قابلته قبل وقت ليس بعيداً حين توفي الملك لودفيغ الرابع عشر، ويوم جنازته، وسأل عن حال بابا..."

يبدو أن كلامهم "الروح والقلب يعرف أحدهما الآخر" صحيح. قطع صوت العربية التي وقفت أمام قصر آل فيريول أفكار عائشة، وجعلها تراقب المشهد. وأيقظت شارل دو فيريول الذي كان يتشمس في أرض الدار مع هواء الخريف النقي. وقال الكونت وكأنه كان ينتظر من سيخرج من العربية:

- أظن ضيفاً كبيراً جاءنا.

دخل إركيول أندريه دو فليري الذي ارتقى منذ عهد طويل إلى رتبة الكاردينال، ومعه رجل نحيل. خفّت عائشة لاستقبال الضيوف غير المنتظرين. وحين اقترب

الكاردينال حيّا الكونت بإشارة، وقبّل يده، ثم عانقه. وحين بكى الكونت وهو يعبر عن أسفه لعدم حضور جنازة الملك، وعدم إلقاء النظرة الأخيرة عليه، نصحه الكاردينال:

- نعم يا كونت، ما العمل؟ لسنا أحراراً في شيء. سنصلي إلى الله أن يجد ملكنا المفدى راحته حيث رحل، كفى بكاء؛ احرص على صحتك - ضمّ الكاردينال إليه الكونت ثانية - لنقل ما يقال في مثل هذه المناسبات "مات الملك، عاش الملك!"

- نعم أيها الكاردينال، نعم يا إركيول - أندريه، مات الملك، توفي الملك - قال شارل دو فيريول وأعقب: - لو لا أي كنت غائباً سفيراً له في تركيا لكنت أثبت ملكي المفدى معكم... ولكن، وأنتم تعلمون، مهمات البلاد فوق الجميع. هكذا تجري الأمور. - تبادل الضيوف النظرات وهم يفهمون حقيقة كلام الكونت، ولكنهم عادوا إلى وعيهم مع ما أضافه لهم: - زميلك الضيف هذا ليس من معارفي.

- يا كونت هذا هو سيلفا جان- باتيست، طبيب الأسرة الملكية. كنت صحبته إلى ابني الأكبر لما توعك. ولما كنا في طريقنا قريبكم عرّجت عليكم للاطمئنان على صحتك. - قال مخفياً رجاء جانيت - نيكول، ثم أنهى دون إعداد مسبق لكلامه: - إن كان يزعجك شيء يا كونت فسنرجو الطبيب أن يرى حالتك، وأنا فحصني عندنا...

- يا إركيول - أندريه، يا صديقي - كان شارل دو فيريول مرتاحاً لما سمع - أهنأك أحد خالٍ من مرض واحد على الأقل؟ انظر إلى الشابين الآتين مع كنتي ماري- أنجيليك، ولداها، يشكوان قبل أن يولدا من الصداع. وشارلوت

— إليزابيث أيسيه يصعد الدم إلى رأسها في غمرة اعتنائها بي؛ أليس كذلك يا أيسيه؟

— لا تقل هذا يا بابا. لا أشكو من شيء بسببك. إذا كان الكاردينال إركيول — أندريه عرض نفسه على الطبيب الماهر فاستشره أنت أيضاً!

— أيسيه! — استغرب شارل دو فيوريل ما سمع — من أين تعرفين إن كان الدكتور سيلفا جان — باتيست ماهراً؟

— يا بابا؟ — نظرت عائشة في وجه الكونت عابسة دون خصام.

— نعم، نعم — غيّر الكونت موقفه غير متابع لما سأل عنه — لا علاقة للسن بإتقان المهنة. من كنت أعرفه طبيباً للملك هو شارل بيير. وهو الماهر في الأمراض النسائية. ما أخباره؟ بلغوه سلامي سواء كان يتذكرني أم لا. هذا الرجل — قال شارل دو فيريول ناسياً حضور عائشة — نفع كثيراً في بعض الأوقات نسائي الجميلات. وهو بالمقابل لم يكن يعفّ عنهن، أما الآن فلا أعرف.

— بابا — رفعت عائشة صوتها ثانية في وجه الكونت.

— هذه أنت يا أيسيه! اغفري لي، اغفري... ماذا ننتظر؟ إن كنت تريد أن تعرف وضعي فتعال إلى الغرفة... هذه الكونتيسة القادمة ستصعد رؤوسنا. لن تدعنا نتكلم. لا تؤاخذني أيها الكاردينال؛ سأعود حالاً. تعالي يا أيسيه أنت وحدك أُملي ودوائي.

كان أرجنتال ترك أقرانه ومضى مع عائشة ولكن عائشة ترجّته ألا يفعل فرجع على غير هواه. وسمع أرجنتال ما قاله الكاردينال لماري — أنجيليك بعد تبادل التحية:

- لم أكن أعرف أيتها الكونتيسة أن الكونت في هذه الحالة، هذا مؤسف.
ولولا أن جانيت - نيكول ترجتني من أجل الدكتور لما عرفت حاله.

- وما شأن جانيت - نيكول بنا؟... مع أن ماري- أنجيليك سألت بطريقة يظهر منها عدم رضاها عما سمعت فإنها، على عادتها، دائماً كظمت غضبها، ولكنها لم تملك إلا أن تضيف: - نعم جانيت - نيكول تطمع في الكونت لقرابة بينهما فتقلق لأجله.

- يا ماما،- لم يقبل بون دوفيل. - لا يُقال مثل هذا في الكونت عمّنا، وفي جانيت - نيكول معلمة شارلوت - إليزابيت.

حتى لو كانت الكونتيسة ماري - أنجيليك والكونت إركيول - أندريه دو فليري أقرباء فقد فرح الكاردينال لما سمع وضحك في سره. وحدد سبب تصرفه:

- ليست جانيت - نيكول وحدها يا كونتيسة. فمن يهتم بأمر شارل دو فيريول هو أخوك الأصغر الذي يمتّ بقرابة إلى من ذكرت اسمها معلمة الدين الجميلة. جاءني الاثنان معاً وطلبا الطبيب الذي صحبته إليكم.

- هل فهمت يا ماما؟ - الآن لمعت عينا أرجنتال.

- وكيف لا أفهم إذا كانوا يُحسنون إلى عمك؟ - وجدت ماري- أنجيليك ما ترد به على تلميح ابنها. - وأقول شكراً للكاردينال إركيول - أندريه الذي هو قرينا من جهتها ومن جهة غيرين دو تانسين الكونت. ولكني يا ولدَي العزيزين أرجوكمما باسمي وباسم إركيول - أندريه أن تتركونا قليلاً حتى أتكلم مع الكاردينال.

- هذان _ ليس عندي سرٌّ يا ماري - أنجيليك - نظر إركيول - أندريه إلى الولدين بمودة - لم يعودا ولدين، يفهمان ما يقال لهما وما يقولان. ولكن إن أنت أردت هذا فلا بأس أن يتركانا.

حين امتثل بون دو فيل وأرجنتال لرغبة كاردينال فرنسا وجلسا على مقاعد في الاستراحة، تنهدت ماري - أنجيليك وقالت:

- كما ترى يا كاردينال، حتى من ولدناهم يحاولون تربيتنا.
- بالنسبة لأولاد أختي أيتها الكونتيسة لا أنفهم موقفك. هما مهذبان وتربيتهما صالحة ومتعلمان. ويعملان لأجل فرنسا كعمهما. ما يشغل بالي شيء آخر. الشباب الذين نسوا في السنوات الأخيرة الكنيسة. وما أطلقه فوسكا دو غاما وكوبرنيك من أفكار معادية للدين تتمدد. وإن أردت الصراحة أيتها الكونتيسة فما جئت لأجله إليكم مسألة إلهية، لا مسألتني. على المرء الخضوع لما اختاره الله له. ولكن بما أن له علماً بعملتي فقد جئت بالطبيب إلى الكونت الذي هو الآن في وضع صعب.

- أيمكن للكونت شارل دو فيريول أن يشفى؟ - سألت ماري - أنجيليك وإن كان في قلبها شيء آخر، متظاهرة بالاهتمام بابن حميها، ثم مدحته: - أقول هذا ليس لأنه ابن حمي أو لأنه أخو زوجي، لقد عمل من أجل فرنسا دون كلل أو ملل. وخرج من عمله بعاهة. والملك الذي وضعنا أملنا فيه فارق الحياة وهو يعدنا. ولا يكفي أنه مريض وعالة على غيره بل بيننا كما ترى فتاة بحاجة إلى إعالة. ولودفيغ الخامس عشر الذي تبوأ الملك صبي في الخامسة. ومن سيتحمل مسؤولياته الدوق فيليب أورليان الوصي على الملك هل سيفهمنا؟ وهل سيجيب على طلبنا؟ والكونت المسكين هل سيشفى ويعود سنداً لنا؟

- شفأؤه وعدمه من عند الله يا كونتيسة - قطع الكاردينال آخر سؤال لماري - أنجيليك. - ولكن سنصلي لأجله إن كانت عنده ذنوب ليكون رحيماً به. وفي مسألة التعويض لا داعي لليأس. وهذه مسألة الله، ويمكن للوصي أن يتفهمنها ويساعدنا. وليس جاهلاً بخدمات الكونت لفرنسا. وأنا أتكفل بهذا الجانب على علم من الله.

- شكراً إركيول - قبلت ماري - أنجيليك يد الكاردينال. حين أعطت عائشة وسيلفا جان - باتيست طبيب الملك دواء لشارل دو فيريول، وأضجعوه ليسترىح كان حديثهما في شؤون المرض وشفائه، لا ما كانت الكونتيسة تتوسل من أجله.

- قبل أن نتكلم، وليس بيننا إلا الصدق، شكراً لكم وللكاردينال ولجانيت - نيكول على تلبية طلبنا - نظرت عائشة في وجه الطبيب نظرة أسمى وأمل - أقبلي ما تخبرني به عن مرض بابا إن كان خيراً أم شراً. ولكن عندي رجاء: الخبر السيء لا يجوز أن يعرفه غيرنا نحن الاثنين، حتى الكاردينال وجانيت - نيكول اللذان شكرتهما. ليس لأني لا أثق بك وبهما، سأخبرهما إن كانت هناك حاجة.

- فهمت يا آنسة. - جزم الطبيب باختصار، وأضاف وهو يبتسم لها: - أنا سمعتُ ذِكرك يا شارلوت _ إليزابيت أيسيه كثيراً في القصر وفي أسرة الملك. ولكني لم أعرف أنك آنسة جميلة وصلبة كما أرى.

- لا أعرف إن كنت جميلة - ابتسمت وهي تزداد حلاوة، انتهت وانشراحها ينطفئ: - ما سميتَه بالصلاية زرعته في الحياة. هذه ليست مشكلة. قل لي حال بابا على حقيقتها يا دكتور!

- دون أن ترجوني يا آنسة تعرفين أن أساسِي مهنتي هما الصدق وحفظ السرّ.
- بدأ الطبيب بصوت قاسٍ ثم أفهمَ عائشة بكلمات الُطف وأحفل بالأمل: -
شارل دو فيريول مريض، ولكن لا خطورة إلى الآن.
- ماذا يعني "إلى الآن" يا دكتور؟
- مرض الكونت صعب الشفاء، فيما هو يتكلم بهدوء يبدأ بالهذيان. وكلما تقدم في العمر ستتفاقم حاله فاقداً وعيه شيئاً فشيئاً. ولكن الكونت لن يكون كالمرضى الذين يخرجون عن أطوارهم. ستظل نوباته تنحسر عنه وسيعيش دون أن يُحدث بينكم فوضى كبيرة. وسأقول لك ما أعنيه بـ "كثيراً": يمكنه أن يتكلم أو يفعل أموراً مزعجة في نوباته فاحرصوا عليه في مثل تلك الأيام. لا تدعوه يخرج من البيت، ولا إلى الشارع.
- أرضى بأي شيء يقوله أو يفعله بابا في البيت على ألا يُدخلوه المشفى. -
قالت عائشة ما تقبل به ولكن بعدما كتمت عواطفها.
- ليس الكونت من نوع المرضى الذين يعنى بهم في تلك المشافي. وسأبلغ ماري - أنجيليك الكونتيسة وإركيول - أندريه فليري و الدوق الوصيّ أورليان بهذه المعلومات. هل بقي شيء تريدين معرفته عن وضع الكونت يا أيسيه؟ -
مدّت عائشة يدها إلى حافظة نقودها فلم يقبل الطبيب. - لا حاجة يا آنسة؛ لا أحجب شيئاً أستطيعه عن الكونت الذي ضحى بصحته من أجل فرنسا.
- شكراً يا دكتور على سعة فهمك.
- لست من قال هذا يا آنسة بل هو الدق الوصيّ أورليان. حملني سلامه ذاكراً إياك بالخير.
- شكراً له، من أين يعرفني الدوق أورليان؟ لست من معارفه. - تعجبت عائشة مما سمعت.

- قال إنه رآك في المسرح.

- هذا محتمل. أنا أحب المسرح. - أجابت عائشة بلا اهتمام، وصارحت الطبيب بما كانت تخفيه: - والآن رجاء آخر: بعد أن تختبر أدوية لاروش ماذا ستكون نهايتها؟ - إن كانت صالحة أم فاسدة فلن يعرف أحد سوانا. فتح بون دو فيل الباب دون أن يدع المجال لسيلفا جان - باتيست، طبيب الملك:

- أيسيه لماذا تأخرتما؟ الكاردينال يقول...

- يا بون دو فيل - أشارت عائشة بيدها: لا تصرخ! بابا نائم... يا دكتور أنتما اذهبا إلى الكاردينال، وأنا سأطلّ على بابا ثم ألحق بكما.

كانت ماري - أنجيليك الكونتيسة أول من سألت الطبيب:

- ما حال مريضنا المسكين يا دكتور؟ فحصته طويلاً؛ هناك ما يدعو للقلق. لو كنت أعرف أنكم قادمون ما كنت تركت طبيب أسرتنا يغادرنا. وأين أيسيه؟ - نعم، أين أيسيه؟ - وافق أرجنتال الآن أمه.

- "أين هي، أين هي" غمغم بون دو فيل قبل أن يقلده أخوه الصغير. - ها هي تجلب ماء طيباً بصحبة صوفي.

- الكونت شارل دو فيريول مريض لا يستطيع العمل. - قال الطبيب الذي انتظر الأخوين حتى ينتهيا من مناكفتهما. - سيقضي بقية عمره بين الوعي واللاوعي. هواء نظيف، وراحة قلب، ودواء يريحه - هذا ما تنفعون به مريضكم يا كونتيسة. ونحن سنطمئن عليه من وقت لآخر.

- وأنا أعدك يا كونتيسة بهذا كما قلت لك - إركيول - أندريه فريلي الكاردينال - وافق طبيبه الذي أتى به. وقال لعائشة التي ظهرت: - وهذا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ما نستطيع خدمتك به؛ اطمئني!

- نعم، نعم يا أركيول نعم يا كاردينال. شكراً يا دكتور. لِيَقَ الكونت المسكين في البيت بدون إزعاجات، ولا يوقَعنا في مشكلات! هل سمعتِ يا أيسيه: هذا هو وضعنا... ونحن، أسرة فيريول، ولو أن عندنا طبيب أسرة جيد، يسرنا أنك وعدت بالاطمئنان على الرجل الذي له أيادٍ بيضاء على فرنسا. وأنت يا أركيول، يا شبيه روجي، لا تنس ما وعدت أن تبلغه للدوق الوصي أورليان... لا تعبسي بعينيك في وجهي يا ابنتي الحلوة. ألا يجب أن نعيش أنت ونحن وأبوك؟ أتكلم على تعويض الكونت الذي تكلمنا فيه أنا والكاردينال أركيول - أندريه فريلي.

VII

ليست نظرات كل النساء إلى الدنيا ولا طرائق جبهنّ متشابهة. بعضهن يؤسسن أسراً آملا أن يُسعدن من يحببن، وأن يسعدن معهم، ويرين في المشقة فرحاً، ويرين وهن يتحملن في الفرح المشقة. وغيرهن، حين يتزوجن، تعيش الأسرة معهن منتظرات الحظ الذي كن يطمعن فيه، جامدات، يتمارين مع أزواجهن دون أن يقدمن نفعاً، وينشأ أولادهن ناقصي التربية. والنوع الثالث حين تخيب آمالهن يصبحن كالعصافير التي طارت من الغرفة فجأة، قبل أن يتمكن أحد من كسر أجنتهن، يهربن من النوافذ فاقداً الأمل في أي مهرب آخر.

والنوع الرابع والخامس؟... هؤلاء يعيشن مثل عيشة شارل دو فيريول إلى الآن. يعيشن كالرجال المتحررين لا يلتفتن إلى شيء. تحدث في الحياة أمور كثيرة لا تنتظرها البتة لن تفهمها ما لم تختبرها، وإذا لم تصطدم بها لا تستغربها. ولو لم تكن حياة الإنسان هكذا لما قالوا: الدنيا فرح، وثقيلة، يسهل فهمها، ويصعب تحليلها، ولما سمّوها "الدنيا الفانية". ولكن كما أن الدنيا مركبة متناسقة ومتنافرة، متعارضة، فهؤلاء مختلفات ومتعارضات.

حين تكلمت عائشة مع طبيب الملك بخصوص الكونت فهمت أنه لم يبق لها ما تشبث به من أمل.

ولكن بون دو فيل وأرجنتال طيّبا معاملتها. دُعك من صوفي التي تقدّم لها روحها. ولا يمر يوم لا تسأل عنها جانيت - نيكول. ولا يمكن وصف معاملة ماري - أنجيليك لها بالسوء. وهل عجيب أن تعاتبها أحيانا؟ تتحمل عتابها على مبدأ جدتها "قائمة البقرة لا تقتل عجلاً". وكلودين - ألكسندرين ليست

امرأة سيئة لولا أنها تظل تردد على مسامعها "كأنك تزدادين جمالاً كل يوم". وزميلتاها المركيزتان دو باراير، ودو ديفان؟ وفرنسوا فولتير، وشارل مونتسكيو؟ حتى وإن كانت عائشة تنصح نفسها حين تبقى وحيدة بهذه الطريقة فإنها عندما تفكر في ما حدث لشارل دو فيريول الذي تحبه، وفي ما حدث لها، فالمصيبة التي وقعت فيها لا توفر منها شيئاً. وحين تقع في مثل هذا الموقف الصعب تظل تكرر "ماذا سيحدث لي ، وماذا سأفعل؟" ولما كان الله أملها فكانت تخاطبه وتدعو إليه بالفرنسية وبالأديغة، وترسم إشارة الصليب، وتروي له بدموعها التي لا تستجيب لها.

ومتى نفّست عن قلبها رجعت تسأل نفسها: "من أنا؟ أفرنسية أم أديغة؟" "أكنت يوماً أديغة والآن صرت فرنسية؟ ربما كان إخلاصي للديانتين سبب مصيبتى... ولكن، في صغري، في بلادي كنت على الدين الإسلامي وحده. وكان دين أبي وأمي وجدتي وجدتي. ومع أننا كنا مخلصين له فالمأساة التي صدمتنا سببت لنا العذاب إلى الأبد. وهؤلاء أترك، وقومي الأديغة كانوا متآلفين معهم. وانظر اليوم ماذا يحصل! الأديغة، والترك الذين سرقوني، والفرنسيون الذين صرث منهم صاروا أمماً متنوعة. وهؤلاء وإن اختلفت لغاتهم وأديانهم فبينهم الرحيم والظالم، والحريص على نفسه، ومن يتأمر بعضهم على بعض... الفرنسيون يسخرون من الإسبان، والإنجليز والفرنسيون أعداء أزيون يتربص كل منهم بالآخر. يتناسى الفرنسيون منبع الدين الكاتوليكي، وأين يمارسونه، فيسخرون من هوج الطليان. ويسمون الألمان بالأعاجم الجشعين، ويحتقرون النمساويين والبولنديين. ويسمون الروس الأغنياء بالثلج بالديبة. وكل هؤلاء يدينون بالمسيحية المنقسمة على نفسها. والناس في الشرق البعيد يؤمنون

بالبودية. لماذا العالم منقسم هكذا ؟ ماذا أضيف إليهم إن أنا رثيت نفسي ،
ومن سيسمعني، ومن سيفهمني؟"

أفاقت عائشة الياثسة من أفكارها كأن من سيجيها ناداها، وأجالت بصرها في
الغرفة، وتنصتت. ثم دنت وهي ترسم لنفسها إشارة الصليب من صورة أم
الإله، وركعت أمامها "اغفري لي يا مريم العذراء؛ ما سمعته لم أقله عن سوء نية.
اغفري لي ما يصدر من فمي في ساعات ضيقي. ولا أكتم عنك أن الإسلام،
ديني الأول في طفولتي، يمنعني من مثل هذه الأفكار والأقوال، فاغفري لي
وارحميني. ولكن مهما كنت كتبت على جيبني من عمر طويل أو قصير، وإن
كنت سأصبح امرأة فرنسية حقيقية، فلن أتنازل عن أديعتي..."

لم تلتفت عائشة إلى من دخل الغرفة. رأت ماري - أنجيليك واقفة إلى جانبها.
ونصحت الكونتيسة عائشة التي انتهت من دعائها دامعة العينين:

- يا حسرتي يا أيسيه! أراك بكيت... ونحن هناك نظنك تستريحين مع نوم
الكونت، فلا تتنفس خشية إيقاظكما... تعالي واجلسي هنا يا ابنتي. حين
صرت في قوام الفتاة الجميل جاءتنا مشكلة الكونت. كفى بكاءً، احرصي على
صحتك. - تمسح ماري - أنجيليك بيدها على الفتاة التي أجلستها بجانبها.
- لم يحدث لنا ما لم يحدث لسائر الناس. لا بأس إن بقي الكونت معنا وقيل
أن يعيش بيننا. - سألت الكونتيسة التي لم تفهم سبب إبعاد عائشة رأسها عن
كتفها: - ما الأمر يا أيسيه؟ - وحين نظرت في وجه عائشة التي بردت نظراتها
لامتها بصوت أعلى: - لماذا تحفظين بعينيك؛ أقلت شيئاً لا يليق؟

- أنتِ أدري بما قلت لي أيتها الكونتيسة - لم تتأخر عائشة، وهي في فورة
دمها عن مكاشفتها بما يزعجها: - وأين سيذهب بابا إن لم يعيش بيننا؟

- أهذا ما لم يُرضك؟... نعم، نعم ، الآن فهمت لماذا على الإنسان ألا يقول ما لا يليق وهو في ضيق... وأين سندهب بالكونت البائس؟... سنتحمل ما حملنا الله - تباكت ماري - أنجيليك على عادتھا وهي تمسح عينيها بالمنديل - يا أيسيه، يا ابنتي الحلوة، منذ متى أقلعت عن مناداتي بـ "ماما" وصرت تناديني "الكونتيسة"؟ أنت لا تعرفين حيي لك، وأن الله أعطاني إياك ابنة حلوة طالما تمنيتها. وإن شئت أخبرتك شيئاً آخر: يُحَيِّل لي أحياناً أنني أحببتك أكثر مما أحب أختي كلودين. وولداي؟ يُحَيِّل لي أيضاً أحياناً أنهما يحبانك أكثر مما يحباني. لا أكتمك، أحياناً أعنفهما لهذا السبب... وأنت تناديني "كونتيسة" وتنظرين إليّ شرراً!

- اغفري لي يا ماري - أنجيليك يا ماما - ضمت عائشة الآن إلى صدرها المرأة الجسيمة التي كانت تلومها قبل قليل - وأنا فقدت أعصابي من الحالة التي أنا فيها. ولم أقل ما قلت عن سوء نية.

- نعم، نعم. يا ابنتي. إن لم نتفاهم أنت وأنا ولم نتساند، كما قلتُ فكلودين لولا أنها جميلة وتؤلف كتباً لا تنفع لشيء. والأخرى جانيت - نيكول الباحثة الدائمة عن غنيّ، ولا تحسدي أمثال بارايير وديفان المركيزة الصاعدة، وأصحاب الأملاك الواسعة، ولا يخدعوك! اسمعي مني لا أقل لك إلا ما ينفعك! أنظر إليك فأراك جميلة عاقلة حلوة الطباع فلماذا لا تصبحين محطّ عيون كل أهل باريس؟ وهذا يحتاج إلى وقت فعليك التحلي بالصبر. وثقي بي. ولو أطاعتني كلودين لما حدثت لها كل هذه المصائب، ولكانت تسبح في المال وتستحم به، وكانت تعيلنا معها لا نحتاج لأحد.

- يا ماري - أنجيليك، يا ماما - سحبت عائشة حبل الحديث من الكونتيسة.

- أعرف ما ستقولينه يا أيسيه - مرة أخرى تصنعت ماري - أنجيليك البكاء وأسرعت بالمنديل إلى عينيها. - كلودين جميلة كالصورة، مؤدبة، وأنت تعرفين هذا دون حاجة لأن أقول لك. وتعمل معكن دون شكوى من التعب. تفوّت قطار الزواج مشغولة بالآخرين، غير مهتمة بحالها. وحين غازلها دويوا الكاردينال رفضته بحجة أنه أرمل. وكان هذا خيراً لها فهو شخص متلبّد من وسخه، شرير. ما أنفق قرشاً على امرأة إلا ظل يحاسبها عليه.

- لا أحب يا أمي الناس الأشرار سواء كانوا رجالاً أم نساء. - قالت عائشة ما تريد هي قوله - بابا ليس من هذا النوع؛ إنه طيب القلب، من الناس الشفوقين الحساسين لآلام الآخرين.

- وأنا من هؤلاء - امتدحت ماري - أنجيليك نفسها - ولكن لا يمكن اكتناز المال إلا بالخبث. وهل مستشار المجلس الأعلى "لافريني" فقير؟ يقال إن ما جمعه لنفسه من ملك يكفي لعشر أسر مثل أسرتنا، فيريول، إلى الأبد. أريد أن أنصح كلودين حتى أغريها به، ولكنها تراه قبيحاً، لا أستطيع إقناعها.

- تعرفه جيداً... - غمغمت عائشة.

- ماذا تقولين؟ - جعلها الكلام الذي سمعته ترفع رأسها فجأة.

- نعم يا ماما، ألا ترين أنف لافريني كأنه يد مغرفة فكيف تتزوجه بداعي أنه غني!

- وأنت هل بدأت تميزين بين الخطّاب؟

- لم أصل يا ماما إلى هذه المرحلة - قطعت عائشة السؤال وأكملت بما يشغلها: - الأهم من كل شيء هو صحة بابا.

- وأنا يا أيسيه مشغولة البال بهذا الموضوع - غيرت ماري - أنجيليك ببراعة الموضوع إلى الموضوع الذي تريده: - صحيح أنك لم تخرجي من صلبه غير أنه

أسدى لك ما لا يُسديه لولده الحقيقي. وأنا ليس قليلاً ما قدمته لك. يسرني أنك تفهمتنا. فرخ العصفور، وهو في عشه بعدد، تنبت له الأجنحة التي سيستقل بها عن أهله. ولكن الأبوين يزيدان عنايتهما به وأوانً اقترب موعد طيرانه. لذا يا أيسيه لستُ غير مبالية بهذا الأمر، كما قلت لك، إن كنت ستطيعيني في خطوتك الأولى فلن أدعك تخطئين في الخطوة التي ستجعل منك سعيدة على طريق الغنى. لا تحملي الأمور أكثر مما تتحمل. وكما يقول أوغستين - أنطوان سمنثل لإرادة الله الذي قدّر ما حدث. ربما تفيده أدوية الطبيب سيلفا جان - باتيست الذي أرسله الوصي على العرش أورليان، توقّف عن الغناء المصحوب بالصفير في الغرفة. والدكتور جان - باتيست منافق كلاروش، لا تبسّطي له وجهك. الإنسان الذي لا يعرف مدى بؤسه يظل يشتهي المرأة الجميلة؛ فاحذري!

- يا ماما! - مرة أخرى ابتعدت عائشة عن أفكار الكونتيسة قصداً - لا أحب هذه الأحاديث، كُفّي عنها!

- حسناً، حسناً يا ابنتي، لن آتي مرة أخرى على ذكر من لا يليق بك.
- اصطنعت ماري - أنجيليك المزاح فأراحت عائشة، فلمّحت لها الآن بما تنوي بحقها: - وإذا اختارك أورليان فماذا تفعلين؟... نساء فرنسا الجميلات يتقصّدن أن تقع عينه عليهن فيتحرّقن شوقاً إليه. ولا يقتصر الأمر عليهن، فهو فتى الأحلام لكثير من المراتيات المتزوجات، ومن لا يمكن الارتياح فيهن ممن يزعمن أن عندهن حباً وحيداً... مهلاً يا أيسيه دعيني أكمل كلامي... لم تبدأ هذه المسألة بي ولا بك، لا أقول إننا سنفعل ما لم تفعله النساء والرجال إلى الآن...

أعادت عائشة التفكير في ما لم تكن تفهمه من كلام ماري- أنجيليك في الشهرين الماضيين "مهلاً، مهلاً. أظن أن هناك علاقة ما بين ما تُسمعينني إياه وبين السلامة التي يرسلها لي أورليان. لماذا الاثنان ماري - أنجيليك والدكتور تمتدحانه لي في تناغم؟ لأنه الوصي على العرش؟ يقيم في باريس لا يكلّ ولا يملّ من الطعام والشُّكر. أأبلغها أنه يرسل إليّ سلاماته؟ هؤلاء يخفون نية مبيتة عندهم في هذا الموضوع... وهل تعرف كلودين بالموضوع؟..."

- شارلوت - إليزابيت أيسيه أين أنت، لا تُصغين لما أقول - في اللحظة التي لامت فيها ماري- أنجيليك عائشة خرج من الباب خفيةً شارل دو فيريول في كامل أناقته.

تستمر الكونت المتأبط عصاه الفضية على أرض الغرفة، وسأل بشيء من الرياء:

- لماذا ليس غيركما في صالة حرمي؟ ما أفلكما!

- يا بابا... - نهضت عائشة بسرعة ووقفت إلى جانب الكونت: - نحن ماري - أنجيليك وأيسيه، لا غريب. ألا تتذكرنا؟

- وكيف لا أعرفكما؟! - فرح شارل دو فيريول لعودته إلى رشده وصرخ غاضباً على نفسه: - أحياناً لا أعرف ماذا يجري لي حتى لأنسى أنني لبست قبعتي الأسطوانية العالية. - جلس قليلاً، ثم قيّم كعاداته منذ مرض، نفسه ومرضه: - هذا هو سبب المرض: ما بذلت من جهد في سبيل فرنسا. لماذا أنتما جالستان؟ حان وقت وصول جانيت - نيكول والأسقف بيير.

- هذان لن يأتيا اليوم، بل غداً.

- أغداً موعدنا إلى المسرح؟- سأل الكونت نادماً على تأنقه ثم ضحك. - أنا كنت جهزت نفسي جيداً... أتذكركم هذه العصا الفضية يا أيسيه؟ أنت من حملت جانيت - نيكول على شرائها. ولكني أنا من اخترتها لها.

- تُعجبك يا بابا، صحيح؟

-لم أمتلك يوماً عصا تعجبني بقدر هذه. كل من يراها يشتهيها. هذا ما يحدث - تنهد الكونت عميقاً - يا للحسرة هذا زمان مضى! وغداً سيأتي الأفضل ولكني لن أغير هذه العصا كُرمي لمن اشترتها لي. أعتقدين يا كونتيسة أن فولتير قادر على كتابة مسرحية جيدة؟ ثم إن من يُخرجها هو الكونت أرجنتال دو فيريول؟

- لا أعرف يا كونت، لا شأن لي.

- لماذا يا ماما ماري - أنجيليك لا تعرفين؟ - دافعت عائشة عن المسرحية التي لم ترها بعد - شاهد أرجنتال ويبير التجربة الأولى، وأعجبا بها جداً.

- لا أعرف، هل هؤلاء قادرون على كتابة مسرحية جيدة؟ يظل فولتير مخترع أشياء جديدة. لا أعرف لماذا سمى مسرحيته "أوديب"؟

- "أوديب" اسم ملك.

- أليس لأنه اسم ملك - تظاهرت أنها تعرف ما قيل لها وزفرت عميقاً - أقول هل أعجبت أورليان وصي العرش؟

- لاقيمة لرأي أورليان الذي يصدع الرؤوس يا كونتيسة. لا تنظروا إليّ بعيون جفلى! - صرح شارل دو فيريول باسم من يأتي على ذكره بسوء: - ليس أورليان الثرثار هذا مهماً، كان الأهم هو رأي موليير العجوز لو كان حياً. مهما كان الرأي فسأقول "برافو" لفولتير كاتبها، ولأرجنتال مخرجها. هذا هو

الأمر يا كونتييسة، يا كنة آل فيريول، وبت آل غيرين دو تانسين، نحن نهرم،
وشبابنا الفطن يأخذ مكانه في هذا العصر الجديد.

- لا تدعنا نقول أشياء لا محل لها بحجة أننا، أنت وأنا، نشيخ. - انفعلت
ماري - أنجيليك لما قالوا لها. وامتدحت نفسها عن طريق المزاح: - أنت لا
أعرف ياكونت كيف ستعاملك النساء مستقبلاً، أما أنا فسترى مساء غد
كيف سيتهافت الرجال عليّ...

- سنرى يا كونتييسة، سنرى... - بادلها شارل دو فيريول المزاح.

VIII

في اليوم نفسه تكلم آل فيريول على شؤون المسرح الفنية، وانتهوا، وفيما عائشة على تطريزها غفلت دون أن تعرف كيف. في البداية حُيِّل إليها أنها تسمع اسم "جولي، جولي" وحين ارتعبت فقفزت من غفوتها تبين لها أن هذا صوت فرح ماري - أنجيليك، وشارل دو فيريول يقول لكنته "مهلاً يا كونتيسة انتظري! دعيني أحيي المركيزة جولي كالاندرين. يا كلودين أجبنا بالضيف العالي ورجعت؟ أين هي شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ أخبروها أن جولي أتت من جنيف. كانت مشتاقة إليها لأن زيارتها قليلة"

خرجت عائشة من الغرفة راكضة دون أن تطل من النافذة وقلبها يتعثر في ركضتها. واستقبلتها مادّةٌ يديها كما كانت تفعل في طفولتها دون أن تشعر بالخرج من أن قوامها الآن قوام فتاة كاملة. وانفجرت باكية وهي تعانقها:

- لا تبكي يا أيسيه، اهدئي يا حلوتي. - مسحت على رأس عائشة التي على كتفها. - انظري؛ ها قد جمعنا الله مرة أخرى. - لم أعرف أنك في السنوات الثلاث أو الأربع التي افترقنا فيها كبرت وصرت جميلة هكذا. وأنت يا كلودين أتينا على ذكرك كثيراً في جنيف. وابتنتنا سوزان أحبتك فلا تنساك. وتبلغك تحياتها. كان بودها أن ترافقني إلى باريس ولكن ظروفها لم تسمح لها.

- نعم يا للحسرة يا جولي - تُوافق ماري - أنجيليك المرأة قريبتها - أيسيه تحبك وتشتاق إليك. وبون دو فيل وأخوه لا يجبان أحداً كما يجبانك. وهما في المسرح الآن يضعان اللمسات الأخيرة على مسرحية فرنسوا فولتير. اسمع، اسمع يا كونت، حين رأينا قريبتنا جولي نسينا كلياً كلودين التي غابت عن بيتنا شهراً كاملاً. كأن جنيف ناسبتك أكثر من باريس يا أختي. وكأنك صرت أجمل فيها. تفضلي، اشتقنا إليك.

- لا أعرف إن كانت جنيف واثني يا ماري، ولكن من أين لي أن تعلمي مني شبيهة أيسيه الجميلة ذات الطباع الحلوة، والتي نسيته. - مدت كلودين -
الـكسندرين مازحة يدها على كتف من كانت تعاتبها - كفى يا أيسيه، دعيني أنا أيضاً أعانقك.

- ساحيني يا كلودين، أنت أيضاً وبابا وماما - عانقت عائشة كلودين متغافلة عن الكلام الساخر الذي وجهته إليها. - أنا وأرجنتال اشتقنا إليك يا كلودين. وفرنسوا فولتير وبون دو فيل هما من ينتظرانك على وجه الخصوص. يودان أن تشاهدي المسرحية الأولى لهما. خيراً فعلتِ باصطحاب المركيزة جولي. - نعم، وافق الكونت الذي ظل ساكناً إلى الآن عائشة. ثم رد على الأختين على ما فهم، وهو يعث بالعصا الفضية: - ولكن تعرفان ما سأقول لكما؟ أنا الكونت شارل دو فيريول، لا الوصي أورليان، من تركه الملك لودفيغ الرابع عشر مكانه وهو يفارق الحياة. وأقول لكم ليس في فرنسا، بل في العالم كله، فتاة أجمل من شارلوت - إليزابيت أيسيه، ولا أحسن طباعاً منها.

- يا بابا - أمسكت عائشة بأصابع الكونت الناعمة - لستُ جميلة على ما تتصورني أنت. لا تخرجيني في حضرة المركيزة جولي! - فات موعد تناول الدواء الذي أرسله لك الملك؛ تعال!

- هكذا؟ - مدّ الكونت جذعه لعائشة وكأنه لم يقل شيئاً في غير محله. - تعالي، لماذا إذن نحن هنا؟ لن نجعل ملكنا يعتب علينا. سنتناول دواءه. تعالي، وقال لمن تأخروا قليلاً عنه قصداً: أنتم لا تعرفون؛ أنا أشرب دواء جيداً. هذا دواء لا يرسله الملك إلى أيِّ كان.

التفتت جولي كالاندرين العارفة بأخبار شارل دو فيريول إلى كلودين -
الـكسندرين. وهمست ماري - أنجيليك إلى قريبتها الضيفة:

- هذه حالنا يا جولي!

تذكرت جولي، وما سمعته ورأته جعلها تهر رأسها، ما قاله لها اللورد هنري سان جون بولينغروك الذي لجأ من إنجلترا إلى فرنسا لمدة محددة "شارل دو فيريول الكونت رجل عاقل مهذب، ومن حسن الحظ أن يكون ممثلاً لبلادك ولكنه أفرط في علاقاته النسائية على حساب شخصه. وهذا عاقبته وخيمة" وتمثلت لها النساء اللواتي كن في خلال عرس أوغستين - أنطوان وماري - أنجيليك، يشتهينه سراً.

حين بقيت الأختان وجولي وحدهن أضافت ماري - أنجيليك إلى ما قيل عن الكونت:

- هذا هو يا جولي، ترينه، وضّعنا في شأن الكونت. لا أعرف ما سيحدث مستقبلاً ولكنه الآن هادئ، لا يثير متاعب لنا.

- كانت كلودين أخبرتي بوضع الكونت... - مرة أخرى هزت جولي كالاندرين رأسها من حزنها.

- ولكني لم أعرف أن هذا الرجل الحقيقي وصل إلى هذه الحالة.

- لا بأس اليوم في سلوكه "الجنّتلماي" - ابتسمت كلودين - ألكسندرين.

- أشفق على شارل دو فيريول الرجل الوسيم - تنهدت جولي كالاندرين التي كانت اتخذت وضعية جلوس الحماة - ولكن إشفافي الأكبر على المسكينة أييسيه.

- أييسيه تستحق ما جرى لها.

- ما ذا جرى لها يا كلودين؟ - جفلت جولي من الكلام الذي لم تنتظره.

- كان عليها حين أتاها جماعة فخري ليعيدوها معهم إلى بلاد الشركس ألا تتشبث بآل فيريول، بل تعود معهم - أجابت كلودين على السؤال الذي كانت مستعدة له.

- ما هذا الذي تقولينه يا كلودين؟! ألم أحذرك أن تكوني هكذا؟ - لم تكتم ماري - أنجيليك ما تريد قوله ولو أنها اعترضت على أختها: - لولا أيسيه ماذا كنا سنفعل، هذه الوحيدة هي دواء الكونت. ألا تراه لا ينقض أوامرها!

- هل تسمعين يا جولي، تظل تقول "لولاها" و "لولا أنها في البيت" فتغني لمصلحتها! لا تنسي مشفى "بيرسيرت" للمجانين في باريس!... لمعت عينا كلودين - ألكسندرين بطريقة تعبر عن الظلم.

- كلودين، ماذا تقولين؟ خافي من الله! - صرخت ماري - أنجيليك وكأن مصيبة وقعت لها في موضوع الكونت أعظم مما عندها - إن سمع بون دو فيل وأرجنتال ما تقولين أقاما القيامة عليك. اغفري لنا يا جولي؛ كأننا أرعبنك بأخبارنا من قبل أن تدخل بيتنا!

- ما قلته عن الكونت وعن أيسيه يا كلودين - لم تستطع جولي إلا أن تقول بصوت قاسٍ مع أن نعومتها كانت تغلبها - كان الأفضل ألا أسمع.

- حسناً، أنا من لا تنتهون من سيرته - دخلت عائشة الغرفة مع تمنة كلودين.

- ساميحي يا جولي! - عانقت من جديد المرأة التي أحببتها من اليوم الذي عرفتها فيه، وقالت لها في عناقها: - لم يُتح لي أن استقبل كلودين استقبالاً لائقاً، ولذا سأعانقها ثانية.

- نعم، من البديهي أن تعانقي أختك وتقبلي وجنتيها يا أيسيه - خصت ماري - أنجيليك، وهي مسرورة سبب موافقتها كلام عائشة وسلوكها: - لا

أحد يعرف مثلي حبكم لكلودين. ليس أولادنا فحسب، ومونتسكيو أيضاً. وفولتير وبون دو فيل ومعهما أرجنتال الذي لا يهدأ، لا أعرف لماذا يظنون أنها إن لم تتابع معهم مسرحهم لا يعداها ناجحة، ولن تعجب المشاهدين.

- شكراً لفولتير وجماعته إن كانوا يرونني هكذا - قالت كلودين - ألكسندرين منشحة الصدر وهي تتذكر كيف كانوا يعانقونها عناقاً حاراً ويوجهون إليها كلمات رقيقة - لا يقلقوا عليّ إلى هذا الحد! رواد المسرح لا يأتون مهتمين بما سيسمعون ويشهدون فيه، وبما سيفتح لهم من آفاق التفكير، بل مهتمين بالملابس، وتسريحات الشعر، والأقراط والخواتم وأطواق الذهب والفضة التي هي موضع تنافسهم.

- صحيح يا كلودين. أوافقك الرأي - فرحت عائشة وكأنه ليس في البيت غيرهما - ولكن سأقول لك ما يشغلني في المسرح: يشغلني كيف سيفهم الناس المعتادون على الضحك الأجوف مسرحية أوديب. وإذا حدث هذا فماذا سيكون وضع فولتير وبون دو فيل.

- ألم يكن مفرّج من أن يكتب فولتير متذاكياً ما تسمونه "أوديب"؟ - ساهمت ماري - أنجيليك - وبون دو فيل هل أجبروه على إخراجه؟ أليس ما نشهده كل يوم مأساة؟

- نعم يا ماري نعم - قالت كلودين ساخرة لأختها - شهدت على ما تقول أيسيه بنفسك! برافو يا أيسيه! تتكلمين من داخل قلبي.

- لا حاجة يا كلودين لد "برافو" إذا قلت رأيك. - رفع المديح الموجه لعائشة حرارتها فتوردت وجنتاها، وشهدت على صحة موقف ماري - أنجيليك التي كانت سبباً في هذا المديح: - وفي ما قالتها ماما الكونتيسة شيء من الصواب. ولكن لما كانت الحياة مركبة من الصدق والكذب فمن المفيد أن تُعرض هذه

الحياة على المسرح، مكان اجتماع الناس، بمزيج من السخرية والبؤس. ولن يصبح الإنسان حكيماً بطول الضحك والبكاء.

- ماذا قلت يا أيسيه؟

- ماذا؟ سألت عائشة التي لم تعرف مناسبة السؤال بدورها كلودين.

- أسأل: لماذا قلت "لن يصبح الإنسان حكيماً بطول الضحك والبكاء".
كأن هذا الكلام صدر عن مولير.

- لم تخطئي في مولير - فرحت عائشة. - هذه الجملة قالها أحد أبطال مسرحياته: "دون جوان" أو "طارطوف" أو "زواج بالإكراه" أو غيرها، لا أعرف بالتحديد.

- ربما كانت مسرحية "ميزانتوب"؟ - لم تملك جولي التي كانت تنظر إلى عائشة بعين الرضا إلا أن تسأل.

- لا، يا جولي. لا يمكن لـ "ألتيس" الذي يسوّغ الخيانة والكذب والمديح الزائف والنميمة أن يصدر عنه مثل هذا.

- ربما "المحترم بورسونياك" - ألفت كلودين ارتباطاً هذا الاسم.

- قد تكون هذه يا كلودين. شكّت عائشة.

- يا أيسه أسمعك فأتساءل: من أين تعلمت كل هذا؟ - سألت جولي كالاندرين الآن بصراحة.

- ومن أين ستتعلم يا جولي؟ - لم تُطق ماري - أنجيليك صبراً على امتداح عائشة، محملة نفسها الفضل - تعلمته في بيت آل فيريول. أأربي شارلوت - إليزابيت عبثاً، أقيم معي دون فائدة؟ وقد لا يخلو صالون كلودين الأدبي من فائدة؛ أليس كذلك يا ابنتي؟

- أتسأليني في هذا يا ماما؟ أشكرك أنت وكلودين. ولكن جانيت - نيكول علمتني في الدير الكثير. تعلمت منها في السنوات الأخيرة الكثير عن تاريخ فرنسا والأدب والمسرح، وفي اختصاصها هي. حين تجلس إليها طوال النهار تتطرق إلى كثير من الموضوعات. ليس موليير وحده، بل قرأت كتابات بيير كورنيه وجان راسين و ماري لافاييت وجان لافونتين ولاروشفوكي وديتوشي وأبات بريفو وتعرف الكثير عنها. وإن سألتها تكلمت على أدب الإسبان والإنجليز والفرس والألمان. ومتى بدأت الحديث روت لك وهي تستعرض ما عُرض في الأوبرا الملكية. وتغني لك الألحان التي حفظتها.

- نعم يا أيسيه. شارل دو فيريول إنسان مثقف. لا أعرف شيئاً لا يتقنه. - حاولت كلودين - ألكسندرين إخفاء امتعاضها من مديح الكونت غير أن لونها فضحها.

- نعم يا كلودين، أفكأُ بابا وآراؤه تصل إلى البعيد. - أجابت عائشة، وقد فهمت الموقف، على العبارة المغرصة بالمديح نفسه: - ويقرأ كتاباتك أيضاً يا كلودين.

- ولماذا لا يقرأها! - أسرع ماري - أنجيليك لتضع حداً للمهاترة الخفية. - أتعجب كتاباتي الكونت يا أيسيه؟ - سألت كلودين - ألكسندرين وكأنها واثقة أن ما كتبته عن شارل دو فيريول ومادلين، والذي اشتراه الكونت منها، لا يعرفه أحدٌ غيرها وغير الكونت.

- طبعي أن تعجبه، وأنا تعجبني. - قالت ماري - أنجيليك ثانية لمنع حرب كلامية مرتقبة.

- اسكتي يا ماري! لستُ أسألك أنتِ.

- كلودين يا أختي الجميلة - نصحتها المركيزة جولي محافظة على احترامها لنفسها، ودون إهانة الطرف الآخر - لا تنهري أختك الكبيرة هكذا!

- ساميحي يا جولي، وأنت يا ماري! أصلحت كلودين موقفها، سواء حقيقة أم رياءً أمام قريبتها الهادئة.

- وأنا لا أَلومك. يا كلودين إن كنت قلت لك ما لا يعجبك فاغفري لي.

- اعتذرت عائشة بدورها وعيناها على جولي كالاندرين، وكلامها يرقق قلبها.

- الأفضل أن تكون علاقاتنا هكذا، لا أحد يعرف ماسيحدث له غداً .

- طبعاً يا جولي، طبعاً - هُرعت ماري - أنجيليك إلى المنديل الملازم لها على عادتھا. ووافقت ضيفتها التي ساندتها: - من كان يتوقع أن يحدث لشارل دو فيريول الطيب ما حدث له؟... حتى الآن لا أستطيع الاقتناع بما جرى.

لما كانت جولي كالاندرين المُسنّة القادمة من طريق طويل متعب، وزادها ما سمعته تعباً على تعب فقد رجّتهم أن يُعفوها من العشاء ويرشدوها إلى غرفتها.

"نحن النساء، وإن لم نكن نعي حالنا، غريبات الأطوار، فأحياناً نتجاوز الرجال في غمرة زهونا بأنفسنا. - عاتبت جولي نفسها - ما إن بدأنا الحديث حتى شرعنا نمتدح أولادنا مغتابين الرجال الذين ولدناهم لهم. صحيح أن الرجال كلهم ليسوا متشابهين؛ ولكن أليسوا في النهاية رجالاً؟! لا، لا يمكن اتّهام "جان - لوي" رجلي، بسوء. إنه طيب معي ومع أولادي. ومع ذلك أحرّضه أحياناً دون أن أدري السبب. وحين أتصرف معه بهذا الأسلوب يقول لي "تأكليني وأنت ترقيني" أنا، يا حسرتي، أعزّك يا جان - لوي، لا آكلك. وموقف أولادك منك هو موقفي. ولكن هل يستطيعون رعايتك كما أرياك؟ أيسيه إن كانت محظوظة وانتسبت إلى أسرة جيدة فستصبح امرأة ممتازة ممن يحترمون الرجال. انظري إلى معاملتها لشارل دو فيريول الكونت ولو أنّها ليست من

صلبه. مهلاً، مهلاً؛ أتراها، كما لَمَحْتُ لي كلودين مرة، تستعطف الرجل الذي حياتها في يده؟ لا ضير في هذا. من الواجب أن تُحسن إلى من أحسن إليك. لا أرى عجباً في أن تلين مع الناس الذي تعيش معهم ناسياً أصلك. وأيسيه؛ أنسيت قومها أم أنسوها؟..."

أظلمت غرفة جولي بأسرع مما أظلم نهار الخريف القصير. والشمس أكثر شحوباً من جهة النافذة المطلة على الغرب منها من جهة النافذة الشرقية المطلة على الدار. وأفكار جولي كالاندرين مثل النافذتين المتقابلتين المنيرتين - المظلمتين. تُسمَعُ من بيت فيريول أصوات ربما من تجهيزهم العشاء. وخيل إليها أنها سمعت أصوات عربات قادمة ومغادرة من البوابة الكبيرة. وسمعت أصوات نواقيس الكنيسة التابعة للدير الخاص بالنساء الكاتوليكيات والواقع على شارع آن غير البعيد عن شارع سان - نيف أوغستين. أشعلت جولي الشمعتين المجاورتين للأيقونة، ودعت إلى الله بالخير لأسرتها في جنيف، ولمن هي في ضيافتهم هنا، وأن تعيش الأسرتان في وئام بين أفراد كلٍّ منهما، وينعم بالصحة عليهما، وأن يعيش كل أقربائها في سلام ومحبة. وأن ينجح مسرح فولتير وبون دو فيل فتُعجِبَ المشاهدين، وأن يرأف بشارل دو فيريول في مرضه، وأن تسعد أيسيه في حياتها.

وبعدما فرغت من الصلاة إلى الله، وفيما هي جالسة تلتقط أنفاسها، بلبلت الأفكار قلبها فجأة: "حين دعوت يا إلهي لأيسيه بالسعادة لم يكن في قلبي أي عتاب على ماري - أنجيليك، ولا على كلودين - ألكسندرين. هاتان تعيشان مرتاحتين حرتين في ما تقولان وتفعلان وتدينان وتشعران حيث خلقتُهما. أما أيسيه فامرأة وحيدة تعيش في بلاد غريبة بلا سند غيرك ولا أهل. وليست مقصورة في حق "فرنسياتها" ولا تنقصها الغيرة عليها. أدعو لأيسيه بالخير لأنك

تربينا ياربّ على مساعدة من لا معين له. ثم أنبيك بأمر آخر يُريني: في زيارتي السابقة إلى باريس، وفي هذه الزيارة، لم تعجبني معاملة أختي لأيسيه. ماري - أنجيليك مرائية مُستساغة، وكلودين - ألكسندرين تأكلها الغيرة لا تريد أن يبقى في الدنيا من هي أجمل منها ولا أعقل. ليست شارلوت - إليزابيت أيسيه امرأة كاملة، ولكني أرى فيها امرأة قوية تحترم نفسها. أرجوك يا ربّ أن تجعلها سعيدة، ولا تقع في الخطيئة، تحمي شرفها وعرضها، وتنسجم معنا"

دخلت صوفي الغرفة مع الطعام:

- ألم أبلغهم أني لن أتناول العشاء يا صوفي؟

- لم يبلغوني بشيء أيتها المكيّزة. انتظرنك حين تأخرت عن غرفة الطعام، فكلفتني شارلوت - إليزابيت أيسيه أن أحمل لك هذا العشاء إلى غرفتك لأنك متعبة، إن كان سيعجبك الحليب والحبز المحلّى. وعلى كل حال إذا قررت النزول إلى غرفة الطعام فنحن جاهزون. والكونت فرغ من عشاءه، وحين سأل عنك أخبرناه أنك تستريحين فعاد إلى غرفته طالباً منا ألا نزعجك.

- شكراً للكونت على أنه لم ينسني. أين الكونتيسة ماري - أنجيليك، والكونتيسة كلودين - ألكسندرين؟

- هاتان خرجتا كلّ في عربة مستقلة من البوابة الكبيرة.

- هكذا؟ - سألت جولي مخفّية تعجّبها مما سمعت. وأراحت صوفي من جهة الطعام الذي جلبته. - لو نزلت إلى غرفة الطعام لكان هذا عشاءي. وأين أيسيه؟

- شارلوت - إليزابيت أيسيه بعدما أطعمت الكونت تمشّت في أرض الدار قليلاً، ثم رجعت إلى غرفتها تقرأ في كتاب. كانت متشوقة لزيارتك ولكنها لم تتشجع خوفاً من أن تكوني في استراحة.

- أفكر كيف سأقضي ليلة الخريف الطويلة. وأيسيه ترعاني حتى لا أقلق. بلّغها أن تأتي إليّ؛ أنتظرها.

حين تتحدث مع شخص وقلباكما متمازجان وروحاكما، يمضي الوقت دون أن تدري كيف. الاتفاق في الآراء يوصل إلى موضوعات كثيرة. ويجد لك مخرجاً من أفسى المآسي. ويقاسمك سعادتك وشقاءك. وإن عثرت أقالك من عثرتك. وإن عملت ما لا يليق لامك، وإن أخطأت ذلك على الصواب. بروح القربة هذه سهرت جولي كالاندرين وشارلوت - إليزابيت أيسيه إلى منتصف الليل.

- لم تدخل حياتي كل هذه السنوات التي عشتها في باريس امرأة أفضي إليها بما في قلبي، باستثناء جانيت - نيكول التي أعتبرها أختي. وإن قبلت مني اعتبرْتُك من هذه اللحظة أُمي. وإن كنت بعيدة عني في جنيف فستكونين الناصحة لي عبر رسائلتي. ولأني لم أقابل إنساناً فهمني مثلك، لا أريد إزاحة ماري - أنجيليك، أرجوك أن تصبحي سندي وراعتي. ولن أخرجك طوال عمري. - عانقت عائشة جولي عناق بنت لأُمها. وقبّلت وجنتيها ثلاث مرات كما يفعل المسيحيون.

وبدلاً من أن تجيب جولي كالاندرين رسمت شارلوت - إليزابيت أيسيه إشارة الصليب ثلاث مرات أمام وجهها. ولم تكتف بهذا بل رسمتها من جديد وهي منصرفة حين همّت بالخروج.

IX

لم تُغمض عائشة جفניה طوال الليل. كان أمامها اليوم أكثر من قضية تشغلها. وما منعها النوم هو كيف سيستقبل الجمهور المسرحية، وكيف سيمنعون شارل دو فيريول من حضورها. وأضيفَ إليهما أنه منذ أن جرى الحديث بينها وبين جولي كالاندرين واتفقتا أن تناديهما بـ "أمي" كان جواب المرأة قصيراً بعدما رسمت إشارة الصليب دون كلام.

حين تكون وحيداً، وحين يضيع منك مثلُ الكونت في بلاد غريبة، فتفقد الأمل فيه، تصبح كما يقال "الغريق يتعلق بقشة"، وتضطر أن تقاتل من أجل نفسك، وتتوسل. في ما يتعلق بجولي كالاندرين جرى كل شيء كما تشتهي عائشة "كنت أريد أن أكون لها وتكون لي كما حدث. لا عتب لي على ماري - أنجيليك، قدمت لي الكثير، ولكن طبيعة جولي وسحنتها، وعتابها المملوء بالنصيحة تذكّرني بجديتي. لتكن في جنيف؛ لا مشكلة! فجنيف هذه ليست كبلاد الشراكسة البعيدة التي نسيته. أكثر سكان جنيف يتكلمون الفرنسية. وهي تأتي لزيارة ابنتها ريني في باريس. وحين يلح عليّ الشوق سأكتب لها وأستشيرها. خوفي من ماري - أنجيليك أن تغار منا فتحمل علينا. وهذه لها حلٌّ. والمسرحية ستعرض اليوم. والناس ليسوا كلهم متشابهين، ستُعجب بعضهم، ولا تُعجب غيرهم. ولكن أصعب مشكلة اليوم هي موضوع بابا. منذ أيام يجهز نفسه لزيارة المسرح. ولما ذهبت إلى الدكتور جان - باتيست أخبرته بِنِيَّتِهِ، فأجابني: "إذا كان الكونت يريد في نفسه أن يخاطب الناس، فانتظروا حتى تمضي بضعة أيام على تقاطع الشهرين، وعندما تُحسّن أنه هداً فاذهبوا به إن كنتم مطمئنين على أنه لن يسبب لكم إحراجاً. وإن أحسستم بأمر غير طبيعي فلأنك الوحيدة التي يثق بها فاعلمي على إخراجه من المسرح..." "إذن عليّ أن

أجد ذريعة ما للامتناع عن الذهاب لأنه قد لا يذهب بدويني. جماعة فولتير يعرفون وضعي فلن يعتبروا عليّ. وأنتظر فرصة أخرى لارتداد المسرح" بعد إفطار الشوكولا، انتظرت عائشة قليلاً ومضت إلى الكونت لتفقّده. كان شارل دو فيريول جالساً يرتدي الصادر الأخضر الأحبّ إليه والأجمل. يجلس والشوكولا التي جاؤوه بها فطوراً برد.

- برّدت الشوكولا يا بابا، ماذا تقرأ؟

- هذا؟ - رد شارل دو فيريول على السؤال بسؤال وهو يقلب في الهواء الأوراق المخيطة إلى بعضها. وبسرعة أجاب: - هذه مسرحية فولتير التي تعرفينها، تتناول قضية "أوديب" والتي سنحضرها الليلة، مكتوبة يا شارلوت - إليزابيت أيسيه بطريقة رائعة. - نخض وتمشى في أرض الغرفة وأضاف: - لم أعرف أن لفولتير مثل هذه النظرة إلى الملوك. ستعجب المشاهدين. وأنت ألم تقرئها؟ تذكرت كنت قلت إنك قرأتها، وتكلمنا عليها. لماذا لن يعجب أورليان الوصي؟ لو كان الملك لودفيغ الرابع عشر حياً لأعجبته. لو لم يكن الخامس عشر صيباً لأعجبته أيضاً. فرنسوا فولتير، ونحن نعرفه، يمكنه أن يكتب، أظنه سيكون مفكراً ومثقفاً. - الكونت الآن غير الكونت المشوش الذي يهذي: هادئ وسحنته مريحة. - قبل أيام كان رأيي فيه كاليوم. والآن أكرره.

- نعم يا بابا - وافقت عائشة الكونت والفرح لا يسعها، وسألته مازحة عما كان يشغله وكان السبب في قدموها إليه - أنت وأنا يا بابا إذا كنا قرأنا المسرحية فلماذا نخضرها؟

- إن كان رأيك هكذا يا آنسة أيسيه - ضحك شارل دو فيريول، واستأنف تمشيه على أرض الغرفة مُصالباً يديه وراء ظهره - فسأقول رأيي في هذا. أتعرفين المسرحية التي قرأناها أنت وأنا؟ إنها مثل الشوكولا التي سألت عنها والتي

أمامي. أراها وأعرف أنها وجبة فطوري، ولكني لا أعرف حلاوتها. - أشار الكونت بيده حين وصل إلى النافذة المطلّة على أرض الدار - أترين منظر شجرة البطم المطلّة على الخريف بأغصانها العارية؟ المسرحية على الورق تشبهها. لا تُقرأ المسرحية كما تُقرأ الرواية. إنها تعرض في المسرح. والممثلون ينفخون الروح في كل كلمة من كلماتها، ويعطونها شكلها. ما يقرؤه المشاهدون هو ما يروونه على الخشبة ويصفقون له. وأنت يا أيسيه لا تريد أن تريها لأنك قرأتها... ماذا جرى لك يا أيسيه؟ لماذا تنظرين إليّ باسمّة مرتاحة القسمات كأنك لا تفهمين سبب عتابي لك؟

- لأني يا بابا لا أتذكر من يوم ما رجعت من تركيا أننا تحدّثنا بهذه الطريقة... - قفزت عائشة لا تطيق صبراً وعانقت الكونت. - لا أبكي، أعُدّ نفسي محظوظة. كنت واثقة أنك ستشفى وتعود إلى حالك يوماً ما. أنت أرحم الناس وأعقلهم وأجملهم. أريدك يا بابا أن تكون اليوم وغداً وبعد غد، والعمر الذي كتبه الله لك، كما كنت أعرفك. - رجعت عائشة إلى مجلسها بعدما مسحت عليه يدها.

- شكراً لك أنتِ دوائي وحياتي يا ابنتي.
- إن كان هذا رأيك أنت أيضاً فالآن أفهم لماذا تقول لي الكونتيسة ماري - أنجيليك "أنتِ دواء الكونت وحياته"

- ماري - أنجيليك ستقول الكثير. - ابتسم الكونت وعاد إلى مجلسه. أبعاد الشوكولا الباردة من أمامه وعاد إلى مجلسه - لا تصدّقي كل ما تقوله الكونتيسة! ماذا يقول الأتراك "ما تعرفه تماماً خيرٌ مما تظنه" أنا أعرف ما تريد وما تتمنى. الفرنسيون الذين صرّتهم يقولون "المريض يموت أو يُشفى" بعد ما أزعجتُ الكلمة الأولى منها، أنت دوائي الذي يشفيني يا شارلوت - إليزابيت

أيسيه. ولذا أريد أن أريك حظك السعيد. وهذا ما سيمنحني الحياة. لا تقلقي بشأن زيارة المسرح اليوم. لن تروا مني بادرة شك. وعلى كل حال، من يدري، إن حدث شيء من هذا أشيري بيدك أو بعينيك. أعيدني إلى وعيي.

- نقول هذا ولكن؟...

- ألم أقل لك لا تفكري في هذا يا أيسيه! - لام الكونت عائشة التي أمتقع لوها. وما كان في قلبه نحوها منذ سنين كاشفها بها الآن بصوت مختلف. إن كنت تريدان الحقيقة فما كنت أريده شيء آخر. كنت أريد أن نذهب إلى المسرح، ونحن عائدان من تركيا خلال سفارتي لفرنسا، ومن يرانا يتعجب منا، ونجعلهم يتهمسون حولنا. ويقولون فينا ما يظنون وما لا يظنون.

- يا بابا إذا ترك السفير منصبه - سألت عائشة التي لم تلتقط بعد مغازي كلام الكونت - هل يُقيلونه من عمله؟

- لا قانون من هذا النوع، ومع ذلك فقد قلت لك ما كنت أتمنى، ولكن هذا لا يعني ألا نكون سعداء. - أضاف الكونت إلى ماقاله دون أن يترك فرصة لعائشة كي تفكر في كلامه: - ولكن هل تعرفين ما سأقوله لك أيتها الكونتيسة شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ سنطلب من عريتنا أن تأخذنا نحن الاثنين فقط إلى المسرح. ما الذي تستغربينه؟ ألائي قلت: سنكون وحدنا في العربة؟!

- لا يا بابا، حدث أن ركبنا أنت وأنا العربة وحدنا. بل لأنك ناديتني لأول مرة بـ "الكونتيسة".

- ولماذا؟

- لا أعرف، للأسف، إن كانت ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين سترتاحان لهذا. ثم إنك ناديتني للمرة الأولى باللقب الذي ليس لي ولا أستحقه.

- يا شارلوت - إليزابيت أيسيه - قاطع الكونت بصوت ناعم كلام عائشة:
- ماذا تقولين؟! انظري إلى المرأة؛ هناك ما لا تستحقينه؟ ليس كلامي دون جذور. وسأقول لك لماذا سنركب وحدنا في العربة. ولكنك لن تفهمي يا كونتيسة. نعم، نعم، وما زلت أناديك بالكونتيسة. كل من سيأتون إلى المسرح سينظرون إليك فحسب.

- سنجلس، كل الأسرة يا بابا على مقعد واحد، في صف واحد. ستكون جلسة أسرية.

- لم نفكر في هذا... - هزّ الكونت رأسه. - كان لي في وقتٍ ما شرفة خاصة بي في المسرح الكوميدي، والمسرح الإيطالي، ومسرح الأوبرا. ليس هذا مشكلة، المال يحقق كل ما يريد المرء. ما عندنا - نحن الاثنين - يكفينا العمر كله. سأجعلهم يشرعون الآن في تأمين الشرفة.

فجأة دخلت الريبة التي لم تخطر لعائشة يوماً إلى قلب عائشة. لماذا يظل بابا يكرر "نحن الاثنين، نحن الاثنين؟" وأي "ملك" وأي "شرفة مسرح" يتكلم عليهما؟ لم أر ما يعيب في مخاطبته لي لأول مرة بـ "الكونتيسة"، ولا بـ "ابنتي". أنا أقول إن بابا شفي وفرحةً بحاله غير أنني لا أفهم تورياته وتلميحاته التي يقولها ثم يتراجع عنها. لا أريد أن أفكر في مثل هذه المعرّات. إذن أليس ماقالته لي ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين صحيحاً؟ بابا لن يفعل مثل هذا. إن تصرف معي هكذا... من سأستشير ومن سيساعدني؟ "أيّ كلام عجيب أقول؟!"

- لماذا توقفت عن أي كلام يا شارلوت - إليزابيث أيسيه، هل قلتُ ما لا يُقال؟ - سأل الكونت شارل دو فيريول عائشة وهو راض عن نفسه بقلبه وبسحته، ثم نصحتها: - لا تفكري في أمور غير مهمة في اليوم الذي نحتفل فيه بأول عمل يقوم به بون دو فيل، لا تيأسي ما دمتُ لك!

- لا يا بابا، لم أفكر بشيء من هذا. - أجابت عائشة الكونت مُحفية البرودة التي سرت في قلبها. - فرحةُ أَسْرَتنا فرحةُ الجميع. - "أقول للكونت ما رجيتي من أجله الكونتيسة؟" سألت عائشة في قلبها. هذا البائس هو من في أفواه الجميع. وأنا منهم. مع أن بابا دفع كلفة الندوة التي تعقب المسرحية فقد قالت لي ماري- أنجيليك إن المبلغ لا يكفي فاطلبي منه ثلاثمئة ليرة أخرى. وكلودين تعزف على نغم أختها وهي تهز رأسها. إن لم يكن عندكما غيرُ هذا الخجل فلن أقول له، لن أطلب ليرة واحدة. يستقلّون ما عندهم ويستكثرون ما عند هذا المريض... يرون الحصول منه على ليرة واحدة كسباً.

- أنظر إليك يا شارلوت - إليزابيث أيسيه فأراك مهمومة، هناك أمر يقلقلك لا تستطيعين الإفصاح عنه. - سألها الكونت وكأنه عرف ما في قلبها وما لا تستطيع تحليله. - إن لم يكن عندك من الحلّي ما تتميزين به من رواد المسرح فقولني دون حياء، يمكن أن أشتري لك إن أردت. لا يزال أمامنا يوم كامل.

- أنسيت يا بابا كم اشتريت لي من الذهب وأنا أحتج على كثرتها؟ - نظرت عائشة برضا إلى الكونت، ولم تستطع إلا أن تقول له إن هذا الأمر مما يشغلها: - إن لبست تلك الحلّي فإن ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين ستمحواني من الوجود كله.

- ستلبسينها! - جزم الكونت، ثم أضاف بلهجة أنعم: - لن أكون راضياً عنك إن لم تفعلي. لَترَ باريسُ كُلّها، لا اللتان ذكرتِ أهما ستغاران منك، أني

رَبَّيت فتاة شركسية جميلة، ولكن إن رأيتكِ تبشّين في وجه كلّ من يشّ لك فلن يسرّني؛ أخبركِ.

- يا بابا! - ظهر على وجه عائشة أن الكلام المكشوف وغير المقبول الذي تسمعه يُخجلها.

- حسناً، حسناً يا أيسيه، كأنك لا تعرفين المزاح... - سحب الكونت أفكاره ثم اختتم بكلام غير مفهوم يتقصده: - أنا الذي لا يعرفكن أيتها النساء؟!... أنتِ تابعي أعمالك يا أيسيه، وجهزي نفسك للمسرح، وأنا سأفكر في ما سأقوله في الندوة كما كنت أفعل زمن سفارتي. غير أن لي عندك رجاء: لا تخبري أهل البيت أنني سأذهب إلى المسرح وأني سأتكلم في الندوة. لا يعلمون دو فيل ولا فولتير بالموضوع. ليكنّ الموضوع لهما ولغيرهما مفاجأة!

لم تصدق توقعات عائشة بشأن الذهاب إلى المسرح. كان لديها مشاريع وأعمال تستحق التفكير اليوم وغداً وبعد غد. وما لا تفهمه ولا تعرف سببه أمران: "من الممكن كنتم الذهاب إلى المسرح، كما يقول الكونت، وبعبارة مستقلة، وتشاهد المسرحية، وتتكلم في الندوة، ولا تتبادل النظرات مع المعجبين. ولكن ما لم تكن تفهمه هو كيف سُفي الكونت؟ أليوم واحد أم...؟ ما الذي شفاه؟ وذاك الذي يظل يردده "عندنا نحن الاثنين ما يكفينا إلى الأبد" فيُفرح به عائشة ويميّها؟ و "شرفة مسرح للاثنين"؟ ومناداته لها فجأة بـ "الكونتييسة"، ومرة بـ "ابنتي" وأخرى "شارلوت - إليزابيت أيسيه" و "حين يرونا نحن الاثنين يتعجبون ويوشوشون"؛ أي أفكار هذه؟ - حُبل لعائشة أن أحداً ناداها بصوت مكتوم، فخرجت من أفكارها، وسألت نفسها: - "لماذا يريد بابا أن أبقى معه إلى الأبد سيئة الحظ؟ أهذا ما يريد أم..."

- يا صوفي اقتربت الظهيرة - تغيّر موضوع كلامها وهي تحترق بأسئلتها - لا تظهر الكونتيسة!

- خرجتا لتسريح شعرهما.

- وهل المكيّزة جولي معهما؟

- لا، هي في الغرفة من ساعة ما حملتُ لها شراب الشوكولا الصباحي. سألتُ عنك فأخبرتني أنك عند الكونت.

- أفعل ما لا يجوز بحق جولي - نهضت عائشة بسرعة وخرجت من الغرفة.

عانقت عائشة جولي التي اتخذتها أمّاً وقد تناسّت الأفكار المزعجة التي برزت مع يوم الاحتفال. وسألتها كيف قضت ليلتها، وماذا تطلب. ولامت نفسها على عدم زيارتها في غرفتها إلى الآن.

- أنا ضيفة يا عائشة، وأنتم أصحاب البيت - ابتسمت جولي كالاندرين منسجمة مع ما تقوله - تأمروني بالجلوس فأجلس، بالقيام فأقوم.

- جولي يا روبي - لمعت عينا عائشة فرحاً - ما قلته بشأن الضيف يتداولونه أيضاً في بلادنا، بلاد الشركس. ولكنك نسيّت واحدة: متى مرت ثلاثة أيام على الضيافة صار الضيف من أهل البيت.

- لم أعرف هذا. وهي فكرة جيدة. ولكنني لن أستطيع أن أفعله هذه المرة. سيتعلّق الأمر في زيارتي القادمة بتصرف جان - لوي معي، وهو الذي يحرص عليّ، وبما سيقوله لكم. - ختمت جولي الحديث في موضوع الضيافة بالمزاح، ثم عابت الفتاة الشابة على ما لاحظت عليها: - لماذا يا أيسيه لا تهتمين بشعرك وأنت ذاهبة إلى المسرح؟ كان عليك الذهاب مع الكونتيسيتين إلى الحلاقة.

- أنا لا أحب مثل هذا الشعر المصفف والمصطنع. وليس محل حلاقتي بعيداً.

- في بيتنا، صوفي، يداها هما الخبيرتان به. وشعرك أيضاً لا يعجبني يا جولي.

دعي صوفي تتصرف به، ولن يتعرفك جان - لوي، زوجك!

- إذا كان جان- لوي سينكرني فما فائدة الشعر المتناثر المنفوش؟ - بادلت

المركيزة المزاح مع عائشة. وفتحت علبي الشعر المستعار اللتين جلبتهما

وعرضتهما عليهما. صادف وجودك ففتحهما. الاثنان جديدتان يا أيسيه. أقدم

لك ما تختارينها.

والآن نظرت عائشة مرة أخرى إلى المرأة الفرنسية السمراء الصبوح الجالسة

أمامها وقد صارت أقرب إليها روحاً وقلباً. وابتسمت لها وهي لا تعرف كيف

تفسر الطريقة التي نطقت بها التعبير الأدبي "صادف وجودك". غير أنها من

أجل ألا تبالغ في أن هذا التعبير دارج عند الأديغة تجاوزته، فأخبرتها كيف تكلم

معها شارل دو فيريول بمهارة وتركيز عقلي، خائفة أن تصيبه بالعين. ومع أنه ألح

عليها ألا تخبر أحداً برغبته في الذهاب وحيداً إلى المسرح فقد أضافت عائشة

الفكرة بصوت أميل إلى الهمس.

ومع أن جولي كانت تبدو غير مستعجلة على الإجابة عن السؤالين المفاجئين

الذين أُطِيعت عليهما فإن ما يغلي في قلبها تفضحه طريقة جلوسها

وتفكيرها. وعائشة تتسلح بالصبر رغم نفاذه:

- لست طبيبة يا أيسيه كي أتكلم على موضوع صحة شارل دو فيريول

الكونت وأحلّل لماذا يحدث له هذا - بدأت جولي كالاندرين الحديث وهي

تمطّ الكلمات -. ولكنها ليست المرة الأولى التي أسمع فيها حدوث هذه الأمور

في الحياة. لندع إلى الله أن يشفق عليه ويعيد إليه عقله، ولا يعود إليه المرض

طوال حياته. وأنا أهنتك وأهنئ آل فيريول. وإن أردت الصدق لم أر في

الكونت الخطورة التي صوّرتُها لي كلودين - ألكسندرين وماري - أنجيليك في رسائلهما. لا ضير في أن يمتدح نفسه هذا الرجل الذي جهد في تأسيس العلاقات بين الدولتين. يجب تناسي هذه الظاهرة والتسامح معها. ولا يجوز معارضته والسخرية منه وإسماعه ما لا يحتمله. لتكونوا في حماية الله، وليحرص كلٌّ على غيره!

- لم تخبرك ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين ما ليس صحيحاً يا جولي - دافعت عائشة عن الأختين - كانت حالة بابا صعبة في الربيع والصيف الماضيين، بل في السنة كلها. ربما نفعه الدواء الذي وصفه له الطبيب الذي أرسله إليه أورليان الوصي مشكوراً. أصلي إلى الله أن يبقى بابا على حاله دائماً.

- نعم يا أيسيه، نعم لا تنسَي الله، لا حدود لمعروفه. وأما بشأن رغبته في كتمان موضوع ذهابه إلى المسرح فهناك ما عندي: لا تعانديه إن طلب هذا، تعالاً معاً. وفي ما يخصني سأجاهل كل شيء.

X

المسرح الكوميدي الملكي يلتفع بالأضواء. والعربات المزينة بالذهب والفضة تأتي إليه، وترحل. ومنذ زمن بعيد رحلت عربة ماري - أنجيليك وجولي كالاندرين. ومع أن كلودين - ألكسندرين جاءت وحدها فإنها لم تتأخر عنهما.

والرائحة العطرة التي تفوح من الرجال والنساء الأنيقين تملأ الفضاء. والذين يتمشّون في الردهة وقت الاستراحة يجتلس بعضهم النظر إلى بعض باحثين عن الأجل والأناق. ويتبادلون التحيات والمجاملات. وبين النساء من يستعملن، رغم احتراسنهن، مطّ الشفاه بديلاً عن الكلام. وتسمع في كل مكان تعابير من نوع "ميرسي" و"مدام" و "مدموازيل" و "ماركيزة" و "دوق" و "دوقة"... والمشاهدون يبحثون عن مقاعدهم، ويتخذون أماكنهم. وشيئاً فشيئاً تمتلئ الشرفات. وفي الردهة، مع أن الجوّ محتمل إلى الآن، النساء فخورات بالمراوح الملونة يلفظن بها الجوّ. ويمتّعن العيون بالمناظر الموشاة بالذهب والفضة. وشرفة أورليان وصيّ ولي العهد فارغة. وكثيرون مهمومون بحضوره أو غيابه.

- ألسنا مثل هؤلاء الذين يحتلون الشرفات يا كلودين؟ - همست ماري - أنجيليك في أذن أختها - لا ينفذ لي أوغست اللعين هذه الرغبة بحجة الغلاء. مهلاً، أين هي أيسيه التي قالت إنها ستأتي مع جماعة بيير؟ هاهي جانيت - نيكول برأسها المتطاول إلى جانب بيير. لا أرى أيسيه معهما... يا ربي لا أعرف أحصل مكروه لأيسيه! الكونت الشيطان...

- اطمئني! - قطعت جولي قلق الكونتيسة مخفية ما تعرف عن عائشة - ربما ذهب للقاء بون دو فيل.

- هذا ممكن يا جولي. أليس ما ستره من عمل فولتير وبون دو فيل؟ لماذا لم تنضمي إليهما يا كلودين؟ أنتِ أول من قرأت النص وقيّمته.

عم الهدوء فجأة الردهة، واتجهت عيون الجالسین فی الشرفات نحو شارل دو فيريول الكونت وشارلوت - إلیزابیت أیسیه.

- انظروا إلى هذین؛ یألمصیتي!... - لم تملك ماری - أنجیلیک مع ما رأته إلا أن تصرخ.

- یا ماری! - دفعت کلودین أختها بمرفقها.

- ألیس هذا هو الكونت الذی یقال إنه فقد الذاكرة؟ - همست امرأة لزوجها فی الصف الخلفی.

- انظر ما أجمل الفتاة التی یصاحبها زیر النساء!

- أكان یأتي بفتاة شركسیة من ترکیا البعیده لو لم تكن جمیلة!

- أهذه ابنة الكونت؟

- یقال إنه اتخذها زوجة ولو كانت ابنته... - تهاست المراتان فی الجانب

الأخر - لماذا تستغرین؟ أنحن من نجهل الكونت؟! انظري کیف ينظر إلیها

العقید بلیز - ماری دو إدی شوفالییه. قد لا یعرف أن من یلتهمها بعینیه

كانت عشیقة أورلیان.

مرة أخرى هدأت الردهة. وجلس أورلیان الوصی فی الشرفة المواجهة لعائشة.

وفی اللحظة نفسها بدأت الستارة ترتفع عن المشهد مع المرثیة المتجانسة معه.

فی خلفیة المشهد تُشاهدُ جبال بیضاء متفرقة وغابات متصلة. والمواشي ترعى

فی سفوحها. والراعی الواقف على طرف الصخرة العالیة یحمل الطفل الذی

وجده فی الریف. ومن بعید تظهر القرية التی یسكنها "لايوس" المملك

و"جوكاستا" المملكة. تحفُّثُ المرثیة، ویصفقُ المعجبون بما یرون. ویتمیز صوت

شارل دو فيريول من بین من یصیحون "برافو!". وأورلیان یصفق دون أن یزیح

عینیه عن شارلوت - إلیزابیت أیسیه كأنها هی من كتبت الصورة الجمیلة.

الصوت الصادر من وراء المشهد الفارغ يروي ناشراً القلق في الصالة: "هذا الصبي الذي يحمل الراعي اسمه "أوديب" وهو ابن ملك طَبَّية لا يوس والملكة جوكاستا. وجده في غابة جبل سيترون. وحين قال "أبولون" العراف: سيولد للملك لا يوس ولدٌ، أمر بإلقاء المولود في الغابة. وهو الآن حيٌّ رباه الراعي حتى بلغ العشرين. لكن لما لم تكن الحياة كلها خيراً، فحين سمع أنه ليس ابناً حقيقياً لمن ربياه، توجه إلى العراف أبولون لمعرفة الحقيقة. وفي الطريق التقى في مفرق طريق "دلفي" برجل غني. ولما تشاجرا ضربه الرجل الغني فقتله أوديب وحراسه. وكان الرجل الغني الذي قتله، وإن لم يعرفه أوديب، هو أباه الملك لا يوس. ولما وصل إليه حُكْمُ مدينة "طبية" لم يستطع النجاة من حكم القدر. كان التنين يمنع الناس من دخول المدينة والخروج منها، وأهل المدينة يموتون من الجوع والمرض..."

تبدو صورة مدينة طبية ببيوتها الكثيرة من تحت أقدام جبل سيترون. ورجال المدينة ونساءها على الأقدام، وأوديب يواجه التنين ذا الأذرع الهائلة.

- تنحّ جانباً ودعني أدخل المدينة!

- من أنت فتكلّمني بمثل هذا الكلام الفظ؟ - سخر التنين من أوديب. وحين يرميه التنين برمح يقطعه أوديب بالسيف، ولكنه ينبت من جديد...

يقف الرجال وقد أعادهم العراك الناشب على باب المدينة ليحاربوا إلى جانب من لا يعرفون هويته. وحين تفيض روح التنين المجروح جرحاً قاتلاً يقول لقاتله:

- لم أعرف أنك مقاتل شجاع هكذا. لو عرفت...

يرفع سكان المدينة أوديب على الأكتاف ويقولون له:

- أنت من أبعد الموت عنا!

- أوديب ملكنا. سنزوجه أجمل بناتنا!

- ليس في طيبة امرأة أجمل من جوكاستا الأرملة الشابة.

- أوديب وجوكاستا! أوديب وجوكاستا! يتصايح سكان المدينة.

بين الفصل الأول والفصل الثاني، وفيما يتغير المشهد والصورة وراء المسرح يعود صوت الراوي: "هكذا صار أوديب الشاب العازب ملكاً على طيبة. ويزوجونه من جوكاستا الأرملة الشابة. لا يعرف حقيقة الزوجين الجديدين غير أبولون العراف وأنتم. (في هذه اللحظة تئن الصالة على نحو مريع يبعث الرعب) وأوديب الملك (بارون ميشيل يقوم بدوره) وجوكاستا الملكة (لوكوفير أدرين تقوم بدورها)¹ يعيشان سعيدين. - يظهر على خشبة بعض الأشخاص مثنى وثلاث يتحدثون في ما يجري في عاصمة المملكة. يمدحون بعضهم ويذمون غيرهم. ولكن مهما قالوا فلا أحد يتكلم بسوء على الملك والمملكة. يروون قصة حبهما المتين الجميل لكل إنسان. يختفي الناس من على الخشبة، وفيما يتحدث سكان المدينة يستأنف الراوي حكايته: دخل إلى مدينة طيبة من يفتن بين الناس كما أن الحجرين يشعلان النار إذا اصطكا. حين تعرف جوكاستا أم بولينيك وأيتيوكل وأنتيغون وإيسمين أنها أم أوديب تنتحر شنقاً. ويفقأ أوديب عينيه... أيها الناس انتبهوا. لا تفعلوا الشر. من يفعل الخير يجده..."

انزاحت صور المشهد الثاني رويداً رويداً. ورجعت صورة جبال الفصل الأول. وأوديب الملك الأعمى بكيسه المعلق على كتفه تقوده ابنته أنتيغون على خشبة المسرح. وترتفع الأغنية - المرثية، والذين شاهدوا مأساة أوديب الملك وجوكاستا الملكة يصفقون من أعماقهم للممثلين على الخشبة، ولفرنسوا فولتير وبون دو فيل دو فيريول. وترن أرجاء الصالة بـ "برافو". وعائشة مسرورة، وماري -

¹ الأقواس من المؤلف. المترجم.

أنجيليك تمسح دموعها. وكلودين - ألكسندرين تصفق ظاهراً غير أن عينيها تنتقلان بين أورليان الوصي على العرش وشارل دو فيريول الكونت.

- لماذا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ظلت عينا أورليان عليك وهو يصفق؟ -
سأل الكونت عائشة بصوت مبهم - وأنتِ خيّل إليّ أنك كنت مسرورة لهذا.
- يا بابا، ألم أنبّهك ألا توجّه لي مثل هذا الكلام؟!

- كفى، كفى؛ لنذهب! - تأبط شارل دو فيريول عائشة وخرج بها من الشرفة مثيراً انتباه أورليان والجمهور. وفي هذه اللحظة تمثلت لها صورة أوديب الملك الأعمى تقوده ابنته فتألمت.

حين رأى شارل دو فيريول وهو نازل من الشرفة أورليان الوصي وحاشيته تتجه إليه همس في أذن عائشة:

- دعينا نخفي هذا الرجل دون أن نُظهر استياءنا منه!

بعد ما تبادلّا تحية باهتة قال الدوق الوصي لشارل دو فيريول:

- الحمد لله على السلامة. يسرني أني رأيتك في المسرح. فرنسوا أروا... ما الاسم الذي قلت إنه أضافه إلى نفسه - سأل الوصي الذي لم تتعد عيناه عن عائشة أحد حاشيته: - نعم، نعم، فولتير... وبون دو فيل فيريول الكونت أعجبتكما مسرحيتهما؟

- هل أعجبتك أنت يا وصي ملك فرنسا لودفيغ الخامس عشر؟ - أجابت عائشة قبل أن يجد الكونت وقتاً للإجابة.

- ما يعجبك سيعجبنا يا آنسة... - توقف الوصي عن الكلام كأنه لا يعرف اسم عائشة.

- شارلوت - إليزابيت أيسيه الكونتيسة - نطق شارل دو فيريول الاسم بتمامه مستمتعاً.

- يبدو عليك أنك شهدت اختتام العرض بفرحة أسرية عظيمة يا شارلوت -
- إليزابيث أيسيه الكونتيسة - نطق زير النساء اسم عائشة كاملاً مستليداً -
- ونحن أعجبنا به. عندك اسم جميل أيتها الكونتيسة.
- أنا، يا دوق من سماها بهذا الاسم الجميل الذي أعجبك - بدأ صوت الكونت الذي يمتدح نفسه يتغير فجأة.
- سمعت منذ بعض الوقت أن عندك ابنة جميلة أيها الكونت، ولكن لم أعرف أنها بهذا الجمال كله.
- بين "أن تعجبك" و"أن تُعجب بها" فرق يا دوق - نظرت عائشة في وجه الوصي باسمه - ولكن لأني أراك أعجبت بالمسرحية التي قدمها أخي الصغير بون دو فيل وصديقي فرنسوا فولتير فأنا أشكرك باسم آل فيريول.
- نعم، نعم يا شارلوت إليزابيث أيسيه، نقول شكراً للوصي على ملك فرنسا المفدى. - لم يكن شارل دو فيريول يرغب في مزيد من الحديث مع أورليان.
- بل ندم على اتخاذه محادثاً. - لنمض يا أيسيه الندوة تنتظرنا.
- يا بابا - مع أنه لم يكن من واجب عائشة أن تقول هذا فإن إنسانيتها وطبيعتها جعلتها تقول: - أدغ أورليان إلى الندوة.
- قال شارل دو فيريول بصعوبة، وقد زاغت عيناه بسبب كلام عائشة، مغالباً نفسه:
- سادعو وصي ملكنا إلى ندوتنا، ولكنه لن يأتي... تفضل يا دوق إلى الندوة!
- شكراً عندي عِلْمٌ بوجود ندوة لكم. ولكني لن أستطيع الحضور. لا أندم على أنني تسلفت من أعمال الدولة وحضرت إلى المسرح، وأنا سادعوكم مرة أخرى إلى ندوة ملكية. ولتلقني هناك.

- كأن الوصي الدوق صديقك من زمان - قال الكونت لعائشة وهما يسرعان إلى الندوة - أي دعوة حارة وجهتها إليه! ألتقيان وتحفيان عني؟!

- يا بابا أي عار تلحقه بي بهذا الكلام؟ - حاولت عائشة أن تُفلت يد الكونت بعنف غير أن الأخير لم يسمح لها.

صفق الحاضرون لشارل دو فيريول وعائشة. وقف شارل دو فيريول إلى جانب المنصة. ووقفت عائشة مع بون دو فيل وأرجنتال وفولتير ومونتسكيو وماري - أنجيليك وجولي كالاندرين وكلودين - ألكسندرين... وكان الرجال الآخرون المدعوون في الجانب الآخر.

- السيدات والسادة - رفع شارل دو فيريول كأس النبيذ. - قبل لحظات التقيت أنا وشارلوت - إليزابيت أيسيه الكونتيسة بالوصي على الملك الدوق. وهو يبلغ إعجابه وتحياته إلى فرنسوا فولتير وبون دو فيل، وأنتما أيضاً بارون ميشيل وأدريين لوكوفير. وكان بوده حضور ندوتنا ولكنه مجبراً من تزامم الأعمال عليه يعتذر ويبلغكم تحياته. تحيا فرنسا! وأنا أقول لمن كتب "أوديب" ولمن أخرجها، ولكل من ساهم فيها "برافو" ثلاث صيحات. أدعو ألا يحدث في فرنسا ما حدث للملك أوديب. يحيا ملكنا لودفيغ الخامس عشر، وليعش سعيداً!

وبعد الكونت تعاور الكلام كلودين - ألكسندرين وعشيقها لافرني وبارابيري و كالاندرين وعشيق ماري - أنجيليك نيكولا مارشال ودو ديفان وبليز ماري دو إيدي شفالبيه الذي لا تعرفه عائشة. وآخرون.

- من هذا الفارس الذي يتكلم؟ - همست عائشة في أذن أرجنتال مشيرة إلى الشاب الجذاب الذي ألهب شغاف قلبها.

- هذا هو العقيد بليز - ماري دو إيدي - همس لها أرجنتال دون ارتياب في سبب السؤال. - فارس في الفرقة المالطية، اجترح بطولات كثيرة في حروب الدفاع عن فرنسا¹.

قال فولتير يتكلم على الفرق بين النص المكتوب والعمل المقدم على الخشبة، وكأهم سألوه هذا السؤال.

- قد يكون بين الناس من يميز النص من العمل المجسد. ولكن الفكرة واحدة فيهما. العمل المجسد قريب من الميتولوجيا اليونانية. ولست جاهلاً بالفرق. ولأنه يُجَيَّل إليّ أن التمثيل يرفع من قيمة المعنى فيني أعرب عن احترامي لصديقي بون دو فيل فيريول الكونت الذي أخرج العمل. وأشكره².

تسلل شارل دو فيريول إلى جوار عائشة دون أن يعبا بمن يرفع الأتخاب ومن يشربها، وقال بصوت يسمعه الجميع:

- لا أعرف إن كنت أهملني تماماً يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، تركت رعائتي...

¹ يكتب المركيز دو ديفان: لدو إيدي عقل نشيط، يرافقه كلامه الجميل ومعروفه. لا مثيل له في ذكائه وتقديره للمواقف. جديد دائماً في كلامه وأفكاره. يشهد الحب له دائماً بصدقه. وما يديه الإنسان من إهمال يعده إهانة شخصية له. ويشجب سلوك الناس الذين ينقضون العادات والتقاليد. ويعادي الناس الأشرار وقصيري النظر. وبسبب تغيير دو إيدي موقفه بسرعة فإنه يستطيع تغيير سلوكه وعاداته. والحق أن كونه بهذه الطباع أفضل "فهو إنسان حزين ولكنه ليس بارد الطباع ولا ذكياً ولكن دون حُبث". المؤلف.

² كان بون دو فيل وأرجنتال وفولتير أصدقاء حقيقيين. يقول ف. س. ليو بلينسك في كتاب "مسرقيات فولتير". كانا يخفان عنه مهماته ويساعدانه في كل وقت. ويعدهما "ملائكته الحماة" ويثق بهما ويعرض عليهما مخطوطاته للاستئناس برأييهما فيها. المؤلف.

فهمت عائشة حالاً أن عليها إخراج الكونت من الندوة، وحين أمسكت
بذراعه استسلم لأوامرها.

XI

بعد ما رجعوا من المسرح الكوميدي ببضعة أيام لامت ماري - أنجيليك عائشة:

- أيسيه لي عتبّ عليك!

- وما هو يا ماما؟

- كنتِ ألطف في صغرك. أنت الآن متكئمة على نفسك.

- لا أعرف لماذا تقولين هكذا. قلبي مفتوح لك دائماً.

- لا تقولي، لا تقولي، أعرف كل شيء، وأراه. لم تخبريني ما جرى لك في المسرح قبل أيام مع أورليان.

- ليس هذا سرّاً. ألم يخبركم بابا في الندوة كيف حدّثني وصيّ الملك، وأبلغكم تحياته.

- هذا باباك الكونت شيء آخر. وأنا أريد منك أن ترويها بنفسك. أفهم، أفهم أن أحداً لم يعد يسأل عني. حين أمعنت النظر في عشيقتي نيكولاي فوجدت الشيب دبّ فيه... وأنت جعلتِ الكونت همك فلا تعبئين بسمعتي الطارئة... ألا ترين جفوني، ورجليّ كيف تنتفخان؟... - وخلافاً لعادتها سابقاً في الإسراع إلى منديلها فقد بكت حقيقةً هذه المرة. - لا أعرف لماذا أنتفخ هكذا إذ لا أشرب كثيراً من الماء. ألا تتذكرين يا أيسيه كيف كنتُ نحيلة؟ أنتم لا تعرفون؛ ولكن ما الفائدة الآن من هذه التفاصيل، كيف كان نيكولاي وغيره يجرون ورائي. لم يريني أحد في المسرح، ولم يتعرفني.

- يا ماري - أنجيليك يا ماما - جلست عائشة إلى جانب الكونتيسة وعانقتها، ومسحت على كتفها. - لا تيأسي، سأصحبك إلى إحدى المدينتين

اللتين يُستشفى فيهما، بالاريوك أو بوربون - لانسي. أظن أن مياه هاتين المدينتين ستنتفعك.

- سندهب. ولكن لا أعرف من أين تأتي بالنقود اللازمة. حين كان نيكولا ي شاباً لم يكن ييخل عليّ بالمال. والآن كأن في أسفل جيبه شوكةً فلا يجرؤ على مدّ يده إليه. وإن كنت تعتمدين على الكونت فبضع المئات من الليرات التي احتجنا إليها للندوة لم نستطع أن نحصل عليها منه.

- كانت الندوة جيدة جداً يا ماما.

- لو رجعت إلينا بعدما تركتمونا وغادرتم لعرفت إن كانت جيدة جداً. حين نفدت الشمبانيا وصار المدعوون يتبادلون النظرات، ما العمل؟ أتقلعين عينك؟ من حسن حظي أنه كان معي شيء من المال. فطلبت خمس عشرة زجاجة مع كمية الطعام المناسبة. لا أندم على ما فعلت. من أجلكم فعلت. لم أتقصد رواية ما جرى.

- لم يكن يجب أن يحدث هذا يا ماما، ولكن لا أعرف كيف أفيدك؟

- أخبري الكونت! - أسرع الكونتيسة كأنها كانت تنتظر هذا التصريح من عائشة. - ليمدّ يده مرة أخرى إلى جيبه! هذه هي الطريقة التي تفيديني بها... برقبتي هذا القصر الأبيض الكبير وهذا الفناء الواسع. والقليل الذي يكسبه أوغستين يُصرف عليهما. والكونت صار عندنا عاجزاً فلا يساهم في شيء.

- يا ماما - استدارت عينا عائشة مستغربة ما تسمع. - بابا مريض، ولا يقال مثلاً هذا بحق المرضى. وهو يعطيك كل شهر قيمة ما يُستهلك في البيت من الطعام.

- وتعرفين هذا!

- أعرف لأني جزء من الأسرة.

- منها، ولكن ليس كما تتصورين.

- ألسنت هكذا قلت لي كل شيء يا ماما!

- أنا أقول الكثير يا أيسيه فلا تتعلقني بكل ما أقول. - مدت يديها إلى عينيها بمهارة وهي تتراجع عن كلامها - أين أذهب بك؟ يا حسرتي! ربيتكِ وأنشأتكِ... كلودين أختي تكتب وإن عاتبته، وتعمل نفسها بما تكتب. وأنت ماذا يا حسرتي. لا مهنة لك. أفكر فيك كل يوم فلا أعرف ما أقول بحقك. لا تلوميني يا أيسيه على ما أقول لك. ولكن أريد أن أسألك الآن سؤالاً آخر: لا يعرف ما سيحدث غداً إلا الله. اليوم الكونت على قيد الحياة، وغداً لا. إن حدث معه شيء من هذا القبيل، مدّ الله في عمره، ألم يترك لك شيئاً تعيشين منه؟

- نعم.

- أمتّع وجه ماري - أنجيليك.

- خصّني بربع يُدرّ عليّ أربعة آلاف ليرة في السنة.

- هذا مبلغ جيد يمكنك أن تعيشي به. متى عمل هذا؟

- قبل شهرين تقريباً. إن كنت تتذكرين حين تحسنت صحة بابا.

- نعم، أتذكر. ربما حين غبتما طوال النهار ونحن لا نعرف أين أنتما. شكراً

للكونت على أنه لم يَنسَك. إذا قسمت الأربعة آلاف على السنة يكون الناتج

ثلاثمئة شهرياً. - حسبت الكونتيسة سريعاً المبلغ، وأضافت لعائشة مع أنها

استاءت من تصرف الكونت دون استشارة أحد: - كان يمكن أن يضيف

إليها مثلها دون أن يفتقر. هل هناك ورقة محتومة تثبت ذلك.

- نعم، ما الأمر يا ماما؟ ألا تصدّقين؟ إنت أردتِ أريتك الوثيقة.

- لا يا أيسيه. كأني ألاحق أموال أحد. كيف لم تُعلميني حتى سألتك؟ لم أكن أصدّق حين يخبروني ولكن أنت امرأة قوية. الآن عرفت من أين الذهب الذي تلبسينه. والملابس التي تشترينها أو تخططينها.

- هذه يا ماري - أنجيليك، يا ماما اشتراها لي بابا قائلاً: ليس هناك ما لا أقدمه لك. وهو مسرور بما أكثر من سروري أنا. ألا تعرفين كم هو طيب القلب وشفوق؟

- أعرف، أعرف. - ابتسمت الكونتيسة - من وقت ما صرت كنته لا أتذكر أنه قدّم لي شيئاً. وأخوه الأصغر أوغستين أهو أحسن منه؟ يكلفونني بمسؤولية أسرة فيريول الضخمة متناسين أني امرأة. حسنٌ يا أيسيه. يسرني أن الكونت يعاملك هذه المعاملة. وأنا، ولو لم يكن عندي الكثير، كنت أتمنى أن أقدم لك مثل ما قدّم، ولكن من يصدّقك إن ادّعت امتلاك ما لا تمتلك؟... وبالإضافة إلى عائدات الربيع يا أيسيه ألم يعدك الكونت بأملاكٍ ما؟ ألم يقاسمك؟ قالت ماري - أنجيليك لنفسها "وله حصة في هذا البيت، تبدد ثروتك وميراثك على من لا تعرف أصلها"

حين سألت ماري - أنجيليك عن توزيع المُلْك فهمت عائشة مصدر كلمات الكونتيسة العذبة: "كان عليّ ألا آتي على ذكر الربيع. ومن حظي أني لم أخبرها بأن معي الوثيقة التي تستثني هذا الربيع من تركة بابا حين يتوفى... لست المذنبه، هذا من أخطاء بابا. ماري - أنجيليك تسألني هذه الأسئلة رغم أنه ما يزال حياً. لا أعرف كيف ستتصرف معي بعد وفاته"

- لا أفهم موضوع المُلْك الذي تسألين عنه. - عرفت عائشة أنها الآن في موقف يجب أن تكذب فيه. لم تقل الحقيقة للكونتيسة، وأضافت إليها كلمة تأسّف: - لماذا علينا أن نرثي بابا وهو حيّ؟

- هذا صحيح يا شارلوت - إليزابيث أيسيه - بدلت ماري - أنجيليك نفسها - سألت دون هدف، لم يكن في ذهني شيء... أفضل من هذا أن تحكي لي كيف التقيتم بأورليان وما تبادلتم من حديث. لم يرفع عينيه عنك طوال الأمسية يا أيسيه، لم يكن يشاهد المسرحية، وأنت من لم تلتفتي إليه.

- يا ماري - أنجيليك يا ماما - عاتبت عائشة الكونتيسة وما يقال لها يورّد خديها. - ألم أترجك ألا تفتحي معي مثل هذه الأحاديث؟

- رجل فرنسا الأول لا يتكلم مع كل أول امرأة يقابلها. لماذا لا تفهمين هذا يا أيسيه؟

- ما أجمله من رجل! - كررت عائشة ساخرة العبارة التي نطقت بها الكونتيسة حين تشبث الوصيّ الدوق بها.

- لا يتحقق لك شيء يا أيسيه إذا تعلقت بالكونت المريض من باب سداد معروفه إليك. - رفعت ماري - أنجيليك صوتها، ثم رجعت فنعمته: - خذي نصيبك من الدنيا الجميلة، لا تحرمي نفسك من شيء!

- لا تعتبي عليّ يا ماري - أنجيليك، يا ماما - ولكن سأسألك. لو كان عندك ابنة من رحمك أكنت تقولين لها ما تقولين لي؟!

- يا أيسيه، ما كنت لأكتفي بأن أقول لها، بل لو كنت مكانك لقلت لنفسني الكلام نفسه... كان أورليان وعدك أن يدعوك إلى الأمسية التي ستنعقد في "باليه رويال" فلا تعاندي وتحرمي نفسك منها. وأنا سأصحبك إن تفضّلتِ وقبلتِ بي. وهذا الذي تعلق قلبك به بليز - ماري دو إيدي مانفّع؟ أمثاله كثيرون في كل مكان.

- ماري - أنجيليك، يا ماما.

- نعم، نعم، لا تصرخي بوجهي!

صوت الأغنية العالمي الذي أجفل ماري - أنجيليك وعائشة كان صادراً من غرفة الكونت.

- بابا! نهضت عائشة سريعاً.

مزقت الأغنية المأخوذة من أوبرا "بروزيرينا" الصمت.

- هذا ما تتقنيه؛ تحرمين نفسك من الدنيا وأنت ترددين "بابا، بابا". كفى، سيهدّئه ديستان وجماعته.

- مضى بعض الوقت على آخر مرة ظهرت فيها بابا هذه الأعراض.

- خرجت عائشة ملهوفة من الغرفة.

- هذا أنت أم أدريين؟... قطع الكونت غناؤه وسأل.

- يا بابا، ألا تعرفني، أيسيه؟ أمسك عائشة بيد الكونت. - ألا تعرفني؟

- "بروزيرينار يا نوري، بروزيرينار يا حي!" أكمل غناؤه وهو يتغنج لعائشة.

ثم أمسك عن الغناء فجأة وسألها وعيناه تنظر كل في اتجاه: - ماذا يا أيسيه،

لا تصاحبيني في الغناء؟ هل أوبرا "بيليروفونا" هي التي تعجبك؟ - ويضيف

إحدى أغاني تلك الأوبرا "بيليروفونا، بيليروفونا، يا حي أين أنت، تعالي

عانقيني عناقاً حاراً، ودعيني أقبل شفتيك الحارتين!"

- توقّف يا بابا! انتزعت عائشة نفسها من شارل دو فيريول الذي كان

يشدها، وتراجعت مرتعبةً.

- لا تفرغي! أمزح معك فحسب. - عاتب الكونت وهو يعود إلى مقعده

الناعم وكأنه لم يفعل شيئاً: - أنا غير راضٍ عنك يا شارلوت - إليزابيت أيسيه.

- ماذا حدث لك اليوم أنت وماري- أنجيليك؟ - سألت عائشة الكونت تريد

أن تمّوه الموقف المهين الذي وجدت نفسها فيه. - هي عاتبة علي وأنت؛ هل

تواطأتما على أمر؟

أجاب الكونت الذي لزم الصمت مدة مع شبه ابتسامة:

- ليست الكونتيسة التي ذكرتها موضع ثقتي. والآن أسألك: لماذا أخفيت عني لقاءك ببليز - ماري دو إيدي في صالون المركز "دو ديفان"؟ - قفز الكونت من مجلسه وهو يباعد بين طرفي جلبابه، وفيما يذرع أرض الغرفة طرح شكوى أخرى: - أجهزين نفسك لحضور أمسية أورليان في "باليه رويال"؛ صحيح؟ لا تظني أنني لا أعرف شيئاً! لاشيء يحدث في باريس ولا أعلم به. ولن تخطي خطوة خارج البيت دون إذني!

لم تكن المرة الأولى التي تسمع فيها عائشة مثل هذه الأسئلة - الأجوبة اللئيمة. وقبل أيام طرح عليها مثل هذه الشكاوى التي لا تعرف عائشة من أين يأتي بها. ولكنه لم يتشبث بمطالبه في تلك المرة كما الآن.

ولكن تصرّف الكونت شارل دو فيريول الصبياني العاثر أمامها قبل لحظات، ومحاولة تقبيلها؟... "لا مزاح في ما فعل - تعثر قلب عائشة في صدرها. الأب يعانقك، يمسح على جسدك، يقلق عليك، ولكنه لن يهجم عليك وعيناه تلتهبان. ولن يحاول تقبيل شفتيك. هذا عار... ثم إنه يحاسبني على ما لم يخطر لي قط. ما المشكلة في أن أتعرف ببليز - ماري دو إيدي؟ ومن أوصل إليه الخبر؟ ومن هيجّه؟ وما قاله لي بشأن ندوة أورليان في "باليه رويال" مضحك... ألم تقل لي ماري - أنجيليك الكلام نفسه اليوم؟ مرة يقال لي "أظلمين متشبثة بالكونت؟"، وأخرى يوصلون إليه تعارفي أنا وبليز - ماري. هؤلاء كمن يفرض هذا الوضع المستحيل: "لا تخرج من البيت، ولا تُقم فيه، ولا أدخل وأنت فيه!" ومن هؤلاء؟ ومن سيكونون؟ أولئك الذين لا يعجبهم ما بيني وبين بابا. ولكن لماذا ينسى أو يتناسى أنني ابنته؟ لأنه مريض؟ ولو لم يكن مريضاً؟ استغلال مرض الإنسان لفائدة شخصية أكثر من عيب. في سوق

نخاسة إستانبول تعلمت هذه الحكمة. من حسن حظي أن بابا اشترايني في ذلك اليوم. ولو اشترايني أحد مديري دور الحرام؟ لا يجوز نسيان معروف من أسداه إليك. أتهمه دون ذنب. إن أتناس هذه النصيحة وقت أزمة بابا أكسب ذنباً. كانت جدتي تقول "وجع العين ظاهر ووجع القلب باطن". وتضيف إليها "وجع الرأس سبب للثرثرة"، وأقولاً أخرى. لا أستطيع مجافاة بابا المريض لأنه أساء السلوك معي. وماري - أنجيليك ربّتي سنوات عدة. يقولون: "كل من يهرم يعود طفلاً" فلن أسبب له الأسى بذريعة أنه قال لي شيئاً؛ حتى لو إكراماً لبون دو فيل وأرجنتال...

صار شارل دو فيريول يوجه نظرات متوسلة إلى عائشة تقول "لماذا لم تحبي علي ما سألتك عنه؟" فعادت وأشفقت عليه، ولاطفته بالكلام:

- نعم يا بابا، فهمت. لن أخطو خطوة خارج البيت دون إذنك.

- حسنٌ أنك فهمتني يا أيسيه... - سألت دموع شارل دو فيريول علي وجنتيه - لا فرح لي في هذه الدنيا غيرك!

- بابا، لا تياس! - ركعت عائشة دامعة العينين أمام الكونت وأمسكت بيديه وقبّلتهمما. - أنا لك، وأوغستين - أنطوان، ويون دو فيل، وأرجنتال، وصوفي، وديستان، ولاروش، وخدمنا الآخرون يُحسنون التصرف معك. في ذلك المساء، الوصي - لم تكن تريد ذكر اسم أورليان - كما سمعتَ ذكركَ بالخير، وسأل عنك كثيرون يعرفونك وآخرون لا يعرفونك.

- شكراً للجميع. - أضاف الكونت إلى ما قاله وهو يميل للهدوء - أنت تعرفين وضع عمك أوغستين، هو في ضيق... - ثم رجأها بعد قليل: - ولكن يا شارلوت - إليزابيت أيسيه لا تخبري الأختين غيرين دو تانسين أن الدكتور لاروش صار موضع ثقتي.

- ماذا قال لك لاروش؟ - سألت عائشة وهي تتوجس ما لم يصِّح به الكونت.

- مستشفى "بيسرت" - سألت دموع الكونت ثانية.

- لا شيء من هذا القبيل يا بابا - جزمت عائشة بصوت واثق، - إنس هذا الموضوع واطمئن!

- هكذا يا ابنتي؟ - سأل ومشاعر الأبوة واضحة أكثر من أي وقت مضى.
ولم يملك إلا أن يتوسل إليها في ما يخافه: - ولكن لا تدعيني مع ذلك يا
أيسيه وحيداً في البيت!

الكتاب الخامس

I

"من تره العين دائماً يصبح كالروح" لم يكن بليز - ماري دو إيدي وعائشة في هذا الوضع إلى الآن. - لم يكن مضى نصف عام على تعارفهما. ولكنهما تحابا من أول نظرة، وقولهم "الحب نازٌ متى تشتعل يصعب إطفائها" ينطبق عليهما، ونار الحب التي اشتعلت بينهما تدفئهما ولكنها تحرق من يحاول إطفاءها. وكانت أيام الطرفين الثقيلة ولياليهما - أحدهما بحب طاهر والآخر بمقد أسود - تمضي. ومع أن هذين الشابين كانا حرين في الحب المتبادل بينهما، فلم يكونا حرين في ما يقولان وما يفعلان في هذا الصدد.

كانت واضحة الطريقة التي انتهى بها حب عائشة لشارل دو فيريول. - عبر عنه في ندوة المسرح، وبعدها صارحها تماماً في البيت. وأضاف إليه موضوع الوصي. ومع أن الكونت، على مرضه، كان يرغب في إفهامها حبه بترديد الأغاني فلم يستطع مكاشفتها به بكلام صريح. وحين فهم الكونت موقف عائشة الحقيقي منه توسل إليها مغيراً بعض الكلمات التي كان لَمَح بها.

أيّ سلوك وترتيب هذا؟ أهو خوف الكونت شارل دو فيريول من مرضه أم هو القلق على فوات الغاية السرية التي كان يضمها للصبية الصغيرة يوم اشتراها؟ حتى لو كان هذان السؤالان وأسئلة أخرى متداخلة متلاصقة فقد كان الكلام المتوسل "لا تدع الأختين غيرين دو تانسين تلحقان العاري" جواباً للسؤال المرعب. والجواب الآخر هو قلق حبه الخفي.

يختلف شأن الأختين اللتين يخاف منهما الكونت: ليست ماري - أنجيليك مهمومة بالربيع الذي سيدرّ عليها أربعة آلاف ليرة في السنة بل بشأن هذا الذي إن يفقد ذاكرته أو يموت؛ أشركها في تركته حين يتوفى؟ وكلودين - ألكسندرين تصبّ حقدًا على الكونت وتشمل به عائشة مدفوعةً بالغيرة، متظاهرةً بالإشفاق عليها. واحدٌ يتأمل، والثانية تخاف، والثالثة تغار.

وباريس التي كان يغني لها شارل دو فيريول "وي باريس، يا باريس" ماذا يهملها في هذا الموضوع وغيره؟ الحياة تغلي فيها. من ينجح أمره فيها يفرح، ومن لا يُفلح فيها يقعد مطرقاً محسوراً. والأمكنة التي يربّي فيها الملك الصبي لودفيغ الخامس عشر: فيرساي، وتريانون، وحديقة الغزلان، أمكنة احتفالات لا تنتهي. ولا ينتهي الصخب في "باليه رويال" حيث يقيم الوصي أورليان مادبه. ولا يقوم الذين يقشرون الدسم من الحليب إلا بجمع المال والبحث الدائب عن الحب بلا قيود. يتداعون فيلتقون ثم ينصرفون. يعيشون متحررين من الشعور بالخرج من تبادل العشيقات.

كان حظُّ عائشة التي أوقعها حظُّها العاثر أن تعيش شبابها في عصر هذه العيشة الفاسقة، في عهد لودفيغ الرابع عشر ثم الخامس عشر. وقد التهب حبُّ عائشة الأول في هذه الظروف دون أن تدري أن لا مستقبل لهذا الحب. ولكنها لم تكن ناراً واحدة بل اثنتين: نار بليز - ماري دو إيدي، ونار الكونت شارل دو فيريول. وكانت شارلوت - إليزابيت أيسيه بين هاتين النارين. الأولى كانت تدفئ عائشة، والثانية كانت تحرقها.

أكانت عائشة تجهل أن دو إيدي شفالبيه جندي في الفرقة المالطية، ولا يحق له الزواج؟ أكان هو نسي نذر نفسه للفرقة وتعهده بعدم الزواج؟ مرة أخرى أثبت الشباب اللذان اتحدا قلباً وروحاً أن الحب لا يسأل، وأنه بلا حدود، وأنه نار

حامية. ولكن الحبَّ لا يعني الحظ السعيد. طريقه طويل أو قصير، ضيق أو واسع، إنه مزيج من السعد والنحس. أيُّ طريق سيسلكه العاشقان؟ وإلى أين سيقود؟ حين تشرع في الإجابة على الأسئلة التي لا تنتهي عن الحب فإنك ستتوه على مفارق طرقه المتعددة. وإن جعلك المال تتقبل الحب الذي لم يتقبله القلب والروح فإن الحظ العاثر سيكون طريقك إلى الأبد.

الربيع الذي تلا أشهر الشتاء الثلاثة الطويلة متردد بين البرد والحر. ورائحة البرد ما تزال تفوح من الأرض رغم ذوبان الثلج الناعم الذي سقط البارحة. ولكن الأغصان العارية تحلّت عن قسوتها التي كانت عليها في الأحد الماضي. تهتز مع النسيم الناعم بنعومة. وترقب الشمس التي تغيب ملوَّنةً الأفق بالاحمر. والعصفوران الملونان على قمة الشجرة يتبادلان النظرات والابتسامات. وفي الأفق الشرقي حيث السماء معتمة تلمع النجمة الأولى. وقبل أن تجد عائشة الوقت لتأملها انتصبت أمامها النجمة الثانية "النجمة الأولى هي دو إيدي، والثانية - أنا، وها هي النجوم الآن تنبثق من هنا وهناك. من يا ترى أصحابها من بين من أعرفهم. أهي جانيت - نيكول أم بون دو فيل أم أرجنتال؟ هذه الكبرى بينها ربما لبابا. وأيتها نجمة فولتير، ونجمة ماري - أنجيليك، وكلودين - ألكسندرين؟ ومن نسيتهن... ليس عجيباً ألا تتشابه نجومات الأخوات اللاتي ولدتهن أم واحدة. ونجمة صوفي اللماعة إلى جانب نجمتي. والمركيزتان دوفان وبارابير، وإن انفصلتا عن زوجيهما، ليستا دون نجمتين. كم قلت لهما ألا تلفظا زوجيهما؟!... لا أعرف كيف ستعيش امرأة بلا زوج، مهما كانت تملك، وحيدةً قليلة الهيبة، وكل من يراها من الرجال يشتهيها؟ وهذان الطائران، ولو كانا حُرَّين، يتساندان ويتعاونان على تكاليف الحياة، ويفرح كل منهما بالآخر..."

تُظلم دنيا الربيع مع مرور الساعات، وتُشعل الأضواء في البيوت تناغمًا مع النجوم. وتبدأ باريس تلمع من قلب المساء المظلم.

عائشة مهمومة بهسيس مرور الوقت. وتنتظر بفارغ الصبر ساعة خروجها من البيت. لا تزال قبل الساعة العاشرة ساعتان. "يمكن أن يحدث في الأسرة إلى وقتها الكثير، وكذا في العالم. - تقول عائشة - يا إلهي مُدَّ في عمر بابا إلى ذلك الوقت. لن أغيب طويلاً في مواعيدي. وعلى الأكثر ليس أكثر من ساعة خارج البيت... يكفيني أن أرى أيدي مجرد رؤية، وأبتسم له وأبشّ في وجهه وأحادثه... ليس أعلى من هذا عندي. ويكفيني أن أطوف معه حينًا في عربته. مضى أسبوعان على آخر لقاء لنا في صالون دو ديفان. وكيف دفعْتُ ثمن هذا اللقاء؟ حين وشوا بي إلى بابا تغيير سلوكه وصحته وامتنع عن الطعام، ولم يَدخر طوال الأسبوع شيئاً يمكن أن يقوله لي. وماذا رمى إليّ أمس؟ "لم أَشتركِ كي تصبحي زوجة لغيري. وحين كنت أريبك وأنشئتُك لم أكن أخلو من مثل هذه النية" من حسن حظي أن أحداً لم يسمعنا. على ما يبدو قال لي ما في قلبه صراحة - ارتجفت أعضاء عائشة لما تذكرت. التّجأت إلى الصورة في الزاوية، ودَعْتُ إلى الله كما فعلتُ أمس: -احمني مما خطر لبابا نحوي. لم أَشكّ فيه يوماً بل أعتقد أن المرض أوحى له بهذه الأفكار. لن أدع نفسي تنسى ما قدمه لي في وقت الضيق. ولأني اعتبره أباً سواء اعتبرني هو ابنة أم لا فسأخدمه بقدر ما يتطلبه واجبي. ومهما كان ثقيلاً علي فسأعتني به دون أن أحيجه إلى شيء. ولكن ما خطر له نحوي - يا ربّ اغفر لي - لن أحمّله.

حين دخل أرجنتال الغرفة طائراً من الفرح لم تفهم عائشة ما أراها:

- لماذا لستِ جاهزة يا شارلوت - إليزابيت أيسيه؟!

- لأي شيء سأكون جاهزة يا جان؟ سألته مخفية عنه أن عربة بليز - ماري دو إيدي شوفالييه ستكون على باب الدار في العاشرة.
- لنذهب إلى صالون دو ديفان المركيزة.
- لم يكن عندي مثل هذه النية. - قالت عائشة وأعلمت أرجنتال بموعدها معتبرة إخفاءه أمراً لا يليق. - كنت أنتظر شوفالييه للنتقي ولو نصف ساعة.
- وأنت تلبسين هكذا؟
- ماذا يا جان؟ أتراني قبيحة؟ - مزحت معه باسمه وخصّت كلامها: - مهما كان لباسك قبيحاً فسيراه من تحب جميلاً. أم لك أنت ولاكوفرير نظرة أخرى؟
- يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، ما نتكلم فيه هو موضوعك، لا موضوعنا. - تساهى أرجنتال عن السؤال وعيناه تضحكان وتتخابثان. - أعطيني بشارة كما يفعل شراكستك. أستأذنت من الكونت لأجلك. كيف، كيف - قلّد أرجنتال عائشة دون قصد إلى السخرية. - أطلقك لأنه واثق مني. أمهلك نصف ساعة لتتجهزي.
- هل ما تقوله صحيح يا جان؟ - نهضت وهي تصفف شعرها. - إن كنت تقول هذا فالآن، حالاً. ولكن دعني أشكر بابا وأتمنى له نوماً هنيئاً!
- لا حاجة لما تقولين يا أيسيه. منذ وقت كافٍ استراح الكونت مع قراءتي له.
- وقال وهو يخرج من الغرفة: - ولذا لا تنسي أن موعدك قصير.
- إذن سأخبر ماري - أنجيليك ماما أننا ذاهبان إلى ديفان المركيزة.
- لن يتحدث الكونتيسة. ولا كلودين - ألكسندرين. ذهبنا إلى أمسية دو ديفان.
- ولماذا لم تُخبراني بشيء؟

- لم تخبرك لأن عمنا الكونت كان سبب لك بعض الإزعاج. أنا أنتظر في غرفة الضيوف السفلية.

- ولكن يا جان - ما تذكرته عائشة الآن أضعف صوت فرجها - بقي على مواعدي مع إيدي على الباب ساعة ونصف. لا يليق بي ألا أنتظره.

- يا أيسيه، يا أختي الحبيبة، لا تقلقي لهذا! سأوصي بأن نلتقيه عند دو ديفان.

- وإن اعتبر عدم انتظاره إهانة، وامتنع عن الحضور؟

- ماذا جرى لك يا أيسيه؟ لم أعد أعرفك، - استغرب أرجنتال ما سمع - سيأتي، من قال إن الرجل المحمول على أجنحة الحب لا شيء يوقفه، لا الرعد ولا البرق ولا المطر... أظنه سمّي جان باتيست موليير. أو فيليب نيريكو دو توش. وأيّ قاله فهو صادق. ولكن عندما يحدث فنحن، لأنك سألت عن أدريين يا أيسيه، سنعرج عليه، ونصحه إلى صالون دو ديفان. وهو يعرف، يعرف، ينتظرنا.

-- إذن يا جان، لا بأس أن أنتظر دو إيدي.

- لا يا أيسيه، بليز - ماري دو إيدي شفالبيه، رجل، لن يعتب علينا. وعدتها أن نعرج عليها أنت وأنا.

"كلّ يعمل لصالحه" ابتسمت عائشة، ولم تعلق بشيء.

حين استقبل بليز - ماري دو إيدي شفالبيه عائشة دون أن تجد الوقت لثلاثي نظرة فضول على الصالون، سلّمت عليه سلاماً رقيقاً مخفية فرحها بلقائه ثم عانقت جانيت - نيكول. وقبّلت وجنتيها. وسألت عمّن لم ترها بين الحضور دو ديفان.

- أين الكونتيسة ماري - أنجيليك؟ وكلودين - ألكسندرين لا أراها.

- هاتان يا شارلوت - إليزابيث أيسيه في مكان آخر. - قال بيير غيرين دو تانسين، واختتم بمزحة: - لأن أختي الكونتيسين أوصتاني أن أحرص عليك فسألني طلبهما. هل فهمت يا بلير - ماري دو إيدي شفالبيه؟ وأنت أيضاً يا آنسة أيسيه. لا تقولوا ولا تفعلوا ما لا يجوز!

وقفت عائشة ودو إيدي جنباً إلى جنب، وحيّيا الأسقف بيير دو تانسين المسؤول عنهما بإيماءة رأس علامة امتثال له. وحيّيا الجالسين. - إن لم أحرص على أختي فمن أكون؟ - سأل أرجنتال متظاهراً بأن ما سمعه أهانه.

- أنت لا تترك أدريين يا جان! - شددت عائشة على أخيها دون أن يبين عليها المزاح. - ولا تتجاوز ما تأمرك به. حين بدأت أدريين تصفق لنفسها وقد أعجبت بما قيل عن الممثلين وافقها الحاضرون.

- المدعوون إلى بيتي - صالوني أحرار في ما يقولون ويفعلون. - رفعت دو ديفان المركيزة كأس النبيذ عالياً. ليعش الحب المتحرر! اشربوا، وامرحوا! ولتكن أرجاء بيتي أماكن حُبِّكم! وليكن حُبُّكم لذيداً ودافئاً مثل كأس النبيذ هذه! - برافو دو ديفان! - صاح المركيز مارتين دو بوالو من بين الحاضرين وهو يقرع كأسه بكأس عشيقته.

- برافو! صدرت صيحة من شخص آخر. وفيما هم يتصايحون ويتنافسون كمر أكثرهم هذه العبارة ثلاث مرات.

- لا تصدّق يا شفالبيه ما سمعت عن الحب المتحرر - لمّحت عائشة لشفالبيه وهي تقرع كأسه. وفيما هي تضع من يدها الكأس التي لم تذق منها

نظرت في وجه جانيت - نيكول التي كانت تفعل الشيء نفسه. وقلقت على أرجنتال: - لا تُفرط في الشراب!

- الله هو من أودع النبيذ حلاوته - قال الأسقف بيير.

- نعم، نعم، وافقته جانيت - نيكول. ثم أصلحت: - ولكنه أكد علينا ألا ننسى أن حرارته تزعزع الرأس.

- عاش النبيذ الذي ييث فينا المرح والدفء، والجمال - اللذة! - تقرأ أدريين لوكوفير رافعة الكأس شعراً في النبيذ - "صُفرة الحشيش القصير الفاتنة تهمس في الأرض كما الهواء الرقيق الناعم. وعنقود العنب الذي كالهواء يلعب بأشعة الشمس فتختلط بالعناقيد الصبوحة. ثم ستسرع هذه بالخير إلى الخزانات في الأقباء العميقة. ثم سينتظروهم الناس من أجل الخير الذي سيحدث خلال قرون. شكراً يا بذرة العنب التي يسيل قلبها ، لا يضيع شبابك. شكراً أيها النبيذ الأحمر الخارج من الخزان الحشبي. احك الفرح دائماً على الأرض. أرفع كأسني من أجل ألا ننسى كلمة السلام ومن أجل أن تبقى الأرض مائدة خير للبشرية"

وبعدها ساهمت أدريين التي حمّسها النبيذ بأغنية فرنسية قديمة، وردد الجميع معها. وقرأت دو باراييرا المركيزة، وهي بين أن تدخل ساحة اللقاء وأن لا تدخل، مقتطفات قصيرة من مسرحية "دون جوان" لموليير، ممثلة معها.

- لتقرأ شارلوت - إليزابيت أيسيه الآن شيئاً من حكايات لافونتين - ترجى أرجنتال عائشة مع إشارة احترام.

- جان! - كانت عائشة خجلة تريد أن تقول شيئاً لجان، غير أن الحضور لم يُمهّلوها فقرأت حكاية "بائعة الحليب والجرة المكسورة" بنطق واضح جداً، يساعدها صوتها، ويتناسب مع قامتها الرشيقة.

صفق الحضور لعائشة تصفيقاً صادقاً. وخطب بليز - ماري دو إيدي شفالبيه لأجل أدريين، ودو ديفان، ودو بارابيري، والآنسة أيسيه، خطبة تحية. وشربوا نخباً، وساهم العازفون الثلاثة المدعوون بعزفهم. ولكن الرجال والنساء الذين يرقصون معاً ينسلّون رويداً رويداً من الصالة. وبعد قليل لم يبق في الغرفة إلا الأسقف بيير وجانيت - نيكول، وبليز - ماري دو إيدي، وعائشة.

- كان المفروض أن تأتي ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين إلى هنا. - أعلنت عائشة ما كان يشغل بالها طوال السهرة. - ولكن لا أعرف سبب غيابهما.

- لا بد أنك لم تري أختي منذ زمن بعيد - مزح بيير مع عائشة، - هل اشتقت إليهما؟ - ثم أضاف لها - لا تصدقي كل ما تقوله لك أختاي يا أيسيه!

- لا يا بيير هاتان صارتا جزءاً من روحي. - قالت عائشة ما في قلبها ولو أنها تعرف أن بيير يمزح. - أنا قلقة على أبي لأننا تركناه وحده في البيت. صحيح أنه سمح لي أن آتي إلى هنا. بالقياس إلى حاله قبل مدة فهو الآن أحسن بكثير. - وأخبرتهم بمرض الكونت ولو لم يسألها أحد.

- هذا حسن يا أيسيه - ابتسمت جانيت نيكول في وجه عائشة وقالت لبيير وصحبه - أنتم الرجال ابقوا هنا، ونحن أيسيه وأنا، سنتكلم في بعض أسرارنا. - وحين جلسا في الزاوية الأخرى نصحت جانيت - نيكول عائشة: -أعرف أخبارك مع الكونت يا أيسيه؛ لا تيأسي! - ثم سألتها عما يقلقها: هل صحيح أن الكونت شارل دو فيريول طلب منك اتخاذ زوجة؟

- أين سمعت هذا - رفّ جفنا عائشة لما سألتها عن الخبر الذي لا يعرفه سواها. ولكنها بدأت تبرئ الكونت: - بابا مريض لا يجوز التوقّف عند كل ما يقوله.

- هذا سلوك ممتاز مع الكونت يا أيسيه ولكن احذري. لا تثقي به ولا تبقي معه في الغرفة وحدكما. ماذا تنويان أنت ودو إيدي شوفالييه؟
- كما تعرفين يا جانيت - نيكول، ليس دو إيدي حرّاً بنفسه.
- وأنت يا أيسيه تستطيع الكونت أن يقول لك الكلام نفسه.
- نعم؟ - احتدّت عائشة ذات الخد الأسيل.

- الكونت يناديك "ابنتي"، ولكن الموضوع ليس هكذا. حين اشتراك وعمدك كاتوليكية، لم يسجلك ابنة له. وألحق بك كتاباً يخوّله التصرف بك كما يريد حين تكبرين. لهذا كان قال لك "أستطيع التصرف بك كما أريد"

- لا يا جانيت - نيكول، ليس بابا من هذا النوع من الناس. - قالت عائشة وهي تداري قلبها. - لو لم يكن مريضاً ما قال مثل هذا الكلام. ثم إني لن أنسى أبداً ما قدّمه لي بابا. لا يجوز إنكار المعروف. إنه مريض، لن أتركه ولا أحد يسأل عنه أو يرحاه. عليّ أن أخدمه كما تخدم ابنةً أباه. - أوشكت عائشة أن تبكي ولكنها تماسكت. - بابا ترك لي ما أعيش منه حتى لو توفي اليوم.

-ومن من الأسرة يعرف هذا؟

- ماري - أنجيليك وحدها. سألت عن الموضوع فأخبرتها أنه ترك لي عائد ربيع يقدّر بأربعة آلاف ليرة سنوياً. ولكني لم أخبرها أن معي وثيقة تُشركني في تركته.
- خيراً عملت في هذا الموضوع. ولكن لا تظني أن كلودين - ألكسندرين تجهل ما تعرفه ماري - أنجيليك.

- لَتعرف! تصلبت كتفا عائشة المنسابتان الجميلتان - لن تستطيعا أن تفعلنا شيئاً بوجود بابا وأخوي وأنت. أكبر مشكلة لي هو وضع إدي... لا أعرف ماذا جرى لي حتى أحبه من أول نظرة!

- ما جرى يا أيسيه - ابتسمت جانيت - نيكول بحرارة لعائشة - أجبته عنه بنفسك، ولكن ما لا تعرفينه هو ما ينتظركما - تنهدت جانيت - نيكول تنهيدة تكشف عن شيء في قلبها - أفهم يا أيسيه، أفهم، ونحن أيضاً هذا وضعنا. نحن بصفتنا مندورين للدين فالأمر محسوم. وشوفالييه ليس بعيداً عنا بنذره عدم الزواج.

- وهذا ما أقوله - همست عائشة في أذنها ووجنتها الشاحبتان تتوردان - يقول لي "لأني أحبك؛ متى وعدتني أن تتزوجيني فسأتحلل من نذري" ولكن حتى لو قضيت العمر أحبه فلن أسمح له أن يفعل هذا. ألا يبدد هكذا ما كان يفعل لشخصه ولفرنسا؟ انظري إليه؛ إلى جلسته، إلى حفاظه على قامته، تكتشفي أنهما كافيان لتعربي أنه إنسان محبوب مهذب... لا أدري إن كنت أثرثر... سامحيني يا جانيت - نيكول!

- امتداحك لشفالييه - بثت جانيت نيكول سعادة بكلام عائشة على شفالييه وتغبطها عليه - لأنك تحببته يا أيسيه، أريدك أن تسعدي بحبك، وليس هذا وحده بل هذا الحبث أورليان الذي لا يتركك أريدك ألا تدنسي طهارتك به.

- ارتاحي من ناحية أورليان. حتى لو كانت ماري - أنجيليك تشجعني عليه فلا طريق أمامه. - ابتسمت عائشة بشيء من الرياء، وقبل أن تصرح بما يقلقها سألت: - هاتان اللتان اختبأتا؛ هل ستظهرا؟ إن وعدتني ألا تعني

عليّ يا جانيت - نيكول فلأني مشفق على بابا، وقد انتصف الليل، يجب أن أعود إلى البيت.

- لن ننتظرهما - وكأنها كانت تفكر بالطريقة نفسها - ونحن حان موعد عودتنا. سنعود كما عادتا دون استشارتنا، سننسلّ شيئاً فشيئاً من الأرض - البيت الإنجليزي.

كان المحبان بليز - ماري دو إيدي شفالبيه وعائشة جالسين في العربة متقابلين. ولم يكن ما يصطرح في قلبيهما بأقل من ضجيج الأصوات الصادرة من عجلات العربة.

-إيدي يا روجي - قالت حين أصبحت العربة على البوابة الكبيرة لآل فيريول - لا تخرج من العربة، الدار مضاعة، وها هما البوابان. سأدخل البيت وحدي. أرجوك، لا أريد أن تسمع من بابا ما لا تحب. لا يقبل أن يرافقني أحد. - لك ما تريدين يا أيسيه. أنا أحبك - استقل دو إيدي حرارة اليد التي مُدَّت إليه، فقبّلها.

- وأنا أحبك يا إيدي - ردت عائشة على شفالبيه. - إن سمحت لي يا عائشة فأنا أنوي أن أتكلم إلى شارل دو فيريول الكونت - قال شفالبيه في أثرها.

II

"مهما كان جلد الإنسان سميكاً فالروح هشة" من قال هذا؟ كائناً من كان القائل فلن يصدر عن أحد أصدق منه. إذا انطلقت من هذا القول المأثور وفكرت في شأن شارل دو فيريول فمن الممكن أن ينطبق عليه القول السابق. ولكن إن أضفت أنه يخدع نفسه بالحياة التي يتشبث بها قلباً وروحاً فإنك تنسى أن الكونت الذي لا يشبع من الحب مريض.

حتى لو كانت فأرتك تُدر دهنًا، وكان الشحم يظهر من فوق موقدك، فما فائدة أن ترفع مئة كومة على الوهم؟ هذه كانت حال شارل دو فيريول حتى وهو يتصنع الشهامة، ركباً حصانه الخشي. حتى وهو في هذه الحالة كان مشغولاً بإلقام النار التي تنطفئ حطباً. لم يكن يريد أن يبرد، ولكن الحصان يتعب، والسرج يهترئ.

العالم مركّب من طرق مختلفة؛ ليت الإنسان كان يعرف على أيّ منها سيتعب، وعلى أيّها سيتعثر؟ لم يكن جواب هذا السؤال سرّاً على شارل دو فيريول. أحد هذه الطرق المتباعدة — المتلاقية أعاده إلى قصره الأبيض الكبير. ولكنه كان في حماة حبه دون أن يكتثر بأنه سائر على الطريق الذي يوصله إلى نهاية العمر. ما هذا؟ أهو عناد السنوات الطويلة اليائسة الظالمة أم هو كالشجرة اليابسة تبدّد ظلّها؟

ماذا سيكون إذن مصير العمر الغضّ لعائشة ودو إيدي والحب الطاهر بينهما؟ عمر شارل دو فيريول وحده يساوي مجموع عمريهما. ولكن الحياة عركتهما. وإذا كانت المآسي التي مرت بها عائشة، وحياتها اليوم، جعلت منها حكيمة ومتوثبة القلب وبريئة فإن جمالها كمن لم تعان شيئاً. وإن تفكّرت في هذا فهو

إيجابي من جهة، وسلبى من الجهة الأخرى. وإن لم نجاف الحقيقة فجمالها سبب مأساتها وسبب استمرار حياتها إلى الآن في ظل الظلم وانعدام الرحمة.

ماذا سيقول بليز - ماري دو إيدي شفالبيه إذا قابل الكونت شارل دو فيريول؟ لا أحد غير جانيت - نيكول يعرف مجبهما. وإن لم تكن كلودين - ألكسندرين شكّت في أمرهما فليس في آل فيريول من عنده علم. وإذا كانت عائشة تنصير متأملّة الأفضّل فمن يدري ما يمكن أن يحدث إذا بقيت هي والكونت وحدهما في البيت؛ لم تكن تغفل لحظة عن طريقة حماية شرفها.

لم تكن عائشة، رغم ظروفها القاسية، تريد أن يتكلم دو إيدي إلى شارل دو فيريول الكونت. من الذي كانت عائشة تريد حمايته قلقة عليه؟ أهو حبها لدو إيدي شفالبيه أم الكونت أبوها الذي تحبه؟ "لا يُقاس مثل هذين الحبين! - لامت عائشة نفسها على الخاطر الذي أسرع إلى رأسها، ثم ارتعدت من الفكرة التي كانت أحياناً تطرق باب قلبها: - ما أسوأ الحظ الذي جاء بي إلى الدنيا - لم يكف ما وجدت نفسي فيه من عناء حتى جاء حيي الأول بلا أمل... لماذا لم أقهر قلبي حين عرفت أنه ليس لإيدي الحرية في الحب؟ أقتحم بنفسي النار التي ستحرقني؟ يقول لي بارابير ودو ديفان "هل عجيب أن يكون لك إدي شفالبيه دون زواج رسمي؟ لا تفوّتي مثل هذا الشاب الممتلئ الغني، احتويه!" ما أسوأ فهمكما وملاحظتكما! الحب لا يعرف غنياً أو فقيراً. منذ عهد بعيد نسيتما قانون الحب: من يختاره القلب شخص واحد. لم يحبني إيدي وهو لا يعرف حقيقة وضعه. ما قاله لي قبل أيام ليس ما يُسمعه لكُثر عُشاقك هماً. - سيتحلّل من العهد الذي قطعه على نفسه أمام وحدته. سمعت عندنا وهنا أنه لا شيء يقف أمام الحب؛ يجعلك تفعل أي شيء. أهو شجاعة أم حب يوقعك في المهلكة. لا أريد الحب الذي يدمر حياة من

تحب. ولكني لا أستطيع أن أرمي وراء ظهري أول حب في حياتي. لماذا أنصح نفسي بنفسي؟ أيسلبه أحد مني؟..."

كان دو إيدي شفالبيه ينوي مقابلة الكونت شارل دو فيوريل هذا الشهر، وفي الشهر الماضي، غير أن عائشة منعت اللقاء بحجج مختلفة. كان المفروض أن تتكلم عائشة أولاً إلى الكونت بصراحة. وكانت جهزت ما ستقوله وما سترد به. حتى لو كان إطلاق الكلام على عواهنه سهلاً فالعثور عليه يحتاج إلى الصدق والكذب والدموع. وإذا كانت عائشة حتى الآن لا تستطيع مفاتحة الكونت به فمند وقت غير قصير كان الأمر وصل إليه. ولكن هذا لا يعني أن تغمض العينين والأذنين وتدير ظهرها لكل شيء وتهرب. وأمنيتها أن يساعدها في تحقيق أمنيتها ونيتها. وربما في المسألة أنه طمع فيها يوماً ما على نحو معيب. وإن تصرفت هكذا، وهي تحمي نفسها، فهي تأمل في حماية شرف الكونت الذي رباها وعلمها. وإذا كانت عائشة جاهزة منذ زمن بعيد لما ستقول وستفعل فبعدها هبت رياح الصيف أسبوعاً كاملاً، ودخل تقاطع الشهرين في الموضوع أيضاً، لم تستطع وهي المشغولة بالكونت المتفاقم وضعه، وبوسائل تحدثته، التحدث إليه. ومرت بعدها أياماً فأسابيع ولكن لم يطرأ أي تغير على بيت آل فيريول. ومع أن الجميع كانوا يريدون مرتاحين فقد كان قلق صامت يلف الجميع.

طوال النهار، منذ أن استيقظت إلى أن نامت، لم تكن عائشة تحيد بنظرها عن الكونت. وكلما صدر صوت من أي مكان قفزت برأسها وأنصت. ثم إذا لم يكن الصوت متعلقاً بالمريض انصرفت إلى أعمالها مخفية عدم اطمئنان قلبها. وكلما مضى من الأسبوع أو الشهر يوم نقص من عمر عائشة، ولم يبق في نفسها ما يسرّ لإشفالبيه. وعند عائشة موعد محدد مرة في الأسبوع للقاء دو

إيدي سرّاً - حين تعطي الكونت دواءه وتحذّثه بالقراءة له، تخرج للقاء العربية التي تنتظر على البوابة. أحياناً يطوفون أرجاء باريس، وأحياناً يتمشيان على الشارع. يطوفان الحيّ على الأقدام وعربتهما تسير إلى جانبهما. ومع أن عائشة كانت تعرف أن ما يخفيه المرء يخرج للعلن يوماً ما فقد كانت تتوسل إلى البوابين حين تخرج من البيت أو تعود إليه راجية إياهما ألا يحاسبها على ما تفعل، ولم تكن تتباهى لهما بفعلتها.

كانت عائشة توجل من يوم إلى آخر موضوع حديثها إلى الكونت مغلوبة بهذا السلوك وغط الحياة. "كيف أفاتحه وأنا أعرف جوابه سلفاً. لا، لن أسيء إلى بابا المريض في غمرة تفكيري بمصلحتي الشخصية. أعرف أن الحب لا يبحث عن فائدة شخصية، ولكن لا أستطيع أن أفعل هذا في أثناء أزمة المسكين. سأنتظر أوغست وسأسأله لأنه سيعود مع الخريف، وهو ليس غريباً عني. ولكن هل أسوّج هكذا لإدي ما سيفعله نحو فرقته؟ إن يفعل هكذا أكن دمرت حياته لفائدة شخصي. وأين أذهب ببابا؟" ألم يبق للكونت شارل دو فيريول من أقارب غيرك يعتنون به؟ - حين حُيِّل لعائشة أن أحداً وشوش لها بهذا الكلام أجابت نفسها بسرعة "ولماذا لم يبق له؟ عنده، ولكن هل أعرف كيف سيتصرفون معه؟..."

عرفت عائشة أن شارل دو فيريول نزل للغداء فنزلت إلى غرفة الطعام دون غرفته. كان الكونت وماري - أنجيليك الكونتيسة جالسين إلى المائدة بكامل عدة الغداء من ملاعق مذهبة ومفضضة وصحون زجاجية فاخرة، ومناديل وأغطية بيضاء للصدر. وحين دخلت عائشة توقف الاثنان عن الحديث.

- لم يحدث أن جعلتنا ننتظرك على الطعام يا شارلوت - إليزابيث أيسيه! -
قالت ماري - أنجيليك وكأنها ترى عائشة للمرة الأولى، وببرة عتاب. - عندي
لك خبر سارّ.

- نعم، نعم، يا شارلوت - إليزابيث أيسيه، لست جاهلاً بالموضوع - وافق
شارل دو فيريول كتنّه - رجائي أورليان الوصي بشخصه فلم أستطع رفض
طلبه.

توجهت عائشة، دون التفات لما يقولان، إلى الكونت أولاً فقُبلت وجنته، ثم
إلى الكونتيسة ففعلت مثله. ثم جلست على مقعدها.

أضاف الكونت إلى الكلام الذي لم يُتَح له إكماله:

- دعانا، أنت وأنا، أورليان الوصي إلى الأمسية التي ستقام غداً في "باليه
رويال"¹

- وماذا سيفعل بنا؟ - أسرعت عائشة.

- برافو أيسيه! - صفق الكونت كأنه كان ينتظر هذا التعليق من عائشة، ثم
التفت إلى كتنّه بشيء من الرياء ووجه لها الحديث - أما قلت لك يا كونتيسة
أن أيسيه لن تفرح بخبر الدعوة؟ والآن "برافو" ثانية يا ابنتي. ولكن بما أنك
تعرفين وفائي بوعدي، ففي هذه المرة لا تفعلي مثل المرات السابقة حين دَعَوَك
ولم تلبّي، فستذهبين مساء الغد. وأنا واثق أن ماري - أنجيليك الكونتيسة
ستحرص عليك لأنها وعدتني. ولا أعني بهذا أنك لا تحترمين نفسك، كوني
يقظة دائماً. أنا من كان يجب أن يصحبك لولا توعُّكي. ولكن مرة أخرى ألحُ
عليك: الناس الذين ستخالطينهم من الذين أفسدهم المُلْك، سيَكُونون

¹ القصر الملكي. المترجم.

فاسقون؛ ألا تتذكرين كيف أبعدتك عن شفالييه الأسمر ذي الشوارب السوداء
الكثة الذي كان يأكلك بعينه؟

- يا بابا - ابتسمت عائشة للكونت ملاطفة إياه وقطعت حديثه - لماذا
فقدت ثقتك البتة بي وكأني ارتكبت إثماً عظيماً في ماضي؟

- أكنت أسمح لك أن تذهبي إلى حفلة من دعوك لولا ثقتي بك؟!

- اطمئن يا بابا، - بادرت عائشة؛ أين دواؤك؟

- لولا هذا الدواء اللعين - ارتشف شارل دو فيريول وأتبعها بالماء - أكنت
ألبي لأورليان دعوته؟!

- ألا يمكن لكلودين أن تحل محلي؟ - سألت عائشة لتهدئة الكونت.

- يا أيسيه - جحظت عينا ماري - أنجيليك لما سمعت. - أنسيت أن
كلودين حامل؟

- من والد جنين كلودين الآن؟ ممن نعرفهم أو لا نعرفهم؟ - سأل شارل دو
فيريول متظاهراً باللامبالاة.

- يا كونت، ما شأنك بالموضوع حتى تصدع رأسك به؟ - ابتسمت ماري -
أنجيليك ابتسامة صفراء ولو أن ماسمعتة بشأن أختها لا يسرّها. - ولكن بما
أنك سألت فلن أكتمك: هو ديشان شفالييه الذي لا نعرف أين هو.

- أسمعت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ما سلوك من يحملون لقب "شفالييه"؟

- قال الكونت بحيث لا تعرف إن كان جاداً أم مازحاً وضحك، ثم صرّح بنوع
من الحذر: - غريب أنهم لم ينسبوا الجنين إليّ... إن عاش فلن يعدم وسيلة

للحياة - أنهى الكونت الآن بلا مبالاة، ونحّض عن الطعام قبل أن ينتهي -

سأتمشي قليلاً في الفناء... ألا يكفي ما أكلتما؟ من شاء فليتبعني!

تركت عائشة ماري - أنجيليك على المائدة، ولحقت بالكونت فزعةً. ولكنهما لم يلبثا طويلاً في الفناء؛ إذ طلب الكونت من عائشة أن تنضم إليه في الغرفة لأن من عادته بعد الغداء أن يستريح ساعة، ثم يطلب منها القراءة في كتاب أو جريدة. غير أنه ما إن وضع رأسه على الوسادة حتى غرق في النوم.

III

لم يكن همُّ دعوة "باليه رويال" يفارق ذهن عائشة وإن تظاهرت بغير ذلك. كانت تعرف من الموضوع أكثر مما يعرف شارل دو فيريول. وما لم تكن تفهمه هو كيف أغزوا الكونت بهذا الموضوع وجروه إليه. لم يكن أحد إلا الدكتور جان - باتيست يعرف بأمر الدعوات الأولى. بل إنها أخفت الأمر عن دو إيدي شفالبيه حتى لا تسبب له المشكلات. ولن يقبل الكونت من عائشة أن تخالف أمره. كيف ستطلع الآن إيدي على المشكلة التي وقعت فيها؟ لا يزال على موعدهما الثابت ثلاثة أيام. ماذا أفعل، وما المخرج؟ كل هذه من حبكة الكونتيسة ماري - أنجيليك. ماذا ستستفيد إن أقحمتني في حفلة "باليه رويال"؟ ومع ذلك تعتب عليّ لأني لا أناديها "ماما". أأصارع بابا بما أعرف؟ إن فعلتُ هذا أتيتُ على حياته. إن وصلتم في تأمركم إلى هذا الحد فسأدعي المرض، ولن أذهب إلى الحفلة ولو أرسلوا ورائي مئة رسول..."

في بضع السنوات الماضية، بعدما استدعي الكونت من تركيا، قفز فخري فجأة إلى أفكار عائشة، وهو الذي كانت قد نسيته. وحِيلَ إليها أنها تسمع صوت الأمواج التي تقذف بالحصى إلى الشاطئ. "أيّ ضفة من ضفتي البحر الأسود، يصدر هدير الموج؟ أضفة الترك أم الأديغة؟ - تجفل عائشة وتسأل نفسها. ثم حين تصبح ذكريات المكان الذي قضت فيه طفولتها تنتصب أمام عينيها وتحتفي، تتمثل لها فجأة الجبال ذات القمم البيضاء، ولحن المراثية يحمله ماء البحر. - صوت من هذه المراثية؟ لا هو صوتُ أمي ولا صوتُ جدتي. كائناً من كان صاحب الصوت فهو باللغة التي أنساها. لماذا عليّ أن أنسى لغتي؟ تعفّ عائشة نفسها وتبدأ تلفظ تمريناً من تمارين نطق جدتها. ولكنها تتعثر وقد نسيت الكلمات. وتحاول أن تغني الأغنية الخفيفة عن القطة ولكنها تبكي

دموع الإهانة إذ لا تستطيع أن تنطق بعض كلماتها التي كانت تحتفظ بها في القلب، تُعزّها. لو كان "بابا" يعرف اللغة الأدبية بدلاً من التركية لما بقيت دون لغة الأم. الآن وصلتُ إلى حيث كان فخري يقول "كل إنسان يجب أن يعيش بين قومه. ولكن إن أجبر على أن يتركهم فسي لغته بقي بلا جذور". فخري وأورخان وقعا في طفولتهما في الموضع الذي وقعت فيه ومع ذلك تعلّما الفرنسية والأدبية دون أن ينسيا التركية. ولم تضرّهما إن لم تنفعهما...

حين دخلت صوفي الغرفة بوجه الفرح نسيت معها عائشة سبب ضيقها:

- ما الأمر يا أيسيه؛ أزعجك أحد؟

- لا، بل أرثي نفسي بنفسي.

- ماذا؟ - دون أن تفهم صوفي ما قيل لها، وناسية الورقة الصغيرة التي في ثنايا ثوبها، سألت عائشة من جديد.

- كفى يا صوفي، كفى. لا تلومي نفسك. كنت أفكر في حالي بيني وبين نفسي. ولكن سأسألك إن كنت ستفهميني.

- لم يحدث ألا أفهمك يا أيسيه؛ أنصت إليك - بدا من صوت صوفي، وإن لم يبدُ من وجهها، أنها شعرت بالإهانة من "إن كنت ستفهميني".

- شكراً لك يا صوفي، لا مهمّ في ما سأسألك عنه. ومهما أجبتي آمل منك أن أجد جواباً لسؤالي. ماذا كان موقفك من لغتك الفرنسية لو وقعت بدلاً مني بين الشراكسة؟

- الآن فهمت لماذا قلت لي "أرثي نفسي بنفسي" - ضحكت صوفي - الشراكسة بشراً مثلي. وكما حملت نفسك على الاندماج بهذا المجتمع والاستقرار فيه كنت فعلت مثلك. أيّ قوم متى تشاركهم أفراحهم وأحزانهم

يفهموك. ولو لم تكوني تفهميني، وكذلك أخويك، وآل فيريول، ما كنت استطعت العيش معهم يوماً واحداً.

- وأنا هل تعدّيني من آل فيريول؟ بادلتها عائشة المزاح.

- ألسّ من آل فيريول؟ - انزلق ما في قلبها على لسانها.

"لو كان عندي مؤئل آخر ما ترددت... - قالت عائشة لنفسها. ولكنها ندمت على ما قالت: - ولماذا ليس عندي مؤئل؟... لو أطعت فخري وأورخان حين تجشّما مشقة السفر وجاءاني... ما أخبرها يا تُرى؟ حين سألت عنهما بابا قبل أيام رماني بنظرة ارتياب عنيفة. وما الفائدة من السؤال، كانت جدتي تقول "لا تفوّت رأس الحصان وتلحق بذيله!، حدث ما حدث". خرجت عائشة من استغراقها وأجابت صوفي تعرّفها أنّها لم تنس سؤالها:

- لا مؤئل لي بعد آل فيريول يا صوفي. ولكنك لم تحيي على سؤالِي: ماذا كان سيحدث للغنك الفرنسية لو وقعت بين قومي الشراكسة؟

- هل تعرفين ماذا كنت سأفعل إن لم أجد بين الشراكسة من يتكلم الفرنسية؟ كنت كلّمت نفسي بنفسي. ألن يفهمك الماء والخبز والشمس والسماء؟

- كانت جانيت - نيكول تقول لي الكلام نفسه. - أعاد ما ستقوله عائشة الفرح إلى نفسها ولو أنّها تنهدت لما سمعت وما في قلبها. - إذن ما قاله لي إدي قبل أيام كان عجبياً: سيصبحني يوماً إلى بلاد الشراكسة ويُريني إياها.

- لأنه يجبك... - أسرعت صوفي إلى صدرها وأخرجت الورقة التي كانت نسيته - كدّ أذنّب بحق دو إيدي شفالييه، خذي هذه، وهو ينتظر الجواب.

تقرأ عائشة الورقة التي فتحتها ملهوفة "يا حي شارلوت - إليزابيت أيسيه. لن تسع هذه الورقة حي ومشاعري نحوك. بعد الله والسماء لا أحب أحداً على

هذه الأرض كما أحبك. أقول هذا لنفسي وأقوله لك. أشتاق إليك. لا أطيق الانتظار إلى موعدنا يوم الأحد. غير أنني سأزف إليك خبر لقائنا غداً: أريدك أن ترافقيني إلى لقاء "باليه رويال" لأن أورليان دعاني. أعرف أنك دُعيت مرات كثيرة فلم تلجّ. مع أن هذا اللقاء ليس لأجلنا فلن يكون إلا لنا، فحرري نفسك بطريقة ما من الكونت، ولنذهب معاً. أرجو الاستعجال في الجواب. المحبّ إيدي"

قفزت عائشة من مجلسها حين قرأت الورقة. ونظرت باتجاه النافذة، وجلست. ثم استعرضت الرسالة بنظرة سريعة وأمسكت القلم: "صحيح ما يقال من أن القلب والروح يتخاطران. وأنا كان هذا ببالي الآن. وكنت أفكر كيف أبلغك ما يشغلني. حين أرسل أورليان الوصيَّ رسولاً إلى أبي من أجل "باليه رويال" الذي لا أحبه، ألح عليّ، على سبيل التباهي بالذات، أن أذهب بصحبة ماري - أنجيليك. ومع ذلك كنت عزمّت أن أدعي المرض، ولكن لما تبَيّن أن وضعي سيكون مختلفاً تماماً فسأتّى إلى "باليه رويال". أيسيه"

رغم أن أورليان الوصي لا يدعو عادة إلى لقاء باليه رويال نصف الشهري إلا خمسين شخصاً فقد أضاف الآن ضعفي الرقم. والطعام والشراب لا تكاد العين تحيط بهما. وعازفو الأوكورديون لا راحة لهم. - الرقصة تتبعها رقصة أخرى. وتصدر من كل مكان أصوات الضحك الصاخبة ولا سيما من النساء. وبالإضافة إلى الصالة الفسيحة التي يرقصون فيها هناك غرف أخرى مفتوحة الأبواب. بعضها يتلألأ بالأضواء، وبعضها أقرب إلى الظلام. والخدم يدورون بكؤوس الشمبانيا مع الأطعمة الخفيفة. وأورليان يبحث بنظره عن عائشة التي أقام أمسية هذا اليوم من أجلها فلا يراها. أخبروه أمس واليوم أنها ستحضر.

ولكنها لم تظهر إلى الآن. لا، ها هي - أشار إليها أحد المكلفين برصدها -
قادمة.

"حسناً فعلتُ بأن جعلت الحضور ينتظرونها ولا يبدؤون الحفلة دونها." - يقول
أورليان لنفسه ولكن يخيل إليه أن الحضور تجمدوا في أماكنهم حين دخلت
بينهم الفتاة الشركسية. بيد أنه يقرع كأسه بكؤوس النساء المراثيات اللاتي
أحطن به وكأنه لم ينتبه إلى حضورها. لا يدعُ عائشة تغيب عن ناظره وهو
يمتدح جمالهن ويعبر عن حبه لهن. "أمسكت الكونتيسة فيريول كأس الشمبانيا،
ومدتها إلى الفتاة الشركسية التي لم تأخذها. أَلأنها لا تشرب أم تتصنع؟ كيف لا
تشرين الشمبانيا وأنت رُئيت في فرنسا؟ ومن هذا الذي يقبل يدها احتراماً؟
هو بليز - ماري دو إيدي شفالييه... لم أصدق ما قيل لي إنه يحوم حول الفتاة
الشركسية، ولكني أراه اليوم رأي العين..." - اضطرب قلب أورليان الخبير
بأهواء النساء فتمنى أن يتجه إلى حيث تقف عائشة. ولكنه لا يريد استقبالها
بطريقة تتباهي بها. وحين اقترب من موقف عائشة وهو يقرع كأسه بمن
يصادف دون تمييز توقف عندها وكأنه فوجئ برؤيتها:

- يسرني جداً حضوركما إلى لقائي اليوم يا ماري - أنجيليك الكونتيسة
وشارلوت - إليزابيت أيسيه. لماذا ليس معك كأس يا شارلوت - إليزابيت
أيسيه؟ ألم تحصلي عليها؟

- لا أشرب الشمبانيا يا نور فرنسا!

- هاتوا لها من النبيذ إذن! أتجبن الأبيض أم الأحمر؟

- لا، لم أحسن التعبير - صحت عائشة والجل يزيدا جمالاً: - لم أشرب
قط أي نوع.

- هكذا؟... - نظر الوصي أورليان مستغرباً ما سمع إلى الكونتيسة ماري -
أنجيليك، وأجاب حذراً ودون مبالغة: لم يبدأ الشرب بالنساء ولا يجوز اعتباره
عيباً على المرأة؛ أليس صحيحاً يا بليز - ماري دو إيدي شفالييه؟ إن وافقتني
دعنا نرفع كأسينا على شرف المرأتين اللتين معنا. أدعو لهما أن تبقيا جميلتين
دائماً، لذيتين، دافقتين كالشمانيا التي أرفعها.

- وأنا باسمكم - انتظرت الكونتيسة ماري - أنجيليك حتى فرغوا من الكأس
وقالت لهم من أعماقها: - أرفع هذه الكأس في صحة الرجال ذوي القلوب
الحارة.

وبعد أن فرغت ماري - أنجيليك من الكأس نطق أورليان بنيتيه الخفية:
- ألا تعرفين يا شارلوت - إليزابيت أيسيه الرقص وإن كنت لا تعرفين شرب
الشمبانيا؟

- يا نور فرنسا كيف لا تعرف شارلوت - إليزابيت أيسيه الرقص... -
استعجلت ماري - أنجيليك.

- إذن لرقص يا شارلوت - إليزابيت أيسيه معاً! - أشار أورليان إشارة احترام
لعائشة.

- أستطيع أن ألي لك طلبك يا نور فرنسا - الآن كشفت عائشة سرّها في
حضرة أورليان وماري - أنجيليك - حين يسمح لي حبيبي بليز - ماري دو
إيدي شفالييه.

- اسمح لي أن أراقص حبيبتيك يا شفالييه! - وتوجه أورليان إلى شفالييه.
حين رأى عريف الحفلة أورليان ممسكاً بيد عائشة، متجهاً إلى الحلبة، أشار إلى
العازفين، وكذلك إلى الراقصين فتوقفوا. وقال للجميع بحيث يرونه:

- نور فرنسا الدوق أورليان الوصي على العرش سيراقص ابنة الكونت شارل دو فيريول شارلوت - إيزابيت أيسيه الفتاة التي جاء بها من بلاد القفقاس البعيدة. يرقص أورليان الماهر في كل الرقصات حتى لو كان كهلاً في عمره، حذراً على شريكته في الرقص، متأملاً وجهها برياء وبأسلوب ناعم محبب، دون مبالغة في الحركات، وكأنه يقول للناظرين "انظروا إلى قامتي الممشوقة وكتفي العريضتين، اعلموا أنني بكامل قوتي". وعائشة المعتدة بجمالها، تنشر قامتها الرشيقة وظهرها للواء. تحترم مراقصها وإن لم تتصنع له. ولكنها لا توحى له بأي أمل.

"كم يتناسب هذان رغم تفاوتهما في العمر!" "الفتاة الشركسية تدمر مستقبلها برقصتها" لا تهتم عائشة بأي شيء يقال فيها أو لا يقال. ولا تهتم بسلوك مراقصها. وكل ما لا يغيب عن وجهها هو إيدي جيبها الذي تركته في عُهدة ماري - أنجيليك.

بعدما انتهت الرقصة امتدح أورليان الراقصة التي ما يزال يمسك بيدها:

- ترقصين جيداً يا آنسة أيسيه!

- شكراً يا نور فرنسا. يسرني أن تشهد لي. لست ماهرة مثلك في الرقص. ولكني كنت حريصة على مجاراتك.

- يسرني يا آنسة أيسيه أن كلامك يخلو من الرياء. إن أردت أيتها الكونتيسة فيريول فعندنا في الغرفة الأخرى معرض فني، يمكننا تأمله.

حين سمعت عائشة ما كانت تتوجس منه أجابت وهي تخفي اضطرابها، وهي تخرج به دون استعجال من الساحة.

- شكراً. إذا أعدتني الآن إلى من أخذتني منه شفالييه، واصطحبتنا والكونتيسة ماري - أنجيليك إلى المعرض أمكننا مشاهدة الصور.

- كما تريدن يا آنسة أيسيه، ما من شيء تأمرين به ولا أحققه لك. - وافق أورليان على رغبة عائشة - ثم أضاف بعد لأي: - أنظر إليك يا كونتيسة فأراك وقعت في حب شفالبيه تماماً... لا أصدق...
أعبطكما، أعجب... من الصعب العثور على من يشبهكما في فرنسا. بل لم أعرف أن فيها مثلكما.

- إن كنت ترى هذا يا نور فرنسا - ابتسمت له عائشة - فأنا سعيدة.
"ألا تعرفين يا حلوتي أن من تحبينه فارس¹؟- كان بودّ أورليان أن يقول لعائشة التي أعادها إلى حبيبها غير أنه تناسى الأمر قائلاً لنفسه "تعاملت مع زوجات وعشيقات فرسان أحسن من "فارسك"... وأنت ستفهمين هذا يوماً ما..."
ولكنه وشوش لماري - أنجيليك، وهم في قاعة المعرض، دون أن يسمع أحد:
- أين علق بكم هذا الفارس؟
- لم يكن بصحبتنا، قابلنا هنا.

لم تكن عائشة ترغب في قضاء مزيد من الوقت في الحفلة بعدما فرغوا من زيارة المعرض الفني. فشكروا أورليان على دعوته، وحيّوه. وغادروا باليه رويال قبيل منتصف الليل. ولحظة دخولهما البيت سألت ماري - أنجيليك التي لم تعجبها مجريات الحفلة، متظاهرة بالتعب الشديد:
- أعجبتك حفلة الليلة يا أيسيه؟ ما رأيك في الوصي أورليان؟

¹ في الفرنسية كلمتان متقاربتا المعنى ظاهراً، وكلتاها منسوبة إلى الحصان cheval، الأولى cavalier التي انتهى معناها إلى راكب الحصان فحسب، وتُطلق: كافالبيه. والثانية وهي التي تتكرر في الرواية chevalier، وتُطلق كما هنا: شفالبيه، وهي رتبة اجتماعية أو لقب متوارث من مراتب النبلاء، ومنها تأتي كلمة chevalerie التي تعني أخلاق الفروسية. المترجم.

- كل شيء كان جيداً ورائعاً غير أنني عتبت على أورليان.
- ماذا؟ أقال لك ما أزعجك؟
- لا، لم يسأل عن بابا المسكين.
- هذه هي؟! - "هذه ليست مشكلة" ابتسمت ماري - أنجيليك في سرها.

IV

الفتنة التي كان لا بد أن تقلقل القصر الأبيض الكبير لآل فيريول نشبت اليوم على شارع سان - نيف أوغست. وكان السبب فيها بليز - ماري دو إيدي شفالييه.

"الحب لا يستشير أحداً" صحيح. وقد فهمها بليز - ماري دو إيدي شفالييه في حبه. والآن كان جاهزاً لأن يفعل ما يناسب السياق دون ندم. وعائشة لم تكن في وضع يسمح لها بالتمعن في حبها المفاجئ القادم، ولا أن تستشير أحداً. ومع أن هدوء أعصابها يحميها فإنها تفني نفسها في تفكيرها بمستقبل حبها. ولكنها عندما يغلبها الضيق فصوفي ملجؤها للتنفيس عن كربها. غير أنها كانت تحتفظ لنفسها بسراً وحيد تقلق من أجله.

لا يخلو طريق المحبين من عثرات وعوائق وإن اعتبروا أنفسهم سعداء. وعائشة وإيدي لا يزالان شاخين، وأمامهما صعوبات يعرفونها في نفسيهما، وإن كانا قادرين على الحب المتحرر. وإيدي التزام أمام الفرقة المالطية، ولكن كل فرد في هذه الفرقة يستطيع الوفاء بعهدته وعدمه. وقد برهن على شجاعته ووفائه بقسمه في مواضع كثيرة. بيد أنه تصرف في حبه الأول بما لا يليق فأثبت أن "الحب لا يقف شيء في طريقه، يجعلك تفعل أي شيء" وقرر أن يحنث بنبذره. وعائشة؟ لو كانت حرة لربما تزوجته دون استشارة أحد. ولكن إن فعلت هذا فكيف سيتصرف الكونت شارل دو فيريول؟ قبل أيام لَمَح لها أنه اشتراها، ورباها، ولا يزال. والأعجب مما سبق هو ما أضافه: "الحب لا يعرف كبيراً أو صغيراً، تعيش بما يأمر به القلب" ليست هذه أول مرة تسمعها عائشة. لو حررها الكونت دون إشكالات لكان أفضل حلٍّ، ولكن العائد الذي يُدر

عليها أربعة آلاف ليرة في السنة، والوثيقة التي تشغل بال ماري - أنجيليك التي تُشرك عائشة في التركة، بقيا في بيت آل فيريول.

الأفضل أن يدير كلُّ شؤونه الشخصية. ولكن حين يدخل الوسطاء في الحب الأول لا يبقى حباً نظيفاً. بعد حفلة باليه رويال فعلت عائشة خيراً حين رفضت أن يكلم إيدي الكونت. وكلّفت نفسها بهذه المهمة. ومرت الأيام وهي تنتظر ساعة صفاء للكونت تفتاحه فيها. ومن بين ما كان يشغل عائشة موضوع الوصيّ أورليان. وكانت ماري- أنجيليك هي من تتسبب في المشكلة بكلام حلّو يبدو كأن لا إحراج فيه. ولذا كانت عائشة تبحث عن ذرائع لتخفيف ساعات لقاءها بالكونتيسة. وكانت ماري - أنجيليك تعرف هذا فتحرص جداً على كلامها وسلوكها. ولكن من يأتي منه الدواء المريح للكونت في الأسبوع مرة وهو الطبيب الوسيط سيلفا جان - باتيست لم يكن يعرف الراحة. وكان الدواء الذي يجزه للكونت فرحةً لعائشة وأملاً، وتحفظ ماري - أنجيليك به كآخر ضمان للضغط على عائشة: اتفق طبيب الملك والكونتيسة على تأخير جلب الدواء يوماً. ومضى نصف النهار التالي.

وعائشة التي كانت تستطيع الحصول على الدواء متى أرادت لم تهتم كثيراً بعدم وصوله في أوانه أمس، وانتظرت نصف هذا النهار دون أن تُبدي على حالها القلق. ولكنها لم تستطع إلا أن تبوح لماري - أنجيليك بسبب قلقها:

- الدكتور لاروش لا يزال غائباً. ما العمل إن رجع اليوم كما البارحة دون الدواء؟

- لا تسمح لي هذه الوسواس أن تغزو رأسك يا أيسيه - تصنعت الكونتيسة أنها تطمئن قلب عائشة. ولكنها في الواقع عادت فأثارتها - أنا واثق من

الوصي أورليان، ألم تري كيف خدمنا في شأن تعويض الكونت؟ أقول هذا ولكن من يدري ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء؟

- لا تنسي معروف الكاردينال إركيول - أندريه! - قالت عائشة متناسية اسم الوصي الذي ما كان يفارق لسان ماري - أنجيليك.

- نعم، لم يهمل رجاءنا، شكراً له. ولكن أليس الوصي هو آخر محطة رجائنا ورجائه. لو لم تكن نواياه سليمة نحونا... ألم تري كيف اختارك من بين أجمل نساء باريس وراقصك؟ من أجل هذا أخذتُك إلى باليه رويال. ولهذا عرفتُك هذا الرجل الوسيم الذي تتهافت النساء لا على الرقص معه، بل على أن تقع عيناه عليهن... وأنت تزيجينه من أجل أمثال شفالبيه.

مهما كانت الكونتيسة ماري - أنجيليك تلاطف عائشة، وتخطبها بكلام معسول فإن عائشة التي كان الدواء يقلقها لم تغفل عنه، وأجابت على السؤال بكلام كانت جدتها تردده:

- "قبل أن تسألي عن الفائدة التي ستجنيها أسألي عن الضرر الذي سيجلبه" أهذا ما تريدين قوله لي يا ماما ماري - أنجيليك؟

- تبتاً لك يا أيسيه - صرخت ماري - أنجيليك من السؤال الموجه إليها. - كلامك دائماً حادّ... أنا ليس لك في قلبي إلا الخير. أنا من لا يفرح إن أصابك الخير؟ حسناً أحبي "فارسك" إن قبل الكونت. ولكنك لست جاهلة بنظرات أورليان الوصي المتوسلة، ولا برغبته فيك دون حاجة إلى أن أخبرك... لا عيب في هذا؛ الدنيا قائمة على هذه العلاقات.

- ماما - لم تُطق عائشة المزيد كما تفعل حين تُضطر لحماية شرفها. غير أن لاروش العائد من جلب الأدوية قطع كلامها:

- جلبت الدواء يا أيسيه اطمئني. - قال لاروش وأتبع كلامه بما كانت الكونتيسة تعرفه ولا تنتظره عائشة: - أكد عليّ الدكتور سيلفا جان - باتيست أن تذهبي أنتِ مكاني لجلب الدواء.

- ما الأمر؟ - سألت ماري - أنجيليك كأنها مهمومة بالموضوع الذي تعرفه، وأخته باستيائها من هذا الطلب: - لن أدعك يا أيسيه تذهبين وحدك إلى هذا الرجل القبيح الأعوج ولو لم يبق غيري. أنا أعرف من أي طينة هؤلاء. سأظل أرافقك.

- ولكن الدكتور مُصِرٌّ على أنت تكون شارلوت - إليزابيت أيسيه وحيدة. - إن كان هذا ما ابتدعه خياله فسنشكوه للوصي. لماذا لا ينفذ ما أمر به؟ هذا هو موضوع الفائدة والربح الذي كنت تتحدثين فيه يا أيسيه.

- أنا أنقل لكم ما قيل لي ولا شأن لي به - أسرع لاروش إلى تبرة نفسه كأن أحداً شكّ فيه - وأنا لم أستطع أن أعبّر عن استيائي للطبيب الذي لا تسعه الدنيا تيتهاً.

- ليس عدم ثقة بك يا لاروش - تذكرت عائشة أنها نهرته مرة فلاطفته بالكلام - أنت عملت ما عليك، شكرًا.

- نعم، نعم يا أيسيه - كانت ماري - أنجيليك مرتاحة لما سمعت - لاروش فعل ما عليه، أحياناً لا نتق به، ولكنه ليس أقل شأنًا من طبيب الملك.

- لا، لا ياكونتيسة - قطع لاروش مديح الكونتيسة متودداً إلى عائشة - لا أحب أن أسمع ما ليس من شأني. كل طبيب يختار ما يناسبه من الاختصاص: الدكتور سيلفا ماهر في تركيب الأدوية. أنا أشفي به المرضى، إن لم تعودوا في حاجة إليّ تابعت أعمالي الأخرى - نهض الدكتور لاروش الذي كان مستعجلاً على الخروج حين أذنوا له.

حين تُراجع عائشة بينها وبين نفسها موقف الكونتيسة ماري - أنجيليك منها يبدو لها أن معاملتها لها في شبابها أسوأ منها في طفولتها. ويتجلى هذا في سلوكها وطبعها في الستين الأخيرتين أو الثلاث. ألأنها كبرت وكبر معها عقلها أم لأنّها تستجيب لوساوسها؟ ودون أن تعرف السبب الحقيقي تنبت شكوكها واحداً بعد الآخر في شبابها. "لماذا كلما تحدثنا تأتي لي على ذكر أورليان رغم معرفتها بكرهي لهذا الحديث؟ وأعجب ما أعجب منه هو قولها لي "أحيي الفارس إن قبل الكونت منك!" ربما لاحظتِ أنت أيضاً شغف أورليان بك... لا عيب في هذا؛ الدنيا قائمة على هذه العلاقات...". انظر الآن ما يحدث! بدأ الدكتور جان - باتيست يمنع الدواء عنا رغم معرفة أورليان بالأمر.. كيف يسوّغ هذا؟ وكلودين ليست امرأة صالحة، من المحتمل أنها تلعب من ورائي. يجب أن أكلم بابا في موضوعنا قبل أن ينقلوا إليه ما لا ينفعنا"

في هذا اليوم، حين تحدثتا وكلّ تخفي عن الأخرى ما في قلبها، ذهبت ماري - أنجيليك إلى أختها كلودين - ألكسندرين. وما إن وصلت حتى توقفت على عتبة الباب غير مصدّقة ما ترى:

- كلودين هل انتهى الأمر؟
- تعالي، تعالي يا ماري. - استقبلت كلودين أختها بخصر في منتهى الرقة، - ما سألت عنه مضى عليه ثلاثة أيام، نسيته.
- وأين الطفل؟
- كما قلت لك مرة سلمته للملجأ الأيتام¹.

¹ كلودين التي سماها ديدرو "جميلة بلا شرف" أخفت حملها بمشد على البطن طوال ستّة أشهر، ولم يعرف بأمرها إلا ماري - أنجيليك. وهذا هو سبب مفارقتها آل فيريول، وحياتها

- أهو صبي أم صبية؟ أسأل لأنها إن كانت بنتاً ربيتها.
- ارتاحي؛ ولد.
- يا للحسرة!
- كفى يا ماري! - أوقفت أختها الرياء الذي بدأت به - أسمعيني أخبار آل فيريول بدلاً من هذا!
- لا خبر جيداً عندنا. لم يكفِ أن الكونت تفاقم وضعه، بل لعب شفالبيه بعقل البنت أيسيه حتى كرهنا حياتنا. شفالبيه، متناسياً تعهده بالعزوية الدائمة، لا يدعنا نرتاح، التصق بنا. لا تتعجي يا كلودين.
- وما المشكلة في هذا يا ماري؟ أريد هذا الذي لا يترككم أيسيه؟
- ليس "يريدها" فقط!
- لا تقفي حجر عشرة في طريقها! الأحسن لك هو أن تتزوجه.
- أنا لا أرى فيه فائدة.
- إذا تزوجت فستخلصون منها، ولن تقاسمكم تركة الكونت؛ هل فهمت؟
- لم يخطر لي هذا.
- قبل أن تعمل المعروف أحياناً فكّر فيه مسبقاً. إذا مات الكونت بينكم لن يكون هناك تقاسم أملاك. سيؤول كل شيء إلى الفتاة الشركسية الغريبة. هذا ما قيل لي حين سألت عن الموضوع.

المستقلة، وافتتاحها صالوناً أدبياً. وحين ولد الصبي أعطته للرجاء الأيتام ولم تزره مرة واحدة في حياتها. والصبي الذي سُمي جان دو رون دو ألامبير صار فيما بعد من أكبر رجالات فرنسا. المؤلف.

- لا أعرف هذا. أنا أظن أنصحها: لا تتزوجي، عيشي معنا. كما يقول العرب: "سيرينا الجبن ويطلعنا الحجر" هكذا؟! إذن أعرف يا كلودين ما أفعل بها. سأزوجه وأطلب منها أن تمسح برأسها الجرة الخالية من السمن. ولن أسمح للمسكين الكونت أن يموت قبل أن تخرج من بيتنا. سأمسح على رأسه، لن أسمح لذبابة أن تمسه.

ومع أن ماري - أنجيليك التي تلقت نصيحة أختها كانت مستعجلة على العودة إلى البيت فقد تبين أن عائشة التي استعجلت من أجلها نامت مبكراً على غير عادتها بعدما أراحت الكونت. فلجأت إلى فراشها قائلة: "ربما كان هكذا أفضل، أكلها وقد هدأت ثورتي وحضرت كلامي" ولكنها بعد الفطور قالت لعائشة بين المواربة والصراحة:

- فكرت طويلاً في الموضوع الذي تحدثنا فيه أنت وأنا يا أيسيه. ولم أغض جفني طوال الليلة. لست على حق في ما قلته لك بشأن الفارس. وأنا قسوت عليك. كل أم تتلهف على ابنتها فافهميني، وسامحيني. الآن أؤيدك في حبك. لاتفوتي عمر الزواج. اصنعي حظك بنفسك.

- شكراً يا ماري - أنجيليك - مع أن الكلام الذي سمعته عائشة وردّ خديها فقد أنهت كلامها بصوت منكسر كان يجعل لونها يشحب: - أنتِ تقولين هذا ولكن لا أعرف رأي بابا.

- وماذا سيقول؟ - سألت الكونتيسة وآمالها التي تتحقق تمنحها القوة - أيقبك عازبة إلى الأبد؟ إن كنت محرّجة في ما ستقولين للكونت فسأرافقك إليه. ما حاله اليوم؟ أمكنه أن يفهمنا إن كلمناه؟

- كما رأيته على الفطور، كأنه في وضع جيد. وتناول دواءه بنفسه.

- لنذهب إذن نكلّمه. لماذا لا تزالين جالسة؟

- بهذه السرعة؟ سألت عائشة ولكنها نهضت سعيدة.
- حين دخلتا الغرفة لم يلتفت إليهما الكونت الجالس مرتدياً صِداراً أزرق فضفاضاً. وحين انتهى من الكتابة التفت. ولما رأى في الغرفة التي لم يعد يدخلها إلا عائشة والخادم سأل بين الاستغراب والارتباب:
- أنتما؟ ماذا جرى يا كونتييسة؟ ليس من عادتك الدخول إلى غرفتي؛ ماذا تريدان؟ - سأل مبتسماً ودعاها للجلوس: - تفضّلاً!
- جئناك بخبر سارّ أيها الكونت.
- مضى وقت طويل لم أسمع فيه خبراً ساراً. أسمعكما.
- تكلمي يا شارلوت - إليزابيث أيسيه!
- ولكن لا أعرف كيف أقول.
- سأعطيك فكرة عما لا تستطيع أيسيه أن تقوله. هذه الصبية اتخذت قوام الفتاة الجميل. إن سمحت لها فهي تريد الزواج.
- ماذا تقولين؟! - الكونت، وقد سمع الخبر الذي كان يخشاه، قفز من مجلسه ونفض عن ظهره الكساء، وشرع يتجول في أرجاء الغرفة، يرفس الكساء انتقاماً. ويصرخ على المرأتين: - ليس عندي ابنة أزوجها! بأي شيء يفوقني الفارس؟ أهو شبابه؟ وأنا كنت شاباً حين اشتريتك!
- بابا! - هُرعت عائشة إلى الكونت خائفة عليه. - اهدأ، لا تقل مثل هذا الكلام!
- اغربي عن وجهي! وأنت أيضاً - هَرّ ماري - أنجيليك - لا تُرياني وجهيكما كليكما! - وصاح وراء عائشة التي كانت تخرج من الغرفة: - توقفي يا شارلوت - إليزابيث أيسيه! وحين بقيا وحدهما ارتقى الكونت على ركبتيه أمام عائشة، وأمسك بيديها يقبلهما ويبكي: - ظننتك ستفهمين ما في قلبي

نحوك حين تنضحجن فتاة بالغة... ولم تفهمي شيئاً... لا تنظري إلى عمري، لا يزال قلبي شاباً.

- توقف يا بابا! - انتزعت عائشة، لا تدري كيف، يديها من يدي الكونت القويتين، وركضت إلى خارج الغرفة.

وقبل أن تمضي ساعة على ما حدث جاء الكونت شارل دو فيريول إلى عائشة وكأن شيئاً لم يحدث. وأعطاهما بكل تهذيب ورقة مطوية:

- اقربي هذه، ثم نتكلم في الموضوع.

جلست عائشة قليلاً في الغرفة بعدما خرج الكونت ممسكة بالورقة. ثم فتحتها بأصابع مرتجفة وقرأت: "لم أكن أريد حين اشتريتك أن أسبب لنفسي هذه الأحزان، ولا أن أجلب التعاسة وسوء الحظ لنفسي. كنت أنوي، وإن لم أكن أعرف المكتوب على جبيني، أن أتخذك ابنة أو حبيبة. وعلى ما يبدو فقد جرى الأخير لكلينا. ولذا لا أستطيع أن أقارن الحب الملتهب الذي اضطرم في قلبي بحب الابنة. ارضخي لما حدث لك! إن كانت السماء جمعتنا بإرادتها فلا تفرّقينا أنت..." - سقطت الورقة من يد عائشة وقد داخت مما فيها.

V

مع أن عائشة كانت تعرف أن إبرة واحدة لا تخط خيطين معاً فقد رضخت من جهة، وهي تفكر في الكثير، إكراماً للمعروف الذي أسدي إليها. أما من الجهة الأخرى الوحيدة المتبقية، فلن تلطخ شرفها حتى لو كلفها حياتها.

ماذا تستطيع عائشة أن تفعل؟ في غمرة حذرهما وتجنبها الألسن المعسولة يجب أن تحمي نفسها في العالم القدر الذي وقعت فيه. ولكن الحياة الفرنسية التي كانت تحاول الامتثال لها مُرغمة نفسها، لم يكن كثير من الناس يفهمون وضعها فيها: الذين لا يفهمون يسخرون، والذين يفهمون يتعجبون. وليس الموضوع أن عائشة لم تستوعب العادات وأنماط المعيشة الفرنسية، ولا أنها لم تتقبل ما جرى لها. بل كلما تقدمت في السن، ولو أنها تصبح بعيدة عن شعورها القومي، ولو أنها تعرف أن "فرنسياتها" تغلبها من كل ناحية، فإن اعتزازها بشرفها الأنثوي يظل يناديها ألا تنساه وألا تخطئ.

ولكن حين تكون غريباً فما كانت تقوله جدتها: "أنت أعمى ولو كانت عينك حادثين" تَبَيَّنَتْ صحته. وهذه الحكمة تنفعها وتضرها. حين تندمج بالناس الذين وقعت بينهم يضيع الدم الأصلي الذي كان في عروقك. ولو كانت عائشة غير عابئة بأصلها لصارت فرنسية حقيقية منذ زمن بعيد، ولعاشت بين النساء الفرنسيات تربي أطفالها، غير أنها لم تكن مثلهنّ. انقلبت عليها إنسانيتها وجمالها وبالأعلى عليها: الرجال يشتهونها، والنساء يحسدنها. وما في قلب الكونت الذي اشتراها نحوها يستحي اللسان أن ينطق به. "بأي عين سينظر إيدي إليّ إن أخبرته بتصرف بابا معي في ذلك اليوم، وأنه كان يريد تقبيلي؟ وأي شعور سيكون له نحوي؟ وإذا قلت له: إذن نَقِذْ ما في قلبك نحوي بسرعة وأخرجني من بينهم أكون أطلب منه أن يحميني من أبي. لولا هذه الورقة كنت

حملت مرضه مسؤولية ما فعل، وغفرت له تصرفاته معي، وتناسيتها. ولكن يصعب الحكم على من كتب هذه الورقة بأنه فقد الذاكرة. كان قال لي "اقرئي ما كتبت، ثم نتحدث" ولكنه تجاهل الطلب ربما لأنه لاحظ حذري من سلوكه أو خجل من جنونه على ركبتيه. ولو صحّ تحليلي لكان حسناً. رباني إلى الآن وهو يناديني بابتته وأنا أنادي به بابا، ولو أنه لا يجري في عروقنا دم واحد، ولم يُجوجني إلى شيء"

الهواء الذي هب فجأة صمّر من خلال النوافذ محركاً أغصان الأشجار، ورجّ الباب. قلقت عائشة على الكونت الذي لم يُسمع له أي صوت طوال النهار. "هذه الرياح لا تواتي بابا. - نهضت عائشة مسرعة - يجب إعطاؤه الدواء وتهدئته ومعاملته برفقة. لا يجوز تركه وحده. - ولكن عائشة كما قفزت بسرعة من مقعدها كظمت اندفاعها بالسرعة نفسها. - لا، لا، بابا وحيد - وحين فتحت الباب رأت صوفي تركض نحوه. وكان ديستان ولاروش يسرعان إلى الغرفة التي ينادي منها الكونت. - قالت عائشة: "لا مشكلة إن كان معي غيري"

- تعالي يا صوفي، بابا ينادينا. - عادت إلى عائشة رباطة جأشها.

- لست من يناديها، إنه لاروش.

- يحتاجني هذه اللحظة أكثر من حاجته إلى لاروش.

حين دخلنا الغرفة كان الكونت الذي غطى رأسه بلحافه ينهر الرجلين:

- ماذا تريدون أيها الشياطين الأتراك أن تفعلوا بي. اغربوا عن وجهي. وأنتما

أيضاً يا ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين الجنيتين الشريرتين. مهما قلتم

ومهما فعلتم لن أسمح أن تتزوج شارلوت - إليزابيت أيسيه من الأفاق شفالبيه.

ولن أسمح لأورليان الملطّخ بالعار أن يدنّسها. أيسيه ياروحي أين أنت؟
يسلبونك مني. لن أعطيك لأحد.

- بابا، لن يسلبني منك أحد. - هذأت عائشة الكونت دامعة العينين. - ها
أنا واقفة أمامك، وكذلك صوفي ولاروش وديستان. ولا شيطان ولا إبليس في
البيت. انزع اللحاف عن رأسك وتناول دواءك!

حين نظر شارل دو فيريول من تحت اللحاف بعين واحدة وبمتهنى الحذر،
ابتسم لمن تذكرهم:

- هؤلاء أنتم؟ من كنت أراهم غيركم. ماذا أفعل بينكم؟ ابتعدوا، هاتي يا أيسيه
الدواء! إن سقيتني بيدك نفعي. - قال الكونت بعدما نفذت له عائشة مراده:
- لماذا أنتم واقفون، أنت يا لاروش، وأنت يا صوفي، عودا إلى عمليكما.
سنجلس وحدنا أنا وأيسيه، وسنتحدث في موضوعات معينة.

- لا، لا، ابقني معي يا صوفي. - ارتعبت عائشة.
ضحك لاروش وديستان في أعماقهما. وحين خرجا، سأل الكونت عائشة
دون اهتمام بوجود صوفي:

- ما الأمر يا أيسيه؟ ألا تثقين بي؟
- إن كنت تعتبرني ابنة يا بابا فأنا واثق بك. ولكني أربأ بك أن تقول لي ما
قلت وتكتب ما كتبت. إن غفرت لنفسك تلك الأخطاء فسنعود كما كنا: أباً
وابنةً. ولن أنسى فضلك أبداً.

- أسمعني يا صوفي ما تقول "كونتيستك"؟ ابتسم شارل دو فيريول ولوى
عنق الحديث إلى حيث يريد فاختتمه وعيناه تستديران في محجريهما وتتحفظان:
- هكذا لم يبرّ عليك فضلي. ولم تفهمي ما كتبت. إن كنت ترييني عجوزاً

مجنوناً فستندمين، ولكن الفرصة تكون فاتتك. - فقد الكونت زمام أمره فلمعت عيناه: - يا صوفي ممن طلبت أن يغرب عن وجهي؟

حين نهضت عائشة الجالسة في حضرة الكونت هجم الأخير وأمسك بيدها: - بابا، لا تتعد حدودك! - حين انتزعت يدها من الكونت ووصلت إلى الباب قالت له وهي تنظر إليه نظرة إشفاق دامعة العينين: - سامحي، ما كنت أريد أن أسيء إليك.

- أيسيه، شارلوت - إليزابيت أيسيه قفي! - صاح الكونت في أثرها دون تراجع عن موقفه لا في صوته ولا في نظره. - لا تفعلي ما لست حرة فيه؛ توقف!

- لا يا بابا، لا تقل لي شيئاً الآن. - خاطبت عائشة الكونت بـ "بابا" متجاوزة غضبها، ضاغطة على عواطفها رغم نار الإهانة، ثم عاتبته بكلام اللطف: - فكّر في أنك تفعل ما لا يليق بك!

رغم أن عائشة كانت تحترق في داخلها فإنها لم تستطع إلا أن تتلفت نحو الباب الذي كانت تصدر منه أصوات سورة غضب الكونت.

- تعالي يا أيسيه، تعالي، كفى - أمسكت صوفي ساعد عائشة وجرتّها إلى غرفتها.

ارتوت عائشة بكاء صامتاً على صدر صوفي. وحين انفرجت أزمعتها قالت: - إذا كان المرء سيئ الحظ أمكن أن يحدث له مثل هذا. - أنصتت إلى جهة غرفة الكونت، وأكملت: - ولكني لا ألوم بابا... لا تتعجبي يا صوفي، لماذا إدانة المريض؟

- وأنتم تقولون هذا - قاطعت صوفي عائشة - دللتموه! إن كان مريضاً فليبق في حدود مرضه! إنه يتصنع... كلما صدر شيء من فمه أسرعتم إلى تنفيذه، وهكذا خرج عن السيطرة.

ابتسمت عائشة في وجه صوفي وقد نسيت ضيقها، ثم مزحت معها:

- لم أكن أعرف أنك فظة هكذا!

- ما الذي ينقص الكونت إذن؟ أنتِ تخاطبينه بابا حتى إنك تخدمينه كما لا تخدمه الابنة الحقيقية. أخلصت له وهو اشتهاك. ألن يشبع يوماً؛ ها قد حانت ساعة وفاته. وسأقول لك شيئاً يخفونه عنك بما أن الموضوع انفتح: لا تصدقي كل ما يقوله لاروش. حين تهب الريح ويدوي الرعد يأتيه بامرأة. أقول ما رأيته ولكن لا أعرف الحقيقة. ربما كنت مخطئة.

- لا تحاسبي نفسك يا صوفي. - ضحكت عائشة من خارج قلبها. - وأنا أعرف الموضوع، وإذا أردت أخبرتك باسمها: "لولو". كانت عشيقة لاروش في وقت مضى.

- أيسيه! - ارتفع صوت صوفي ووجهها يحمر - ليتني لم أسمع ما قلته. أهذه هي آخر محطات الكونت؟ يكفي ما قاله لك اليوم حتى دون غيره...

- ألم أقل لك إن بابا مريض؟ لا تلوميه يا صوفي. - استنفرت عائشة كأَنهم يفعلون بالكونت ما لا يجوز - بالنسبة إليّ، مهما قال لي وكيفما تصرف معي فضله عليّ بلا حدود، أغفر له - تنهدت ثم أكملت: - ربما ما كنت غفرت له لو كان له ولد من صلبه.

- نعم، حقاً. - وافقتها صوفي، وقالت لها ما كانت عائشة تتوجس منه: - إن هجم عليك؛ هذا شخص لا رادع يمنعه... سيدتر حياتك.

قالت عائشة بعد برهة ولونها شاحب مما كانت تفكر فيه:

- وأنا أخاف من هذا يا صوفي... ولكن لي رجاء عندك: - لا تخبري أحداً بما رأيته اليوم.

- إن كان بالإمكان منع لاروش وديستان من الكلام فاطمئني من جهتي. قالت صوفي وأثر الاستياء من رجاء عائشة بادٍ عليها، ثم لامت عائشة: - وأنت لا تتصرفين بطريقة صحيحة؛ هل رعاية المجنون مسؤوليتك؟ ما العجيب في أنه أشفق عليك مرة وأنفق عليك بعض المال فاشتراك؟ أتظلين تسددين ثمن إحسانه إلى الأبد؟!

كما يحدث لعائشة في ساعات الشدة، حين انتصبت أمام عينيها كيف سرقوها فدمروا حياة الأسرة واقتلعوها من جذورها، وكيف اشتروها، وغيروا دينها، واحتفظت باسمها الأديغي بعد صراع معهم، وكيف جهدت للاندماج في المجتمع الغريب الذي وجدت نفسها فيه، وكيف كان يناديها المستاء منها بـ "الشركسية المتمردة"، وكيف كانت تكلم نفسها ساعات كي لا تنسى لغتها، قالت غير قادرة على حبس دموعها:

- لا أؤيدك في واحدة حتى لو كان سائر كلامك صحيحاً يا صوفي: دَين الله علينا صعبٌ سداده. ولم يحدث لي ما ليس له به علمٌ. ولكن الطهارة التي زرعها الله فيّ لن أنازل عنها لأحد ولّيسا مخني الله. - حين بدأت عائشة ترسم إشارة الصليب فعلت صوفي مثلهما. أم أن لك يا صوفي رأياً آخر؟

- لا يا أيسيه - انفجرت صوفي بالبكاء - اغتصبي زوج أُمي وأنا لم أتجاوز الثانية عشرة... ولم تتحمل أُمي العار الذي ألحقه بي زوجها... وأعيش وأنا يقشعرّ بدني كلما رأيته رجلاً، ولا راحة لي إلا بجانبك. - ضمت عائشة صوفي إليها، وبعدهما تعانقتا برهة وهما تندبان معاً آلامهما، أضافت صوفي إلى

ما قالت: - ولكن يا أيسيه لا أريد أن يحدث لك ما حدث لي... أنتِ عندك مخرج.

- وأيُّ مخرج؟

- تتزوجين من شفالبيه دو إيدي.

- صوفي، يا أختي الحبيبة، يا روجي - تظاهرت عائشة بأنها تلومها رغم سعادتها بما سمعت. - شكراً، ظننتك ستقولين لي شيئاً آخر... لا يا صوفي لم يصل أمرنا أنا وشفالبيه بعدُ إلى هذا الحل. ألا تعرفين أن دو إيدي أقسم ألا يتزوج؟ لا تدعينا نستبق الحظ. ثم إني لن أدع بابا المريض وحده.

- ستدمرين حياتك مع الكونت الهرم وأنت ترددين هذه اللازمة.

- يا صوفي، خافي من الله! لا تقولي ما ليس مفيداً. - لم تقبل عائشة رغم علمها بما في تلميحتها من صواب.

VI

في اليوم نفسه، وعند حلول الظلام، أخبر لاروش بنفسه عائشة أنه جاء بـ"لولو" إلى الكونت. ولكن التصرف الجيد للاروش هو أنه عندما قال له الكونت "هات لي شارلوت - إليزابيت أيسيه إليّ لأريها أني لا أزال في منتهى الفحولة بما يكفي للكثير من النساء" أجابه: "هذه لن تستطيع الحضور، ذهبت مع أرجنتال إلى المسرح". ومن تسببت فجأة في مشكلة دون علم عائشة هي صوفي. فعندما همست لماري - أنجيليك بالخبر أسرع الأخيرة، وهي التي تريد هذه الفضيحة، إلى ابن حميها، وتسببت في مشاجرة صاخبة.

- لماذا جعلت من بيت آل فيريول بيتاً للدعارة؟ - ألم يبق في العالم حياء أيها الكونت؟ الآن حالاً، قبل أن أدعوهم لتحطيم مؤخرتك اغرب من هنا!

- اسمعوا ما تقول هذه! - نهض شارل دو فيريول منفعلًا فاقدًا زمام أمره - لا تعرف من هي حتى تربينا!

- اسكت يا كونت! - صرخت ماري - أنجيليك في وجه الكونت - إن قلت كلمة زائدة فسأجعلهم يكتفونك إلى مستشفى المجانين.

أسرعت عائشة إلى الغرفة قلقلة ملهوفة:

- يا ماري - أنجيليك يا ماما ، لا تقولي مثل هذا لبابا!

- أيسيه، يا شارلوت - إليزابيت أيسه - أزاح الكونت من يقفون أمامه، وضم إليه عائشة ثم بكى - أنت الوحيدة يا ابنتي من بقي لي ملجأً. هؤلاء جنيون، احميني منهم. وأنت أيضاً يا لولو. أنت جنية سوداء. لماذا تقفين باسمه ناسية ما أعطيتك وخدمتك به؟

- ألم تسمعي ما قالوا لك؟! - نظرت صوفي بطرف عينها الغاضبة إلى لاروش، وتقدمت نحو لولو بقوامها المتين الخفيف.

- اسمع إلى هؤلاء، اسمع! - أدارت لولو مؤخرتها المستديرة إلى من كانوا يراقبونها، وخرجت من الغرفة تردد ساخرة كلمات الكونت الأخيرة.

VII

تمضي الحياة الإنسانية متداخلة متشابكة بين تعاقب الليل والنهار، والأفراح والأحزان، والأعراس والمآتم. ولا أحد من الطرفين ينتصر. النور والظلام يُعميان الإنسان. الحزن يُفنيك والفرح الدائم يُملِّك. ولولا هذه المجاهدة الدنيوية لفنيت البشرية يوماً ما أمام الخير والشر. — أهى أفكار فولتير أم أفكار مونتسكيو أم أفكار عائشة نفسها؟ كائناً من كان مصدرها فإنها لم تمنح الراحة لها. — "لماذا اخترتني في رأسي أفكاراً لا تفيدني؟ ولماذا أهتم لها؟ ربما بسبب مثل هذه الأفكار تبدأ الوسواس تغزو الرأس." تلوم نفسها وتسأل.

في ميعة شباب عائشة بدأت هذه الأفكار التي تدعوها للتأمل والتساؤلات. ولم تكن طفولتها مريحة، ولكن هناك فرقاً بين أن يهتم لك أحد وبين أن تهتم لنفسك بنفسك. إذا كانت حياة الإنسان كلها مركبة من الأسئلة فإن طريقة عيشك ستتوقف على أجوبة هذه الأسئلة. والأفضل ألا يخطئ الإنسان ولو كان كلامهم: إن الإنسان يستخلص العقل والحكمة من أخطائه، صحيحاً. ولكن هذا لا يتحقق للجميع، وعائشة منهم.

لم تكن عائشة محرومة من صديقٍ موضعِ ثقةٍ واستشارةٍ. لها في باريس خمسة أشخاص تحمل إليهم همومها وقلقها: صوفي، وبون دو فيل، وأرجنتال، وجانيت — نيكول، ودو إيدي. كانت صوفي مطلّعة على أحوالها. أما بون دو فيل وأرجنتال فلم تكن عائشة ترى من اللائق إطلاعهما على سلوك عمهما معها. وكان لجانيت — نيكول أيضاً معرفة بوضعها باستثناء الأحداث الأخيرة. ومن لم يكن يعرف شيئاً هو بليز — ماري دو إيدي شفالييه. كان ما يهمه أمراً آخر: معاندة أورليان الوصي لعائشة واتخاذها لها طرفاً في المعركة. كان يسعى دون أن يعرف أحد إلى البحث عن مخرج لها. وعائشة التي لم تكن تعرف شيئاً من

أسرار شفاليه لم تكن ترى من المناسب إطلاع حبيبها الأول في حياتها على تصرفات الكونت المشينة. وما تبقى لها هو أن تتحمل سرّها بنفسها مهما كان الحمل ثقيلاً. أأستطيع تحمّل حالها؟ أأستطيع الصمود في وجه أسرارها؟ ولكن لن يسمعك أحد ولن يراك حين تغلق الباب على أحزانك بنفسك.

لا يفرق الألم والبؤس، والكلام من وراء المرء، والشر بين شخص وآخر. — لا تميز هذه بين شاب وعجوز. المشقة، وإن كانت تقويك وهي تحتبرك، تصرع بعض الناس. والبؤس، وإن كان يهزّ جذورك، فإنك ستفيق منه يوماً ما. والكلام متى دخل البيت فرّق بين الأحباب. والشرّ يُنسيك العالم المنير، وينتزع من بين يديك.

مرت عائشة بمشقات كثيرة كفيلة بأن ترقّق قلبها. والآن لا تنقص هذه المشقات بل تزيد. وتحب عليها رياح قادرة على أن تمزّ أغصانها وتزعزع أصولها. وما إن وجدت الفرصة لتنتهي من الأزمة التي تمر بها حتى ألمّ الحرف بالإنسان الوحيد الذي كان أملها. وفيما هي تمثل للمصيبة تأتيها مصيبة أخرى. ولو كان مصدر الشقاء إنساناً غريباً لما كان في الأمر كارثة.

لم يكفِ ما في بيت فيريول من بلبلة فأضيفت إليها أزمة أخرى.

كانت ماري — أنجيليك المهتمة بكل شيء، أول من كلمت عائشة بأسلوب لطيف في موضوع إدخال الكونت في مشفى "بيرسيرت" رغم أنها تعرف رفضها المسبق:

— أهكذا يا شارلوت — إليزابيت أيسيه نطل ينتظر أحدنا الآخر، ولا يريد أحد تحمل المسؤولية حتى تدبّر تصرفاته حياتنا؟ لا أعرف كيف أقول لك، ولكن هل تستسلمين لما ينويه لك؟ الأسرة بكاملها لا همّ لها غير مسألة الكونت.

أمثال الفاجرة لولو ينشرون الأخبار المعيبة في باريس كلها. لا أعرف يا حسرتي كيف سأفعلك.

- أفهم ما تريدین قوله يا ماري - أنجيليك، يا ماما - أجابت عائشة وهي تكظم عواطفها بصعوبة - ولكن، سامحيني، لا يرضيني أن تستشيريني في مسألة لا أستطيع الموافقة عليها. دعينا نصرف النظر عن هذه المسألة حتى يكون لعمي أوغستين - أنطوان علمٌ بها!

- ألا تعرفين من أي نوع من البشر هذا الذي نطقتِ باسمه؟ - ابتسمت ماري - أنجيليك، واختتمت واثقة بنفسها: - لن يخالف رأيي!

- إن وافق أوغستين - أنطوان... - وقتها لا أعرف - زفرت عائشة عميقاً. - تجري في العالم أمور كثيرة لا نعرفها - ما يُقلقني هو مصيرك أنت يا بُنَيَّ. أنا و أوغستين عشنا عمرنا، لا يهمنا إلا راحتنا في شيخوختنا. ألا ترين ما يحدث لنا؟

قالت لنفسها وهي تسمع هموم الكونتيسة "أحياناً لا أفهم ماري - أنجيليك" - همُّها أنا، وليس ولداها اللذان يخطوان خطواتهما الأولى في الحياة. وأما كلودين فقد نسيتهما تماماً. ألسنا أسرة واحدة عليها تقاسم أحزان كل فرد منها وأفراحه؟ وإلا حلّ بنا ما كانت جدتي تقوله "إن لم يكن في الأسرة من يجبر كسرهما تصدّعت". ليست ماري - أنجيليك بعيدة عن التفكير في هذه المسألة، غير أنها تبحث في كل أمر تبعاً لفائدتها. ومع ذلك لا تستطيع كتمانها... أقول هذا ولكنها لاتأتي على ذكر أختها حين أنجبت صبياً فسلمته لملجأ الأيتام. أنا تعرض عليّ اقتراحات كثيرة لإسعادي في مستقبلي، ولكنها تغير قرارها بسرعة في أيدي الذي لا تريده، ظلت تقول: شفالييه غني وجميل ومتقف؛ فكيف ترميني الآن إلى أورليان؟ هذا ما لا أفهمه. ماذا تنوي لي؟ أتريد

تزويجي من إيدي لإبعادي من آل فيريول؟ لولا مرض بابا ربما كنت فعلت هذا دون تدخُّلك. أعرف ما تريدون: إيداع بابا المشفى. لن أدعكم تفعلون هذا ولو لم يبق غيري. أعندي إمكانية لهذا؟ ولماذا ليس لي؟ ألسنت ابنته؟ نعم، نعم، أفهم. ممسككم عليه هو تصرفه معي ورغبته فيّ. وأنت يا ماري - أنجيليك ما فعلته لأجلي ليس أقل مما فعل بابا إن لم يكن أكثر. لا تظني أنني نسيت أو سأنسى. لا تدعيني أستعجل في قراراتي. يُحيل إليّ أن جذري متأصل في آل فيريول وإن لم يكن دمي من دمهم"

- أيسيه، هل أحزنتك في شيء؟ أراك لا تقولين شيئاً! - أجفلها كلام ماري - أنجيليك.

- لا - وعائشة خرجت من أفكارها - أأنزعج إن قلت ما سيكون عليه مصيري؟ - ثم حسمت الموضوع بحقيقة ما في قلبها: - لا أريد الكلام في شأن مشفى بابا. لتتكلم في موضوع آخر!

- لا أعرف فيم ستركلم إن كنت تتكلمين جازمة هكذا. - من أجل أن تخفي انكسار صوتها غيرت ماري - أنجيليك حديثها بما في قلبها من حرارة نحو أخي زوجها، - نحن ملهوفون على الكونت لأننا جميعنا صرنا في مأزق ثقيل وإلا ما كان لنا أن نخوض في شأنه. كم كان مخلصاً في عمله لبلاده! باريس كلها مهمومة بمرضه. وأورليان الوصي لا ينفك يطمئن عليه _ لا تصرفي نظرك يا أيسيه _ وكلفك الدكتور جان - باتيست إبلاغه بمقدار عتبنا عليه حين دعانا إلى باليه رويال ولم يسأل عن الكونت. وأرسل إليك يعتذر بأنه سها عن الأمر فحسب.

- وكأننا نتوسل إليه! - جعل الحديث المزعج عائشة ترفع رأسها فجأة _ كان يجب ألا تبلغيه هذا الكلام.

- ولماذا نتوسل إليه؟ - بادلت الكونتيسة عائشة العتاب متناسية رياءها.
- ذكرنا أورليان الوصي بأهمية شخص الكونت لفرنسا. سأقول لك يا أيسيه ماهو أعجب، ولم أقله لغيرك: أورليان يجهز نفسه للاطمئنان على الكونت.
- ما أحوَجنا إليه! - غيرت عائشة نبرتها متظاهرة بأنها ندمت على كلامها المنفعل - لا أعرف، إن كانت زيارته ستفيد بابا فليأت... متى سيأتي؟ - وسألت بسرعة.

- هذا ما لا أعرفه، لا أكتملك شيئاً. أنت الوحيدة التي بقيت لي موضع ثقة. كلودين لا أعرف ما جرى لها. نسيث إن كنتُ ما أزال حية. وابنائي ماذا تأمل منهما؟ لا يعيان نفسيهما من شدة الغرام. لماذا تضحكين يا أيسيه؟ أجاني الحقيقة في ولديّ الخالين من العطف على الأم؟ عندما تصبحين أمّاً تجرّبين هذه الحالة. لا أشكو، الله سيتفهمني. بعدما جاءني بك الله لم أعد أغبط أحداً. لأنّي أخاف أن يُعبدوك عني، أو يتصرفوا معك على نحو غير لائق بك، أحرص عليك وأقلق. ستكونين محظوظة إن أطعني، وستجمعين ثروة، وسيكون عندك كثير من الذهب. - وبعد انقطاع قصير مزحت معها - وستزودينا بما نحتاج إليه من أمور بسيطة في شيخوختنا.

- صحيح، ولكن يا ماري - أنجيليك يا ماما هذا الرجل الذي تريدان تزويجي منه إيدي لن نحصل منه على الكثير. - ردت عائشة على الكونتيسة بالمزاح وهي تريد أن تسمع حقيقة ما في قلبها. - ليس غنياً جداً.

- ومن قال هذا؟ - سألت ماري - أنجيليك غير مصدّقة تلميح عائشة - أياكون ابن الفيسكونت وماري دو سان - أولير فقيراً؟ لا أجاني الحقيقة إن قلت إن كل مدينة بيرغور مُلكهم. لا تدّعي أحداً يسمع أنهم فقراء يضحكوا عليك! أهو من قال لك هذا أم تتصورين؟

- لأنه لا فقير ولا غني في الحب!

- هل أحببت شغالييه من أول نظرة؟ - نظرت الكونتيسة نظرة مرآية خبيثة في وجه عائشة، ثم عادت وامتدحتها: - أنتِ لا تعرفين؛ جمالك وجاذبيتك ستأتيانك بمزيد من الخطاب. ليس الباحثون عن الزواج فحسب بل كثير من المتزوجين سيجرون وراءك بعدما دوختهم.

- "هؤلاء الذي داخوا" ألن يكون بينهم كثير من النادمين؟ - مزحت عائشة مع الكونتيسة بصوت يتناسب ومزاحها.

- هذا بديهي. - سألت ماري- أنجيليك بعدما فهمت أصل السؤال، مقتنعة بأنها وجدت الطريق لقول ما تريد: - ما الأمر؟

- لا أعرف - أمتقع وجه عائشة ثم عادت إلى الوعي في لحظتها: - لأني أتعجب مما قلت.

- لو عشت ما عشت أنا لسمعت أعجب منه. الحب يحتاج إلى قلب وروح كائناً من كان الشخص الذي أحببت أو أحبك، والذي جرى وراءك أو جرى. فإذا كان عندك معهما عقلٌ تحقّق كل شيء تريدينه. ما الأمر؟ أليس صحيحاً؟ أنا أقول ما فيه فائدة لها، وهي تضحك.

- لا يا ماري - أنجيليك، يا ماما، لا تظني أنني أضحك من كلامك. بل لأنك ذكرتي بما كانت تقوله جدتي.

- الله يعلم ما ستقولين الآن... - قلقت ماري- أنجيليك ومع ذلك ظلت تنظر بعين ودود إلى عائشة.

- سأروي ما سمعته وليس لنا شأن به، لا أنا ولا أنت. ولكن من يعرف قد ينطبق علينا بصفتنا بشراً "لا تجر وراء الريح - لن تستطيع الإمساك بها، ولا تلحق ظلّك - لن تسبقه"

"اسمع ماذا تقول هذه! - صرخت ماري - أنجيليك لنفسها - أنا أريها للحياة، وأدريها على كسب مودة الناس وحبهم، وهي تربييني بكلام جدتها. أهي تلمح لي بشي أم تتهمني خفية؟ الأرجح الاثنان معاً. الشراكسة عرق بشري عجيب ولكننا لا نعرف. ألا ترى هذه كيف تتصرف أمامي بقوام ممشوق تحرص عليه؟ ثم إني لا أعرفها اليوم ولا البارحة، بل منذ طفولتها، بل لم أر لما بلغت سن النضج في طريقة كلامها ولا أكلها ولاضحكتها ولا مشيتها، ولا تفكيرها ما لا يتفق مع طريقة حياتها . وليس هذا فحسب بل إن لها موقفها الخاص من الحب الممتلئ بالسعادة والشقاء. أهي وحدها أم كل أفراد قومها بهذه الصفات؟ أترى كيف تقوم احتراماً للكبيرة وللصغيرة؟ ومع ذلك تألفت مع نمط الحياة الفرنسية ولم تميّز نفسها دون أن تبالي في المحافظة على تقاليد قومها. ما أسعدها، امرأة تُعَبِّط على كل شيء. ولكن... كفى هذه الـ "لكن"، أنا أظن أحتاط بهذه الكلمة..." مع أن ماري - أنجيليك عنفت نفسها فقد توجهت إلى عائشة سعيدة بها:

- كفاك يا أيسيه! تظلين تختزعين موضوعات للتفكير... أين تعلمت كل هذا؟ أحياناً تخيفيني، تبعثين فيّ الرعب من المجهول... كانت عندك جدة حكيمة. خرجت من عرق عجيب من البشر لا نعرف أصلهم ولا تاريخهم. ومع ذلك لا يفيدك أن تكوني امرأة حكيمة جداً. النساء الحكيمات، وأنا أعرف هذا من تجربتي، غير محبوبات من الرجال.

- بليز - ماري دو إيدي شفالبيه ليس من هؤلاء الرجال.

- ربما لأنكما في مأزق في قضية الزواج. - قالت الكونتيسة بنبرة ليس في ظاهرها لؤم، كأنها تريد أن تُفهمها ما لا تفهمه.

- ليس هذا الاحتمال مستبعداً. - ابتسمت عائشة بطريقة لا تعرف منها إن كان الكلام الذي يدور حولها يزعجها أم لا - ولكن قد يكون قولهم "المُرُ يصبح حلواً مع الحبيب" صحيحاً.

- لم أسمع في موضوع الحب كلاماً أصدق من هذا - يا أيسيه تشكين أحياناً من أنك تنسين لغتك الشركسية، غير أن كلام الحكمة الذي يقطر من فمك لا حدود له.

- ولكن يا ماري - أنجيليك، يا ماما، أقول هذه الحكمة بالفرنسية لا بالشركسية. - أجابت عائشة باختصار، غير أنها تنهدت ثم خصّت بصوت حزين كلامها: - مهما غيّرت في لغة الإنسان ولباسه، ومهما دجنه في الناس الذين كُتب له أن يعيش بينهم يبقَ شيء من أصله. هذه من حِكَم جدي أيضاً.

- نعم، نعم يا أيسيه، أنت محظوظة من الله. كانت عندك جدة حكيمة. ساحيني يا ابنتي. لم أقصد أن أخرج قلبك... "المُرُ مع الحبيب يصبح حلواً" لا قدر الله. لا أريد أن أدخل بينك وبين دو إيدي. كنت قلت لك، والآن أكرر: الفتاة عادة ما تستشير أمها حين تفكر بالزواج، فإن اعتبرني أمك، دون التفات إلى الكونت المريض، قلت لك في شأن بليز - ماري دو إيدي إذا كنت تحببته هكذا فيالحسن حظك! ومع السلامة! ولكن يا أيسيه، ليس الآن، ولكن بعد الزيارة المرتقبة من أورليان الوصي إلى الكونت شارل دو فيريول.

- متى سيأتي؟ - توجست عائشة مجدداً شراً - لا ضرورة أن يعرف بابا حالاً؛ سيصبح همّاً عليه فيقلق.

- نحن من نحدد موعد زيارته - "سأظل أناور معها في الحديث، وأستميل قلبها وأشتريه، حتى تنفذ لي ما أريد" امتدحت ماري - أنجيليك نفسها وهي

تردد هذا الكلام، وهنأت نفسها، وفيما تنصح من تعتقد أنها رضخت أضافت: - ولكن يا أيسيه سأرجو منك شيئاً لم أرجه في حياتي: إن كنت تتذكرين، لا تتصرفي مع أورليان هنا بالبرادة التي تصرفت معه في باليه رويال. الحياة صعبة، عسيرة الفهم. من يعرف كيف سنحتاجه؟... أنتِ تعرفين من دون أن أقول لك. لا أظن استقبال الضيف ليس في أصل طبعك. - "المرائي عيناه مغروقتان دائماً" أسرع ماري - أنجيليك شاهدة على صحة هذه الحكمة إلى عينيها بمنديل صغير جداً، امتدحت عائشة وأرضتها - وأما ما رجوتني فيه فلماذا نبادر الكونت به؟ سنجعله مفاجأة سعيدة له.

الظاهر أنه لم تكفِ المشكلات التي مرت بها عائشة في السنتين أو الثلاث الأخيرات حتى انتصبت أمامها مشكلات جديدة تبلبل أفكارها. "إن كان في زيارة أورليان إلينا فائدة لبابا فأهلاً به. ولكني لست ممن يقال فيه: لا يفهم قيمة الفرح من لم يُعانِ الشقاء؛ لا ينظرُ إليّ أحد بمثل هذه العين! لست مغفلة حتى لا أدرك نوايا الكونتيسة. إن كانت تتودد إليّ لتستفيد من إيجاد مخرج من مشكلتي فستندم يوماً من الأيام وتنقلب عليها. ولكن سأحميها من سوء العاقبة بنفسِي كُرمي لِمَا قدَّمته لي في صغري"

مهما كانت وساوس عائشة تُثقلها فقد أجابت وهي تبسّم للكونتيسة، مملّحة لها أنها لن تقبل تماماً بما تترجأها به:

- ارتاحي يا ماري- أنجيليك، يا ماما، من هذه الناحية. ولكن إن كانت نية الضيف سليمة فلن نجعله يندم على زيارته، فهو فوق الجميع.

- نعم، من سيزورنا ضيف كبير، وإنسان خطير؛ أتظنّينه يطرق بيت أيّ كان؟

- والكونت الذي سيأتي إليه ليس إنساناً قليل الشأن - قالت عائشة ما في قلبها وإن بدا أنها تؤيد كلام الكونتيسة - ما قام به بابا في خدمة فرنسا لا نتطرق إلى ذكره لأننا نعرفه، عمل جليل سيدخل التاريخ.

- نعم يا أيسيه، نعم - "اسمعي إلى أين وصلت الآن بأفكارها! رغم معرفتها بالعمل الشائن الذي قام به أمامنا هذا الأفاق" أيدت ماري - أنجيليك عائشة ولو أنها استغربت ما قالته آمله أن تحقق ما تريده بالمديح - ما كنت أريد أن أحملك على الافتخار ولكن سأقول لك: ما أطيبك وما أرحمك يا أيسيه! وما أسعدك من عند الله. كلما استمعت إليك زرعتي رقة الخير، وجعلتني أنظر إلى الدنيا بعين أخرى. نعم يا شارلوت - إليزابيت أيسيه لو لم يكن أبوك الكونت مريضاً، لا تعبئي بما أقول في ساعات غضبي بحق الكونت، لكان اسمه، بعد جلالة الملك، في كل المحافل الدولية يقوم بالمهام الجليلة. - لم تكن مهامه الخارجية لتتقص. كان مرشحاً لتولي منصب الوزير الأول.

كان ما يُثقل على عائشة شيئاً آخر وإن كانت تهز رأسها مع الكونتيسة المرائية: هذا الذي ستأتين به إليّ، كما كانت جدتي تقول: أ يحمل إلينا خزانة ذهب أم يجد عندنا ما ليس لنا؟ ليأت! ولكن لن يتحقق لكم ما تحفونه عني. وسيعود كما جاء بحُفّي حنين. من أحبه أنا رجل واحد لا أساوي به أحداً في العالم. وأنتم كيف لكم أن تعرفوا هذا، أن تفهموه؟ ولكن أسوأ ما أعانيه الآن هو سلوك بابا معي: يندم على ما قال لي فيما مضى، وعلى ما حاول فعله، ويعيدي ألا يتكرر، ولكنه ينظر إليّ نظرة اشتها! ماذا أفعل إن أنا بقيت أتذرع بمرض بابا، وأغفر له ثم هجم عليّ كما تقول صوفي "هذا لا يتورع عن شيء، ماذا إن دمر حياتك؟ هذا العار الذي لا أريده لأحد ممن أحب ولا أحب، إن ألحقه بي فلن أتحمله، لن أنقبله..."

- كل شيء سيجري على نحو حسنٍ يا أيسيه - قالت ماري- أنجيليك كأنها لامست ما يهمّ عائشة - سينتقل خبر زيارة أورليان، دون قوائم، مُسعداً من يحبّنا، مُغمّماً من يكرهنا، فيملاً باريس بكاملها. هذه الزيارة سترفع من شأن آل فيريول. وحين يعود عمك الكونت أوغستين - أنطوان إلى باريس لن يبقى عاطلاً عن العمل. وجانيت - نيكول عشيقة أخينا بيير غيرين دو تانسيون ستفيده في الحصول على وظيفة المطرانية. وأخوالك؟ وهذان في بداية معترك الحياة. هل يؤمك رأسك يا أيسيه؟ لماذا شحب لونك؟

- لا، قالت عائشة وهي تخفي عدم رضاها بكل ما سمعت - لا صداع؛ ربما لم أتم الليلة جيداً.

- وكيف تنامين وأنت تُفنين نفسك لا همّ لك إلا الكونت... تقومين بعمل جماعة ديستان العاطلين. ننفق عليهم المال دون فائدة. اذهبي واستريحي قيلولة الظهر على عادة الكونتيسات. وأنا؟ وأنا تعبت حتى كلّت قدمي عن حملي. لا تهتمي بالكونت؛ سأوصي جماعة ديستان به.

VIII

عائشة على النافذة، لم يخطر لها النوم أو الاستراحة كأن قولهم "الغمّ في القلب يذهب بالصوت، والعين تبكي مع القلب" مستمدّ من حالتها. تغادرها كأن أحداً ناداها، ثم تعود إليها. وقلبها مثل أيام الربيع غير الباردة وغير الحارة: السحب المائلة إلى السواد تترنح في السماء قلقة. — تتبدد فيها وتعود تلتئم. والمزقة الرقيقة منها حائرة لا تعرف أين تتجه. وحين تجتمع قطرات المطر المتفرقة التي تفرع النافذة تنحدر من الزجاج بخطوط متعرجة رفيعة. ووجه عائشة الساكن له هذا المظهر. القلب الضائق بحاله يبكي والدموع تنفّس عن ضيقه.

مرت أمام عائشة تفاصيل حياتها من أيام طفولتها إلى اليوم. لا تتذكر أنها فعلت ما يسيء إلى أحد إن لم يسيء إليها غيرها. "ربما أسأت إلى أحد من قصور تفكيري — قالت عائشة لنفسها — ولكن لا أتذكر أنني فعلت أو قلت ما لا يليق ردّ فعلٍ على مصيبي. ألأني اقتنعت ببؤسي عشت حياتي هكذا كما كانت جدتي تقول "الفقير يكتفي بما يُحمّل إليه". ما يمدني بالحياة هو شرعة قومي التي أنساها يوماً بعد يوم. ما غرسته هذه الشرعة فيّ، وربّني عليه من اعتزاز بالذات واحترام للنفس وتهذيب في السلوك والتدبير وإنسانية العلاقات فوق الجميع عندي. ولكن أأستسلم للعار الذي سيوصم به جبيني وأنا أقول إني أعيش بـ "أديغيتي" ولن أضيعها فاحتميت بها وافتخرت؟ — تذكرت عائشة من جديد سلوك الكونت معها. — ما العمل؟ وما مخرجي؟ تقول لي جانبيت — نيكول: تعالي إليّ، تعيشين كما أعيش، وإلى حينها سيُحلّ موضوعكما أنت وإيدي" إن فعلت هذا فسيقولون: هجرت الكونت الذي رباها حين مرض، وبحث عن مصلحتها الشخصية، وستلوكني السنة من يعرفوني ومن لا يعرفون، ويُلحقون بي العار. كيف أحمي نفسي وشرفي إذن؟ أأسمعيني يا جدتي الطيبة؟

كيف سأتصرف؟ اغفري لي يا أمي أنا أعرف المخرج الذي سينتهي به الموضوع، غير أنني لا أعرف هذا الحل غير المشرف. ولكن أهنأ بين المحبين ما يمسكه أحدهما عن الآخر بحجة الشرف؟ نعم. ولكن في حال الضرورة؟ لا، لا هذا عار. يجب أن أبعده عن ذهني.

ومع أن عائشة في خضم هذه الأفكار المتلاطمة، ومع أن الكونت الذي لم ينزل لتناول الغداء حُل إليه طعامه، فهي تشفق عليه، وتقلق من أجل دوائه وإن كانت تعرف أنه تناوله في حينه. وتهتم لعدم استدعائها في نصف النهار الماضي. ولا تعرف لماذا حبس نفسه في غرفته. وإن فكرت في الاطمئنان عليه خافت أن تدخل وحدها إليه.

- يا صوفي، أين كنتِ إلى الآن؟ - لامت عائشة صوفي حالما دخلت الغرفة.

- كنت مشغولة بالماء الذي سيستحم به الكونت.

- ألم يعد في هذا البيت الكبير من يفعل هذا غيرك؟ - احتدّت عائشة وسألت عما في ذهنها: ما أخبار بابا.

- وماذا سيكون خبره؟! ربما اقتربت نوبته، يهذي، لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل. يعتني بزنته في غير يوم حمامه. سأل عنك وهو يخلط بين أسمائنا.

- هذا يعني أنه لم يشرب اليوم مهدئاً. - نهضت عائشة بسرعة والقلق بادٍ على وجهها - أين دواؤه؟

- ارتاحي يا شارلوت - إليزابيث أيسيه - نصحت صوفي عائشة مشفقة عليها. بقيت تلهفين حتى لم يبق عندك قلب. لاروش وديستان سقيه دواءه.

- وهل رأيت أنت؟

- رأيت يا أيسيه، رأيت.

- ليس هذا حسناً يا صوفي، ليس حسناً - أخذت عائشة دواءه القريب منها
- لنذهب ونره! - إما أنهم سقوه جرعة مضاعفة أو رفض تناؤله.
- إن كنت تودين الاطمئنان عليه نذهب - قالت صوفي دون رغبة، ثم غيّرت:
- وإن قلت لا، سألتُ ديستان.
- لا، سنذهب. - جزمت عائشة، واستدركت: - لم أر بابا طوال النهار، ربما
يعاتبني.

حين دخلت عائشة وصوفي الغرفة كان شارل دو فيريول جالساً بأهْي خُلّة،
مسترخياً على الأريكة الوثيرة، يهوّي لنفسه بمروحة نسائية ملونة جميلة. وأمامه
على الكرسي الوطيء زجاجة نبيذ "بورغوند" الأحمر غير مفتوحة، والقدحان
الفارغان بجانبها، وقطعتا شوكولا. وخليط من العنب والإجاص والتفاح.
ظنت عائشة أن الكونت ينتظر لولو فسألت غاضبة الرجل الجالس في دلال
وتيه:

- من تنتظر بهذه الأناقة؟

- أنت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه - نهض الكونت شارل دو فيريول، وحيّا
عائشة بإيماءة رأس دون اعتبار لحضور صوفي. - تفضلي، أنتظرك. المساء
سيكون زفافنا أنت وأنا. ألا يكفي يا حلوتي صبري كل هذه السنين؟ وفي
الأسبوع القادم سنحتفل في الكنيسة.

- بابا!... - صرخت عائشة مما سمعت دون وعيها - أيّ عيب تقول؟!
- اليوم، من هذه الدقيقة لا تناديني باسم بابا! - لم ينفُت صوت الكونت. -
بإذن الله ومعرفته سأكون أنا الكونت شارل دو فيريول زوجك. أترين هذه
العصا الفضية؟ - سأل الكونت والدم قد غطى عينيه، ثم ابتسم: - إن أردت
كسرُها وإن أردتُ دللتها، إن لم تسمعي كلامي فعلت بك ما أفعل بالعصا.

أتفهمين؟ - صرخ الكونت بصوت أشد إرعاباً وراء عائشة التي كانت تخرج من الغرفة غيرَ قادرة على الإجابة: ارجعي! إن لم تفعلني أمرُهم أن يأتوني بك الليلة بالقوة.

حين وصل ديستان على وقع صراخ الكونت التقى بعائشة التي أمرته دون أن تتوقف:

- لم نستطع السيطرة على بابا. هدّئوه! خذ هذا الدواء وضاعفوا له الجرعة. لا تتذكر عائشة الكونت بمثل هذا الوجه المحمّر الملهب. دخلت الغرفة الأخرى دون أن تقول شيئاً وغيّرت ملابسها. وتعطرت دون مبالغة. ثم عانقت صوفي التي امتّقع لونها مما رأت وقالت لها:

- إن سأل عني أحد فأنا في المسرح. أمّا لك فلا سرّ أخفيه عنك: أنا عند إيدي. - انفجرت باكية - لا تقلقي، سأعود.

الكتاب السادس

I

طريقة هطول المطر، وطريقة هبوب الهواء، وطريقة سقوط الثلج مثل حياة الإنسان. إن وافقتْها اندمجت فيها؛ وإلا سقطت من بينهم. وحين يبقى الإنسان دون أي انتماء ودون أي أقرباء ينقطع عن التفكير. والفكر ضالة دائمة، وانتصار دائم، والفرح والحزن أعلى مراتب الفهم. والفرح ممزوج بالحزن، والانتصار يحمل معه الحزن. وكلُّها مجتمعة هي فهم الإنسان وذاكرته. وحياته المشقّة — السعادة أعلاها جميعاً. ومن عنده القدرة يرقى ومن ليس عنده يطمح.

حين لا تملك حريتك، تألفت عائشة مع الفرنسيين لأنها فهمت من اليوم الأول أن عليها الامتثال لواقعها والذوبان في المجتمع الجديد شاءت أم أبت. ورغم أنها اعتادت على ما لا يقبله عقلها فإن قوميتها التي في دمها واحترامها لنفسها ولشرفها كانت تغلبها.

إذن كيف ستسوِّغ لعائشة ما جرى لها الآن؟ أهو عدم احترام لنفسها أم أطاعت أمر القلب؟ الأفضل ألا تُنحي باللائمة على الحب وإن اختلفت تقويمات ما جرى — ستجني الإثم من حلوها ومرّها... "لا أندم على ما فعلت وإن كنت أخجل منه. — قالت لنفسها عائشة التي لم تخرج طوال النهار من غرفتها — ولكن لو لم أجد نفسي في موقع الضرورة لربما كنت قاومت ضعف الأنوثة" — انفجرت ثانية بفعل حزنها الممزوج بضيقها ولكن دموعها نَفِدت. وفي اللحظة نفسها أعادها صوت الباب إلى وعيها واستقبلت زائرِها بفرح:

- تفضّلاً، ادخلا، بون دو فيل وأرجنتال!

- جنّناك يا أيّسيه لأننا سمعنا أنك متوعكة ولم نرك منذ البارحة. - قال بون دو فيل وعانقها. وفعل أرجنتال ما فعل أخوه- كيف حالك؟ - أنتِ شاحبة وكئيبة. كفاك، لا تفني نفسك إلى هذا الحد! كل شيء سيصير أفضل.

- نعم، نعم يا أيّسيه، كل شيء سيتحسن. وافق أرجنتال أخاه الكبير، وقال ما لم يكن بون دو فيل يريد قوله: قبل قليل تكلمنا مع الكونت، ووعدنا ألا يسيء إليك مرة أخرى.

- هذا ما تريدان قوله... - مع أن عائشة فهمت الآن ما لم تفهمه قبل من "كل شيء سيتحسن" فقد نصحتهما قائلة: "إن كان هكذا فلا مشكلة" - ما كان عليكما وأنتما تعرفان مرض بابا أن تهيناه، أنا لا ألومه، ما أحزني أكثر هو خبر فرنسوا فولتير. سبّب لنفسه النفي بعدما حدّرناه من عواقب أشعاره وحكاياته الداعية للحرية.

- خير للمرء أن يعيش في لندن من أن يعيش في سجن الباستيل. - قال بون دو فيل - سيكتب الآن براحة أكبر وسيعمل مع كتاباته.

- هذا صحيح. - تنهدت عائشة - ولكن بلاد الغربة لن تكون مثل وطنك. استطاع أورليان مجدداً أن يُقنع الملك الشاب بشأن فولتير. وأنتما احذرا. لا تقولوا ما هو خارج الحدود كما ألحّ عليكما بابا. وجولي كالاندرين تبلغكما الكلام نفسه، مع تحياتها.

- اشكري جولي باسمنا. ولتطمئن! ابتسم بون دو فيل - وأنت أيضاً يا أيّسيه. تعرفين أننا لا ننتمي إلى مثل هذه الأوساط. الناس الذين فعلوا بفولتير ما فعلوا، بمن فيهم أورليان والملك، لا أويدهم. هؤلاء يهتمون بتحرير المرأة من الأخلاق، لا بالحرية.

- تقول شيئاً آخر يابون دو فيل وأنت تردد "لسنا من هذه الأوساط" -
أضاف أرجنتال بعدما نظر إلى أخيه نظرة ودّ: - لا أعرف لماذا سيزورنا أورليان
الذي لم يعد وصياً.

لأول مرة ارتسم على وجه عائشة مشروع ضحكة:

- لا تظن أن أورليان انتهى من الوصاية على الملك ولو أنهم زوجه ولم يتجاوز
السادسة عشرة. لا تضحك يا جان، فهمت ما تريد قوله: ليس من أجلي
سيأتي بل لزيارة أبي المريض.

- وهذا ما قالته لنا ماما - ابتسم بون دو فيل ثانية - غير أنني لا أصدّق أن له
نوايا حسنة نحونا.

- ما الأمر؟ جعلت الريبة التي هاجمت أرجنتال رأسه ينتفض. ثم احمرت
وجنتاه، وأجاب: - لم تقتنع ماما حين قلت لها، ولكنه سيأتي من أجلك يا
أيسيه بذريعة الكونت. انظر إلى هذا المرائي ماذا يخطر له، ألا يكفي أنه فرق
بيني وبين أدريين؟

- طالما قلت لك إن لأكوفير أدريين الفنانة لن تُخلص لك؛ فهل تعلمت
الحكمة الآن مما فعلته بك؟ - ردّ بون دو فيل الصاع لأخيه وكأنه كان ينتظر
هذه الفرصة.

- لا ذنب لأدريين - قال أرجنتال بصوت منكسر، ثم أتبع بصوت جاف: -
كل الذنب ذنب أورليان. خدعها بأن فتح لها باليه رويال لتغني، وطمرها
بالذهب.

- أيها الكونت أرجنتال دو فيريول كُفّ عن هذه الصبيانية! - نهر بون دو
فيل أخاه شاعراً بالإهانة مما سمع.

- أنت، أنت، يا بون...

- كفى، توقفنا عن الشجار - خافت عائشة ومنعت أرجنتال مما بدأه - دعونا نثق ببعضنا، ولا نتكلم في ما لا فائدة فيه. مهما قلنا أو فعلنا، صدقاً أو كذباً، فالناس سيحكمون علينا ما دمنا أحياء. والآن لي عندكما رجاء: لنذهب إلى آل بولينغبروك. أنتم لا أعرف، لكن أنا منذ مدة طويلة لم ألتق بهنري سان - جون وماري - كليز دو شان. التقى بهما إيدي شفالييه في باريس قبل أيام. وسألاً عنكما وعني. وعلى كلامهما سيقيمان أسبوعين آخرين في المدينة.

نظر بون دو فيل إلى أخيه كأنه يطلب منه الموافقة، ثم قال كأنه يستغرب الخبر: - كيف عرفت يا أيسيه ما في قلبينا؟ كنا ننوي أن نقترح الأمر نفسه.

- نعم يا بون دو فيل، متى قالت أختنا إنها جاهزة فنحن جاهزان.

حتى لو لم تكن عائشة ترتاب في الأمر الذي وافقها عليه أخاها فقد ألفت على بون دو فيل وأرجنتال نظرة حب ومزحت معهما:

- أعبثاً أنا أختكما الكبيرة فلا أعرف ما في قلبكما؟ كان الشراكسة الذين خرجت منهم يقولون في مثل هذا: "القلب والروح يعرف أحدهما الآخر" يا أخويّ الطيبين، وأنا جاهزة - تبادل الثلاثة نظرات مودة، وحين جهزت عائشة نفسها للزيارة الطارئة قالت لرفيقيها: إذن دعونا نخبر بابا بمقصدنا، وإلا عتب علينا.

- كفى يا أيسيه! - لم يسكت أرجنتال على المشروع المقترح. - أنت فتاة صغيرة تفضلي تستشيرين في أمورك الخاصة؟! أنا سأخبره الآن.

- لا يا جان، الأفضل أن ندخل ثلاثتنا إليه.

الكونت شارل دو فيريول جالس على مقعد مريح وعيناه مسمرتان إلى النافذة. ولم يبق له ما كان يفتخر به أيام الشباب: القامة المنتصبة. الآن هو سمين شبه أحذب. ورقبته متهدلة. واللعاب يسيل من شديقه. والجلباب الساقط من كتفيه

المتهدلتين على ظهره مجدداً. وجورياه ارتخيا إلى العقبين. وشعره الأبيض الذي كان مرجحاً دائماً تشعث.

- يا بابا أعرفتنا؟ - تألم قلب عائشة للإهمال الذي لم يره يوماً على الكونت، ولامته: - ماذا جرى لك؟ لم تكن يوماً بمثل هذه الفوضى.

- هؤلاء أنتم؟ نظر إليهم الكونت بفطور، ثم قال مبتسماً: - هل أنتم راجعون من الحفلة التنكرية بزيتكم؟ - وأنت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ألم يخبروني أنك سافرت إلى جولي كالاندرين في جنيف؟

- لم أسافر إلى أي مكان يا بابا - مسحت عائشة وهي تبكي فم الكونت بمنديل صغير، وشدت جواربه إلى الأعلى، وأصلحت وضع جلبابه، ومشطت له شعره. - أين ديستان؟ لماذا يا ديستان؟ أليست العناية بابا مهمتك؟ أم تنتظري؟

- لا يا آنسة شارلوت - إليزابيت أيسيه ليس الموضوع أني نسيت مهمتي غير أن الكونت لا يقبل مني أي خدمة. من البارحة لم يذق إلا الماء.

- لا تلومي ديستان يا أيسيه؛ ليس إنساناً سيئاً إلا أنه لا يصلي معي.

- بابا يا روحي. أما آن الأوان لتنسى "تركيتك"؟ أنت فرنسي حقيقي!

- نعم يا أيسيه، نعم. أنت وأنا فرنسيان حقيقيان. سأطيعك ولن أسيء إليك. وسأسمع ديستان، وإن أطعتموني أكلت. واسقوني شيئاً من النبيذ. والآن، إن لم يكن الأمر سراً، أخبروني لماذا تأنقتم. مهلاً يا أرجنتال، لست من أسأله.

- اللورد هنري سان - جورج واللوردة ماري - كليز دو شان في زيارة لباريس؛ كنا نود زيارتهما. وحسب الظرف الآن يمكن تأجيل الزيارة إلى الغد أو بعده. قالت عائشة.

تبادل بون دو فيل وأرجنتال النظرات غير عارفين كيف يفسران التغير في البرنامج. غير أن الكونت لم يدع مجالاً لأي من الأخوين للكلام:

- لماذا تؤجلون زيارتكم للورد بولينغبروك إلى يوم آخر، حالاً! إذا قارناً للورد بولينغبروك بمن استلم السلطة في إنجلترا حول بول ذي الرأس الخفيف المغرور فاللورد هنري سان - جون بولينغبروك هو من أرسى معاهدة أوترخت¹، وهو أحد رجالات الإنجليز المعدودين. بلغوه تحياتي. وإن شاء مقابلتي فأنا جاهز، سأساعده في مهماته. - قال الكونت، وزفر عميقاً، وبعد قليل أضاف إلى ما يحزنه: - هذا ما يحدث حين لا يعود أحد يحتاجك... ولكن - أنهى كلامه بقبضتين مضمومتين - أمثال الكونت شارل دو فيريول لا يبيعون أنفسهم. هل فهمتم يا أخوي آل فيريول؟ وأنت أيضاً يا شارلوت - إليزابيت أيسيه. امضوا حيث قررتم. أنا مسرور لاستشارتكم إياي. ولا تقلقوا! نحن ديستان وأنا، سنتكلم في مواضيع فلسفية. فقد ظهر في باريس رجل مهووس، فاحرصوا على أنفسكم. - قال في إثر الخارجين من الغرفة.

وكما قال الكونت شارل دو فيريول فاللورد هنري سان - جون بولينغبروك أحد كبار الدولة الإنجليزية. وهو فيلسوف ومؤرخ ومثقف كبير في حدود الخامسة والأربعين. طاف أوروبا كلها خلال ثلاث سنوات، ويعرف كثيراً من اللغات. وفي عام 1701 صار عضواً في مجلس العموم، وفي السنوات التالية كان رئيسه

¹ معاهدة استمرت المفاوضات لأجلها سنتين 1712 - 1713 إثر حرب بين فرنسا من جهة وتحالف من بريطانيا والنمسا وبروسيا وهولندا ودويلات أخرى بسبب نزاع على حكم إسبانيا، كانت بداية النهاية لفرنسا وبزوغ نجم بريطانيا التي كسبت المستعمرات الإسبانية. المترجم.

وعقله المدبر. وشغل منصب وزير الدفاع أربع سنوات، ثم كان سكرتير الدولة. وحين استلم جول بول السلطة لجأ إلى فرنسا ويعيش الآن في لاسورس، قريباً من مدينة أورليان. وله قصر فخم في باريس. وإلى هذا البيت ذهبت عائشة ورفيقاتها هذا المساء.

- آل بولينغبروك في البيت. - صاح أرجنتال حين رأى ضوءاً ينبعث من النافذة، ثم أصلح تعبيره: - أقول هذا لأني كنت أتوقع ألا نجدهم في البيت. وأين سيذهبون؟ هؤلاء ليسوا كوالدتنا الجواله.

- يا أرجنتال يا أخي الحبيب؛ كم مرة قلت لك ألا تتكلم على أمك بهذه الطريقة!

- أنتِ على حق يا أيسيه! - لام أرجنتال نفسه على عاداته - لن أعيده على مسمعك، وبون دو فيل شاهدي. قلت هذا دون قصد، لا لوم لي على ماما. ثم برأ نفسه مبتسماً: أليس حقاً يا بون دو فيل؟

- اسمع ما قيل لك! أنا لا أجيب على مثل هذه الأسئلة.

- حسناً حسناً. إن كنتما عاقلين هكذا فسأطيعكما.

استقبل آل بولينغبروك الضيوف بالأحضان. وسألوا عن حال شارل دو فيريول، وعن ماري- أنجيليك وأوغستين - أنطوان وكلودين - ألكسندرين، انتهاءً ببيير وصوفي. وفيما يتبادلان هذه الأسئلة همس بون دو فيل في أذن أرجنتال:

- غادرنا بحجة ما، واستقدم دو إيدي شفالبيه!

همس هنري سان - جورج بولينغبروك ذو الأذن الحادة بدوره في أذن الأخوين فيريول:

- لا تقلقا، نحن أيضاً بانتظاره.

ومن الغرفة المجاورة خرجت امرأة في حدود الخامسة أو السادسة والعشرين، ترتدي غطاء رأس أبيض رقيقاً، وثوباً أسود طويلاً، على صدرها صليب غير كبير. نهض بون دو فيل وأرجنتال وحييا السيدة واستقبلت عائشة السيدة التي لا تعرفها من قبل، والعاملة في شؤون الدين وعانقتها كأنها تعرفها طوال عمرها. قالت المركيزة ماري- كلير بولينغبروك:

- هذه ابنتي إيزابيل - لويزا لو فالوا دو فيليت. مسؤولة دير مدينة سانس. وسأقول لماذا يلحق باسمها "دو فيليت" هذا كان اسم أسرة زوجي الأول الماركيز فيليت. لنقل هذا أمر مضي. ابتسمت لزوجها - لن نتكلم فيه، وتوجهت إلى ابنتها إيزابيل لويزا: هؤلاء ذكرتهم لك كثيراً: هذه شارلوت - إيزابيت أيسيه ابنة الكونت شارل دو فيريول، وهذان الأخوان بون دو فيل وأرجنتال، كلاهما كونت. من لم أذكر اسمه بعد - نظرت ماري - كلير مرة أخرى نظرة مصطنعة إلى زوجها وأكملت: - ونحن، تعرفوننا منذ تركنا إنجلترا ولجأنا إلى فرنسا.

وفيما الضيوف والمضيفون يتبادلون الحديث أعلن الخادم للسيدة:

شاي العشاء جاهز أيتها المركيزة.

توقفت العربة التي سُمع صوئها على باب آل بولينغبروك. واللورد الذي كان ينتظر من سيخرج منها قال لنفسه وهو ينصت باتجاه الفناء:

- أظن أن ضيفاً كبيراً جاءنا.

أرسل الخادم اسم الضيف الداخل إلى الغرفة:

- بليز - ماري دو إيدي شفالبيه!

جفلت عائشة للاسم الذي سمعته فجأة، وتأملت الداخل مع شعور خفيّ بقرابة ما.

- ليسعدُ جمعُكم! - ألقى بليز - ماري دو إيدي شفالييه نظرةً وِدِّ صريحةً نحو الحبيبة التي لم يتوقع وجودها هنا. ثم بدأ بالتحيات من ماري - كلير المركيزة. وحين وصل إلى عائشة تمنع فيها وبشَّ لها، وقال بلهجة ناعمة:

- وأنت يا أيسيه هنا؟ لم أعرف!

حين يكون الجمع أصدقاء وأقرباء يطيب كل ما على المائدة. وحين يعقبُ الشاي المائدة يضيفي مزيداً من الحلاوة على الحديث. وموضوعات الحديث بين الجالسين على شاي العشاء تتنوع بتعاوُرهم عليها. ووصل الحديث إلى الإنجليز محاذرين الإساءة إلى آل بولينغبروك، وإلى أخبار فرنسا الداخل، وأخبار الخارج. وكلُّ عالج الموضوع من وجهة نظره. وأعرّب الجميع عن استنكارهم نفْي فولتير خارج البلاد. وحين تطرقوا إلى أساليب العيش في الدول المجاورة، إلى شفيسار وإلى جنيف، تدخل أرجنتال:

- شفيسار، ربما تعرفونها، تعيش فيها قريبتنا جولي كالاندرين المركيزة. وتقول إن كل شيء من علاقات الحب إلى أنماط المعيشة، من كل النواحي، أحسنُ فيها. أليس كذلك يا أيسيه؟ أنتِ زرتها.

دفع بون دو فيل أخاه الأصغر بمرفقه ممتعضاً من إبرازه موضوع الحب في حديثه:

- في فرنسا يُداسُ الحب، وفي شفيساره يُعزّونه. - أجابت إيزابيل - لويز التي لم تساهم في الحديث إلى الآن بدلاً من عائشة، ولم تتوقف عند هذا الحد: - الشخصان اللذان بدءا الحب الفاسق وعدم احترام الذات هما الملك لودفيغ الرابع عشر والدوق أورليان الوصي.

- يا إيزابيل! أسرعتي ماري - كلير.

- أفهمُ ما يقلقك يا ماما، ولكنك لست على حق.

ما أذكى العاملين في الدين، وما أشبه بعضهم ببعض! - قالت عائشة لنفسها وقد شخصت أمامها جانيت - نيكول التي لم ترها منذ شهر - أيمن أن تكون بين جانيت - نيكول وإيزابيل - صوفي - لويز معرفة؟ لا بد أن القائمين على الأديرة يعرف بعضهم بعضاً. ولا بد أن يبهر أيضاً من معارفها. أسألها؟ ليس الآن، لاحقاً..."

- أويديك يا إيزابيل - لويز - قال بليز - ماري دو إيدي شفالبيه الذي كان يشحب لونه، وهو يخصّ عائشة بنظرة تقول: إننا - الاثنين - لم نفعل ما يعيب - وهكذا يجب أن يكون حبنا للأوطان. والآن دعونا نتكلم في موضوع أكثر إمتاعاً. وعلى سبيل المثال موضوع المسرح الذي للكونت بون دو فيل والآنسة شارلوت - إليزابيت أيسيه معرفة حسنة فيه، والأوبرا، وما شابههما. ما الموضوع الذي تعملون فيه حالياً يا بون دو فيل؟

- وصل الأمر إلى أن نقول: توقف كتاب الدراما عندنا عن الكتابة. لا يرسلون إلينا نصوصاً ذات بال. المسرحيات الهزلية الخفيفة التي لا تعدو: أحبك، وأنا، وأخبار العشاق والمغامرين... باختصار: ملّ الناس من النصوص التافهة التي تدعو لعدم احترام الإنسان لشرفه وذاته.

- أتعرف من المسؤول يا بون دو فيل؟ - سألت إيزابيل - لويز ثانية، ودون انتظار الجواب من المسؤول أجابت: هو أورليان الذي يرخص لعرض النصوص الدرامية. نعم، يا ماما أقول الواقع، ولا أخترع من عندي شيئاً.

ابتسم الكونت بون دو فيل، وقال وهو يقارب كتفيه ويشير بيديه: ما كنت أريد قوله يا إيزابيل - لويز - قد قلته وانتهى. تقلقين دون فائدة يا ماركيزة ماري - كليز. لا أرى خطأ في أفكار إيزابيل - لويز. وهذا هو سبب إضراب

كتابنا المسرحيين عن الكتابة. وهو أيضاً سبب نفى فرنسوا ماري أروا فولتير من فرنسا.

- ليس من واجبي مناقشة الأمور السياسية لفرنسا التي التجأت إليها - قال اللورد سان - جورج بولينغبروك - ولكن الحق هو أنه لا شيء مستغرباً في مسار الأمور السياسية في فرنسا، وليست وحدها بل في إنكلترا أيضاً، كل دولة تضع نيزها الثقيل على رعاياها. أترون ما يحدث لنا شئنا أم أئينا؟ رجعنا إلى السياسة من جديد. السياسة مرضٌ عُضال. والإنسان المصاب بهذا المرض تصعب مداواته... لا أعرف إن شاهدتم أنتم - تغيّر كلام اللورد السريع - أنا أعجبتي أوبرا "بيرام وتيسبار"؛ من كتبها؟

- كتبها فرانكل وريبيل و لاسير. - قال الكونت أرجنتال مُظهرًا معرفته في فنون المسرح.

- ونحن، المركيزة كالاندرين وأنا، شاهدنا المسرحية. وأعجبنا بها. فيها ما يحثُ على أعمال الفكر. - عرضت عائشة رأيها.

- المركيزة جولي كالاندرين امرأة رزينة وحكيمة. - وبدا من وجه اللورد ارتياحه لذكر عائشة اسم المركيزة - أنا أعرفها جيداً وهي أخت المرحومة زوجة أبي. ربما لهذا السبب تعجبنا كلانا الأوبرا. - اختتم اللورد كلامه بمزحة.

- يا أيسيه، يا روحي أنا مسرور لرؤيتك. كنت أعد ساعات يوم لقائنا غير قادر على تمضيتهما. - تعانقت يدا المحبين من فوق الطاولة. - كيف حدث أن جئت إلى هنا؟ هل جمعنا آل بولينغبروك بمعرفتهم؟

- لا يا إيدي، جاء بي أخوأي على سبيل تزجية الوقت.

- أيسيه، يا حبيبتي، أحبك!

- وأنا يا إيدي. لم يبق عندي الآن ما أخفيه عنك. ولكن لا أريد أن يعرف الآخرون بهذا.

- نعم، نعم يا أيسيه. هذا ما يسمونه الحب الأول. ولأني أتأمل منك أن تؤسسي معي أسرة بالحب الأبدي، فأنا مستعد من هذه اللحظة للتحرر من نذري، بشهادة آل بولينغبروك وأخويك.

- لا يا إيدي. ليس الآن. فيما بعد، لاحقاً... سنتكلم في الموضوع بعد قليل... تعالي لنعد إلى غرفة الضيوف! لا يليق بنا الانفراد هنا.

II

كان القصر في انتظار زيارة أورليان الوصيِّ لأن ماري - أنجيليك كانت أخبرت لاروش سرّاً باليوم الذي سيزور فيه آل فيريول. ولم يطل الانتظار إذ صارت عربة الوصي على شارع سان - نيف أوغستين تنهب الأرض، أمامها حارسان ووراءها حارسان، وصخبها يصم الأذان. انبرى لاروش عائداً إلى الغرفة كأن لا علم له بشيء وأرسل خبراً إلى الكونتيسة:

- الضيف قادم.

- وأين أيسيه؟

- تقرأ كتاباً للكونت بحراسة ديستان.

- أخاف أن ينام الكونت الذي أخذ جرعة مضاعفة من الدواء قبل أن يتخذه الوصيِّ محدثاً.

- لا يا كونتيسة، حددت له موعداً.

- وإن وضعنا لأيسيه في الشاي من الدواء الآخر الذي أحضره الطبيب جان

- باتيست أتصبح طيّعة لنا؟

- منذ زمن بعيد اختبروه على نساء الوصيِّ.

- لا أعرف، لا أعرف. - فجأة ارتعبت ماري - أنجيليك - لا تبالغوا في

الدواء بحجة تطويعها. لا أريد أن أذنب بحق الصبية... لتتوكل على الله. ونحن نجونا من تجارب مماثلة كثيرة.

نظرت ماري - أنجيليك في وجه لاروش نظرة تبعث على الارتياح. ولم يكف هذا بل أتبعته بابتسامة غامضة.

"كيف يمكن أن تعرف الآن ماذا تريد هذه المرأة؟ سأل الطبيب نفسه - تقول شيئاً - تنقضه - تفعل ثم تندم. أعرفها منذ سنين ولم أفهمها. يستوي إشفافها

وظلمها: تلقمك معروفها ثم تنتزعه منك. ليس الأمر أنها لا تحب أيسيه ولا تهتم بأمورها، ولكن حين تتذكر شبابها الذي لن يعود تعيش سعيدة بما تفكر فيه وما ستفعل. ولكن أكانت تحضّر لأيسيه ما تحضّر الآن لو كانت ابنتها من رحمها؟ وبالمقابل أليست كلودين أختها، ودمها من دمها؟ أتجهل كلّ ما فعلت أختها ولم تكن شريكة فيه؟..."

- لماذا أنت واقف يا لاروش؟ - صاحت على الطبيب مستنكرة لامبالاته. - جهّزوا الكونت وأتّوا به إلى غرفة الضيوف. وأيسيه أيضاً. صارت قبيحة من وراء مجالستها من استعصى على الموت؛ أخبروها أن عندنا ضيفاً كبيراً حتى تُصلح من حالها.

لم تكن عائشة تحتاج إلى من يخبرها بقدوم الضيف. - فهتت من الأصوات المرحّة الصادرة من غرفة الضيوف. وهذه الأصوات حملت شارل دو فيريول على رفع رأسه الثقيل. وتحدث إلى ديستان غير عابئ بالكتاب الذي كانت عائشة تقرأ له منه:

- حقاً يا ديستان أن جلستك هذه جلسة كسالى! اذهب وأخبرنا بما يحدث في البيت. لا أعرف إن كان الكونت أوغستين - أنطوان الذي أنتظره يوماً بيوم قد وصل.

- لا يا كونت. - قال لاروش الداخل إلى الغرفة - ليس القادم أخاك الكونت. وهو ننتظره أيضاً. من وصل الآن ضيف كبير، هو أورليان الوصي. - أهو ضيفنا؟ - سأل الكونت غير مهتم بما سمع وعاد فجلس مطرقاً. ثم غضب بعد قليل - من قال إني مريض حتى يعودني؟ - ثم صرخ بصوت أعلى: - أنا في الفراش ولست على قدمي؟! -

- يا بابا، لست مريضاً، اطمئن! - قالت لنفسها وهي تمسح بيدها على رأس الكونت "ليس من أجلك استقدموه بل من أجلي"، ولكنها لم تمتنع لهذا السبب عن إسداء النصيحة له: - الوصي لم يأت غير محتاج إليك؛ ولذا البس أجمل ما لديك من لباس، ولنفعل الواجب تجاه من دخل بيتنا!

- طبعاً، طبعاً. يا شارلوت - إليزابيث أيسيه، سرّحت بمن دخل بيتنا - فرح شارل دو فيريول من عبارة عائشة "دخل بيتنا" بصيغة الجمع: - هات يا ديستان ملابس السفير الخاصة بي، وأنت يا شارلوت - إليزابيث أيسيه تأتني أكثر مني. سنُري الوصي حالنا نحن الاثنين. ولكن كان أفضل شيء هو أن يأتي الملك لودفيغ الخامس عشر. كنت سأنصحه نصائح كثيرة لمصلحته. لن نستعجل حضوره، سيأتي هو الآخر يوماً ما. أليس صحيحاً يا أيسيه، يا روحي الوحيد؟

- نعم يا بابا. - قالت لنفسها "كنت ظننته قد هدأ ولكنه لم ينس إلى الآن ما في نفسه نحوي" ثم توجهت إليه ضاغطة على حروف كلمة "بابا": - ولكن احرص يا بابا على ما تقول وأنت تُكلم الضيف! أفهمه أن من يقول القليل أدكى ممن يثرثر.

- يسرني يا أيسيه أنك لم تنسي تربيتي لك. فتح ديستان، كما أوصوه، البابين الكبيرين للغرفة التي ينتظر فيها أورليان، وقال معجباً ماري - أنجيليك مما ترى وتسمع:

- الكونت شارل دو فيريول والكونتيسة شارلوت - إليزابيث أيسيه! حين نهض أورليان ذاهلاً من جمال عائشة لم تملك ماري - أنجيليك التي لم تكن تقوم في بيتها بمثل هذه الحركة إلا أن تنهض أيضاً.

- عندنا ضيف كبير - قال شارل دو فيريول مع إيماء تحية، ثم لاهمه: - أغفر لك عدم إعلامي بقدومك لأنك قمت بواجب تقديم التحية. وأنت تعرف الكونتيسة شارلوت - إليزابيت أيسيه فلا حاجة أن أعرفك عليها مجدداً. لماذا يا ماري - أنجيليك الكونتيسة تجلسين ضيفنا الجليل إلى مائدة فارغة! وفي اللحظة التي سأل فيها الكونت امتلأت المائدة بالحلويات وبالفواكه وما يلائمها من النبيذ - أي نوع من النبيذ تفضل يا دوق؟

- النبيذ الذي يعجبني يا كونت متوفر في بيتك - ابتسم أورليان للكونت قائلاً في نفسه "تثرثر كثيراً" - والآن فهمت أنك تحب هذا.

- لم تخطئ أيها الدوق. أخلصت طوال عمري لنبيذ بورغوند الأحمر والنساء الجميلات. - لنرفع هذه الكأس على شرف كل النساء الجميلات في العالم! وليكن محبوبات من الرجال كما نحب نحن هذا النبيذ!

- يا بابا... - قالت عائشة بصوت قاسٍ ثم ابتسمت له.

- نعم، أيسيه يا كونتيسة، فهمت. ولكن سأشرب من أجل النساء هذه الكأس؛ وليحدث ما يحدث!

- إذن يا كونت - نظر أورليان إلى الكونت وإلى ماري - أنجيليك وعائشة نظرة خبيثة مرائية وقال: - إن سمحت لي سأضيف إلى نخبك: سنرفع هذه الكأس واقفين على شرف المرأتين الجالستين إلى مائدتنا لأنهما أجمل نساء العالم.

- إن كان رأيك هكذا فما من شيء أحجبه عنهما. ولن أسمح لنفسى أن أتأخر عنك - حين حاول شارل دو فيريول النهوض ناسياً أنه خائر القوى تهاوى. وشرب بقية الكأس، وبعد قليل قال وهو يتشاءب: - ها هي الحال. ما الفائدة من تكلف الرجولة، هرمنا!... وأنت لا تتأخر عني كثيراً على هذا

الدرب. أيها الدوق كيف تدبّر أمورك مع النساء؟ لا تدع أحداً يغلبك في هذا المجال بداعي الهرم... كأن النوم يغالبني أمام ضيفنا الكبير. أين أنت يا أيسيه؟ - بابا لا يواتيه الشراب. - أسرع عائشة بالنهوض وحضنت رأس الكونت في صدرها. - ويفوت موعد نموه وراحته... لا تؤاخذ بابا يا نور فرنسا، وأنا أيضاً عليّ أن أحضّر له لوازم استراحته.

- يا لحجّلنا أمام ضيفنا في يوم زيارته الوحيدة! لا تتأخري يا شارلوت - إليزابيت أيسيه. - صاحت ماري - أنجيليك وراء عائشة مخفية مساهمتها في ما فعلوا بالكونت. - يكفي ما تعبت عليه، استريح. هذا هو وضعنا أيها الدوق. لا يصدّق أحد مهما رويت له، إن لم ير بعينه، ما حدث لنا من جهة الكونت... ألم يكن مناسباً لو أن الكونت أوغستين - أنطوان كان في باريس مع عمل مناسب، لا خارجها. نعيش عملياً أسرتين. لا يكفيني ما يكسبه. من أين كان للكونت البائس أن يعرف ما حدث له. والبنت الجاهزة للزواج بقيت في عهدتنا. لا تستغرب أيها الدوق قولي: "بنت جاهزة للزواج" وأما من كان يغازلها وهي تناديه "بابا" فقد رأيت حاله. أيُّ رجل هذا ليتزوج؟! كان الأفضل لو يخدم نفسه بنفسه بدلاً من الافتخار الدائم. والبنت الشركسية التي نحن بانتظارها ستظل في خدمته ولو منحها حريتها، ولن تتخلى عنه حتى تسدد له معروفه ولو عاش العمر كله وهرمّت في خدمته. ليست من نوع النساء اللواتي تعرفهن.

- صحيح يا كونتيسة - نظر نحو الباب وهو يبتسم، ثم لم يُخف عن جليسته ما في قلبه: - لو لم أره بعيني هذه السنة لما أتيت على ذكره.

- أتشتاق إلى من لا تعرفها لأنك لا تعرف حلاوتها؟ - سألت ماري -
أنجيليك محدّثها متناسية أنه الدوق أورليان الوصي، وهي تنظر إليه بعينين
وقحتين حاريتين:

ومازح أورليان الخبيث ماري - أنجيليك:

- لا تهتمي يا كونتيسة إلى هذا الحد! أقول لك الصدق: لا تزالين في ميعة
الشباب.

- لا أصدّق! - جزمت ماري - أنجيليك حتى لو سمعت ما تحبه أذناها. ثم
لامته على ما في قلبه نحوها وهي تتدلع أمامه: - إن كان هذا رأيك فلماذا
تتجاوزني وكأنك لا تراني، إلى من لا تعرف بعدُ كيف تقبّل؟ ألاّ العجل الوليد
أحلى من البقرة الشابة؟ بادلته المزاح.

الآن ضحك أورليان من أعماق قلبه:

- أقبّل كلامك يا كونتيسة. ولكن إجابتك على سؤالك بنفسك أراحتني. إن
كانت علاقتنا أنا وأنتِ يا كونتيسة ستستمر على هذا النحو فليس مستبعداً
أن يحدث بيننا شيء ما... - مزح معها الدوق أيضاً.

- حين تتعب من النظر نحو الباب؟ - أراحت ماري - أنجيليك دون أن
تستطيع التمييز بين جدّها وهزلها، محدّثها: - لا تقلق، لا مكان تذهب إليه
شارلوت - إليزابيت أيسيه غير هذا البيت. ولكن لا أعرف إن كنت قادراً على
أن تُنسيها بليز - ماري دو إيدي شفالبيه... - وشيئاً فشيئاً، وعن طريق
المزاح، عبّرت للوصي عن حقدّها الذي لا يعرف بأمره إلا الطبيب لاروش.

- إذا كنا نفينا فولتير من فرنسا، وكان اللورد بولينغبروك نفذ بريشه من إنكلترا،
فسنجد مصرفاً لدو إيدي شفالبيه. - أجاب أورليان على ما لمّحوا به إليه دون
تفكير وكأنه كان ينتظر السؤال.

"انظر إلى هذا الرجل، إنه مثل شقيق زوجي الذي لا يشبع من الحب المتحرر حتى هرم؛ ما أظلمه! - جفلت ماري - أنجيليك ما سمعت - ادعي إلى الله أن لا يوقعك في فراشه! ولكن في النهاية من تستطيع مجابته واحدة مثلي، لا مثل أيسيه الغضة... يا للحسرة! لو وقعت بين يدي لتركتك لا تحملك قدماك، وكلما رأيت امرأة تعوذت بالله... ولكن من يحتاجنا والحال من يرانا يسخر منا؟" - وفيما الكونتيسة التي كانت في شبها تغلي شهوة وإغراء تحدث نفسها وتقيس البارحة باليوم وبالغد، ولا تصدق حالها الآن، رجعت عائشة إلى الغرفة.

لم يتحقق ما كان يتأمله الدوق أورليان والكونتيسة ماري - أنجيليك إذ كان في وجهها أمراً يقلقها. وكما ترجتها ماري - أنجيليك لم تجلس أمام الضيف بوجه بارد أزرق، جلست إلى المائدة المزينة العامرة، وقالت دون أن تسأل أحداً منهما:

- أرحض بابا، اطمأنت عليه.

- لأجل هذا يقولون إذا اجتمعت الشيخوخة والمرض على الإنسان اجتمعت عليه مشاق كثيرة. - تنهدت ماري - أنجيليك وهي تقول لنفسها "أأنت أم نحن من أرحناه؟" ممتدحة نفسها، ومفهمة عائشة إشفاقها عليه، ثم ضحكت دون أن تعرف سبب ضحكها، ولامت ضيفها الذي بدأت ترفع الكلفة بينها وبينه: - وهل سنبقى هكذا يحدق أحدا في الآخر يا نور فرنسا؟ ارفع نخباً ما لنشرب.

- بكل سرور، شارلوت - إليزابيت أيسيه الكونتيسة لا تذوق الشراب.

- هذا ذنبي أنا يا دوق - حملت ماري - أنجيليك الكونتيسة نفسها المسؤولية بطريقة ذكية. - ربيت ولديّ وأيسيه دون أن يعرفوا إن كان في الدنيا شراب

من خوفي عليهم. كفى يا أيسيه، امنحك الحرية في أن تشرى. وستسرين معه ما يكلّفك الكونت من مشقات.

- يا ماري - أنجيليك يا ماما - جزمت عائشة لمن كانت تبتسم له وإن لم ترفع صوتها: - لم أخالف أوامرك إلى الآن، أطيعك، ولكن لن أستطيع تحقيق ما رجوتني لأجله.

- هكذا - امتدحت ماري - أنجيليك نفسها ثانية وهي تضحك بطريقة غير مناسبة - ريتشارد شارلوت - إليزابيث أيسيه يا دوق، سمعتَ ورأيتَ.

- برفو يا شارلوت - إليزابيث أيسيه! - صاح أورليان دون أن يُيدي خبثاً ونفاقاً، ورفع كأسه: - مرة أخرى حُزّت على إعجابي. من أجلك، من أجل أنوثتك الطاهرة، وجمالك أرفع هذه الكأس.

- وأنا لا تنسني، أرفع معك - لم تحرم ماري - أنجيليك نفسها من نخب الضيف. وحين شربت النبيذ غمغمت، وهي تمسح شفيتها المحمرتين، دون أن تعباً بما لا يرضي الوصي: - على كل حال لا أعرف كيف ترفع كأساً للابنة بحضور الأم... - ثم ضحكت من كلامها ونادت مدبرة المائدة: - تعالي غيّري كأس الشاي لأيسيه، بردت.

كانت عائشة تدرك أن الكونتيسة ماري - أنجيليك تبالغ في سلوكها في حضرة الضيف دون أن تفهم السبب: - ما الذي حدث للكونتيسة حتى تستهين بقدرها في حضرة الضيف؟ لم تتصرف هكذا طوال عمرها. أعلل الأمر بالنبيذ غير أنني رأيتها شربت أكثر من هذه المرة، ولا أتذكر أنها كانت تثرثر أو تتصرف تصرفات لا تعرف حدوداً لها ولا تليق بها. وجهتني قائلة "لا تتباردي حين يزورنا أورليان!" غير أنها لم تعد تفسح لنا المجال للكلام. وأظن أن الضيف الذي استقدمته لي فهم الأمر. لا يُلام بابا على أنه غفل على المائدة وهو

يتكلم. إنه مريض. تثقل عليه الشيخوخة، ومرهق. وماما ماري - أنجيليك تطير من فرح لم أرها فيه خلال السنوات الماضية. تتدلع أمام الدوق، وتتجمل له. مهلاً، مهلاً لماذا اختارت وقتاً للزيارة يغيب فيه بون دو فيل وأرجنتال عن باريس؟..."

- والآن، من أجلك يا نور فرنسا، ومن أجلي سنشرب هذه الكأس.
- ماما...! - نظرت عائشة في وجه الكونتيسة وكأخا تقول: انتبهي لما تقولين وما تفعلين!

- اتركينا يا أيسيه واشربي الشاي... - أشارت الكونتيسة إلى عائشة بيدها غير عابئة بملاحظتها.

- من أجلك يا كونتيسة أشرب لا كأساً بل كؤوساً! - قال أورليان لنفسه "قد تكون هي التي شربت دوائي خطأ" وصار شكه مدعاة للضحك - ولكن إن لم تعتي عليّ فعندي نخب آخر: باسم الكونت شارل دو فيريول أرفع هذه الكأس - واختتم أورليان ما كان يفكر فيه أثناء الخطبة وأثناء احتساء الشراب: - كانت جلستنا سعيدة وإن لم أستطع مجالسة الكونت الذي جئت من أجله، عاينت صحته، وجلست إلى مائدة ماري - أنجيليك لأول مرة وإن كنت أعرفها منذ زمن بعيد. وأنت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه زادت معرفتي بك. نجتمع ثانية، أودّع الكونت لأن موعد انصرافي حان. وأنا - ألقى نظرة أمل حارة نحو عائشة - أقوم مُمْنياً نفسي بيوم لقاء آخر. شاؤكم وشرابكم ووجوهكم كلها حلوة عليّ.

حين تلاشى صوت عربة أورليان وراء منعطف الشارع قالت ماري - أنجيليك ووجهها انشوى مما شربت، وتَهَزَّ المروحة تبرّد نفسها:

- هكذا يا أيسيه رأينا أورليان أخيراً وهو عندنا وإن لم يطل مجلسه. يكفي أن عربته اللماعة وقفت أمام بابنا. ستعطينا باريس بكاملها. ولكن من سيحسدوننا ليسوا قلائل. ليقلعوا عيونهم، وليقطعوا ألسنتهم إن شاؤوا، هذا لا يهمننا. أنا راضية عن أدائي اليوم وعن أدائك. كان وجهك منفتحاً على ضيفنا الكبير. لم تُخرجيني. قولي الحق يا أيسيه أَلن يرى الناس أورليان رجلاً وسيماً لاثقاً بك؟ ضحكته، كلامه، طريقة شربه، صفاء عينيه، لمعان أسنانه البيضاء، ظهره المستقيم... ألا أقول الحق يا أيسيه؟

- اتركيني، لا أعرف. لم أنظر إليه بعينيك. - لم تتورع عائشة أن تقول هذا للكونتيسة التي لا تتحملها.

- وكيف تنظرين إليه وشفالييه في مخيلتك! - ردت ماري - أنجيليك بدون مسaire، وعلى وجهها غضب لا يخفى. - ليتني رجعت شابة مثلك كنت سلبت عقل أورليان وأنسيته اسمه!

- يا ماري - أنجيليك يا ماما، لا تندبي عمرك هكذا. - امتدحتها عائشة وفي ذهنها "سأجعلها تصرح بما في قلبها" - وحين جلست معكما على المائدة كان أورليان ذاهلاً عن كل ما حوله غيرك.

- هكذا؟ - فرحت ماري - أنجيليك. وربما تذكرت شبابها فتوردت وجنتاها، ولمعت عيناها الخضراوان - صحيح يا أيسيه، أم تمزحين؟
- ولماذا أمزح؟ - مرة أخرى وثقت عائشة كلامها - أقول ما لاحظته عليكم فحسب.

- نعم يا أيسيه لهذا - تنهدت ماري - أنجيليك بطريقة تدعوك للإشفاق عليها - يقولون لي: ولدت صبيين وتقاعدت... كنت تناسيت بلا فائدة أن في ما يُعجب الرجال... وها أنت ترين، دون أن أقول لك، النار التي تشتعل

في جسدي فتحرقني. كفى، لا تسمعي، ما أكثر ما أثرر اليوم... اذهبي يا
أيسيه واستريحي أنتِ أيضاً. لا أعرف ماذا فعل بنا الدوق أورليان، ضمنا إليه
كلتينا وأرهقنا.

ما إن خرجت عائشة حتى تسلل لاروش إلى الغرفة وهمس على نحو يُذيب
القلب في أذن ماري - أنجيليك التي كانت تطفئ حرارتها بالشاي الذي برد:
- أنظر إليك يا كونتيسة فأراك في غاية الجمال. - ابتسم في وجهه من امتدحها
وهو يحدّث نفسه: "أنا من خدعكما وأنتما تظنان أنكما خدعتما أيسيه".

- أنا جميلة لأنني كنت جالسة إلى جوار رجل في منتهى الوسامة.

- ليست أسناننا أقلّ حدّة من أسنانه وإن لم نكن في وسامته.

- لا تمدح نفسك! سنعرف هذا حين تعود بعد قليل...

وكما توقعت ماري - أنجيليك فقد تكلمت باريس شهراً كاملاً في استقبال
آل فيريول لأورليان. ولكن حدث فجأة في صالون دو ديفان ما أنساهم
الضيافة.

لما كان المركز دو ديفان بلغ الستين دون مواربة دعا إلى بيته أقرب عشرين
شخصاً تقريباً. وبين هؤلاء كانت عائشة دون بليز - ماري دو إيدي شفالبيه
الذي سافر إلى إيطاليا. وفيما عائشة وكلودين اللتان لم تتقابلا منذ قرابة ثلاثة
أشهر تتحدثان بمودة سُمع صوت رئيس خدم المركز دو ديفان:

- الدوق أورليان نور فرنسا وصل!

تبادل المركز دو ديفان والضيوف النظرات من خبر الوصول المفاجئ لأورليان.
ونفضوا للقدام وأكثرهم مستاء من إعلان أورليان الزيارة. ولم يدعْ أورليان الممتلئ
حبوراً مستقبليه ينتظرون:

- جئكم لأن شارلوت - إليزابيت أيسيه أخبرتني أنها ستكون هنا.

- لم أقل لك شيئاً أيها الدوق! - قابلت عائشة بصوت قاسٍ ووجنتين
تقدحان شرراً إعلان أورليان - أيّ كذب تتهمني به، وأي عارٍ تلحقه بي! إن
كان عندك شيء من شرف فاتركني. وإن لم تفعل فسأقول لك: سأخلق شعري
والتجئ إلى الدير. دو ديفان يا روحي لا تؤاخذني لن أطيق النظر أكثر إلى من
أهانني. أرسلني إلى بيتي!

- لا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه الكونتيسة لن تذهبي وحدك - نهضت
كلودين - ألكسندرين معبرة عن الاستياء من أورليان بحركة من شفتيها - أنا
سأوصلك إلى بيتك، إلى بيت آل فيريول. امضي يا "لو فريني" - ألقت نظرة
إلى الضيف غير المنتظر توحى بأنها ستعود بحجة تصريف مستشار المجلس
الكبير لفرنسا - قالت لـ "لو فريني": وأنت اصحبنا!

III

الحزن إن حملته دائماً معك هرمت معه، وإن تناسيته أركبك أملاً لم تنتظره، وليس كل راكب بالغاً مراده.

هذا ما جرى للدوق أورليان من جهة عائشة: تبين أن حزام سرج حصان الحب الذي طوّعه سنوات كثيرة مقطوع، أو بتعبير آخر: "من لا يهدأ يجذ نفسه أخيراً خارجاً" ما حدث لأورليان في عيد المريكز دو ديفان ما تزال باريس تتكلم فيه، ولكن ما حدث لعائشة أنساهم سابقه: مع أن عائشة لم تكن تعرف وضع المرأة الحامل فقد شكّت في الأمر بعد ما حدث لها. وبعد أن قضت عدة أيام تبكي أكثر مما تفرح، أعلمتها صوفي بما كانت تشكّ فيه:

- ماذا أفعل يا صوفي؟ حالتي غريبة.

- "حالتك غريبة" أم تشكّين؟ سألت صوفي عائشة، ولم تتوقف هنا: - أيعرف شفاليه "حالتك"؟

- لا... - جفلت عائشة كأنها في استجواب: كيف أخبره؟

- تقولين له! - قالت صوفي بصوت أحزم وأغلقت الباب - ألا تعرفين أن ما في بطنك ليس لك وحدك؟ - ليُقاسمكِ شقاءك - اختتمت بصوت أشرس.

- هل أدين دو إيدي بما جنيته أنا بنفسي؟

- ليتزوجكِ حتى لا يتكلم الناس في ما اشتركتما في فعله! - حزنّت صوفي لما قالت: لا أريد أن تفعلني ما فعلته كلودين... لن يتسامح معك من يسمعون الخبر بعدما لقّنت أورليان درساً.

- لا يا صوفي لا أخفي. أحبّ دو إيدي، لا ذنب له في ما حدث لي. وأكرر: لا يجب أن نحمل دو إيدي مسؤولية ما حملته على فعله وأنا أعرف أنه غير مسموح له بالزواج.

- صحيح أنك ذهبتِ إليه في ذلك اليوم مهتاجة ولكن ألم يكن يعرف أنه ينقض عهده؟! - لم تكن صوفي تعرف التراجع بل تتمادى في موقفها - أعرف يا أيسيه أنه وعدك بالزواج ولكن كان عليه أن يتزوجك قبل أن يدفعك إلى الخطأ. الرجل هو أول من يجب أن يفهم ضعف المرأة وهشاشتها. هو فعل فعلته وبلاك أنت... - والآن بعدما لامت المرأة التي بكت حتى نفّست عن كربها، عانقَتْها وبكت.

وعائشة التي كانت دائماً تخفي فرحها وضيقها انفجرت بكاءً، ولكنها سرعان ما وعت إلى نفسها:

- كفى يا صوفي؛ لا يجب أن نجلس نبكِ أنفسنا. ما كتبه الله عليّ أحمله لأنه قراره. ولن أكنم هذا عن دو إيدي شفالبيه. ولكن لن نفعل ما اقترحتِ، ولن أقبل عرضه للزواج ولو عرض. لن أقول له: انظر إلى مأساتي وافهمني فأقلب له حياته. أعرف مخرجي الوحيد ولو لم تذكره لي.

أكّدت صوفي التي شملها الحزن وتورمت أجفانها:

- لا تدعي هذه الفكرة تغزو رأسك؛ خافي من الله!

- نعم يا صوفي؛ الله يحميني من الخطأ. سأصرف كما يملي عليّ... - وفيما عائشة تهدئ صوفي فُرع الباب - لا تقل شيئاً سينصرف من تلقاء نفسه - وضعت عائشة أصابعها على فمها، وقالت لنفسها "في هذه اللحظة لا أريد أن أرى أحداً إلا دو إيدي" ثم همسته لصوفي. وبعد هنيهة قالت لها: - افتحي الباب وتظاهري أنك تصففين لي شعري، وسنعرف الطارق من طريقته في الطرق.

دخلت الغرفة ماري - أنجيليك التي كانت بعيدة عن الطّرق:

- لماذا أنتما جالستان هنا وقد حبستما نفسيكما في اليوم الذي جاءت فيه كلودين؟ أرسل وراءكما فلا تردان.. يا صوفي ما أجمل ما صفتت شعر عائشة! نحن، أنا وكلودين - ألكسندرين دعانا أورليان إلى بالية رويال هذا المساء. لا تفزعني يا أيسيه، الرسول لم يأت على ذكرك. كنت توقعت أن يحقد علينا، آل فيريول، وصيُّ الملك لموقفك منه لسعة انتشار الخبر في باريس، ولكنه تحلى بالإنسانية.

- لأنه يعرف قلة أدبه... - ردت عائشة على الكونتيسة باستخفاف.
- يا من أسعدك الله يا أيسيه! - عندك صبر ومعرفة كبيرتان!... لماذا نسيت يا صوفي مسألة شعري؟

- صفتت شعرك بشكل جميل جداً يا كونتيسة - لم تملك صوفي إلا أن تمدح ما تراه - لا يجوز لمسه، دغك من التدخل فيه.

- هكذا؟ - وقفت ماري - أنجيليك أمام المرأة، وتأملت نفسها قائلة "لو رأيتم الرجل الذي سيمسه ويشمه!" ثم لامت نفسها على ما فعلت: - كيف لا يكون جميلاً وقد أنفقت عليه كل هذه النقود؟ في خروجي القادم من البيت ستصف لي صوفي بأجل مما فعلت لأيسيه.

- لن أبخل عليك، سأرضيك بما أستطيع.
- إن لم تطلي النقود التي لا تكفيها تكوين أرضيتي. يكفي ما يدفعون لك...
- تظاهرت الكونتيسة المتأنقة أنها تبادلها المزاح. - لا، ليس مهماً. لأن أماننا على موعد بور رويال قرابة الساعة يا أيسيه انزلي، كلودين - ألكسندرين تود رؤيتك.

- من أجل هذا قطعت كل هذه المسافة؟ كان يكفي أن ترسلي أحداً ورائي.
- قالت عائشة للمرأة الخارجة، المتعطرة بالعطر الذي تحبه النساء السمينات.

توقفت ماري - أنجيليك عند الباب وردت على عائشة بمزحة:

- كنت أود أن أنفث شيئاً من رائحة عطري في غرفة أخي زوجي الوسيم - كيف حاله هذا المسكين؟ لا أذكر منذ متى، منذ البارحة أو قبلها رأيته آخر مرة.

- شكراً لك يا ماري - أنجيليك يا ماما على سؤالك عن بابا. - قالت عائشة تكظم غضبها بصعوبة - إلى الآن يستطيع أن يمد يده إلى رأسه. وكما تعرفين، لا يزال يهذي.

- وأنت، ألا تعرف عليك؟

- أنا يتعرفني؛ أما جماعة ديستان فيتمرد عليهم.

- حسنٌ أن يعرفك بشرط ألا يعاندك... - لم تستطع الكونتيسة إلا أن ترد بالمنكادة على عائشة - بديهي أنك لا يمكن أن تتمتع بصحة جيدة بعد هذا العمر. الهرم ينغص الحياة، والمرض قاتلٌ. سنتكلم على ما سنتخذ من تدابير بحق أهلك المسكين غداً لأن الكونت أوغستين - أنطوان قادم. يا أيسيه لا تنظري إليّ شزراً يا بُنيّتي! لم أفكر في ما فكرت فيه. لا تتأخري في النزول. لم يتبقّ عندنا وقت.

- هذه المرأة، ساحيني يا أيسيه، لا أستطيع فهمها. - قالت صوفي وراء المرأة الخارجة وقد توترت مما سمعت. - ما بين ما في قلبها وما على لسانها كالمسافة بيني وبينها. لا تصدّقي ما تقوله لك! تتظاهر أماننا بأننا لا نعرف لمن تتعطر بهذا العطر القوي! من أجل لاروش. من يسأل عنها هذه المتصابية؟ - في اللحظة التي فتحت فيها عائشة الباب تقيأت وركضت إلى الغرفة المجاورة - كيف ستخالطين بهذه الحالة الأخنتين الجنيتين!... البسي لا تريك رثّة الملابس! وانتبهي لنفسك. أنا سأخرج وأبحث لك عن دواء يفيدك.

تأنقت عائشة كما نصحتها صوفي، ونزلت إلى الأختين الذاهبتين إلى باليه رويال.

- هل ستذهبن معنا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، ما أشد أناقتك! - سألت ماري - أنجيليك وهي تأكلها بعينها.

- أيسيه جدية أن ترافقك ويروها معك - امتدحت كلودين - ألكسندرين التي كان جماؤها يخطف الأبصار عائشة، ثم جرحتها وكأنها تشك في حالتها - ولكني أراك شاحبة؛ أنت متوعكة؟

- لا يا كلودين - ضحكت عائشة - لا شيء من هذا.

- طبعي ألا يعجبك لونها - قالت ماري - أنجيليك الكلمة التي لم تكن تفارق لسانها بحق عائشة: - تتصور أن لا أحد يخاف على الكونت غيرها فلا تفارقه طوال النهار، تُفني نفسها معه.

- أيسيه ماذا تفعلين؟ - كررت كلودين الكلمات نفسها التي نطقت بها في الأمسية التي تصدّت فيها عائشة لأورليان، وما في قلبها غير ما على لسانها - أظنن أنك ستبقين شابةً الدهر كله؟ لماذا تحرمين نفسك من ملذات حياتك جارية وراء الصدق والمعادنة؟ أسعدي نفسك وامرحي، خذي من الحياة ما تستطيعين.

- حقاً يا كلودين - أيدت ماري - أنجيليك أختها.

- ستكتشفين كم كانت الحياة ممتعة فيما بعد - أكملت كلودين - ألكسندرين ما قُطع من كلامها. - حين تهرمين.

- نعم، نعم يا كلودين، وهذا ما حدث لشقيق زوجي الكونت المسكين.

- يا ماري - أنجيليك، يا ماما، وأنت أيضاً يا كلودين، لا أريد أن نتكلم على بابا! - توردت وجنتا عائشة - لا أستطيع أن أهين شبابي الذي منحه الله لي

بحجة المتعة. ليعش كل حسب ما يملئ عليه قلبه وشرفه! إن كان هذا ما تريدان قوله لي...

- لا يا أيسيه - نظرت كلودين - ألكسندرين إلى أختها بطرف عينها وقاطعت عائشة: - بدأنا بهذا الحديث غير أن هناك خبراً مزعجاً، ربما لا تعرفينه، نود إطلاعك عليه.

- أي خبر غير سار؟ ارتعبت عائشة لما سمعت.
- هل نادية يا شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ - جلب سؤال عائشة الصاحب صوفي التي كانت تحمل الدواء.

- لا يا صوفي. - هدأت عائشة نفسها - نحن هنا نتكلم على موضوع آخر.
- نعم، نحن هنا نتكلم في موضوع أسري. - أيدت ماري - أنجيليك أيضاً بصوت ناعم جداً - امضي أنت إلى أعمالك!

- أسمعك يا كلودين. - نظرت عائشة نظرة باردة شاحبة إلى الكونتيسة.
- إذن لست مطلّعة على الخبر يا أيسيه - ونحن لم نسمعه إلا منذ وقت قريب - بليز - ماري دو إيدي سيخوض مبارزة مع أورليان من أجلك.
- هذا مستحيل! - انكسر صوت عائشة لما سمعت - لن يفعل إيدي هذا دون علمي.

- على كل حال هذا هو الخبر المتداول - سال الخبر الذي تريده كلودين من أجل عائشة من فمها بصوت ناعم.

- انتظري حتى يُطلعك الرجال على حُبّهم! - عبرت ماري - أنجيليك الحاقدة على الرجال الذين تعتبر توفّقهم عن ملاحقتها إهانة لها، شامتة بهم - هؤلاء كلهم كأنهم سقطوا من أعلى شجرة واحدة. أنا من يجهلهم؟! ولكن ما أسرع ما تلعبين بعقولهم من معابثهم مرة واحدة! هكذا يا أيسيه، يا شارلوت

— إليزابيت أيسيه. — مرة أخرى وضعت الكونتيسة النبرة على اسم عائشة الفرنسي. — لا أتذكر أن آل فيريول وآل تانسين وقعوا في مثل هذه الورطة يوماً. العادة أن يتكلموا على أسرة الملك بالخير، لا أن يعقدوا معها المبارزات. — حتى لو قالوا لك ما لا يجوز وأهانوك! — لم تكن عائشة لتراجع ولو أنها تعرف حرجة موقفها، ناسية ما يسبب لها من في بطنها من ضيق — أيجوز إشاعة ما لا يليق بالمرأة وإهانتها؟! ألا تتذكرين يا كلودين كيف أهانني أورليان أمام الناس؟

— أتذكر _ بعد أن صحبت كلودين — ألكسندرين في ذلك المساء عائشة إلى البيت صرفت لو فريني متناسية كيف قضت ليلتها مع أورليان. وتغيرت إلى صوت أشد نفاقاً : — وأنا لم أجد من اللائق بالدوق أن يفعل هذا، وكذلك موقف أصحابنا. ولكن للوضع المخرج الذي نشأ بين رجلي فرنسا الكبيرين من أجلك مخرجاً. لحظة، لحظة، يا أيسيه دعيني أكمل ما بدأت: إذا ذهبتي معنا إلى باليه رويال، وقابلتي أورليان، وراك الحضور تحدّثينه بوّدٍ، وهو يجاملك، فسيفهم الجميع أنكما تصالحتما.

— نعم، نعم يا أيسيه — وافقت ماري — أنجيليك ثانية أختها — لا فرق بين أن تدعو أورليان وصيّ العرش إلى مبارزة وبين إعلان الحرب على فرنسا. — ما تقولانه لي من عندكما أم من عند أورليان؟ — ابتسمت عائشة وقالت لهما دون انتظار الجواب: — إن وافق الدوق على الاعتذار أمام الناس عن إهانته لي رافقْتُكما.

— نحن أخبرناك برأينا وهوانا يا شارلوت — إليزابيت أيسيه — سحبت كلودين — ألكسندرين اقتراحها قائلة في نفسها "اسمعوا ماذا يخطر لها، بم تفكر؟" — لم يكلفنا أحد بمثل هذه المهمة.

- إذن نعتبر حديثنا كأن لم يكن.

- اعتبريه كما تريدين يا أيسيه! نحن كنا مهتمتين بتحسين وضعك أنتِ وشفالييه. - رمت كلودين، وهي تبسم، الكرة في ملعب عائشة من جديد - إن كان رأيك هكذا فالمخرج من ورطتكما عائد إليكما.

كانت عائشة التي وقعت في ضيق شديد، تفكر في أشياء كثيرة فيما هي تصعد إلى غرفتها، وتجتاز الردهة. وكان أعجب شيء في المسألة وأدعاها لحزنه هو تصرفُ دو إيدي دون علمها. "لا، لا، لن أدع دو إيدي يخسر حياته بسببي أمام هذا الرجل الفظّ. في كلام ماري - أنجيليك شيءٌ من الصدق؛ فماذا أفعل؟ ومن سيقف إلى جانبي؟ جلبتُ لنفسِي بنفسي مصيبة بحجة أنني أحمي نفسي وشرفي. والنتيجة أنني رميت بالرجل الوحيد الذي أحببته وأودعت عنده شرقي الأنثوي في المهلكة. ما مصيرنا أنا والجنين الذي في رحمي إن حدث مكروه - لا سمح الله - لإيدي؟ لا أدري إن كان رفضي القاطع لاقتراح الأختين بسبب عدم الثقة فيهما خطأ. لا، مثل هذا السلوك كان مقبولاً لو لم أكن على حق، آباه على نفسي! منذ زمن طويل لم أقابل جانبيت - نيكول..."

- ما أشد شحوبك يا أيسيه! ماذا جرى لك؟ - أسرعَت صوفي لاستقبال عائشة.

- هؤلاء الذين لا يهمهم إلا أشخاصهم؛ هل يمكن أن يحملوا إليك خبراً سعيداً؟

- انتبهي يا أيسيه إلى نفسك، فكّري في جنينك. ها أنا وجدت لك دواء جيداً يُرْحِك.

- شكراً يا صوفي. ما تحدثين عنه أنستني إياه الأختان الكونتيستان. سيتبارز دو إيدي شفالبيه والدوق أورليان.

- وعلام يتنازعان، وما الذي لا يستطيعان تقاسمه!

- أنا. لم يتحمل دو إيدي الإهانة التي ألحقها بي أورليان.

- يا لشماتي! - صفقت صوفي لنفسها - كنت أعرف أن هذا ما سيحدث

ولكن لم أخبرك. - هذا ما يسمى بالرجولة. ونحن ليحمنا أحد الرجال!

- لماذا أنت مسرورة يا صوفي؟ ألا تفهمين أن هذه المباراة ستحمل مصيبة؟

- أفهم.

- وهذا رأيي أنا. اذهبي معي، يجب أن أقابل إيدي.

- إن لم يكن حضوري ضاراً لكما.

- أهناك سرٌّ لا نعرفه - نحن الاثنتين - معاً؟ ابتسمت عائشة لصوفي وأنصتت

باتجاه غرفة الكونت، وواست نفسها: - سيغفر الله لي وسيفهمني إن لم أخبر

بابا بوجهتي هذه المرة.

- نعم يا أيسيه، أنا قبل قليل أطللت على الكونت، كان نائماً. وديستان كان

إلى جانبه يغالب النوم.

استقبل بليز - ماري دو إيدي شفالبيه عائشة التي صارت جزءاً من روحه

بسرور. وقبّل يديها، وحيّا صوفي التي كان يغلبها الحياء، ودعاها إلى الغرفة.

- لا يا إيدي لن ندخل الغرفة. - لم تلتكأ عائشة عن إخباره بسبب الزيارة -

اليوم يوم خريفي جميل. جئنا لسبيين سنخبرك بهما هنا.

- إذن دعونا نجلس في مستراح الدار. سنستمع بحزن هذه الشمس الآيلة

للغروب وحنانها. ونستنشق هواء الدار العليل ونستوعب نعومتها - سألهما دو

إيدي شفالبيه - هل الأخبار التي حملتها إليّ سارة أم سيئة؟

- أحدهما سائر والآخر سيء - أسرع صوفي.
- ابدؤوا بالخبر السيء وانتهوا بالسار - منح دو إيدي معهما- إن لم تكن آخرته مأساة.
- يا إيدي- سألت عائشة بصوت حزين وإن نطقت اسمه بدفع المحب:-
أصحيح أنك ستبازر مع أورليان؟
- لا، تدخل اللورد بولينغبروك والملك لودفيغ الخامس عشر، وأوقفا الموضوع.
- ولم تخبرني؟
- لأنه لا شأن للنساء بمثل هذا الموضوع. - ابتسم دو إيدي شفالييه، وأضاف
دون قصد إلى الافتخار: - ولكني لا أكتمك ما أفعل: أورليان لن يعترض
طريقك بعد الآن. والآن أنتظر الخبر السار.
- هذا لا يقال في مثل هذا الموقع لأنه أمر مقلق لنا كلينا يا إيدي...
- ارتجف صوت عائشة بعدما هاجت الآلام التي قضت فيها نهارها كله.

IV

حين سمعت ماري - أنجيليك صوت العربة تقدمت إلى النافذة، ولما رأت الكونت أوغستين يخرج منها ضحكت.

- انظروا إلى من يأتيني؛ كم هو مُضْعَضِع الجسم! أنا من يعاقبه الله. وهو الآخر يعود إليّ عاجزاً يحتاج إلى من يعتني به... يا لمصبيتي مع آل فيريول! يا لبؤسي إذ كتبت على جبيني أن أعيش مع هذه الأسرة العاجزة المنحوسة! وانظر إلى عائشة ذات الساقين الطويلتين كيف تستقبله بما لا تستقبل به والدها. وولداها كأنه هو من رباهما. وصوفي ذات الساقين العوجاوين ماذا تريد؟... أنا التي لم يبق لها في هذا البيت، بل في باريس كلّها، شيءٌ إلا لاروش الهزيل أنفُس به عن ضيقي... ولكن هذا القادم كأن لا فرح له غيري... - تفقدت ماري - أنجيليك الكونتيسة هيئتها بسرعة أمام المرأة، ثم هُرعت إلى زوجها: - تفضل إلى بيتك، انتظرناك طويلاً، لا بد أنك مرهق كثيراً على هذا الطريق المتعب. نعم، وأخوك الأكبر انتظرك طويلاً... أين تذهب وأنت تكاد تنتهي من مشوار الطريق؟

- ما أشدّ صخبك أيتها الكونتيسة! - تجاوز أوغستين - أنطوان المرأة بهذه الكلمة.

- صحيح، يا للحسرة، أكيد اشتقت لأخيك الوحيد... - تبعت ماري - أنجيليك زوجها المشي كالدب قائلة في نفسها: "لم يهتم بي رغم كونه في ذلك المكان النائي"

اغرورقت عينا شارل دو فيريول حين رأى أخاه، ثم سألت دموعه لا يستطيع لجمها على خديه.

- لا تبك يا بابا! - نصحت عائشة الكونت ومسحت خديه رغم أنها هي الأخرى انفعلت وغالبت دموعها. ثم قالت له باسمته: أوغستين وصل.

- نعم يا شارلوت - إليزابيت أيسيه - قال الكونت وهو يستعيد هدوءه - لم نعد وحدنا أنا وأنت.

- ما الأمر يا كونت؟ لا أريد أن أؤزرك - أسرع ماري - أنجيليك، ونبرة العتاب في صوتها أقوى من نبرة الغضب - ألم يبق في هذا البيت الكبير غيركما فتبقيا وحدكما؟!

- وما شأنك أنت بهم يا كونتيسة؟ - قال شارل دو فيريول وكأنه سليم تماماً، ثم ابتسم - من في هذا البيت يهتم بي، ويدخل الفرح إلى قلبي غير شارلوت - إليزابيت أيسيه؟

- يا بابا! - ارتفع صوت عائشة وقسا.

- ما الأمر يا أيسيه يا روعي الوحيد؟ أقلت ما لا يجوز إلى "سلفتك" الكونتيسة؟ وأنت يا أخي ماذا سمعت حتى تتعجب؟ أليس وضعنا هكذا يا أيسيه؟... - حين نهضت عائشة بوجه شاحب والحياء يأكلها، وهمت بالخروج من الغرفة تضرع إليها الكونت بقلب محطّم: - أيسيه، يا ابنتي أين تذهبين؟ لا تتركيني مع هذين وحيداً. وإن كنتما لا تعرفان قلت لكما: أنا رأس آل فيريول، وستطيعوني ما دمت حياً؛ أنفهموني؟

- بديهي أن نفهم - حين رأت ماري - أنجيليك شقيق زوجها ممتلى العينين بالدموع أسرع تويده تريد أن تكسب رضاه - ألسنت أنت حامي آل فيريول وأملهم؟!

- نعم، أنا - تصلبت كتفا شارل دو فيريول من المديح - أنتم من يسأل عنه الملك؟ أنتم من بعث إليه أورليان؟ أسمع يا أوغست؟ ماذا حدث لك الآن

فُتْجَهَشَ بالبكاء؟ أنت أيضاً مثلي رقيق القلب. تعال ودعني أعانقك. أترون ما أرق قلب هذا الإنسان وما أطيبه؟ - هداً ماري - أنجيليك وعائشة اللتين اتفقتا بالعيون على مغادرة الغرفة: - كفى يا أوغست، يمسح كلٌّ على الآخر أمام النساء... أنت من سيليني في زعامة آل فيريول. اجلس مكانك. أوصيك: لا تدع للحزن محلاً في قلب ماري - أنجيليك ولا شارلوت - إليزابيت أيسيه الكونتيستين! أنا راض عن زوجتك سوى أنها كانت تحمل السؤال عني أحياناً. غير أن شارلوت - إليزابيت أيسيه لا تغادر إلا بإذن مني.

"نعم، نعم، هذه التي تسميها "سلفتي" وتمتدحها - قالت ماري - أنجيليك وهي تبتسم في قلبها - تجري وراء شغالييه وهي تعرف أنه لن يتزوجها، وأنت ما يُدريك بالأمر؟... وهذا الجالس في حضرتك أخوك لن يصدقك. لا أعرف ماذا سيكون موقفه إن رأى بعينه واصطدم بالأمر بشخصه؟ تأملت في أيسيه اليوم، ليس في مناداتها "سلفتي" مما سبب لها الحزن، هل سمعتها أول مرة الآن؟ لم تعد جميلة كما في الماضي. أليكون هذا الكونت المجنون - العاقل كتب لها بالإضافة إلى أربعة الآلاف ليرة أملاً كلاً أخرى مما نأمل فيها نحن فيكون حقق لها ما تريد؟ إن كان العنيد دو إيدي شغالييه يعرف هذا فلا أعرف وقتها... لا نعرف إلى الآن كيف ستتصرف الفتاة الشركسية المخادعة التي لا نعرف أصلها. سنبقى حينها - لا سمح الله - بلا شيء. وهذان الأخوان الأهبلان لن يعيشا الدهر. أأبقى في آخر عمري تحت رحمة "سلفتي" التي لا أصل لها... إن لم يكن في الأمر لُغْزٌ فلماذا أناط بي تربية هذه الفتاة العجفاء؟ هذان في أمرهما سرٌّ. ألا ترى كيف صارت وقد تغيّر أنفها وشفثاها؟ وجلدها أصفر بلا جمال. تشبه تماماً كلودين حين حملت. أخبار هذين عند صوفي. ولكن كيف سنحلُّ عقدة لسانها؟ لماذا لا أغريها ببعض النقود فمن يكره المال! ربما تفضح نفسها"

حين هبّت ماري - أنجيليك مما يصدع رأسها وجدت لنفسها حجة:

- امشي يا شارلوت - إليزابيت أيسيه نترك الأخوين يشبع أحدهما من الآخر!
- نحن الأخوين، أيتها الكونتيسة، حين التقينا وعانق أحدا الآخر قلنا ما نريد قوله. أوغستين - أنطوان جاء من سفر بعيد، يجب أن يستريح. أمامنا المساء والغد. وبعدهما أيام وأسابيع وشهور وسنوات. أعيدي عليّ قراءة تاريخ شفيسار الذي قرأناه أمس إن لم تكوني متعبة يا أيسيه. وصديقتنا جولي كالاندرين أليست من جنيف؟ هذه مدينة ممتازة وبلاد كاملة. وإن لم أخطئ أفليست شفيتسار هي التي انتقلت إليها مادلين من فرنسا برفقة ابنها الصغير؟ ما أخبارها يا ترى؟ أليست هي من حملت هنري دو فارغ على إطلاقها من السجن؟

- هذه التي تذكرها يا شارل لم تكن من معارفي - أجب أوغستين - أنطوان الذي كان جالساً إلى الآن صامتاً بجسم ورقبة متهدلين. - ولكن زوجها أرمانيو كنت أعرفه معرفة محدودة. كان طافحاً بالرجولة، وما إن ولد له الصبي حتى مات بأيدي البروتستانت الفرنسيين.

- برافو أوغستين! - صفق شارل دو فيريول لنفسه. - أنت وأنا، كل واحد، بيّضت وجهي من سمعة سيئة نشرها عني. أسمع يا ماري - أنجيليك الكونتيسة؟ كيف لم تسمع كلودين - ألكسندرين به؟ هكذا يمكن اتهام الإنسان بما ليس فيه! ليس احتمالاً من الأخبار السيئة التي أذيعت عني، ولو كانت عندي مثل هذه الهبة لما قلقت على مستقبل شارلوت - إليزابيت أيسيه...

- بابا - أسرع عاتشة - أليس عندي بون دو فيل وأرجنتال أخواي، وماري - أنجيليك ماما؟

- نعم، نعم - أسرع ماري - أنجيليك التي كانت تريد أن تسحب زوجها من الغرفة بسرعة. - وليسوا وحدهم. وكلودين - ألكسندرين أختها. أليس صحيحاً يا أوغست؟ - ولم تنتظر الجواب: - تعال يا كونت، استرح قليلاً من تعب الطريق. ولا يزال أمامك طريق طويل - "كأن هذا الجني حين رأى أخاه الأصغر عاد إليه الوعي، كم يصطنع الفطنة!" وفيما تخاطب نفسها بهذا الكلام وجب عليها أن تتوقف عند الباب.

- يا كونتيسة! - نادى شارل دو فيريول كَنْتَه - متى ستذهبن أنت وشارلوت - إليزابيت أيسيه إلى عقارنا البعيد بون دو فيل؟ بين اليوم والغد تقوّتان أيام الخريف الصاحية. أوغستين - أنطوان عاد إلى باريس ولذا لن أبقى وحدي في البيت. أسمح لكما بالسفر. وكما أوصيتك يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، التمسني أخبار مادلين وابنها وطمئيني. لحظة يا كونت أوغستين - أنطوان، لا تُسئِ إلى ماري - أنجيليك بسبب كلمة صدرت مني. وأنت لست في صحة ممتازة. وبما أنكما صرتما في جبهة واحدة فليحرص أحدكما على الآخر! ولتتحلّيا بالصبر. لن يغفر الله لكما ذنوبكما متى وقفتما في حضرته. ماذا قلت يا شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ - تغيرت سُحنة شارل دو فيريول دون سبب واضح فسأل بعينين لامعتين - ماذا كان اسم السلطان التركي الذي تنازل لي عن ولايته؟

- سأقول لك يا بابا، الآن ما إن تتناول دواءك. - وقالت لأوغستين أنطوان الذي توقّف لما سمع. - لا تقلق يا كونت! أنا سأجيب بابا على سؤاله.

لم يتبادل أوغستين - أنطوان وماري - أنجيليك أي حديث في الموضوع الذي يشغل بالهما ريثما اجتازا الردهة الطويلة. ولكن الكونتيسة التي لم تعد تتحمل وقع خطوات زوجها الثقيل قال:

- والآن ماذا يا كونت؟ من سنين ونحن في هذه الحالة... من لا يره لا يصدّق... - لم يقل أوغستين - أنطوان شيئاً ولكن زوجته سألته وقد لاحظت تسارع خطواته: - قل لي قبل أن تدخل غرفتك، لماذا يا كونت تصاممت عن أسئلتني؟ ما ذنبي؟ ألم تسمع أخاك الأكبر يوصيك بي؟ أم سحروك حيث كنت وأرسلوك إلي؟

- لا تقولي يا كونتيسة ما لا ضرورة له؛ أنا متعب!
- ومع ذلك أبعثُك بصعوبة عمّن كنت تجالسهم. - حين هبّ الكونت الآن كدبٍ غاضبٍ غيّرت الكونتيسة سلوكها بحيث لا تعرف إن كانت هي من تتحدث قبل قليل - نعم يا أوغست، من الضيق أقول ما لا نفع فيه. ما إن تخرج من الحمام حتى تراني جاهزة لك فأنسيك كل ما يثقل على قلبك. لن أدعك تذهب إلى غرفة الطعام، سأوصي أن يأتوا به إلى غرفتنا فنجلس قليلاً نتحدث. دعنا نحن أيضاً نمتّع أنفسنا ولو في شيخوختنا.

- يا كونتيسة! - توقف الكونت الذي كان انصرف كدبٍ يقف على قائميه الخلفيتين في وجه من يستضعفه، وقال: - وهل أنتِ عجوز هكذا؟
- هذا سنعرفه يا كونت - تأملت ماري - أنجيليك بنظرة مخادعة ومتوسلة وجه زوجها - حين نأوي إلى الفراش. ولكن أعرف طبيعتك، لن نستمتع بحلاوتنا لأن الحياء يغلبك.

- لا تفكري على هذا النحو؛ اشتقت إليك.
لم تُظهر ماري - أنجيليك على نفسها عدم استمتاعها التام. ولاطفت الكونت قائلة لنفسها: لن أدع هذا الأبله يرتاب في شيء:
- الله شاهدي يا أوغست، أمتعتني وأنت تذكّرني بشبابي... أدّر ظهرك يا روحي لأني أريد أن أنفض.

- ماذا جرى لك الآن يا نوري؟ - ابتسم الكونت الذي يرتدي على ظهره قميص المنامة. - أأست من طلب رفع الحياء ما بيننا!

- لننسى في الوقت القصير الذي نجلسه هنا الابتذال الذي مارسناه في الفراش. وإلا فلن نلتذ في المرة القادمة. ما يجري في الفراش له أساليب كثيرة حقاً - نادى ماري - أنجيليك حين رأت زوجها يرتدي ملابسه ببطء: - إذن ماذا تفعل وأنا أمدحك؟!

- نحن نلتذ غير أن أخي الأكبر هناك ينتظرنى لا يعرف ماذا حدث لي. "يكفيه ما جرّب من النساء... قبل أن يسافر إلى تركيا، وفي غيابك، يكفيه ما كان بيننا نحن الاثنين... كان رجلاً حقيقياً لولا أن الإفراط في النساء دمر عقله. يا للقرف، لا رأيث نفسي في فراشه واللعب يسيل من شذقيه! وأيسيه العجفاء ذات الساقين النحيفتين ليست بريئة. لا شيء تتورع عنه إذا أغريتها بشيء من المال..." - أيدت ماري - أنجيليك زوجها وهي تردد في نفسها. - وهذا حق يا أوغست... البائس الذي في انتظارك... لا تصدع رأسك بكل ما يهذي به، لا تُطل جلوسك إليه - تابعت بنظرها الرجل الممتلئ الذي كان يعبر الباب بصعوبة قائلة في نفسها "وكيف يمتعك مثل هذا الرجل؟" ولا تنس أني لن أدع فراشك يبرد.

لم يغيب أوغستين - أنطوان نصف ساعة. وحين دلف إلى الغرفة التي تنتظره فيها كانت ماري - أنجيليك على الفراش تشخر بكل قوتها فاردةً يديها ورجليها، وطرفٌ لحافها على أرض الغرفة. وأطراف شعرها متناثرة على الوسادة. ونهداها الأبيضان ظاهران من فرجة القميص. وحين نظر أوغستين - أنطوان الذي امتلأً يأساً من حال أخيه إلى زوجته تصبّر رغم اشتهاه إيها كي

لا يقطع نومها السعيد. وما إن مدّ يده إلى طرف اللحاف على الأرض حتى أفادت الزوجة:

- هذا أنت يا أوغست؟ سألت ماري - أنطوانيت وهي تزيح شعر رأسها الأشقر من أمام عينيها.

- أنا، أنا؛ اطمئني!

- لأجل هذا يقولون: المرأة ترتاح إلى الرجل. بقيت أنتظر وأراقب الباب حتى غفلت. هل غبت عند الكونت وقتاً طويلاً؟

- لم نكد نجلس حتى غلبه النوم فأرحته ورجعت.

- هل أساء إليك؟

- لا، ابتسم أوغستين - أنطوان - متردداً. ورغم أنه سأل: من أنت؟ فقد تعرفني شيئاً فشيئاً.

- افرح إن لم ينهرك أو يثر عليك! لماذا لا تأوي إلى الفراش يا أوغست؟

- كنت أنوي أن أعود إلى غرفتي بعد أن أعطيك.

- ألن يسعنا هذا الفراش الكبير؟ ألا يكفي ما أمضيئ من سنين وحيدة وأنا

عندي زوج وليس عندي. أم - ابتسمت له برياء - تخاف أن ألحّ عليك في ما

لا تريده؟ ما متّعني به يكفيني سنوات. نم إلى جانبي يا كونتي الجميل. -

سألت الكونتيسة الرجل الذي خلع بكل تكاسل: - ألم تخبرك أيسيه بشيء

يتعلق بأخيك؟

- لا، وماذا ستخبرني أيسيه؟

- وكيف أعرف؟ - كلتانا مربوطتان إلى الكونت. توقفنا عن زيارة "أبلون"

و"بون دو فيل"، صارتا من الماضي. انتظرناك طوال الصيف حتى نزور بون دو

فيل... الكونت المسكين، وأنت ترى، يصبح الاعتناء به أصعب يوماً بعد يوم.
كنا نريد استشارتك في شأن البحث عن مشفى أو غيره...

- يا كونتيسة! - رمى أوغستين - أنطوان الغطاء عن جسده، وجلس وسط السرير - أيّ عيب هذا الذي في ذهنيكما؟ أنا وحدي كفيل بالاعتناء به.

- نعم يا أوغست - عانقت ماري - أنجيليك زوجها - ولم لا تعتني به؛ ليس له من هو أقرب منك. وهو الذي رعانا طوال عمره. ولا يزال ينفق علينا، وطبعاً نحن أقرباؤه. لأننا لا نريد أن تحمل عبئه. ونحن لولا أننا نساء ما كنا شكونا جملة. اطمئن يا روحي، لم نقل شيئاً وأنت لم تسمع شيئاً. ورغم وضع أخيك فنحن نشاق إليه إن مرت ساعة واحدة. ما أشد شفقتة ورحمته، نخبه. باريس كلها تسأل عنه.

قال أوغستين - أنطوان دو فيريول الذي هدأ مع الكلمات الدافئة لنصائح زوجته:

- شكراً يا كونتيسة على تفهّمك لي. وفي وموضوع بون دو فيل و أبلون أنت على حق. إذا أهملت هذه الأرض تحولت بوراً. اذهبوا إلى بون دو فيل؛ الخريف فيها صحو. واستريحوا فيها.

- لا، لا يا أوغست. لا أستطيع أن أتركك إلى جانب أخيك المريض وأنت قادمٌ للتو. إن عشنا في الصيف والخريف القادمين.

- هذا ممكن، ولكني أريد أن تستريحوا في خريف هذا العام أيضاً. لا تقلقوا على الكونت، نحن سنعنى بشؤونه. أرى أنه لم يتبقّ له الكثير. - انكسر صوت أنطوان - أوغستين. - إن لم أحقق له هذا فماذا سيقى؟

- نعم يا أوغست، يا حسرتي... - عانقت ماري - أنجيليك زوجها وهي تمسح بيدها على جسمه. - وأنا ليس عندي أمل في هذا المسكين... إذن،

إن سمحت لنا، فالله يحميننا وإياكم، سنسافر... - ثم أنهت الحديث بما تريد:
- لا أعرف ماذا سيحدث لي في الطريق البعيد، أنا أشكو من ارتفاع الدم إلى رأسي؛ لو رافقنا الدكتور لاروش كان أفضل.
- وأنا فكرت في هذا. اصحبوا لاروش، ونحن هنا سنبحث عن طبيب متخصص أكثر منه في مرض شارل. - أوغستين أنطوان بين يريد ولا يريد، وكيف تشك في ما لا تعرفه، وافق على ما ألحّت عليه المرأة.
ولكن ماري - أنجيليك حين تفكرت في ما كانت تريد، عرفت أن هذا التصرف له عواقب، فغيّرت بسرعة:
- حسناً، لا أريد أن أؤدي الكونت في الطبيب الذي اعتاد عليه. لا بد أن نجد طبيباً ما حيث نسافر.

V

"الطريق يحضرون له طويلاً ولكنهم سرعان ما يركبونه" شهدت رحلة ماري - أنجيليك إلى بون دو فيل على صحة هذا الكلام. ففي اليوم الثالث كانت العربة على بوابة آل فيريول.

كانت عائشة، دون أن يبدو عليها، مسرورة بالرحلة أكثر من ماري - أنجيليك التي كانت تردد "على أي حال، سنتنزه، وسنرى قطعة الأرض الجميلة، ونحميها". الأمر الوحيد الذي كان يريحها ليس ابتعادها عن الرجل الذي كان يسبب لها الحرج باشتهائه لها، ويجلب لها الشقاء شارل دو فيريول، مع أن قلبها كان يتألم لحاله، دون توديع بون دو فيل وأرجنتال على نحو متمهل، وعدم إخبار جانيت - نيكول بوجهة سفرها، إذ شبت بكاء في ليلة سفرها على هذه الأمور، فعند الضرورة كلٌ وتديره لأمره، بل كان إخفاؤها لحملها بالمشد، وإخراج سرها المخجل من بيت آل فيريول، ومن باريس التي لا تفهمك، هذا فقط ما كان يريحها.

أهذا فرح أم تعتبر حظاً؟

في العربة التي تركت باريس وراءها واتجهت إلى الشرق، إلى بون دو فيل غير البعيدة عن حدود شيفيسار، ثلاث نساء: ماري - أنجيليك الكونتيسة، وعائشة وصوفي. وهن فرحات بإنصاتها إلى عجالات العربة وإيقاع حوافر الأحصنة، ورؤيتهن لسفوح الجبال والغابات، غير أن قلوبهن غير متجانسات كما أن ما يرينه كذلك.

وعلى ما تذيع ماري - أنجيليك عن نفسها، فهي مسرورة لأنها تخلصت من حمل أسرة آل فيريول الثقيل، وواجباتها التي لا تنتهي ومشكلاتها. ولكنها قلقة

قليلاً لما ينتظرها في بون دو فيل، وما سيجري عليه برنامج استراحتها وعدم اصطحاب لاروش، ونادمة قليلاً عليه.

ولا يقتصر الأمر على ما سبق، بل يتعداه إلى شكها في عائشة، هل سيصدق حدسها فيها أم يخيب. وتفكر في الطريقة التي ستتأكد بها: "إذا لاح من بطنها الصغير ما تخفيه فيم ستتججج؟ وماذا ستفعل؟ جنس النساء الذي يخلق الله الرجال متهافتين عليه جنس ضعيف. - تحمل طوال عمرها ضعفها سواء بإرادتها أم رغماً عنها. المسكينة كلودين تخفي مشاعرها نحو ولدها ولكن من يعلم ما يجري في داخلها. كم قلت لها أن تُسقطه بأي طريقة! الدين لا يقبل، والله لن يسامحني، ووافقها أخونا الأسقف بيير فلم تطعني. أأتكون أيسيه تشكو من العَرَض ذاته؟ إذا كان الأمر هكذا فلماذا تجشمت عناء السفر الطويل؟ أطلّعي على حقيقة أمرها إذا وصلنا إلى بون دو فيل؟ وإن لم تُطلّعي فمن يا حسرتي تطلع؟ ومن يا ترى الأب؟ الكونت أم شفالبيه؟..."

ومع أن عائشة التي يُهبطها المشد الثقيل كان لديها الكثير لتفكر فيه فإن ما تراه من خلال نافذة العربة يُلهيها عن هذه الأفكار.

- انظري يا ماري - أنجيليك يا ماما ما أجمل الغابة التي على سفح الجبل!

- تتعجب عائشة مما ترى - مكسوةٌ بحشيش ملون من ارتفاع واحد.

- نعم يا أيسيه، وأنا لا أشبع من تأمل جمالها. يا للحسرة كلٌّ يفقد جماله في حينه! - تنهدت ماري - أنجيليك، ثم أضافت: - خلال شهر ستكونسها الرياح الباردة.

- ومع ذلك - وعائشة لا تغير رأيها - ستكتسي في الربيع القادم بالأوراق الخضراء.

- ليس نصف سنة قليلاً بالقياس إلى العمر... - ابتسمت ماري - أنجيليك، مع أنها تنهدت، قائلة في نفسها "لم يكن بعد وقت اكتشافكما هذا".

- من كان جميلاً في زمنٍ ما يبق فيه نسعُ جماله - قالت صوفي ومدحت ماري - أنجيليك: - أنظر إليك يا كونتيسة فلا أرى شيئاً تغير فيك منذ عرفتُك، ما تزالين على جمالك!

- شكراً يا صوفي - أضاء فرح ماري - أنجيليك وجهها - على العين التي ترينني بها. نعم، حافظت على حالي رغم أنني أنجبت ولدين، اعتنيت بنفسي، وما أزال، ولذلك أنا جميلة. صحيح ما يقال من أن المرأة التي تنجب تصبح أجمل. انظرا، لا أكنتم، ليتكما رأيتماني أيام العزوبة. كنت أجمل بكثير من أختي. ولكن أكذب إن قلت إني أجمل من أيسيه. لا تغتري بما قلتُ يا أيسيه فتصابي بالغرور. - مزحت ماري - أنجيليك مع عائشة واختتمت بما يُهماها: - ولكن في هذه الأشهر الثلاثة أو الأربعة تراجعت صحتك، لا أعرف ماذا حدث لك. أراك لا تعنين بنفسك، ولا يطاوعك قلبك. نعم يا بُنيّتي أفهمُ انشغالك بالكونت المريض، ليس إرضاءه بالأمر السهل. ما العمل؟ أرهقك. ولست وحدك، نحن أيضاً نشاركك القلق. ويُهمني أيضاً شكاوى ديستان ورفاقه. وكلما اشتكوا زدْتُ في أجرتهم.

- ما الأمر؟ - ما سمعته صوفي وترّها - ألأن الكونت علّم ديستان لعبة الشطرنج، أم لأنه يغفل مع الكونت، يشكو التعب؟

- لن تقولي أصدق من هذا يا صوفي! - غيّرت ماري - أنجيليك كعادتها حين تتجاوز الحدود:

- لماذا نصعد رؤوسنا بمشكلات أسرتنا في الوقت الذي جئنا فيه إلى هنا لنستريح؟ انظرا إلى هذه الشمس المشرقة ما أجملها! سنصل إلى أبلون حين

تصبح فوقنا. ولماذا نحن مستعجلات؟ سنقضي ليلتنا في ملكيتنا وغداً صباحاً نتابع طريقنا. أليس صحيحاً يا أيسيه؟ يجب أن يكون صحيحاً، أنظر إليك فلا أعرف ما الذي لا يواتيك. - نادى السائس ملّمحة إلى ما تريد قوله: - لا تدع العربية تقذف بنا هنا وهناك، احرص علينا!

التفتت عائشة إلى صوفي وابتسمت. وقالت لنفسها: "ما ترتابين فيه يا ماري - أنجيليك صعبٌ إخفاؤه. ولكن ليس اليوم ولا غداً ولا بعد غد أطلعك عليه. بل حسب ما أوصتني المركيزة ماري - كليز بولينغبروك بعد أن أقابل جولي كالاندرين... أفهمُ أنني لست عادلة معك. أنتِ أول من كان عليّ إطلاعها على ما جرى لي، ولكن لا أعرف لماذا لا أصبح موضع ثقتك. لأنك كتمت عني حمل كلودين - ألكسندرين؟ ربما كان أحد الأسباب. ولكن لم أكن أريد أن أفصح سرّي في بيتي وأسبب العار لأخويّ. لا أزال إلى اليوم أتذكر الموقف الذي اتخذاه من كلودين - ألكسندرين. ثم ربما خوفي من أن تقولي "لا تهتمي بكون الدين لا يقبل، ولا بما سيقول الناس، وأسقطي الجنين" فتحمليني على أن أفعل ما لم تفعله أختك. ولكن إذا قدر الله هذا فلن أعارضه وأذنب بحقه..."

مع أن صوفي كانت جالسة مزمومة الشفتين، متحفزة لحماية عائشة فلم يكن بين النساء الثلاث عداً سافراً.

كان طريق بون دو فيل سهلاً على عائشة بعكس ما توقعت. ربما بسبب نقاء الهواء ونعومة النهارات فقد نسيت هي ورفيقتها كل مصاعب الطريق الطويل في يوم وليلة. وبدأن بالاعتیاد على رائحة الطعام في غرفهن الخاصة وفي غرفة الطعام. ومع أن آل فيريول غابوا عن البيت قرابة ثلاث سنوات فالعمال المستأجرون يحافظون على الملكية نظيفة تماماً. والخدم في الدار الواسعة لا

يكفون عن العمل. والدجاجتان الذهبيتان المبسوطتا الجناحين كالمروحة تدبّان مغترتين بجماهما. وبقرة حلوب في الإسطل المقابل للبيت. وعلى جدار المسطبة غُلّقت الجرار التي يحفظون فيها الحليب. وأشجار الإجاص والخوخ ما تزال تحمل نتاجها. والعنب الذي موسمه الآن يتدلى من العرائش. وسلاسل من البصل والثوم وعرائيس الذرة معروضة للشمس. والعصافير تتنادى في ذرا الأشجار.

- أترين يا أيسيه ماحرّمنا منه كل هذه السنوات؟! - قالت ماري - أنجيليك الكونتيسة وهي في الأرجوحة المعلقة بالشجرة. - لا يجوز أن نحرم أنفسنا من مثل هذا العالم الجميل. انظري هناك جهة شفيصار كيف تضيء قمم الجبال البيضاء. فرسانا جميلة ولكن إن شأؤوا أم أبوا فهذه البلاد أحلى. إنها كالجنة. قبل أن نأتي إلى هنا لم يكن على لسانك إلا الرغبة في زيارة جولي كالاندرين. والآن، عجباً، لا تقولين شيئاً.

- إن قلت لنذهب إلى كالاندرين اليوم فأنا جاهزة - جعل السؤال المنتظر عائشة تسرع في الإجابة.

- ألا يمكن أن تذهبي أنتِ وصوفي وحدكما؟
- يمكن، ولكن أليس الأفضل معك؟ - سألت عائشة الكونتيسة من خارج قلبها.

- كفانا يا أيسيه نذهب دائماً معاً! استريحِي أنتِ ودعيني أنا أستريح. قالت ماري - أنجيليك دون خبث، واختتمت بمزحة: - لا تخافي؛ لا أحد يتقصدي هنا. غير أن الدنيا مرّعبة من المفاجآت، الله أعلم...

- كم يمكن أن نبقي عند جولي يا ماما ماري - أنجيليك؟

- ابقيا بقدر ما تريدان - أجابت الكونتيسة وصورة الرجل الذي تعارف
أمس هو وعائشة ماثلة في ذهنها حلوة - أنتما لن تشتاقا إليّ أبداً، ولكني لن
أستطيع العيش دونكما... وفي حال الضرورة ألحق بكما. لا تسافرا الآن
فالوقت متأخر، غداً تنطلقان - ألقت ماري - أنجيليك نظرة ارتياب وراء
المرأتين اللتين تصرفهما من الغرفة، وصاحت وراءهما: - يا صوفي، حمالة صدري
تخرّشني، ولا أعرف لماذا لبستها. فُكّيها لي، واغسلي لي رجلي بالماء الفاتر. لا
يا أيسيه، شكراً. استرخي! يدا صوفي تريخاني أيضاً كما يداك. من حظي
وجودكما الاثنتين معي.

عرفت عائشة أنها، ولو أنها أخفت عن ماري - أنجيليك حالها إلى الآن فقد
غدا مستحيلاً. كانت منذ أن حملت تفكر في إخبارها غير أنها تؤجل من يوم
إلى آخر حتى فوّتت الوقت. اغرورقت عينا عائشة، ولكنها هدأت وهي تلوم
نفسها: "لم أتصرف على نحو حسن تجاه من ربّني كل هذه السنين. كانت هي
أول من يجب إعلامها. فهمتني جانيت - نيكول وآل بولينغبروك وصوفي.
وآمل أن تفهمني جولي التي سأسافر إليها غداً، وأن تساعدني. يبدو لي أنني
تناسيت معروف ماري - أنجيليك بسبب بعض ملاحظاتي عليها. أعجيب إن
كانت تريد معرفة كل شيء والتحدث في كل موضوع؟ هي من هذه الطبيعة.
تأملني - أبتسم لها، تناورني في الكلام - أغير الموضوع. إذا سألتني صراحة
عما تشك فيه فبم أجيبها في الحال عما لن أستطيع كتمانها؟ وكيف أنظر في
عينها؟ أفتحتها قبل أن أسافر إلى جولي أم بعد؟ لا يزال عندي متسع من
الوقت. يا عائشة شارلوت - إليزابيت أيسيه لماذا أنت بهذه الحالة؟" - نهرت
نفسها وهي تنادي نفسها باسمها الأديغي واسمها الفرنسي. نهضت عائشة

بقامة ثابتة وكأنها غيرُ من كانت في هذا الضيق الكبير، واتجهت إلى ماري -
أنجيليك الكونتيسة.

- يا أيسيه؛ هناك ما يُقلقك؟... نظرت ماري - أنجيليك نحو صوفي التي لم
تكن تجد عندها جواباً لشكوكها وسألت من لم تكن تنتظر عودتها.

- لا - فهمت عائشة من نظرات صوفي مغزى السؤال الملحّ عليها، فندمت
على قدومها - لا أستطيع البقاء وحدي في الغرفة التي لم أعد عليها. وقلقة
على ما يحدث لبابا هناك.

- وماذا سيحدث عندنا؟ - كان جواب من تكظم فضولها بمشقة حاضراً تماماً
- الكونت فراشه نظيف، ووثير، يأكل وينام، ويُقرأ له كتاب ما. ويلعبون معه
الشطرنج... لا تخافي سيُعنى به مَنْ عهدنا به إليهم. ولا بأس أن يهتم الكونت
أوغستين - أنطوان الذي قضى حياته وراء سعادته بأخيه بعض الوقت. ألا
يكفي ما تعبناه نحن؟ انظرا ما أجمل الطبيعة! لننس متاعبنا في وقت استراحتنا
المحدود! أتعرفان أحسن ما نعمله الآن؟ أن نشرب بعض النبيذ. أليس صحيحاً
يا أيسيه؟ لا تتلوي كثيراً! أعرف، أنت لا تشربين النبيذ...

- وأنا أيضاً يا كونتيسة - حسمت صوفي أيضاً كأنها مُكرهة على الشراب.
- وأنت ماذا يا صوفي؟ - سألتها ماري - أنجيليك باسمه - أتعرفين في نفسك
مشكلة تمنعك من الشرب؟

- لا تظني أن كل من لا يشرب يعاني من أمر ما يا ماما ماري - أنجيليك.
- أجابت عائشة وقد عرفت أن السؤال موجّه إليها، قائلة "حسناً فعلتُ إذ لم
أفتحها" - هناك من يواتيهم ومن لا يواتيهم.

- قولي لي هل تواطأتما على أن تجيبا الجواب نفسه! لا تشربان لا تشربا؛ لا
أحد يجبركما. - عرفت الكونتيسة أن مرادها لن يتحقق فغيرت المسار إلى

مزاح: - إن كان هذا موقفكما فسأدعو جارنا الرجل الوسيم إلى الشرب معي.
- سأفعل هذا بعمك أوغستين - أنطوان يا أيسيه. وإن كنت ترينني أمزح،
ليس الآن، بل حين نعود من جنيف. لا تأملا أن أرسلكما وحدكما إلى هناك،
فأنا مسافرة معكما. - غيرت الكونتيسة فجأة موقفها السابق من رحلة
جنيف.

في ظهيرة اليوم التالي ظهرت جنيف متناثرة على الذرا غير العالية، وبين السهول
الواسعة والمضائق الطويلة. وبيوتها غيرُ بيوت باريس الشاهقة - وتغلب البيوت
المستقلة المسقوفة بالقرميد الأحمر على البنايات التي من طبقتين أو ثلاثة. وتبرز
في المدينة قباب الكنائس الكاتوليكية المديبة. والشوارع الممتدة، والمتعرجة،
والتباب الصاعدة النازلة، والأشجار المتنوعة، والقرى المجاورة، تزيد اتساع المدينة
وترينها. والهواء النقي الحائم فوقها ينعش القلب.

- هذه التي يسمونها جنيف - لم تُطق ماري - أنجيليك صبراً - أتران ما
أجملها! ما أسعد من يعيشون فيها! نحن لا نجد هواء نستنشقه في باريس التي
تفوح منها رائحة السمك والصفادع. والملك وأورليان سكنا فيرساي وتريانون
ونسيانا وهما يستمتعان بالشابات الجميلات. ولا يعبان بما يحدث في أهم مدن
فرنسا وأعزّها... - مع أن الكونتيسة كانت تحدّث نفسها فحسب فقد
قاطعت صوفي التي تريد أن تقول شيئاً: - كفى يا صوفي، لا تفرغي، وأنا لم أقل
شيئاً يتعلق بهما، وأنت لم تسمعي شيئاً.

- وهل أهتم بما كثيراً يا كونتيسة! - أجابت صوفي بلامبالاة.

وعائشة التي لم تهتم بشيء من ثرثرة ماري - أنجيليك التي لا موضوع لها قالت:

- أ تكون مادلين تسكن في جنيف أم في إحدى القرى المجاورة؟

- أنسبت يا أيسيه - صاحت صوفي التي ما كانت ترفع ناظرها عما أمامها:

- أن الكونت قال إنها في إحدى القرى؟

- من هذه التي تتكلمون عليها دون أن تسمعا ما أقول و تهتما به؟ أهى المرأة الفاجرة التي توسط لها الكونت فأخرجها من السجن؟ وجدتما موضوعاً للحديث! منذ سنوات لم تبق لنا وسيلة للعيش بسبب هؤلاء النسوة. وهو لا ينسى المرأة المتحررة. ماذا يفعل بها ولم يحتاجها؟... بدلاً من أن يحرص عليك ويرعاك يكلفك بمهمة. لا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، لا أعاتب الكونت المسكين - حين لاحظت الكونتيسة أن ما تقوله لا يعجب عائشة غيّرت الموضوع على عادتها: - ما الفائدة من معاتبة المريض الذي صار عديم الحيلة؟ ولكن ألا تعرفين نحن النساء إرضاءنا صعب. أفضل من هذا أن نأتي على ذكر جولي المرأة الحكيمة التي نحن مسافرات إليها. هذه ستستقبلكما بطريقة تنسياني معها، بترحيب حار ونعومة ولطف. لا تظناني أقيس نفسي إلى جولي إذ لا أخلو أنا أيضاً من بعض الخير. ولكني لن ألحق بها.

- وأنت يا ماري - أنجيليك امرأة طيبة تستحقين أن يغبطك الناس - سألت عائشة صوفي، وهي تعرف أن الكونتيسة ستفرح لمديحها، مفهمة صوفي ضرورة موافقتها لها في امتداح الكونتيسة إن كانت تستحقه أم لا: - أليس صحيحاً يا صوفي؟

- بديهي، لا أعرف ماذا كان سيحلّ بأسرة فيريول لولا ماري - أنجيليك. -
أيدت صوفي عائشة ألياً.

- كفكما امتداحاً لي؛ لا تظنا أنني سأحبكما أكثر وسأنفذ رغباتكما إن مدحتماني. - مازحتهما الكونتيسة قائلة في نفسها "لو عرفت سركما لسرّني

أكثر من هذا المديح الذي تكيلاه لي . ولكن هذا؛ إن عاجلاً أم آجلاً، وثقة
أنه سيكشف لي".

VI

استقبل أهل البيت ضيفاتهم اللواتي انتظروهن منذ وقت بعيد بترحيب حار. وأضاء الفرح بيت جان - لوي كالاندرين.

حين يكون اللقاء بعد فراق طويل، بالإضافة إلى أن المائدة حافلة بأنواع الطعام، ستقوم بين الجالسين أسئلة وأجوبة كلٌّ منها أغرب من الأخرى، ولن تشعر بمرور الوقت. ومهما كانت ماري - أنجيليك تستغرب ما تسمع، وتروي هي أخباراً أعجب، فما كان في ذهنها اللحظة أمراً آخر: ستختلي بجولي وستعرف إن كان لديها فكرة عن موضوع عائشة الذي ترتاب فيه. قالت الكونتيسة مستغلة فرصة انقطاع الحديث بين الحضور:

- أكرميتنا يا جولي ولو فاجأناك بحضورنا. لم نترك موضوعاً لم نتطرق إليه سواء من فرنسا أم من شفيسار. ولكن يُحِيلُ إلَيَّ أن شارلوت - إليزابيت أيسيه وصوفي تعبتا على الطريق فلنمنح استراحة للشباب. إن لم تكوني متعبة يا أيسيه فلا بأس. ولكن ابنتي آل كالاندرين رونه كثة آل ريه، وابنتها الكبرى سوزان اشتاقتا إليك، وأراها تريدان أن تقولاً لك شيئاً، وأنت لا شكّ عندك أخبار لهما سرية أو علنية.

حين خرجت الشابات من الغرفة سألت ماري - أنجيليك جولي:

- ألا تلاحظين تغيراً على عائشة، شيئاً غريباً عنها؟

- أرى عائشة تصبح أجمل، وطبعها أحلى - تجنبت جولي الإجابة على

السؤال الذي فهمته، وردت بسؤال: - ما الأمر؟

- ومن أين أعرف - إن كنت ترينها هكذا فهو حسنٌ... ولكن الشاب

الممنوع من الزواج شفالبيه الخبيث... تعرفين نحن النساء كيف... لا أريد أن يضحك عليها.

- بليز - ماري دو إيدي شفالبيه من معارف أسرتنا. نعرف أنه إنسان رزين، وهو صديق اللورد هنري بولينغبروك، لا أظن الأمر يصل بينهما إلى ما ترتابين فيه نتيجة تعارف شابين ولقائهما. لا تدعي في رأسك مكاناً لهذه الأفكار يا ماري!

- لا بأس إذن يا جولي... الأمّ، لأنها أمّ، شديدة الارتياب.

- هذا صحيح يا ماري؛ غير أنني أعتقد أن هذا الموضوع يتداخل بغيره.
- وما هو؟ - ظننت الكونتيسة أنها جرّت جولي إلى الموضوع الذي تسأل عنه فأسرعت.

- أقول ربما ملّت إحداكنّ من الأخرى!

- هذا هو؟! - سألت الكونتيسة وقد استاءت من تجاهل محدّثتها الموضوع، ثم ابتسمت وأكملت: - ليس مستبعداً حصول هذا بيننا.

- إن كان رأيك هكذا يا ماري - فرحت جولي لأن ماري اقتربت مما في نفسها - لي عندك رجاء: إن وافقتِ أوّلاً لو تبقى أيسيه إلى جانبي قرابة شهر.
- وأنت هل مللتِ من ابنتيك؟ - قبل أن يرد ما وُجّه إليها أدلت هي أيضاً بدلوها، ولكن رغبتها في الرجل الذي تقرب إليها سرعان ما لطّف موقفها: - إن كنت ستستبقيين أيسيه عندك شهراً فهل يحتاج هذا إلى رجاء يا جولي! وليست وحدها: إن لم تثقل عليك فاتركي صوفي معها أيضاً، ستكون مفيدة لكما.

- وأنت يا ماري، كيف تتدبرين أمورك في بون دو فيل؟ - سألت برياء وإن لم تكن قلقة على الكونتيسة.

- لا تقلقي عليّ يا جولي الجميلة! - أشارت ماري - أنجيليك إلى نفسها وقد أنارت ضحكاتها وجهها: - ألا تعرفين طبيعتي طوال عمري؟ أعتد على نفسي في شؤوني ولا أتوكل على أحد. وخدمنا أناس طيبون، ساندبر أمري. - ثم لامتها وهي تمازحها: - ولكن لم تردي على ما قلت لك بشأن ابنتيك. - وهاتان يا ماري - ردت جولي بمزحة أخرى من لسانها لا من قلبها: - أظنن أنهما أحسن من أيسيه - ليس منهما إلا وجع الرأس. كنّة آل ريبه، كما تعرفين، ستعود خلال أيام إلى زوجها في فرنسا. والكبرى فاتحا قطار الزواج فنحن في مشكلة. نتوقع أن تعقل إن جالس أيسيه بعض الوقت. - نعم، يا جولي، نعم - أيدت ماري - أنجيليك جولي بلسانها، وقالت في سرّها: - "يا لهذه" "الآنسة" التي تتأملان منها العقل!"

وحين مضى الشهر الذي طلبته جولي كالاندرين قالت لعائشة: قضينا المهلة التي طلبناها يا أيسيه - والآن بعدما تجالسنا كأمّ وابنتها حتى تألف قلبانا، وبعدها حققت لشارل دو فيريول المسكين رجاءه بشأن مادلين، يمكنك العودة إلى ماري - أنجيليك في بون دو فيل.

- ألم يتبين يا جولي أن مادلين امرأة ممتازة من جهة شخصها ومن جهة ابنها؟ أسعدّها ذكر اسم المرأة التي بحثوا عنها ثلاثة أيام - كم كان بابا سيفرح لو رأى عيشتها وسلوكها! سأروي كل هذا له. ما أخبار هذا المسكين يا ثري؟ أهو مرتاح مع من تركته لهم؟

"لا ألحظ في أيسيه إلا كل خير. - تعجبت جولي مما سمعت - لا تنسى أقاربها وتقلق لأجلهم رغم الأزمة التي تعيش فيها: لا يمضي يوم لا تسأل فيه عنها دون أن تعبأ بما بدر من شارل دو فيريول، وبإهانتها لها قائلة "لا يجوز معاملة المريض كإنسان سليم، ولا تعتب عليه" و "بابا" و "أبي". وما أعجب أن تنفذ

له الكلمة التي سقطت من فمه بشأن "مادلين" وهي التي لا تعرف عنها شيئاً ورغم حملها. ولم تغفل طوال الشهر عن ماري - أنجيليك المزاجية. وكتبت إلى بون دو فيل وأرجنتال قبل أن يمضي أسبوع على ابتعادها عنهما. ظلت تذكر كلودين بالخير رغم فتور العلاقة بينهما. لماذا؟ أهو رياء أم طيبة قلب؟ أي ارتياب في مثل هذه المرأة حرام. " - خرجت جولي من أفكارها، ونصحت جليستها بلطف شديد:

- أمورك يا ابنتي، وسترين، ستنجلي على خير وجه. ولكن لنتكلم ثانية على تطور الأحداث: لا تقتلي نفسك أسيء بداعي أن ما حدث لك لم يحدث لغيرك. وآل بولينغبروك وأنا، كما قلت لك، حين تنحل أمورك في سانس، عند إيزابيل - لويز، نرجوك لا تتركي الطفل في الدير. ستندمين إن فعلت. اسمعيني: الولد نارٌ شديدة ستحرقك أنت. وآل فيريول أين سيذهبون بك؛ ستعودين إليهم.

- لا يا جولي، لا تراجع عما قلته - احمرت عائشة كالجمر وحسمت الأمر: - لا نعدُ إلى الموضوع، لن أتسبب لشفالييه بمشكلة.

- لا أعرف كيف يكون مصيرك إن كنت قررت بلا رجعة يا أيسيه... - تراخى صوت جولي وأضافت إلى كلماتها قائلة: "هذه المرأة التي أحببْتُها وامتدحتها امرأة عنيدة": - ما العمل إذن إن كنت لن تطيعينا؟ كما تريدين. حين تعودين إلى بون دو فيل أرحي أعصابك هناك. ولا تهتمي بتلميحات الكونتيسة ومناكداها. ماري - أنجيليك، وأنتِ تعرفينها، ليست امرأة سيئة. خلال أسبوع تقريباً، في أواخر هذا الشهر، سيزوركم آل بولينغبروك بحجة زيارة "لاسورس" كعادتهم، وسيترجون ماري - أنجيليك أن تصحبهم إلى بيتهم. وستوافق الكونتيسة لأنها لا تُمسك شيئاً عنهم. وسيأتي إليك دو إيدي شفالييه

قبل موعد وضعك بشهر إلى لاسورس، وسيقودك إلى الدير الكائن في "سانس" الذي ترأسه إيزابيل - لويز ابنة آل بولينغبروك. فإن انحلت المسألة هناك بعون الله فستعودين إلى باريس. - عادت جولي فلطفت من لهجتها إلى من يتألم قلبها لها وتشفق عليها قائلة في نفسها "أُمّ الخطيئة لا أتعس منها" - ما تحتاجينه الآن يا ابنتي هو الراحة ورباطة الجأش. وأنا واثقة منك فيهما. مع السلامة وسفراً سعيداً. وأينما كنت فتذكري أني، بعد الله، معك. وإذا عدت إلى باريس فاكثبي لي وأبلغيني ما يجري لك.

تحقق لعائشة ما دعت المركيزة جولي الله من أجله، وما وعدتها به، في بون دو فيل ولاسورس، دون إشكالات، فوضعت حملها في دير سانس. الفتاة التي وُلدت لبلير - ماري دو إيدي شفالبيه وشارلوت إيزابيت أيسيه الكونتيسة سموها "سيلين" وكتب في سجل الدير اسمها ونسبها هكذا: "بلير - ماري لو بلون شارلوت سيلين". في 26 نيسان عام 1721.

VII

هل كل النساء الجميلات محظوظات؟ لا يندر أن يعيش أمثال هؤلاء، في فرنسا، في شركيسيا. ولكن إذا كانت المعنئة بالسؤال هي من أنسوها اسمها واسم أسرتها الأديغيين بولت آيشت، والتي تحمل اسم شارلوت - إليزابيت أيسيه فيريول فالإجابة صعبة.

إذا لم يعرف سرّ الإنسان غيره فليس لهذا جواب حاسم أيضاً. ولكن "السرّ الحلو" الذي فعلته بنفسها انقلب على غير ما توقعت إلى "سرّ مرّ". وربما لم يكن في ما حدث لها مشكلة كبيرة إذ تحدث في الدنيا حوادث كثيرة من هذا القبيل، وفي فرنسا. حتى لو استأصلت كلمة "ابن سفاح" القبيحة من جلدك، ولو كان الأديغة قومها يعتبرونه ابناً لا يُنسى أصله أبد الدهر... لكانت عائشة تحمّلها كما تحمّل غيرها من المصائب. لو لم تتخل عن هذا الطفل الذي تعبت عليه كل هذا التعب إلى "لا أحد"، إلى أناس غرباء... ثم إن أباه حيّ، لم يتنكر له ويرمه، بل يعود معها بالعربة إلى باريس.

يرتسم على وجه دو إيدي الشاحب ما يتصارع في قلبه. لا أحد غيره يعرف ما عاناه قبل في نصف الشهر الأخير، ولا سيما ليلة المخاض. وليس في قلبه ما يُلام عليه حتى لو دان نفسه بما جرى. منذ الساعة التي تعرف فيها عائشة كان حاضراً للزواج منها دون اعتبار للقسم الذي أقسمه بعدم الزواج. والآن، إن وافقت شريكته الباكية في العربة فهو جاهز تماماً؛ وكلما طلب منها شيئاً اكتفت بهزّ رأسها. والصبية التي ولدتها حبيبته "سيلين" سيستردها من الدير، ويأخذها إلى بيت أهله في مدينة "بيرغور". وإن رفضت أيسيه فسيأخذها إلى قصره في باريس، ويقيم لها عرساً لم يشهد مثله أحد ولم يسمع به.

- يا أيسيه لا أنصحك بل أترجاك لأني أعرف أنك امرأة قوية، وما يجري في قلبك لا أحد يعرفه غيري. لا تدعي المصيبة تُفنيك. قلت لك سابقاً، والآن أكرر: قولي لي "نعم" إذ أصبحنا ثلاثة.

- لا يا إيدي، لا. - لم تدعه عائشة يكمل كلامه. - منذ زمن بعيد أفلنا هذا الموضوع. ما كتمناه إلى الآن لن نُفشيهِ بأنفسنا. لا بد من حلٍّ ما...
- لا تتصلي في موقفك بهذا الشكل يا أيسيه! لا شيء لا أفعله من أجلك.
ألا تعرفين كم أحبك؟!

- وأنا أيضاً يا إدي! - سالت دموع عائشة الصامته دون إرادتها. - اغفر لي ضعفي. أوقف العربة!

- هل شعرت بالدوار؟ - تلهّف إيدي ورافق عائشة إلى خارج العربة.
- لا تقلق! - حين احتضنت عائشة شجرة على جانب الطريق وشرعت تبكي بصوت عالٍ اقترب منها إيدي ليهدهئها - ولكنها ألقت عليه نظرة قاسية لم يعهدها منها البتة وقالت له: - لا تلمسني!

ترك إيدي عائشة دون أن يرد عليها كارهاً نفسه، كاضماً إياها، وتساءل: "ما أقسى نظرتها إليّ كأنها تريد أن تأكلني بعينها؟ أتراني مذنباً؟ لو لا أنها تحملني المسؤولية لما صرختُ في وجهي مرتجفةً الجسم: "لا تلمسني". لم تتصرف معي بهذه الطريقة ما دام الجنين في بطنها. أيمكن أن تكرهني الآن بكل هذه البساطة؟ ما إن قال شفالييه في نفسه: السماء شاهدي والله رادعي إني لا أجد نفسي فعلت منكراً بحق أيسيه" حتى انتشلتته من أفكاره أيسيه:

- أحزنتك يا إيدي، سامحي!

- لم أسمع ما يهينني يا أيسيه - ساعد إيدي عائشة في امتطاء العربة بكل حذر ممسكاً بيدها. وفي اللحظة نفسها وضعت عائشة رأسها على كتفه، ونامت.

بليز - ماري دو إيدي يُعْذُّ السير نحو باريس ناسياً ما لقي في سانس من مشقة، وما على الطريق، محتضناً عائشة بيده، جاهلاً ما ينتظره بشأن طفله. ما يمر أمام ناظره ينعش قلبه، يعبر نهارَ الربيع الملون، وأسئلة لها أجوبة وأخرى بدونها تتراكم إلى الذهن. "لماذا يُخلق الإنسان؟ ولماذا يعيش والأحزان والأفراح تفنيه؟ الحزن حزن، ولكن هل الفرح يُفني أيضاً؟ ضحك شفالبيه من نفسه - هذا اليوم الربيعي جميل ولكن ما فائدة جماله إن لم أحسّ به؟" ومن رأسها الجميل على كتفك تنبها عليها، أهي أيسيه؟" صدر السؤال من صوت ليس لها فقد أجابه دون تفكير: - "هي حي في أوقات سعدي ونحسي" بعدما فعلتما ما فعلتما لماذا تخفيان حبكما؟". "أنا؟" صرخ لنفسه دون أن يعرف جواب السؤال:

- هل قلت شيئاً يا إيدي؟ رفعت عائشة رأسها.
- لا يا أيسيه! تأمل وجهها وتنحى عن أفكاره المضطربة: - ربيع جميل، نهار متميز.

- أين وصلنا؟

- ندخل "ميلين"

- أقلت "ميلين؟"

منذ أن كانت طفلة، وفي طريقها إلى باريس، تمثلت أمامها كيف توقفوا عندها وتناولوا الطعام فيها وقضوا ليلتهم في الفندق. تذكرت أنها حين عثرت على مادلين قالت لها الأخيرة "أتذكر، كما لو كان اليوم، أني رأيتك وأنت طفلة في

المطعم وفي الفندق". "ومتى حدث هذا؟.. والأحداث الكثيرة التي مرت عليّ. بابا الذي أحسن إليّ فجاء بي إلى هنا صار عجوزاً. ليس الهرم مشكلة، هو أمامنا جميعاً، ولكن المشكلة مرضه. كيف حاله يا ثري؟ أنستني همومي الشخصية هذا المسكين. أكانت تركيا أحسن من هنا؟ لو أطعت فخري وأورخان وجعلتهما يعيداني إلى بلدي لربما لم يحدث لي ما حدث. ما فائدة ذكرياتي الآن بوجود سيلين معي؟ لماذا إذن نتركها بأيدي الغرباء ونعود إلى باريس؟ أنهرب من حظنا العاثر؟

- سنتغدى في ميلين يا أيسيه.

- لا، لا! - خجلت عائشة من ردة فعلها المتجلية في صوتها - سامحني يا إيدي، لا أريد شيئاً. إذا كنت تريد الغداء فلنتوقف في مكان آخر. - واختتمت دون أن تستر ما خطر لها، شامته بالماضي: لا أريد ميلين ولا مارسيليا ولا ليون.

- إذن، لأنه بقيت مدينة واحدة - ابتسم إيدي في وجهها ليعث شيئاً من الروح فيها - سنكمل إلى باريس.

- وهذه لو لم يكن فيها من لم أسدد دينه بابا المسكين لربما ما وطئتها قدمي. لا تتعجب يا إيدي، تكلمنا في هذا الموضوع سابقاً. والآن بعدما حاول بابا أن يتصرف معي على نحو مهين، لا أزال على كلامي: سأرعاه ما دام حياً لأنني أقدر ما قدمه لي. ولن أسمح لأحد أن يُبعده. ولكن المكان الذي فيه قلبي الآن هو سانس... - تقطع صوت عائشة، ولكنها سرعان ما لأمته فاختتمت قائلة لنفسها، ومُفهمة والد الصبية: - لم يعد لي بلاد غير فرنسا ما دام أمرنا استقرّ على هذا... - لم تستطع عائشة كبح دموعها الآن أيضاً.

- يا أيسيه يا روح قلبي - ضمّ إيدي عائشة ومسح على ظهرها: - لا تبكي، ولا تيأسي! كل شيء سيجري جيداً. وسيلين سترعاها إيزابيل - لويز وتحسن تربيتها، لا ينقصنا إلا أننا لن نراها كثيراً. وحين تقولين "أنا جاهزة" لنصبح ثلاثتنا أسرة؛ أتعرفين أين سأخذكما؟ حتى لو لم تبحر الأمور كما أردنا تماماً فأنا مرتاح لأنك اعتبرت فرنسا التي فيها عرقي ودمي وطناً لك، وستجعلين ابنتنا تمّد فيها جذورها. ولكن لا تنسي شركيسيا التي تركت فيها جذرك الحقيقي. سأخذك كما وعدتك، أنت وسيلين إلى القفقاس.

- إيدي، يا حيي - نظرت عائشة وقد انشرح وجهها وتورد خذاها للخبر المفاجئ إلى من قال لها هذه الكلمات: لا أحد إلا أنت وأنا يتكلم في هذا الموضوع. لا تزال شركيسيا أمام ناظري كالشمس الحارقة ولكن لم أعد أحسّ بها في دمي كما في الماضي. أكون قلبي فارق تلك البلاد؟ ولو أخذتنا إليها؛ أبقى لي فيها إلا أن أبكي جبالها وغاباتها وأنهارها وبراريها ولغتها التي نسيتهما وأعود؟ من سيفهمنا هناك، ومن سيهتم بنا؟ - أوشكت عائشة أن تبكي ثانية ولكنها كظمت دموعها بحجة ما تراه - فيرساي تبدو، لم تعد باريس بعيدة. ولأن إيدي لم يعد يريد أن يجرّح قلب أيسيه أكثر مما فعل فقد سأها عن البيت الذي سيوصلها إليه:

- أيّ بيت من البيوت الثلاثة تريدين يا أيسيه أن أوصلك إليه؟
- أيّ ثلاثة بيوت؟ - رفعت عائشة رأسها فجأة.
- إلى بيت فيريول أم بولينغبروك أم بيتنا؟
- إلى بيت فيريول، بيتنا. لا مكان لي أعيش فيه غيره. - قالت ثم غيّرت: - لا، من أجل ألا يشكّوا فيّ أريد أولاً أن توصلني إلى بيت آل بولينغبروك. ثم

سأطلب إيصالي إلى بيتي. لا تعاتبني يا إيدي يا حي الوحيد، على أني ورطتك في قضايا لم تخطر لك.

- كُفّي عن هذا يا أيسيه، لا أريد أن أسمع هذا الحديث. - قطع إيدي حديث عائشة بصوت لا يَنمّ على عتب - أول من فاتحك بالحب هو أنا لا أنت. لا أعتب عليك ولا على نفسي. ولا أندم على ما قلت أو فعلت. وليس لي أهل في هذه الدنيا غيرك. ولن أملّ لو كررت هذا الكلام ألف مرة!

- سأقول لك أنا أيضاً شكراً لأني أحبك حتى لو كان الحب لا يحتاج إلى شكر يا إيدي. لا تضحك مني! أتصور أحياناً أنه لم يبق في باريس، بل في فرنسا، غيرنا يقدر الحب ويحميه. وحتى إن بالغت فليبق الأمر هكذا. ومع ذلك يا إيدي فلنصبر! أيضاً بعض الوقت بشأن بيتك الذي حدّثني عنه لأن ما مضى أكثره سيمضي أقلّه. لا تدعني أتخلف عن سداد المعروف الذي في رقبتي فأجني ذنباً. أتوسل إليك أن تفهمني ولا تجعلني أخطئ!

حين أوصل إيدي عائشة إلى آل بولينغبروك وعاد إلى بيته هاجمته الأزمات التي عصفت به خلال الأيام الماضية بدلاً من أن يستريح. وإذا تفكّر في ما تبادلوا من أحاديث على الطريق اعتبر أكثر ما وافق فيه عائشة نوعاً من فقدان الرجولة: "لم أتصرف على نحو صحيح منذ أن أخبرتني أيسيه أننا سنزق بولد" "إذا سمحت لجمال المرأة وحسن حديثها أن يغريك أصبحت أبكم أعمى أمامها" من قال هذا؟ مولير أم غيره؟ أيّاً كان القائل فلن يخرج من فمه أصدق منه. وأنا جرى لي هذا من أيسيه... لا يستشير القلب أحداً في من يحبّه. حسناً، والآن هل سنعيش لهذا السبب مختفين؟ أخفينا الطفلة في الدير بذريعة أن الناس يعرفون، سيتكلمون علينا بسوء. من سيتكلم علينا؟ أورليان؟ أم ربييه لودفيغ الخامس عشر؟ أم أمثال كلودين - ألكسندرين؟ أم شارل دو

فيربول الذي تُغني أيسيه التي لا أساويها بأحد في العالم في إنسانيتها نفسها من أجله، والذي أدى به فسُّقه إلى حالته الآن؟ لم يفعل كلانا شيئاً واحداً صحيحاً! أنا كمن أسس أسرة وهو عازب... يجب وضع نهاية لهذا الوضع. ولكن حين أرى عائشة أفقد عقلي دون أن أعرف ما جرى لي" في المساء نفسه، كانت أفكار عائشة التي لم تقبل إلا أن تعود إلى آل فيربول، رغم أنهم نصحوها أن تخفي ما حدث، جاشت مرة أخرى في ذهنها، حزينة كمن عندها مَأم.

- أظعتك يا أيسيه ولكن لو عرفت أنك ستكونين هكذا ما كنت أوصلتك إلى آل فيربول وأنت متعبة من الطريق - لامت ماري - كليز عائشة وما تراه يمزق قلبها. - فقدتِ لونك ومظهرك. ألا تعرفين سُحنة ماري - أنجيليك العدائية؟... لنُعُدْ إلى عندي ولتعيشي معي إلى أن ترتاحي.

- قال لي دو إيدي شفالبيه الكلام نفسه حين أوصلني إلى بيتكم... شكراً لك وللورد هنري؛ حميتما لي سري. وبيتكم مثل بيتي. ولكن إن وجدت نفسي عندنا في البيت ارتحُ أكثر منه في أي مكان آخر. هل تعبُ الطريق مشكلة؟ هذا يُنسى في ليلة. ما أعده مشكلة هو ما جلبته إلى الأبد عاراً لا دواء له للطفلة. ساحيني يا كليز - ماري، وليساحني شفالبيه على أُنِي ورطتكما في ما ليس من ذنبيكما! وأنا سأحمل ذنبي إلى أن أفارق هذه الدنيا الفانية وأقف أمام الله. - تغيرت عائشة كلياً بلونها ومظهرها وجسدها، ربما لأنها رضخت أخيراً للذنب الذي جلبته لنفسها.

نظرت ماري - كليز بعين محبة إلى عائشة، وامتدحتها:

- هكذا كما أعرفك يا أيسيه، وهكذا أريدك!

حين رأى آل فيريول الذين يقضون مساءهم حول المائدة عائشة انفضوا عنها إلا ماري - أنجيليك الكونتيسة. وعندما رأت ماري - أنجيليك بون دو فيل وأرجنتال يعانقان عائشة عناقاً لا نهاية له، ويقبلان وجنتيها لم تملك إلا أن تعتف ولديها:

- اهدأ لحظة وأوصلا أيسيه إليّ. ما أكثر ما أقمت لدى آل بولينغروك! شوقتنا إليك. لو عرفتك ستغيين كل هذه المدة لما سلّمتك إليهم. يا بون دو فيل وأرجنتال وصوفي انظروا إلى أيسيه؛ ألم تصبح أجمل وأرقّ وأنحف مما كانت؟ هل "لاسورس" أجمل من بلدتنا "بون دو فيل"؟ لمّا دعوتني يا ماري - كلير إلى بيتك كان يجب أن آتي أنا أيضاً... نعم يا أيسيه لا ترين بيننا عمك أوغستين. هو عند الكونت. لا ترتعي غير أن حال أهلك ليست حسنة. كنتُ مهمومة، دون علّم هؤلاء، من أن لا تلحقني به حياً. دعينا واذهي وأطلي عليه. لا أعرف إن كان سيتذكرك. وأنتما بون دو فيل وأرجنتال رافقاها. ونحن ماري- كلير المركيزة وأنا سنبادل بعض الحديث. ولْيجهّزوا لنا شايّاً ممتازاً يا صوفي!

بعد الكلمات المرائية لماري - أنجيليك لم تعد ماري - كلير راغبة في الشاي الذي سيأتي، ولأن قلبها لم يعد يحدّثها بمزيد من الجلوس والاستماع إلى الكونتيسة المتقلبة المزاج فقد نهضت بذريعة زوجها:

- قطعنا طريقتاً طويلاً، وتركت هنري وحده، والعربة تنتظري. يحزننا مرضُ الكونت. ليكن في حماية الله. سنعود ونزوره يوماً ما.

"هذا الذي تأتين على ذكره يهّمكم أمره كثيراً". ودّعت ماري - أنجيليك ضيفتها وهي تضحك في سرّها. وصعدت إلى غرفة الكونت مهمومة بحرمانها من معرفة ما يجري عند الكونت. وحين دخلت الغرفة توقفت عاجزة عن فهم

ما يجري. عائشة جاثية على ركبتيها عند الكونت المضطجع في الفراش، تمسح له على رأسه وجبينه، وتمسح دموعها. ودموع الكونت تسيل أيضاً:
- هل عرفها؟ - همست ماري - أنجيليك في أذن أوغستين - أنطوان.
- ألا ترين؟... - ألقى نظرة قاسية على زوجته وأدار وجهه.
- نعم، ولماذا لا يتذكرها! - قالت لديستان غير عابئة بكلام زوجها، مسيئة معروفها هي:

- ألا تريان كيف تجلس شارلوت - إليزابيت أيسيه على ركبتيها على أرض الغرفة؟ لماذا لاتضعان المخدة تحت رجليها؟ كيف حالك يا كونت؟ اليوم أنت أحسن بالقياس إلى البارحة وما قبلها. ربما بسبب عودة شارلوت - إليزابيت أيسيه إليك.

- رجعت إلي! - قال الكونت ثم استوى جالساً دون مساعدة من أحد مع تعجب الحضور. - كيف عاملوك في شركيسيا حيث كنت؟ لا تكتميني إن سببوا لك الحزن، أنا سلطان الترك اسماً فحسب؟!

- بابا، أنت من يذكر شركيسيا. - انكسر صوت عائشة ولكن سرعان ما رجع إلى عهده: - كنت عند آل اللورد بولينغبروك.

- أكنت في إنجلترا؟ - تأمل الكونت الجالسين - الواقفين متعجباً مما يسمع، وغمغم: - إذن خدعني هؤلاء الكذابون فقالوا إنك عدت إليها. إذا كان اللورد هنري بولينغبروك أعاد السلطة إلى "توري" فقد أثبت أنه رجل! كنت قلت له مرة إن هذا ما سيحدث وما عليه أن يفعل. وقد أكد ما كنت آملُه منه. ولكن هل تعرفين يا شارلوت - إليزابيت أيسيه ما سأقول لك إن حدث وفارقت الحياة. نعم، نعم، حين أغيب عن رعايتك اتركي هؤلاء الأشرار، وعودي إلى شركيسيا. أمنحك الإذن أن تحتلي بلادهم وتعتلي رؤوسهم، أرجوك.

- خذ دواءك، تناوله - قالت عائشة للكونت مغيرةً بسرعة ما تسمع. ثم تفكرت في الأمر ودو إيدي وسيلين أمام عينيها، وهي عارفة أن كلام الكونت لا معنى له، وكررت: - ما ترجوني من أجله لا أمل لي فيه الآن.
- بديهي أن لا تعمله، لن تعودني إلى شركيسيا يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، وإلا أكون ربيتك لفرنسا عبثاً. - قال الكونت ثم أضاف بعدما شرب الدواء: - الآن أريد أن أكل.
- نظرت ماري - أنجيليك بطرف عيناها إلى الدكتور لاروش نظرة عتاب كأنها تحمله المسؤولية "اسمعوا ما يقول في الوقت الذي نتوقع موته!" ثم نهضت حالاً متوددة إلى زوجها:
- ما عليك يا شارل إلا أن تطلب، نقدم إليك الطعام حالاً.
- أشتهي سمكاً نهرياً طازجاً. - لم يفكر الكونت في ما يقوله.
- ليس أسهل من هذا! حالاً، ديستان إلى السوق!
- سمك السوق لا ينفع. أريده خارجاً للتو من نهر السين. ما الأمر يا أوغستين؟ لماذا ما تزال جالساً؟ ألا تتذكر أين كنا نصيد ونحن صبيان؟!

VIII

"ما من أحد صنعوا له مهدياً إلا حفروا له قبراً"

صَدَّق الكونت شارل دو فيريول هذه الحكمة بعدما عبث معه المرض سنة، فتوفي في السادس والعشرين من شهر أكتوبر - تشرين الأول عام 1722، تاركاً وراءه قضايا أسرية غير محلولة.

اليوم الذي دُفِن فيه الكونت شارل دو فيريول، كان يوماً لطيفاً خلافاً لأيام الخريف الأخرى؛ حتى إن من كان عندهم عِلْمٌ بالكونت وحياته ونمط معيشته قالوا إنه كان لا بدّ إنساناً خيراً فصفاً له الجو يوم مماته. السماء التي تطل منها الشمس الدافئة عالية، ولولا أصوات عربات حاملتي النعش، وتهامس المشيعين التي تخرق الهدوء في مقبرة "روك" حيث تقوم الكنيسة، لكان يوماً مريحاً.

وإلى جانب النعش المفتوح غطاؤه يقف أوغستين - أنطوان، وماري - أنجيليك، وبون دو فيل، وأرجنتال، ومن يسندونها من ذراعها عائشة، وكلودين - ألكسندرين، وصوفي، وجانيت - نيكول، وبيير دو تانسين الأسقف، والدكتور لاروش، وديستان. وبالإضافة إليهم نساءٌ مسنات غيرُ معروفات من الأسرة، ورجال من جيل الكونت، يقفون في مجموعات. وبين هؤلاء "لولو" التي طردوها ذات مرة من البيت.

- انظر يا أوغست إلى هؤلاء - همست ماري - أنجيليك إلى زوجها متظاهرة أنها تمسح دموعها - شكراً لهم، لم ينسوا الكونت. انظر، انظر إلى هذين القادمين! هل أطلقوا سراح فرنسوا فولتير من السجن؟ ومتى؟ وهل من معه هو مونتسكيو؟

أفهم الكونت أوغستين - أنطوان زوجته بطرف مرفقه أن تكفّ عن التثرثرة. وأنهى رجل الدين إجراءات التأبين، وطلب من الحاضرين الراغبين في الكلام أن

يتفضلوا فاقترب فرنسوا فولتير من النعش ما دفع الحضور إلى التهامس، ورفع من مشاعر عائشة.

- بعد أن أودعوني سجن الباستيل بحجة أنني أكتب أشعاراً فيها أفكار تدعو إلى الحرية. وتثير النعرات بين الناس، أطلق سراحى البارحة. وكان ممكناً ألا أتكلم إليكم. ولكن لأني أعزُّ شارل دو فيريول الذي أدى خدمات عظيمة لفرنسا، وابنته، أختنا، شارلوت - إليزابيت أيسيه، وابني الكونت أوغستين - أنطوان بون دوفيل وأرجنتال صديقي، ووالدهما الكونت، فإني أقف أمامكم لأقسام آل فيريول حزنهم. وعلينا أن نشيد بمن يسدي خدمات إلى فرنسا، ويزين صورتها في العالم، ويرفع علمها. ولأنك واحد من هؤلاء الناس المخلصين فنحن راضون عنك، نودعك إلى مثواك الأخير مع كل تقديرنا واحترامنا لما أنجزت.

- ها نحن يا كلودين - همست ماري - أنجيليك لأختها - لم يذكر أحد اسمنا، ولا قيمة لنا... انظري أيضاً إلى هذا "الشفاليه"؛ لماذا أتى متأنقاً بلباس الجيش؟ أهو جنرال من يؤتونه؟! أريد استعراض نفسه أم يُفرج أيسيه؟ وقف بليز - ماري دو إيدي شفاليه بلباس العقيد إلى جانب التابوت، وتكلم باختصار:

- وداعاً أيها الكونت، عشت من أجل فرنسا. وكما يفعل العسكريون مدّ قامته المشوكة وحيأ بيده تحية عسكرية.

لم يرسل الملك مندوباً يلقي ولو كلمتين من أجل الرجل الذي عاش من أجل فرنسا وعمل لها والمحتاجة جداً إليه. -غمغمت ماري - أنجيليك، ثم نظرت نحو عائشة واحتجّت: - هذا ذنب هذه المخلوقة ذات الرأس الطويل التي تذرف الدموع كالطر؛ فبدلاً من أن تلاطف أورليان مربي الملك وتسترضيه

جعلته عدوًّا لنا. قالوا هو الآخر مريض، المسكين. ما مرضه يا تُرى؟ العجيب أن هذه الأفكار المزعجة وغيرها كانت أيضاً في ذهن كلودين - ألكسندرين، المسككة بذراع أختها، شاهدةً على صحة قولهم "لا يراقص أحدٌ إلا شبيهه، ولا يتزوج إلا من لونه" لكنهما لم تريا من اللائق الاستمرار في اغتيال الآخرين فسكتتا.

الجو ما يزال صحواً جميلاً كما كان. والشمس كانت تفارق منتصف السماء حين انتهوا من دفن الكونت. ولدى انصرافهم من المقبرة ضحكت كلودين لأختها وقالت:

- لا تلتفتي يا ماري! لو كان الأمر بيدي؛ أتعرفين ماذا كنت كتبت على شاهدة قبره؟ - زيُر نساء!

- احذري سيسمعوننا... - ردّت ماري - أنجيليك على أختها. وفيما هما تعودان إلى عربتهما رأتا أوغستين - أنطوان وعائشة وبون دو فيل وأرجنتال ما يزالون على القبر. عنّفت ماري كلودين - ألكسندرين: - انظري هناك؛ تُكسبيني العار دائماً من آل فيريول الذين أنا زوجة أحدهم!

- يا ماري، إياك أن تعودي إلى القبر، الناس يتوجسون من هذا السلوك - نهرت كلودين - ألكسندرين أختها لأنها تعرف تقلباتها، وقالت لها ما يُرعبها أكثر: - هذا لا شيء، ينتظرك يوم تحليلين فيه المزيد من العار. - أي يوم؟

- أسألي زوجك ولا تسأليني! وإن رفضتِ فأسألي من ستشاركك التركة أيسيه!

- ألا أنك تظنين الكونت أوصى بشيء لمن لا تشبع من البكاء عليه؟

- لا أعرف، بل أشكّ.

- وما شأن "كونتي" المسكين الذي لا تُطيقينه في الموضوع؟

- هل أحببت زوجك الآن يا ماري؟ أنسيبت أنه الأخ الأصغر للمتوفى؟ لم يمت إلا بعد وصية له. اغفري لي إن ظلمته! ولكن بعد وقت غير طويل ابدؤوا بإجراء اتكم. ليست أيسيه من النوع الذي يظهر بين الناس كما تظنون.

- لا أعرف يا كلودين، ربما تكون أيسيه كما تقولين. هل بقي على الأرض إنسان تثق فيه؟! - نظرت عينا ماري - أنجيليك كل في اتجاه - أعرف أنه أوصى لها بما تعيش به، بأربعة آلاف ليرة - قالت لنفسها، واشتعلت في داخلها: - لن أبقئها على قيد الحياة إن دفعت الكونت المسكين إلى إجراء آخر! وسأنتزع روح من لم يحرص على مال زوجي.

- اهدئي يا ماري، هاهم قادمون - لم تُطق كلودين - ألكسندرين التي تحقق لها مرادها إلا أن تخز أختها الكبرى بحجة النصيحة: - عجيب أن أيسيه تحولت إلى النحافة والرشاقة خلافاً لما كانت عليه في الأشهر الماضية؟
- يا لمصيتي؛ أشككت في ما شككت به؟ لم يكن سلفي الذي لم يشبع من النساء طوال حياته ليتورع عن شيء!

خلال رجوعهم من المقبرة، وخلال تناولهم "طعام الأموات"، ورثما بقي آل فيريول وحدهم في البيت وتداو لهم ما جرى في المقبرة، انتظرت ماري - أنجيليك اللحظة التي ستختلي فيها بزوجها. مستغرقة في النوم، منتظرة بين لحظة وأخرى مجيئه. وحين أفاقت ذهبت إلى الكونت مهمومة أكثر بما فعل الكونت بها:
- ألسنت نائماً - دفعت ماري - أنجيليك الكونت بطرف إصبعها - ألم يكف وقوفك طوال النهار على رجلتك فتذر الآن أرض الغرفة؟ لم أفهم إلى الآن طبيعة آل فيريول هؤلاء. لا يسمحون لك بأن تعرفي فيم يفكرون، ولا ماذا سيفعلون!

- يا كونتييسة! - نظر إليها بعينين راكنتين، ثم تداعى قلبه - لا أفهم فيم تماريني. ألا يمكنك أن تفهمي حالي في مثل هذا اليوم؟

- حقاً يا أوغست، حقاً. اجلس هنا. ودّعَتْ أخاك الوحيد. أفهم آلامك. -
أسرعت ماري - أنجيليك تستعطف دموعها - حتى الدموع نَفدت! ولكن
دعنا نشكر الله على أنه وقف أمام ربه دون كثير من الذنوب بفضل رعايتك له
ورعايتنا. لا عتب لي عليك، بل لأنك لم تقل لي "تصبح على خير" جئت إليك
لا أعرف السبب. لنغفر لبعضنا إن خرجت منا كلمة في غير محلّها!

- لا أعتب عليك يا ماري - أجاب الكونت وقد رَقّقت الكلمات اللطيفة
قلبه - أنتِ سنَدُنا الباقي نحن آل فيريول. أنا جئتُ إليك ولكنك كنت نائمة
فخرجت.

- أنا من عنده رغبة في النوم؟ ولكن ربما غفوت من متاعب اليوم الطويل.
كان عليك إيقاظي دون شفقة. شكراً لك على حرصك عليّ، وعلى اعتبارك
لي سنداً لآل فيريول. وبما أن علاقتنا هكذا يا شبيه روحي، وبصفتنا أكبر اثنين
في آل فيريول، فلن أكتمك ما يشغل بالي منذ زمن بعيد، منذ رجع إلينا سلفي
المسكين مريضاً. وهذا موضوع لا يهمني وحدي بل جميع آل فيريول، باستثناء
أيسيه، وبمن فيهم آل غيرين دو تانسين.

- لماذا استنيت شارلوت - إليزابيت أيسيه من هؤلاء؟ - سأل أوغستين -
أنطوان - أليست ابنة أخي الأكبر وأخت ولدنا؟

- عرفت أنك ستقول هذا - ارتفع صوت ماري - أنجيليك رغم حذرهما. -
لأجل هذا أقول: آل فيريول لا يُطلعونك على ما في قلوبهم... البنت الشرسية
التي لا نعرف أصلها؛ أهنأك كتاب يثبت أنها ابنة أخيك الأكبر؟

- نعم - احتدّ أوغستين - أنطوان - عرض عليّ شارل كتاباً يوصيني فيه أن أرفعها، وألا أسمح لأحد أن يهينها أو يسبب لها أي إقلاق. ثم يا كونتيسة إنسي تعبير "البت الشركسية"؛ لا يعجبني. وكذلك لا تُسمعيه لبون دو فيل وأرجنتال.

- حسناً، حسناً. سأناديها بالاسم المركب الثلاثي الجميل "شارلوت - إليزابيت أيسيه" إن كنتم متأكدين أنها لن تتركب على أكتافكم يوماً ما. وإذا كان لشارلوت - إليزابيت أيسيه مثل هذه الوثيقة ألا تعرف أنها ستظل تقاسمنا أملاك آل فيريول إلى الأبد؟

- لن تفعل شارلوت - إليزابيت أيسيه مثل هذا!

- لا أحد يسأل عنك إذا رجع الأمر إلى المصلحة الشخصية. - ابتسمت ماري - أنجيليك - إذن سأخبرك بأمر لا تعرفه أنت ونشكّ فيه نحن: ... أن بين الكونت شارل دو فيريول وشارلوت - إليزابيت أيسيه طفلاً.

- اسكتي! لا تدعيني أنفجر! - وقف أوغستين - أنطوان دو فيريول الكونت غاضباً.

- حسناً. أنا سأسكت، ولكن إن عرف غيرنا فلا أعرف إن كنت تستطيع إغلاق أفواههم.

IX

من حسن حظ عائشة أنه كان عندها من يسري عنها: كان معها في البيت الذي تتصوره الآن فارغاً صوفي وبون دو فيل وأرجنتال. وربما كان أوغستين أنطوان يعيد التفكير في كثير من الأمور خلافاً لأيام كان أخوه حياً، وربما تداخل الموضوع بنقاشاته الثقيلة هو وامراته، فأصبح يُعنى بعائشة أكثر من أي وقت مضى.

الآن عادت عائشة إلى صحتها فوقفت على قدميها، وانزاح عنها أملها الوحيد، سواء كان الانزياح خيراً أم شراً. ولكن آل فيريول لم يتركوها محتاجة إلى ما تعيل به نفسها... "شكراً لبابا" ولكنه حين اشترايني وجاء بي إلى هنا، لماذا استطعت ناسية ما عانيتُ أن أنتزع من صدري الطفل الذي منحني إياه الله؟ وكيف سأعيش وأنا من فعل هذا؟ ولماذا أبقى على ظهر الدنيا؟ أنا من كتب الله كلّ المصائب على جبينها؟ - ارتعبت عائشة فجأة ممن ذكرتُ اسمه ورفعت يدها لترسم إشارة الصليب وخفضتها ودَعَتْ: - اغفر لي يا إلهي تغيير إسلامي، افهمني! ولأني تذكرتك حين وجدت نفسي في مأزق فرما ليس صحيحاً أنني غيرُك. ولكن لا أعرف كيف كان مصيري لو لم أدن بدين الكاثوليك عندما وجدت نفسي في فرنسا، وبعلمك. كنت وجدتُ طعامي وشرابي ولكن ما كنت لأستقرّ بينهم. أين كنت سأذهب، وأي أمل كان لي وقتها؟ لا أظنك غائباً عني حين أقول ما أقول في ساعات اليأس - وقفت عائشة وراء العمود الذي عليه الصورة وصلّت لأجلها: - أنت الآن رجائي، أنت إلهي فاغفر لي. لست مشرّكة ولكن، ما العمل، كلاكما في قلبي. أفهم أن ما أقوله الآن غير صحيح، لا أبرئ نفسي، ولا أكنم ما لا أطيعه. وربما كان هذا السبب في ضعفي أمام ابنتي... أنا لا أتهم أحداً. لم يحدث لي إلا ما فعلت

بحق نفسي. اغفر لي "سيلين" وافتقاري إلى زواج شرعي. لا ذنب لي إلا حي لدو إيدي وحبه لي. لم أنجح في اختبارك. أنا من هي مدينة لك. ولكن لأني آمل أن تغفر لي هذا الذنب فسأتوسل إليك: اغفر لبابا ما أذنبه بحقي. لو كان في عقله لما تصرف معي على هذا النحو. لا أدعي أن حياته خالية من الذنوب، ولكنه لم يكن عديم الرحمة. لن أنسى إحسانه إليّ مدى العمر. سأصلي من أجله ما دمت حية" أدّت الصلاة وهي ترسم إشارة الصليب ثلاث مرات.

نظرت عائشة في الورقة التي كانت تكتبها دامعة العينين إلى جولي كالاندرين، وقرأت من جديد. وقالت لنفسها "حسناً فعلتُ إذ لم أكتب لجولي كل وسواسي المريعة التي تسبب لها الألم، وتراني من أجلها سريعة الجزع، لا تستحق الاحترام. أصبح ما تقوله جانيت - نيكول: "إذا كانت حياة الإنسان مرغبة من الفرح والحزن لم يجز تغليب أحدهما على الآخر"؟ لا أعرف الجواب. لا بد أن فهم الأمر يتعلق بطبيعة كل إنسان ومقاربتة له. أحولتُ الفرحة التي نجمت لي من آلامي إلى ألم جديد بإخفائه؟ لو كنت وحدي لما كان في الأمر مشكلة... - تذكرت عائشة أنها ادّعت القيام بزيارة لآل بولينغبروك، ودون علم دو إيدي شفالييه، وأخفت الحقيقة عن آل فيريول، وذهبت إلى ابنتها في "سانس"، وأن إيزابيل - لويز أرثا سيلين التي لم تكمل نصف سنة من عمرها، فسالت دموعها. الآن فقط فهمت كلامهم: لم أستطع الصبر. لا شيء تتورع الأم عن فعله من أجل طفلها. ولا أعاتبك على أنك جعلتهم ينتزعونها بالقوة من صدري. ولا تؤاخذيني على أنني تعلقت بها وفكرت بالاحتفاظ بها بدلاً من أن أقول شكراً على ما فعلت لي. ظللت أقول إني أعيش سيئة الحظ وأرثي نفسي بنفسي حتى سقطت الآن في النار الهائلة التي لا مخرج منها. وظللت

أشجب سلوك النساء المتحركات، من كلودين إلى بارابير ودوفان وبُري حتى فقدت شرقي في ما عملت..." رأى بون دو فيل وأرجنتال الورقة التي كانت تقرأ فيها، وإسراعها إلى عينيها تخففهما، حين قُرع الباب فجأة ونهضت... - ألا يكفيك بكاء يا أيسيه؟ قبل بون دو فيل وجنة عائشة، وفعل أرجنتال مثله، وسأل بصوت أبلغ حزناً: - ولماذا تُخفين هذه الورقة؟

- هذه؟ لا شيء فيها - أمسكت الورقة وأعادتها كما كانت.
- لو لم يكن فيها شيء - توقف أرجنتال عند موضوع الورقة - لماذا أخفيتها وأنت تبكين؟ بحجة هذه الورقة لا...
- يا جان!... - صاح بون دو فيل على أخيه ولم يدعه يُكمل.

عادت عائشة الآن إلى وعيها:

- الميت أشد بؤساً أم من تركه؟ - طرحت السؤال واختتمت قبل أن يجدا الفرصة للتفكير: - لا تدعونا نحاول التفسير بشأن عدم قدرتنا على الإجابة على سؤال فولتير ومونتسكيو. لا سرّ في هذه الورقة. اقرأها! وتعرفان لمن أكتبها: جولي كالاندرين المركيزة. - مدّت الورقة إلى أرجنتال، وفي اللحظة نفسها دخل أوغستين - أنطوان الغرفة يتنفس بصعوبة:

- وأنتما جالسان هنا؟ - امتدح الكونت ابنه - حسناً تفعلان إذ تعينان أختكما على التفريغ عن قلبها. من توفي ليس غريباً عنكم. كان يركمكم. وكان فخوراً دائماً بإنجازاتكم. قدّم لكم كثيراً مما لم أقدمه. ولا تنغروا بمن يقول إن أحداً من طرف الملك أو البرلمان لم يحضر الدفن. حتى لو لم يكن إلا حضور فرنسوا فولتير وشارل مونتسكيو الدفن، وما قالاه بشأن المرحوم فلا شيء يعدله. أنت يا شارلوت إليزابيت أيسيه الكونتيسة أنا راضٍ عنك بشأن المرحوم الكونت. الله يعلم أنك سهرت عليه حتى اللحظة الأخيرة من حياته، وسجّيته،

متغاضية عما قال لك أحياناً، صابرة على كل شيء. وأنا لن أنسى هذا. ولن أقبل أن يسيء إليك أحد أو يجرح قلبك. والآن لن أخفي ما جئت من أجله، وليسمع أخواك: قالت لي الكونتيسة ماري - أنجيليك إن في حياتك سرّاً تُفنين نفسك فيه وتحتفظين فيه مع أحزاننا. لا تبكي يا ابنتي، لا بأس مهما كانت المأساة ثقيلة، فلا داعي لليأس لأنه ما من إنسان إلا وعنده أسراره. وفي جميع الأحوال لا تنسي أن آل فيريول سند لك.

ودّعت عائشة أوغستين - أنطوان الذي نصحتها وخرج من الغرفة يتنفس بصعوبة، متألّمة لحاله، فيما لم يهتم بون دو فيل وأرجنتال بحال أبيهما بل بالإشاعة "التخمين" التي انتشرت في الأسرة، فتبادلا نظرات التساؤل لا يعرفان سببها. ولاحظت عائشة ما يجري في قلبي الأخوين فغيّرت منحى الموضوع دون أن تخرج تماماً من موضوع حبها المبهم، مصطنعة هيئة الضحك:

- لا تهتما بما ليس ضرورياً. الموضوع هو أن والديكما لا يعرفان نهاية مشكلتنا أنا وشفالييه.

- لا يجب أن يهتم أحد بهذا الموضوع بعد الآن - قال أرجنتال الذي لا يعرف ما حدث لعائشة. - بعد ما دفّنا عمنا فأنّت وشفالييه حلّ موضوعكما. ستزوجان!

- وكيف ستحلّ معضلة النذر الذي نذره شفالييه لفرقة العسكرية بعدم الزواج؟- سأل بون دو فيل بلا اهتمام، ثم أغلق على الموضوع: - هذه المشكلة ليست كما تتصوراتها.

- نعم، نعم - سمعت عائشة ما تريد فأُسّرت، ولكنها سرعان ما دانت نفسها: - فيم نتكلم وجثمان بابا المسكين لم يكذب يبرّد؟ دعونا نتكلم في

موضوع آخر. كأن فرنسوا فولتير وشارل مونتسكيو لم يُدعِيا إلى مآدبة التأبين؛ لم أرهما.

- بلى، دُعِيا - قال بون دو فيل ما يعرفه - وبعد بابا أنا بنفسى بلّغتهما. ألا تعرفين يا أيسيه كيف هم هؤلاء، يظنون يتحسسون فلا يذهبون إلى المآتم.

- وليس وحده - لم يكتّم أرجنتال ما كان يعرفه ويشكّ فيه من سلوك أصدقائه الأكبر منه سنّاً - هؤلاء لا تعجبهم المحفوظات التي يتلوها رجال الدين على أرواح الموتى. وبالمناسبة أقول لكم رأيي: هم على حق!

- أظنك تكثر من الكلام يا أرجنتال دو فيريول الكونت - قال بون دو فيل لأخيه الأصغر بحذر أكبر مما في صغرها، ثم مزح معه: - أظن نفسك تتكلم في برلمان فرنسا؟

- إن انتخبتموني عضواً فلم لا! - قال أرجنتال مسروراً، واختتم مدركاً إطالته في الكلام:

- أليست أيسيه هي من طلبت أن نتحدث في موضوع آخر؟ حتى لو إكراماً لخالنا الأسقف بيير دو تانسين - ليس الدين بل رجال الدين - كان الأفضل عدم التطرّق إليهم... اجلسا أنتما. أنا يجب أن أعود إلى عملي.

حين بقي الاثنان في الغرفة صرّحت عائشة بما كانت مهمومة به من جهة فولتير:

- قل لفرنسوا أن يحترس أكثر في خطابه الداعي إلى الحرية. آل بولينغبروك يخافون عليه.

- ومتى صار اللورد بولينغبروك الذي يحارب السلطة الإنجليزية يخاف؟ - سأل بون دو فيل عائشة غير عارف سبب الخوف، وأدلى برأيه: - الغابة التي لا ذئاب فيها مدعاة للملل دائماً يا أيسيه. لا أقصد أن أجعل من فرنسوا ذئباً

ويفترس من يقابله بل إذا عرّف الأسد الذي يتصور نفسه ملك الغابة قدره فهو مفيد يجب أن نحمي فولتير مما قد يتعرّ به. ولكن لا يجوز إضعاف أقواله الذكية، بالإضافة إلى أن من الأفضل أن يكثر أتباعه المخلصون.

على الرغم من أن عائشة لم تنس أحزانها، وما أضافه إليها أوغستين - أنطوان، فقد احمرت وجنتاها مغلبة ما سمعته الآن من حكاية الذئب التربوية. ولم تملك إلا أن تروي مع هزة الرأس الجميل المتطاوّل:

- مع أنك تحاول تربيتي فأنا أوافقك يا بون دو فيل. أقصد أن نحترس ويحمي بعضنا بعضاً. ولكن سأدلي برأيي في ما قلت: الكتاب الكبار الذين عاصروا لودفيغ الرابع عشر من أمثال موليير ولا روشفوك ولا فاييت ولا فونتين، الذين لا نملكهم اليوم نحتاج إليهم. وهل تعرف لماذا ليس عندنا أمثالهم؟ مهلاً دعني أكمل: ليس لأني أكره من دنس البلاد مربّي الملك أورليان - هذه خطاياه. لم يُعدّ يعرض في المسارح إلا قصص الحب الفاسق المعيبة. ما يجري في المطاعم، وفي الفنادق، وفي الصالونات الأدبية، وفي الشوارع، من تصرفات شائنة عار. - وفيما تُنقّس عائشة عن ضيقها خطر لها ما فعلته هي فتعثرت لا تعرف ماذا تقول. ولكن كعادتها حين تقع في مأزق، وجدت في نفسها قوة جديدة فعادت إلى الوعي بسؤال: - أليس هذا يا بون دو فيل، يا عزيزي ما تريد أن تُفهمني إياه بحكاية ذئب الغابة؟ نعم يا بون هذا هو. وسأضيف شيئاً آخر: يُجِيل إلى أحياناً أن بلادنا فرنسا - لا سمح الله - ستهلك من وراء هذه المشكلات وغيرها من التناقضات والعداوات. لنفكر في هذا، ولكن، كما كان المرحوم بابا يوصينا، وكما نصحنّا اليوم والدك، ودون أن تستولي عليك الحميّة، لا، لستُ جان دارك. ولكن لا تظن أني ارتعبت، دعنا نعمل ما علينا فعلاً!

كان بون دو فيل يعرف صلابة عائشة، وإصرارها على رأيها، وصدق كلامها، وعنادها الذي يكلفها غالباً أحياناً، حتى لتذكر بشارل دو فيريول. ولم يكن يعلم أنها تعرف هذا القدر من أدب فرنسا وتاريخها والعلاقات الاجتماعية فيها. نظر بون دو فيل بمودة إلى عائشة وقال لنفسه "أضيف إلى هذا لفتتها على بلادها، واهتمامها بما يتحقق للبلاد وما لا يتحقق، ومعرفتها بأسماء كُتّابها. وشعرائها ومطربيه وفنانيه وراقصيهها - سواء كانوا أحياء أم أمواتاً"

- ماذا يا بون؟ ما العجيب الذي تراه في؟ - مازحته عائشة بوجه أكثر انفتاحاً.

- لأنك يا أيسيه كلما تحدثنا حملتني على أن أفكر في ما أعرف وما لا أعرف.

- هذا بسببك أنت. بدءاً من كُتب الأطفال التي كتبتها، إلى مسرحك - أضافت عائشة بعد برهة - كان لمعلمتي جانيت - نيكول فضل كبير في معارفي، وصالون كلودين - ألكسندرين الأدبي، شكراً لها، ويكفي من رواد صالونها فولتير و مونتسكيو، تعلمت فيه الكثير. واعتنقت أفكاراً عميقة. - ثم قالت وكأنها ليست هي التي في حداد، وقد تغير صوئها فجأة: - لا أعرف إن كنت ستسخر مني يا بون، وأنا أيضاً أريد أن أكتب مثل كلودين.

- يا أيسيه - فرح بون دو فيل وكأنه كان متهيئاً لما سمع - كيف أسخر منك إن كنت واثقاً أنك ستكتبين.

- كيف؟ - أسرع عائشة وقد سرّها ما سمعت.

- أنسيب كيف كنت تكتبين لنا من جنيف، ومن إقطاعتنا بون دو فيل؟ حين نقرأها أرجتال وأنا كنا نؤمن أنك تستطيعين الكتابة. و لولا حدادنا الطارئ، كنا قررنا مصارحتك به حين تعودين.

- ولكن - قالت عائشة يغلبها الحياء - هذه كانت مجرد تزجية للوقت.

- ما كنا لنقول شيئاً لولا أنها كُتبت بلغة فصيحة وتضمنت أفكاراً غنية.

وسأقول لك شيئاً آخر: حين عرضنا على فولتير إحدى كتاباتك دون أن نأتي على سيرة الكتابة التي كنا ننوي مفتحتك فيها عبّر عن الرأي نفسه. ولكن إن قررت الكتابة فسأقول لك ما لا يرضاه فولتير منك: "سأكتب مثل كلودين"، فلا تُسمعيه هذا الكلام. سيقول لك "إذا كان من ينوي الكتابة يعرف ما يقول، ويستطيع أن ينقل أو يوحى إلى قرائه أفكاره المتنوعة: أفراحه وأحزانه، واحتقاره وحبه وغيرها، ويدعوهم إلى الإعجاب بها، ولا يقلد غيره فليكتب!"

- يا بون دو فيل - بدأت عائشة الآن تخجل مما قيل لها الآن، ويتضرّج خداهما أكثر مما تأثرت بموضوع الكتابة الذي طُرح فجأة، وتبرئ نفسها وتصلح موقفها - لم تفهم جيداً ما أعنيته بقولي "أريد أن أكتب مثل كلودين" ما قلت لي إنه سيكون رأي فولتير صحيح. وإذا كنت توافقه فأنا أيضاً. - ابتسمت عائشة كأنها منذ زمن طويل تعيد التفكير في ما قالت - ماذا نقول؟ أنعرف ماذا كانت جدتي المرحومة تقول عنا: "يسلخون جلد الدب الذي لم يصيده" ولكن لماذا أكنتم : جولي كالاندرين أيضاً تشجعي على الكتابة. كأننا نتكلم كثيراً على شخصي. والآن أخبرني بما يجري معك. ما الجديد الذي تجهزونه للمسرح؟

- كما تعرفين، كأن كتاب الدراما عندنا توقفوا عن الكتابة. لا يأتوننا بأي نصّ جديد. مللنا من النصوص المأساوية التي لا طعم لها، ومن المسرحيات الشعبية الهزلية السخيفة.

- ما العمل، زماننا من هذا النوع. - سألت عائشة عن الممثلين اللذين تقلق عليهما: - أليس ميشيل بارون وأدريين لوكوفير عاطلين عن العمل إذن؟

- هذا هو الواقع. بارون ميشيل انصرف إلى الكتابة، وأدريين لوكوفير وأرجنتال دو فيريول لا يشبعان من حبهما. لا تصدّقي أن جان رجع إلى عمله كما قال.

- إذا كانا متحابّين هكذا - تنهدت عائشة - فهذا حظٌ ممتاز. غير أن قلبي لا يحدّثني أن أرجنتال سيسعد مع أدريين. يبدو لي، وقد أكون مخطئة؛ أن حياة الممثلين تصبح كالشخصيات التي يتقمصون أدوارها. ما العمل؟ هذه هي دنيانا. - هذا يضحك والآخر يبكي، وغيرهما ينسلخ جلده. ورابع يعيش خاوي البطن. وإذا كانت حياتنا تمضي على هذا النحو فعلينا يا بون دو فيل أن نمتلك مسرحاً يفضح الناس الذين يملكون بلا تعب فييطرون ويثرون...

- مهلاً، مهلاً يا شارلوت - إليزابيت أيسيه دو فيريول - قاطع بون دو فيل ما كان يسمعه من عائشة ولو أنه كان يضحك - ماذا تقولين وأنتِ كنت توصين بالحرص على فولتير؟ إذا كتبت مثل هذا أو أخرجته فسُتفتح لك أبواب الباستيل... - ثم بصوت أقل حماسة: - لا أعرف ما العمل إن لم نُعد مسرحية "زواج بالإكراه"؟

- أتتكلم على المسرحية التي كتبها موليير لتسلية الملك لودفيغ الرابع عشر؟ لماذا لست متحمساً لهذا العمل؟ ليس نصاً سيئاً. لينق في النص، متى كتبه موليير؟ إذا أضفت إليه أفكار الحاضر ونظراته فسيعجب رواد المسرح على ما يبدو لي. انظروا وفكروا؛ ربما كانت لكم رؤية أخرى له.

جرحت كلمات عنوان النص "زواج بالإكراه" قلب عائشة قبل أن تكمل كلامها، فشردت وهي تتخيل أن العنوان موجّه إليها وإلى دو إيدي شفالبيه: "أتكلم على غيري بسوء متناسيةً الأزمة المعيبة التي حدثت لي، والتي لم تردعني. أتساءل: ألسنا نحن الاثنين بطليّ مسرحية موليير؟... - فقزت فجأة إلى رأس عائشة الأفكار والهواجس التي تحملها معها - الأجلنا يا تُرى أتى بون دو فيل

على ذكر مسرحية موليير؟ لا أعرف إن كنت أشك في الأمر دون حق؛ غير
أني لا أريد الآن أن أطلع أخويّ على العار الذي جلبته لنفسه... ولكن السرّ
لا بد أن ينكشف يوماً من الأيام. وهاهو أوغستين - أنطوان سألني أمام
أخويّ عما زرعت زوجته في نفسه من الشك. أظن عمي سيفهمني إذا انكشف
سري حسب ما أفهم من نصائحه إليّ، ولكني أحسب حساب أخويّ"

- بهذه الحجة يا أيسيه ستشجعيني على المسرحية كي يأمر لودفيغ الخامس
عشر بإخراجها على مسرحه... يا أيسيه أين أنت؟ ألا تسمعيني يا أيسيه؟
- بلى، يا بون دو فيل أسمعك. - خرجت عائشة من أفكارها الباردة - الحارة
وأجابت. - إن كنت خائفاً فلا تخرجها!

- لا أرى نفسي جباناً جداً. مع مثل هذا العيب لا تستطيع إخراج
المسرحيات. ولكن سأطيعك في شأن هذا النص، وأخبرك سلفاً أنني سأحملك
العواقب السيئة له إن وُجدت. لنر ما يحدث! - بعدما سخر الاثنان من
نفسيهما، وفيما وصلا إلى نهاية حديثهما، سأل بون دو فيل فجأة وقد تذكر
شيئاً، ودون سوء نية: - ما الأمر يا أيسيه؟ لماذا سألك بابا قائلاً إن ماما
أخبرته أنه "مع جدادنا على عمنا تحتفظين بسرّ"؟

أجابت عائشة على السؤال غير المنتظر إجابة قريبة من الصدق وإن شحب
لونها، مستندة إلى بسالة المرأة في مثل هذه المواقف:

- ألم أقل لك إن ما لا تطيقه ماما هو علاقتنا أنا وشفالييه؟
- لا أعرف أن في باريس قضية لا تهتم بها ماما وكلودين - ألكسندرين - أوما
بون دو فيل بيده إيماءة عدم اهتمام - وأنا استجوبتاني على نحو غير مباشر.
وكنيت طلبت منهما عدم التدخل في أمركما.

- حسناً صنعت - ابتسمت عائشة وقد بدأ لوئها يعود إلى أصله - يكاد الحب يعرف حقيقته من يحب فحسب. ولكني لا أريد أن يتدخل في حبنا أنا وإيدي أي إنسان. أتثق من أن فرقته العسكرية التي نذر نفسه لها ستسمح له؟ ألا تعرف أن الشفالييه غير حرّ في نفسه؟ هذا الأمر له عواقب كثيرة. بعد قليل سأطلعك على أخباري. حُيِّل لعائشة أن بون دو فيل يريد أن يقول شيئاً غير مريح عن إيدي فأسكته: - لا، لا تشكّ في إيدي، لا ذنب له، أنا المسؤولة عن كل الذنوب.

X

حين دخلت صوفي هذا الصباح ناسية حتى إلقاء التحية، وعيناها تتقلبان في محجريهما سألتها عائشة مبتسمة وإن كانت مرتعبة:

- ماذا جرى لك يا صوفي؟ إن كان الثلج الغزير الذي وصل الليلة فأنا أعرفه منذ وقت لأني لا أنام الليل.

- ليس الثلج - خرج الخبر الذي جاءت به من شفيتها بصعوبة وهي تُحکم إغلاق الباب: - ماري - أنجيليك الكونتيسة تعرف سِرنا...

- أيّ سر؟ - لم تستوعب عائشة في البداية.

- هذا الصباح حين حملت إليها شراب الشوكولا سألتني: "صحيح أن شارلوت - إليزابيت أيسيه عندها طفل؟" فأجبته: لا!

بدلاً من أن ترتعب عائشة من الخبر الذي نُقل إليها ضحكت بملء صوتها وخارج سيطرتها. ونقلت صوفي عينيها في وجهها حائرة، ثم سألت دموعها متذكّرة أنها دون معين. وعائشة نفسها، ولو أنها مثلاً من ينصحونها هذه اللحظة، عانقت صوفي وشرعت تواسيها:

- لا تبكي يا صوفي! علينا أن نتحلى بالصبر والقوة. لا تنفعنا الهشاشة والضعف رغم أن الدمع تخفيف للضيق. كانت جدتي تقول بشأن السر "في الظلام بيرونك وفي الخلاء يسمعونك" وحين تعرف أن جارتنا العجوز تخفي عنها شيئاً تقول "من يستطيع أن يُخفي ما في البطن وما في البستان؟" أرايت ما جرى لي وأنا أظن نفسي حريصة على سري؟ ثم إني خربت بيتي بيدي وأنا أخفي سري في داخلي.

- لم تفعلني ما يشينك - صاحت صوفي الآن - كان الأجدر بالكونتييسة أن تراقب أختها من أن تتجسس عليك. كادت تنتزع هذا الكلام من فمي. ولكن لحسن الحظ أني صبرت... لا، لا، يا أيسيه، ليس ندماً بل خوفاً عليك.

- حسناً فعلت يا صوفي بصبرك - خلدت عائشة إلى نفسها قليلاً ثم أكملت: - أنا أعرف ما يُهمُّ ماري - أنجيليك ماما... صرّح لي لاروش قبل أيام ببعض المعلومات.

- أستمع إليك يا أيسيه فأقول - قاطعت صوفي عائشة - ما أعجبك! كيف تستطيعين مناداة الكونتييسة المرائية الخبيثة بـ "ماما ماري - أنجيليك"؟ ولاروش الخبيث الآخر لماذا تسمحين له أن يكون محدّثك؟

- يا صوفي، يا روعي! - كذلك استغربت عائشة ما قبل لها - لو كانت الرياح تجري دائماً كما تشتهي السفن... أحياناً نخضع، وأخرى لا نتحمل. كيفما تصرفت معي ماما ماري - أنجيليك فهي التي صارت أمّاً لي وقت مصيبي. وما قدمته لي ليس أقل مما قدمه بابا إن لم يكن أكثر، لهذا أغفر لها مهما قالت لي أو تصرفت معي. وأنا أفهم ما يُهمها هذه اللحظة، كنت قلت لك قبل، وأعيدده الآن: كلُّ منا يفضل نفسه حين يعود الأمر إليه. والمُلك اللعين يُفسده. ولكن، وأنت تعرفين، لم أطمع يوماً في ما يملكه غيري، وفي ظل أزمي الحالية ليس في رأسي مثلُ هذا. وفي كل الأحوال أين أذهب بماما ماري - أنجيليك؟ وهي أين تذهب بي؟ سبتقى أُمي. ولكني حزينة لأني أهنتها في ما كانت تشك فيه من جهة بابا. ولا أوافقك في ما قلت بشأن لاروش. ليس إنساناً سيئاً كما نتصوره نحن. يتقن مهنته، وحين طُرح موضوع إيداع بابا المشفى لم يقبل مشكوراً. لا أقول إنه منزّه عن العيوب، غير أن حسناته أكثر من سيئاته.

- ما أطيبك يا أيسيه - ابتسمت صوفي لعائشة - أتذكر أن الكونت كان يخاف أن يؤذيه الدواء الذي يرسله إليه طبيب أورليان فيخففه بالماء. ربما لا أطيق لاروش لافتتانه بالنساء. ولكنك غيرت لي رأيي في هذا البائس. لو كنت مكانك يا أيسيه ما استطعت أن أقول لأجلي كل ما قلت، من أجلك نعم أقول. أما الآخرون فحين أتذكر ما رأيت منهم وما أعرفه فلا أعرف، لا أعرف...

رغم أن عائشة كانت تنصح نفسها بما تعرف عن نفسها حين تتكلم مع صوفي فقد نظرت إليها بعين راضية، باسمة لها، ولم تستطع إلا أن تمزج عتابها بالمزاح:

- لا تكوني هكذا يا صوفي! لا تنجري وراء الطباع التي ليست فيك ولا تلائمك. ولا تنظري إلى غيري بعين العتاب في حين تمدحيني. سترين أعداء بسبي يثيرون لك المشكلات.

- وهل أنا مهتمة بهم؟ - كما تفعل صوفي عادة حين تسمع كلاماً من هذا القبيل انفجرت ضاحكة: لا ينقصني غيرهم! - لولا أنت ما سمحت لأحد منهم، وفي طليعتهم ماري - أنجيليك، أمك! أن تقع عينهم عليّ يوماً واحداً. وما قعدت في بيت فيريول ساعة واحدة. - حين سمعتُ صوفي صوت الجرس المعلن قدوم الفطور قالت جافلة: - ما أشد ما كرهت هذا الجرس! أنا من يحتاجونها الآن، على قول: هايتي هذا، وخذي ذاك... لا تأتي أنت يا أيسيه. سأدعي أنك توعكتِ فاتيك بالطعام إلى هنا.

- يا صوفي! - قالت عائشة بصوت عالٍ ناصبةً رأسها: - فكّري في ما تقولين؛ أي عيب ستورطيني فيه! أأتهم آل فيريول بما صنعت لنفسي؟

- حسناً إذن - ابتسمت صوفي مقتنعة في نفسها بما قالته، وتظاهرت بتغيير موقفها - مصابك مصابي. أين أذهب بك، أتقاسمه معك. إن قلت ما لا يُقال فاغفري لي.

- ليس لأن كلامك يخلو من الصواب؛ غير أنني أريدك أن تحرصي على نفسك.

- وأنا أريد أن أبقى هكذا، ولكن لا أستطيع. لا تتأخري إذن!

حين بقيت عائشة وحيدة في الغرفة نهضت بسرعة لأن البكاء داهمها. حُيِّل إليها أن أحداً يناديها فوقفت إلى جانب النافذة المطلة على الفناء بقدم ثابتة. الدنيا في صمت أبيض بعدما غمر الثلج كل شيء ووصل إلى كل مكان. ولا نسمة يمكن أن تغَيِّر شيئاً في هذا الهدوء. وصديقتها شجرة البطم الكبيرة تخاف أن تتنفس فتنفذ الثلج عنها. وفي اللحظة نفسها، ودون أن تعرف المصدر، انتصبت أمامها أيام طفولتها البعيدة، وقمم الجبال البيضاء. "بلادنا الآن دافئة لا يسقط فيها الثلج بغزارة - قالت لنفسها - ولكنه أزل على قمم جبالنا... ولا أتذكر في فرنسا سقوط ثلج بهذه الغزارة. هل سقط الثلج أيضاً في سانس يا تُرى؟" - وما إن سألت نفسها حتى أجفلها صوت الجرس الثاني. وفيما طفلتها التي لم ترها إلا مرتين، أمام ناظرها، مضت إلى من ينادونها وهي تفكر في طريقة لتنساها.

لم يكن على مائدة الفطور إلا الزوجان: الكونت أوغستين - انطوان، والكونتيسة ماري - أنجيليك.

- تعالي، تعالي يا أيسيه - دعت ماري - أنجيليك عائشة إلى الطعام - ونحن وصلنا توأ. يا حسرتي يا أيسيه يا ابنتي، تبحثين عن كرسي أبيك المرحوم؛ ألا

يكفي كم بقي في مكانه مؤملاً لك ولنا! أليس صحيحاً يا أوغست؟ - نَبَّهت الكونت بطرف قدمها.

لم يفهم الكونت الجالس كذب هادئ في البداية ما سُئِل عنه. ثم صحا على دفع امرأته فقال مُسمِعاً عائشة عدم رضاه عن كلام الكونتيسة:

- حقاً يا كونتيسة لماذا تدفعيني؟ لماذا لا تجلسين مرتاحة؟... نعم يا شارلوت - إليزابيت أيسيه، طلبتُ رفع كرسيّ أبيك الكونت شارل دو فيريول. تعالي واجلسي إلى يساري. سيكون هذا مجلسك ما دمت حياً.

- طبعاً يا شارلوت - إليزابيت أيسيه - وافقت ماري - أنجيليك زوجها كاتمة انزعاجها من مناكفة زوجها لها، قائلة في نفسها "سأدسُ في فمك حين نصبح وحدنا ما قلته لي" - كما قال لك أوغستين - أنطوان ستجلسين على يساره. وحين نفارق الحياة سترعين أخويك الأصغرين.

- ليُطل الله عمريكما، ولتُظِلّانا! لا مناسبة الآن لمثل هذا الحديث. ولكن عندي لكما رجاء: أريد أن أجلس على كرسي بابا السابق.

- شكراً يا أيسيه على شعورك نحو أخي الأكبر. - فرح أوغستين - أنطوان للرجاء الذي ينم على الاحترام فنادى الخادم: - هاتِ كرسي شارل دو فيريول الكونت وضعيه لشارلوت - إليزابيت أيسيه. والآن كما كان شارل يفعل، لنصل إلى الرب.

وحين انتهوا من الصلاة أسرع ماري - أنجيليك فرسمت إشارة الصليب، سبقت الجميع:

- ليحقق الرب رجاءنا، وليبارك في الكرسي الذي رأيناه لائقاً بك يا أيسيه - "لا نعرف هدفك الحقيقي إذ توّطّدين موقعك بين آل فيريول" وأضافت لنفسها "ما كنت أشك فيه يتبيّن أنه صحيح لولا أن الكونت، متداكياً، لا

يوافقي. وهذا سينكشف بسرعة" ثم غيرت الموضوع مخفية ما يشغل بالها: لم تقولي شيئاً يا أيسيه بشأن الثلج الغزير، ولا قلنا لك. ألم تخافي حين رأيت غزارته يا ابنتي؟

- لا يا ماما ماري - أنجيليك، أليس شتاءٌ بثلج كثير خيراً من شتاء بلا ثلج؟ بالإضافة إلى أنه يقال مفيد للزرع.

- يا ربي! أيسيه هذه لا شيء يستعصي على عقلها! أسمع يا أوغست؟

- أسمع... - غمغم الكونت من فوق صحن البيض الوحيد الذي يأكل منه.

- لا تسمع يا أوغست - غمزت الكونتيسة عائشة، ومزحت:

- لا تلحّي أنا أسمع. الأول مرة تريان الثلج؟ دُعونا نأكل، ثم حين يأتي الشاي قولاً ما تريدان. ما قالته أيسيه لا يخلو من الصحة. الثلج خير.

- لو عرفنا أنها ستثلج هكذا لركّبت لإحدى عربتينا عجلاً خاصةً بالثلج.

- ولماذا أركّب عجلاً مانعة للترحلوق؟ - أزاح الكونت صحن البيض الفارغ، وتكلم معتداً بنفسه: - أنسيت أن عندنا عربة من هذا النوع؟

- نعم، نسيْتُ، عندنا - أجابت ماري - أنجيليك الكونت قائلة في نفسها:

"ليتك انتهيت من شايك وتركتني وحدي مع هذه الفتاة المتطاولة الرأس" - الثلج يذوب كما هطل فلن أدعك تركب عربة صدئة من أجل عجالات تقاوم الجليد. وإن لزم يمكن أن تصنع منها.

قطع الكونت أوغستين - أنطوان فيريول كأس الشاي معتبراً ما قيل له إهانة، ورمى امرأته كاظماً غيظه:

- أهذا ما تقولينه لي في شيخوختي؟... لا يا كونتيسة أمزح معك فحسب، وليس في قلبي شيء عليك. تعرفين أن ما تذكرينه ليس من واجبي، في القصر من يهتم بها، وفي أرض الدار. ليس هذا ما تريدين. إن كنت أفسد جلستك

فأنا كذلك لا أحب سماع أخبارك التي تصدع الرأس، فأقوم من المائدة سعيداً بقيامي. ولكني لا أظنكما ستغتبان كثيراً - سأرسل الولدين إليكما للإفطار.

- لا نحتاجهما، دعهما ينامان! - نادى الكونتيسة في أثره.

- أسمعين يا أيسيه ما يقوله؟ - سأل أوغستين أنطوان بقوام ممتلئ وسأل.

ودون انتظار الجواب مزح مع الاثنتين، ولمح لعائشة: - ماري - أنجيليك

المراثة ستخبرك الكثير؛ اهربي منها!

- بالله ماذا يقول لك هذا العبوس الغاضب الخارج من هنا؟ - سألت ماري

- أنجيليك عائشة كأنها غير مبالية، وموهت كلامها بإشفاقها عليه: - لم ندع

الكونت يأكل على راحته وكأن الثلج يسقط علينا لأول مرة. الأفضل ألا

يأكل كثيراً. ألا ترين كيف أصبح سميناً ثقيلاً يحمل نفسه بصعوبة.

- لا أوافقك في هذا يا ماما ماري - أنجيليك في شأن عمي أوغستين -

أنطوان. بالقياس إلى عمره وضعه مقبول. ثم إن طبيعة جسمه وتركيبه هكذا.

- يا ربي، ما أعجبك! يا أيسيه - نظرت الكونتيسة إلى عائشة بمودة وهي

تغمغم لنفسها: "لا تعرّفيني بهذا الدب العجوز المنطوي على نفسه، لا أحد

يعرفه كما أعرفه" ثم لامتها بمديح مازح. - لن تسمح لي لنا أن نقول كلاماً غير

مناسب بشأن آل فيريول حتى لو من خارج القلب. إن عاملتهم هكذا

أفسدتهم. أنتم تصرفتم بحقي على نحوٍ غير لائق من وراء ظهري. لماذا إذن قال

"اهربي منها"؟

- لا تشكّ في فيه في مثل هذه المسألة يا ماما ماري - أنجيليك، ربما يمزح معنا

- أجابت عائشة الكلام المتصنع بجواب مشابه، قائلة لنفسها: "طرّدت

الكونت من المائدة، وها هي الآن، كما قالت صوفي، تقترب من سرّنا. كان

مجيء بون دو فيل أو أرجنتال مناسباً لي. لا أطيق اليوم تبادل الكلمات المرائية"

- هكذا بدون قصد قلت ما قلت. غضب مني أوغستين - أنطوان الطيب، ولكن هل جرفوا الثلج من الفناء؟ - غيرت ماري - أنجيليك الموضوع، ونظرت عبر النافذة - لا حاجة لتوجيه خدمنا، ها هم نظفوا أرض الدار. - "لا شيء يمكن الحصول عليه اليوم من هذه الخبيثة الصغيرة مهما توددت إليها. وهذا الذي صعد إلى غرفته سيأمر ولديه بالنزول فلن نجد فرصة للكلام. ثم إنني إن لم أصبح مجنونة آخر العمر فمثل هذا الكلام لا يقال في مثل هذا الموضع. ولكني لن أتركها قبل أن أفجر سرتها. - لماذا يا أيسيه نحن على المائدة وقد انتهينا من الطعام؟ ألا أنك تنتظرين أخويك الكسولين؟ قد تنتظرين هذين المؤمنين إلى الظهر. انظري، ها هو أرجنتال قادم."

بعد أن ألقى التحية توجه إلى عائشة ليقبل خدّها فقالت له:

- ماما أولاً، ثم أنا...

- نعم هذا هو الصحيح - نهضت ماري - أنجيليك راضية بما قيل لابنها وما فعله - اجلسا أنتما، أما أنا فسألاحق أعمالي. سأوقظ بون دو فيل وأجعله ينضم إليكما.

- اتركي بون دو فيل نائماً يا ماما، حرام عليك، ينتهي من عمله المسرحي متأخراً.

- أتظنني لا أعرف متى ينتهي عمله في المسرح! - لم يعجب الكلام الكونتيسة فأجابت إجابة قاسية - لماذا يتأخر إلى الفجر؟ هلاً عاد باكرًا!

- حسناً يا ماما، حسناً - قال أرجنتال في إثر أمه مطيئاً مزاجها - أيقظي هذا الكسول!

- يا جان كم قلت لك ألا تكون ظالماً!

- أمزح يا أيسيه!

- والمزاح فيه شيء من الجد - حسمت عائشة النقاش.

ذاب الثلج الذي سقط في باريس غير أن ما يشغل بال ماري - أنطوانيت لم يكن قابلاً للذوبان. بين اليوم والغد، والأمل في أن تروي عائشة حكايتها مضى شهر أو أكثر. ولم تلازم عائشة البيت بذريعة الحداد. كانت تقابل دو إيدي، بل إنه زارها في بيتها، في بيت آل فيريول أكثر من مرة. وحضر المسرح. ولم تكن تحرم نفسها من لقاءات صالون كلودين - ألكسندرين، ومن دو ديفان وباراير. وكانت تشتري لنفسها بعض الملابس، أو توصي بخياطتها. ولكن الكونتيسة لم تكن تستوعب سبب حزن عائشة الدائم. وحين تستجوبها خفية في بعض الأحيان لا تستخلص منها شيئاً ذا بال. ولم تكن بعيدة عن أن توصي بعض معارفها في هذا الشأن. وحين تلمح لولديها بما يشغلها لم يكونا يقبلان منها هواجسها. وكانت ذرائع كثيرة تحمي عائشة من هذه الجهة وتلك. وصحيح أن كلودين - ألكسندرين، بعد وفاة شارل دو فيريول، فقدت حماسها للموضوع.

وحين تسأل ماري - أنجيليك، وهي في غمرة الهم، أختها الصغرى بشأن عائشة، فتجيبها الأخرى بقسوة "لا تُضيفي إلى مشكلاتي مشكلة أخرى، أسألي شقيق ابن حميك الأصغر أوغستين - أنطوان" تردّ عليها "ما حاجتك الآن إلى من نشأت في بيتهم، وبعدها قدموا لك ما قدّموا!" وتبقى أياماً تعبس في وجهها وتدلّ بنفسها. ولكن، ومع أن كلودين - ألكسندرين تتصرف هكذا، فماذا تفعل إن لم توافق أختها الكبرى؟ كانت في هذه الحالات تناقش قضايا عائشة كما الكتّاب، ثم تلهبها بأخبار لا يمكن أن تخطر على بال، فتترك الاثنين تماريان.

ولكن كلودين - ألكسندرين لم تكن على علاقة بالموضوع حين ركضت ماري - أنجيليك إلى عائشة هذه المرة بعينين تقدحان شرراً:

- لا أعرف إن كنت سمعت يا أيسيه؛ يقال إن أورليان في أسوأ حال. لا تتكلمي في الموضوع غير أنني أظنه مات.

- يا ماما ماري - أنجيليك - ابتسمت عائشة - لا أعرف مصدر خبرك، غير أنني رأيته أمس في المسرح.

- ربما تهيأ لك! - جحظت عينا الكونتيسة ثانية متعجبة مما تسمع - هو مريض جداً.

- المريض يُشفى والسليم يموت - قالت رأيها ثم اختتمت: - وكان من يفتش عن النساء في كل مكان دون خجل في كرسيه الذهبي في المقصورة.

- ما قلته عجيب... ليحمني الله، ولا يسمع غيرك كلامي! كم تقدرين عمره هذا الرجل الوسيم؟ - حتى لو كانت ماري - أنجيليك تعرف عمر أورليان فقد سألت لتحديد عن الخبر المنحوس الذي حملته.

- لا أعرف، ولا أريد أن أعرف - كان جواب عائشة مختصراً.

- لم يأت أجله بعد، هو من عمري... انظري يا شارلوت - إليزابيت أيسيه يا ابنتي، لا شيء يتورع الناس عن أن يشيعوه عنك... الله وحده يعلم ماذا يُشاع عنا نحن أيضاً... - قالت لنفسها "إن كان هذا تصرُّفك يا عنيدي الصغيرة فلن نجد مكاناً أفضل من مكاننا الآن لأسألك عما أشك فيه من جهتك. على الأقل أنفَس عن قلبي، أرتاح" وسألت دون أي رحمة:

- أيسيه، يا روحي، سمعت خبراً، إن كنت أملك، لا تكتميه عني، أضحح أن عندك طفلاً؟

- صحيح - أجابت عائشة عن السؤال الذي تهيأت له طويلاً.

- يا لمصيتي، ومن الأب؟

- ليس من تشكّين فيه. يا ماما ماري - أنجيليك. لا تذني بحقنا أنا والمرحوم بابا. والد طفلي هو بليز - ماري دو إيدي شفالبيه.

- هو! - فرحت ماري - أنجيليك وقالت لنفسها: "إن كان هكذا فلا مشكلة. لم يبق الآن ما نخاف عليه، نحن آل فيريول... لا أعرف لماذا تكتمون" ثم لامت عائشة: - هل ستبقين دائماً بصلاصة الفولاذ؟ تعالي عانقيني يا ابنتي حتى ننعش روحينا.

- لا، دعيني مرتاحة في مجلسي يا ماما ماري - أنجيليك!

- نعم يا ابنتي، افهم موقفك... من يعرف بوضعك؟
- بضعة أشخاص بالإضافة إلى دو إيدي شفالبيه.

- أسأل من آل فيريول؟

- من أسرتنا لا أحد غيرك يعرف.

- إذن يا أيسيه لا تفسّري سؤالي بغير ما يستحق لأن الأم تبقى متلهفة دائماً.
لماذا تكبّدت كل هذا العذاب وكتمت عنا؟ أما كنّا ساعدناك؟!

- مَعْرَةُ الأم غير الشرعية عندنا في بلاد الشراكسة جعلتني أخفي طفلي... يا ماما ماري - أنجيليك أعرف أنك ستقولين "هذه فرنسا وتلك شركيسيا"... ومع ذلك فالدم نار حامية لا يمكن مقاومتها. سنصلح وضع ابنتنا حين يتحلل دو إيدي من نذره... - انفجر الضيق الذي كانت عائشة تسيطر عليه إلى الآن فانفجرت باكياً.

- لهذا أقول لك تعالي إلي... - نسيت ماري - أنجيليك ما قالت وما فعلت فضمت عائشة، مغلوبة بعاطفة الأم إلى صدرها. ونصحتها وهي تمسح على رأسها ووجهها: - لن نجعلك تتخلين عن طفلتك ولو لم يبق في الدنيا غيرنا يا

ابنتي. بليز - ماري دو إيدي شفالبييه رجل خلوق، نظيف. مخلص لكلامه وعمله، يتحلى بالرجولة... أنتم لا تقبلون رأيي غير أن النساء سيئات الحظ...
- كانت تود أن تضيف ما حدث لكلودين - ألكسندرين، غير أنها لم تكمل كلامها.

XI

حين يهرم الإنسان يتذكر شبابه كثيراً. ويتفكر في ما عاشه: يتسلح بالأمل من المفاصل الخيرة في حياته ويتجنب المفاصل السلبية. ويحدث أحياناً أن يسخر من نفسه أو يرثيها. ولكن لأنه ما من أحد يخلو من سرٍّ سيء فإنه لا يكشفه لأحد بل يدفنه معه في قبره.

وليسوا قلائل الناس الذين أنجزوا وهم في ريعان الشباب أعمالاً لم يُنجزها من عاش مئة سنة، ثم فارقوا الحياة قبل أن يشيخوا. الخير هو ما يُبقي على حياة الناس، وما لا يُنسيهم الأموات.

ما الذي فعله بليز - ماري دو إيدي شفالبيه ليعتدّ بنفسه أو يسخر منها أو يلومها؟ وُلِد دو إيدي في أسرة "فيكونت"¹ غنية تنتمي إلى مدينة بيريجور في الجنوب الغربي من فرنسا. ومنذ يومه الأول رباه والده أرمان ووالدته كليز على حب فرنسا. ونسبوه إلى الجيش الذي يحميها إلى الفرقة المالطية² وأقسم ألا

¹ تعني حرفياً مساعد الكونت. غير أن اللقب شهد تطورات كثيرة وتقلبات على مَرِّ العصور. المترجم.

² كان المنضمون إلى الفرقة المالطية يتنادون قبل عام 1530 بالمعبدانيين، والمضيافين، وإخوة رودس. وكان ملك فرنسا كارل الرابع أوكل إليهم حماية البلاد من المماليك والأتراك وغيرهم، وأقطعهم جزيرة مالطة لهذا الغرض. وكانت عنده وحدات مالطية في أماكن متفرقة من البلاد. وقد طُرِدَت الوحدة من فرنسا عام 1792 لسلوك أفرادها. وبعد خمس سنوات أسس إمبراطور روسيا بافل الأول أول فرقة من هذا النوع في منافسة مع فرنسا وتركيا. وانتخب رئيساً لها عام 1798. وفي عام 1834 نقل مقر الفرقة إلى "ريم" ولا يزال فيها. المؤلف.

يؤسس أسرة طوال عمره. وحمى لعدة سنوات حدود البلاد براً وبحراً، ورقّوه إلى رتبة العقيد. وكان قريباً من دوقية بيريسك.

كان أقوى سبب في انتماء دو إيدي إلى الفرقة المالطية، وحصوله على لقب الفارس (شفالييه) إلى الآن هو حبه للوطن. ولم يندم على أنه قدم دمه من أجله. ولكنه الآن فقط أدرك أنه وقع في مأزق كبير حين أحبّ. وعلى ما يبدو فإن حبه لعائشة أقوى من حبه لفرنسا.

- أيقارن بين الوطن والمرأة؟ - سأل قائد الفرقة¹ في مالطة بليز - ماري دو إيدي شفالييه - فرنسا واحدة والنساء كثيرات. جئتنا برجاء ليس له رجاء، وهذا ما يسمونه في الفرقة المالطية "عار - جبن"

- وهل ما على جسدي من ندوب علامات عار وجبن؟! - أجاب دو إيدي الرئيس الذي لا يجوز لإيدي أن يعترض عليه بكلمة واحدة.

ابتسم الرجل الأسمر الرقيق الذي كان يتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. واقترب من الجدار الذي عُقِّت إليه السيوف والخناجر والرماح، وقال إلى من وراءه:

- لطخت بطولاتك التي اجتاحتها في سبيل فرنسا بالمرأة التي جثوت على ركبتيك من أجلها.

- مهما قلت لي فعليّ دين يجب أن أتحمّل من أجله. - ردّ دو إيدي شفالييه كاظماً غيظه على القائد الذي سخر منه - ولكن لا أسمح لك أن تهين المرأة التي أحببتها.

¹ في الأصل: ماجستر، وهو لقب يبدأ من معلم القرية وينتهي بالقاضي الحاكم، وهو ما يبدو من السياق أنه المقصود. المترجم.

- وماذا يمكنك أن تفعل بي؟ - مرة أخرى ألقى القائد سؤاله إلى ورائه دون أن يلتفت. - أ تدخل معي في مبارزة بالرماح؟

- خذ أنت أحد الرمحين وأعطني الآخر.

- أفعل هذا لأجلك. وستبقى المرأة التي تحبها مع طفلها أرملة. لا تستغرب. نحن لا شيء يحدث في فرنسا ولا نعرفه. من ينكث بنذره لا نغفر له شيئاً! - صفق القائد وأكد على الفارس المدجج بالسلاح، والذي استدعاه إلى الغرفة: لا تدعوا هذا يقيم ساعة واحدة في مالطة، أرسلوه إلى فرنسا! واطلبوا من "عملائنا" ألا يرفعوا عنه أعينهم لحظة، ويتابعوا كل خطوة بخطوها. هل فهمت يا بليز - ماري دو إيدي شفالبيه؟ لا تنس الطفلة التي تُخفيها وأمها والديك المقيمين في بيرغور!... - قال القائد الذي لم يُدر وجهه وراء الفارس الذي كانوا يُخرجونه من الغرفة.

في اليوم الذي عاد فيه بليز - ماري دو إيدي شفالبيه من مالطة جاء لزيارة عائشة مفكراً في هذه المقابلة، وفي الأخطاء التي ارتكبها في شبابه، مستبقاً الزمن حتى يراها.

في ذلك اليوم الصيفي كانت ماري - أنجيليك في الفناء العابق بأنواع عطور الزهور. انتبهت إلى صوت العربية، وعرفت من كان ينزل منها: نادت الكونتيسة لشفالبيه الذي كان يدخل الدار ، قائلة لنفسها "أتيت في الوقت المناسب تماماً. كنت أريد محادثتك".

- تعال إلى هنا يا إيدي شفالبيه، لا أحد في البيت. - وقالت لمن قَبَل يدها محيياً: - شارلوت - إليزابيت أيسيه صَحَبَهَا أخواها لينزهاها على ضفاف السين، المسكينة انتظرتك طويلاً غير عارفة سبب غيابك. تفضّل بالجلوس؛ حان وقت عودتهم.

- ليس من عادتي ألا أُطلع شارلوت - إليزابيث أيسيه على المكان الذي أذهب إليه، ولكنها ربما ماكانت تعرف موعد عودتي.

- حسناً تفعل بإطلاعك أيسيه على أعمالك. هكذا يجب أن تكون العلاقة بين المتحابين. أما الكونت أوغستين - أنطوان زوجي فلا يُطلعك على مقصده ولا أين هو لأنه خبيث خفيّ. تحاباً ما دمتما شابين، وليحرص أحدكما على الآخر، وأسعدا نفسيكما! يا صوفي ألا ترين ضيفنا الكبير؟ - نادت الخادمة التي وطلت عتبة الغرفة. - هاتي لنا بعضير منعش. ماذا رأينا أنا والكونت في شبابنا! ظللنا نكدح من أجل الأولاد والبيت ونسينا أنفسنا. والآن صرنا طيّ الإهمال. الحق لا يجوز تحميل أيسيه ما ليس ذنبها. جهدت حتى تأخذني معها، ولكن قلت لنفسي ماذا سأعمل بين هؤلاء وأصدع رأسي فامتنعت. لا أعرف إن كنت أثّر. والآن أسمعني أخباركما لأني لا أريد أن أتكلم عليكما أنت وأيسيه كلاً على حدة.

- شكراً يا كونتيسة. على تفهّمك إيانا هكذا. - لم يُبد شفالبيه امتعاضه من مقابلة ماري - أنجيليك بدلاً ممن كان يريد مقابلتها.

- ولم لا أفهمكما! - لاتسمعا كلام أحد؛ لم تفعلما ما يعيبكما. ما يحزّ في نفسي عدم إخباركما إيانا. كنت أول من على أيسيه إخبارها ولو لم تشأ إخبار أحد. أفهم: ليس محموداً أن تلد طفلاً بلا زواج. لم يكن على أيسيه إخفاء ولدها الوحيد والحال أنك أنت والدها. أعجيب إن كان الشراكسة يعييون على المرأة ولداً بلا زوج؟! ونحن، صحيح أننا نسكت، غير أن أموراً كثيرة تحدث في حياتنا. ولكنك تحب أيسيه جداً. ولو لم أكن أعرف هذا لما ذكرته لك. صدّقني أنا لا أخطئ في أمور الحب. وسأعلمك - سامحي - بأمر لا تعرفه: ظللت أقول لأيسيه "بليز - ماري دو إيدي شفالبيه ليس حراً في تأسيس

أسرة" ومع ذلك أحبتك. وأنت لو لم تكن تحبها لما جلبت لنفسك المشكلات. هل ستعيشان هكذا غير قادرين على التواصل. والطفل ما ذنبه؟ حرام! ماذا فعلت في شؤون فرقتك العسكرية؟ إن شاء الله لا تهددك جماعتك ... - توقفت قليلاً ثم أكملت: - إن شئت كلمت أورليان رغم مرضه من أجل الموضوع ولو أنكما تصادتما أحياناً. ولن نقف عنده بل نصل إلى الملك نفسه.

- شكراً يا كونتيسة - قطع دو إيدي شفالييه الطريق قائلاً بفتور: - لا أريد أن يتدخل أحد لأني اعتدت أن أحل مشكلاتي بنفسي.

- ولا والدك الفيكونت أروان أحد رجالات فرنسا النافذين القساة!

ابتسم بلير - ماري دو إيدي شفالييه في وجه الكونتيسة، وقال لنفسه دون أن يجيب عن سؤالها "لم يكن تصرف قيادة فرقتي في مالطة مشكلة بل والدي الذي لا يمكن التفاهم معه. وأمي لا تخالفه. من أين تعرف هذه ما يجري في أسرتنا؟" - سأل دو إيدي نفسه دون أن يعرف في من يشك - "أيعقل أن تكون أيسيه؟.. لا، ليست من النوع الذي يقول ما ليس ضرورياً."

- لم تُجِبي عن سؤالي بشأن والدك - قطعت ماري - أنجيليك أفكار دو إيدي شفالييه.

- كما قلت لك يا كونتيسة لا أوسط أحداً في قضايائي. - أجاب شفالييه هذه المرة بنبرة أقسى وهو يقول في نفسه: "ما أشد فضول هذه المرأة؟"

- فهمت، ولكنني سأثني عليك الآن: - يعجبني فيك كونك إنساناً رزيناً صلباً. أعتبر مصاهرة مثلك سَعْدًا لي. حُلَّ قضيتك بسرعة، واجمع شمل أسرتك! غير أنني لن أسمح لك أن تجرح قلب شارلوت - إليزابيت أيسيه ابنتنا! ولن يسامحك أخوها كذلك.

- أعاهدك يا كونتييسة ألا يبلغ موقفنا هذا المبلغ. هؤلاء الذين ننتظرهم سيتأخرون. اسمحي لي أن ألحق بهم.

لم يجد دو إيدي شفالبيه عائشة وصاحبها على ضفة السين. ولم يجد من المناسب أن يعود إلى بيت آل فيريول فرجع أدراجه إلى بيته.

حين عاد المتزهون في المساء سألت الكونتييسة ماري - أنجيليك عائشة:

- هل وجدكم شفالبيه؟

- وهل عاد؟ جعل الفرخ - القلق عائشة تصرخ.

سألت الكونتييسة عائشة:

- أين كان؟

- كان في زيارة لوالديه في بيرغور. - غيرت عائشة الموضوع كما تفعل

الكونتييسة المرائية، مُحفية كونه في مالطا _ أليسا بخير في صحة جيدة؟

- ربما كانا كذلك. لم نتكلم في هذا الموضوع - مع أن ماري - أنجيليك

ندمت على سؤالها وهي تقول "يا ربّ هذان الاثنان المزعجان، كم هما

متشابهان في حفظ أسرارهما التي لا نهاية لها! عرفا أي سليمة النوايا فلم يجدا

غيري يكذبان عليه". امتدحت شفالبيه لعائشة على أمل أن يفتح مديحي له

مفتاح أسرارها: - تجالسنا شفالبيه وأنا أكثر من ساعة فتعجبت من صلابته

وفطنته وتهذيبه. أخلاقه جميلة كما مظهره... مثل هذا الرجل - لا أكتف - لو

كنت شابة لأعجبت به، غير أنني لم أكن محظوظة. أقول هذا ولكن أوغست

المسكين، وأنت تعرفين، ليس امرأً سيئاً. وكلودين - ألكسندرين، يا حسرتي،

كان مطلبها في الزواج مثل هذا الرجل، ولم تجده إلى الآن. لا يا أيسيه لا تظني

أنني أغارله من أجل أختي التعيسة. لاسمح الله! ما قدمته لك، وإن لم ترضعي

من صدري، حلال عليك. فكيف أنتزعه منك! أريد أن تعيشي محظوظة مع

من أحببت ولذا نفّذي ما يتوسل به إليك بليز - ماري دو إيدي شفالبيه
الرجل الممتاز دون أن تسمعي كلام أحد أو اعتراضه.

- مهلاً، مهلاً يا ماما ماري - أنجيليك، فهمت كل شيء غير أنني لم أفهم
توسّل شفالبيه الذي تتحدثين عنه. ليس بالإنسان الذي يتوسل، ولكن لا
أعرف ما الذي يتوسّله منك.

- ألن يتوسل من أجلك أيضاً؟ - سألت ماري - أنجيليك عائشة، باسمه،
مخفية امتعاضها من السؤال الموجه إليها.

- لا من أجلي ولا من أجل أيّ كان - كان جواب عائشة التي تبتسم
للكونتيسة أشد اختصاراً.

- كفى يا أيسيه، ظننتني أعمل معروفاً فإذا بك تعترضين على كلامي دائماً...
قلنا ما قلنا وانتهى. حين تجتمعان أنتما اسألا نفسيكما، واحذرا. لا تبحث
عن الهم وأنت لا همّ عندك.

- سامحيني إذا جرحت قلبك يا ماما ماري - أنجيليك.

- لا شيء لا أتحمله يا أيسيه من أجلك إن عرفت أنك ستكونين محظوظة.
أسسي أسرة دون أن تتعلقي بـ"فروسية" شفالبيه، وهو سيستقر على وضع ما.
كيف يقابلك والداه؟ سألت دون اهتمام.

- كلّ مهتمّ بمصلحته! ألسن من قال هذا يا ماما؟

- نعم أنا! - امتدحت ماري - أنجيليك نفسها ولامت عائشة: - كأنك
تفهمين الآن بصعوبة ما أقلق عليك لأجله.

في اليوم التالي التقى دو إيدي وعائشة. كان شفالبيه فكّر كثيراً: هل يخبر عائشة
بما جرى له في مالطة وخصوصاً تهديد القائد له. ولكنه عندما روى لها يغلبه
صدقه كانت عائشة هي من نصحته:

- لا تيأس يا إيدي ! إن أخلصنا لحبنا فلن يقف أمامنا إلا الله.

- أنا عملت ما عليّ يا أيسيه. لم أكنتم تحللي من قسمي، وأعدّ نفسي حراً.

- لا تدعنا نستعجل على ما سنقول وسنفعل. لسنا وحدنا يا إيدي. سيلين الصغيرة ثالثتنا. هؤلاء لا يعرفون معنى الحب والأسرة والطفل. من لا يحب عديم الرحمة، ولذا لن يرحموك. لا أريد إلقاءك إلى التهلكة من أجل حبنا. سأستلم ابنتي بعد مدة. أنت مطلوب منك أن تحبنا وحسب... ستجد هذه الأزمة مكاناً لها بين المصائب التي مررت بها. لا يا إيدي لن أبكي. كن صلباً أنت. واحذر من يتعقبونك. أقول لك إني منذ اليوم لن أسمح لنفسي بالبكاء والهشاشة. - كانت عائشة تود أن تضيف إلى من تنصحه أنه يُحزنها تفضيل والده الفيكونت أرمانت ووالدته المركيزة كلير حبّ الوطن على حبهما هي وابنهما فلم يساندا ابنهما واعتبرا ابنتهما غريبة، ولكنها صبرت قائلة: "في وقت آخر"

XII

- يا ربّ!... - الخير الذي نُقل إلى ماري - أنجيليك جعلها تصرخ -
أوغست، لاروش، أين أنتما؟ كلودين لا أعرف أقتلوها أم جرحوها... لا يا
أيسيه، لا عمل لك هناك.

- يا ماما، - عائشة شاحبةً تماماً قست على ماري - أنجيليك - لن أدعكِ
تذهبين وحدك!

كانت دار كلودين - ألكسندرين هادئة تماماً كأن شيئاً لم يحدث. أول من
دخل البيت كانت عائشة وبون دو فيل. وبعدها لاروش وديستان. حين
وصلت ماري - أنجيليك التي تحتنق من البكاء يسندها أوغستين - أنطوان،
وأرجنتال من الجانبين إلى المرتفع قال ديستان لهما عند العتبة:

- كلودين - ألكسندرين الكونتيسة بخير، سليمة، لافريني هو...

انترعت ماري - أنجيليك نفسها من زوجها ومن ابنها وهرعت إلى الغرفة. على
أرض الغرفة مستشارُ المجلس الأعلى لفرنسا لافريني مقتولاً، والمسدس في
قبضته. الآن عائشة وبون دو فيل تمسحان على جسد كلودين - ألكسندرين
وتهدئانه.

-عجباً! أخبروني أنكِ قُتلت!... ومن هذا الممدد على الأرض؟ أهو
لافريني؟... أقتلته؟ أقتل على يدك يا كلودين؟

التجأت كلودين إلى صدر أختها وقالت متجاهلة المصيبة التي حلّت بالبيت:
- اطمئني يا ماري، لا ذنب لي. أنتم تعلمون، وغيركم أن لافريني كان يلاحقني
طالباً مني الزواج. ولما قلت له، كما في الأيام السابقة: "لا!" سدّد المسدس إلى
جسده وانتحر.

- أعندك شاهد يا كونتيسة؟ - سأل الكونت أوغستين - أنطوان.

- إن لم يشهد لي الناس الذين يعرفون إصراره على ملاحقتي فليس لي شاهد اليوم. ومع ذلك فالله شاهدي - رسمت كلودين - ألكسندرين إشارة الصليب.
- لا يُستدعى الله شاهداً يا كلودين - لم يجد الأسقف بيير الذي دخل الغرفة كلام كلودين في محله. - بل يفصل بين الناس مسيئهم ومحسنهم.
- الله إله، ولكن ألا يجب ان نفعل شيئاً في هذه القضية؟ تلهفت ماري - أنجيليك.

- ماري، يا أختي الحبيبة اطمئي. - نصحت كلودين - ألكسندرين أختها الكونتيسة مرة أخرى - سيصل حالاً من سيثتون براءتي.
دخل رجال الشرطة الغرفة، وسأل كبيرهم:

- من منكم كلودين - ألكسندرين غيرين دو تانسين الكونتيسة؟
- أنا - قالت كلودين بصوت واثق ثم أنهت: - هؤلاء كلهم أهلي وأصدقائي.
ولكن لا فكرة عندهم عن المصيبة التي أمامكم. دخلوا قبل لحظات أمامكم.
- نرجو من الجميع باستثناء كلودين - ألكسندرين الخروج من الغرفة. وأتتما كذلك: المحترمان أوغستين - أنطوان دو فيريول الكونت، والأسقف بيير غيرين دو تانسين.

- وأنا ماري - أنجيليك دو فيريول الكونتيسة - بادرت شاعرة بشيء من الحِطة لعدم ذكر اسمها. - أنا الأخت الكبرى كلودين - ألكسندرين غيرين دو تانسين الكونتيسة.

- نعم، نعم يا كونتيسة، نعرفك. ونعرف شارلوت - إليزابيت أيسيه. يجب أن نستجوب كلودين - ألكسندرين غيرين دو تانسين الكونتيسة. سنستدعيكم إن احتجنا إليكم.

حين تحدث الشرطة في موضوع الجريمة مع كلودين - ألكسندرين، جيء بالشهود إلى داخل الغرفة. وقرؤوا الورقة المطوية في الجيب الخلفي لـ لافريني: "إن رأيتموني مقتولاً فالمذنبه هي كلودين - ألكسندرين غيرين دو تانسين. ظلت تعديني بالزواج، وتوَجَّل من اليوم إلى الغد، وتخدعني حتى كرهتني نفسي والدنيا، وعجزت عن التحمل. سأكون راضياً بأي حكم ترونه مناسباً بحق من لعب بحبي الصادق. لافريني"

نقلت كلودين - ألكسندرين عينيها بين رجال الشرطة والشهود معتبرة ما سمعته إهانة ومضحكة معاً. ولكن سلوك لافريني المعيب معها جعلها تنفجر: - أيّ جنون هذا؟! أقتل الإنسان نفسه لأنه غير محبوب؟ لا أريد أن أقول كلاماً سيئاً بحق هذا الذي انتحر أمامي. ولكن الأمر مضحك. - ربما - وافقها كبير الشرطة، وأكمل: - ولكن علينا توقيفك لمدة قصيرة ريثما تتوضح أبعاد القضية.

سقطت ماري - أنجيليك وهي ترى أختها تقاد إلى خارج الغرفة قبل أن تجد الفرصة لتصرخ. وحين أعادوها إلى وعيها لامت أخاها الأصغر الواقف أمامها: - كان الأفضل أن ترافق أختك إلى حيث اقتادوها من أن تقف على رأسي. - ستظهر براءة أختنا يا ماري. وأنت تعرفين أن كلودين لا يمكن أن تفعل مثل هذا. ولا تجهل الشرطة أيضاً.

- وأنا أعرف براءة كلودين، والشرطة تعرف - جلست ماري - أنجيليك - أليس لهذا تحرقني الإهانة التي لا نستحقها نحن آل دو تانسين وآل فيريول. كم مرة قلت لتلك المنحوسة: لا تسمح لي للافريني صاحب الأنف الضخم أن يحوم حولك أو يقترب منك.

- يا كونتيسة ماري لا حاجة لهذا الكلام - مرة أخرى هذاً الأسقف أخته. -
 هذا الذي انتحر، اطمئني، سيجد حيث رحل من يستجوبه كما يستحق.
- لا يعنيني هذا الشرير، بل أختي حماها الله. أين أنت يا أيسيه؟ لا أراك!
- شارلوت - إليزابيت أيسيه وبون دو فيل ذهباً لزيارة دو فليري - أجاب
 الكونت أوغستين - أنطوان.
- هكذا؟ - فرحت ماري - أنجيليك حتى عاد الدم إلى وجهها. ثم سألت
 الكونت ولونها يتغير: - وأنت؟ أنت لماذا لا تتحرك؟ لماذا لا تذهب إلى
 الوصي أورليان؟
- حين نظر الكونت أوغستين - أنطوان ساهماً في وجه زوجته سأل أرجنتال أمه
 مُسمعاً أباه:
- ماما كأنك نسيت أن أورليان مات.
- حقاً دار رأسي. هذا المسكين مات أيضاً... ولكن إذا مات فالملك حي،
 يجب أن نذهب إليه ونُفهمه حالنا.
- لا تغتمي يا كونتيسة! - نصحتها الزوج أيضاً. - أنا واثق من براءة كلودين.
 سترينها قريباً حرة.
- بديهي أنها بريئة، وبديهي أن يطلقوها! إذا كنتم أنتم آل فيريول وآل تانسين
 طوال عمركم تأبون مقابلة الملك ورجاءه في أيّ أمرٍ فأنا مستعدة أن أذهب
 بشخصي وأترجاه. لن أسمح لوزير نساء فاسق مثل لافريني أن يلطخ سمعة أختي
 الطاهرة والكاتبة الشهيرة. لا أجافي الحقيقة. أيغفر له غناه ومنصبه العالي!
- المرأة التي أوقعت آل فيريول وآل تانسين، وأوقعت نفسها في ورطة، أقامت في
 سجن "شاتليه" يوماً وليلة ثم نُقلت إلى سجن الباستيل. وفي اليوم نفسه انتشر
 الخبر في أنحاء باريس. وكلُّ كان يزيد في القصة وينقص على هواه. من يبرئ

الكاتبة كانوا كثيرين، ومن يتهمها ليسوا قليلين. ولكن من يعرفون حقيقة الأمر، بل من يسمعون به قالاً عن قيل كانوا يسخرون من طريقة موت المنتحر، المعرم بالنساء الجميلات، في سبيل الحب من طرف واحد بدلاً من الإشفاق عليه. ولأن كل قضية تحتاج إلى وقت، ومع أن إركيول أندريه قد تدخل في قضية الكونتيسة غبرين دو تانسين والمركيز لافريني أكثر من مرة، وربما كان نافعاً تدخله، فقد استغرقت القضية ثلاثة أشهر قضتها كلودين - ألكسندرين في سجن الباستيل، ثم خرجت مع وثيقة براءتها.

- كنت واثقة من براءتك يا كلودين - قالت ماري - أنجيليك لأختها وهي تعانقها - ولكن لم أتوقع الاحتفاظ بك كل هذه المدة. كيف سارت أمورك يا أختي الصغيرة؟ قضاء ساعة في السجن وسنة كاملة سواءً. كأن كلودين تعود إلينا بقامة أرشق، ووجه أحلى يا أيسيه. لي نصيب في ما حدث لك يا كلودين مع لافريني فاغفري لي. صحيح أن أيسيه أيدتك بشأن هذا اللثيم، ولم تؤيدني... حرم نفسه بنفسه هذا الفاسق الكبير مما جمع من أملاك طوال حياته.

- كفى يا ماري لاتصدعي رؤوسنا بحديثه! خير منه أن تُطلعوني على أخباركم. كيف تجري أمورك يا أيسيه؟

- وكيف ستجري ونحن، أيسيه وأنا، لا همّ لنا غيرك؟ - قالت ماري - أنجيليك دون انتظار جواب أيسيه - ولسنا وحدنا بل آل فيريول وآل تانسين. تعرفين حقيقة مشاعر كل إنسان نحوك حين تقع في أزمة. يا كلودين لم أعرف أن أيسيه تحبك كل هذا الحب. لم تترك أحداً تستطيع الوصول إليه من أجلك. كانت تستعد لمقابلة الملك لو لم يُطلقوا سراحك.

- شكراً يا أيسيه - مدت كلودين - ألكسندرين رأسها نحو عائشة وقبّلت وجنتها.

- وهل يستحق ما فعلتُ الشكر يا كلودين! بين الأهل الذين يرتبطون بالحب والحرص لا تنقطع العلاقة.

- نعم، نعم يا أيسيه، فعلتِ كل ما تستطيعين وقت مرض أبيك المرحوم شارل دو فيريول، ووقت أزمة كلودين. وتقولين: هذا "لاشكر عليه". ولكن لا أستطيع إلا أن أعبر لك عن رضاي عنك. وماذا ستكون أمور أيسيه؟ كما كانت.

- ما تقولينه يا ماما ماري - أنجيليك فيه نصيب من الصحة. - خطرت لعائشة ابنتها الصغيرة فتنهدت. - كيف لا تقلقين على طفلك الذي في مكان ما؟

قالت كلودين - ألكسندرين بعد سكتة:

- هذا صحيح يا أيسيه. ما تعانينه في قلبك لا يفهمه أحد كما أفهمه. شهور سجنى الثلاثة جعلتني أفكر في أمور كثيرة. لا تسمح أن يحدث لك بشأن طفلتك ما حدث لي. خذاها دون الاستماع إلى نصيحة أحد، ورّباها أنت وشفالييه.

- وهذا ما أقوله أنا أيضاً يا كلودين - أيدت ماري - أنجيليك الكونتيسة أختها - غير أنه لا يعجبني سلوكُ من سيصاھرنا شفالبيه وترتيبائته. لا أعرف إن كان يضَيِّع الوقت في سفراته إلى مالطة أم أربوه.

- لا - أسرع عائشة قبل أن يُدان حبيبها - ليس بليز - ماري دو إيدي من هذا النوع من الناس. هو حاضر حتى في هذه اللحظة. هجمت نوبة السعال التي قاومتها عائشة إلى الآن، فسعلت حتى كادت تختنق.

- لماذا إذن يسوّف في المسألة؟ - سألت ماري - أنجيليك كأنها جاهلة بموضوع عائشة ودو إيدي شفالبيه، ولامتها على سبيل القلق عليها: - سعالك هذا لا يعجبني. من وقت رجوعك من سانس لم تكفّ عنه. كم قلت لك: الشتاء بارد؛ البسي جيداً، واحرصي على صحتك. ولكنك عنيدة لا تسمعين الكلمة.

- قلت لك قبل يا ماما ماري - أنجيليك، وأقول الآن إني أنا من يسوّف القضية. لا أريد إفساد خدمة دو إيدي العسكرية. هم وعدوه أن ينسّبوه إلى حرس الملك؛ فإذا تحقق أمكننا تأسيس أسرتنا.

- أما قلت لي إن الموعد كان العام الماضي؟ - لم تكن ماري - أنجيليك تستطيع السكوت عن موضوع الملكية الذي يشغل بالها.

- قلت لك غير أننا لم نعدم من يعترض طريقنا.

- ربما كان أورليان؟ ابتسمت كلودين - ألكسندرين.

- نعم يا كلودين، عرفت.

- لهذا كنت قلت لكما لا يجوز أن تعاديا أحداً. - التفتت ماري - أنجيليك نحو عائشة فيما تتظاهر بلوم الاثنتين. - يا أيسيه، يا من لك أسرار لا تنتهي... لو أخبرتي لكنت حللت لك الموضوع منذ زمن بعيد... والآن إذ توفي أورليان الرجل المبارك العظيم - ليوجهه الله حيث رحل إلى الخير - سنعتبر طريقكما مفتوحاً؛ أليس كذلك يا كلودين؟

- تَبّاً له يا ماري! أيّ نوع من البشر هذا الذي تمدحينه؟ هذا واحدٌ ممن دمروا حياتي. دعينا نترك هذا الحديث ونساعد أيسيه ودو إيدي.

- لا أعرف يا كلودين ماذا ستفعلين في وضعك الحالي. لكن من الغد أعدك أن أساعد أيسيه.

- لا، لا - أسرع عائشة، لا يقبل دو إيدي...

- ما الأمر؟ - ارتفع صوت ماري - أنجيليك رغماً عنها. - انسيا ما يعجبكما وما لا يعجبكما. زماننا يحتاج منا إلى أن يحرص كلٌّ منا على الآخر. وعلينا أن نجد من يتكلم إلى والدَي شفالييه.

- هذان هما يا ماما من لا يجوز التحدُّث إليهما. - قالت عائشة، ثم أكملت بصوت ناعمٍ نادمٍ: - هذا فيما بعد، لاحقاً.

- ولماذا فيما بعد؟ أيجبان فرنسا أكثر مما نجبها؟ ظل أرمان الفيكونت وزوجته المركيزة كليز ترددان هذا فشجعا ابنتهما على الالتحاق بالفرقة المالطية، فدمراً حياته. سأطلب من الكاردينال إركيول - أندريه فريلي أن يتحدث إليهما.

- اسمعي ما يُقال لك يا ماري، لن تطلبي من أحد التحدُّث إليهما - خاطبت كلودين أختها بخشونة - دعي عائشة ودو إيدي يفعلان ما بوسعهما.

- هذا هو، هذا هو... - احتدَّت ماري - أنجيليك - انظرا ما حدث لكما وأنتما تقولان هذا وأنا أطيعكما. أهنكتماني أنتما الاثنتين. - ندمت الكونتيسة بسرعة على ما تلفظت به - لا أعرف، تدفعاني إلى أن أقول أشياء كثيرة؛ ساحاني. حسناً سأطيعكما الآن أيضاً. ولكن يا أيسيه إن تراخيتما في حل مشكلتكما فلن أستشيرك لا أنت ولا شفالييه في ما سأقول وما سأفعل. والحال هذه اسمعي يا كلودين ما سأقول لك: لن أسمح لك أن تقيمي بعد الآن في البيت الذي فاحت منه رائحة جثة لافريني. تبقيين عندنا ريثما تبيعين بيتك، وسنساعدك حتى تشتري بيتاً أفضل. أليس صحيحاً يا أيسيه؟

- لا أعرف يا ماما؛ هذا يعود إلى كلودين.

- أسمعتِ يا ماري ما قالت لك؟ هل ستجعليني أبدل بيتي المريح لأن مجنوناً ما انتحر فيه؟ لن أطيعك حتى لو ترجاني الملك نفسه.

- وهل تستطيعين العيش فيه يا كلودين؟ - استغربت ماري - أنجيليك. -
أقول هذا لأنك ستظلين تتذكرين ما جرى لك فيه.

- ولماذا لن أستطيع العيش فيه؟... وحدث لي غيرها هناك... - ابتسمت
كلودين - ألكسندرين بسرعة لأنها تذكرت أنها وضعت مولوداً في هذا البيت،
فخانها صوتها. - سأعيش فيه نادمة على أنني لم أسلب الرجل القبيح الذي
مدحته لي ماله الكثير، وأضحك على من قتل نفسه أمامي. أليس صحيحاً يا
أيسيه؟

- لا يمكن أن يقال في التهمة التي ألصقت بك يا كلودين غير هذا - وافقتها
عائشة من خارج قلبها.

- اسمعوا هاتين، اسمعوهما! ما أسعدهما كيف تتفقان! أنا لا يمكنني أن أقول مثل
هذا. شباب اليوم ليسوا مثلنا. الخوف من أن نهاية العالم باتت قريبة. إن كنت
على خطأ فاغفر لي يا إلهي العزيز، إلهي العلي. قالت ماري - أنجيليك بحجة
صوت الجرس المسموع الآن: - حسناً اذهبا، حان وقت الغداء. أنا سأخفف
اليوم من طعامي قليلاً. توقفي قليلاً يا أيسيه! ألا يسمع لاروش سعلتك من
دون أن أقول لك؟ لأجل هذا يا كلودين أقول: من بعد وفاة المرحوم شارل دو
فيريول أهملنا الطبيب. اشربي سوائل حارة بانتظار أن يطرد شهر أيار البرد
منك. واطلبي من صوفي طستاً من الماء الساخن مساء كل يوم. وأنا سأبحث
لك عن دواء عندي. إن لم أهتم بك فمن يا حسرتي سيهتم؟! وأنت يا
كلودين أهملت صحتك. - لامت أختها التي لا تسمع الكلمة. وحين بقيت
وحدها تابعت الاثنتين بالكلام: - إن بقيتما جميلتين فحسب دون صحة
جيدة فلن يسأل أحد عنكما.

الكتاب السابع

I

اليوم هو الرابع عشر من نيسان عام 1727.

بعد غد ستكمل سيلين السابعة من العمر. لم تغمض عائشة جفنيها طوال الليل إذ كانت تنتظر صباح الانطلاق إلى سانس بلهفة، كما أن سعالها لم يتوقف طوال الليل. سؤال واحد كان في ذهن عائشة: "هل ذهابي وحيدة إلى عيد ميلاد ابنتي تصُرفُ صحيح؟"

من ستصحب عائشة؟ إن انتظرت تسريح شفالييه من الوحدة المالطية فلن ترى ابنتها ولا تسأل عنها يكنّ دو إيدي يلتزم العهد الذي التزما فيه بإخفاء الأمر مُكرهين سبع سنوات. ولم يكن السبب أن شفالييه يخاف على نفسه. بل كان عليه أن يخفي الأمر ليحمي ابنته. ولكن هل قدوم المولودة سرٌّ بالنسبة إلى آل فيريول وآل تانسين وآل كالاندرين وآل بولينغبروك؟ بيد أن السرّ الذي تذيعه أنت غير السر الذي يشاع عنك. إن اعترضت الفرقة المالطية فلا شيء يخطر على بالها وتتورع عن فعله.

"لا ألومك يا إيدي - لامت عائشة نفسها وهي تهدّي نفسها. - أفهم لماذا والداك غير راضيين عني وعن سيلين. وكيف ألوم من يخاف على حياة ابنه؟ أنا المذنبه إذ ورطتُك في أزمة مع أسرتك. لا، لا أريد أن تخسر حياتك من أجلنا! لو كنت أعرف ما ينتظر ابنتي في المستقبل لما ترددت في التضحية بنفسي من أجلك. ولكن كان الأفضل من كل ما عداه هو أن تصقّي علاقتك بوحدة العسكرية بسلام، ونصبح ثلاثتنا في مكان واحد. افهمنا يا إلهي،

وحقق لنا أملنا. وَلَيْنَ قلوب من يعترضوننا! ولن أهجر ابنتي، مع أُنِي وضعتها على نحوٍ معيب، لأنه جرى بعلمك. متى حُلَّت مشكلتنا فلن أُبقي سيلين في الميتم ساعة واحدة. أهنأك ما هو أَلَم من أن تخفي عَمَّن ولدتها أنك أمها؟!... ولا أَلوم إيزابيل - لويـز. وأشكرها على أنها تسمح لي برؤية سيلين. أدعو لها أن تعيش طويلاً، طويلاً، وبصحة جيدة لأنها فاعلةٌ خير في خدمتك"

خلال مسيرة نصف النهار كان السائس جاك العامل طوال عمره لدى آل فيريول، والذي أوصته ماري - أنجيليك، مع مكافأة مالية، أن يحرص على عائشة التي ينتابها السعال دون فواصل طويلة، يلتفت إليها من حين لآخر. وأخيراً قال لها:

- ارفعي زجاج النافذة يا كونتيسة عائشة، الهواء البارد سيؤذيك!

- شكرًا جاك!

- لو كان أبوك المرحوم شارل دو فيريول حيًا لما سمح لك أن تسافري وأنت في هذه الحالة. كان إنسانًا عظيمًا طيب القلب. كنا نتناقش أحياناً المرحوم الكونت وأنا، وربما تتذكرين أنت، في موضوعات الحياة. ومن أين كان لي أن أجاري مثل هذا الإنسان الفطن؟! ولكن كان يقتنع ببعض آرائي. فارقنا الكونت، وأنت بقيت يتيمة. وأنا أعيش مع آل فيريول مكتم الفم. الكونت أوغستين - أنطوان والكونتيسة ماري - أنجيليك لا يتحدثان في عربتي بخير أو شر. ربما لا يثقان بي!

- لا يا جاك. أنت مخطئ. وهذان طيبا القلب جداً.

- حسنٌ إن كان هذا رأيك في الكونتيسة. ولكن، والكلام بيني وبينك، لا يُقارنان بأبيك المرحوم. لم يُجوجك إلى شيء ولا انتهيت شيئاً فلم تحصلي

عليه. وترك لك، إن كان الكلام صحيحاً، ما تعيشين به طوال عمرك. فرحت حين سمعت ذلك لأني لست حسوداً.

- صحيح يا جاك. - أجابت دون أن تفكر في ما وراء سؤاله ربما لأن كلماته الطيبة في حق أبيها، ولو فارق الحياة، أنعشت قلبها. ولم تكتم مقدار ما ترك لها: - كتب لي ثلث أملاكه.

- وهل وثق كتابة؟

- نعم يا جاك.

- هذه إنسانية منه. وهذا ما يسمى بالمعروف! ثم أنهى بعد قليل وهو يهز رأسه: - لأجل هذا يا شارلوت - إليزابيث أيسيه أحترم المرحوم وأحبه... - "ولماذا لم يتكرم علينا بشيء" أضاف لنفسه. ثم ارتعب للفكرة التي خطرت له بشأن منحة ما من الكونت، فأضاف إلى مديح الكونت: - أتعرفين ما الحكمة التي كان يقولها لي من تراثكم أنتم الشراكسة؟ "اعمل المعروف وارمه في الماء". ولما لم أكن أفهم في البداية معنى الحكمة سألت الكونت فحملني جوابه على محبة الشراكسة الذين لا أعرف عنهم شيئاً. "إذا عملت معروفاً فلا تتحدث عنه، ولا تسأل أين صار. ربما وصل معروفك إلى من لا تعرفه كقطرة ماء فنفعته"؛ أليس هذا هو المعنى؟

- نعم يا جاك. كنت سمعت هذا من جدتي وأنا صغيرة. ولكن لا أعتقد أن الشراكسة وحدهم ينفردون بهذه الحكمة. كان اللورد بولينغبروك روى لي ما يشبهها عند الإنجليز.

- ليس بعيداً أن يكون عند الإنجليز مثلها، ولكن لا أعرف لماذا عندهم ما ليس عندنا في فرنسا... - قال جاك لنفسه "لا يهمني أمر الإنجليز

والشراكسة، أفضل أن تأتي على ذكر سبب زيارتنا المتكررة إلى سانس" ثم أضاف:

- الحق أني لم أعرف إن كان في الدنيا شراكسة. لا شك أن عندكم كلمات مأثورة تتعلق بالأولاد وتربيتهم... أقول هذا لأن عندي كثيراً من الأولاد والأحفاد... ولكن ربما تكونين نسيتهما...

- ولماذا أنساها؟ - قفز قلب عائشة مما سمعت. - لن تنسى أبداً ما تتعلمه في صغرك. ها أنا تذكرت أشياء من قبيل ما سألت عنه "العود يُحنى وهو طري، والولد يرنى وهو صغير" "ابنك على ما تربيته عليه، وزوجك على ما تربي عليه" "عادة الأم نموذج للبت" "انظر إلى الأم وتزوج ابنتها" - روت عائشة ما خطر لها في لحظتها - وتريد المزيد؟ - أضافت وهي ترى أنها بالغت في شأن قومها الأديعة، ولا تريد أن يشك محبّيها في إخلاصها لفرنسا التي تعيش فيها وبين أهلها. - والفرنسيون عندهم كلمات مأثورة حكيمة تتعلق بتربية الأولاد.

- عندنا يا كونتيسة، عندنا - قطع جاك ما كانت عائشة تنوي روايته من كلمات مأثورة فرنسية - وكيف لا يكون عندنا ونحن عرق كبير! ولكن ما أستغربه هو تطابق أقوال الأعراق الكبيرة والأعراق الصغيرة. لا أقول إن قومك الشراكسة عرق صغير، وقد سمعت ما رويت من كلامهم الحكيم. ماذا قلت بشأن الأم وابنتها؟ ذكريني!

ضحكت عائشة:

- إن لم يبق في ذاكرتك فقد لا يكون فيه حكمة يا جاك.
- وكيف لم أحفظه في ذاكرتي، ولكني سألت لأن من عادتي تكرار الكلام. أتذكر كلمات كثيرة تتعلق بالأم وابنتها "عادة الأم نموذج للبت" "انظر إلى الأم وتزوج ابنتها". لتجتهذن وأنترن تتمثلن حكمة ما سمعتن، أسرغن يا

أصحاب القوائم البيضاء!- هكذا بين مزح وتشجيع مع أحصنته كانت العربية تنهب الطريق.

ضحكت عائشة الآن بصوت أكثر دفئاً:

- ما الأمر يا كونتيسة؟ ألم أعد الحِكم الشركسية على نحوٍ صحيح؟

- لا يا جاك بل لأن ما قلته عن الطريق ذكّرني بكلام مأثور من عندنا.

- تفضلي؛ إن كان فيه حكمة حفظته.

- "انصُب السلم على الطريق!"

- ماذا قلت؟ كيف تنصب سلماً على الطريق؟

- أنت منذ وقت طويل تنصب سلماً على الطريق يا جاك.

- وكيف؟

- حين يمل المسافرون يقولون "لينصُب أحدكم سلماً على الطريق!" يعني أنهم

يقصّرون الطريق مهما كان طويلاً بسرد الأخبار كما أن السلم يتألف من درجات مفردة.

- إذا كنت منذ زمن نصبت سلماً على الطريق يا كونتيسة فأنا بانتظار سلّمك.- مزح معها السائس.

أجابت عائشة على أسئلة السائس قائلة في نفسها: لماذا هذا الإلحاح على محادثتي. خطرت لعائشة شكوك في السائس ولكن لم تجد من اللائق الشك في جاك الذي عمل عمره لدى آل فيريول. ورغم أن عائشة كانت تعرف أن من يركب الطريق يتحدث في موضوعات متنوعة، مع محافظة الرجل والمرأة، كلٌّ على طبيعته واحترامه لنفسه، فقد قطعت على جاك بما حدثها قلبها:

- المرأة الشركسية لا تنصب سلماً على الطريق بحضور الرجل، ولا تسمح أن يراها وهي ترتقيه.

- وهذه حكمة - لهذا لا أقبل من أحد أن يقول: كيف للشعوب الصغيرة أن تبلغ مبلغ الشعوب الكبيرة كالفرنسيين والإنجليز والألمان.

- شكراً يا جاك - تنهدت عائشة خفيةً - لا تتعلق الحكمة بعدد أفراد الشعب، لا تميز شعباً صغيراً من شعب كبير. ولا مثقفاً كبيراً من رجل من عامة الناس، ولا تهتمّ باللغة التي يتكلمونها. ستصبح الدنيا أجمل وأفضل إذا ساهم كل إنسان فيها بما يستطيع بغضّ النظر عن لونه ولغته ولباسه وطعامه وطريقة تفكيره ودينه. هذا ما يقوله فولتير.

- أليس هو فولتير العنيد الذي كان يختلف إلى بيت دو فيريول يا كونتيسة؟

- نعم، أجابت عائشة بطريقة تُظهر امتعاضها من كلام السائس: - ليس عندنا فولتير آخر في فرنسا.

- فهمت الآن لماذا طُرد هذا الرجل الحكيم من فرنسا¹. - غيّر جاك من نبرته

- وأنت يا كونتيسة كوني حريصة. - واختتم بحيث تفهم لماذا يهزّ طرف سوطه: - هؤلاء لا يتورعون عن شيء يخطر لهم.

- ماذا أتظني مثل فولتير داعيةً نشيطة إلى أفكار الحرية؟ مزحت عائشة مع السائس وهي تسخر من نفسها.

- حكيمة، حكيمة! لم يفكر السائس في ما يقوله.

- كفى - لنتوقّف عن افتخارنا بأنفسنا هنا! غمرت عائشة من قناة السائس العجوز.

¹ سُجن فولتير للمرة الثانية عام 1725. وفي السنوات التالية 1726 - 1729 نُفي من فرنسا فعاش في إنجلترا. وفي رسائله الكثيرة (1049 رسالة) إلى بون دو فيل وأرجنتال كان يبعث بتحياته إلى عائشة. المؤلف.

- كما تريدن يا كونتيسة. إن كنت قلت ما ليس مناسباً فسأحيني. كنا ننهي نقاشنا بهذه الكلمة حين لم نكن نتفق أنا والمرحوم أبوك... أسرعى أيتها الأحصنة، هيا يا أصحاب القوائم البيضاء يا أصدقائي! وكما تقول كونتيستنا: انصبن سلماً على الطريق. - التفت جاك إلى عائشة بوجهٍ مُراءٍ وابتسم لها.

لم تكن ابتسامة في هذه اللحظة كافية لدعم روح عائشة. وما تبادلاً من حديث في الطريق إن كان فيه نوعٌ خبثٍ أم لا تناسته. وهُمُّها الآن هو كيف ستستقبلها في سانس الصبية التي لا تعرف أنها أمها، وكيف ستعاملها هي بالمقابل. الصبية ذات الأعوام السبعة والتي بدأ وعيها ولغتها يفتتحان ستسأل عن أمور كثيرة وهي تتأمل زائرتها؛ فبِمِ ستجيبها؟ أتضمُّ إلى صدرها من خرجت من رحمها وتخبرها أنها أمها؟ جفلت عائشة التي كانت مغمضة العينين وقالت فجأة: "لم يحن الوقتُ بعدُ" لنصبر نصف سنة فحسبُ يا حلوتي الصغيرة! سيحلُّ أبوك حتى الخريف أموره ونجتمع ثلاثتنا في مكان واحد، وربما قبل هذا الخريف. يا إلهي ما ذنبي الذي لم يفعله غيري؟ أي مصيبة أنزلتها بي زيادة على الآخرين؟ - زمت عائشة يديها وجنتيها الرقيقتين الجميلتين إلى شفتيها: - لا، لا. ما سمعته خرج من فمي رغماً عني، وليس من قلبي. سأحني وافهمني..."

العشبُ في البرية أخضر زاهٍ. والأشجار على حافتي الطريق، والغابات القريبة - البعيدة تلبس لباس الربيع. والمواشي ترعى في السفوح المتناثرة. والقمم العالية تغطيها الثلوج التي لا تريد الذوبان. وشمس الظهيرة آذنت بالانحدار فهي تلتفت إلى عائشة مشتاقة فرحة.

ليست هذه المناظر مما يغيب عن أنظار عائشة ولا مما لا تفارقها. ولكنها بعيدة عن أن تسترعي انتباهها وتتمنَّ رغبتها فيها. ومع ذلك فقد لامت نفسها حين نظرت إلى شجرة منفردة في الخلاء تحفق بأوراقها: ما أكثر ما أُحرِم منه!

صحيحٌ ما يقولون "إن لم يكن في ذهنك غيرُ الهم لا يخطر لعينيك أي جمال". هذه الشجرة وحيدة. لا أظنها خالية من الهم والشوق. ومع ذلك لا تمتنع عن أن تزيّن نفسها، ولا أن تقول لمن هي في ناظرها: "لِتَرَوْا جمال قامتي العالية" لا أستطيع مخاطبة نفسي هكذا وإن كنت أعرفها... - تنهدت عائشة والتفتت إلى الشجرة التي تركتها وراءها وقد أودعتها شيئاً، وتوسلت إليها: - اغفري لي أيتها الشجرة الوحيدة الجميلة، أنا من قال لك هذا، لا أنت قلت لنفسك... ربما يبدأ من هنا اتهام الإنسان بما ليس ذنبه..."

تأملت عائشة الآن عميقاً عالم الربيع: السماء عالية، والأرض جميلة، والفراشات الملونة تطير في الهواء الدافئ. وعجلات العرب تغطي تحتها. وحوافر الأحصنة تجري على إيقاعها. والسائس العجوز جاك يلاطف أحصنته ذات القوائم البيضاء.

كل شيء كان على ما يُرام لولا سُعال عائشة.

"لماذا عليّ أن أكتئب وأنا أرى مثل هذه الطبيعة الجميلة؟ - واست عائشة الآن نفسها - اليوم سأرى سيلين الصغيرة. سأضمها إلى صدري حتى لو لم أقل لها "أنتِ ابنتي الصغيرة". وأمسح على جسدها. وأحس بنفسها ونبض قلبها. وهذا يساوي كل ما عانيت من مشاق. لِتَنَادِي "يا خالتي" إن شاءت فأنا التي قلت لها إن أمها توفيت وأنا خالتها. ولكن ألسنتُ من وضعها؟ أليست بُضعة مني؟ في زيارتي السابقة همست لي دون عتاب "مضى زمان على حضورك، اشتقت لك". والآن كيف ستتصرف معي؟ وماذا ستقول؟ يكفيني أن أُلقي نظرة عليها ولتقل ما تريد! وإن بكت شاكية إياي كان صوتها عذباً عليّ..."

لاحت من بعيد مدينة سانس المبعثرة. وحين ظهرت لعائشة دار الأيتام المتربعة على المدخل اليميني المرتفع تعثّر قلبها في الريف. وخیل إليها أن سرعة العربة انخفضت. وسأل السائس العجوز ملتفتاً إلى وراء عن وجهتها وكأنه لا يعرف:

- هل سنتجه إلى الميتم أم إلى المدينة؟

- ماذا نفعل في المدينة؟ - أسرعت عائشة بالجواب كمن تصرف معها بما لا تحبّ.

- من أين لي أن أعرف؟ أتساءل إن كنا سنتوقف ونشتري شيئاً.

- ليس الآن... - استعجلت عائشة وقد داهمها حزن غير منتظر. وحين تذكرت أنها وصلت ساعة استراحة الظهيرة ارتاحت. ولحظة دخولها من البوابة الكبيرة رأت إيزابيل - لويز في طريقها لاستقبالها.

- هل أنت وحدك؟ سألت إيوابيل - لويز.

- وحدي؛ ما الأمر؟ نظرت عائشة في وجه إيزابيل - لويز مرتاعة - هل سيلين مريضة؟

- لا، سيلين في الاستراحة. نوّمتها بصعوبة وهي تسأل عن قدومك. لا ترتعي يا أيسيه ولكن لا مكان لعربتك هنا ولا في سانس. اطلبي من السائس العودة إلى باريس. لا تسأليني الآن، سأخبرك في الغرفة.

طُلب من جاك العجوز العودة إلى باريس دون أن يعرف السبب، ودون أن يجد الفرصة للسؤال:

- لا تقف في سانس، واسترح أنت والأحصنة في مكان آخر. - همست عائشة للسائس المهموم - لا تحبر أياً يسألك عن المكان الذي كنت فيه وعن إيصالك لي إلى هنا. - وحين دخلتا الغرفة رجت عائشة التي امتّقع لوّها إيزابيل - لويز عما جرى لسيلين:

- سيلين بخير، في صحة جيدة. سترينها حين تُفِيق. كان مبعوثان من الوحدة التي يخدم فيها دو إيدي شفالييه عندنا اليوم.

- وماذا يريدان؟ - لم تستطع عائشة تحمّل صوت ارتياعها.

- سألّا إن كان لدى إيدي شفالييه طفل هنا، وعمّا إذا كان يزورها. تفقّدا الوثائق المرافقة للأطفال، وعندهما علم بأن الغد هو عيد ميلاد سيلين. خمنّت أنّهما سيقضيان اليوم والغد وبعده في سانس، وسيختبران إن كان دو إيدي شفالييه سيزور ابنته.

- وما العمل؟ - سألتُ عائشة الآن دون استعجال.

- سُريح أنفسنا يا كونتيسة - أجابت إيزابيل - لوزير إجابة قصيرة حازمة، وبعد قليل أضافت: - أنت وأنا صديقتان. تعرف إحدانا الأخرى منذ زمن بعيد. جئتِ إليّ لرؤيتي... أياً سؤلنا فعندنا الكثير لنجيبه... - حين رسمت الصليب لنفسها فعلت مثلها عائشة - والآن سأقول لك خبراً طيباً يا شارلوت - إيزابيت أيسيه: جانيت - نيكول ستكون هنا غداً.

- هذا خبر سارّ - امتدحت معلمتها التي لا تني عن امتداحها: - جانيت - نيكول امرأة طيبة القلب، لم تنس فرحتي غداً، ولا حزني واكتئابي، شكراً لها. أياكون بيير برفقتها؟

- لا مكان لرجل! - أسرعّت إيزابيل - لوزير، ثم سألت وخوف بعيد يرتسم في عينيها الصغيرتين: - أتكونين ربّت أنت وشفالييه زيارة له إلى هنا دون علمي؟

- هل أستقدم دو إيدي شفالييه إلى هنا وأورطك وأورط نفسي في مشكلة؟! - أجابت عائشة بخشونة أكبر مما سُئلت بها.

- طمأنيتي! - ابتسمت إيزابيل - لويز ولم تعلق على ما سمعت. ولكنها سألتها: - هل ارتحت الآن نوعاً ما؟ إذن اسمعي ما سأقول لك: سأطلب لك لو بلون شارلوت - سيلين وأتركها معك إلى وقت النوم. ولكنك ستصرفين معها كما اتفقنا: لست أمها بل خالتها. أفهمت يا أيسيه؟ - سألت بصوت أرحم.

بعدما وقفت عائشة على أرض الغرفة، كما تفعل عادة في أوقات قلقها، تعصر أناملها الرقيقة في كفيها الرقيقتين، انفتح الباب الذي ماكان يغيب عن ناظريها، ودخلت، تسبقها إيزابيل - لويز، فتاة نحيلة يظهر عليها نموها المتسارع. وتوقفت حذرة مستغربة ما ترى. وأطرقت، ونظرت جانباً، ثم ركضت فجأة بذراعين مفتوحتين إلى عائشة التي تنتظرها باسمه:

- يا خالتي أيسيه؛ جئتي!

- نعم يا سيلين، نعم. - هوت عائشة إلى الأرض وضمت إليها الصبية، وألصقت خدها بشفتيها وقبلتها.

- هل تبكين يا خالتي أيسيه؟ سألتها سيلين الفطنة النظيفة، ثم قرّبت شفتيها الرقيقتين إلى أذن عائشة وهمست:

- أأنتِ أُمِّي فتبكي!

- والحالات يبكين يا سيلين... - ثم همست هي الأخرى محافظة على تماسكها: - لأني فرحة بك!

II

في الوقت الذي كان فيه على عائشة العودة إلى باريس بعدما قضت في سانس أسبوعين بدلاً من يوم وليلة تبين أن ماري - أنجيليك حزمت أشياءها، برفقة الدكتور لاروش، وطلبت إيصالها إلى أبلون. وسافر الكونت أوغستين - أنطوان دو فيريول مع ديستان البواب إلى إقطاعة بون دو فيل لقضاء الربيع والصيف والخريف فيها. ويعيش بون دو فيل وأرجنتال ينتظران خروجهما من باريس التي تغلي.

حين أنصتت عائشة إلى أخبار أسرة فيريول سألت صوفي:

- لماذا لم يصطحبك الذين سافروا إلى أبلون؟

- وهل أعرف لماذا؟ - أجابت صوفي باسمه تقارب ما بين كتفيها: - وهل

تحتاج الكونتيسة والدكتور لاروش إلى شاهد؟ لا تضحكي يا أيسيه! أصرت عليّ الكونتيسة أن أوصلك حال عودتك إلى أبلون.

- إن ابتعدوا عنا ارتحنا قليلاً - ردت عائشة على صوفي بالمزاح.

- صحيح، دعينا من هذا إلى أخبار سيلين.

- نطق اسمك كثيراً "خالة صوفي".

- لم تنسني، ما زالت تذكرني.

- بعد حوالي شهر سنذهب معاً إلى سيلين.... - شردت عائشة وقالت ما

تفكر فيه: - كل شيء حسنٌ ولكن ثقلني نحافتها... ألم يظهر دو إيدي يا

صوفي؟

- لا، ما الأمر؟

- لأنه مريض يعاني من اضطراب في التنفس.

"يا إلهي؛ اغفر لي إن أخطأت، وإن كنت قريبة من الصواب فافهمني. منذ أن عرفت عائشة لم تخطر لي فكرة سيئة نحوها. ولكن أنا في وساوس منذ وضعت طفلتها. - تقول صوفي لنفسها متوسلة، متأملة إلى الله الذي تؤمن به - أنا أسأل عن الطفلة المقيمة في الدير، وهي تسأل عما إذا جاء حبیبها. هي تسأل عن صحته ولا أعرف لماذا عواطفها باردة نحو الطفلة التي ولدتها. كيف تجعل من نفسها دائماً فتاة عذراء كأن لم يحدث لها شيء؟ ولا أفهم لماذا لم تتوقف عن حضور المسرح في حالتها الراهنة، ولا تحرم نفسها من اللقاءات المسائية. وما أغرب ألا تتعب من الأناقة في الملابس، أن تطلب من الفنانين تصويرها، أن تتميز من قريناتها، أن تدفع الرجال إلى اشتهاها ولو أنها لا تسمح لأحد أن يمسه. لا أعرف يا رب تفسيراً لأيٍّ من هذا؟" حين فاتحتها سابقاً بمثل هذه الأسئلة أتذكرين ماذا أجابتك؟" - سألت صوفي نفسها وهي ترتعب في ذاتها واستذكرت جواب عائشة حينها: "ألا يكفي كم حميت نفسي في صباي؟... ولكني لا ألطخ نفسي بجمالي وإغرائي. الخطيئة التي ارتكبتها أنا وشفالييه أنت تعرفينها. نأمل من الله أن يغفرها لنا. ولا نسمح لأنفسنا أن ننسى أننا أم وأب ولو أننا أقسمنا ألا نطلع الصبية عليها. ونقوم نحوها بواجبنا. بعد بعض الوقت سيرعاها آل بولينغبروك..."

فجأة انفجرت صوفي باكية:

- ماذا جرى لك يا صوفي؟ - فوجئت عائشة التي كانت مشغولة البال بما تخفف به من أزمة دو إيدي شفالييه. - هل أهانك أحد في أثناء غيابي؟ لا تكتمي، لن أقبل من أيٍّ كان.

- لا أحد أحزنني أو ألخني ... - نظرت صوفي في وجه عائشة وأحزأها بادية رغم محاولتها كتمانها. وناورت حول سبب بكائها دون الصراحة: - كنت أود رؤية سيلين الصغيرة...

- الصبية الصغيرة - لامت عائشة صوفي دون أن تذكر اسم الفتاة إلا بعبارة "الصبية الصغيرة" - أما رويثُ لك أخبارها ووعدتك أن نزورها قريباً؟ أرجو ألا تُفسدي عليّ يومي... الأحسن يا صوفي أن نذهب هذا المساء إلى المسرح... - أيّ قلبٍ تملكين يا أيسيه! - لم تُطق صوفي صبراً - حاولت ألا أقول شيئاً ولكنك أجبرتني. ما إن عدت من الميتم حيث ترقى ابتك حتى دعوتني إلى المسرح! أستغرب كيف يطاوعك قلبك. - كانت تريد أن تضيف "أنتِ ظالمة" غير أنها ابتلعتها.

- يا صوفي! - وعائشة بدورها لم تقبل لوم صوفي - ماذا تريديني إذن أن أفعل! أتريدن أن أقضي وقتي في البكاء!

- لا، لن تفعلني. - لم تنقص حدة صوت صوفي إن لم تزد - يجب أن أقدمي لطفلك ما تستطيعين. قلت لك سابقاً وأكرر الآن: - بعدما حدث ما حدث، وخاض الناس في سيرتك، وسواءً عرفت فرقة أبيها المالطية ما تكتمان عنها أم لم تعرف، كان عليك أن تستلمي الصبية من الميتم وترتيها. وإن قلت لا... - لم تستطع إنهاء ما كانت تريد قوله.

- قولي، قولي! - سألت عائشة ولونها يتغير وعيناها - ما الذي لا تقدرين على التصريح به؟

- إن قلب لا، مُريهم أن يسلموني إياها فأعود إلى قريتي الصغيرة فأريها لأنها تعرف أنني "تانت"، وأنا أعرفها أنك "خالتها".

التهبت عائشة بعدما كانت شاحبة:

- أهذا ما تقولينه لي الآن يا صوفي؟! ما أشد اهتمامكم جميعاً بطفلي وحنانكم عليها! انفجرت عائشة باكية وهي بين تكلف الصبر، وتقريع الذات.
- أيسيه يا روحي الوحيد، اغفري لي - عاد البكاء فألح على صوفي - ما كنت أريد أن أجرح قلبك، بل ما يجعل حالك أفضل.

قالت عائشة بعدما تماسحتا بالأيدي وتناصحتا، وارتوتا بكاء:
- "الحجر الذي ترميه أمامك تعثر به" كانت جدتي تقول، وفيما نحن ندين كلودين على أنها حملت بلا زواج جلبت لنفسها العار ذاته...

- كلودين - ألكسندرين ليست مثلك! - صرخت صوفي فقطعت كلام عائشة - أنت تعرفين أين هي سيلين، وتزورينها، وسواءً نادتك "تانت" أو غيرها فهي تعرفك.

- ليست تعرفني فحسب... - تمزق صوت عائشة مجدداً، ولكنها وجدت في نفسها القوة للسيطر عليه - تشك في أبي أمها... وأنت و كالاندرين وآل بولينغبروك شجعتوني على أن أعرفها بنفسها وأنا لم أسمع صوتها إلا مرة واحدة، فأوقعت نفسي في ورطة.

- اسكتي يا أيسيه، هذا حرام - نهضت صوفي بعنف ناسية أنها خادمة من تُعَنَّفها. وكملت فمها بيدها عارفة ما حدث لها.

- لا، لا يا صوفي، لم تقولي لي ما ترتعين منه - واختتمت بما تريد قوله هي متصنعة الضحك تستر به عارها: - ولكن كان الأفضل ألا يحدث لي هذا فأعيش حرة.

- لا أعرف بِمَ علَّق على ما قلت - انخفض صوت صوفي، وواربت بالكلام حذرة: - سامحيني إذن، ربما لا تحبين دو إيدي شفالبيه.

- لست على حق في هذا يا صوفي. أحببت دو إيدي كما لم ولن أحب أحداً في حياتي. أظن هذا ما يسمونه "النصيب"... لا أعرف، لا أعرف اسماً آخر له. سأذهب لزيارة جانيت - نيكول ما دمت لن تذهبي معي إلى المسرح، فأصطحبها.

- لا تعتي عليّ يا كونتيسة في ما قلت لك!
- أيّ "كونتيسة" هذه؟! - ألم تتفق ألا تناديني بهذا اللقب حين نكون وحدنا؟! أأحمل عليك في قلبي لأنك دلتني على سوء حظي؟
لبست عاتشة أحسن وأجمل ما لديها ومضت إلى جانيت - نيكول في سان كول. ومع أنه مضى قرابة خمسة عشر عاماً على إنحائها الدراسة في الدير فلم تحاجها الذكريات كما في كل مرة تأتي إلى هنا منذ أن جاءت بها أسرة فيريول بكاملها في أول مرة، وتقديهما إلى جانيت - نيكول. وكيف كانت تُقرئها ما يتعلق بالشراكسة من الكتب، وكيف خاطت لها أول زيّ شركسي، وزيارة الملكة لمدرسة الدير، والمناسبات التي تُجمع الطالبات فيها مرتين في الشهر، وزيارات ماري - أنجيليك وشارل دو فيريول حين يأتي من إستانبول، واصطحابها إلى بيت فيريول، وزيارة فخري لها حين جاء إلى فرنسا برفقة أورخان لإعادتها إلى بلادها، ورُفضها العودة، وأشياء أخرى. - فدخلت الدار التي أمضت فيها أيام صباها، ولم تعبأ بالطالبات اللواتي كن يراقبنها، بل هجمت وعانقت جانيت - نيكول.

وبعد ما جلستا بعض الوقت تتذكران كيف كانت كلير بولينغبروك تتعالج في سانس، المدينة التي فيها الدير حيث كانت قبل قليل في زيارة سيلين، قالت جانيت - نيكول لعائشة:

- أنت جميلة، جميلة جداً. غير أن شُحوبك لا يُعجبني.

- إذا كنت أنا لا أعجب نفسي فكيف أعجبك؟

- ما الأمر يا روعي الوحيد؟ - سألتها بلطف.

- يقال لي: ما فعلت بسيلين غير صحيح؛ فيديني الجميع. كيف لغيري أن يفهم ما يجري في قلبي... ولو كانت صوفي لا تؤيدهم لما اهتمت بالأمر - روت عائشة لجانيت - نيكول حديث الصباح بينها وبين صوفي - أفكر في أمور كثيرة ولا أعرف ما العمل.

- ما ستفعلينه فعلته وانتهى. والذنب الوحيد الذي تسجلينه على نفسك الله وحده هو من سيغفره. وطفلتك لم تتخلّ عنها. ولأنك لم تفعلني فعلتك دون معرفة الله فارتاحي. وحين يتيح لك مكاناً تستقرين فيه تضمينها إلى صدرك.

- لا أعرف يا جانيت - نيكول. لا أعرف. هذا يعود إلى آل بولينغبروك الذين أعطيتهم إياها.

- لو أطلعني على ما فعلت قبل أن تعطيهم لما سمحت لك. - تنهدت جانيت - نيكول. غير أن آل بولينغبروك ناس صالحون يخشون الله. إن لم تكوني سجلت طفلتك على اسمهم فلا أشك في أنهم سيعيدونها إليك.

- لم يقبل دو إيدي شفالبيه تسجيلها باسمهم.

- حسناً فعل. لا تلومي صوفي. في كلامها شيء من الصحة.

- صوفي سليمة النوايا تقلق عليّ. أمن أجل تضحياتها أعطيتها إياها لتربيتها؟ - وهذه يمكنها أن تربيتها. - توقفت جانيت - نيكول قليلاً ثم تابعت وعيناها تحدّان بعيني عائشة: - ولكن لا أحد يربي طفلاً كما يريه أهله!

- لا تحملي عليّ يا جانيت - نيكول. واعتبريني إنساناً خفيفاً أناانياً، ليس عندي الآن جواب للسؤال الناشئ بيننا. وما جنث من أجله شيء آخر: لنذهب إلى المسرح ونروّج عن أنفسنا!

- كل فاكهة تنضج في حينها - علّقت على الموضوع الذي لم تنتهيا مناقشته، ثم لامتها مازحة معها في شأن ما رجتها: - لو بدأت الحديث من هنا لكنت لبست منذ وقت طويل. أين؟ إلى الأوبرا أم إلى المسرح الكوميدي؟
- إلى الأوبرا. مللنا من الكوميديات التافهة.

صدف أن الأوبرا تعرض مسرحية "بيلارافون" وغداً وبعد غد "برزيرينا". حين سمعت عائشة عنواي المسرحيتين تذكرت أن شارل دو فيريول هاجمها وهو يغني إحدى أغانيهما فامتقع لونها. ولاحظت جانبيت - نيكول الأمر فقالت لها
مؤاربة:

- ألا يكفي يا أيسيه كم رأينا هذه الأوبرات! قيل إنه يُعرض في المسرح الكوميدي نص جميل.

- هل نلحق بموعد العرض، ونجد مكاناً؟ - انصرفت عائشة من أمام الأوبرا، وركبت العربة متظاهرة بالسؤال عما تسمع، ومرتاحة لتركها الأوبرا.

حين رجعت عائشة من المسرح الكوميدي، كتبت بعد عدة أيام إلى كالاندرين في جنيف: "اليوم وصلتني رسالتك اليوم يا عزيزتي فسررتي. أجيبك عن بعض أسئلتك، وخصوصاً ما يتعلق منها بالمسرح. في المسرح الكوميدي تعرض منذ ثلاثة أشهر مسرحية ممتازة بعنوان "ريغود"، وأنا قادمة منها قبل قليل. وقد اغرورقت عيناى بالدموع رغماً عني وأنا أشاهدها. ولا أتذكر دوراً أتقنه ميشيل بارون كدوره في هذه المسرحية. وما يحز في نفسي أنه يشيخ. وحين قام قبل وقت غير بعيد بدور "بور" في مسرحية "موت بريطاني" تفوق على الجميع. وهو يُقنعك بصحة ما يمثله.

والآن سأروي لك شيئاً يتعلق بالعروض والممثلين. مادة الأوركسترا الصغرى مقتبسة من عازفي الكمان فرانك وريبيل وبيرام وتيسب. وهي ليست سيئةً من

ناحية الموسيقى؛ غير أن كلماتها لا تناسب الموسيقى. إن كان السبب هو الديكور فليس من عادتهم... في المشهد الأول، تظهر بوابة المدينة وفيها الأقواس والأعمدة، وهذا منظر محبوب. وتعرفك جيداً بنوايا هؤلاء الناس. ويتقيدون فيها بكل المعايير. وتيفينار المسكين بسبب تراجعه الكبير يبدوون بالتصغير له بعد أقل من نصف سنة. و"شاسيه" تقوم بأعمال خارقة، وتعرض دورها بإتقان شديد. وتستطيع أداء أوكتافين. وهذا يُعجب أنتيه. وتعود ليمور، ويُشفى المريض ميوريه. وتتناقل أخبار عن أنه يستعد للانضمام إلى الرهبان غير أنه بسبب حبه الشديد لعمله فليس هناك مكان يذهب إليه خارج الأوبرا. ودخلت ممثلة جديدة اسمها بوليسيه، وتتنافس هي و ليمور، وأنا أفضل الثانية. — يعجبني صوتها وأداؤها أكثر من بوليسيه. والأخرى ليس صوتها قوياً، ولذا حين تكون في المشهد عليها أن تبذل كل طاقتها لئلا تُسمع. حقاً هي ممتازة في الأداء الصامت، وحركاتها كلها صحيحة، يبدو الجمال فيها. ولكن بسبب المبالغة فيها يخيل إليك أن "أنتيه" قطعة خشب لا حياة فيها. وفي رأيي أن العصر الذي يمثله مهما كان صعباً فعلى الممثل الذي يحب دوره أن يؤديه على نحو أهدأ. وعليه أن يعبر عما في نفسه من خلال الصوت واللحن. أما الحركات العنيفة فليتركوها للرجال وللشياطين. والأميرة الشابة أفضل لها أن تحافظ على هدوئها وتماشكها. هذا هو رأيي؛ فهل توافقيني؟ وقد صفق الجمهور لليمور ربع ساعة حين ظهرت على المسرح بعد مرضها. وقد أفرحها هذا جداً. وحيثهم بإيماءة رضاءً.

وكان هذا قد أغضب غضباً بلا حدود الدوقة دو ديوراس التي ترعى بيليسيه. وقد أشارت إليّ وإلى بارامبير بما يُفهم منه أننا حرصنا الجمهور. ولكن لما صفق

رواد المسرح في اليوم التالي لليومور بالطريقة نفسها فقد كادت الإهانة تشطر بيليسيه.

والصراع بين من أنصار ليومور وبين أنصار بيليسيه يشتعل يوماً بعد يوم. وهذا الصراع يصبّ في مصلحة ليومور، وتُظهر نفسها ممثلةً ليست سيئة. ويحدث أن يتشاجروا في زدهة المسرح، حتى ليُخَبِّل إليك أنهم سيلجؤون إلى الرماح. والمرأتان تتبادلان الكراهية. وبيليسيه امرأة بلا حياء. وقبل وقت ليس بعيد، وفيما هي جالسة إلى المائدة في قصر بيلونسك، وعلى مسمع من الجميع، وعلى ما قالت لم يبق في باريس رجل "بلا قرون" غير زوجها. وأما من جهة ليومور فعقلها قليل، غير أن القليل الذي عندها جميل جداً، ولا تُقَارَن بما عند غيرها. ولكنهم يدعونها بعدمة الشرف.

في هذا الشهر سيُعرض "بروزيرينا" والتي تمثل دور "سيرينا" هي أنتيه، وبروزيرين - ليومور، وأريتوز - بيليسيه، وبلوتون - تيفينار، وأسكولاف - شاسيه. هذا هو توزيع الأدوار. ويقال إنه لا يمكن إجراء توزيع أفضل. ومع ذلك لا أثق أن هذه الأوبرا ستحوز إعجاب الجمهور. وأقرب من في الأوبرا إلى القلب ألفير أريتوزار. والآخرين كلهم تعبق منهم رائحة البرودة. يطيلون الدور، ومُملّون. ويرى "نوس" أن هذه أحسن الأوبرات وأن لها معاني مبطنّة. وقد رددت على التقييم بأنها ربما أعجبت من كُتبت له أو لها. وأفضل الممثلين ينوون ترك هذه الأوبرا، والممثلون الرديئون لا يملؤون العين. ولا أمل في أن يتحسنوا.

ولا يزال يُعرض في الأوبرا "بيليرافون". وقبل أيام حين ظهرت على المسرح الأفعى الصفراء القبيحة. انفجر بطنها لأن شيئاً تكسّر فخرج الولد العاري أمام الجمهور مما جعل الجمهور يضحك.

جمهور "بروزيرين" غير معجبين بها. يقولون إن الأوبرا ليست سيئة، وأنها مؤثرة، غير أنهم لا يستطيعون عرضها طويلاً. شفيت بيليسييه الآن. وقد كاد رأسها يصاب بعلقة. ويرى بعضهم أن السبب هو الجهد الكبير الذي بذلته على خشبة المسرح. وآخرون يعللونه بحبها السري.

في مسرح الكوميديا الفرنسية تُعرض مسرحية "فيلسوف بزوجة"، وهي تحظى برضا الجمهور. وكاتبها هو دوتوش، غير أنه ما يزال يحتاج إلى الكثير ليلحق بموهبة موليير. يقال إن دوتوش يعرض فيها قصة حياته هو. وسأرسل إليك النص حالما يُطبع. والكل يرون أن "كينو" أدى دوره جيداً. ولكن لي رأياً آخر.

سأرسل إليك كتاب "جولات غوليفير" والكاتب هو "سففت". والكتاب ممتاز، مليء بالأفكار الصائبة، وفيه شيء من السخرية.

إن سألت عن حالي، فأنا مرتاحة إن لم تظهر عقبات لا يمكن اعتراضها. ولكن كل شيء بيد الله. وموضع أمني الوحيد هو الله. وشغالييه الآن أقرب إليّ كما لم يكن في السابق. ويبيدي لي احتراماً عظيماً. ويحرص عليّ جداً. وأنا أقابله بالمثل. ولولا أنني أستحي منك لعبرت لك عن رضاي الكامل عنه. وأنا على حالي كما رأيته. ولا تزال الأفكار التي أثرت في نفسي تتقاذفني إلى الآن. ولا أملك الشجاعة لتحقيقها لنفسي. ويطفو فوقها رغماً عني حبي - إشفافي. يتصارع في أفكاري دائماً الحزن والصدق. وهذا الصراع يرهقني جسداً وروحاً. ولا أتحمل أي مكروه يحدث لشغالييه.

عليّ أن أقطع كتابتي الآن إذ طفت على الذاكرة أحزان كثيرة. شغالييه إلى الآن يمرض كثيراً. وأدعو الله ألا تتقيح رئته. وفي هذا الخصوص لا أجد من المناسب أن أتكلم إلى أحد. أفكاري السيئة لا تترك لي مجالاً للراحة. ليس عندي أحد

أفتح له قلبي. وبعدي عنك سوء حظ شديد. لو كنتِ معي لاكتسبتُ القوة من رفقتك. وحينها يا عزيزتي كنت أظهرت قوة وصلابة من نصائحك وحيي لك، وربما كنت تغلبت على النار التي تحرقني. ومع أن عقلي يعرف أن هذا غير مناسب فإنه يفتّ في عضدي.

شفالييه معي أحسن بكثير مما كتبت لك سابقاً. والرسائل التي يكتبها لي كتلك التي أقرأئك إياها. وهو الوحيد الذي أطلعته على رسائله. وهو معجب بها جداً. ويقرؤها ويجد فيها متعة مثلي. وداعاً يا عزيزتي. ثقي بإخلاصي التام لك".

III

هل ينطبق المثل: "جعجعةٌ ولا أرى طِحْنًا" على أمور حياتي وحيي؟ - مزحت عائشة مع نفسها وهي لا تعرف من أين جاءت الفكرة، وأجابت مبتسمة: - ربما اعتاد الناس الذين يأتون على ذكري على أصوات رحاي الفارغة"

- ما الأمر يا أيسيه؟ لماذا تبترسمين؟ - سألتها صوفي العابسة.

- لأني فكرت في نفسي - ابتسمت عائشة لصوفي التي كانت تراقبها حريصة عليها، وقالت في نفسها "وهل لاحظت هذا؟" - وأنتِ ألا يحدث لك شبيهه؟

- حين أكون وحيدة. ولكن هذا يوهن قلبي، لا يدعمه. إن سمعت كلامي فكفأك إقامة في باريس حابسةً فيها نفسك. اذهبي إلى أبلون حيث الهواء النقي قبل أن ترسل وراءك ماري - أنجيليك للمرة الثالثة. وبعد وقفة قصيرة اختتمت بلومها: - أراك لا جلد ولا لحم. قررت أن تقتلي نفسك من أجل شفالييه. أرسله للراحة عند والديه في بيرغور. أنت غير مهتمة بشخصك.

- كيف تقولين يا صوفي هذا الكلام دون شعور بالإثم وأنت تعرفين أنه مريض؟!

- أقول لأنه لا يحرص عليك - بادرت صوفي إلى التعبير عما في نفسها، ثم اختتمت بصوت أرحم: - وأنت ألسنت مريضة؟ ألا تسعين؟

- وأنا متوعكة ولكن الرجل يحتاج إلى رحمة المرأة - قالت عائشة وسرعان ما غيرت الموضوع - وأنت يا صوفي ألا تريدان الذهاب إلى أبلون؟

- وتساألين عن هذا؟ - ضحكت صوفي ثم أضافت بشيء من العبوس: - ألا تعرفين أنني لن أسمح للكونتييسة أن تنفرد بك؟

- أعرف، ولكن إن لم تكن "أكلتُنا" إلى الآن فلن ندعها تأكلنا الآن - بادلت عائشة صوفي بالمزاح - ماري - أنجيليك مزاجية، طيبة لولا مزاجيتها. لم أرها منذ أكثر من شهر. أشتاق إليها، وهي ربما اشتاقت إلينا. متى طلبت مني فأنا حاضرة. النهار أمامنا - زفرت عائشة: - ليس هذا فقط بل اشتقت إلى كلي الصغير "باتي"، ولكن هل اشتقت إليه أنت؟ - وكيف لا أشتاق! حين قلت للكونتيسة: لا تصحبها، لن تُريحك، أصرت على اصطحابها بحجة أنه يذكرها بأبيه.

وفي هذه اللحظة انتصبت أمام عني عائشة كيف دخلت وهي صبية صغيرة دار آل فيريول، وكيف استقبلتها الأسرة بكاملها. ومن أعلى الدرج ركض بون دو فيل الصغير إليها وأمسك بيدها واقتادها. وكيف ضمتها ماري - أنجيليك إلى صدرها ولقّت يدها حولها. ولاروش والخدم، وصوفي التي كان لها وقع مختلف لا تدري لماذا، وغيرها.

وإذا كانت هذه الذكرى كأنها البارحة فما مرّ أمام عائشة في حياتها الفرنسية كثير جداً. الملك - الشمس لودفيغ الرابع عشر، الذي كان يقول "أنا البلاد لا أنتم فإذا متُّ فليجرفها السيل إن شاء!" مات. وابنه الخامس عشر، والذي رباه أورليان فارق الحياة أيضاً بعدما نشر في البلاد نظرية الحب المتحرر. وهم والوزراء الكثيرون الذين تعاوروا على الحكم لم يعد يذكرهم أحد. ومن حررها من عار سوق النخاسة في إستانبول وجاء بها إلى فرنسا، وأدخلها في عالمها الكونت شارل دو فيريول فارق الحياة. وأخوه الكونت أوغستين - أنطوان، وزوجته الكونتيسة ماري - أنجيليك شاخا. وتصبيهما أمراض جديدة. ومن أصبحت كاتبة شهيرة كلودين - ألكسندرين دو غيرين تانسين، لم تكن حياتها خالية من الأزمات، سواءً بذنبها هي أن بذنب غيرها. وأخوها الأكبر بيير

وصل إلى مرتبة المطران. ويمارس وظيفته. وتذكر يوم مولد أرجنتال كأنه اليوم. وبون دو فيل وأرجنتال يعملان في مجال الفن والسياسة. ومونتسكيو وفولتير من كبار رجالات فرنسا. ويلحق بهم من صار من معارف عائشة قبل مدة "ديني ديدرو".

"وأنا ماذا؟" - دفعتها ذكرياتها إلى التفكير، وابتمت: - أنا عشت حياتي و"جمالي" المنحوس لا يجلب لي في بلاد الغربة إلا المصائب. اغفر لي يا إلهي. لأنك لا تجهل مأساتي، أتأمل منك أن تفهمني. غير أنني أعرف أن لي ضلعاً في المصيبة التي جرت لي في فرنسا. وإن قلتُ هذا فلا تجعلني أعتقد أنه كان عليّ تنفيذ الرغبة الأخيرة لبابا. لو طاوَعته لحملت نفسي عذاباً لن أخلص منه طوال عمري. والخطيئة التي تسبب فيها ضعفي الأنثوي؟ مثل هذا السلوك والولادة دون زواج ليسا مهمين هنا ولكنها عندنا في بلاد الشرکس عار أبدي لن يُحى. ولا أقصد إدانة الفرنسيين بهذا "لأنه ليس في البلاد زعيم يقول لهم عيب عليكم ألا تحموا حبكم، وأن تعبثوا به وتدّسّوه. وإذا كانت هذه حياتنا في المستقبل فأنا أظن أنها ستكون نهاية فرنسا. وحتى في خارج فرنسا، دعنا من بلاد الشرکس، في شفيسار مثلاً حيث تعيش كالاندرين لا وجود لهذا العبث." - لماذا لا تتحركين يا أيسيه؟ ألن نذهب إلى أبولون؟ - سألت صوفي عائشة، ولا متها: - الله أعلم فيم كنت تفكرين الآن! آل فيريول هم همك الدائم. - إن انتهينا من آل فيريول يا صوفي فسنبقى أنتِ وأنا من دون أمل ومن دون وسيلة للحياة. - مزحت عائشة مع صوفي أيضاً - كنت أفكر فيهم وفي غيرهم.

- لا أعرف من تسمّينهم: "غيرهم" ولكن لو كان الأمر بيدي لما تركتك تصدعين رأسك بالتفكير في آل فيريول. سترين إن لم تُدفعك ماري - أنجيليك ثمن السعادة التي عشتها في الشهر الذي أمضيته بعيداً عنها.

- لماذا إذن تدفعيننا إلى الاستعجال في الذهاب إلى هناك؟ - سألت عائشة صوفي مازحةً.

- وهل أنا المشتاقة إليها؟! أنفذ ما يُصرون عليه.

- وإذا قررنا هذا فسنحيد عن الطريق قليلاً إلى السوق، ثم إلى أبلون. - قالت عائشة، ثم أعادت التفكير في الكونتيسة دون سوء نية: - مهما قلنا عن ماري - أنجيليك فهي غير ذلك. وأنت تعرفين هذا.

- أتريدين أن تقولي إن الإنسان حين يشيخ تظهر لديه طباع جديدة؟ - لم تقتنع صوفي بما سمعت.

- لا، لا أقول إنها كانت دائماً امرأة من ذهب. غير أنني لا أستطيع ادّعاء أنها كانت حقوداً. أنا أعرف طيبة قلبها وصفاء سريرتها. مهما لامتني، وعنفتني، فقد ربّنتي كما كانت أُمي وجدتي تربياني لو كانتا على قيد الحياة، لم تدعني أشتهي شيئاً. عاملتني كما تعامل أولادها من رحمها. والآن ترين شعورها الطيب نحو سيلين. زارتها أكثر من مرة. ولو سمحوا لها لجاءت بها من سانس وربّتها هنا.

- هذا صحيح، الكونتيسة طيبة القلب. لا تتكلم عن حقد. أنا أشهد عليها من هذه الناحية - قالت صوفي دون تفكير - حين وجدت نفسي في باريس دون مسكن ودون عمل كانت الكونتيسة ماري - أنجيليك أوّل من لجأت إليها، وأوّل من تفهّمتني. ولكن ما سمعتها تقول هي والسائس جاك عنك...

- وماذا يعرف العجوز جاك عني ليأتي على سيرتي؟ - قاطعت عائشة كلام صوفي لا تطيق صبراً، ثم أضافت مبرئة نفسها أكثر: - كان بابا المرحوم يذكر جاك بالخير فأرتاح له، وإجاباتي عن أسئلته أرضته.

- فهمت - لم تدع صوفي عائشة تنتظرها - كانا يتحدثان في منح الكونت لك ثلث أملاكه. وفهمت الآن لماذا حين بقيت ماري - أنجيليك وحدها في البيت صاحت "ما كان يليق بالكونت أن يفعل هذا دون علم أخيه أو علمنا". وأظن هذا سبب إلحاحها عليّ في طريقها إلى أبلون أن أمر بإيصالك إليها حال عودتك.

عرضت عائشة على صوفي الورقة التي أخرجتها من الخزانة، ثم وضعتها في الكيس الأنيق الذي فيه أشياءها. وخصّت بالقول:

- هذه الورقة ليست سرّاً عليّ ولا على غيري. وحين سألتني ماما "وهل سيرتك لك الكونت المريض ربعاً تعيشين منه" أجبتها أن بابا ترك لي عائداً سنوياً. وأما وثيقة التملك التي تتحدثين عنها فلم أكن أنا أيضاً أعرفها. كان بابا قبل وفاته بأيام قد أعطاني إياها. ولكن لم يسأل عنها أحد فيما بعد فلم يخطر لي أن أتحدث في الموضوع... والآن، مع مرور الزمن، صرت أفهم أن أحداً لن يسأل عني مع أحوالي التي تسوء باستمرار... - الأحزان التي ماكانت عائشة تُحسّن ربطها ببعضها، والتي تُفنيها، كان يضاف إليها الخبر المزعج المفاجئ، فحُيِّل إليها أن دموعها تسيل على خديها الجميلين المتطاولين نتيجة الإهانة غير العادلة، ففعلت كما في كل مرة: انتفضت برأسها وكظمت غيظها: - ماذا تنتظرين: هيا إلى أبلون!

نَبّه الكلام صوفي فرفعت رأسها:

- إذا كان الأمر هكذا فلنُرحِّل سفرنا إلى أبلون ريثما يهدأ قلب الكونتيسة!

- وهل سننتظر حتى ترسل إلينا الرسول الثالث من أبلون؟ لا، سنسافر حالاً.
لا تهاوُنْ في شأن المال. ولكن كان الأحسن لماذا أن تسألني من أن تتصرف في
سرّها. كنت أرحتّها!

- ماذا كنت ستقولين لها؟

- ستسمعين في أبلون.

- لا تفعلين يا أيسيه ما لا يجوز في هذا الظرف. وأنت فكري في نفسك، ولا
تنسي سيلين. ليس هؤلاء محتاجين إلى القليل الذي تركه لك الكونت.

نظرت عائشة إلى صوفي التي كانت دائماً خائفة عليها، ولم تردّ.

وصلت عائشة ورفيقتها إلى أبلون وقت استراحة الظهيرة. الشهر الأول الحار
من الصيف، والجو جميل والهواء النقي يملأ سماء إقطاعة آل فيريول. والأزهار
تفوح روائحها. والعصافير تملأ الفضاء.

ماري - أنجيليك جالسة تحت الشجرة تبصّر. ومن ناحية البيت يعزف لاروش
أغنية تلتصق بالقلب، وإحدى خادمتي الكونتيسة تكوي، والديك ذو العرف
الأحمر ارتقى الحائط كأنه يعلن قدوم الضيوف.

حين سمعت ماري - أنجيليك صوت العربة، رفعت رأسها. وحين رأت
الخارجتين منها أيسيه وصوفي صرفت النظر عنهما، ورجعت إلى تبصيرها.

- وصلت شارلوت - إليزابيت أيسيه يا كونتيسة - استقبلتهما الخادمة. وهز
باتي والكلب الصغير الآخر ذليلهما فرحاً. وعانق باتي عائشة. وطلب منها أن
تحمله.

- يا ماما ماري - أنجيليك لماذا لا تقولين شيئاً؟ - حنت عائشة جسدها
للكونتيسة وقد نسيت كلامها في باريس. - دعيني أعانقك، أقبلّك، اشتقت
إليك.

- ابتعدي، ابتعدي! - عاتبتها ماري - أنجيليك دون أن ترفع رأسها عما هي مشغولة به. لو اشتقت إليّ لما حبست نفسك في باريس شهرين كاملين... لو لم أصطحب باقي لعذبتي شوقاً إليك. تعالي واعتذري مني. كانت أحجار التبصير تخبرني بزيارتك اليوم. وكنت أستعد للعودة إلى باريس لأني سمعت أنك تسعين ومتوعةكة الصحة. كيف تمشي أمورك هذه الأيام يا أيسيه؟ هل كنت تعالجن نفسك في باريس فلم تأتي إلى هنا؟ أنت شاحبة ونحيفة. وسيلين الصغيرة كيف حالها؟ وكيف لا تكونين شاحبة وأنت تعانين كل هذا العذاب؟ بل إن الله وحده يعلم كيف تستمرين في الحياة! يا باقي توقف عن لحس أيسيه، ودعنا نتكلم بحرية!

- لا، باقي لا يعطل حديثنا - سألت عائشة وهي تمسح على ظهره: - أليس صحيحاً؟

- انظر إليه كيف صمت في صدرها! لم تعد تريدني يا سليل الكلاب! أحفظ بـ "شارمان الصغير" كلبى حبساً في البيت من أجل أن أدلّلك. لا بد أنكما جائعتان. هاتوا المائدة. لا أظن الدكتور لاروش يعرف بقدوم أيسيه. كرهنّا الأوكوردون. ليأت إلى هنا!

- لا أعرف يا ماما بيم أبداً من أسئلتك الكثيرة. - هدأت عائشة ماري - أنجيليك وهي تنظر بطرف العين إلى صوفي قائلة في نفسها "ألا ترين وتسمعين أننا أهملنا الكونتيسة ظلماً؟" - الجميع بخير. والجميع حملوني تحياتهم. وأنت كيف حالك؟ ألا ترعجك رجلاك؟ هل تشربين من ماء "بالاريوك"؟

- وأنا لا بأس بصحتي، وأشرب من هذا الماء، ورجلاي في حال مقبولة. غير أن وضعهما لا يسمح لي بالذهاب إلى الصيد. لا تنظري إليّ، لا تنظري!

جئتِ ببندقيتك عبثاً. لن أسمح لكِ بأي نزهة صيد حتى تُشفي. أنتِ تسعين.
ولماذا لا تقولين شيئاً يا صوفي؟

- صحيح يا كونتيسة ما تقولين. أوافئك. - سمعت صوفي ما كان يُقلقها من
جهة عائشة ففرحت - ليس السعال وحده بل عظامها وأطرافها.
- أنا لا أتكلم في ما لا أعرف. - أنهت ماري - أنجيليك الحديث بامتداح
نفسها وقالت لها: - إن أردتما بصّرت لكما إلى أن يجهز الطعام.
- لا، لا. جزمت عائشة - أنا لا أومن بالفأل.

حين رأت ماري - أنجيليك الكلب الأسود الصغير الذي أطلق يجري نحوها
صاحت إليه ناسيةً ما قالت وما قيل لها:

- أنا هنا يا شارمان - ترئُتُ بيدها على الكلب الأشعث الذي ألقى في
حضنها، تعاتبه وتهدّئه - لا ضرورة لأن تلهث كل هذا اللهاث وترهق نفسك.
يكفي ما دللتُ باقي الذي لا يعيرني اهتمامه. الآن سنكون معاً أنت وأنا. -
بدأ شارمان الذي يسمع عتاب الكونتيسة لباقي يعوي على رفيقه، فلم تقبل
الكونتيسة: - كفى أيها المجنون الصغير. وهذا الذي تعوي عليه كلُّنا أيضاً.
أفضّل أن ترحب بضيوفا.

مضى أكثر من أسبوع على عائشة في أبلون. ولم تفتح ماري - أنجيليك
الموضوع الذي تنتظره عائشة: توزيع الملك بل لم تلمّح إليه. ومضت الأيام
متعاقبة. وتتغير من برد إلى حرٍّ إلى مطر صيفي عاصف إلى رعد وبرق. وكانت
عائشة قد نسيت الموضوع أيضاً، دُعًا من صوفي التي كانت قد صمتت كلياً.
وشارمان وباقي يلعبان معا في الفناء بعدما تصالحا. وماري - أنجيليك وعائشة
لا تسمحان لنفسيهما بالراحة: تقرأان في الكتب، وتلعبان الورق، وتتنزهان في
أرض الدار. وتخرجان فتدوران في الأرجاء القريبة. وفي الأماسي، بعد موعد

الشاي، تطلبان من لاروش العزف، وتغنيان معه بصوت خفيض ما تحبان من الأغاني.

في البداية، يُحَيِّل إليك أنهم يُسعدون أنفسهم، ولكن الحقيقة هي أن ماري - أنجيليك وعائشة لم تكونا مرتاحتين في داخلهما: ظلت كلُّ منهما تحمل قلقها الخفي. لم تكن عائشة غير مهتمة بالورقة التي جلبتها من باريس. ولكن أصعب ما عليها هما من أودعت روحها فيهما: سيلين ودو إيدي، غيابها عن ابنتها، وعدم تقاسمهما حبهما، وإلا فهي تنال حصتها من الطعام واللباس والرعاية. وآل بولينغبروك سُحِّح لهم بالعودة إلى إنجلترا ولذا يحضِّرون الأوراق التي تسمح لهم برعايتها في إنجلترا. "لن يُحَيِّجوها إلى شيء ما دامت في صحة جيدة. - كانت عائشة تواسي نفسها - سنسترجعها أنا وإيدي متى انحلت أمورنا. ولكني لست في صحة جيدة، كنت أخشى من مرض العظام عندي فاكشفت أن إيدي أشد مرضاً مني. كيف أستطيع شفاء مرضه وأجد له دواء؟ لا تنفع معه أحسن الأدوية. ليتني لم يصب بمرض في الحنجرة نتيجة الجراح التي أصيب بها في حروب فرنسا. يا رب كن رحيماً معي من جهة إيدي! إشفه وهب لي أسباب نهاية سعيدة لحالنا. لا أحد لي في الدنيا أحبه مثله! وسيلين أيضاً"

ولم تكن ماري - أنجيليك في وضع سعادة وراحة. وأشدُّ ما يُفنيها تحمُّد جمالها وانحدارها إلى الشيخوخة. ونقصُ موارد الأسرة منذ توفي الكونت شارل دو فيريول، يضاف إليها ارتفاع تكاليف الحياة يوماً بعد يوم، وتقاعُد أوغستين - أنطوان عن العمل، وزيادة أجور الخدم. غير أن أقساها هو مشاركة عائشة لهم في التركة. وفي جميع الأحوال إن لم تقاسمهم عائشة التي ربَّتها وأحبَّتها في التركة فلن تحجب عنها أي طلب في الدنيا.

"صحيح أن من ربيتها مع ولديّ، وأفنيت جسدي في تربيتها، عائشة المنحوسة، أين أذهب بها؟ - واست ماري - أنجيليك نفسها وعاتبتهما - ولكن عليها ألا تخفي وثيقة الملكية عني وعن آل فيريول الذين منحوها اسمها... أقول هذا ولكن ما ذنب أيّسيه المسكينة؟ الذنب ذنب الكونت الذي فارق الحياة لا يدري ماذا كتب ولا ماذا فعل. على أيّ لن أسمح لها أن تغادر أبلون قبل أن تكشف لي السر..."

الرعد والبرق اللذان خيما فوق أبلون الليلة جلبا لها صباحاً منعشاً. تحس في كل مكان بالرطوبة. وأشعلت نار الموقد بناء على طلب ماري - أنجيليك عسى أن تقاوم رائحة الدفء أمراض مفاصلها وعظامها.

- صباح الخير يا ماما - حيّت عائشة ماري - أنجيليك وسألتها: - كيف كان حالك مع رعد الليلة وبرقها، هل نمت؟

- ليس المشكلة في عدم النوم بل في تهيجه أمراض العظام. وأنتِ ألم تُرعبكِ؟
- أنا؟ - أجابت عائشة بالسؤال مستغربة سؤال أمها - أنسيت أيّ أحب المطر المصحوب بالرعد والبرق؟ سهرتُ أنصت وأعد ضربات الرعد حتى غفلت.

- نعم، نعم، لا أدري لماذا نسيت أنك كنت تهدّئيني حين يقصف الرعد. هذه المرة لم تتفقديني. ربما ليس قلبك صافياً نحوي؟!

- لم يكن في قلبي يوماً من الأيام أيّ جفاء نحوك يا ماما. لا تتهميني ظلماً!
- لا أعرف، دعيني، لا أعرف... أنا عندي بعض العتب عليك... وكنت قلت لك قبل: أنت تعيشين معي بأسرارك.

- أي سِرِّ يا ماما؟! - صرخت عائشة من السؤال المرائي الذي رُميتُ به.
تذكرت للتو الورقة التي كانت قد نسيتهها فذهبت إلى غرفتها، وأرَّها الورقة التي
ليست مهمة في نظرها: - أهذه ما تتكلمين عليها؟
- ما هذه؟... - تظاهرت الكونتيسة أنها لا تعرفها.
- هذه الورقة التي ذكرها لك جاك العجوز. هذه ليست سرّاً علي ولا عليك
ولا على أحد يا ماما.
- إن لم تكن سرّاً فلماذا لم تكشفني لي عنها قبل أن يشي بك جاك العجوز؟
- ما قدّمته لي أكثر مما في هذه الورقة يا ماما. وهذا هو السبب في أني لم
أذكرها لك. أنا من آل فيريول يا ماري - أنجيليك يا ماما فلن أتقاسم مع
نفسي. لن أسيء إليك ولا إلى عمي الكونت أوغستين - أنطوان، ولا إلى
أخويّ بون دو فيل وأرجنتال. لنعتبر هذه الورقة لم تعد موجودة! - طوت عائشة
الورقة وألقت بها في النار.
- ماذا تفعلين؟! - صرخت ماري - أنجيليك، وريثما مدت يدها إلى الملقط
الحديدي كانت النار التهمت في غمضة عين الورقة التي كانت تمزق آل فيريول
وصارت رماداً. - كيف ستعيشين أنت المنكودة وسيلين الصغيرة بعد اليوم؟!
- ما يجري عليكم يجري عليّ يا ماري - أنجيليك يا ماما - الآن جلست
عائشة إلى جانب الكونتيسة تهدّئها.

IV

حين تنجلي السحب البيضاء المائلة إلى السواد عن المطر تمر الأيام على عائشة في أبلون كأن لم يحدث لها شيء كحال السماء بعد المطر. والهواء النقي الذي لا ينفك الدكتور لاروش عن النصيحة به يفيدها. وحين تنام، قبل أن تجد وساوسها الوقت لتفيض تستغرق في النوم. وتستيقظ على نداء العصفير الصباحي. وتقضي بعض الوقت مستمتعة بإنشادها، ثم تنهض من الفراش. تتأمل الطبيعة التي ترتدي ثياباً ملونة: "ما أعجب تأليف دنيانا هذه!... - تفكر، وتنصح نفسها وهي تتناسى الأفكار القلقة التي تبدأ تغزو ذهنها: - الخير أكثر من الشر. لو كانت الدنيا تتمثل لأعيننا بمظهر وحيد لما وجدنا فيها ما يُعجب، ولمللنا منها. هذه الجبال وهذه الأشجار وهذه البراري ليس لها مظهر واحد. وغناء العصفير متنوع. وطريقة كلام الناس، وبكائهم وضحكهم وعتابهم ليس من النوع نفسه. نعم، ومع أن الطبيعة مركبة من أشياء مختلفة فالخير فيها أكثر من الشر. وأن تكون إنساناً خيراً أفضل من أن تكون إنساناً شريراً إن استطعت. - أغلقت عائشة على أفكار الصباح ولم تستطع إلا أن تقول لنفسها ما تشتهيهِ دائماً وتلحّ عليه: - اليوم مناسب جداً للصيد؛ غير أنني لن أخرج إليه، وبدلاً منه سأكتب إلى جولي كالاندرين. من حسن حظي أن عندي امرأة حكيمة مثلها تفهمني وألجأ إلى نصائحها!"

من المستحيل مقارنة علاقة عائشة بجولي كالاندرين مع علاقتها بماري - أنجيليك. ماري - أنجيليك أمٌ لعائشة، تغفر إحداها للأخرى مهما اختلفتا أو تبادلتا الود؛ لا يدخل بينهما إلا العتاب والنصح المتبادل. وإن دخل بينهما الجفاء فلا تملكان إلا المغفرة. وعائشة لم تعد صبية وهي أمٌ ولو من غير زواج. وعندها من تقلق لأجلها وتحميها. وورثت بعض المال تعيش به لا سعيدة ولا

شقية. ولكن ماذا كانت تريد عائشة أن تقول لماري - أنجيليك بإحراقها ملكها؟ أتريد أن تثبت لها قوتها ورحمتها أم اعتبار تربيتها في بيت فيريول أعز عليها من المُلْك؟ ربما هذا أو ذاك أو أشياء أخرى...

"ماذا فعلت؟" أهو صياح ماري - أنجيليك، وإسراعها إلى النار تلتقط الورقة قبل أن تحترق، أم بكائها أم احتضانها لعائشة وإسداء النصيح لها وتحدثتها؟ هذا السؤال "ماذا فعلت؟" يستطيع كلُّ أن يجيب عنه كما يتصور. ولكن الإنسانية والشرف واحترام الذات تساوي كل ملك! قالت عائشة: "لن أذكر شيئاً من هذا لكالا ندرين ولن أصدع رأسي بها، سأجيب عما سألت عنه". ثم جلست تكتب إلى جنيف:

"مضى زمن طويل على آخر رسالتين لك. وتأخرت عن الإجابة عليهما، ليس لأني لا أحبك، أو لا أحترمك، أو لا أشتاق إليك. ولا أبحث عن عذر يبرئني. اغفري لي تأخري بسبب إقامتي في سانس، واعتلالِ صحي، وأموري التي لا تجد حلاً، وأمورٍ أخرى. وأعدك ألا أتهاون مرة أخرى مستقبلاً. وأشهد الآن مرة أخرى أنني أنظر إليك بعين الرضا، وأني محتاجة إليك أكثر من حاجتي لأي إنسان آخر، وأني أنتظر نصائحك الحكيمة.

أنا الآن في أبلون. اليوم يوم دافئ منعش للقلب. ولو لم يكن كأيام جنيف وشفيسار الصافية. أرجوك ألا تملني من كتاباتي، ولتفادي الملل أجب عن أسئلتك.

الصبية الصغيرة يُحِيل إليَّ أنها تنمو جيداً. لا يخفى من تكوين أعضائها وشكل قوامها أنها ستكون امرأة جميلة. ولن تجدي في العالم كله عينين أجمل من عينيها. ولكنها شاحبة وخيلة. هي ذكية، فطنة. وطباعها وعاداتها ممتازة لولا أنها لا تحترس لنفسها. يخيل إليَّ أنها، بلا مبالغة، مشروع امرأة جيدة.

والمسكينة منجذبة نحوي كثيراً. وحين رأيتني كادت تذهل من شدة الفرح. وما عانيته أنا أكثر من هذا. كنت أكظم عواطفِي كي لا تحس باضطراب قلبي في صدري. وقالت لي إنها لم تشهد يوماً أسعد من يوم زيارتي لها. لم تكن تستطيع مفارقتي طيلة الزيارة. ولكن حين أرسلها في مهمة، أو أطلب منها شيئاً تنفذهـا على نحو كامل. وحين يصدف ألا تستطيع تحقيق طلبٍ من طلباتي تبحث كعادة الصغار عن حجة تثبت بها براءتها. وحين اقترب انصرافي كانت حزينة على نحو يمزق القلب، ووقفت عاجزة أن تقول لي كلمة واحدة.

اتفقنا أن نزرع كليـر بولينغبروك التي تستشفى في ريم أنا ومسؤولة الدير. وسكان الدير ممتعضون من خروجها من سانس. وقد قالت لها ابنتي وقد أحزنها الخبر: "وأنا أيضاً كالآخرين يحزنني خروجك من الدير. ولكني أعتقد أن خروجك ضروري. ولأني واثقة أن المركيزة بولينغبروك ستسرّ جداً برؤيتك، وأن سفرك مفيد لصحتك، فهذا يريحني ولو قليلاً" وفي هذه اللحظة بكـت المسكينة الصغيرة وقالت لي وهي تعانقني: "كم جاءت هذه السفرة في غير وقتها! ولولاها لبقيت عندي وقتاً أطول. أنا يتيمة الأب والأم، أتوسل إليك أن تصبـحي أُمي. وأنا أحبك كما لو كنت أُمي الحقيقية" ألا تفهمين يا نور عيني ما عانيت بعد هذه الكلمات في قلبي وإن كتمت ظاهراً.

بقيت في سانس أسبوعين. وفي خلاهما هاجمتني نوبة آلام في عظامي منعني من تحريكها. وفي خلال اليومين لم تفارقني ابنتي خطوة واحدة. ولا تفارق مخدتي خمس ساعات متتالية كي لا تتركني وحيدة. كانت تحادثني لتخفف من آلامي. وأحياناً حين يأخذني النوم تسهر عليّ لا تصدر عنها نائمة خوفاً من أن توقظني، وهذا ما يعجز عنه أكثر الكبار. وأنت تعرفين من المهمومة أكثر من

غيرها بإيداع الفتاة عند آل بولينغبروك وتربيتها لها؟ ويمكن القول إنها تتلهى عنها.

والآن بضع كلمات عن شفالبيه الذي تسألين عنه دائماً. أعتقد أن صحته تحسنت بالقياس إلى صحي. وهو الآن في بيرغور في زيارة لخمسة أشهر تقريباً. وإذا قلت لك ياشبيه نور عيني لماذا رغب في أن يتزوجني استغربت. أمس، وبحضور إحدى صديقاتنا، كلمني صراحة في الموضوع. ربما لن تجدي على الأرض كلها حباً مثل حبنا، وعلاقة مثل علاقتنا. هو يراني مرة كل ثلاثة أشهر، وأنا لا أفعل شيئاً للاحتفاظ به. ولا أريد استغلال امتلاكي لقلبه في الوقت الحاضر، ولا يقبل به شرفي. ومهما أحببت أن ينادوني بزوجه فأنا لا أحب شفالبيه من أجل شخصي، بل من أجله. لا، لما قد يوصم به معنى عميق لي. لا أريد أن أدفعه إلى سلوك غير لائق، بل آبي على نفسي مثل هذا. ولو وافقت على الزواج لصار كل ما سيتناقلونه من أخبار عاراً عليّ. ومع ذلك هل أستطيع الوثوق بما في قلبه نحوي ألا يتغير؟ ألا يمكن أن يندم يوماً ما على الحب الذي وقع فيه وكان خفة عقل منه؟ ثم كيف سأعيش إذا اتضح لي أنه لم يعد يحبني وأنه كان سيء الحظ معي؟ كلمني بحمية كبيرة وصعب عليه جداً فهم ما أريد قوله. وعلى كل حال كان سبب رجوعه هو ضرورة أن نعيش معاً. ولم تعجبني هذه الكلمات واستغربتها. وبدأ لحظتها يقنعني أنه ليس في كلماته ما يهينني. يريد أن يسجل نصف ما يملك على اسمي لأنه غير راضٍ عن أهله. ولأجل تشجيعي على هذا الإجراء لمّح لي إلى أن من يتأخر عن الآخر في مماته يرثه. وحين قال لي هذا قلت له إنني لن أترك في الدنيا إلا ملابسي الداخلية القديمة.

والآن أجيئك يا نوري عن السؤال الذي أغضبك. وصلتكَ الأخبار الكاذبة التي يتناقلونها في باريس. أحب شفالييه كما كنت. ولا أحب غيره. وهو الوحيد الذي سيبقى في حياتي. سأوضح لك مصدر تلك الأقاويل متجاهلة غضبك. كم كنت أحببت الدوق جيفري. بل إن وقوفي أمام الله من أجل ذنبي الكبير وقرار الأب الذي اعترفت أمامه بأني لا أحتاج إلى كفارة، كل هذا أشهد عليه. ربما كان عمري حين بدأ هذا الحب إحدى عشرة سنة. وحين بلغت الثانية عشرة تحول هذا كله إلى مزاح. ليس لأن جيفري الدوق لم يعد يعجبني، بل لأن مزاحي معه ومع إخوته وإسراعي إلى دارهم كي ألعب معهم صار مضحكة لي أنا أيضاً. كان أكبر مني بسنتين أو ثلاث. وبالقياس إلى غيرنا كنا نعد أنفسنا الأكبر سناً. وكنا نقلد الكبار في كلامنا. ولم نأت على ذكر الحب. والحق أننا لا أنا ولا هو، لم نكن نعرف عنه شيئاً. كان يأتي إلى الشرفة المقابلة لغرفتي فنتبادل النظرات. وكان يصحبنا إلى سان - وان لمشاهدة أعمال السحر في يوم إيفان. وبسبب أن الناس يروننا دائماً معاً كان خدمنا بدؤوا يمزحون معنا. ولأنني كنت صبية أحب أن أفكر قبل أن أعمل شيئاً وأموري كلها واضحة قررت أنني يمكن أن أحب جيفري. ولأنني كنت أومن بالله فذهبت إلى الكنيسة للتوبة. في البداية اعترفت بذنوبي الصغيرة المتفرقة، ثم وجب عليّ الكشف عن ذنبي الأكبر. ولما قلت الأب الذي أعترف له إني أحب صبيّاً سألني عن عمره فأجبت إنه في الثانية عشرة.. سألني "أي نوع من الحب تحبينه؟ قلت: "كما أحب نفسي" سألني ثانية: "وهل تحبينه كما تحبين الله؟" في تلك اللحظة تساءلت: كيف ينظر هذا إليّ فغضبتُ. ضحك الأب وأعلمني أنه لا ضرورة للاعتراف من أجل مثل هذا الذنب، وأن عليّ في المستقبل أن أتحدى بالأدب، ونصحني ألا أرافق ذكراً وحدي.

وبعدها كنا نتذكر، حين نلتقي أنا وجيفري، ذكريات الطفولة. ولم يكن كل هذا واضحاً. ويصعب معرفة إن كان الأمر جداً أم هزلاً. أيمكن لكل ما رويت لك يا نوري أن يبرئني؟ لا أشك أن هذا الذي روى لك هذه القضية مكيفاً إياها على مزاجه هو بيدفول لأنه نمام. لا يروي لك إلا كل ما هو سيء. ما كان عليك في هذا الموقف هو أن تدعميني فلا تسمح لي أن يروي تلك الترهات أمام الناس. أرى أنك تظنني أكذب عليك. أنت قدمت لي الكثير، وعليّ دين كبير لك. وما في قلبي لك من الإخلاص لا أغيرّه الدهر. وأشهد على حيي الكبير لك واحترامي بأن أقول إني راضية عنك. وأعاهدك أني لن أسمح لأيّ إنسان أن ينقض الثقة المتبادلة بيننا.

وشفاليه يقدرك ويحترمك جداً. وأنت تعرفين موقفه من كل الذين حاولوا تشويه صورتي عنده. وهو يكره الناس ذوي النفوس القذرة. — إن عقله كبير. وكل يوم يزداد تعلقاً بي. وكانت الكونتيسة ماري — أنجيليك سألتني يوماً كيف حملتُ معي حبه الكبير. وكنت أجبتها "هما اثنان: أنا أعمل على تمتين حبه، وإسعاد حياته". ولأنها كانت سألتني هذا السؤال من باب الغيرة كنت أجبتها في شيء من السخريّة.

تسألين عن بون دو فيل: ليست صحته جيدة. وقلبي ينقبض إذ أكتب لك هذا. إن فيه كل السجايا التي يجب أن تكون في المرء. عاقل، ويستطيع أن يحترم نفسه. وفي علاقته معي هو ملاك حقيقي.

ما سأفوله لك الآن ستستغريبه. أنا وأرجنتال تحافينا — من ساعة ما أبصر النور بيدر منه أول مرة مثل هذا. ها نحن من أربعة أيام لا يكلم أحدا الآخر. وسبب الخصام هو رفضه أن يتعشى مع أمه. والكونتيسة لا تعرف شيئاً عن الجفوة التي بيننا. ولو عرفتُ لفرحتُ! وإن سألت عن السبب فحين كانت

تعفّ أرجنتال لم تقبل أن أقف إلى جانب ابنها فشغبت عليّ عدة أيام؛ أكيد تفهمين الموقف الذي وجدت نفسي فيه. أياكون ساراً أن تفقد صداقة عمرها سبعة وعشرون عاماً؟ وأظن أن أرجنتال ندم على ما جرى. وكالعادة ففي الصلح بيننا قام من هو على حق بالخطوة الأولى. رفعت كاساً على الغداء من أجل صحته، وفي اليوم التالي قبلته فجأة بلا مقدمات. ومن ساعتها رجعت علاقتنا كما كانت.

ماري - أنجيليك تنتزع مني القلم

"إن لم أ تدخل فلن تقطع أيسيه كتابتها أبداً. - لم أستطع الانتظار إلى أن تنتهي، فأخذت القلم منها لأكمل بضع كلمات. لا قدّر الله أن تنسيني! من جهتي أنت دائماً على بالي. ويحزني بُعد إحدانا عن الأخرى. ولم يستطع مرضي وتجوالي في فترة تباعدنا أن يُنسياني هذه الحواطر. والآن أيضاً أمامي جولات أخرى. وفي إحداها سأتي إلى بون دو فيل. ووقتها سنلتقي إن شاء الله. وسأحمل معي هذا الأمل. وسيعينني هذا الأمل على تسهيل تحملي للبعد. وإلى حينها آمل أن تُطلعيني على بعض أخبارك. أرجوك ألا تشكّي في أني سأحمي علاقتنا الحلوة ما عشت"

"أضيف إلى ما كتبت يا نوري: أخصص وقتاً للصيد. وهذا يفيدني كثيراً. ولأن تعبي الجسمي دواء يُنسيني آلامي النفسية أكل وأنام بعد رحلة الصيد جيداً لأن الصيد يتطلب تجوالاً طويلاً، والعرق الغزير الذي يشرح مني يريحني. هذه يا عزيزتي أجوبة بعض ما سألت عنه. قلبي مفتوح لك، وأنت لي سند عظيم. لا أستطيع أن أكتب أكثر. وبالنسبة إلى إنسان ضعيف البنية مثلي فما كتبته كثير جداً".

V

خلال أشهر الصيف الثلاثة كانت عائشة تزور باريس كل أسبوع تقريباً. ولم تكن تقيم كثيراً فيها: يوماً وليلة أو يومين إلى ثلاثة. ومن بين المقيمين في أبلون كانت صوفي وحدها تعرف أين تذهب عائشة، وتجد للكونتيسة ماري - أنجيليك التي تريد أن تحصى على عائشة كل خطوة تخطوها أعداراً مختلفة فترتاح لهذا. وكل مرة تلوم الكونتييسه التي تشك في كل شيء صوفي:

- أنتما تخفيان عني أمراً ما!

- لا، لا شيء من هذا. لا تهتمي لشيء!

- نعم، أنا من يجدها الجميع جديرة بالخداع. لولا أن أيسيه تعالج مشكلتها لما سافرت إلى باريس في هذا الجو الحار كل هذه المرات. قولي لي ماذا تفعل! أي قضية تلاحق؟ - "أتكون خدعتني بمحتوى الورقة التي أحرقها دون أن تُقرئي إياها؟" تقول هذا وتسأل نفسها في شأن القضية المنتهية. - ما ستكشفين لي عنه أعدك أن يبقى سراً بيننا، وإن لم تصدّقي حلفت لك.

- وأنا واثقة منك يا كونتييسه. وأنت ثقي بي! ولكن كيف أروي لك ما ليس لي علم به؟ ألا تعرفين المشكلة التي تعيش فيها شارلوت - إليزابيت أيسيه؟ ثم أضيف إليها مرضها وأدويتها...

- أليس يصيبني الصداع - أنهت ماري - أنجيليك كلامها بصوت ناعم بعدما لاحظت غُف نبرتها. - وهي تأتيني بأدوية جيدة لأمراضي. ومع ذلك لا يطمئن قلبي؛ يحدثني بأشياء غريبة. أأكون شفالييه فعل بعائشة ما فعل ثم تنصّل من التزاماته؟! أأكون أيسيه تتدلل له؟ أأكون تحوم حوله؟ لن أقبل منها هذا. وذلك المتمارض إن كان يتذرع بمرضه فسأقلع عينه. أقول هذا ولكن ألا

تعرفين طبيعتها نحن النساء! أ تكون تلاحق قضية تضرّ بآل فيريول؟ لا أعرف حينها...

- يا كونتييسة! كيف تسمحين لهذه الأفكار أن ترد على بالك بشأن أيسيه؟ -
... ارتفع صوت صوفي الحاد غير قادرة على تحمّل المزيد من كلامها. ثم أدركت خطأها فأنعت بصوت ناعم عاتب: - لو كنت تعلمين ما تلاحق شارلوت - إليزابيت أيسيه! - "أقول لها أم لا أقول؟" سألت نفسها، ولكنها أصرت أن تحتفظ بسرّها.

_ ألسن أجادلك لأني لا أعرف؟ - نهرت ماري - أنجيليك الآن صوفي. -
ليس تفسير كلامي من مهامك؛ تذكري مكانتك!
- استعجلت يا كونتييسة فاغفري لي، لم أقل ما قلت عن سوء نية - مع أن صوت صوفي انهار لشعورها بالإهانة فقد تحملت ولم تغيّر موقفها: - ولكني أشهد على أن شارلوت - إليزابيت أيسيه لن تسيء إلى آل فيريول.
- إن كنت ترين هذا فلا بأس - تراجعت الكونتييسة - ما هذا؟ أكلمنا سمعت كلمة نابية توتّرت؟... أكيد أن أيسيه لن تفعل ما يسيء إلى آل فيريول. ولكن أقول مع ذلك: من يعرف...

كان أضيف إلى آلام عائشة التي ليست موضع ثقة مرض الجدرى الذي كان يفتك بأرجنتال، ومرض حببته الممثلة الكبيرة ليكوفير أدريين.
و حين يأتي بون دو فيل لزيارة أمه مرة في الأسبوع أو مرتين كانت ماري - أنجيليك بدلاً من أن تعرف أخبار أرجنتال مهتمة بمعرفة أخبار حببته أدريين لوكوفير. وبون دو فيل، بالتواطؤ مع عائشة، كان يجيب أمه بحيث لا يشك في مرض أرجنتال.

وفي أحد الأيام، فيما هما في طريقهما إلى المشفى، صرّح بون دو فيل لعائشة بما يشغل باله:

- لا أعرف يا أيسيه إن كان تصرّفنا نحو ماما صحيحاً. نكتّم عنها الجدرى الذي أصاب أخانا.

- يا بون دو فيل، يا أخي الصغير، وأنا مهمومة بهذا، ولكن ألا تعرف أمّكما؛ ضعيفة ومريضة. حتى نحن يُسمح لنا برؤية أرجنتال بصعوبة. أما هي فستحاول الاقتراب منه، ولن تتحمل أن لا يسمحوا لها.

- وهذا صحيح. - نظر بون دو فيل بعينٍ ودودٍ إلى عائشة: - ولكن لا أعرف ماذا فعلتِ أنت بالأطباء حتى يسمحوا لك بمجالسته وإطعامه.

- أقول لك ما فعلت: - ابتسمت عائشة وهي تفتعل الخُبث: - كتبت للأطباء تعهداً بعدم مقاضاتهم إن أُصِبتُ أنا بالمرض.

- كنت شككْتُ في هذا. إذن أنت مثل امرأة قومك التي وجدت دواء للجدرى¹؟

- شكراً يا أخي على مقارنتك لي بتلك المرأة الجبارة. - كانت عائشة مسرورة لما سمعت غير أنها تظاهرت بالمزاح: - ولكن لن أصبح مثلها أبداً. لا شيء تحجبه عن الإنسان الذي تحبه ولا سيما إذا كان أخاك الأصغر. وصحيح ما يقولون من أنك تضحى بحياتك من أجله. أخونا الأصغر أرجنتال المسكين

¹ يكتب ك. غيلفيسي: ما أعظم الدين علينا نحن البشر نحو المرأة الشركسية التي اخترعت هذا الدواء للمحافظة على جمالها أو جمال بناتها! ما أكثر الأطفال الذين انتزعتهم من براثن الموت. ربما لم يكن بين من افتتح مراكز النساء العاملات في خدمة الدين امرأة بهذه العظمة. المؤلف.

أصغر مني بكثير. يجب أن يعيش بصحة جيدة. وأنت ترى ما يحدث له من حبيبته أدرين لوكوفير؛ وأنا ماذا؟ قطفوني تفاحة نصف ناضجة ثم رموني تحت الشجرة لا أحد يريدني.

- أيسيه، شارلوت - إليزابيت أيسيه - صاح بون دو فيل فجأة على غير عادته - كفى لا تقولي ما لا فائدة فيه! أنتِ أختنا نحن، وكل آل فيريول يحبونك. ونجد فيك سنداً، وندلللك. نتخذك مقياساً بحبك النظيف وإنسانيتك الصادقة. سأسمعك ما لم تسمعه إلى الآن ما دمنا بدأنا الحديث: لا نلومك على ما حدث لك لا أنا ولا أرجنتال. نحن شهود على أنك دُفعت إلى الخطأ وأنتِ تحمين نفسك. وبالقياس إلى ما يحدث في فرنسا التي نحبها من حوادث لا أخلاقية فما فعلتِ ليس شيئاً ذا بال. ولا أريد أن أحكم عليك سلباً أو إيجاباً من هذه الناحية. أنتِ مثل من يكتب لها مسرحية جميلة، كتاب عجيب، أوبرا جميلة.

- يا بون دو فيل - رجته والحياء يغلبها - كفى، توقف عن هذا الحديث. وأنت لا تقل أموراً لا فائدة فيها ولا تنطبق عليّ.

- لست وحدي، فولتير ومونتسكيو والكاتب بريفو، وديدرو الناشئ، وكل من يعرف حياتك له هذه النظرة إليك. وبدلاً من أن تعيشي مرفوعة الرأس ترثين نفسك، تدفعينهم إلى أن يحضّروا نعلك. لا تعرفين، لستِ معتدّة بنفسك، وإلا ففرنسا كلها لا تشبع من تأمل جمالك.

- حسناً يا بون دو فيل، فهمت. - قالت له دون أي أثر ابتسامة، ثم مزحت معه: - الأفضل من أن تتأملني فرنسا كلها - ساجني على عدم حيائي منك - أن يتيحوا لنا أنا ودو إيدي أن نلم شملنا ونربي ابنتنا وكلانا في صحة جيدة.

- وهذه، سترين يا أيسيه قريباً، ستنحل على نحو إيجابي. - أنهي بون دو فيل الحديث بمثل هذه الكلمات الباعثة على التفاؤل.

حين خرجت عائشة من المشفى تطير من الفرح فهم بون دو فيل أن أرجنتال في تحسّن.

- كل شيء حسنٌ يا بون دو فيل. أخونا الأصغر متحسن جداً. أطعمته، وكلمني، وسأل عنك، وأخبرته أنك معي. وحملني سلامه إلى الجميع بمن فيهم الخدم. ولأن بثوره تجف عن جلده فقد وعدني الأطباء أن يُخرجوه من المشفى خلال أسبوعين تقريباً. المسكين سأل عن أدريين لوكوفرير غير عابي بنفسه. ورجاني ألا أخبره بحاله وبأن الجدري شوّه وجهه¹.

- وجهه ليس مشكلة إذا عاد إلينا سليماً. - ارتعب بون دو فيل قليلاً - وكما قلت لك فلن تقع عينه ثانية على أدريين المسكينة... هذه في وضع سيء.

¹ "لم أكن أطلعك على أخبار أرجنتال كي لا أقلقك - تقول عائشة في رسالتها إلى كالاندرين - والآن بما أنه شفي، سأطلعك على وضعه: لحسن حظنا نحن وأصدقائه نجا من الجدري اللعين. وقد أكل المرض وجهه ولا سيما أنفه، ولوّنّه. ويُخيل إليك أن حجمه انكمش. لا يمكن أن يقال إنه شخص جميل. ولكنه لا يزال حلو الطباع. والجميع يحبونه ويحترمونه ويقدرّونه. ومهما امتدحته و دلّته فهو إنسان لا يمكن أن يتغير للأسوأ". المؤلف.

في اليوم الذي أخرج فيه أرجنتال من المشفى توفيت لوكوفرير التي لم تعش إلا ثمانية وثلاثين عاماً. وسمع بون دو فيل وعائشة الخير¹.

لم تملك عائشة دموعها. وقال بون دو فيل دون تروّ: "فارقتنا ممثلة فرنسا الكبيرة قبل أوانها... وربما لن تظهر في فرنسا خلال السنوات الخمسين القادمة موهبة عظيمة كموهبتها"

- حين أخرجوا أرجنتال من المشفى لم يأخذه إلى البيت، ولم يخبروه بوفاة أدريين لوكوفرير، بل انطلقوا به إلى أمه في أبلون.

لم يكن أرجنتال يجهل ما فعل به الجدري ولكنه استسلم لصورته المشوهة وهو يقول: "من أين أتيت يا مصيبة، وماذا يمكن أن أغير فيها". وما كان يقلقه في هذه اللحظة هو كيف ستكون ردة فعل أمّه ماري - أنجيليك وحببته أدريين لوكوفرير. الأم بصفتها أمّاً دائماً لاشيء تحجبه عن ابنها ولا شيء لا تتحمله منه. وتقدم له روحها وقت الحاجة، وفي حال الضرورة تقنع بالواقع، وتعيش معه لا همّ لديها إلا تخفيف الحزن عنه. وما ردة فعل المرأة التي يجبها إذن؟ يعرف أرجنتال أن الجواب صعب ولذا فهو مهموم دون علم أحد.

¹ "في خلال المشهد ساءت حالة لوكوفرير فجأة فأوقف العرض - وتكتب عائشة إلى كالاندرين - وقبل العرض كانت هذه أصيبت بإسهال دموي. وكانت ضعيفة إلى درجة تدعو للثناء. وذابت المسكينة في أربعة أيام. ويقال إنهم قتلوها. وحين كتبت وصيتها قبل الموت بأربعة أشهر كان أرجنتال هو من رجته أن ينفذها.

بعد وفاة لوكوفرير طلب فولتير تشريح جثتها فثبت أنها لم تمت بالسمّ، بل ماتت لتاكل جوفها. ودفع رُقُص رجال الدين دفنَها في أي مقبرة في باريس فولتير إلى كتابة أغنية بعنوان "ميتة الممثلة الكبيرة لو كوفرير". المؤلف.

لم يجد من المناسب إخبار أهله بالضيق الذي سببه له الجدري. ومع أنه لا يعرف بخبر موت أدريين إلا أنه كمن يتوجس الأمر، فخاف أن يسأل عنها. همس بون دو فيل لعائشة مشفقاً على أخيه الأصغر:

- دعينا نخبره بوفاة أدريين خير من أن يخبره غيرنا.

- لا، فيما بعد - لم تقبل عائشة.

- ولماذا "فيما بعد" يا أيسيه؟ - جعل الهاجس الذي طرق رأس أرجنتال يوجه السؤال وإن لم يكن عنده شك.

- لا شيء يا جان - لاحظ بون دوفيل الموقف فغيّر بسرعة الموضوع: - كانت أيسيه قالت إنها ستأتي بشيء نسيته في البيت فذكرتها. إن كان هذا رأيك فسنعود يا أيسيه.

- لا تعطلا عملكما من أجلي؛ ألا تريان كيف أتماثل للشفاء!

- يا لتعاستي يا ولدي الجميل، ماذا جرى لك؟ - كانت ماري - أنجيليك تصرخ وهي تنتزع رأسها من حضن ابنها لتحقق في وجهه. - كيف لم أعرف بمرضك؟! لو لم أرك حياً لمت... دعوني أجلس هنا، لا أعرف ماذا يحدث لي. - لاروش أين أنت؟ أعط لأمي دواءها. - قالت عائشة وأجلست الكونتيسة وهي تمسح على ظهرها: يا ماما انتبهي لنفسك، لا تُفني نفسك، افرحي بعودة الكونت أرجنتال سليماً معافى. وادعي إلى الله.

- أكيد سأفرح، وسأصلي من أجله - نهضت الكونتيسة من نفسها وكأنها غير تلك التي أغمي عليها قبل قليل: - الله أرسل لي معكم ابني الوسيم. كنت ألومك بيني وبين نفسي على انقطاعك عني ولكني فهمت الآن. زياراتك المتكررة يا أيسيه إلى باريس خلقت في قلبي وساوس كثيرة باطلة. فسامحني. وأنت أيضاً يا بون دو فيل كان يخيل إليّ أنك نسيته، والحق أنك مع أختك

كنتما تتابعان مرض أخيكما. وأنا مشغولة أيضاً بأخبار المسكين الكونت أوغستين - أنطوان الذي حبس نفسه في أرضنا البعيدة ولا يعرف شيئاً مما يجري لنا. أفكر في أن أقوم بزيارة مفاجئة له.

- يا ماما، وأنتِ تكادين تنهضين بأمورك - لم يقبل بون دو فيل - كيف تسافرين إلى هذه المسافة البعيدة؟

- صحيح، صحيح - وافق أرجنتال أخاه.

- أستمعين يا أيسيه ما يقولانه لي؟ بدلاً من أن يُفرحاني بحفيد صغير يحكمان عليّ بالشيخوخة والعجز. سأنتظركما طويلاً إذن!

- لا يا ماما، لم يخطر لنا مثل هذا - أصلح أرجنتال من كلامه وهو يتأمل أمه بوجهه المجذور - بل لأني كنت أنوي زيارة بابا بعد مدة.

- لن تسافر إليه! لينشغل بالله علينا مرة كما نحن! هيا جهزوا مائدة عامرة ولنجلس إليها بمناسبة عودة أرجنتال سليماً. وهاتوا شيئاً من الشمبانيا. ولنصل إلى الله من أجل آل فيريول. وأبوكم الكونت، أين سذهب به؟ أبوكم على كل حال.

كان الجو صحوً فتناول آل فيريول الطعام في أرض الدار. أَلقت ماري - أنجيليك الكونتيسة أول كلمة نخب. وأتت بلطف على ذكر أوغستين - أنطوان الكونت الذي كانت تهاجمه أحياناً. وهي لم تستطع إلا أن تمدح نفسها:

- لا يظنّ أحد أني أفخر بنفسي. ربيت ولديّ جيداً، وأنتِ أيضاً أيسيه. أنا راضية عليكم ثلاثتكم. وأحبكم ثلاثتكم بالتساوي ولو عاتبت أحداكم أحياناً. ولكنك يا أيسيه تروين كلمة بخصوص الولد الأصغر، هل يمكن أن تذكريني بها؟

- "الأصغر أحِبُّهم" - نطق أرجنتال الكلمة قبل أن تستجمع المسؤولية ذهنها.
- نعم، نعم. دَكَّرْتَنِي جيداً - أكملت الكونتيسة كلمتها: - ولكن لا تظن يا أرجنتال أننا ندلك لأنك الأصغر، بل لأن الله فهم طبيعتك الإنسانية وأنقذك من براثن المرض الذي يفتك بكثير من الناس. ولهذا أرفع هذه الكأس على شرفك. متمنية أن تنسى الأزمة التي مررت بها، وأن يأتي يوم تنسى فيه ما تركه على وجهك - هذه تزين وجه الرجل لا تقبحه! - وأن تسلم من أي مرض، وتعيش طويلاً طويلاً، وتكون من تحبها من نصيبك. وأن لا تنساني أنا ووالدك وأختك وشقيقك وكل آل فيريول، وآل غيرين دو تانسين أهلك، وتكون محظوظاً في كل نواحي حياتك، أرفع هذه الكأس يا ولدي!

وبعدها تكلم بون دو فيل وعائشة ولاروش وصوفي بالمناسبة. ومهما قالوا فالختام كان مديحاً لأمه الكونتيسة، ولذلك ضاقت المائدة عن أن تتسع لها، فجلست تتطاير من الفرح.

وأخيراً حين لَينَ الشراب ماري - أنجيليك أعطت الكلمة للسائس العجوز جاك الذي كان وجهه خالياً من أي تعبير سرور:

- ماذا جرى لك يا جاك، كأنك جالس على مائدة مآثم. ألا تقاسمنا فرحنا أم عندك من تحذُّ عليه؟ أفي هذا اليوم فحسبُ تعرف الكونت أرجنتال؟ هات أنت أيضاً كلمة حلوة!

- سأتكلم يا كونتيسة، سأتكلم - ولما نخض خلافاً للآخرين طلبوا منه الجلوس فرفض - لا، الأفضل أن أتكلّم واقفاً. - دو أرجنتال الكونت إنسان طيب، وابنٌ صالحٌ مرثى، ويستحق ما قلتم بشأن الخسار مرضه. أوافقكم. وأدعو الله أن يعوضه كل ما عانى، ولكن.. - تنهد العجوز جاك، وشرب كأسه وجلس.

تبادل الجالسون إلى المائدة الذين سمعوا هذه الـ "لكن"، وسألت الكونتيسة متوددة إليه:

- ما الذي لا تستطيع قوله؟ - وأضافت بصوت أخشن: - ليست المائدة التي دُعيت إليها مائدة أسرار!

- أفهم يا كونتيسة، أفهم - قال العجوز الذي فكت الكأس عقدة لسانه: - قلت "لكن" لأني أشفق على دو أرجنتال الكونت... إذن أنتم لا تعرفون الخبر... أدريين لوكونفرير توفيت...

- سأل أرجنتال ووجهه يُمتنع:

- كيف ماتت؟

تبادل الشخصان المطلعان على الخبر النظرات، وقالت عائشة لأرجنتال وهي تضعط على يده:

- نعم يا أرجنتال، صحيح، توفيت.

- عليّ الذهاب إلى باريس! - نهض أرجنتال.

- يا لمصيتي لم تكذ تقف على رجلك! قلقت ماري - أنجيليك.

- يجب أن أذهب حالاً يا ماما - ولم يُخفِ السبب: - أنا من كلّفته أدريين بوصيتها.

- أكنت تعرف أنها مريضة وقرية من الموت؟ - سأل بون دو فيل أخاه لا يعرف تفسير ما يسمع.

- لا يا بون دو فيل. أنت وأيسيه تعرفان أنه لم يكن بيني وبينها شيء.

- لن أدعك تذهب إلى باريس وحدك - نهض بون دو فيل، وحين همّت عائشة أن تفعل مثل أخيها رجاها: - أنت فيما بعد يا أيسيه، أنتما، ماما وأنت، لاحقاً، يوم دفنها.

حين ماتت أدريين لوكوفير تسبب دفنها في إشكالات كثيرة. ولولا أن فولتير وقف في وجه الكنيسة ورجالها المحتجين على السلوك اللبيرالي للممثلة الكبيرة، وعلى ما كانت توجهه من انتقادات ضدهم على المسرح، ولولا أرجنتال وغيره من المثقفين المعروفين لماطلوا ليس أسبوعاً ولا اثنين في دفنها. ولكن أنجز كل شيء كما أراد فولتير وأرجنتال لأن الصواب ينتصر غالباً على غير الصواب.

نفذ أرجنتال للممثلة الكبيرة التي كُفّت عن حبه منذ أكثر من سنة كل وصيتها لم يُسقط منها شيئاً. ولكنه وإن تخفف قلبه من جهتها، فإنه لم يكن يستطيع نسيانها. وساهم كثيرون في دفنها، من ماري - أنجيليك وعائشة وبون دو فيل وكلودين - ألكسندرين وبارابير ودو ديفان وجانيت - نيكول وصوفي ولاروش، وكثيرون غيرهم من عامة الناس، بالإضافة إلى من جاؤوا من مدن أخرى غير بعيدة. وكان بيير المطران هو من غاب عن المناسبة لأن همه الآن هو الارتقاء إلى منصب الكاردينال فعليه مجارة رجال الدين.

في صباح أحد الأيام وهم على مائدة الشاي، وفيما ماري - أنجيليك وعائشة تتحدثان في موضوع أدريين لوكوفير: حياتها وسلوكها وإشكالات دفنها، سألت الكونتيسة عما كان يشغل بالها:

- لماذا يا ترى صدت أدريين لوكوفير ابنا الوسيم أرجنتال عنها؟ كل من أسأله ينكر أي معرفة بالسبب. هذا حديث لم يعد فيه فائدة الآن ولكن ألسنتُ أماً، وهو أليس ابني؟ أريد أن أعرف لأن أرجنتال يصمّ أذنيه عن أي سؤال.

- وأنا يا ماما لا أعلم لي - تنهدت عائشة وهي تضم جيبها المأساوي إلى موضوع أرجنتال - ولكن، إن كنت تتذكرين، حين كانت أدريين تُدفن، لا أنسى خاتمة الكلمة التي ألقاها فولتير: "الحب لا يستشير أحداً".

- نعم، نعم. كانت كلمته عظيمة. انظري كم ثمن فولتير الحب لأنه إنسان حكيم. أنت وأنا فهمنا هذا جيداً وإن كنت لا أدري إن أثر في الآخرين. نغفر للمرأة التي أثارت كل هذه الضجة مهما فعلت. وأرجنتال الذي نجا من المرض الفاتك تحلى بالرجولة فنقذ كل ما رجته منه. وألقى على قبرها كلمة ليست أقل شأنًا من كلمات غيره. أنسى دائماً أن أسألك يا أيسيه. غاب المطران بيير بذريعة خاصة به؛ ولكن لماذا لم أر شفالييه بين المشيعين؟

- لو لم يكن إبدي مريضاً لحضر يا ماما.

- ونحن لسنا مرضى؟! - غمغمت الكونتيسة - لا أعرف من أين جئت بهذا الوحيد الذي يمرض دائماً وبسهولة؟ أكنت مجرّة؟
- يا ماما!

- حسناً حسناً، "الحب لا يستشير أحداً" - كررت ماري - أنجيليك الجملة في وجه عائشة، وجعلها ما رآته لأول مرة تقول فجأة: - مهلاً، مهلاً. إلى أين تجهزين نفسك؟ وما هذه البندقية في الزاوية؟ أنتستعين للخروج إلى الصيد؟ لن تذهبي! أنسيت أنك متوعدة؟

- لا تعترضيني اليوم فحسب لأن هذا اليوم هو أول يوم صيد في الخريف يا ماما، لن أذهب بعيداً، ولن أغيب طويلاً.

- ستكونين وحدك؟ سألت الكونتيسة وغضبها - اعتراضها ينحسر شيئاً فشيئاً.

- سيكون الله معي يا ماما - ابتسمت ابتسامة رياء للكونتيسة التي كانت تعطيها الموافقة - سأصحب باقي.

بعد ما مضت قرابة ساعة على خروج عائشة لصيد البط البري استنفر آل فيريول صوت الكلب الذي دخل الفناء يعوي.

- جرى لأيسيه حادث! - قالت الكونتيسة قبل أن تجد الوقت لتضع جانباً الكتاب الذي كانت تقرأ فيه، ولحقت بباقي الذي لم يكن يكف عن العواء. واستقبلت عائشة التي كانت عائدة بصعوبة وماء البركة يقطر منها: - أي مصيبة جرت لك يا أيسيه؟ حضّروا ماء دافئاً... وأنت يا لاروش حضّر دواءك المضاد للبرد. كدت تفجعينا يا ابنتي بعدما نجوت من كل ما مرّ بك. - خلعت ماري - أنجيليك فروّها وغطّت به ظهر عائشة. - سأجعلك من اليوم تُقلعين عن الصيد، مهنة الرجال. وسأكسر بندقيتك!

- كفى يا ماما، انتبهي لنفسك! - مع أن الكونتيسة كانت تنصح عائشة فإن الأخيرة كانت تنصح نفسها وقد شحب لونُها: - أظني سأعيش طويلاً بعد ما نجوت بفضل الله من هذا المستنقع اللعين.

VI

حين خطرت لعائشة الحكمة الشركسية "المرض يأتي من عين الفأس، ويرحل من خرم الإبرة" ارتعبت وكأنها تسمع صوت جدتها "شابا" التي تخطر لها هذه السنة أكثر من السنوات القليلة الماضية، فنظرت في كل اتجاه. لم يكن يُسمع في الغرفة إلا صوت تنفسها وهسيس احتراق الشمعة. ومن أرض الدار يُسمع صوت مطر خريف أبلون الناعم يقرع النافذة، فيثبت الخريف حضوره، ويتعمق في المدينة يوماً بعد يوم. والمرتعب يستوي عنده النهار غير المشمس والليل غير المقمر.

"إن لم أمرض من ماء المستنقع البارد فسنقضي هذه الليلة هنا بأي طريقة يا باقي. - واست عائشة نفسها وهي تحدث الكلب الأبيض الصغير النائم على مخدتها. - سنعود غداً إلى باريس، ولأني أرسلت إلى شفالييه وكالاندرين ألا ترسلا إليّ هنا فستنتظرنا رسائلهما في باريس. وبون دو فيل وأرجنتال كلاهما في باريس أيضاً. وربما يكون عمي أوغست رجع وينتظرنا أيضاً. واشتقت للمسارح. ماذا يُعرض يا ترى من أعمال جديدة فيها؟ أودّ مقابلة فولتير، لم يتسنّ لنا في يوم الدفن أن نتحدث كما نريد. وسيلين رجعت من إنجلترا حديثاً. - حين اعتصر الألم قلب عائشة ودموعها على خديها أنذرتها آلام عظامها. وباقي الذي لاحظ هذا قذف برأسه إلى الأعلى. - أنا المسؤولة عن حياة سيلين بلا أم. لم يكف أني وضعتها سراً فأرسلتها إلى بلاد غريبة. كان الأفضل أن أزورها في سانس فتناديني "تانت". وأنا أعيش وحيدة كابنتي أفرح لرسالة من آل بولينغبروك، ولرؤية شفالييه مرة كل شهرين أو ثلاثة. وبدلاً من سيلين ينام باقي معي على مخدتي. ولا أفهم تدابير دو إيدي في السنة الأخيرة. أنبتعد أحدنا عن الآخر بحجة أننا مريضان؟ صحيح ما كانت تقوله نانا "لا

يجوز أن يقال للرجل باستمرار: أنا مريضة". ومن هو لي؟ أزوج أم عشيق؟ على ما يبدو أنا عشيقته. لنقلُ إليّ لا أهمه البتة؛ لماذا ينسى ابنته؟ بقيت أقول: لن تقبل منك فرقتك أن تؤسس أسرة، ولا أن يكون لك أولاد، وستمحوك من الوجود فأبعدته عن ابنته، ولم أترك له فرصة ليعرف حلاوة الأبوة. ولكن ما أتعجب منه هو ألا يفكر في الذهاب إلى إنجلترا لرؤية سيلين ومعرفة أخبارها. هو يحبني ولكنه لا يهتم بحياة الصبية التي تعيش في أسرة طيبة ولكنها غريبة"

- كفى يا باتي لا تحدّق فيّ بهذا الإصرار - عبست عائشة في وجهه باتي ثم لاطفته: - لست من أعتب عليه، ليت الآخرين كانوا مثلك!... - "لا، لا. لا يجوز أن نمطّ قصة حبنا التي لا بداية ولا نهاية لها. سأضع خاتمة لهذه القصة وسأضمّ إليّ ابنتي الحبيبة. أيّ حياة بلا معنى أحيائها: أعيش وأنا أحاول نسيان المصائب التي داهمتني منذ طفولتي، وإذا قيل لي أنتِ جميلة اعتبرت الكلام إطراءً؟"

فرحت عائشة التي قُطعت سلسلة أفكارها لرؤية صوفي داخلية إلى الغرفة:

- ما أحسن مجيئك إليّ يا صوفي. هجمت عليّ الأفكار؛ لا أعرف إن كان السبب هو أنني سأغادر غداً إلى باريس.

- لا تقلقي كل شيء يتغير إلى الأفضل. جهّز كل ما نحتاجه.

- ولم تنسي شيئاً؟! - ابتسمت عائشة. - والبندقية التي هددت ماما ماري - أنجيليك بتعطيمها؟

- دغك من هذه القبيحة؛ لتصدأ في المستنقع!

- هذه بندقية ممتازة.

- ألا تسخو بها نفسك؟

- لا، لأنها من وسائل التنفيس عني. ربما كان الله قدّر الأمر هكذا. أتعرفين من أعطانيها؟

- نعم أعرف. ألم يكن شفالييه يعرف أن إعطاء أحدٍ سلاحاً أمرٌ غير مستحبّ؟ كدت تدفعين حياتك بسببها.

"هذا الذي ذكرت اسمه شفالييه دفعت حياتي بسببه يا صوفي منذ زمان بعيد... - لم تبرئ عائشة نفسها وحدها وهي تُشهد أفكارها على حبها ولو أنها تنهدت حزناً على حالها - وهذا المسكين لم ينبج بسببي من مثل ما جرى لي"

- لماذا تتخذين هذا الموقف الظالم من شفالييه يا صوفي؟ - سألت عائشة صوفي التي كان ما تقوله هو الصدق.

- يا أيسيه، لا أريد أن أظلم أحداً. وإن كنت ظالمة فالله لن يسامحني. ولكن جواب سؤالك تعرفينه أنت أيضاً. وإن كان الأمر هكذا، فاغفري لي، كنت قلت لك قبلُ وأقولها الآن: أشفقُ على سيلين البريئة التي لا تعرف إلا الله، والتي ترى في الغربة أكثر مما أشفق عليكما.

- إذن سأقول لك الآن ما في قلبي حقيقةً: قررت حالماً أصل إلى باريس أن أكتب لشفالييه رسالةً أُنهي فيها قصة حبنا.

- حقاً؟! - تأملت صوفي عائشة حزينةً وسألتها: - أقررتِ هذا الأمر بعينه؟

- ثم أكملت بصوت ساخر: - تقولين هذا ولكنك لن تستطيعي أن تقولي هذا لمن عشقته. - حين نبج باقي على صوفي وكأنه فهم الكلام الموجه إلى من كان نائماً على صدرها نهرته: - ابتعد عني، تحفظ بعينيك لي، لست من كان يجب أن ينام على هذه الوسادة!

- صوفي! - حين ارتفع صوت عائشة مستغربة ما تسمع تَشَجَّعَ الكلب فنهزته: - كفى يا بابي، اهدأ! لم تقل صوفي ما ليس صحيحاً. حقاً يا صوفي حقاً. وسترين أنني سأنفذ قراري. لا ألومك. ما قلت لبابي معنفة إياه، والحق أن الكلام موجه إليّ، ذكرني بكلام مأثور كانت جدتي ترويه "أقول لكنتي، وأفهم ضرتي".

- لا أعرف بِمَ أعلق على هذا.

- ولم لا تعرفين؟ ماكنت تريدان قوله قلته وانتهى. والآن سأروي لك حكمة تمسني أنا "بيت بلا أطفال بيت بلا حظ" فإذا لم أكتسب الحكمة من هذه الأقوال وغيرها فلماذا أعتب عليك، وأحمل عليك في نفسي؟ يا صوفي ألا تشعرين بالبرد؟

- لا، لماذا؟

- كأن نوبة البرد تعود إليّ، أطرافي يحدث فيها شيء غريب. وفي صدري نخزة.

- لأنك تفتحين مواضيع مغمّة... الآن سأشعل نار الموقد وأدفع الغرفة. وألبسك جوارب صوفية دافئة. وأسقيك دواءك.

رغم اهتمام صوفي بعائشة: دقائق لها الغرفة، وكستها ملابس دافئة، وسقتها دواءها، فقد حدث ما كانت تخشاه إذ أيقظها صوت سعالها في منتصف الليل. ولم تكن صوفي وحدها بل استدعت ماري - أنجيليك ولاروش يخدمان حتى منتصف الليل عائشة التي تجد صعوبة في التنفس. حتى خلدت إلى النوم. وحين خرجوا من الغرفة سألت ماري - أنجيليك الطبيب لاروش:

- كيف ترى أيسيه؟

- سعالها ليس مهماً لولا أنها تبصق دماً.

- يا مصيبي! - عادت ماري - أنجيليك تبكي إلى غرفتها. ثم غرقت في النوم لا تدري كيف وهي تصغي إلى غرفة عائشة.
- نامت عائشة ساعتين أو ثلاثاً دون حركة. وحين أفاقت نظرت بوجه بشوش إلى صوفي وكأنها غير تلك التي كانت تسعل ولا تجد هواءً تتنفسه، وسألتها:
- أما تزالين صاحبة يا صوفي؟ أما نمت؟
- نمت قليلاً، وأنت ما حالك يا أيسيه؟ أما نمت؟
- حتى أنا لم أعد أفهم طبيعة مرضي. يا صوفي. هل تعرفيني اليوم فحسب؟ أين باقي، لا أراه؟
- كانت الكونتيسة أخذته إليها الليلة كي لا يزعجك.
- صدر نباح الكلب من وراء الباب، ربما لأنه سمع صوت عائشة. وحالما دخلت ماري - أنجيليك الغرفة انتزع نفسه منها وقفز إلى الأريكة. وسألت الكونتيسة التي لم تشبع نوماً عائشة دون الالتفات إلى سلوك باقي:
- كيف حالك يا أيسيه؟ أربعتنا الليلة!
- لا أعرف يا ماما، اغفروا ما حدث لي؛ ما رأي لاروش؟
- وماذا سيقول؟ ستشفين.
- إن كان هذا رأي الطبيب، فهو رأيي أيضاً. اليوم سنعود إلى باريس.
- لا أحد ينتظرنا في باريس! لا ضير أن نقيم يوماً آخر هنا.
- يا ماما، ها أنت ترين أنني لم أعد مريضة. أرجوك لا بد من أن أعود إلى باريس.
- حسناً، ما الذي تريدني ولا تجعليني أفعله؟! ولكن بعد أن نشرب الشاي...
- سترين إن لم أطلب أفضل أطباء باريس لعيادتك.

مع أن عائشة كانت راضية باستدعاء الأطباء لها بعد وصولها إلى باريس كما وعدت ماري - أنجيليك فحين تذكرت أيام مرض شارل دو فيريول الطبيب الذي استُدعي عن طريق أورليان فغازلها الأخيرُ ابتسمت قائلة لنفسها "وهؤلاء إذا كانوا مثل طبيب أورليان لا أريدهم ولو مت". ولكن ما قالته الكونتيسة بحسن نية ذكرته مرة أخرى بمن لم تعد تثق فيه بليز - ماري دو إيدي شفالبيه: "أقول لا رجولة عند شفالبيه، ولكن كيف جابه أورليان؟! فرنسا كلها كانت تتحدث في الموضوع. - وبعد قليل غضبت عائشة على من كانت تمدحه: - والآن؟ الآن لا يستطيع حماية حبه خائفاً مما سيقول والداه... ماذا كان قال لي؟ يريد أن يعيش معي سراً دون زواج. ولأنه غير راضٍ عن أهله يريد أن يسجل نصف ما يملك على اسمي. وأبان لي بوضوح أن من يتأخر عن الآخر في الموت سيبقى له الملك كاملاً. وأغرب ما في سلوكه هو أنه لا يأتي على ذكر ابنته الصغيرة! كيف يمكن أن تفهم هذا؟ أنا أعرف ماذا سأكتب له!"

قد يكون قولهم إنك إن لم تتكلم كثيراً على أمنتك لم تتحقق أو صعب تحقيقها، صحيحاً. ماطلت عائشة في كتابة الرسالة المزمع إرسالها قرابة الشهر؛ لا لأنها ندمت، بل لأن المرض الذي أصابها في أبلون نتيجة البرد انتفض من جديد، وأثار الأمراض الأخرى التي توطنت في أطرافها فلازمت الفراش عاجزة عن النهوض. ثم إن الإسهال الذي فاجأها واستمر أسبوعاً أجهز على قوتها.

اختلف على عائشة كثير من العوادم. كانوا يمنونها بالشفاء ويعدونّها أن تقف من جديد على رجلَيْها. وحين يذهب بون دو فيل وأرجنتال إلى العمل أو يعودان منه لا يتركان باجها؛ دغك من صوفي التي لم تكن عائشة تغيب لحظة عن عينيها. وماري - أنجيليك تطل عليها في النهار بضع مرات فلا تخرج من العرفة دون أن تمسح على رأسها، وتمنحها الأمل وتنصحها وتروي لها بعض ما في باريس

من أخبار، وتسألها عما تشتهي اللحظة من طعام. ولم يكن أوغستين - أنطوان الكونت يطيل زيارته كي لا يخرج المرأة الراقدة في الفراش. وحين تغلبه دموعه يغادرها وهو يقول "لا داعي لليأس، الله معنا، سينظر إلينا بعين الرحمة" وتأتي دو بارابير ودو ديفان بأطعمة لم تتناولها منذ زمن بعيد، تدفعان أثمان الأدوية الغالية التي يصفها الأطباء. وتركبان لها أدوية تقنعها بالشفاء.

في أحد الأيام، حين حُيِّل لعائشة أنها تحسنت، اختارت وقت استراحة الظهيرة، وبدأت وهي في الفراش بكتابة الرسالة التي لم تنسها. وحين رأتها صوفي تبكي بعدما كتبت بضع كلمات، قالت لها:

- يا أيسيه، تعرفين موقفني من شفالييه في السنوات الأخيرة، ورغم ذلك فلو سمعت نصيحتي لما سمحت لك أن تكتبي ما تنوين كتابته. ستعرفين كيف تتصرفين بعد أن تتقابلا وتتحدثا.

- كنت فكرت في هذا غير أنني لا أحب أن يراني في هذا الوضع... ما الأمر يا صوفي، لماذا تبترسمين؟ - سألت عائشة.

- لآني أعرف أنك تحبين شفالييه يا أيسيه.

- نعم، أحب شفالييه؛ ليس سرّاً عليك ولا غيرك. - مسحت عائشة دموعها وتنهدت - ولكن حتى لو سألتني لا أعرف سبب حيي. أعرف ما تفكرين به، ولكن انزعي هذه الفكرة من ذهنك؛ ليس لأنه والد سيلين... هو حيي الأول والأخير. وحيه لي ليس أقل من حيي له. - مرة أخرى انهمرت دموع عائشة وغطت خديها الغائرين. جلست قليلاً وعادت فأمسكت القلم: - يكفي ما ربّي غيرنا ابتئنا الصغيرة. يجب إنهاء هذا الوضع. سأفهمه هذا الأمر فحسب، ولن أكتب له ما يحزّ في قلبه.

إذا لم يكن مرض عائشة يشتد يوماً بعد يوم فإنه لم يكن ينوي أن يخف. ومع أن كل معارف أسرة فيريول كانوا يساندونها لئلا تفقد أملها وتستسلم لليأس فقد كانت تستنزف عمرها، دون أن تبدو عليها علامات الضعف، بل وتمازح جلساءها أحياناً، مدركة هي وغيرها أن مرض الحنجرة الذي تعانيه لا دواء له. ولم تكن تكف عن مراسلة جولي كالاندرين، وهامي رسالتها اليوم إليها: "كلمات قليلة أكتبها لك يا نور عيني لأني فقدت قوتي. الآن أنا ملازمة الفراش دائماً. أبصق دماً سميكاً، وأنام حين أتناول مهدئاً. وكل يوم أزداد وهناً ونحافة. المأساة الأزمة التي يعيشها شفالبيه لا يمكن وصفها بالكلمات، حالته تدعو للشفقة. والجميع يعملون على إراحته. وبسبب اعتقاده أنه إن قدّم هدايا ثمينة فسيحافظ على حياتي يشرع في إعطاء كل فرد في الأسرة شيئاً. وبالإضافة إلى كل هذا اشتري للبقرة حشيشاً. وأعطى نقوداً من أجل أن يتعلم ابن أحدهم مهنة، ولكي يشتري لباساً لامرأة. وأي شخص يقابله يقدم له شيئاً مجانياً. كأنه ليس في عقله. وحين سألته عن السبب أجابني: "من أجل أن يعتني الجميع بك".

أنا في ضيق شديد داخلياً. يُفنيني ما حدث لي. وأملّي الوحيد هو الله. - إنه يعطيني القوة، يرى كل شيء، ويعرف ما فعلتُ قصداً وما يغلي في قلبي، وسيعينني. وباختصار: هذه المرة قراري متين: سأمثل أمام الله مع ذنوبي التي اقترفتها. وفي هذا الشأن كلمني دو إيدي قبل أيام كلاماً فيه صداقة وحكمة. أخبرني عن تمّيه الخير لي، وعن نواياه الطيبة، وعن موقع مناسب للصبية في الحياة، وتفكيره في مستقبلها.

انقطاع خجلي منذ زمن بعيد لا يريحني. لم يحدث أن التهب حيي لشفاليه كما الآن. والأمر نفسه ينطبق عليه. وكل من يرى لهفته وخوفه عليّ دون تصنع أو رياء لا يملك دموعه.

أجهد كي لا أسمح لحبي الممزوج بإشفاقي أن يغلبني، وأحاول التكفير عن خطأي. لا أخاف كثيراً من الموت المرتقب سريعاً. وأرى نفسي محظوظة جداً لأن الله رحمني. ولذا سأشغل الوقت المتبقي لي منذ الآن بعمل مفيد. وبصراحة تامة: ما الفرق بين الموت المبكر والموت المتأخر؟ ما هو أصل عمرنا؟ كان يجب أن أكون حسنة الحظ أكثر من أي إنسان آخر ولكن لم أجده. استغلوني دمية لشهواتهم. وعاملوني كما يشاؤون. عشت لا أنتهي من مأساة الحب والحنج، وجهود الأصدقاء أشعر أنها تتباعد عني. ما أبأس أن تعيش حياتك مريضاً دائماً!

تسأليني هل تغير مظهري: لن تعرفيني! عيناى انطفأتا، فقدتا اللون. وخداي غارا وشحبا. ومن جهة القوام بقيت جلدأ على عظم فحسب. والجسم الذي فقد قوته لا تسألني عنه. ومن جهة قلبي وروحي أتوقع أن يصبحا في الأسبوع القادم نظيفين تماماً. وسأنقل كل ذنوبي إلى حضرة الله.

ما حدث معنا أمس أمر عجيب: أرسل إليك صورة عن وصيتي الأخيرة التي كتبتها لإيدي وجوابه عليها. ولأنه أعطاني رسالته بيده لم يُتاح لي أن أقرأها في لحظتها. وقد تكلمنا في هذا الموضوع، ولو كنت حاضرة وقتها لبكيت مثلنا. وستعجبين جداً إذا عرفت كيف ستساعدني صديقتاي دو باراير ودو ديفان في تحقيق أمنية حيي. يوم السبت ستُخرج دو باراير الكونتيسة ماري — أنجيليك من البيت بحجة ما، وتستدعي الأب بورسو الذي سأعترف أمامه

فأظهر من ذنوبي. وأنا واثقة منه فهو يعرف طبيعة قلب الإنسان. وطريقه طريق الفطنة والعقل، ومخلص للدين.

ربما تستغربين اختياري نساءً عازبات مثل دوباراير ودو ديفان. من بداية مرضي هاتان هما من ترعياي، وخصوصاً المركيزة دوباراير، لا تتركني وحدي في أي وقت. صداقتها لي قوية. تقلق عليّ، تغمرني بالهدايا. ووضعت تحت تصرفي نفسها وخدمها، وكلّ ما تملك، فيإمكاني الاستفادة من كل هذا كما لو كان لي. تأتيني لتقضي عندي النهار كله. ومن أجلي قد لا تلتقي بأصدقائها. وداعاً يا نوري. صحيح أنني أجد متعة في تراسلنا، ولكن هذا سينتهي قريباً. ما العمل؟! "

وهذه هي الرسالة التي بعثها بليز - ماري دو إيدي شغالييه إلى شارلوت - إليزابيت آيسيه، والتي أرسلت عائشة نسخة عنها إلى كالاندرين في جنيف: "رسالتك يا آيسيه الحبيبة آلمتني أكثر مما حرّت في نفسي. وليس فيها إلا الصدق. لا تضوع منها إلا رائحة آمالي الحلوة الطيبة التي لا تُقاوم، إن كنت تعديني أن تحبيني دائماً، فليس لي الحق في الشكوى. لا أكتمك أن معالجتك للأمور ونظرتك إليها تختلف عما عندي. ولكن والفضل لله أنا بعيد عن أن أُطلع على نواياي أحداً للضرورة. وأعتبر أن سلوك كل منا الذي يعود إلى ما يمل به عليه حياؤه هو الأفضل. اريح نفسك، ليُعطك الله حظاً سعيداً يا آيستي العزيزة. وفي كل الأحوال يكفيني أن أجد لي مكاناً في قلبك.

أؤكد لك بكل طباعي وتصرفاتي أنني جدير بأن تفتحي لي قلبك. وقبل كل شيء لماذا تعتب علي إذا كانت إنسانيتك وصدق نواياك وطهارتك فتننتي؟ هذا موضوع تكلمت فيه بحضورتك مئات المرات، وأثبتت لك صحة كلامي.

وقبل أن تصدّقي كلامي هل أنا جدير أن تنتظري مني التحلي بالتصرفات التي تشهد على أقوالي؟ ألا تتقين بي؟

صدقيني ياعزيزتي أيسيه أن عندي لك أحلى حب وأصدق. وصدّقي أنني أبعد عن أن أحب غيرك أكثر من بُعدك عن أن تحبي غيري. وأنا سعيد مادام عندي أملٌ في أن أراك، وأملٌ في أن تعتبريني أصدق إنسان.

سأسلمك هذه الرسالة بيدي وفصّلت الكتابة لك لأني لا أثق أن أستطيع الكلام معك براحة. ولأن الوقت ما يزال مبكراً على التئام الجرح فما أريده الآن هو أن أمثل أمامك تحقيقاً لرغبتك في أن تريني. ولكن لأني أخاف أن تدمع عينايا أمامك أقول لك إنها خارج سيطرتي. وليس السبب في أن أصدّق الأمل الذي تمنحيني إياه في شفقة الصداقة يا أيستي العزيزة، هو معرفتي بإخلاص قلبك فحسب، بل لأني واثق أن قلبك يستطيع التجاوب مع حيي الصادق"

VII

حلّ شهر كانون الثاني من عام 1733 الذي كانت تنتظره وتخشاها عائشة بثلوجه المتناثرة. وخلال بضعة أيام استطاعت الريح الجنوبية أن تنشر الدفء في باريس، وجففها حتى صار الغبار يرتفع في أرجائها. ولكن ريح الشمال لم تدع فرحة الناس بالدفء تطول. وظلت الطبيعة والناس أسرى الثلج والمطر الباردین نصف شهر كامل. والعجيب أنه إن لم تهب الريح نهاراً هبت مساءً وعربدت حتى الفجر، أو تتغير فتغطي بالثلج النهار الذي كانت أراحته من عنفها وهي تبتسم له.

في مثل هذه الأيام، وبخاصة في ليالي الأرق، تتبعثر أفكار عائشة المتلاطمة كالريح التي تضحك في هبوبها، وتصفر، وتعوي، وتبكي. وما فكرت فيه البارحة يعود إليها اليوم. وتعيد التفكير في ما مضت عليه سنون كثيرة. تقلق كيف ستنجز إجراءات الموت المحتوم القريب، وكيف ستعيش ابنتها. وحتى لو كانت تفكر في الحياة القصيرة التي عاشتها، والتي كانت ثقيلة من جهة، ومن الجهة الأخرى عيداً أنيقاً، وتتساءل، فلم تكن تجد جواباً لما يُريحها ويُطمئن بالها، ويجعلها تقف أمام الله آمنة.

ليس الأمر أن عائشة كانت تتحمل مسؤولية ما جرى لها، ولا تتهم غيرها. "من أحم بما جرى لي؛ إنه مكتوب على جبيني؟ عشت حياتي كما رسمها الله لي. أخلصت لشرف أمي وأبي وجدتي، ولا احتراممي لأنوثتي، ولال فيريول الذين ربّوني. ولأنه لا أحد معصوم من الخطأ فأني أدعو الله أن يغفر لي خطيئتي. وقبل أن أقف أمامه سأعترف لرسوله الأب بورسو بما في قلبي" وسألت صوفي التي نظرت إليها لم تفهم سبب رسمها المفاجئ إشارة الصليب:

- ما الأمر يا صوفي، أظننتني: "أدفع الهواء راكبة على الماء" كما كانت تقول لي جدتي التي تنتظري هناك؟ من ينجو من مرضي قليلون ولذا دعنا نقتنع أنني لن أنجو منه. وحلم الليلة الفائتة أفهمني مرة ثانية بالأمر.. أعرف أنك لا تولين أهمية للأحلام، وأنا كنت ذلك ولكني أظن أنهم حشروني هذه المرة في الزاوية. رأيته مع أبي أسلخ جلد بقرة مذبوحة... وأمي كانت راضية بعملتي. وجدتي كانت حريصة على ألا نخدش جلدها.

- لا أعرف يا حسرتي، ماذا أعلق عليه - نظرت صوفي ساهمة في وجه عائشة.

- ستترين أنك ستشفين، أكيد جاؤوك بدواء. لا تيأسي، ستشفين.

- وأنا يا صوفي - كانت صوفي تخيلت خدي عائشة الشاحبين قد احمررا حين ابتسمت قليلاً، وأن الوعي عاد إلى عينيها المنطفئتين. ولكن عائشة داهمها المرض، وبعدها سعلت حتى بصقت دمًا، أنهت الحديث بنفسها لنفسها: - كانت جدتي تقول "البرد الذي لا تصحبه الريح ليس برداً"، فكذلك المرض الذي لا يصحبه السعال ليس مرضاً. تتمنين لي الشفاء ولكن كما ترين حالي. وسأقول لك شيئاً آخر يتعلق بمرضتي: حين كنت أفرم لحم البقرة كان الدم الخائر الذي أستخلصه من اللحم بطرف السكين كالذي يخرج من فمي متجمعاً حولي، وكنت أرميه للكلاب الصغيرة.

- كفى يا أيسيه ما أبشع ما تروين! لتكلم في موضوع آخر سارّ؛ ألم أقل لك إنك ستشفين.

- إن كان في ذهنك موضوع سارّ فهاتيه. أنا لا أعرف - تنهدت عائشة عميقاً حتى ليؤثر فيها تنهؤها - ما حدث لي بشأن ابنتي جلبي لي حظي التعميس وبؤسي، وهو الآن بعيد عني، ولكن أبعدم عني من كان يسري عني، باقي، بحجة أنه ينبح ويعوي ويسبب لي الضيق حين أسعل...

- نعم يا أيسيه، في الليل فقط، في النهار عندك.

- نعم، نعم. - وافقت عائشة صوفي في شأن كليها ثم رجتها وهي توشك أن تبكي: - احرصوا على باقي يا صوفي، أعطيه لسيلين مع باقي الأشياء التي أتركها لها للذكرى.

لم تكن صوفي أول مرة تسمع فيها أخبار باقي، غير أن الحديث الدائر حول الموت جعلها تضطرب من جديد. وفكرت في ما سيكون عليه موقف آل فيريول حين تبقى وحدها دون عائشة. ولكن في اللحظة نفسها علا مرض عائشة التي عاشت معها كأختها سنوات عدة ووصيتها فوق كل أفكارها.

"لا أحد صنعوا له مهداً لم يحفروا له قبراً" ولكن طريقة قدوم الموت وطريقة انصرافه مختلفتان. كل إنسان، كما يأتي إلى الدنيا مع أشد العذاب يفارقها بالطريقة نفسها. صحيح أن الناس كلهم يفرحون بالمولود، ولكن حين يموت أيستطيع من هنؤه بقدمه أن يبكوا عليه؟ من كان سيدري أن عائشة التي ولدت والجهد ستنهي حياتها القصيرة على هذا النحو؟

رشت عائشة من الحليب الذي قدمته لها صوفي ووضعت الكأس من يدها. نظرت متأملة نحو النافذة التي عشتت عندها شمس ظهيرة الربيع ثم قالت لنفسها:

- الربيع جاء، والطبيعة تغير لباسها، وستدفأ الأرض التي بردها الشتاء المتقلب. ثم تنهدت عائشة وقالت لصوفي مصطنعة ابتسامة: - أتعرفين ماذا تذكرت في هذه اللحظة؟ ماكانت جدتي تدعو به إلى الله من أجلها. "لما لم يكن من الموت بدُّ أعطني يا ربي ميتة سهلة في يوم صاحٍ" وحين هاجمنا قطاع الطرق هناك في بيتنا كان الوقت ليلة صيفية حارة. ولكنهم جاؤونا بنوبة البرد الأبدية

البائسة... متى جرى هذا؟ قبل أكثر من ثلاثين سنة. لا، البارحة، اليوم، لن أنسى هذا أبداً. سأحمل الذكرى إلى حيث أغادر.

- أسمعين يا أيسيه - غيرت صوفي ما كان يُروى لها - فرح الطيور بالربيع؟
وها أنت، بفضل الله، توقفت عن السعال منذ البارحة. وأراك تتحسنين.
- لا أسعل لأنه لم يبق عندي من القوة ما أسعل بها... - قالت عائشة وهي تنصت إلى صوت العربية: - العربية التي وقفت على باب دارنا ليست عربية شفالبيه.

- ومن أين تعرفين؟ - نظرت صوفي من النافذة - عرفت، ها هي كلودين -
الأكسندرين تخرج منها ويدها باقة زهر كبيرة.
- وحدها؟

- أنتظرين أحداً معها؟ - قالت صوفي بصوت يُفهم منه أنها لا تريد أن تقع عينها على القادم، وغمغمت: وماذا ستفعلن بهذه الباقة الكبيرة؟
- ربما ظننتي مثلاً... لا، لا يا صوفي، أمزح فحسب. إذا حدث بيننا أنا وكلودين، بعض الجفاء، وأنت تعلمين، فليست علاقتنا بهذا السوء. رُبينا في أسرة واحدة. وفي صالونها الأدبي تعلمت أموراً كثيرة ما كنت أعلمها. وأحببت الكتاب والمسرح. كلٌّ يعيش حياته الخاصة. كلٌّ يعيش بقدر ما تسمح به ظروفه. لولا أنها يؤلف الكتب لكانت سيئة الحظ مثلي.

- كم مرة يا أيسيه قلنا إنه لا يجوز أن تقارني نفسك بمن ليس مثلك! أعجيب إن كانت كلودين تسود الأوراق؟ ومن في باريس الآن لا يكتب؟ من حسن حظنا أن جاك العجوز لا يحسن الكتابة، وإلا كان غلب مولير الذي تعترين به.

- ولماذا لا؟ - سرت ابتسامة صفراء رقيقة على شفتي عائشة. - كما أن موليير لي فهو لك أيضاً يا صوفي. إنه ليس مُلك فرنسا وحدها بل مُلك العالم كله. - صمتت بعض الوقت عن حديث موليير، ثم اختتمت بالموضوع الذي بدأت به الحديث: - ومع ذلك يا صوفي سنعامل كلودين معاملة حسنة. وسنهئتها باختتامها الإقامة الإجبارية في أبلون¹.

- نعم، كنا هنأنا ماري - أنجيليك في هذا الشأن. ولكن لو كان الأمر بيدي لنصحتها ألا تدسّ أنفها الجميل في ما لا شأن لها به. ثم تقولين إنها تعيسة الحظ وتشفقين عليها! والحق أنك بالقياس إليها محظوظة. إن لزم الأمر فقد جربت حلاوة الحب ومرارته.

- لو كانت ابنتي تقيم معي لكنت محظوظة...
في الوقت الذي كانت عائشة وصوفي تتحادثان كانت ماري - أنجيليك وكلودين - ألكسندرين تستعلمان عن حالة المريضة التي ستطمئنان عليها وما سيجري لها.

- كفى يا كلودين انتظارنا - فلقت ماري - أنجيليك حين انتهتا من نقاشهما - سنتنظرنا أيسيه المسكينة، سنُذنب بحقها. ولكن، كما قلت لك، أَيْدِي حِينَ أَبْدَأُ بِسِيرَةِ التَّوْبَةِ. وَلَا يَهْمُ أَيْسِيهِ فِي حَضْرَةِ مَنْ سَتَقُومُ بِهَذِهِ الشَّعِيرَةِ مَا دَامَتْ قَرَّرَتْ الْقِيَامَ بِهَا. خَيْرَ لَهَا أَنْ تَقُومَ بِهَا أَمَامَ رَجُلٍ دِينٍ مِنَ الْمَوْلِيِّينَ الَّذِينَ

¹ في الأيام التي كان يعقد فيها اجتماع رؤساء رجال الدين في باريس، لم تقبل السلطات انفراد بعض رجال الدين بالاجتماع في بيت كلودين سرّاً، فحكموا عليها بالإقامة الإجبارية في أبلون عدة أشهر. ولكن عدم اتفاق رجال السلطة أدى إلى اختصار العقوبة إلى شهر واحد. المؤلف.

أنتمي إليهم¹ من أن تقوم بها أمام أحد الجانسينيين². ألسْتُ من ربّاهَا، ومن يقاسمها مصيبتها إلى الآن؟ ألا يجب أن أعرف أسرارها قبل أن تموت؟! - كلامك صحيح. ولكن أيسيه لن تكشفها لك.

- ولماذا؟

- لو كنت مكانها - لا قدّر الله! - ما كشفت أسراري إلا للأب الوحيد الذي أعترف له.

- تباً لك يا كلودين! تقارنين نفسك بمن ستسلم روحها بين اليوم والغد! - هُزئت ماري - أنجيليك أختها الصغرى وسألتها وهي تنظر إليها واجمة: - وهل كنت ستكتمينها عن أختك أيضاً؟

- لا يبقى أخ ولا أخت ولا أم... في هذا الموقف يا ماري. السر والعلن ليس لهما سرٌّ معلّن. لو أننا، أنت وأنا، تكاشفنا قصص حبنا لتقاتل الأحياء. والأموات مثل سلفك الكونت شارل دو فيريول والدوق أورليان كانوا تقلّبوا في نعوشهم.

- سُحقاً! - زفرت ماري - أنجيليك وهي تطبق جفونها. - على رأيك لم يبق حبّ صادق في فرنسا.

¹ نسبة إلى الإسباني لويس دو مولينا (1535 - 1600) طائفة دينية تحاول التوفيق بين

القدرية وحرية الإرادة. المترجم.

² نسبة إلى الأسقف كورنيليوس جانسن، حركة دينية سياسية نشأت في فرنسا خصوصاً كردّ

فعل على الاستبداد الديني والملكي. وتبحث في موضوع النعمة الإلهية والعلاقة بين الإيمان والحياة المسيحية. المترجم.

- ما تكذب به إحدانا على الأخرى يشهد على هذا... تعالي يا ماري -
مدت كلودين - ألكسندرين يدها إلى الباقة التي جلبتها فارتدت يدها عفويًا
كأنها أحرقتها. - وهذه كذبة مؤقتة جئت بها عبثًا؛ لَتَبَقْ في البيت!

- لَتَبَقْ! - وافقت ماري - أنجيليك على مضض، ثم غمغمت: - يجب أن
تعرفني إلى من تُهدى الزهور، ولماذا... إذن يا كلودين ليس من نتوب على
أيديهم جديرين بالثقة تمامًا!

- وهؤلاء يعتبرون أنفسهم مقربين جدًا إلى الله، ولكنهم بشرٌ مثلنا... لست
جاهلة هؤلاء. وأخونا بيير المطران أليس واحدًا منهم؟ في خريف العام الماضي
حين كان رجال الدين هؤلاء مجتمعين في بيتي، حملوني أنا كل المسؤولية، ثم أنت
عارفة بما فعلوه بي واثموني به.

- لا تعدّي بيير بين هؤلاء، لا ذنب له.

- بيير أخونا ولكنه ليس مستقيمًا تمامًا. لا يقوم بأي عمل إلا لنفسه. حين
عرفوا أن هدفهم خائب، وأنهم لن يستطيعوا انتزاع المنصب من الكاردينال
إركيول - أندريه دو فريلي كان بيير من أوائل الذين تنصّلوا من المؤامرة.

- كلودين! - انفجرت ماري - أنجيليك التي كانت تتوقد كالجمر - لا تتقوّلي
مثل هذا على أخيك الذي وصل إلى منصب الكاردينال!

- ولماذا لا أقول هذا على رجل الدين الذي يتصرف بهذه الطريقة؟! - لم
تراجع كلودين - ألكسندرين أمام أختها - من لم يهتم بي لن يهتم بك. لماذا
يكذب على جانيت - نيكول وهو يعرف أنه ممنوع من الزواج؟!

- اسمعي ماذا تقول هذه! - اختتمت ماري وقد ندمت على خروجها من
موضوع مرض عائشة، ثم ألا تعرفان علامَ تتكلمان، بشيء من المزاح البريء
من الخبث: - إن سمع رجال الدين كلامنا فلن يؤنبونا حين موتنا.

- لا تقلقي متى وصل الأمر إلى هنا. لن يدعوك بلا قبر. - مزحت كلودين -
 ألكسندرين مع أختها - إن كان هذا رأيك توقفنا عن اغتيالهم. ولكن لو لم
 يكن عندك مطعم في رجل الدين الذي تحضرينه لما اخترته لتوبة عائشة.
 -حسناً يا ماري حسناً، لا أخسر شيئاً في هذه العملية. في أسوأ الأحوال
 نكتشف سراً من أسرارها...
 - نعم هكذا. الآن فهمت. ولكن إياك بهذه الحجة أن تتوددي إلى عائشة
 الثرثرة... نحن مجبرون، أما أنت فأمامك حياة كاملة.
 - أكانت أيسيه مجبرة أن ترعى أرجنتال يوم أصيب بالجدري؟ جاجمت كلودين
 - ألكسندرين أختها وهي تنهض.
 - صحيح. يا كلودين يا للحسرة! - تبعت ماري - أنجيليك أختها وهي تقول
 - وأنا لا أستطيع إلى الآن أن أنسى. لهذا أحب أيسيه التعيسة الحظ. وأنتِ،
 أيتها الخبيثة الصغيرة، لا تظني أنني أحبك أقل منها.
 لم تكن أيسيه تحب أن تراها كلودين - ألكسندرين في الفراش ولذا نهضت
 متحاملة على نفسها مكابرة مرضها، واستقبلتها جالسة على الكرسي الوثير.
 - أنهضت يا ابنتي؟! - عانقت ماري - أنجيليك عائشة مستغربة ما ترى،
 ناسية ما قالته لأختها بشأن مرض عائشة. ومسحت على جسدها. - ألم أقل
 لك يا كلودين إن أيسيه ستتحسن، وإنما ستنهض أخيراً من المرض؟
 تعانقت كلودين - ألكسندرين وعائشة، وبعدها جلستا متقاربتين، بكتا
 كلتاها.
 - أنا في حال حسنة يا كلودين، سعيدة برؤيتك، اشتقتُ إليك. - قالت
 عائشة بصوت مرتجف.
 - وأنا كنت أود رؤيتك يا أيسيه، ربما تعرفين السبب...

- أعرف يا كلودين. فرحت لما سمعت بإعفائك من العقوبة. ماذا تكتبين في هذه الأيام؟

- لا نعدم موضوعاً نكتب فيه. ستصدر رواية لي موضوعها الحب والإنسانية والدين. ستجدين فيها حين تقرأينها أشياء كثيرة تدعو إلى التأمل في شخصي وفي غيري.

- ومتى ستصدر؟ - لا أظني ألحق بها.

- يا أيسيه، يا أختي الصغيرة - مدت كلودين - ألكسندرين يدها ومسحت على يد عائشة. - لا تيأسي، بالقياس إلى حالك قبل الآن، وقبل إرسالي إلى أبلون، فأنت أحسن بكثير. لونك يعود إلى أصله؛ أليس كذلك يا ماري؟
- نعم، طبعاً. بفضل الله، أحسن بكثير. ومرضها حررها، ووقفت على قدميها.

- شكراً، ولك في هذا فضلٌ يا ماما.

- بديهي أن يكون لي فضلٌ فيه - لم تدعها ماري - أنجيليك تنتظر، مرتاحة لسماعها عائشة تتكلم عليها. - ولكني لست وحدي، صوفي والأطباء كذلك.

- شكراً يا ماما على أنك لم تنسي هؤلاء. - ولكن من جهتي أنا أريد أن أقول لكلودين - ألكسندرين من قلبي إنني راضية عنها. وأنت، مثل ماما، علمتني أموراً كثيرة. وأفهمتني الكثير. فبعد ما قدّمه لي الدير الذي تعلمت فيه التربية والمعرفة، والمعلمون، وجانيت - نيكول، يمكن القول إنني تخرّجت في صالونك الأدبي. وأقول شكراً لفولتير ومونتسكيو وبون دو فيل وأرجنتال. أنا راضية عنك يا كلودين ولو تهاترنا أحياناً لأسباب تعود إلى الغيرة النسائية؛ فلنتسامح بشأنها. وعشنا كأختين في أسرة واحدة رغم اختلافنا في الأفكار.

وعملنا معاً. يا صوفي هاتي لي ذاك الصندوق الصغير. هذا ليس له قيمة كبيرة سوى أنه مطلي بالذهب. ومع ذلك أقدم لك هذه القطعة الصغيرة ذكرى.

- لن أستطيع الرفض يا أيسيه إذا كان هذا رأيك، شكراً. وأنا إذن، بمناسبة تحسُّن وضعك، وليلهيك عن مرضك، أقدم هذه - خلعت كلودين - ألكسندرين أسوارتها الذهبية ووضعتها في راحة عائشة.

- تهاديتما جيداً - قالت ماري - أنجيليك بطريقة لا تعرف أهي تحسدهما أم تغبطهما، وكشفت لهما قليلاً عما في ذهنها: - لا، لا، أهنيكما، أفرح لأجلكما ولا أحسدكما. وأنا كان هذا الصندوق الصغير يعجبني... ولكن حسناً فعلت بإعطائه لكلودين. يكفي أنك أهديتني صورة من الصور التسع التي صورك فيها تذكراً، وكذلك أهديت جولي. وهذه أغلى هدية. سأحتفظ بها في غرفتي ما حييت. وحين أجد نفسي في موقع أورث فيه، أعرف لمن أورثها، ولكن لن أقول الاسم الآن... - اختتمت ماري - أنجيليك كلماها بخاتمة مفاجئة، وواست نفسها "ما فائدة أن أعيد سيرة التوبة لهاتين؟" ووجدت عذراً لأختها: - أجهدنا عائشة، دعيها تستريح لأنها تحسنت. وأنت ما دمت صرت حرة فأمامكما أيام أخرى تتحدان فيها. كنت نسييت أحسن خبر جئت به إليك حين رأيتك جالسة: أمس التقيت بفولتير في المسرح فسأل عن صحتك وأبدى رغبته في زيارتك، لا أقول اليوم أو غداً، ولكنه سيأتي إليك. استرحي يا ابنتي. بإذن الله تجاوزنا مرحلة اليأس. وأحلامي تحدّثني أنك ستشفين.

في أثناء خروج الأختين من الغرفة، وحين أغلقت كلودين - ألكسندرين الباب وهي تودعها بقبلات ترسلها من شفّتها بأصابعها، انفجرت عائشة باكية.

VIII

تحقق لعائشة ما أرادت بشأن التوبة: اختلقت المركيزة دو بارابير ذريعة لماري - أنجيليك الكونتيسة تُخرجها من البيت، وفي هذا اليوم جاءت بواعظ الملك آدم - كريزوستون بورسو¹.

لم تغمض عائشة جفونها طوال الليل. ظلت تنظر من خلال الظلام، ولم يتأخر الموعد الذي تنتظره إلى الفجر. وطوال هذه الساعات مر أمام وجهها الكثير: جبال أرضها التي أجبروها على هجرها، وغاباتها المتعددة الألوان، وسهولها المرقطة. وأمواج البحر الأسود الهادئة، ورماله الناعمة، تظهر لعينها وتختفي. وذكريات العمر القصير الذي عاشته فيها كانت ترهقها هذه الليلة أكثر من أي وقت مضى. وحين تعيد التفكير في السنوات الثلاثين التي عاشتها في فرنسا تغلبها الأحزان أكثر من الأفراح، فتعصر قلبها.

"مهلاً، مهلاً يا عائشة - لامت عائشة نفسها بلُغَتِها الأم لأول مرة لها في فرنسا - ماذا جرى لك؛ لم أعرف أن قلبك هشٌّ إلى هذا الحد. ماذا كانت جدتي تقول "لا أحد يعرف متى يموت كما لا يعرف متى يولد" أعرف أن ما بقي لي قليل ولو أنني لا أعرف يوم مماتي. لماذا أنتظر الواعظ بورسو هذا اليوم؟ أليست هكذا عاتبة على آل فيريول الذين ربّوني حين كنت في وضع صعب، عاتبة على موطن حيي الأول، على الموطن الذي وضعت فيه طفلي، على فرنسا التي انتميت إليها؟ أليست هكذا أتناسى ما قدموه لي كما كانت جدتي

¹ آدم - كريزوستون بورسو واعظ الملك لودفيغ الخامس عشر، وعضو في منظمة

التياتينسيين. المؤلف. وسيأتي الكلام على هذه المنظمة لاحقاً. المترجم.

تقول "الطعام الذي لا يجعلك تشرب الماء لا ينمو معه جسدك" ولكن أسألك هل يمكن لفعل الخير أن يتحول إلى التباب؟ هذا رأي فولتير ومونتسكيو وديدرو، ولكن لا أستطيع موافقتهم، وأؤيدهم في أنه "حتى لو يبست الشجرة لا يجوز نسيان الجذر الحامل لها". وأنا أعد نفسي عشتُ إلى الآن بفضل هذا الجذر. وهل أكون بريئة من الذنوب إن قلت هكذا؟ لا أظن أحداً في الدنيا بريئاً منها. ولما كنت واحداً من هؤلاء فليس عندي ذنب أخجل أن أعترف به أمام واعظ الملك. ماذا تشبه هذه؟ ليست سرّاً على الله وعليّ وعلى أحد. سأعترف لبورسو الذي آمل أن يفهمني بكل ما في قلبي. وحين أمثل أمام الله أتطهر بروحي وبجسمي. وإن استطعت غفرت لكل من أساء إليّ".

نظرت عائشة نحو الشمعتين المضأتين أمام صورة الرب. ومع أنها كانت تتألم فقد ذهبت إليها وجثت على ركبتيها وهي ترسم الصليب. ودعت لنفسها أن يكون نهارها مريحاً، وأن لا تخطئ مع واعظ الملك في ما تخطط له، ولا تنسى سرها وعلنها، ويحقق ما تخاف منه دائماً: أن تعود بسهولة بريئة من الخطيئة.

حين دخلت الكونتيسة ماري - أنجيليك إلى الغرفة في كامل أناقتها مع الدكتور لاروش فهمت عائشة أنهما ذاهبان إلى حديقة الغزلان.

- لو استطعت أن أصحبك إلى المستراح الذي أذهب إليه ماكنت أفضل عليه شيئاً. - قالت ماري - أنجيليك وسألتها: - كيف حالك يا ابنتي؟ أربعتنا في الأسبوع الماضي. أما البارحة واليوم فلا بأس، رجع وجهك إلى لونه. أليس حقاً يا لاروش؟ استريحي. أكّدت على صوفي أن تهتم بكل ما تحتاجينه. وتناولي أدوية لاروش. نحن لن نغيب طويلاً. لولا أن المركيزة دو بارابير ألحّت علي فأنا سريعة العطب أيضاً ما كنت ذهبت إلى مكان.

- اليوم يوم جميل يا ماما. - قالت عائشة في إثرها مرتاحة لخروج الكونتيسة من البيت. - لا تقلقي، وارتاحي، وتجنبي الركوب في العجلة الكبيرة كي لا تدوخي. ولكن سلمني لي عليها.

في الموعد المتفق عليه أدخلت المركيزة دو ديفان واعظ الملك آدم - كريزوستوم بورسو إلى غرفة عائشة. وعائشة التي كانت مستعدة للقاء قبلت يد الأب مع إيماءة احترام، ودعته إلى الكرسي الوثير.

حين كان بورسو الرجل الأشقر ذو العينين الواسعتين الذي تجاوز الستين يضع الإنجيل والصليب الفضي على الطاولة التي سيجري عليها الاعتراف تبادلت دو ديفان وصوفي النظرات وخرجتا من الغرفة. وحين بقيت عائشة وحيدة خطف لونها حزنٌ غزا الجسم الذي بقي مجرد هيكل عظمي. ولكن نظرات رجل الدين الهادئة التي تمنحها الراحة والثقة أعادتها إلى وعيها:

- دعوتي إليك يا ابنتي وأنت تعرفين أنك في عداد الكاتوليك المؤمنين بالله. ارتاحي، وليكن في نفسك حبُّ الله الذي تتوكلين عليه. واطمئني إليه. إنه وكيل الجميع. يكافئ المحسن، ويعاقب المسيء. ويدين الكاذب. لا حدود لفضل الله ورحمته. وأنت وأنا من عباده ومن أمته. فإن اعتبرتي اليوم رسوله، وكنت جاهزة يا ابنتي فأنا جاهز للإصغاء إليك ومساعدتك.

- نعم يا أبانا، جاهزة.

- إذن يا ابنتي قبل الاعتراف حيِّي الإنجيل والصليب.

قالت عائشة بصوت خفيض وهي تقبل الإنجيل والصليب كلاً على حدة، وتمس بهما جبينها:

- جاهزة يا أبانا.

- باسم الله أسمعك يا ابنتي.

- لا أعرف بِمَ أبدأ يا أبانا.

- ابدئي بأول ذنبٍ اقترفته يا ابنتي.

كما احمر وجه عائشة التي وقعت في الضيق عاد وشحب من جديد. وحين بدأت تنقض أصابعها النحيفة بين كففيها نصحتها الواعظ بورسو:

- ما يعرفه الله الذي يعرف كل شيء ولا تستطيعين قوله خيرٌ لك أن تكشفني عنه من أن تُبقيه في قلبك يُفنيك.

- المكان الذي حدث فيه هذا ليس هنا يا أبانا. ليس فرنسا، بل هناك في بلادَي البعيدة شكريسيا.

- ما تسمينها "بلاد الشركس البعيدة" أما تزالين تعتبرينها بلادك؟

- لأن جذري هناك ولو أن أهلي ماتوا. يعيش أبناء قومي فيها. أقول هذا يا أبانا لأنها لا تزال في قلبي.

- لأنك لا تكتمين ما في قلبك، وهو يؤلمك يا ابنتي ندعو الله، وهو يفهمك، ولن يقول لك الله "انسِي قومك لأنك اهتديتِ إلى الدين الكاثوليكي" - توقف بورسو قليلاً عن الكلام، ثم سأل عائشة: - أنسييت لغتك الشركسية أم أنسوك إياها؟

- تعلمت لغة فرنسا التي وصلت إليها صغيرة برضاي أو بدونها. الدين الذي أُكْرِهت في ليون على اعتناقه تقبّلته من نفسي فيما بعد. ولكني أتذكر أحياناً دين جدتي المرحومة. حين أفرع أقول بلغتي الأم "يا لله" وأدعو بها لنفسي.

- هذا - وجود دينين في قلبك - أعتبرينه ذنباً بحق دينك الكاثوليكي؟

- أعتبره يا أبانا.

- خالق الكون وقيومها والمتصرف فيها إله واحد. لا إله إلا الله. - حسم الواعظ بورسو الموضوع بصوت خفيض. ثم أضاف: - إن كنت تؤمنين بالإله

الواحد للكون فلن يدعك تخطئي. ومرة أخرى إن كان هناك همّ يُفنيك لا

تستطيعين البوح به فأخبريني، أسمعك يا ابنتي!

- عندي، غير أنه ليس سرّاً عليّ ولا عليك ولا على أي إنسان. تكلمت عليه
باريس كلها. وإلى الآن لا ينتهون منه.

- لا تُعْدي كل ما يتناقله الناس ولم يحدث حقيقة لك، أو فعلته بنفسك،
حقاً! لا يقبل الله الافتراء، يحاسبه يوم القيامة.

- ما سأقوله لك يا أبانا فيه الصدق وفيه الكذب. ولكن لأنهم يقولون:
الصدق كذب والكذب صدق لا أعرف لماذا يدينني الناس.

- الصدق والكذب يتعايشان في الدنيا الفانية. أسمعك يا ابنتي.

- حقيقة أن شارل دو فيريول اشتراكي من سوق النخاسة، وأنه صار لي أباً،
واشتهاءه لي كزوجة، ومحاولته إجباري على ذلك، كله صحيح. وأنا واثقة لو أن
رأسه كان سليماً لما حاول. ولكن الناس تناقلوا أنني ولدت طفلاً لبابا. وهذا
غير صحيح. وسأروي لك حقيقة ما جرى لي بسبب بابا المريض حين قال لي
"سأكون أنا زوجك، وإن لم تقبلي فسأجعلهم يأتون بك الليلة إلى فراشي"
وهدد شرقي الأنثوي، ارتكبنا دون زواج، أنا وبلير - ماري دو إيدي شفالبيه
الفاحشة التي يعرفها كل الناس.

- هل كنت تعرفين أن شفالبيه ليس له الحق في الزواج؟

- كنت أعرف، غير أنه خيل إليّ في ذلك الوقت أن لا مخرج لي سواه.

- لا يضع الله الإنسان في مأزق لا مخرج منه. استعجلت جداً يا ابنتي.

- غلبني صغر سني وهشاشتي الأنثوية يا أبانا.

- حميت نفسك من جهة، واقترفت ذنباً من جهة أخرى.

- أعتبر توريط دو إيدي شفالييه الرجل النظيف في الخطيئة وتوريط نفسي ذني أنا.

- لا تحملي نفسك ذنبكما أنتما الاثنين يا ابنتي. الله يعلم كل شيء ويرى. أدعوا إليه يتفهّمكم. وكيف تصرف معك من كان السبب في ارتكابك الخطيئة؟

- توفي بابا ناسياً ما قال، وما همّ بفعله. وأنا لن أنسى فضله عليّ أبداً. سأصلي من أجله في القليل المتبقي من عمري. وأنا أحمل نفسي ذنبه. لا يدعنا الله ننسى أن كل إنسان مسؤول عن ذنوبه، وعليه دفع ثمنها. أسمعك يا ابنتي.

- أعرف أن الله لن يقبل مني أن أدع ابنتي الوحيدة تعيش وحدها، وتربّي في بيت غريب، وأعرف أنه سيحاسبني. ولكن أصليّ إليه أن يجعل ابنتي التعيّسة سعيدة، وأتحمل أنا الذنب كله.

- وهل تعرف ابنتك أنك أمها؟

- لا، تنهدت عائشة - تناديني "تانت" لأني أفهمتها أني خالتها.

- ولماذا؟

- لم نصارحها أنا ووالدها خوفاً من أن نتسبب في إيذاء دو إيدي شفالييه. حتى إن أباهما لم يرها إلى الآن.

- هذا ذنبكما كليهما. ولكن ذنب بليز - ماري دو إيدي شفالييه أكبر.

- لا يا أبانا، افهمني. وارحمني. شفالييه لا ذنب له البتة. الذنب كله ذني.

- هذا من شأن الله، لا من شأننا.

- لا أعرف شيئاً آخر أقوله لك يا أبانا. رويت لك ما يُهمّني ويُفني. لا

أعرف إن كانت ذنوباً غير أن عندي عيوباً لا أستطيع التخلص منها. مهما

حاولت أن أكون هادئة ولا أسيء إلى أحد غلبتني حميتي أحياناً. وجعلتني أقول وأفعل ما لا يليق.

– أتندمين على ما تفعلين؟

– لا أبذل رأيي إذا كنت على حق، ولكن أراجع إن كنت مخطئة. وأعتذر ممن أسأت إليه. حين يشرع الذين لا تعجبهم حمايتي لشرفي يسخرون مني أتألم، ويحدث كثيراً أن أهتatr معهم.

– هذه عادات ومسالك حسنة يا ابنتي، ما أزال أسمعك.

– هذا ماكنت أريد أن أقوله يا أبانا. سادعو ربنا ليلاً ونهاراً أن يغفر لي ذنوبي ما دمْتُ فتحت لك قلبي. أريد أن أمثل أمامه طاهرة.

– تقبّل الله دعاءك يا ابنتي. وليخفف الله عنك مرضك. إنه رحيم علام. –

آدم – كريزوستون بولاسو قدم الصليب لعائشة كي تقبله. ثم الإنجيل. ثم رسم هو أيضاً الصليب ومناها: – بما أنك يا ابنتي عرّفتني إنسانيتك النقية ومآسيك سأصلي أنا أيضاً من أجل أن يخفف عنك ذنوبك. ليكون الله في قلبك دائماً ولتصلّي إليه. يقول لي قلبي إنه سيتفهمك وسيُحسن إليك. الله رحيم. قال لنا "كل ما في الدنيا لي".

حين خرج آدم – كريزوستوم بورسو من الغرفة نهضت شارلوت – إليزابيت آيسيه وقد غدت خفيفة بقلبها وبجسدها وجثت على ركبتها أمام صورة الرب. وظلت تدعو إلى الله دون أن تلاحظ دخول دو ديفان وصوفي إلى الغرفة، وخصرها النحيل وقامتها الرشيقة يُنسيانك أنها مريضة.

IX

حين اعترفت عائشة بكل ذنوبها لواعظ الملك بورسو نهضت من الفراش غير مصدّقة نفسها، شاعرةً بالخفة مع أن حالها تشبه من يُقال فيها "الأمل الكاذب خداع للنفس": تتمشى في أرض الغرفة دون أن تقترب من المرأة. وفي الصباح وفي المساء تقف وراء النافذة فتحيي شجرة البطم الكبيرة التي شرعت أوراقها تفتتح. وتدعو الله أن تُعمر مزيداً من الوقت. وحين تجلس على الأريكة تمسك بالكتاب لتنسى أفكارها المشتتة. وتفضّل أن تتصفح كتابات فولتير وموليير على نحو خاص. وتمر أمام عينيها مجريات حياتها. ويعود إلى مخيلتها ببيير وجانيت - نيكول وهما ينزهانها في حديقة الغزلان، ويدوران بها في العجلة الكبيرة. وكيف سألتهما عن المكان الذي يعيش فيه الأديعة. وتعود إلى أذنها صرختها في هذا الاتجاه لتُعلم أهلها وتُسمعهم أنها ما زالت حية... وكيف كانت تلتقط الحصى الملونة من شاطئ البحر الأسود... وكابوس قطاع الطرق... وسوق النخاسة في إستانبول... ومارسيليا وباريس وسان - كول، وفيرساي، وتريانون، وأمسيات الملكين لودفيغ الرابع عشر والخامس عشر... وتعرفها إلى دو إيدي شفالييه... وباليه رويال... وأورليان... وأبلون... وجنيف... وسانس...

متى جرت هذه الأحداث؟ تتذكرها كأنها اليوم ولو مضت عليها سنوات. من أين لها أن تنسى كيف عبروا بها البحر الأسود سيّبة، وباعوها في سوق النخاسة بإستانبول إلى فرنسا. وكيف ستغفر لنفسها ذنب الفتاة التي لم تستطع مصارحتها بأنها ابنتها، والتي هي في عمر اختطافها من بلادها.

قفز إلى ذهنها، حين خرجت من أفكارها الكابوسية كيف أن ماري - أنجيليك تجاهلت قدوم واعظ الملك بورسو، غير أنها نصحت نفسها بسرعة: "ربما لم تكن تريد أن تجرح قلبي. أو لا تعرف الموضوع الذي أخفيته".

- إن لم تكن ماري - أنجيليك الكونتيسة غضبت حين عرفت ما أخفيت عنها فهذا أمر حسن يا صوفي. وسيغفر الله لي لأني أعدّ نفسي على حق في إخفائه. ولأني راضية عن أمني إذ أن معروفها معي أكثر من إساءاتها لي. سأدعو لها الله أن يغفر لها وينظر إليها بعين الرحمة. ولكني لست راضية عنك بشأن باقي لأنك لا تخبريني عن سرّ اختفائه - مسحت عائشة الدموع التي تسارعت إلى عينيها. - ربما كان الله قدّر هذا أيضاً... لو وقع باقي بأيدي أناس طيبين مثل آل بولينغبروك الذين يرثون سيلين لارتاح بالي. لا يا صوفي لا تظني أنني أقارن ابنتي بالكلب. هذه وعدني دو إيدي أن يسترجعها من آل بولينغبروك. لو تحقق هذا في حياتي لمتّ قرية العين.

- لا أحد يفلت من الموت يا أيسيه. فلا تستعجليه - واست صوفي عائشة مع أنها تعرف أن لا أمل في شفائها - وهذا الأسبوع، وبحمد الله، وقفت على رجلك. وفي الصباح أفطرت فسررتني. سترين حين يعودون إليك بسيلين إن لم تنادك "ماما" بدلاً من "تانت"، وتنادي شفالبيه "بابا" فتنسي متاعبك.

- بارك الله في فمك الذي يخرج منه هذا الكلام يا صوفي! بدا من عيني عائشة اللتين تنطفئان، وخديها الشاحبين رضاها بما سمعت. - لو حدث هذا يا صوفي...

- سيحدث يا أيسيه، قلبي ينبئني. دعيني أرتب شعرك. ربما يأتيك اليوم فولتير الذي يناديك "الملاك الأديغة". - لم تدع صوفي نفسها تنسى ما قيل لها بشأن ضياع باقي: - عاتبتني عبثاً في موضوع باقي يا أيسيه. هذا خرج مساء

أمس من الدار وانقطعت أخباره. والخدم ما يزالون يبحثون عنه. ومشطوا القرية كلها، وسألوا الصبيان، وزاروا سوق الكلاب. ومع ذلك لا تقطعي الأمل، سيعود من نفسه أو يجده الباحثون عنه.

ما سمعته عائشة جعلها ترسم شبه ابتسامة على شفتيها:

- الأمل كبير. والنية غالية، والفرح أغلى وأغلى. ولكن جدي كانت تقول إذا ضاع كلب المريض من داره فهذا نذير شؤم ، ولهذا لم أكنم أنه علامة يأس... أرجوك أن تنفذي ما أوصيتك به في شأن باقي.

- عفواً يا أيسيه - تظاهرت صوفي أنها لم تسمع ما قيل لها في موضوع الكلب، وقدمت المرأة الصغيرة لعائشة لترى نفسها - انظري كم تناسبك تسريحة شعرك! وإذا غطيت كتفيك بهذا الشال المخزّم، وتحلّيت بمجوهراتك، فستشرئبُ إليك عيون رواد أمسية الملك!

- أبعديها عني يا صوفي، كما يقول فولتير في إحدى مسرحياته "وليمة في زمن الطاعون" - قالت عائشة باستخفاف لصوفي، ثم نظرت إليها بعين الأمل. وفي هذه اللحظة لفتت نظرها الأصوات الصادرة من جهة الممر. ومن هذا الممر خرجت جانيت - نيكول وماري - أنجيليك. وعلى عادة الكونتيسة الدائمة امتدحت دون رياء أو خبث:

- أما قلت لك يا جانيت - نيكول، وترين بنفسك، عائشة تتحسن؟ لأجل هذا أقول إن كل إنسان يفيدته أن يعترف أمام الكاهن مرة في السنة. لا يجوز لأحد أن يُفني نفسه من أجل ذنوبه. لو عرفْتُ يا ابنتي أن آدم - كريزوستوم رجل الدين الكبير سيأتي إليك لما خرجت من البيت في ذلك اليوم. ولاعترفت له بذنوبي الصغيرة المتفرقة، وطلبت منه الموعدة.

حين عانقت جانيت - نيكول عائشة قالت لها، وهي تمسح على كتفها،
كابتةً ألمها:

- أنت جميلة اليوم يا أيسيه كما في كل وقت. أصلي إلى الله من أجل أن تعود
إليك صحتك. صادفت أمس في الكنيسة آدم - كريزوستوم فامتدحك.
وحملني سلامه. وأبلغني أنه يصلي من أجلك.

- شكراً يا جانيت - نيكول. يخيل إلي أنني تحسنت بعد الاعتراف. قلبي،
وأطرافي خفيفة. وتوقفت عن السعال.

- طبعي ألا تسعلي، وأن تتحسني - لم تحرم ماري - أنجيليك نفسها من
المشاركة في ما سمعت. - فهم بورسو الرجل الحكيم أن عائشة امرأة صادقة
طيبة فامتدحها. وإلا ما كان واعظُ الملك! هذا رجل تعرفه فرنسا بأسرها،
ومحبوب في جنيف. ولكن هذا الرجل العظيم، ولو امتدحه الكاردينال أندريه
دو فليري، لن أكتف عتي الوحيد عليه: لو كان بين الجانسينيين ولم يكن في
"التياتينيين"¹ لكنت راضية عنه أكثر. أكنت أدعُ أيسيه للمرض لو جرى كل
شيء في الدنيا كما أريد؟ ما العمل، ليس من شأننا تفسير الأحكام الإلهية.
اجلسا أنتما إذن وتكلما؛ لاشك أن عندكما كثيراً مما تتكلمان عليه. وأنت يا
صوفي تستريحين قليلاً. وسنفكر معاً في ما سيجهز لنا طباخونا لأجل العشاء.
أتعرفن فيمَ رجائي أمس أوغستين - أنطوان، زوجي المسكين؟ يشتهي كوسا
مسلوقة مرشوشاً عليها السكر.

¹ مرّ التعريف بالجانسينية، أما التيتانية فنسبة إلى التيتان أنصاف الآلهة في الأسطورة اليونانية
المشهورين بالقوة الخارقة. حركة ضد التقاليد السائدة والسلطة المجتمعية. المترجم.

حين خرجت ماري - أنجيليك وصوفي من الغرفة جلست جانيت - نيكول وعائشة بعض الوقت تتأمل إحداها الأخرى بعيون دامعة.

- لا تيا سي يا أيسيه، ضعي أملك في الله لأنه المهيمن على الجميع. نصحت جانيت نيكول عائشة - سيفهمك مادمت فتحت له قلبك.

ابتسمت عائشة كما لم يحدث في الأشهر الماضية بعينين مضئتين وخدين متوردين:

- شكراً يا عزيزتي. لا أريد أن أخدع نفسي بالآمال الكاذبة. ولكن الدموع التي تربتها في عيني ليست من اليأس، بل دموع فرحي برويتك. أريد أن أشكر اليوم شكراً خاصاً مختلفاً عن شكر الأعوام والأيام السابقة.

- ماذا يا أيسيه؟ - قاطعت جانيت - نيكول كلام عائشة وقد تصورتها وصية: - لماذا تركزين على "شكراً" كأني لم أدرس غيرك في سان - كول؟

- لا يا جانيت - نيكول. - استعجلت عائشة - ليس من أجل تعليمك لي فقط بل أيضاً لأنك لم تُنسني قومي الشراكسة.

- هذا ما تقصدينه؟ - ابتسمت جانيت - نيكول ومزحت: - كنت أحاول ألا تذوي بين الفرنسيين الذين جاؤوا بك إليهم. ولم تخجليني. أنا راضية عنك في فرنسيتك وشركسيتك.

- ولكني كان يُحِيل إليّ أي أعيش حائرة بين الانتماءين، لا من هنا، ولا من هناك. وربما كان هذا هو السبب في ما جرى لي. ولكن، كما تقولين، لا داعي لليأس. كل شيء سيتحسن. دو إيدي المسكين لا همَّ له غيري وغير سيلين.

- سألت عائشة جانيت نيكول وهي تحتتم شؤوها: - أملكُكم من مشكلاتي التي لا نهاية لها. سمعت أنه حدثت بعض المشكلات الصغيرة بينك وبين بير، ما وضعكما يا جانيت - نيكول؟

- صحيح يا أيسيه، حين كنا كلانا عاملين عاديين في الدين كانت أمورنا جيدة، ولكن حين صار بيير مطراناً، وأنت تعرفين، كنا نكتم حبننا. ولماذا نجني على أنفسنا بما لا يرضاه الله؟! وهنا أنهينا قصتنا. لا تلومي بيير، وأنا أعرف ذنبي - ولأن جانيت - نيكول لم تكن تريد المزيد من الحديث في موضوع حبهما سألت عائشة عما لاحظته في أثناء جلوسها: - أنتنظرين شيئاً يا أيسيه أم يصعب عليك الجلوس؟ إن كنت تعبت فلا تحجلي مني، سأضعك أو أضع الوسادة وراء ظهرك. وإذا حان موعد دوائك أعطيتك إياه.

- شكراً يا جانيت - نيكول، لم يمض وقت طويل على جلوسي، ولست متعبة. - نظرت عائشة إلى معلمتها، كما دائماً، بعين مرتاحة، وكشفت مستغربة ملاحظتها ما كانت تنتظره. - كما انتظرتك اليوم يا عزيزتي، أنتظر شخصين - واختتمت بابتسامة لا تخلو من التصنع: - والاثنان رجلان.

- لم أعد أعرفك يا أيسيه! - مازحت جانيت - نيكول عائشة.

- إن كان هذا رأيك أخبرتك باسميهما: فولتير ودو إيدي. تعرفين العلاقة بيني وبين فولتير، وهو معلمي كما أنت. وأنا مهمومة بالخبر الذي ننتظره كلانا والذي سيحمله إلينا.

- الآن فهمت يا أيسيه لماذا تأنق - مزحت معها مرة أخرى وهي تحاول بثّ الأمل في نفسها.

- وليس هذا وحده. لم أكن أريد أن يراني فرانسوا ماري أروا فولتير المفكر الكبير وأنا في الفراش. - ما كادت عائشة تنهي كلامها حتى جعلها صوت العربة الصادر من جهة الدار ترفع رأسها. أصلحت ناسية مرضها قبة قميصها وشعرها: - عربة من منهما يا تُرى؟ ليست عربة دو إيدي شفالييه.

قالت جانيت نيكول من على النافذة:

- لا يخرج منها شخص واحد فحسب... بون دو فيل وفولتير ودو إيدي،
ومعهما شاب لا أعرفه.

دعت ماري - أنجيليك تطير من الفرع ناسية أن في البيت مريضة، الرجال
الأربعة. وخرج من بينهم فولتير، وقرأ القصيدة التي كتبها لأيسيه:

لتكن في دمك النار المتوقدة،

وليذّب جليدك في الصدر،

ولتبق نار روحي في قلبي،

ولتغلبك دفؤها!

حين انتهى فولتير من قراءة القصيدة، وصفقوا له، مدّ الورقة التي كتبت عليها
إلى عائشة وقال فخوراً بها:

- يا أيسيه، شارلوت - إليزابيت أيسيه، يا ملاكي الشركسية، أنت جميلة في
كل زمان. وحلوة الطباع. ولكن ما أعزّه أكثر من أي شيء آخر، في غمرة
تحيتي، هو حكمتك الأنثوية، واحترامك لنفسك. أعطيك قصيدتي المكتوبة. لا
تمرضي! نحن بحاجة إليك. ولسنا وحدنا بل الفن الذي تعرفينه يقول لي قلبي إنه
بحاجة إليك. سأعرفك على الرجل الذي لا تعرفينه من بين رفاقي: ديني لانغير
ديدرو الذي نتوقع منه أن يكون فيلسوف المستقبل. - خرج ديدرو الذي لم
يتجاوز الحادية والعشرين من بين رفاقه خطوة إلى الأمام، وحيا عائشة وجانيت
- نيكول، ثم تراجع. وأكمل فولتير كلامه: - الآن نهنئكما: شارلوت إليزابيت
أيسيه دو فيريول الكونتيسة وبلير - ماري دو إيدي شفالييه: وقّع الملك لودفيغ
الخامس عشر على الأمر الملكي القاضي بتسجيل ابنتكما سيلين على
اسميكما؛ أريهم يا دو إيدي الأمر!

حين سمعت عائشة الخبر الذي كانت تنتظره، ورأت الوثيقة التي تشهد عليه،
تفجر فرحها - حزنها. ووافقتها ماري - أنجيليك. وذرفت جانيت - نيكول
دموع الفرح. و كان بون دو فيل هو من يهدئ النساء:

- يا ماما، ويا جانيت - نيكول كان الأفضل أن تهدئا أيسيه من أن تبكيا.
فرنسوا فولتير هو من حلّ هذه المعضلة كلها. وأقنع الملك. ولم يكن بليز -
ماري دو إيدي شفالبيه بعيداً عن الموضوع. وأنت يا شارلوت - إليزابيت
أيسيه لا يجهلك الملك. وقد أثبتت أختي وصهري أنه لا شيء أقوى من الحب
في عادات وتقاليد فرنسانا. ويستحق الحب النقي بين هذين أن تكتب عنهما
مسرحية وكتاباً و أوبرا.

- إن كان هذا رأيكم - قفزت الكونتيسة ماري - أنجيليك - لن نترك فرحتنا
صامتة. وسنُفرح الكونت أوغستين - أنطوان، نحن جاهزون وسنستدعيكم بعد
قليل.

- حسناً يا ماما، لن نحرم أنفسنا من فرحتنا. - وعدت عائشة الكونتيسة
بعدما نظرت إلى جانيت - نيكول بطرف عيناها. وقالت لفولتير: - شكراً لك
يا فولتير، لن ننسى معروفك أبداً. - ومع أن عائشة كانت فرحة بلمّ شمل
أسرتها فقد تنهدت عارفة أن فرحتها لن تطول. - أخشى أن تكون متابعتك
لموضوعنا أثرت على كتاباتك.

- لا يا أيسيه. لم يؤثر في شيء؛ فبعد مسرحية "بروت" التي تعرفيناها كتبت
مسرحية جديدة اسمها "زايرا"، والآن أعمل في "موت القيصر" وأكاد أنتهي
منها. ولذا يا أختي الصغيرة حين يتم إخراجها على المسرح ستشاهدنها.
وامدحيني إن أردتِ أو ذميني فسأسمع ملاحظاتك عليهما. أنت لا تعرفين

نفسك يا أيستي العزيزة، ستصبحين ناقدة مسرحية ممتازة؛ أليس كذلك يا بون
دو فيل؟

X

"نجا من المصيبة لتأخذه الفرحة" ربما جاء هذا القول المأثور من إنسان تعيس الحظ مثل عائشة. - الخبر الذي انتظرتة من أجل ابنتها والذي صار دواء لضيق تنفسها وسعالها، رجع في اليوم التالي نوبةً حادة. وفهمت عائشة أنها لن تنجو هذه المرة: لا تتذكر أين سمعت أن المريض الخطير يتحسن فُبَيل الموت، غير أنه لا يغيب عن ذهنها أمس واليوم. ولم تجعل أحداً حولها يحس بمشاعرها. وفي الوقت القصير الذي وقفته على قدميها أعادت ترتيب ملابسها.

- الملابس التي أشرت لك إليها من بين ملابسي أعطيتها لك يا صوفي. تصرفي فيها كما تريد؛ البسيها إن شئت دون أن تخبري أحداً أنها كانت لي. أو بيعها، - قالت عائشة وهي تقرأ في الكتاب.

- ماذا تقولين يا أيسيه؟! - خارت قدما صوفي فجلست وبكت - لا تتوقعي هذه الأمور السيئة لنفسك ولو كرمي لسيلين.

- نعم يا صوفي، نعم. - عانقت عائشة صوفي دون أن تُبدي على نفسها ضعفاً رغم أنها كانت تنفَس بصعوبة. وأكملت بعد استراحة: - تفهَّم الله سبب خطيئتي فأعاد لي ابنتي الصغيرة. وعوضني عن معاناتي. الآن أعدُّ نفسي محظوظة. ولكن هذه آخر فرحة في حياتي. تبقى البارحة يوم أمس، واليوم هو اليوم، ولكن لا يمكن تغيير شيء. ما الفائدة من أن أرتوي بكاء بعد أن حدث ما حدث؟ قلبي يحدثني أن نهايتي هي اليوم أو غداً، وأنت لست بعيدة عن هذا التوقع. أتوسل إليك أن تساندي صلابتي وإنساني، وتودِّعيني بهما إلى حيث أرحل. وهذه الكتب المتعلقة بالشراسة بدأت معي جانيت - نيكول وأنا صبية في مدرسة دير سان - كول فحملتني على قراءتها. وقد شكرتها، وما أزال أشكرها؛ أرجو منك إبصارها إلى ابنتي سيلين. وأوصلي إليها الزيّ الذي خاطته

لي جانيت - نيكول في حفل استقبال زوجة الملك لودفيغ الرابع عشر في سان - كول، والقبعة التي سُبِثَتْ فيها، والنطاق الذي أعاده إليّ فخري. وألحقي بها مِقْصِي وكُشْتُبَانِي والإبرة.

- وهذه، وغيرها أنا مستعدة لها يا أيسيه - قالت صوفي وشفتاها الصغيرتان ترتجفان - ولكن لا تفكري في هذه الأمور، ها أنت سترين سيلين في يوم كهذا اليوم، وقد عادوا بها من إنجلترا لتفرحي بها، وتجدي سعادتك معها.

- وأنا أتمنى هذا يا صوفي... - قالت عائشة، واختتمت بصوت منكسر: - لا أتذكر أنه تحقق لي مما أتمنى في هذه الدنيا إلا حيي الوحيد... وأنت تعرفين أنني لم أهنأ بهذا الحب. ماذا كنت آمل، العالم الذي عشت فيه والذي دُمِرت فيه حياتي كان عالماً لا يحمي شرف المرأة. ولكني لا أندم على احتفاظي بجينيني. صحيح أنها وضعتني في موقع مخزٍ فأنا أختار دَنَساً وحيداً أعيش به على أن تكون الحياة كلها دنساً... - هاجمت نوبة السعال عائشة فقطعت كلامها. ولكنها تخلصت من ضيق التنفس حين تناولت دواءها. وأكملت وهي تضع من يدها المندبل الصغير الذي تلَوّن بِلَوْنِ الدَّم: - هذه حالي يا صوفي وأنتِ تعدينني أن أرى سيلين التي تقيم في إنجلترا البعيدة...

- أما قال لك دو إيدي شفالبيه إنه ما إن يعود اليوم من سانس حتى يغادر إلى إنجلترا؟!

- هذا غداً، واليوم هو اليوم يا صوفي - ارتسمت ابتسامة على شفتي عائشة ولو أنها تعرف ما قيل لها - كان من المقرر أن يأتي إيدي إليّ قبل أن يسافر لتتكلّم في موضوعاتنا أكثر. والآن لأنّي مدين بجواب لما كتبتّه إليّ المريضة جولي كالاندرين، لا أعرف إن كنت أستطيع، سأحاول الكتابة:

"اليوم لا أستطيع مكالمتك طويلاً يا جولي العزيزة. - بدأت عائشة كتابتها - ولكنني متلهفة على أن أكتب إليك ما أحب أن تعرفيه أكثر من أي شيء آخر. فبفضل الله ارتاحت نفسي لأنني حققت ما كنت كُتبت إليك. وواجبي الآن أن أعيش القليل الباقي من حياتي وأنا أكفر عن ذنوبي. وقد مضت ثمانية أيام على اعترافي بها أمام بورسو واعظ الملك. وقد أراح هذا الاعتراف قلبي، ولو احتفظت بأسراري لرحلت إلى العالم الآخر تعيسة وهي تعصف بي ساعة رحيلي. والسبب أني الآن في الفراش خائرة القوى جداً.

صوفي المسكينة تحرص علي وترعاني. وحين أرى لهفتها علي أحاول أن أتخسّن؛ سواء استطعت أم لم أستطع. سيطر الحزن الشديد عليها. سيرعاها بعد وفاتي أصدقائي لأنهم يحبونها جداً. وبغضّ النظر عن كل هذا يُريحي أني سأترك لها ما يكفيها لقمة عيشها.

لا ضرورة أن أضيف شيئاً في ما يتعلق بشغالييه. من الصعب أن تجدي إنساناً في قوة حبه وصدقه ونقائه، وفي جمال إنسانيته. وبالنسبة إلى الصبيّة، فكما قلت لك قبيل أيام، لم أعد قلقة عليها فلها من يرعاها ويتابع شؤونها ويحبها. وداعاً يا حبيبتي. لن يبقى عندي مزيدٌ من القوة أكتب بها. ما عشته كان عبثاً حقيقياً. لم أجد في حياتي ما يجلب لي فرحاً حقيقياً ولو غمضة عين. عشت حياتي منذ أن فتحت عيني على الدنيا في الأفكار والهواجس. وبدأت أعني أخطائي من ذلك الوقت. ولما كنت واثقة أن الله سيشملني برحمته فإن كان سيأتيني حظٌ من الدقيقة التي أفارق فيها الجسد الفاني، فلماذا أخاف صعود روحي؟ ليمدّ الله في عمرك أنتِ يا جولي الغالية، هذه آخر كتابة لي!"

حين انتهت عائشة الجالسة في سريرها تسندها وسادتها، جلست بعض الوقت ساهمةً. ثم اضطجعت واستدارت نحو الجدار، ثم بدأت بعينين مغمضتين تعيد

التفكير في ما ستكون عليه حال ابنتها وعيشتها: "لا، لا، أنا لن أشهد هذا... المواعيد التي كنت أنتظرها بالأيام في الماضي تحولت إلى الساعات. لن يُجيبها إيدي، وهي ابنتنا الوحيدة حين يستعيدها، إلى شيء بعدما عذبناها كل هذا العذاب. ولكن كيف أفارق الدنيا قبل أن أعرفها أي أمها؟ طبيعي أن يعرفها والدها ولكن إن لم أفعل هذا بنفسني فلست إنساناً، وأستحق كل هذه المعاناة" - جلست عائشة من جديد في الفراش وقد استمدت قوة من غضبها، وبدأت تكتب الرسالة التي ستتركها لابنتها: "يا روحي، يا سيلين الوحيدة التي كسبتها في حياتي القصيرة. من تكتب لك هذه الرسالة هي من كنت تنادينا "تانت"، ولكي لست خالتك بل أمك الحقيقية. اسمي شارلوت - إيلزابيث أيسيه. وأصلي من شراكسة القفقاس. سيروي لك والدك بليز - ماريو إيدي شفالبيه ما جرى لي في حياتي. أنا أحب والدك، إنه أحد رجال فرنسا التي صرْتُ منها. وهو يحبك. اطمئني إليه واستمدي منه الثقة. واحترميهِ. ولا أشك في أنه سيقابلك بالمثل. من الممكن ألا أعيش إلى أن تصلك رسالتي ولذا أدعو إلى الله أن تعيش أنت ووالدك في سعادة. وداعاً أيتها الصبية التي حرمتها من حلاوة الأم. ليصلك دفتي مع قبلي التي سيوصلها إليك والدك باسمي. وأنا بقيت أحتفظ بالقبلة وفي قلبي أفارق دنيائي العارية كما كانت تقول جدتي. إن استطعت فاغفري لي ذنبي نحوك. أمك شارلوت - إيلزابيث أيسيه. وبالشركسية: آيشت. في السادس والعشرين من آذار عام 1733 باريس"

في الظهيرة ساءت حالة عائشة: بدأت، خلافاً للأيام الماضية، تبصق دماً مع كل سعلة، حتى هُرع إليها كل من في البيت وفي الدار.

- لا تبكوا يا ماما! - توسلت إليهم عائشة في غفلة من سعالها، مخصصة ماري - أنجيليك. - كل إنسان سيلاقي ما كتبه الله على جبينه. ولا مفر منه

ولذا أقول لكم إني راضية عنكم جميعاً: ماما، وعمي أوغستين - أنطوان، وأخوي بون و فيل وأرجنتال، وصوفي، ولاروش، وديستان وغيرهم. اغفروا لي إن أسأت إليكم. وبلغوا الأمر نفسه إلى جولي كالاندرين وآل بولينغبروك وكلودين - ألكسندرين وبيير وجانيت - نيكول. ومن لا أراه بينكم دو إيدي، كان ذهب إلى سانس من أجل وثائق سيلين. ربما لم يعد إلى الآن...

شفالبيه العائد من السفر لم يتوجه إلى بيته بل إلى بيت آل فيريول. دخل الغرفة عارفاً في قلبه ماذا يحدث فيه. ولم تتوقف عيناه على شيء قبل أن يتوجه إلى قائمة سرير عائشة. جثا على ركبتيه وهمس لها وهو يقبل يديها:

- ما الأمر يا عائشة، يا حبي المنير، دون أن تنتظري ابنتنا سيلين وتودعيها... جهزت كل أوراقها وكنت عاقداً العزم على التوجه غداً إلى إنجلترا...

- أنا راضية عنك يا إيدي. انتظري اليوم فحسب لأجمع بينك وبين سيلين الصغيرة. - مدت عائشة الورقة المطوية التي سحبتها من قميصها: - أعطني هذه لابنتنا الصغيرة. أنهي حياتي بهذا. يا ماري - أنجيليك يا ماما، كما أوصيتك، إن كنت تريدني رضائي، شدي ذقني إلى أعلى رأسي بغطاء رقيق... وسجّي يدي إلى جانبي. أنتقل إلى عالم آخر. ثم أنتم ادفنوني كما تشاؤون... أريدك يا إيدي أن تمسك بيدي إلى أن ألفظ روحي.

حين سمعت عائشة الدقات الحزينة لجرس الكنيسة الواقعة على شارع سان - أوغستين كأنها عرفت بانتقال شارلوت - إليزابيت أيسيه دو فيريول الكونتيسة إلى العالم الآخر، قالت دون أن تفتح جفניה: "من أجلي أنا تفرع هذه الأجراس" وغابت إلى الأبد.

خاتمة

هذه قصة حياة ابنة الأمير بولت عائشة شارلوت - إليزابيت أيسيه دو فيريول الكونتيسة. أكتبها إلى قُراء الكتاب دون أن أضيف أو أنقص من أحداث حياتها شيئاً مهماً إلا رأيي، عسى أن يصدّقوني.

ألمني قلبي طوال استغراقي في تأليف الكتاب. وأجهشت بالبكاء، ولكن ما العمل؟ هذه هي ضريبة الكتابة. كان من الممكن أن أكتب أي شيء، كأني خبر يُروى، أو بتعبير آخر: من أطراف أصابعي دون أن أُحرق نفسي في الدم الذي يغلي في عروقي، وأفنيها في التاريخ، لولا أن قلبي يتألم للمآسي التي مر بها قومي. ولكني، وأنا أبينُ صدق ما كتبت، قررت أن أضيف ما جرى لأبطال الرواية الذين كانوا أحياء حين انتهت أحداثها بموت عائشة.

ذهبت إلى كنيسة "روك" التي ذكرتها قبل أن أبحث عن المقبرة التي ترقد فيها عائشة في باريس. وفي أحد الكتب القديمة المحفوظة فيها ما يلي: "دُفنت شارلوت - إليزابيت - أيسيه دو فيريول الكونتيسة في هذه المقبرة. يشهد على هذا بون دو فيل وأرجنتال دو فيريول. 28 آذار عام 1733"

وسأبدأ بأخبار بلير - ماري دو إيدي شفالبيه وسيلين. ضمّ دو إيدي ابنته إليه، وعاشا معاً حتى رباها وزوّجها. ولم يتزوج البتة، ومات عام 1761 عن عمر يناهز الستين عاماً. وتزوجت سيلين عام 1740 من الفيكونت بيير دو جوييروم دو نانتياء، وحين تزوجت ابنتها منه ماري - دونيز حملت الأخيرة اسم الكونتيسة دو بونيفال. أما سيلين دو نالتيا فلا نعرف تاريخ وفاتها.

تأخرت ماري - أنجيليك عن عائشة ثلاث سنوات فماتت عام 1736 قبل أن يلحق بها أوغستين - أنطوان بعام واحد عام 1737 عن عمر يناهز الرابعة والسبعين. ومات بون دو فيل عام 1774 بعدما كتب مسرحيات كثيرة. وأخوه

الأصغر أرجنتال توفي عن 88 عاماً. وقد عمل في قصر الملك سفيراً لدوقية بارميسك، ومستشاراً للدولة في باريس. وبقي في القصة فولتير المعروف في العالم كله، ومونتسكيو وديدرو في أعمالهم.

وتوفيت كلودين - ألكسندرين غيرين دو تانسين التي كان ديدرو يسميها "جميلة مُشينة" عام 1749 بعدما أصبحت كاتبة معروفة. وتوفي بيير غيرين دو تانسين عام 1758 عن 78 عاماً وقد أصبح كاردينالاً عام 1739. وعملت جانيت - نيكول بعدما قطعت علاقتها ببيير دو تانسين، سعيده - تعيסה، معلمة وتوفيت عام 1746. عن 73 عاماً. ودُفنت في المقبرة التي ترقد فيها عائشة. وأقامت صوفي قبل مُضيّ أسبوع على وفاة عائشة في الدير الخاص بالنساء في شارع سان - نيف أوغستين. بعدما عاشت هناك خمسة عشر عاماً تدعو إلى الله من أجل عائشة ومن أجلها انتقلت إلى رحمته.

فارق الدكتور لاروش آل فيريول حين توفيت ماري - أنجيليك، وضمّ إليه إحدى عشيقاته "لولو"، وبعدها عاشا معاً تسعة أعوام ماتا في العام نفسه. وحين أصبحت مهام ديستان ثقيلة عليه عاد إلى قريته مسقط رأسه وعاش فيها ولكن لا أحد يعرف ما جرى له بعدها.

وتوفيت الكونتيسة بارابير منفصلة عن زوجها عن اثنين وستين عاماً عام 1755. وعاشت المركيزة دو ديفان التي كانت تملك الصالون الأدبي - الفلسفي المعروف في باريس كلها، والذي كان يرتاده فولتير ومونتسكيو وديدرو وبون دو فيل وأرجنتال وجولي بولي ثمانية وثمانين عاماً، وتوفيت عام 1780. والورد بولينغبروك غيرين سان - جون (1678 - 1751) عمل في العلاقات الخارجية البريطانية. وكان رئيس حزب "تورييه"، سكرتيراً للدولة عدة سنوات. وكانت زوجته ديشان دو مارسيل ماري - كلير المركيزة (1675 - 1750)

وابنتهما إيزابيل - لويز دو باليا دو باليت (1696 - 1777) عملت مديرة لميتم سانس مخصصة لعملها، وحين توفيت دُفنت حيث كانت تعمل في الدير. وعاشت جولي كالاندرين (1668 - 1754) التي كتبت لها عائشة شارلوت - إيزابيت أيسيه دو فيريول الكونتيسة ستاً وثلاثين رسالة بقيت جزءاً من تراث فرنسا الأدبي الكلاسيكي ستة وثمانين عاماً. وإيريكول - أندريه فريلي الذي كان مخلصاً لعائشة عمل من عام 1726 إلى مماته (1653 - 1743) كاردينالاً أعلى لفرنسا.

والفنانون الذين كانت تحبهم عائشة؟ عاش بارون ميشيل 76 عاماً. وعملت ليمور طويلاً على المسرح. وعاشت أكثر من 82 عاماً. وماتت عام 1786. ولم تعيش بيليس أكثر من 42 عاماً فماتت عام 1749. ولا يزال أمامي ثلاثة أسماء: ابن مادلين وقد أصبحت سعيدة إلى جانبه عاش 78 عاماً. وفخري الذي صار رب أسرة كبيرة عاش 93 عاماً. وأورخان مات في اشتباك مع بوليس تركيا عن 47 عاماً.

لست وحدي من كتب عن عائشة شارلوت - إيزابيت أيسيه الكونتيسة. فقد كُتب عن تاريخ حياتها أو مما يتعلق بها روايات ومسرحيات وأبحاث وأشعار: "أيسيه أو الفتاة الشركسية" بقلم (ج. ج. إ. روا) و"قصة فتاة شركسية"، و"الآنسة أيسيه" بقلم (لوي بوييه). و"أيسيه" بقلم (كامبل بريد) و"الآنسة أيسيه والفراس اللطيف شفالبيه" (كلود فيرفال) و"المصير المدهش للآنسة أيسيه" (جان دو إيفر) "رسائل مدموازيل أيسيه إلى كالاندرين" و"أيسيه رسائل وتاريخ" (آ. ل. أندريه و ب. ر. زابوروف) و"شارلوت - أيشت" (حشبلوقوه عيسى) و"فولتير و الحورية الشركسية" (حشخوج راي) و"أيشيه الحورية

الشركسية (جمعها وكتب المقدمة حفّازة مُجّد) و"أسيرة القفقاس" (سيرغي ماكييف). وفي أزمان مختلفة نُظمت أشعار وأبحاث لجان جاك.

وكتب فيرن، وبون دو سان - فيكتور، وجول سوري، وإدمون بيلون، وإميل اندرو، وأندريه مورايّا، وغيرهم.

وسيقول لي بعضهم: عائشة شارلوت - إليزابيت أيسيه التي كُتِب عنها هذا الكمّ من الكتب، ما الذي شجّعك على أن تكتب عنها أنت أيضاً رواية؟ ولكن حين قرأت هذه الكتب فحسب قال لي قلبي الأديغي أن أكتب عنها. والآن أنتم من سيحكمون عليها، وأنا راضٍ مهما حكمتم عليها.